التفسير والمفسرون

بحث تفصيلي عن نشأة التفسير وتطوره وألوانه ومذاهبه
مع عرض شامل لأشهر المفسرين وتحليل كامل لأهم كتب التفسير
من عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا الحاضر

الدكتور
محمد حسين الذهبي
وزير الأوقاف السابق

الجزء الثاني

دار الحديث
القاهرة

التفسير والمفسرون

اسم الكتـــاب : التفسير والمفسرون

اسم المؤلـــف : د . مصطفى محمد حسين الذهبي

القطـــع : ١٧×٢٤سم

عدد الصفحات : ١٤٣٢ صفحة

عدد المجـلدات : مجلد واحد شاموا

سنة الطبـــع : ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م

رقــم الإيــداع : ١٧٨٥٩ / ٢٠٠٥م

الترقيــم الدولى : ٧- ١٢٣ - ٣٠٠ - ٩٧٧

6 222007 703638

طبـــع . نشـــر . توزيـــع

١٤٠ شارع جوهر القائد أمام جامعة الأزهر تليفون : ٢٥٨٩٩٤٠٩ / ٢٥٩١٨٧١٩ / ٢٥٩١٩٦٩٧ فاكس : ٢٥٩١٩٦٩٧

www.darelhadith.com E-mail: info@darelhadith.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيعة وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

كلمة إجمالية عن الشيعة وعقائدهم:

الشيعة فى الأصل، هم الذين شايعوا عليّا وأهل بيته ووالوهم، وقالوا: إن عليًا هو الإمام بعد رسول الله ﷺ، وإن الخلافة حق له، استحقها بوصية من رسول الله ﷺ، وهى لا تخرج عنه فى حياته، ولا عن أبنائه بعد وفاته، وإن خرجت عنهم فذلك يرجع إلى واحد من أمرين: **أحدهما**: أن يغتصب غاصب ظالم هذا الحق لنفسه، **ثانيهما**: أن يتخلى صاحب الحق عنه فى الظاهر، تقية منه، ودرءًا للشر عن نفسه وعن أتباعه.

وهذا المذهب الشيعى من أقدم المذاهب الإسلامية، وقد كان مبدأ ظهوره فى آخر عهد عثمان رضي الله عنه[1]، ثم نما واتسع على عهد على رضي الله عنه؛ إذ كان كلما اختلط رضي الله عنه بالناس تملكهم العجب، واستولت عليهم الدهشة، مما يظهر لهم من قوة دينه، ومكنون علمه، وعظيم مواهبه، فاستغل الدعاة كل هذا الإعجاب وأخذوا ينشرون مذهبهم بين الناس.

ثم جاء عصر بنى أمية وفيه وقعت المظالم على العلويين ونزلت بهم محن قاسية، أثارت كامن المحبة لهم، وحركت دفين الشفقة عليهم، ورأى الناس فى على وذريته شهداء هذا الظلم الأموى، فاتسع نطاق هذا المذهب الشيعى وكثر أنصاره، ويظهر لنا أن هذا الحب لعلى وأهل بيته، وتفضيلهم على من سواهم، ليس بالأمر الذى جد وحدث بعد عصر الصحابة، بل وجد من الصحابة من كان يحب عليّا ويرى أنه أفضل من سائر الصحابة، وأنه أولى بالخلافة من غيره، كعمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود، وأبى ذر الغفارى، وسلمان الفارسى، وجابر بن عبد الله... وغيرهم كثير.

غير أن هذا الحب والتفضيل لم يمنع أصحابه من مبايعة الخلفاء الذين سبقوا عليّا رضي الله عنه؛ لعلمهم أن الأمر شورى بينهم، وأن صلاح الإسلام والمسلمين لا بد له من شمل متحد وكلمة مجموعة، كما أن الأمر لم يصل بهم إلى القول بالمبدأ الذى تكاد

---

(١) وقيل عند انتخاب الخليفة الأول بعد وفاة رسول الله ﷺ.

تتفق عليه كلمة الشيعة، ويرونه قوام مذهبهم وعقيدتهم وهو «أن الإمامة ليست من مصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة، ويعين القائم بها بتعين، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز للنبى إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر، وأن عليّا رضي الله عنه هو الذى عينه رسول الله ﷺ»(١).

لم يكن الشيعة جميعًا متفقين فى المذهب، والعقيدة، بل تفرقت بهم الأهواء فانقسموا إلى فرق عدة، يرجع أساس اختلافها وانقسامها إلى عاملين قويين، كان لهما كل الأثر تقريبًا فى تعدد فرق الشيعة وتفرق مذاهبهم:

أولهما: اختلافهم فى المبادئ والتعاليم، فمنهم من تغالى فى تشيعه وتطرف فيه إلى حد جعله يلقى على الأئمة نوعًا من التقديس والتعظيم، ويرمى كل من خالف عليّا وحزبه بالكفر، ومنهم من اعتدل فى تشيعه فاعتقد أحقية الأئمة بالإمامة وخطأ من خالفهم، ولكن ليس بالخطأ الذى يصل بصاحبه إلى درجة الكفر.

وثانيهما: الاختلاف فى تعيين الأئمة، وذلك أنهم اتفقوا جميعًا على إمامة على رضي الله عنه، ثم على إمامة ابنه الحسن من بعده، ثم على إمامة الحسين من بعد أخيه، ولما قتل الحسين على عهد يزيد بن معاوية تعددت وجهة نظر الشيعة فيمن يكون الإمام بعد الحسين رضي الله عنه: **ففريق** يرى أن الخلافة بعد قتل الحسين انتقلت إلى أخيه من أبيه، محمد بن على المعروف بابن الحنفية، فبايعوه بها، **وفريق ثان**، يرى حصر الإمامة فى ولد على من فاطمة، وقد أصبحت بعد قتل الحسين حقّا لأولاد الحسن؛ لأنه أكبر إخوته فلا يؤثر غير أولاده، وهم ينتظرون كبرهم ليبايعوا أرشدهم، **وفريق ثالث**، يرى ما يراه الفريق الثانى من حصرها فى ولد على من فاطمة، غاية الأمر أنه يقول: إن الحسن قد تنازل عنها فسقط حتى أولاده فيها، وبقيت الإمامة حقّا لأولاد الحسين الذى قتل من أجلها فهم أولى بالانتظار.

بلغ عدد الفرق التى انقسم إليها الشيعة حدّا كبيرًا من الكثرة، منها من تغالى فى تشيعه وتجاوز بمعتقداته حد العقل والإيمان، ومنها من اعتدل فى تشيعه فلم تبالغ كما بالغ غيرها.

ولست بمستوعب كل هذه الفرق، ولكنى سأقتصر على فرقتين هما: الزيدية،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٨.

والإمامية (الاثنا عشر والإسماعيلية) لأنى لم أعثر على مؤلفات فى التفسير لغير هاتين الفرقتين من فرق الشيعة.

الزيديـــــــة:

أما الزيدية، فهم أتباع زيد بن على بن الحسين ﷺ، طمحت نفسه إلى استرداد الخلافة، فخرج على الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك، ولكن أتباعه خذلوه وتفرقوا عنه فقتل وصلب، ثم أحرق جسده، وقد ورد فى سبب تفرق أصحابه عنه وخذلانهم له «أنه لما اشتد القتال بينه وبين يوسف بن عمر الثقفى، عامل هشام بن عبد الملك، قال الذين بايعوه: ما تقول فى أبى بكر وعمر؟ فقال زيد: أثنى عليهما جدى على، وقال فيها حسنًا، وإنما خروجى على بنى أمية؛ فإنهم قاتلوا جدى عليّا، وقتلوا جدى حسينًا، فخرجوا عليه ورفضوه، فسموا رافضة بذلك السبب»(١).

والزيدية أقرب فرق الشيعة إلى الجماعة الإسلامية، إذ أنها لم تغل فى معتقداتها، ولم يكفر الأكثرون منها أصحاب رسول الله ﷺ، ولم ترفع الأئمة إلى مرتبة الإله أو إلى درجة النبيين.

قوام مذهب الزيدية:

وقوام مذهب زيد وأتباعه إلى ما قبل طرو التغير عليه والتفرق بين أصحابه، هو ما يأتى:

١- أن الإمام منصوص عليه بالوصف لا بالاسم، وهذه الأوصاف هى: كونه فاطميّا، ورعًا، سخيّا، يخرج داعيًا الناس لنفسه.

٢- أنه يجوز إمامة المفضول مع وجود من هو أفضل منه بتوفر هذه الصفات فيه.

وبنوا على هذا أنه لو وقع اختيار أولى الحل والعقد على إمام لم تتوفر فيه هذه الصفات مع وجود من تتوفر فيه صحت إمامته، ولزمت بيعته؛ ولهذا قالوا بصحة إمامة أبى بكر وعمر ﷺ، وعدم تكفير الصحابة ببيعتهما.

ولقد كان من مذهب الزيدية جواز خروج إمامين فى قطرين مختلفين لا فى قطر واحد، كما كان من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة إذا لم يتب فهو مخلد فى النار، وهذا هو عين مذهب المعتزلة، ويظهر أن هذه العقيدة تسربت من المعتزلة إلى الزيدية فقالوا

---

(١) التبصير فى الدين ص ١٨.

بها كما قالوا بكثير من مبادئهم، والسر فى ذلك هو أن زيدًا رحمه الله تتلمذ لواصل بن عطاء، فأخذ عنه آراءه الاعتزالية وقال بها(١).

غير أن الزيدية لم يدوموا على وحدتهم المذهبية زمنًا طويلاً، بل تفرقوا واختلفت عقائدهم، وقد ذكر لنا صاحب المواقف أنهم تفرقوا إلى ثلاث فرق، وذكر لكل فرقة خصائصها ومميزاتها وعقائدها(٢)، ولا نطيل بذكر ذلك، ومن أراد الوقوف عليه فليرجع إليه فى موضعه.

الإمامية(٣):

أما الإمامية فهم القائلون بأن النبى ﷺ نص على إمامة على رضي الله عنه نصّا ظاهرًا، لا بطريق التعريض بالوصف كما يقول الزيدية، كما أنهم يحصرون الإمامة بعد على فى ولده من فاطمة رضي الله عنها.

وأصحاب هذا المذهب قد بالغوا فى تشيعهم، وتعدوا حدود العقل والشرع، فكفَّروا الكثير من الصحابة، واعتبروا أبا بكر وعمر مغتصبين للخلافة ظالمين لعلى رضي الله عنه، فأوجبوا التبرؤ منهما، ولم يسلم من هذا التطرف إلا نفر قليل، كالعلامة الطبرسى صاحب التفسير.

وقد اتفق الإمامية على إمامة على رضي الله عنه، ثم انتقلت الإمامة إلى ابنه الحسن بالوصية له من أبيه، ثم إلى أخيه الحسين من بعده، ثم إلى ابنه على زين العابدين، ثم إلى ابنه محمد الباقر، ثم إلى ابنه جعفر الصادق، ثم اختلفوا بعد ذلك فى سوق الإمامة وانقسموا إلى فرق عدة أشهرها فرقتان: الإمامية الاثنا عشرية والإمامية الإسماعيلية.

الإمامية الاثنا عشرية:

أما الإمامية الاثنا عشرية، فيرون أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه موسى الكاظم، ثم إلى ابنه على الرضا، ثم إلى ابنه محمد الجواد، ثم إلى ابنه على الهادى، ثم إلى ابنه الحسن العسكرى، ثم إلى ابنه محمد المهدى المنتظر وهو الإمام الثانى عشر، ويزعمون أنه دخل سردابًا فى دار أبيه بـ «سر من رأى» ولم يعد بعد، وأنه سيخرج فى آخر الزمان، ليملأ الدنيا عدلا وأمنًا، كما ملئت ظلمًا وخوفًا.

وهؤلاء قد جاوزوا الحد فى تقديسهم للأئمة، فزعموا: أن الإمام له صلة روحية

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى (٢/ ٢٠٨). (٢) المواقف (٨/ ١٠).

(٣) **الإمامية**: نسبة إلى الإمام لأنهم أكثروا من الاهتمام به، وركزوا كثيرًا من تعاليمهم حوله.

بالله كصلة الأنبياء، وقالوا: إن الإيمان بالإمام جزء من الإيمان بالله، وأن من مات غير معتقد بالإمام فهو ميت على الكفر، وغير ذلك من اعتقاداتهم الباطلة فى الأئمة.

أشهر تعاليم الإمامية الاثنى عشرية:

وأشهر تعاليم الإمامية الاثنى عشرية أمور أربعة: العصمة والمهدية والرجعة والتقية.

أما العصمة: فيقصدون منها أن الأئمة معصومون من الصغائر والكبائر فى كل حياتهم، ولا يجوز عليهم شيء من الخطأ والنسيان.

وأما المهدية: فيقصدون منها الإمام المنتظر الذى يخرج فى آخر الزمان فيملأ الأرض أمنًا وعدلاً، بعد أن ملئت خوفًا وجورًا، وأول من قال بهذا هو كيسان مولى على بن أبى طالب فى محمد ابن الحنفية، ثم تسربت إلى طوائف الإمامية، فكان لكل منها مهدى منتظر(١).

وأما الرجعة: فهى عقيدة لازمة لفكرة المهدية، ومعناها: أنه بعد ظهور المهدى المنتظر، يرجع النبى ﷺ إلى الدنيا، ويرجع على، والحسن، والحسين، بل وكل الأئمة، كما يرجع خصومهم، كأبى بكر وعمر، فيقتص لهؤلاء الأئمة من خصومهم، ثم يموتون جميعًا، ثم يحيون يوم القيامة.

وأما التقية: فمعناها المداراة والمصانعة، وهى مبدأ أساسى عندهم، وجزء من الدين يكتمونه عن الناس، فهى نظام سرى يسيرون على تعاليمه، فيدعون فى الخفاء لإمامهم المختفى ويظهرون الطاعة لمن بيده الأمر، فإذا قويت شوكتهم أعلنوها ثورة مسلحة فى وجه الدولة القائمة الظالمة.

هذه هى أهم تعاليم الإمامية الاثنا عشرية، وهم يستدلون على كل ما يقولون ويعتقدون بأدلة كثيرة، غير أنها لا تسلم لهم، ولا تثبت مدعاهم، ونحن نمسك عنها وعن ردها خوف الإطالة، وسيمر بك - إن شاء الله تعالى - شيء من ذلك.

(١) وردت بعض الأحاديث فى شأن المهدى، رواها الترمذى وأبو داود وابن ماجه وغيرهم، كقوله ﷺ: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم، لطوَّل الله ذلك حتى يبعث فيه رجلا منى أو من أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى، واسم أبيه اسم أبى» ومثل قوله: «لو لم يبق إلا يوم، لبعث الله رجلا من أهل بيتى يملؤها عدلا كما ملئت جورًا» وقد وقع بين المسلمين خلاف فى شأن المهدى هذا، فمنهم من يقول به، ومنهم من ينكره، ولكن لم نر من المسلمين من ذهب مذهب الإمامية فى تعيين المهدى ودعواهم أنه الإمام الثانى عشر الذى اختفى حيا وسيعود فى آخر الزمان.

الإمامية الإسماعيلية:

وأما الإمامية الإسماعيلية، فيرون أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه إسماعيل، بالنص من أبيه على ذلك، قالوا: وفائدة النص مع أنه مات قبل أبيه هو بقاء الإمامة فى عقبه، ثم انتقلت الإمامة من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم، وهو أول الأئمة المستورين، وبعده تتابع أئمة مستورون إلى أن ظهر بالدعوة الإمام عبد الله المهدى رأس الفاطميين.

ثم إن هؤلاء الإمامية الإسماعيلية لقبوا بسبعة ألقاب، وبعض هذه الألقاب أسماء لبعض فرقهم، وهذه الألقاب هى ما يأتى:

١- **الإسماعيلية:** لإثباتهم الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق كما قلناه.

٢- **الباطنية:** لقولهم بالإمام الباطن أى المستور، أو لقولهم بأن للقرآن ظاهرًا وباطنًا، والمراد منه باطنه دون ظاهره.

٣- **القرامطة:** لأن أولهم الذى دعا الناس إلى مذهبهم رجل يقال له: حمدان قرمط[١].

٤- **الحرمية:** لإباحتهم المحرمات والمحارم.

٥- **السبعية:** لأنهم زعموا أن النطقاء بالشرائع سبعة: آدم ونوح وإبراهيم وموسى، وعيسى، ومحمد، ومحمد المهدى المنتظر سابع النطقاء، وبين كل اثنين من النطقاء سبعة أئمة يتممون شريعته، ولا بد فى كل عصر من سبعة بهم يقتدى وبهم يهتدى.

٦- **البابكية أو الخرمية:** لأتباع طائفة منهم بابك الخرمى الذى خرج بأذربيجان.

٧- **المحمرة:** للبسهم الحمرة أيام بابك، أو لتسميتهم المخالفين لهم حميراً[٢].

هذا وسيأتى بعد ما يكشف لنا عن عقيدة هؤلاء الباطنية، عندما نتكلم عن موقفهم من تفسير القرآن الكريم.

وقبل أن أخلص من هذه العجالة أسوق لك كلمة أنقلها بنصها عن أبى المظفر الإسفرايني فى كتابه (التبصير فى الدين) قال رحمه الله:

«واعلم أن الزيدية والإمامية منهم، يكفر بعضهم بعضًا، والعداوة بينهم قائمة دائمة، والكيسانية يعدون فى الإمامية، واعلم أن جميع من ذكرناهم من فرق الإمامية

---

(١) **قرمط:** قرية من قرى واسط أو نسبة لقرمطة فى خطوه ـ وقيل فى خطه ـ وقرمطة الخطا تتابعها.

(٢) المواقف (٨/ ٣٨٨، ٣٨٩).

متفقون على تكفير الصحابة، ويدعون أن القرآن قد غُيِّرَ عما كان ووقع فيه الزيادة والنقصان من قبل الصحابة، ويزعمون أنه قد كان فيه النص على إمامة على فأسقطه الصحابة منه، ويزعمون أنه لا اعتماد على القرآن الآن ولا على شيء من الأخبار المروية عن المصطفى ﷺ، ويزعمون أنه لا اعتماد على الشريعة التى فى أيدى المسلمين، وينتظرون إمامًا يسمونه «المهدى» يخرج ويعلمهم الشريعة، وليسوا على شيء من الدين وليس مقصودهم من هذا الكلام تحقيق الكلام فى الإمامة، ولكن مقصودهم إسقاط كلفة تكليف الشريعة عن أنفسهم حتى يتوسعوا فى استحلال المحرمات الشرعية، ويعتذروا عند العوام بما يعدونه من تحريف الشريعة وتغيير القرآن من عند الصحابة، ولا مزيد على هذا النوع من الكفر، إذ لا بقاء فيه على شيء من الدين»(١).

موقف الشيعة من تفسير القرآن الكريم

إذا نحن أجلنا النظر فى مذهب الشيعة، وجدنا أصحابه لم يسلموا من التفرق والتحزب والانقسام فى الرأى والعقيدة، فبينا نجد الغلاة الذين رفعوا عليًّا إلى مرتبة الآلهة فكفروا، نجد المعتدلين الذين يرون عليًّا أفضل من غيره من الصحابة، وأنه أحق بالولاية وأولى بها من غيره فحسب؛ ونجد من يقف موقفًا وسطًا بين هؤلاء وهؤلاء، فلا هو يؤلّه عليًّا، ولا هو يرى أنه بشر يخطئ ويصيب، بل يرى أنه معصوم، وأنه الخليفة بعد رسول الله ﷺ غير منازع ولا مدافع وإن غلب على أمره واغتصبت الولاية منه.

ولم يقف أمر الشيعة عند حد الانقسام إلى حزبين أو ثلاثة، بل تفرقت بهم الأهواء ـ كما قلنا ـ إلى حد الكثرة فى التحزب، وكان كل حزب له عقيدة خاصة لا يشاركه فيها غيره، ورأى خاص لا يقول به سواه.

وكان طبيعيًّا ـ وكل حزب من هذه الأحزاب يدعى الإسلام، ويعترف بالقرآن ولو فى الجملة ـ أن يبحث كل عن مستند يستند إليه من القرآن ويحرص كل الحرص على أن يكون القرآن شاهدًا له لا عليه، فما وجده من الآيات القرآنية يمكن أن يكون دليلاً على مذهبه تمسك به، وأخذ فى إقامة مذهبه على دعامة منه، وما وجده مخالفًا لمذهبه حاول بكل ما يستطيع أن يجعله موافقًا لا مخالفًا، وإن أدى هذا كله إلى خروج اللفظ القرآنى عن معناه الذى وضع له وسيق من أجله، وإليك طرفًا من تأويلات هؤلاء الغلاة:

---

(١) التبصير فى الدين ص ٢٤، ٢٥، وقد تقدم أن هذا التطرف قد شذ عنه نفر قليل من الإمامية.

من تأويلات السبئية[١]:

فمثلاً نجد بعض السبئية يزعم أن عليّا فى السحاب، وعلى هذا يفسرون الرعد بأنه صوت علىٍّ، والبرق بأنه لمعان سوطه أو تبسمه، ولهذا كان الواحد منهم إذا سمع صوت الرعد يقول: عليك السلام يا أمير المؤمنين.

كذلك نجد زعيم السبئية يزعم أن محمدًا ﷺ سيرجع إلى الحياة الدنيا، وتأول على ذلك قوله تعالى فى الآية (٨٥) من سورة القصص: ﴿**إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ**﴾[٢].

من تأويلات البيانية:

كذلك نجد بيان بن سمعان التيمى زعيم البيانية[٣]، يزعم أنه هو المذكور فى القرآن بقوله تعالى فى الآية (١٣٨) من سورة آل عمران: ﴿**هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ ويقول: أنا البيان، وأنا الهدى والموعظة.

كما نراه يزعم أن الله تعالى رجل من نور، وأنه يفنى كله غير وجهه، ويتأول على زعمه هذا قوله تعالى فى الآية (٨٨) من سورة القصص ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾ وقوله فى الآيتين (٢٦، ٢٧) من سورة الرحمن ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ**﴾[٤].

من تأويلات المغيرية:

كذلك نجد المغيرة بن سعيد العجلى زعيم المغيرية[٥] يقول: إن الله تعالى لما أراد أن يخلق العالم تكلم بالاسم الأعظم، فطار ذلك الاسم ووقع تاجًا على رأسه،

---

(١) **السبئية** هم أتباع عبد الله بن سبأ اليهودى الذى تظاهر بالإسلام وغلا فى حب علىٍّ حتى جعله نبيا، ثم بالغ فى الغلو حتى جعله إلها، وزعم أنه لم يقتل ولكنه رفع إلى السماء.

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٢٤، وتاريخ الجدل لأبى زهرة ص ١٢٨.

(٣) **البيانية** هم أتباع بيان بن سمعان التميمى، وهم الذين زعموا أن الإمامة صارت من محمد ابن الحنفية إلى ابنه أبى هاشم عبد الله بن محمد، ثم صارت من أبى هاشم إلى بيان بن سمعان بوصيته إليه، واختلف هؤلاء فى بيان زعيمهم، فمنهم من زعم أنه كان نبيا، وأنه نسخ شريعة محمد ﷺ، ومنهم من زعم أنه كان إلها. (الفرق بين الفرق ص ٢٢٧).

(٤) الفرق بين الفرق ص ٢٢٧، ٢٢٨.

(٥) **المغيرية** هم أتباع المغيرة بن سعيد العجلى، وكان يظهر فى بدء أمره موالاة الإمامية ثم ادعى النبوة، وادعى أنه يعرف الاسم الأعظم، وزعم أنه يحيى به الموتى ويهزم الجيوش. (الفرق بين الفرق ص ٢٢٩).

وتأول على ذلك قوله تعالى فى الآية (١) من سورة الأعلى ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ﴾، وزعم أن الاسم الأعلى إنما هو ذلك التاج[(١)].

ويزعم المغيرة أيضًا، أن الله تعالى خلق أظلال الناس قبل أجسادهم، فكان أول ما خلق منها ظل محمد ﷺ، قال: فذلك قوله فى الآية (٨١) من سورة الزخرف ﴿ **قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ** ﴾ قال: ثم أرسل ظل محمد إلى أظلال الناس، ثم عرض على السموات والجبال أن يمنعن على بن أبى طالب ن ظالميه فأبين ذلك، فعرض ذلك على الناس، فأمر عمر أبا بكر أن يتحمل نصرة على ومنعه من أعدائه، وأن يغدر به فى الدنيا، وضمن له أن يعينه على الغدر به، على شريطة أن يجعل له الخلافة من بعده، ففعل أبو بكر ذلك، قال: فذلك تأويل قوله فى الآية (٧٢) من سورة الأحزاب ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** ﴾ فزعم أن الظلوم والجهول أبو بكر.

وتأول فى عمر قوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة الحشر: ﴿ **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ...** ﴾ والشيطان عنده عمر[(٢)].

من تأويلات المنصورية:

وكذلك نجد أبا منصور العجلى زعيم المنصورية[(٣)] والمعروف بالكسف، يزعم أنه عرج به إلى السماء، وأن الله تعالى مسح بيده على رأسه وقال له: يا بنى بلغ عنى، ثم أنزله إلى الأرض، وزعم أنه الكسف الساقط من السماء المذكور فى قوله تعالى فى الآية (٤٤) من سورة الطور: ﴿ **وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ** ﴾[(٤)].

وتأولت هذه الطائفة الجنة بأنها رجل أمرنا بموالاته وهو الإمام، والنار بالضد، أى رجل أمرنا ببغضه وهو ضد الإمام وخصمه كأبى بكر وعمر، وتأولوا الفرائض والمحرمات فقالوا: الفرائض أسماء رجال أمرنا بموالاتهم، والمحرمات أسماء رجال أمرنا بمعاداتهم[(٥)].

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٢٩.
(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٣٠، ٢٣١.
(٣) **المنصورية** هم أتباع أبى منصور العجلى، الملقب بالكسف، الذى زعم أن الإمامية دارت فى أولاد على حتى انتهت إلى أبى جعفر محمد بن على بن الحسين بن على المعروف بالباقر، وادعى هذا العجلى: أنه خليفة الباقر ثم ألحد فى دعواه فزعم ما نقلناه عنه بالأصل. (الفرق بين الفرق ص ٢٣٤).
(٤) الفرق بين الفرق ص ٢٣٤.
(٥) المواقف (٨/ ٣٨٦).

من تأويلات الخطابية:

كذلك نجد من الخطابية[١] من يتأول الجنة بأنها نعيم الدنيا، والنار بأنها آلامها[٢].

ووجدنا منهم من يقول إنه لا مؤمن إلا والله تعالى يوحى إليه، وعلى هذا المعنى كانوا يتأولون قوله تعالى فى الآية (١٤٥) من سورة آل عمران: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾ ويقولون: إن معناه بوحى من الله، ويقولون: إذا جاز أن يوحى إلى النحل كما ورد فى قوله تعالى فى الآية (٦٨) من سورة النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ لم لا يجوز أن يوحى إلينا[٣]؟!.

من تأويلات العبيديين:

كذلك نجد أبا إسحاق الشاطبى يذكر لنا عن بعض العلماء: أن عبيد الله الشيعى المسمى بالمهدى، حين ملك إفريقية واستولى عليها، كان له صاحبان من كتامة ينتصر بهما على أمره، وكان أحدهما يسمى بنصر الله، والآخر يسمى بالفتح، فكان يقول لهما: أنتما اللذان ذكركما الله فى كتابه فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر: ١)، قالوا: وقد كان عمل ذلك فى آيات من كتاب الله تعالى، فبدل قوله تعالى فى الآية (١١٠) من سورة آل عمران: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ بقوله: (كتامة خير أمة أخرجت للناس)[٤].

فأنت ترى أن هؤلاء الغلاة الذين كفروا بما يعتقدون، يجدون فى صرف اللفظ القرآنى عن معناه الذى سيق له إلى معنى يتفق مع عقيدتهم ويتناسب مع أهوائهم ونزعاتهم، وهم بعملهم هذا يحملون القرآن ما لا يحتمله، ويقولون على الله بغير علم ولا برهان.

---

(١) **الخطابية** أتباع أبى الخطاب الأسدى، وهم خمس فرق، يقولون إن الإمامة كانت فى أولاد على إلى أن انتهت إلى محمد (الحبيب آخر الأئمة المستورين) ابن جعفر الصادق ويقولون: إن الأئمة كانوا آلهة، وكان أبو الخطاب يقول فى أيامه: إن أولاد الحس والحسين كانوا أبناء الله وأحباءه، وكان يقول: إن جعفرًا إله، فلما بلغ ذلك جعفر لعنه وطرده، وكان أبو الخطاب يدعى بعد ذلك الألوهية. (التبصير فى الدين ص ٧٣، ٧٤).

(٢) المواقف (٨/ ٣٨٦). (٣) التبصير فى الدين ص ٧٤. (٤) الموافقات (٣/ ٣٩٢).

كذلك نجد الإمامية الاثنا عشرية يميلون بالقرآن نحو عقائدهم، ويلوونه حسب أهوائهم ومذاهبهم، وهؤلاء ليس لهم فى تفسيرهم المذهبى مستند صحيح يستندون إليه، ولا دليل سليم يعتمدون عليه، وإنما هى أوهام نشأت عن سلطان العقيدة الزائفة، وخرافات صدرت من عقول عشش فيها الباطل وأفرخ، فكان ما كان من خرافات وترهات!!.

نعم يعتمد الإمامية الاثنا عشرية فى تفسيرهم للقرآن الكريم ونظراتهم إليه، على أشياء لا تعدو أن تكون من قبيل الأوهام والخرافات التى لا توجد إلا فى عقول أصحابها، فمن ذلك الذى يعتمدون عليه ما يأتى:

أولاً: جمع القران الكريم وتأويله، وهو كتاب جمع فيه على ﷺ القرآن على ترتيب النزول(١).

ثانيًا: كتاب أملى فيه أمير المؤمنين عليه السلام ستين نوعًا من أنواع علوم القرآن، وذكر لكل نوع مثالاً يخصه، ويعتقدون أنه الأصل لكل من كتب فى أنواع علوم القرآن، وهم يروون عن على ﷺ هذا الكتاب بطرق عدة، وهو فى أيديهم إلى اليوم، ويبلغ ثلاث عشرة ورقة إلا ربعًا بالقطع الكبير الكامل، كل صفحة منها سبعة وعشرون سطرًا(٢).

ثالثًا: الجامعة وهى كتاب طوله سبعون ذراعًا من إملاء رسول الله ﷺ وخط على عليه السلام، مكتوب على الجلد المسمى بالرق فى عرض الجلد، جمعت الجلود بعضها ببعض حتى بلغ طولها سبعين ذراعًا، وعدوها من مؤلفات على باعتبار أنه كتبها ورتبها من قول رسول الله ﷺ وإملائه، قالوا: وفيه كل حلال وحرام، وكل شىء يحتاج الناس إليه حتى الأرش فى الخدش(٣).

رابعًا: الجفر، وهو غير الجامعة وفيه يقول ابن خلدون: «واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعد العجلى، وهو رأس الزيدية، كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم، ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص، وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم، على طريق الكرامة والكشف

(١) أعيان الشيعة (١/ ١٥٤).
(٢) المرجع السابق (١/ ١٥٤، ١٥٥).
(٣) المرجع السابق (١/ ١٦٦ - ١٦٨).

الذى يقع لمثلهم من الأولياء، وكان مكتوبًا عند جعفر فى جلد ثور صغير، فرواه عنه هارون العجلى، وكتبه، وسماه: «الجفر» باسم الجلد الذى كتب فيه(١)؛ لأن الجفر فى اللغة هو الصغير، وصار هذا الاسم علمًا على هذا الكتاب عندهم، وكان فيه تفسير القرآن وما فى باطنه من غرائب المعانى، مروية عن جعفر الصادق، وهذا الكتاب لم تتصل روايته، ولا عرف عينه، وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل، ولو صح السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه، أو من رجال قومه؛ فهم أهل الكرامات. . . »(٢).

ويعرف صاحب أعيان الشيعة الجفر بأنه كتاب أملاه رسول الله ﷺ على علىٍّ ﷺ، ويذكر فى ذلك أقوالاً متضاربة ثم يقول بعد فراغه منها: «الظاهر من الأخبار أن الجفر كتاب فيه العلوم النبوية من حلال، وحرام، وأحكام، وأصول ما يحتاج إليه الناس فى أحكام دينهم وما يصلحهم فى دنياهم، والإخبار عن بعض الحوادث، ويمكن أن يكون فيه تفسير بعض المتشابه من القرآن المجيد»(٣) ثم ينكر على من يستبعد أن يكون الجفر فيه كل هذه العلوم، ويتمثل بقول أبى العلاء المعرى:

لقد عجبوا لأهل البيت لما أروهم علمهم فى مسك جفر
ومرآة المنجم وهى صغرى أرته كل عامرة وقفر(٤)

خامسًا: مصحف فاطمة، جاء فى البصائر: «أن أبا عبد الله سأله بعض الأصحاب عن مصحف فاطمة، فقال: إنكم تبحثون عما تريدون وعما لا تريدون، إن فاطمة مكثت بعد رسول الله ﷺ خمسة وسبعين يومًا، وقد كان دخلها حزن شديد على أبيها، وكان جبريل يأتيها ويحسن عزاءها على أبيها، ويطيب نفسها، ويخبرها عن أبيها ومكانه، ويخبرها بما يكون بعدها فى ذريتها، وكان علىٌّ عليه السلام يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة»(٥).

هذه هى أهم الأشياء التى يستند إليها الإمامية الاثنا عشرية فى تفسيرهم لكتاب الله تعالى، وهى كلها أوهام وأباطيل لا ثبوت لها إلا فى عقول الشيعة. . . وكيف يكون

---

(١) المعروف من كتب اللغة أن الجعفر ذكر الماعز إذا بلغ أربعة أشهر، وفى القاموس: الجفر من أولاد الشاء ما عظم واستكرش.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٣.

(٣) أعيان الشيعة (١/ ١٨٢).

(٤) المرجع السابق (١/ ١٨٤).

(٥) المرجع السابق (١/ ١٨٨).

سائغًا ومقبولا أن ينبنى تفسير القرآن وفهم معانيه على أوهام وأباطيل؟! لهذا نرى العلامة ابن قتيبة يشدد النكير على الشيعة فى تفسيرهم لكتاب الله تعالى فيقول:

«وأعجب من هذا التفسير ـ يعنى تفسير المعتزلة ـ تفسير الروافض للقرآن، وما يدعونه من علم باطنه بما وقع إليهم من الجفر الذى ذكره هارون بن سعد العجلى، وكان رأس الزيدية فقال:

ألم تر أن الرافضين تفرقوا ... فكلهم فى جعفر قال منكرا
فطائفة قالوا: إمام، ومنهم ... طوائف سمته النبى المطهرا
ومن عجب لم أقضه جلد جفرهم ... برئتَ إلى الرحمن ممن تجفرا
برئت إلى الرحمن من كل رافض ... بصير بباب الكفر فى الدين أعورا
إذا كف أهل الحق عن بدعة مضى ... عليها وإن يمضوا على الحق قصرا
ولو قال: إن الفيل ضب لصدقوا ... ولو قال: زنجى تحول أحمرا
وأخلف من بول البعير فإنه ... إذا هو للإقبال وُجّه أدبرا
فقبح أقوام رموه بفرية ... كما قال فى عيسى الفرَى من تنصرا»(١)

قال أبو محمد: وهو جلد جفر ادعوا أنه كتب فيه لهم الإمام كل ما يحتاجون إلى علمه، وكل ما يكون إلى يوم القيامة، فمن ذلك قولهم فى قول الله عز وجل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ (النمل: ١٦) إنه الإمام، وورث النبى ﷺ علمه، وقولهم فى قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ (البقرة: ٦٧) إنها عائشة رضي الله عنها، وفى

(١) هذا الذى ذكره ابن قتيبة عن هرون بن سعد العجلى، يناقض ما تقدم عن ابن خلدون من أن الجفر كان عند هرون بن سعد العجلى، وهو يرويه عن جعفر الصادق، ويمكن دفع هذا التناقض بأن نقول: إن هرون بن سعد العجلى، وكان رافضيًا مغاليًا أول أمره، وكان يروى هذا الجفر ويصدق به ثم رجع عن مذهبه وغلوه وتصديقه بالجفر، وقال مقالته التى رواها ابن قتيبة بعد توبته، وهذا الذى ذهبنا إليه اعتمدنا فيه على ما جاء فى تهذيب التهذيب عند الكلام عن هرون بن سعد العجلى جـ١١ ص ٦ وخلاصته: أن هرون بن سعد العجلى، ويقال: الجعفى الكوفى الأعور، قال أحمد: روى عنه الناس، وهو صالح، وروى عن ابن معين أنه قال: ليس به بأس، وذكره ابن حبان فى الثقات وذكره أيضًا فى الضعفاء قال: وكان غاليًا فى الرفض لا تحل عنه الرواية بحال، وروى عن ابن معين أيضًا أنه قال: كان من غلاة الشيعة، وقال الساجى: كان يغلو فى الرفض، وحكى أبو العرب الصقلى عن ابن قتيبة أنه أنشد له شعرًا يدل على نزوعه عن الرفض. انتهى. ملخصًا، ونزع عن الرفض معناه: رجع عنه، يقال: نزع عن الأمر إذا انتهى عنه وأباه، كما أفاده صاحب القاموس وغيره.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ (البقرة: ٧٣) إنه طلحة والزبير، وقولهم فى الخمر والميسر: إنهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، والجبت والطاغوت: إنهما معاوية وعمرو بن العاص... مع عجائب أرغب عن ذكرها، ويرغب من بلغه كتابنا هذا عن استماعها، وكان بعض أهل الأدب يقول: ما أشبه تفسير الرافضة للقرآن إلا بتأويل رجل من أهل مكة للشعر فإنه قال ذات يوم: ما سمعت بأكذب من بنى تميم زعموا أن قول القائل:

بيت زرارة محتب بفنائه ومجاشع، وأبو الفوارس نهشل

أنه فى رجال منهم... قيل له: فما تقول أنت فيهم؟ قال: البيت: بيت الله، وزرارة: الحجر، قيل: فمجاشع؟ قال: رمز... جشعت بالماء، قيل: فأبو الفوارس؟ قال: أبو قيس، قيل له: فنهشل؟ قال نهشل... أشده، وفكر ساعة ثم قال: نهشل: مصباح الكعبة؛ لأنه طويل أسود، فذلك نهشل.

وهم أكثر أهل البدع افتراقًا ونحلاً، فمنهم قوم يقال لهم البيانية، ينسبون إلى رجل يقال له بيان، قال لهم: إلىَّ أشار الله تعالى إذ قال: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٨).

وهم أول من قال بخلق القرآن، ومنهم المنصورية، أصحاب أبى منصور الكسف وكان قال لأصحابه: فىَّ نزول قوله ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ (الطور: ٤٤)، ومنهم الخناقون والشداخون، ومنهم الغرابية، وهم الذين ذكروا أن عليًا رضي الله عنه كان أشبه بالنبى صلى الله عليه وسلم من الغراب بالغراب، فغلط جبريل عليه السلام حيث بعث إلى على لشبهه به.

قال أبو محمد: ولا نعلم فى أهل البدع والأهواء أحد ادعى الربوبية لبشر غيرهم؛ فإن عبد الله بن سبأ، ادعى الربوبية لعلىٍّ، فأحرق علىٌّ أصحابه بالنار، وقال فى ذلك:

لما رأيت الأمر أمرًا منكرا أجججت نارى ودعوت قنبرا[(١)]

ولا نعلم أحدًا ادعى النبوة لنفسه غيرهم؛ فإن المختار بن أبى عبيد ادعى النبوة لنفسه، وقال: «إن جبريل وميكائيل يأتيان إلى جهته، فصدقه قوم واتبعوه، وهم الكيسانية»[(٢)].

وهذا لا يفوتنا أن نقول: إن هذه الطوائف من الشيعة قد باد معظمها، وأشهر ما

(١) قنبر هو مولى على الذى تولى طرحهم فى النار.
(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٨٤ - ٨٨.

بقى منها إلى اليوم ثلاث فرق، هى: الإمامية الاثنا عشرية، والإمامية الإسماعيلية ـ وهم المسمون بالباطنية ـ والزيدية.

أما الإمامية الاثنا عشرية، فينتشرون اليوم فى بلاد إيران، وبلاد العراق كما يوجد منهم جماعة بالشام.

وأما الإسماعيلية، فينتشرون فى بلاد الهند؛ كما يوجدون فى نواح أخرى متفرقة، وزعيمهم أغاخان الزعيم الهندى الإسماعيلى المعروف(١).

وأما الزيدية فيوجدون ببلاد اليمن.

إذًا فالأجدر بنا أن نمسك عن موقف هذه الفرق البائدة من تفسير القرآن، ما دامت قد بادت ولم يبق لها أثر، وما دمنا لم نقف لها على شىء فى التفسير أكثر من هذه النبذ المتفرقة التى وجدناها للبعض منهم وجمعناها من بطون الكتب المختلفة.

والذى يستحق عنايتنا وبحثنا بعد ذلك، هو تلك الفرق الثلاث التى لا تزال موجودة إلى اليوم محتفظة بتعاليمها وآرائها.

وسنبدأ أولاً بالإمامية الاثنى عشرية، ثم بالإمامية الإسماعيلية، ثم الزيدية، فنقول وبالله التوفيق:

١- موقف الإمامية الاثنى عشرية من تفسير القرآن الكريم

للإمامية الاثنى عشرية معتقدات يدينون بها، وينفردون بها عمن عداهم من طوائف الشيعة، وهم حين يعتقدون هذه المعتقدات لا بد لهم ـ ما داموا يقرون بالإسلام ويعترفون بالقرآن ولو بوجه ما ـ أن يقيموا هذه العقائد على دعائم من نصوص القرآن الكريم، وأن يدافعوا عنها بكل ما يمكنهم من سلاح الجدل وقوة الدليل.

موقفهم من الأئمة وأثر ذلك فى تفسيرهم:

وإذا نحن استعرضنا هذه المعتقدات وجدنا أن أهمها يدور حول أئمتهم، فهم يُلقون على الأئمة نوعًا من التقديس والتعظيم، ويرون أن الأئمة «أركان الأرض أن تميد بأهلها، وحجة الله البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى»(٢)، ويرون أن الإمامة «زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعز المؤمنين»(٣).

---

(١) وهو من نسل الحسن بن الصباح صاحب قلعة الموت، والحسن هذا من نسل على بن أبى طالب. ضحى الإسلام (٣/ ٢٢٥).

(٢) ضحى الإسلام (٣/ ٢١٥) نقلا عن أصول الكافى ص ٩٣.

(٣) المرجع السابق.

ولما كان الإمام عندهم فوق أن يحكم عليه، وفوق الناس فى طينته وتصرفاته، فإنا نراهم يعتقدون بأن له صلة روحية بالله تعالى كتلك الصلة التى للأنبياء والرسل، وأنه مشرع ومنفذ، وأن الله قد فوض النبى والإمام فى الدين، ويروون عن الصادق أنه قال: «(إن الله خلق نبيه على أحسن أدب وأرشد عقل، ثم أدب نبيه فأحسن تأديبه فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩) ثم أثنى الله عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) ثم بعد ذلك فوض إليه دينه، فوض إليه التشريع فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (الحشر: ٧) و ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠) الله فوض دينه إلى نبيه، ثم إن نبى الله فوض كل ذلك إلى على وأولاده سلمتم وجحده الناس، فوالله لنحبكم أن تقولوا إذا قلنا وأن تصمتوا إذا صمتنا، ونحن فيما بينكم وبين الله، وما جعل الله لأحد خيرًا فى خلاف أمرنا»[(١)].

وحيث إن الله تعالى خلق النبى وكل إمام بعده على أحسن أدب وأرشد عقل، فلا يختار النبى ولا الإمام إلا ما فيه صلاح وثواب، ولا يخطر بقلب النبى ولا بقلب الإمام ما يخالف مشيئة الله وما يناقض مصلحة الأمة، فيفوض الله تعيين بعض الأمور إلى رأى النبى ورأى الإمام مثل الزيادة فى عدد ركعات الفرض، ومثل تعيين النوافل من الصلاة والصيام، وذلك إظهارًا لكرامة النبى والإمام، ولم يكن أصل التعيين إلا بالوحى، ثم لم يكن الاختيار إلا بالإلهام، وله فى الشرع شواهد: حرم الله الخمر، وحرم النبى كل مسكر فأجازه الله، وفرض الله الفرائض ولم يذكر الجد، فجعل النبى للجد السدس، وكان النبى يبشر ويعطى الجنة على الله ويجيزه الله.

وأيضا فوض الله للنبى والأئمة من بعده أمور الخلق، وأمور الإدارة والسياسة من التأديب والتكميل والتعليم، وواجب على الناس طاعتهم فى كل ذلك، قالوا: وهذا حق ثابت دلت الأخبار عليه.

وأيضًا فوضهم الله تعالى فى البيان، بيان الأحكام والإفتاء وتفسير آيات القرآن وتأويلها، ولهم أن يبينوا ولهم أن يسكتوا، ولهم فوق ذلك البيان كيفما أرادوا وعلى أى وجه شاءوا تَقِيّة منهم وعلى حسب الأحوال والمصلحة، والتفويض بهذا المعنى يدعون أنه حق ثابت لهم، والأخبار ناطقة به وشاهدة عليه، يقول صاحب الكافى: «سأل ثلاثة من الناس الصادق عن آية واحدة فى كتاب الله فأجاب كل واحد بجواب، أجاب ثلاثة

(١) الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة ص ٨٧.

بأجوبة ثلاث، واختلاف الأجوبة فى مسألة واحدة كان يقع إما على سبيل التقية وإما على سبيل التفويض»(١).

وهناك نواع آخر من التفويض يثبتونه للنبى والأئمة، ذلك هو أن النبى أو الإمام له أن يحكم بظاهر الشريعة، وله أن يترك الظاهر ويحكم بما يراه وما يلهمه الله من الواقع وخالص الحق فى كل واقعة، كما كان لصاحب موسى فى قصة الكهف، وكما وقع لذى القرنين(٢).

ثم كان من توابع هذه العقيدة التى يعتقدونها فى أئمتهم أن قالوا بعصمة الأئمة، وقالوا بالمهدى المنتظر، وقالوا بالرجعة، وقالوا بالتقية، وهذه كلها عقائد رسخت فى أذهانهم وتمكنت من عقولهم فأخذوا بعد هذا ينظرون إلى القرآن الكريم من خلال هذه العقائد ففسروا القرآن وفقًا لهواهم، وفهموا نصوصه وتأولوها حسبما تمليه عليهم العقيدة ويزينه لهم الهوى. . . وهذا تفسير بالرأى المذموم، تفسير من اعتقد أولاً، ثم فسر ثانيًا بعد أن اعتقد.

تأثر الإمامية الاثنى عشرية بآراء المعتزلة وأثر ذلك فى تفسيرهم:

هذا . . . وإن الإمامية الاثنى عشرية لهم فى نصوص القرآن التى تتصل بمسائل علم الكلام نظرة تتفق إلى حد كبير مع نظرة المعتزلة إلى هذه النصوص نفسها ولم يكن بينهم وبين المعتزلة خلاف إلا فى مسائل قليلة، ويظهر أن هذا الارتباط الوثيق الذى كان بين الفريقين راجع إلى تتلمذ الكثير من شيوخ الشيعة وعلمائهم لبعض شيوخ المعتزلة، كما يظهر لنا جليًا أن هذا الارتباط فى التفكير شىء قديم غير جديد، فالحسن العسكرى، والشريف المرتضى، وأبو على الطبرسى، وغيرهم من قدماء الشيعة، ينظرون هذه النظرة الاعتزالية فى تفاسيرهم التى بأيدينا، والتى تعرضنا لبعضها وسنعرض لبعضها الآخر قريبًا، بل إننا نجد الشريف المرتضى فى أماليه يحاول محاولة جدية أن يجعل عليًا ﷺ معتزليًا أو رأس المعتزلة على الأصح، وقد تقدمت لنا مقالته التى عرضنا لها عند الكلام عن أماليه(٣)، وليس من شك فى أن هذه النظرات

(١) الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة ص ٨٩. (٢) المرجع السابق ص ٨٩.

(٣) يرى بعض العلماء أن أول من قام بالاعتزال أبو هاشم عبد الله، والحسن، ابنا محمد ابن الحنفية، وعن أبى هاشم أخذ واصل بن عطاء ـ مقدمة تبيين كذب المفترى ص ١٠، ١١.
يقول أبو الحسن الطرائفى الشافعى المتوفى سنة ٣٧٧هـ فى كتابه: رد أهل الأهواء والبدع «عندما بايع الحسن بن على معاوية وسلم له الأمر، اعتزل جماعة من أصحاب على الحسن =

الاعتزالية كان لها أثر كبير فى تفسيرهم وستقف على شىء من ذلك إن شاء الله تعالى.

تأثرهم بمذاهبهم الفقهية والأصولية فى تفاسيرهم:

ثم إن الشيعة لهم فى الفقه وأصوله آراء خالفوا بها من سواهم فمثلاً نجدهم يذكرون أن أدلة الفقه أربعة وهى: الكتاب، والسنة، والإجماع، ودليل العقل، أما الكتاب فلهم رأى فيه سنعرض له فيما بعد.

وأما السنة فهم غير أمناء عليها ولا ملتزمين ما صح منها، وسنعرض لها فيما بعد أيضًا.

وأما الإجماع فليس حجة بنفسه، وإنما يكون حجة إذا دخل الإمام المعصوم فى المجمعين، أو كان الإجماع كاشفًا عن رأيه فى المسألة، أو كان الإجماع عن دليل معتبر؛ فهو فى الحقيقة داخل فى الكتاب أو السنة.

وأما دليل العقل عندهم فلا يدخل فيه القياس، ولا الاستحسان، ولا المصالح المرسلة، لأن ذلك كله ليس حجة عندهم(١).

وفى الفقه لهم مخالفات يشذون بها، فمثلاً تراهم يقولون: إن فرض الرجلين فى الوضوء هو المسح دون الغسل، ولا يجوزون المسح على الخفين، وجوزوا نكاح المتعة، وجوزا أن تورث الأنبياء، ولهم مخالفات فى نظام الإرث، كإنكارهم للعول مثلاً، ولهم مخالفات كثيرة غير ذلك فى مسائل الاجتهاد.

لهذا كان طبيعيّا أن يقف الإمامية الاثنا عشرية من الآيات التى تتعلق بالفقه وأصوله موقفًا فيه تعصب وتعسف، حتى يستطيعوا أن يخضعوا هذه النصوص ويجعلوها أدلة لآرائهم ومذاهبهم، كما كان طبيعيّا أن يتأولوا ما يعارضهم من الآيات والأحاديث، بل ووجدناهم أحيانًا يزيدون فى القرآن ما ليس منه ويدعون أنه قراءة أهل البيت، وهذا إمعان منهم فى اللجاج، وإغراق فى المخالفة والشذوذ.

= ومعاوية وجميع الناس ولزموا منازلهم، وقالوا: نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك معتزلة» من هامش تبيين كذب المفترى ص ١٠.

(١) انظر أعيان الشيعة (١/ ٤٧٧) وقد مثل لدليل العقل بالبراءة من التكليف بواجب لم يرد فيه نص. انظر ص ٢٣٦ من كتاب أصول الاستنباط للسيد على تقى الحيدرى طبع شركة النشر والطباعة العراقية سنة ١٩٥٠.

احتيالهم على تركيز عقائدهم وترويجها:

ويظهر لنا أن الإمامية الاثنى عشرية لم يجدوا فى القرآن كل ما يساعدهم على أغراضهم وميولهم، فراحوا **أولاً:** يدعون أن القرآن له ظاهر وباطن بل وبواطن كثيرة، وأن علم جميع القرآن عند الأئمة، سواء فى ذلك ما يتعلق بالظواهر وما يتعلق بالبواطن، وحجروا على العقول فمنعوا الناس من القول فى القرآن بغير سماع من أئمتهم، وراحوا **ثانيًا:** يدعون أن القرآن وارد كله أو جله فى أئمتهم ومواليهم، وفى أعدائهم ومخالفيهم كذلك، وراحوا **ثالثًا:** يدعون أن القرآن حرِّف وبدل عما كان عليه زمن النبى ﷺ ، وكل هذا لا أعتقد إلا أنه من قبيل الاحتيال على تركيز عقائدهم وإيهام الناس أنها مستقاة من القرآن الذى هو المنبع الأساسى والأول للدين.

وأعجب من هذا أنهم أخذوا يموهون على الناس، ويغرون العامة بما وضعوه من أحاديث على رسول الله ﷺ وعلى أهل بيته، وطعنوا على الصحابة إلا نفرًا قليلا منهم، ورموهم بكل نقيصة فى الدين؛ ليجدوا لأنفسهم من وراء ذلك ثغرة يخرجون منها عندما تأخذ بخناقهم الأحاديث الصحيحة التى يرويها هؤلاء الصحابة عن رسول الله ﷺ .

ويحسن بنا ألا نمر سراعًا على هذه النقط الأربعة بالذات، بل علينا أن نقف أمامها وقفة طويلة ودقيقة حتى نستطيع أن نقف على مدى هذه الأوهام والدعاوى التى كان لها أكبر الأثر فى اتجاه التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية، فنقول وبالله التوفيق:

١- ظاهر القرآن وباطنه:

يقول الإمامية الاثنا عشرية: إن القرآن له ظاهر وباطن، وهذه حقيقة نقرهم عليها ولا نعارضهم فيها بعدما صح لدينا من الأحاديث التى تقرر هذا المبدأ فى التفسير(١)، غاية الأمر أن هؤلاء الإمامية لم يقفوا عند هذا الحد، بل تجاوزوا إلى القول بأن للقرآن سبعة وسبعين بطنًا، ولم يقتصروا على ذلك بل تمادوا وادعوا أن الله تعالى جعل ظاهر القرآن فى الدعوة إلى التوحيد والنبوة والرسالة، وجعل باطنه فى الدعوة إلى الإمامة والولاية وما يتعلق بهما.

حرصهم على التوفيق بين ظاهر القرآن وباطنه:

ولقد كان من أثر هذا الرأى فى القرآن، أن اشتد حرص هؤلاء القائلين به على أن

(١) سيأتى بيان المراد بالباطن قريبًا، وسترى أنه بمعزل عما ذهب إليه الإمامية.

يعقدوا صلة بين المعانى الظاهرة والمعانى الباطنة للقرآن، ويعملوا بكل ما فى وسعهم وطاقتهم على إيجاد مناسبة بينهما حتى يقرِّبوا هذا المبدأ من عقول الناس ويجعلوه أمرًا سائغًا مقبولاً، ومن أمثلة هذا التوفيق والربط بين ظاهر القرآن وباطنه، قوله تعالى فى الآية (١٥) من سورة محمد ﷺ : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ فهم يقرون أن هذا الظاهر مراد الله تعالى، ومراد له مع هذا الظاهر معنى آخر باطنى هو علوم الأئمة عليهم السلام، ويقولون: إن الجامع بين المعنيين هو الانتفاع بكل منهما وبمثل هذا يوفقون بين المعانى الظاهرة والباطنة، حتى لا يكون مستبعدًا إرادة الله لمعنى خاص بحسب ما يدل عليه ظاهر اللفظ، وإرادته لمعنى آخر بحسب ما يدل عليه باطن الأمر.

حملهم الناس على التسليم بما يدعون من المعانى الباطنة للقرآن:

وكأنى بالإمامية الاثنى عشرية بعد أن ربطوا بين ظاهر القرآن وباطنه، وجمعوا بينهما بجامع التناسب والتشابه... كأنى بهم يعتقدون أن مثل هذا الربط لا يكفى فى حمل الناس على أن يذهبوا مذهبهم هذا، فحاولوا أن يحملوها عليه من ناحية العقيدة والإرهاب الدينى، الذى يشبه الإرهاب الكنسى للعامة فى العصور المظلمة، من حمل الناس على ما يوحون به إليهم بعد أن حظروا عليهم إعمال العقل، وحالوا بينهم وبين حريتهم الفكرية، فقالوا: إن الإنسان يجب عليه أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه على السواء، كما يجب عليه أن يؤمن بمحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، ولا بد أن يكون ذلك على سبيل التفصيل إن وصل إليهم علم ذلك مفصلاً عن آل البيت، ويكفى فيه الإجمال إن لم يصل إليه التفصيل، قالوا: ولا يجوز له أن ينكر الباطن بحال، وعليه أن يسلم بكل ما وصل إليه من ذلك عن طريق آل البيت وإن لم يفهم معناه، ولو أن إنسانًا آمن بالظاهر وأنكر الباطن لكفر بذلك، كما لو أنكر الظاهر وآمن بالباطن أو الظاهر والباطن جميعًا.

وحرصًا منهم على تعطيل عقول الناس ومنعهم من النظر الحر فى نصوص القرآن الكريم، قالوا: إن جميع معانى القرآن، سواء منها ما يتعلق بالظاهر وما يتعلق بالباطن، اختص بها النبى ﷺ والأئمة من بعده، فهم الذين عندهم علم الكتاب كله؛ لأن القرآن نزل فى بيتهم (وأهل البيت أدرى بما فى البيت) أما من عداهم من الناس فلا

يرون أدنى شبهة فى قصور علمهم، وعدم إدراكه لكثير من معانى القرآن الظاهرة، فضلاً عن معانيه الباطنة، قالوا: ولهذا لا يجوز لإنسان أن يقول فى القرآن إلا بما وصل إليه من طريقهم، غاية الأمر أنهم جوزوا لمن أخلص حبه وانقياده لله ولرسوله ولأهل البيت واستمد علومه من أهل البيت حتى أنس من نفسه العلم والمعرفة، جوزوا لمثل هذا أن يستنبط من القرآن ما يتيسر له؛ لأنه بحبه لآل البيت وأخذه عنهم صار كأنه منهم وقد قيل (سلمان منا آل البيت).

أثر التفسير الباطنى فى تلاعبهم بنصوص القرآن:

ولقد كان من نتائج هذا التفسير الباطنى للقرآن أن وجد القائلون به أمام أفكارهم مضطربًا بالغًا ومجالاً رحبًا، يتسع لكل ما يشاؤه الهوى وتزينه لهم العقيدة، فأخذو يتصرفون فى القرآن كما يحبون، وعلى أى وجه يشتهون، بعدما ظنوا أن العامة قد انخدعت بأوهامهم وسلموا بأفكارهم ومبادئهم.

فقالوا مثلاً: إن من لطف الله تعالى أن يشير بواسطة المعانى الباطنة لبعض الآيات إلى ما سيحدث فى المستقبل من حوادث، ويعدون هذا من وجوه إعجازه، ثم يفرعون على هذه القاعدة ما يشاؤه لهم الهوى، وما يزينه فى أعينهم داعى العقيدة وسلطانها، فيقولون مثلاً فى قوله تعالى فى الآية (١٩) من سورة الانشقاق: ﴿**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ**﴾ إنه إشارة إلى أن هذه الأمة ستسلك سبيل من كان قبلها من الأمم فى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء.

كذلك مكن لهم القول بباطن القرآن من أن يقولوا: إن اللفظ الذى يراد به العموم ظاهرًا كثيرًا ما يراد به الخصوص بحسب المعنى الباطن، فمثلاً لفظ الكافرين الذى يراد به العموم، يقولون: هو فى الباطن مخصوص بمن كفر بولاية على.

كما مكنهم أيضًا من أن يصرفوا الخطاب الذى هو موجه فى الظاهر إلى الأمم السابقة أو إلى أفراد منها، إلى من يصدق عليه الخطاب فى نظرهم من هذه الأمة بحسب الباطن، فمثلاً قوله تعالى فى الآية ١٥٩ من سورة الأعراف: ﴿**وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾ يقولون فيه: قوم موسى فى الباطن هم أهل الإسلام.

ولقد مكنهم أيضًا من أن يتركوا أحيانًا المعنى الظاهر ويقولوا بالباطن وحده، كما فى قوله تعالى فى الآيتين (٧٤، ٧٥) من سورة الإسراء: ﴿**وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا**

نَصِيراً﴾ فالظاهر غير مراد عندهم، ويقـولون: عنى بذلك غير النبى؛ لأن مثل هذا لا يليق أن يكون موجـهًا للنبى ﷺ، وإنما هو معنى به من قـد مضى، أو هو من باب (إياكِ أعنى واسمعى يا جارة).

كذلك مكنهم هذا المبدأ من إرجاع الضميـر إلى ما لم يسبق له ذكر، كما فى قوله تعالى فى الآية (١٥) من سورة يونس: ﴿قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْـهُ...﴾ حيث يفسرون (أو بدله) بمعنى أو بدل علـيّا، ومعلوم أن عليًا لم يسبق له ذكر، ولم يكن الكلام مسوقًا فى شأن خلافته وولايته.

وممـا ساغ لهم أن يقـولوه بعد تقـريرهم لمبـدأ القول بالبـاطن: إن تأويل الآيات القرآنية لا يجـرى على أهل زمان واحد، بل عندهم أن كل فقرة من فقـرات القرآن لها تأويل يجرى فى كل آن وعلى أهل كل زمان، فمعانى القرآن على هذا متجددة، حسب تجدد الأزمنة وما يكون فيه من حوادث، بل وساغ لهم ما هو أكثر من ذلك فقالوا: إن الآية الواحدة لها تأويلات كـثيرة مختلـفة متناقضة، وقـالوا: إن الآية الواحدة يجوز أن يكون أولها فى شىء وآخرها فى شىء آخـر... ولا شك أن باب التأويل الباطنى باب واسع يمكن لكل من ولجه أن يصل منه إلى كل ما يدور بخلده ويجيش بخاطره.

وليس لقائل أن يقول: إن رسول الله ﷺ صرح بأن للقرآن باطنًا، وإن المفسرين جميعًا يعترفون بذلك ويقولون به، فكيف توجه اللوم إلى الإمامية وحدهم؟ ليس لقائل أن يقول ذلك؛ لأن البـاطن الذى أشار إليه الحـديث وقال به جمـهور المفـسرين، هو عبـارة عن التـأويل الذى يحتـمله اللفظ القـرآنى، ويمكن أن يكون من مدلولاته، أمـا البـاطن الذى يقول به الشـيعـة فشىء يتـفق مع أذواقـهم ومشـاربهم، وليس فى اللفظ القرآنى الكريم ما يدل عليه ولو بالإشارة.

مخلصهم من تناقض أقوالهم فى التفسير:

ثم إن الإمامـية الاثنى عشرية، أحـسوا بخطر موقـفهم وتحرجه عندمـا جوزوا أن يكون للآية الواحدة أكـثر من تفسير واحـد مع التناقض والاختلاف بين هذه التفـاسير، فأخذوا يموهون على العامة ويضللونهم، فقرروا من المبادئ ما أوجبوا الاعتقاد به أولاً على الناس ليصلوا بعـد ذلك إلى مخلص يتخلصون به من هذا المـأزق الحرج، فكان من هذه المبادئ التى قرروها وأوجبوا الاعتقاد بها ما يأتى:

أولاً: أن الإمام مفوض من قبل الله فى تفسير القرآن.

ثانيًا: أنه مفوض فى سياسة الأمة. **ثالثًا**: التقية.

وكل واحد من هذه الثلاثة يمكن أن يكون مخلصًا للخروج من هذا التناقض الذى وقع فى تفاسيرهم التى يروونها عن أئمتهم، فكون الإمام مفوضًا من قبل الله فى تفسير القرآن مخلص لهم؛ لأن باب التفويض واسع، وكونه مفوضًا فى سياسة الأمة مخلص أيضًا؛ لأن الإمام أعلم بالتنزيل والتأويل، وأعلم بما فيه صلاح السائل والسامع، فهو يجيب كل إنسان على حسب ما يرى فيه صلاح حاله، والقول بالتقية مخلص أوسع من سابقيه، لأن الإمام له أن يسكت ولا يجيب، تقية منه «قيل عند الباقر: إن الحسن البصرى يزعم أن الذين يكتمون العلم تؤذى ريح بطونهم أهل النار، فقال الباقر: فهلك إذا مؤمن آل فرعون، ما زال العلم مكتومًا منذ بعث الله نوحًا، فليذهب الحسن يمينًا وشمالاً، لا يوجد العلم إلا ههنا... وأشار إلى صدره»[(١)].

وللإمام أن يجيب بحسب الأحوال وما يرى فيه المصلحة... تقية منه أيضًا، وبنوا على هذا «أن الإمام إن قال قولاً على سبيل التقية، فللشيعى أن يأخذ به ويعمل بما قاله الإمام إن لم يتنبه الشيعى إلى أن قول الإمام كان على سبيل التقية»[(٢)].

ونحن لا نظن أن الأئمة كانوا يلجأون إلى هذه التقية... تقية الخداع فى الأخبار، والنفاق فى الأحكام، وإنما هى تمحلات يتمحلونها، ليخلصوا بها أنفسهم من هذا الارتباك الذى وقعوا فيه.

٢- موقف القرآن من الأئمة وأوليائهم وأعدائهم:

ثم إن الإمامية الاثنى عشرية، قرروا أن الإقرار بإمامة على ومن بعده من الأئمة والتزام حبهم وموالاتهم، وبغض مخالفيهم وأعدائهم، أصل من أصول الإيمان، بحيث لا يصلح إيمان المرء إلا إذا حصل ذلك، مع الإقرار بباقى الأصول، كما قرروا وجوب طاعة الأئمة، واعتقاد أفضليتهم على الخلائق أجمعين.

قرر الإمامية هذا كله، ثم أخذوا ينزلون نصوص القرآن على ما قرروه، بل وزادوا على ذلك فقالوا: إن كل آيات المدح والثناء وردت فى الأئمة ومن والاهم، وكل آيات الذم والتقريع وردت فى مخالفيهم وأعدائهم، بل ويدعون ما هو أكثر من ذلك فيقولون: إن جل القرآن بل كله، أنزل فى الإرشاد إليهم، والإعلان بهم، والأمر بموافقتهم، والنهى عن مخالفتهم.

---

(١) الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة ص ٨٠. (٢) المرجع السابق ص ٨٢.

ولقد كان من أثر زعمهم أن القرآن جله أو كله وارد فى أئمتهم ومن والاهم، وفى أعدائهم ومن وافقهم، أن قالوا: إن ما نسبه الله إلى نفسه بصيغة الجمع أو ضميره سره أنه أراد إدخال النبى ﷺ والأئمة معه، قالوا: وهو مجاز شائع معروف، بل وبالغوا فقالوا: إن الأئمة هم المقصودون بالذات أحيانًا كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة: ٥٧) حيث رووا عن أبى جعفر محمد الباقر أنه قال فيها: «إن الله أعظم وأعز وأجل من أن يظلم، ولكن خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته، حيث يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (المائدة: ٥٥) بمعنى الأئمة منا[١]».

وأعجب من هذا، أنهم جعلوا لفظ الجلالة والإله والرب، مرادًا به الإمام وكذا الضمائر الراجعة إليه سبحانه، وتأولوا ما أضافه الله إلى نفسه من الإطاعة والرضى والغنى والفقر مثلاً، يما يتعلق بالإمام كإطاعته، ورضاه وغناه، وفقره... إلخ، ويعدون ذلك من قبيل المجاز الشائع المعروف... ولكن لا شيوع لمثل هذا المجاز ولا معرفة لنا به إذ المجاز المتعارف عليه بين العلماء هو استعمال اللفظ فى غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلى، وأين العلاقة هنا؟ وإذا تكلفوا العلاقة فأين القرينة الصارفة للفظ عن حقيقته؟ ثم... لم هذا التكلف والعدول إلى المجاز، وقد تقرر أنه لا يعدل إلى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة؟.

٣- تحريف القرآن وتبديله:

وأحسب أن الإمامية الاثنى عشرية، عز عليهم أن يكون القرآن غير صحيح فى عقيدتهم بالنسبة للأئمة وموافقيهم، وبالنسبة لأعدائهم ومخالفيهم، وكأنى بهم وقد تساءلوا فيما بينهم فقالوا: إذا كان القرآن جله واردًا فى شأن الأئمة وشيعتهم، وفى شأن أعدائهم ومخالفيهم، فلم لم يأت القرآن بذلك صريحًا مع أنه المقصود أولاً وبالذات؟ ولم اكتفى بالإشارة الباطنة فقط؟.. كأنى بهم بعد هذا التساؤل، وبعد هذا الاعتراض الذى أخذ بخناقهم، راحوا يتلمسون للتخلص منه كل سبيل، فلم يجدوا أسهل من القول بتحريف القرآن وتبديله، فقالوا: إن القرآن الذى جمعه على عليه السلام، وتوارثه الأئمة من بعده، هو القرآن الصحيح الذى لم يتطرق إليه تحريف ولا تبديل، أما ما عداه فمحرف ومبدل، حذف منه كل ما ورد صريحًا فى فضائل آل البيت، وكل ما ورد

---

(١) مقدمة مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار ص ٢٩ والآية رقم (٥٥) من سورة المائدة.

صريحًا فى مثالب أعدائهم ومخالفيهم، وأخبار التحريف متواترة عند الشيعة، ولهم فى ذلك روايات كثيرة يروونها عن آل البيت، وهم منها براء.

يروى الكافى عن الصادق: أن القرآن الذى نزل به جبريل على محمد سبعة عشر ألف آية، والتى بأيدينا منها ستة آلاف ومائتان وثلاث وستون آية، والبواقى مخزونة عند أهل البيت فيما جمعه على(١).

ويقولون: إن سورة (لم يكن) كانت مشتملة على اسم سبعين رجلاً من قريش بأنسابهم وآبائهم، وإن سورة (الأحزاب) كانت مثل سورة (الأنعام) أسقطوا منها فضائل أهل البيت، وإن سورة (الولاية) أسقطت بتمامها... وغير ذلك من خرافاتهم.

وأخف ما لهم فى هذا الموضوع هو (أن جميع ما فى المصحف كلام الله، إلا أنه بعض ما نزل، والباقى مما نزل عند المستحفظ لم يضع منه شيء، وإذا قام القائم يقرؤه الناس كما أنزله الله على ما جمعه أمير المؤمنين على)(٢).

ولقد اصطدم مدعو التحريف والتبديل، بنصوص من القرآن صريحة فى هدم مدعاهم هذا، فمن تلك النصوص: قوله تعالى فى الآية (٩) من سورة الحجر: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ ولكن سرعان ما تخلصوا منها بالتأويل فقالوا: (وإنا لحافظون... أى عند الأئمة) وبمثل هذا التأويل يتخلصون من باقى النصوص المعارضة لهم.

واصطدموا أيضًا بأمرين آخرين لهما عظيم الخطر على عقائدهم ومبادئهم.

أولهما: كيف تعتمدون على تعاليمكم ومعتقداتكم على هذا القرآن الذى بأيدينا وقد جزمتم بوقوع التحريف والتبديل فيه؟.

ثانيهما: كيف توجبون على الناس أن يعترفوا بفضائل آل البيت، ويتبرأوا من أعدائهم ومخالفيهم، والحجة غير قائمة عليهم بعد أن حذف كل ذلك من القرآن؟.

وقد أجابوا عن الأول: بأن التحريف إنما وقع فيما لا يخل بالمقصود كثير إخلال، كحذف اسم على، وآل محمد، وأسماء المنافقين.

وقد أجابوا عن الثانى: بأن الله تعالى علم ما سيكون من وقوع التحريف والتبديل فى القرآن، فلم يكتف بما جاء صريحًا فى فضائل أهل البيت ومثالب أعدائهم، بل

---

(١) الوشيعة ص ٢٣. (٢) المرجع السابق ص ٢٧.

أشار إلى ذلك ودل عليه بحسب بطون القرآن وتأويله، وهذا قد سلم من التحريف والتبديل قطعًا، فبقيت الحجة قائمة على الناس وإن بدلوا الظاهر وحرفوه.

والحق أن الشيعة هم الذين حرفوا وبدلوا، فكثيرًا ما يزيدون فى القرآن ما ليس منه، ويدعون أنه قراءة أهل البيت، فمثلاً نراهم عند قوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يزيدون (فى شأن على) وهى زيادة لم ترد إلا من طريقهم، وهى طريق مطعون فيها.

وهم الذين حرفوا القرآن أيضًا حيث تأولوه على غير ما أنزل الله «قيل للصادق: ألم يكن على قويًا فى دين الله؟ قال: بلى، قيل: فكيف ظهر عليه القوم ولم يدفعهم؟ وما منعه من ذلك؟ قال الصادق: آية فى كتاب الله منعته، قيل: أى آية؟ قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الفتح: ٢٥) كان لله ودائع مؤمنون فى أصلاب قوم كافرين ومنافقين، ولم يكن على يقتل الآباء حتى تخرج الودائع، فلما خرجت ظهر علىٌّ على من ظهر فقتلهم»(١).

وروى العياشى عن الباقر أنه قال: لما قال النبى ﷺ: «اللهم أعز الإسلام بعمر ابن الخطاب أو بعمرو بن هشام» أنزل الله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾(٢) (الكهف: ٥١).

وتقول أصول الكافى فى قوله تعالى فى الآية (١٣٧) من سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ إن هذه الآية نزلت فى أبى بكر وعمر وعثمان، آمنوا بالنبى أولاً، ثم كفروا حيث عرضت عليهم ولاية على، ثم آمنوا بالبيعة لعلى، ثم كفروا بعد موت النبى، ثم ازدادوا كفرًا بأخذ البيعة من كل الأمة(٣).

هذه أمثلة نذكرها ونضعها بين يدى القارئ الكريم ليحكم بنفسه حكما صادقًا: أن هؤلاء الشيعة، الذين يدعون التحريف والتبديل للقرآن، هم أنفسهم المحرفون لكتاب الله المبدلون فيه، بصرفهم ألفاظ القرآن إلى غير مدلولاتها وتقولهم على الله بالهوى والتشهى.

---

(١) الوشيعة ص ٦٤ نقلاً عن الوافى (٢/ ١٥٢). (٢) الوشيعة ص ٦٤.

(٣) الوشيعة ص ٦٥ نقلاً عن أصول الكافى (٣/ ٣٢٥).

٤- موقفهم من الأحاديث النبوية وآثار الصحابة:

ولقد رأى الإمامية الاثنا عشرية أنفسهم أمام كثرة من الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ ، وأمام كثرة من الروايات المأثورة عن الصحابة ﷺ أجمعين، وفى تلك الأحاديث وهذه الآثار ما يخالف تعاليمهم مخالفة صريحة: لذا كان بدهيا أن يتخلص القوم من كل هذه الروايات، إما بطريق ردها، وإما بطريق تأويلها، والرد عندهم سهل ميسور؛ ذلك لأن الرواية إما أن تكون قولا لصحابى، وإما أن تكون قولاً لرسول الله ﷺ عن طريق صحابى، وهم يجرحون معظم الصحابة، بل ويكفرونهم لمبايعتهم أبا بكر أولاً، ثم عمر من بعده، ثم عثمان من بعدهما... وأما التأويل فباب واسع... وهم أهله وأربابه.

فمثلاً نجدهم يردون الأحاديث والآثار التى تثبت فى تحريم نكاح المتعة ونسخ حله، كما نجدهم يردون أحاديث المسح على الخفين ويقولون: إنه من رواية المغيرة ابن شعبة رأس المنافقين، ثم نجدهم يسلمون صحة الرواية جدلاً ولكنهم يتأولونها فيقولون: إن الخف الذى كان يلبسه النبى ﷺ كان مشقوقًا من أعلى، فكان يمسح على ظاهر قدمه من هذا الشق... وظاهر أن هذا تأويل بارد متكلف.

فإذا كان هؤلاء لا يقبلون أقوال الصحابة، ولا يثقون برواياتهم عن رسول الله ﷺ ، إذًا فمن يقبلون قوله؟ ومن يثقون بروايته؟.

الذى عليه الشيعة إلى اليوم، أنهم لا يأخذون الحديث إلا ممن كان شيعيًا، ولا يقبلون تفسيرًا إلا ممن كان شيعيًا، ولا يثقون بشيء مطلقًا إلا إذا وصل لهم من طريق شيعى!!... وبهذا حصروا أنفسهم فى دائرة خاصة، حتى كأنهم هم المسلمون وحدهم، فإن عاشوا وسط السُّنيين فباطنهم لأنفسهم، وظاهرهم للتقية!!.

وليت الأمر وقف بهم عند هذا الحد ـ حد الثقة بأشياعهم والاتهام لمن عداهم ـ بل وجدنا الرؤساء من الشيعة كجابر بن يزيد الجعفى وغيره قد استغلوا أفكار الجمهور الساذجة، وقلوبهم الطَيبة الطاهرة، وحبهم لآل بيت رسول الله ﷺ ، فراحوا يضعون الأحاديث على رسول الله ﷺ وعلى آل بيته، ويضمنونها ما يرضى ميولهم المذهبية، وأغراضهم السيئة الدنيئة، ولم يفتهم أن يحكموا أسانيد هذه الشيعة لأنهم وجدوها مؤيدة لدعواهم...

ويعجبنى هنا ما ذكره أبو المظفر الإسفرائينى فى كتابه التبصير فى الدين، وهو: أن

الروافض «لما رأوا الجاحظ يتوسع فى التصانيف، ويصنف لكل فريق، قالت له الروافض: صنف لنا كتابًا، فقال لهم: لست أدرى لكم شبهة حتى أرتبها وأتصرف فيها، فقالوا له: إذًا دلنا على شىء نتمسك به، فقال: لا أرى لكم وجهًا، إلا أنكم إذا أردتم أن تقولوا شيئًا تزعمونه، تقولون: إنه قول جعفر بن محمد الصادق، لا أعرف لكم سببًا تستندون إليه غير هذا الكلام... فتمسكوا بحمقهم وغباوتهم بهذه السوءة التى دلهم عليها، فكلما أرادوا أن يختلقوا بدعة أو يخترعوا كذبة، نسبوها إلى ذلك السيد الصادق، وهو عنها منزه ومن مقالتهم فى الدارين برىء»(١).

أهم الكتب التى يعتمدون عليها فى رواية الأحاديث والأخبار:

هذا... وللإمامية الاثنى عشرية كتب كثيرة، يعتمدون عليها فى رواية الأحاديث والأخبار، وينزلونها من أنفسهم منزلة سامية، ويثقون بها وثوقًا بالغًا، فمن أهم هذه الكتب ما يأتى:

أولاً: كتاب الكافى، وهو أهم الكتب عند الإمامية الاثنى عشرية على الإطلاق، وهو لأبى جعفر محمد بن يعقوب الكلينى المتوفى سنة ٣٢٨هـ أو ٣٢٩هـ، وهو عندهم كالبخارى عند أهل السنة، وهذا الكتاب يحتوى على ستة عشر ألف حديث، قسمها - كما فعل أهل السنة - إلى صحيح، وحسن، وضعيف، وهو يقع فى ثلاث مجلدات: المجلد الأول فى الأصول، والثانى والثالث فى الفروع.

ثانيًا: كتاب التهذيب لمحمد بن الحسن الطوسى، مجلدان فى الفروع.

ثالثًا: كتاب من لا يحضره الفقيه، لمحمد بن على بن بابويه، وهو فى الفروع.

رابعًا: كتاب الاستبصار فيما اختلف فيه من الأخبار، لمحمد بن الحسن الطوسى «اختصره من كتاب التهذيب».

هذه الكتب الأربعة، هى أمهات كتب الشيعة التى يعتمدون عليها ويثقون بها، وقد جمعها كتاب الوافى فى ثلاثة مجلدات كبيرة، وهو من مؤلفات محمد بن مرتضى، المعروف بملاّ محسن الكاشانى. وهناك كتب فى الحديث ذكرها صاحب أعيان الشيعة غير ما تقدم، منها: وسائل الشيعة إلى أحاديث الشريعة، للشيخ محمد بن الحسن العاملى، وبحار الأنوار فى أحاديث النبى والأئمة الأطهار، للشيخ محمد الباقر، وهى لا تقل أهمية عن الكتب المتقدمة(٢).

والذى يقرأ فى هذه الكتب لا يسعه أمام ما فيها من خرافات وأضاليل إلا أن يحكم

---

(١) التبصير فى الدين ص ٢٦.

(٢) أعيان الشيعة (١/ ٢٩٢، ٢٩٣).

بأن متونها موضوعة، وأسانيدها مفتعلة مصنوعة، كما لا يسعه إلا أن يحكم على هؤلاء الإمامية بأنهم قوم لا يحسنون الوضع؛ لأنهم ينقصهم الذوق، وتعوزهم المهارة، وإلا فأى ذوق وأية مهارة فى تلك الرواية التى يروونها عن جعفر الصادق ﷺ، وهى: أنه قال: «ما من مولود يولد إلا وإبليس من الأبالسة بحضرته، فأعلم الله أن المولود من شيعتنا حجبه من ذلك الشيطان، وإن لم يكن المولود من شيعتنا أثبت الشيطان أصبعه فى دبر الغلام فكان مأبونًا، وفى فرج الجارية فكانت فاجرة»(١) .

أظن أن القارئ معى فى أن الذى وضع هذه الرواية واختلقها على جعفر الصادق، رجل ينقصه الذوق، وتعوزه المهارة، ونحن أمام هذه الأحاديث والروايات، لا يسعنا إلا أن نردها ردًا باتًا، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: إن غالب هذه الأحاديث يروونها بدون سند، بل يعتمدون على مجرد وجودها فى كتبهم، تروى كتب الشيعة أن إمامًا من أئمة أهل البيت، أولاد على، يقول: «ذروا الناس فإن الناس أخذوا عن الناس وإنكم أخذتم عن رسول الله» ولكن بأى سند؟ تجيب كتب الشيعة: «إن شيوخنا رووا عن الباقر وعن الصادق وكانت التقية شديدة، وكانت الشيوخ تكتم الكتب، فلما خلت الشيوخ وماتت وصلت كتب الشيوخ إلينا، فقال إمام من الأئمة: حدثوا بها فإنها صادقة»(٢) .

ثانيًا: إن ما روى من هذه الروايات مسندًا لا بد أن يكون فى سنده شيعى متعصب لمذهبه، وقد قال رجال الحديث: إنه لا تقبل رواية المبتدع الذى يدعو لمذهبه ويروج له.

ثالثًا: (إن القاعدة المتفق عليها بين المحدثين أن كل متن يناقض المعقول، أو يخالف الأصول، أو يعارض الثابت من المنقول، فهو موضوع على الرسول) وغالب أحاديثهم لا تسلم لهم إذا عرضناها على هذه القاعدة.

وكلمة الحق والإنصاف: أنه لو تصفح إنسان أصول الكافى وكتاب الوافى وغيرهما من الكتب التى يعتمد عليها الإمامية الاثنا عشرية، لظهر له أن معظم ما فيها من الأخبار موضوع وضع كذب وافتراء، وكثير مما روى فى تأويل الآيات وتنزيلها، لا يدل إلا على جهل القائل بها وافترائه على الله، ولو صح ما ترويه هذه الكتب من تأويلات فاسدة للقرآن، لما كان قرآن، ولا إسلام، ولا شرف لأهل البيت، ولا ذكر لهم.

---

(١) الوشيعة ص ٤٠ نقلاً عن الوافى جـ١٣ ص ١٤.

(٢) الوشيعة ص ٤٦، ٤٧ نقلاً عن الوافى (١/ ١٢٤) وشرح الكافى (١/ ٢٨).

وبعد. . . فغالب ما فى كتب الإمامية الاثنى عشرية فى تأويل الآيات وتنزيلها، وفى ظهر القرآن وبطنه، استحفاف بالقرآن الكريم، ولعب بآيات الذكر الحكيم. . . وإذا كان لهم فى تأويل الآيات وتنزيلاتها أغلاط كثيرة، فليس من المعقول أن تكون كلها صادرة عن جهل منهم، بل المعقول أن بعضها قد صدر عن جهل، والكثير منها صدر عمدًا عن هوى ملتزم، وللشيعة ـ كما بينا ـ أهواء التزمتها.

أهم كتب التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية

للإمامية الاثنى عشرية ثروة كبيرة من كتب التفسير، منها ما تم، ومنها ما لم يتم، ومنها القديم، ومنها الحديث، ومنها ما بقى، ومنها ما اندثر، وكلها تدور حول تركيز عقيدتهم مع اختلاف بينها فى الغلو والاعتدال، واختلاف فى المنهج الذى سلكه مؤلف كل منها، ومن هذه الكتب ما يأتى:

١- **تفسير الحسن العسكرى**، المتوفى سنة ٢٥٤هـ أربع وخمسين ومائتين من الهجرة، لم يتم، وهو مطبوع فى مجلد واحد، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية.

٢- **تفسير محمد بن مسعود** بن محمد بن عياش السلمى الكوفى المعروف بالعياشى، من علماء القرن الثالث الهجرى، وهو من أمهات كتب التفسير عند الشيعة، وعليه يعولون كثيرًا، ولم يقع لنا هذا التفسير.

٣- **تفسير على بن إبراهيم القمى**، فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى، وهو تفسير مختصر يعتمد عليه أرباب هذا المذهب كثيرًا، وهو مبطوع فى مجلد واحد كبير، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية.

٤- **التبيان:** للشيخ أبى جعفر محمد بن الحسن بن على الطوسى المتوفى سنة ٤٦٠هـ ستين وأربعمائة من الهجرة، وهو الذى استمد منه الطبرسى تفسيره، وقد ذكر صاحب أعيان الشيعة أنه يقع فى عشرين مجلدًا، ولم يقع لنا هذا التفسير أيضًا(١).

٥- **مجمع البيان:** لأبى على الفضل بن الحسن الطبرسى المتوفى سنة ٥٣٨هـ ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة، وهو مطبوع فى مجلدين كبيرين، وموجود بدار الكتب المصرية وبالمكتبة الأزهرية(٢).

---

(١) ذكر لى عندما كنت بالعراق: أن هذا التفسير يجرى طبعه فى النجف، ولعله تم الآن.
قلت: طُبع وستتكلم عليه فى التتمة. (د/ مصطفى الذهبى).

(٢) وقد طبع أخيرًا فى إيران فى عشر مجلدات، كما أن دار التقريب بالقاهرة تقوم على طبعه الآن، وقد صدر منه جزء واحد.

٦- **الصافى**: لمحمد بن مرتضى، الشهير بملا حسن الكاشانى، من علماء القرن الحادى عشر الهجرى، وهو مطبوع فى مجلد واحد كبير ومنه نسخة بدار الكتب المصرية.

٧ - **الأصفى**: للمؤلف السابق، وهو مختصر من الصافى، ومطبوع فى مجلد واحد كبير، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية، وأخرى بمكتبة الجامعة المصرية (جامعة القاهرة).

٨ - **البرهان**: لهاشم بن سليمان بن إسماعيل الحسينى البحرانى، المتوفى سنة ١١٠٧هـ سبع ومائة بعد الألف من الهجرة، وهو مطبوع فى مجلدين، وموجود بدار الكتب المصرية.

٩ - **مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار**: للمولى عبد اللطيف الكازرانى[1]، ولم يقع لنا هذا التفسير والموجود منه مقدمته فقط، وهى مطبوعة فى مجلد كبير وموجودة فى دار الكتب المصرية.

١٠- **المؤلف**: لمحمد مرتضى الحسينى، المعروف بنور الدين، من علماء القرن الثانى عشر الهجرى، وهو مخطوط فى مجلد واحد صغير، وموجود بدار الكتب المصرية.

١١- **تفسير القرآن**: للمولى السيد عبد الله بن محمد رضا العلوى، المتوفى سنة ١٢٤٢هـ اثنتين وأربعين ومائتين بعد الألف من الهجرة، وهو مطبوع فى مجلد كبير، وموجود بدار الكتب المصرية.

١٢- **بيان السعادة فى مقامات العبادة**: لسلطان بن محمد بن حيدر الخراسانى، من علماء القرن الرابع عشر الهجرى، وهو مطبوع فى مجلد كبير وموجود بدار الكتب المصرية.

١٣- **آلاء الرحمن فى تفسير القرآن**: لمحمد جواد بن حسن النجفى المتوفى سنة ١٣٥٢هـ اثنتين وخمسين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة، لم يتم، والموجود منه بدار الكتب المصرية الجزء الأول، وهو كل ما كتبه المؤلف، ثم عاجلته المنية قبل إتمامه، وهو يبدأ بسورة الفاتحة، وينتهى عند قوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة النساء: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً** ...﴾ الآية.

---

(١) هكذا فى الأصل، والصحيح ما سنبينه عند الكلام على هذا التفسير. (د/ مصطفى الذهبى).

هذا هو أهم ما عرفناه من كتب التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية، وقد أمكننى أن أطلع على كل ما ذكرته من الموجود من هذه الكتب، وعلى غير ما ذكرته مما هو موجود أيضًا بدار الكتب المصرية، فوقفت بنفسى على مشارب أصحابها فى التفسير، واتجاهاتهم فى فهمهم لكتاب الله تعالى، وكم كنت أود أن أطلع على تفسير العياشى، وتفسير الطوسى؛ لأقف بنفسى على هذين الكتابين المعتبرين أهم المراجع فى التفسير عند أرباب هذا المذهب.

وأظننى لست بحاجة إلى أن أتكلم عن كل كتاب اطلعت عليه من كتب هؤلاء القوم فى التفسير، بل يكفينى أن أتكلم عن بعض منها، وهو أهمها، مع ملاحظة أن يكون كل كتاب يقع عليه اختيارى، له لون خاص من ألوان التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية، وطابع يمتاز به عما سواه.

وقد رأيت أن ألخص أولاً مقدمة مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار للعاملى، لأنها تعطينا فكرة واضحة عن التفسير من وجهة نظر هؤلاء القوم بوجه عام، ومن وجهة نظر مؤلفها بوجه خاص.

ثم أتكلم عن تفسير الحسن العسكرى، لأنه يمثل لنا تفسير إمام من أئمتهم المعصومين، الذين عندهم علم الكتاب كله، ظاهره وباطنه.

ثم عن مجمع البيان للطبرسى، لأنه يمثل لنا تفاسير معتدلى الإمامية الاثنى عشرية كما أنه يعطينا فكرة واضحة عن طريقة الجدل عندهم، ومقدار دفاعهم عن آرائهم وعقائدهم.

ثم عن الصافى لملا محسن الكاشانى: لأنه يمثل لنا التفسير عند متطرفى الإمامية الاثنى عشرية.

ثم عن تفسير القرآن للسيد عبد الله العلوى، لأنه يمثل لنا التفسير السهل الذى جمع بين الاختصار وكثرة الفائدة.

ثم عن بيان السعادة فى مقامات العبادة، لسلطان بن محمد الخراسانى؛ لأنه يمثل لنا التفسير الصوفى الفلسفى عند الإمامية الاثنى عشرية.

هذه هى أهم الكتب التى سأتكلم عنها وعن مؤلفيها وسأعرض لها مرتبة حسب ترتيبها فى الذكر، فأقول مستمداً من الله العون والتوفيق:

١- مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار لأبى الحسن العاملى

التعريف بمؤلف هذا التفسير[١]:

«هو الفاضل، والباذل جهده فى سبيل التكليف، أبو الحسن العاملى، ثم الأصفهانى، ابن المولى محمد طاهر بن عبد الحميد بن موسى بن على بن معتوق بن عبد الحميد العاملى، وقد كان من أعاظم فقهائنا المتأخرين، وأفاخم نبلائنا المتبحرين، سكن ديار العجم طوالا من السنين، وهاجر إلى النجف. . . وكان ميلاده ببلدة أصفهان[٢] لما أن والده المولى محمد طاهر كان قاطنًا بها برهة من الزمان، وناكحًا فيها والدته المرضية العلوية التى هى أخت سيدنا الأمير محمد صالح بن عبد الواسع الحسينى. . كما أن تعبيره عن نسب نفسه فى أواخر ما وجدنا من أرقامه المباركة: بأبى الحسن العاملى الشريف دليل على ذلك أيضًا وعلى أن البلدة المزبورة هى ميلاده المنيف.

ثم ذكر مشايخ إجازته وهم:

١- العلامة الثقة الثبت: ملا محمد بن باقر بن محمد تقى المجلس، وتاريخ إجازته له: ثالث ربيع الأول سنة ١١٠٧هـ.

٢- الشيخ محمد حسين بن الحسن بن على بن عبد العالى الميسى، وتاريخ إجازته له: شهر صفر سنة ١١٠٧هـ.

٣- الأمير محمد صالح بن عبد الواسع بن محمد صالح الحسينى، المتوفى سنة ١١١٦هـ، وتاريخ إجازته له: سنة ١١٠٧هـ.

٤- الشيخ عبد الواحد بن أحمد البورانى، وتاريخ إجازته له: ١٥شوال سنة ١١٠٣هـ.

٥- الشيخ قاسم بن محمد الكاظمى، نزيل النجف، المتوفى سنة ١١٠٠هـ.

٦- الحاج محمود بن على الميبدى (الميمندى) المشهدى، وتاريخ إجازته له: المحرم سنة ١١٠٧هـ.

٧- محمد بن المرتضى المدعو بملا محسن الكاشانى صاحب الوافى والصافى والشافى.

---

(١) نسب هذا التفسير فى الطبعات الأولى خطأ للمولى عبد اللطيف الكازرانى، والصواب هو ما أثبتناه نقلا عن الوالد. (د/ **مصطفى الذهبى**).

(٢) قال معلقه: لم نقف على شهر ولا سنة ولادته مع كثرة التشبع منا فى كتب الترجمات، تراجع ترجمته فى روضات الجنات، والزريعة: (١/ ٤، ١٤٩).

٨- السيد البارع المحدِّث نعمت الله بن عبد الله الموسوى التسترى الجزائرى.

٩- المولى المحقق صاحب التصانيف آفا حسين الخوانسارى.

قال: «إلا أن غالب روايته الموجودة فى الإجازات المنتمية إلينا مقصورة على شيخه الأفعم الأقدم محمد باقر بن محمد تقى المجلسى، رضوان الله عليه».

ثم ذكر تلاميذه وهم:

١- الشيخ أحمد بن إسماعيل ابن الشيخ عبد النبى بن سعيد الجزائرى النجفى (المتوفى بعد سنة ١١٤٩هـ) بقليل، وهو صاحب آيات الأحكام.

٢- السيد السعيد نصر الله بن الحسين بن على الحسينى الفائزى الحايرى، الشهيد فى حدود سنة ١١٦٨هـ.

٣- الشيخ محمد مهدى بن بهاء الدين محمد الملقب بالصالح الأفتونى العاملى الغروى، ابن عم المولى أبى الحسن، صاحب الترجمة.

ثم نقل صاحب المقدمة «محمود بن جعفر الموسوى» عن العلامة النورى فى «الفيض القدسى» نبذة عن أبى الحسن العاملى (المترجم له) ما ملخصه:

«العالم العامل الفاضل الكامل المدقق العلامة أفقه المحدِّثين، وأكمل الربانيين، الشريف العدل المولى أبو الحسن بن محمد طاهر بن عبد الحميد بن موسى بن على ابن معتوق بن عبد الحميد الفتونى النباطى العاملى الأصفهانى الغروى... وهذا الشيخ جليل القدر عظيم الشأن، أفضل أهل عصره فيما أعلم، وهو مؤلف «مرآة الأنوار» إلى أواسط سورة البقرة، يقرب مقدماته من عشرين ألف بيت لا يوجد مثله، وكتاب «ضياء العالمين فى الإمامة» يزيد عن ستين ألف بيت، أجمع وأجل ما كُتب فى هذا الفن، وغيرهما مما جمع بعضه فى اللؤلؤة.

توفى فى أواخر عشر الأربعين بعد المائة والألف (١١٣٨هـ) وكان له ولد عالم فاضل محقق متتبع فى غاية الذكاء وحسن الإدراك، متوسع فى العقليات والشرعيات، اسمه: المولى أبو طالب، كما صرح به السيد عبد الله سبط الجزائرى فى إجازته».

... ثم ذكر مؤلفاته فقال ما ملخصه:

«وله من المصنفات المشهورة التى عثرنا عليها: كتاب لطيف طريف جعله فى خصوص الأوليين... وسماه: «الفوائد الغروية» لكونه من بركات زمن مجاوزته بأرض الغرويين.. وعندنا الجزء المتأخر الذى هو فى أصول الفقه منه بخط مؤلفه المبرور.

وله أيضًا رسالة غراء مبسوطة فى مسألة الرضاع، وكتاب كبير فى التفسير على النحو الذى ورد فى متون الأخبار سماه «مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار» لم يخرج منه سوى مجلدين: المجلد الأول يحوى مقدمات التفسير وعموم العلوم المتعلقة بالقرآن المجيد، وجاء فى المجلد الثانى تفسير سورة الفاتحة وما يقارب النصف من تفسير سورة البقرة».

ثم قال: قال شيخنا البحر المتلاطم الزخار الحاج ميرزا حسن النورى الطبرسى فى خاتمة كتابه «المستدرك» فى الفائدة الثالثة من (ص ٣٨٥) فى الحاشية: ومن الحوادث الطريفة والسرقات اللطيفة أن مجلد مقدمات تفسير هذا المولى الجليل المسمى بـ «مرآة الأنوار» موجودة الآن بخط مؤلفه فى خزانة كتب حفيده شيخ الفقهاء صاحب «جواهر الكلام» طاب ثراه، واستنسخناه بتعب ومشقة، وكانت النسخة معى فى بعض أسفارى إلى طهران فأخذها منى بعض أركان الدولة، وكان عازمًا على طبع «تفسير البرهان» للعالِم السيد هاشم البحرانى، وقال لى: إن تفسيره خال عن البيان فيناسب أن نلحق به هذه النسخة ليتم المقصود بها، فاستنسخها ورجعتُ إلى العراق، وتوفى هذا البانى قبل إتمام الطبع، فاشترى ما طُبع من التفسير ونسخة «المرآة» من ورثته بعض أرباب الطبع فأكمل الناقص وطبع «المرآة» فى مجلد، ولما عثرت عليه فى المشهد الغروى رأيت مكتوبًا على ظهر الورقة الأولى منه: كتاب «مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار» وهو مصباح لأنظار الأبرار، ومقدمة للتفسير الذى صنفه الشيخ الأجل والنحرير الأنبل العالم العلامة والفاضل الفهامة الشيخ عبد اللطيف الكازرانى مولدًا والنجفى سكنًا. . . إلخ، فتحيَّرتُ وتعجَّبتُ من هذه السرقة فكتبتُ إلى بانى الطبع ما معناه: إن هذا التفسير للمولى الجليل أبى الحسن الشريف، وأما عبد اللطيف فلم أسمع بذكره ولم نره فى كتاب، ولعل الكاتب السارق المطفئ لنور الله اشتبه عليه ما فى صدر الكتاب بعد الخطبة من قوله: «يقول العبد الضعيف الراجى لطف ربه اللطيف خادم كلام الله الشريف». . . إلى آخره، فظن أنه أشار إلى اسمه فى ضمن هذه العبارة ولكن النسبة إلى «كازران» لا أدرى ما منشؤها، فوعدنى فى الجواب أن يتدارك ويغير ويبدل الصفحة الأولى ويكتب على ظهرها اسم مؤلفه وشرح حاله الذى كتبته سالفًا على ظهر نسختى من التفسير، وإلى الآن ما وفَّى بعهده، وأعد نفسه لمؤاخذة المولى الشريف فى غد، فليبلغ الناظر الغائب أن هذا التفسير المطبوع فى سنة (١٢٩٥هـ) فى طهران المكتوب فى ظهره ما

تقدم للمولى أبى الحسن الشريف الذى يعبر عنه فى الجواهر بجدى العـلاَّمة، لا لعبد الطيف الكازرانى الذى لم يتولد بعد... إلى الله المشتكى وهو المستعان».

... ثم ذكر له ترجمة أخرى تتضمن ما سبق، وفيها من مؤلفاته شرح على المفاتيح سماه: «شريعة الشيعة ودلائل الشريعة».

«قال صاحب روضات الجنات: ويظهر من تضاعيف كتاب الآمل أن بيت بنى موسى بن على النباطيين العاملين بيت كبير من أهل الفقه والأدب والحديث، وأكثرهم كانوا متوطنين إما بمحروسة أصفهان أو مجاورين بالنجف الأشرف».

وفى خطبة الكتاب للمؤلف ما نصه:

«أما بعد... فيقول العبد الضعيف الراجى لطف ربه اللطيف، خادم كلام الله: أبو الحسن الشريف» (١/ ٣).

وقال الناشر فى آخر المقدمة ما نصه:

«والحمد لله على أن وفقنا لتجديد طبع هذا الكتاب الذى لم يأت بمثله ذوو العلوم من تأويلات أيات كتاب الله المبين والفرقان العظيم، وحل مشكلاته مستدلاً فيما جاء به من التأويل بالأحاديث المأثورة عن النبى ﷺ والأئمة عليهم السلام.

جزى الله مؤلفه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء».

التعريف بمرآة الأنوار ومشكاة الأسرار وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير يعد فى الحقيقة مرجعًا مهمًا من مراجع التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية، وأصلاً لا بد من قراءته لمن يريد أن يقف على مدى تأثير عقيدة صاحبه ومن على شاكلته فى فهمه لكتاب الله، وتنزيله لنصوصه على وفق ميوله المذهبية وهواه الشيعى... ولكن كيف نحكم بأهمية هذا التفسير كمرجع من مراجع التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية، ونحن لم نعثر عليه فى مكتبة من مكاتبنا المصرية؟ أليس هذا يعد من قبيل الحكم على ما نجهله، والقول فيما ليس لنا به علم؟!... لا، فالكتاب وإن لم نظفر به ولم نطلع عليه، قد وجدنا ما هو عوض عنه إلى حد كبير، ذلك هو مقدمته التى قدم بها مؤلفه لتفسيره هذا.

وجدت هذه المقدمة فى دار الكتب المصرية، فقرأتها، فرأيتها تكشف لنا عن منهج صاحبها فى تفسيره، وتوضح لنا كثيرًا من آرائه فى فهم كتاب الله وتبين فى

صرحة تامة كيف تأثر المؤلف بعقيدته الزائفه، فحمل كتاب الله ما لا يحتمله بأى حال من الأحوال، وها أنا ذا ألخص لك أهم المباحث التى تشتمل عليها هذه المقدمة، ولذلك نلقى ضوءًا على هذا التفسير المفقود ونعطى القارئ فكرة واضحة إلى حد كبير عن طريقة المؤلف ومنهجه فى تفسيره.

المؤلف يتكلم عن الباعث له على تأليف تفسيره وعلى منهجه الذى سلكه فيه:

يجد القارئ أول ما يقرأ فى هذه المقدمة، بيانًا مسهبًا من المؤلف، يكشف لنا فيه عن الباعث الذى حمله على تأليفه لهذا التفسير، وعن المنهج الذى نهجه لنفسه فيه وسار عليه، كما يكشف لنا فى أثناء بيانه هذا، عن نظرته لكتاب الله وموقفه من تفسيره، تلك النظرة التى لا نشك أنها نظرة رجل ينظر إلى القرآن من خلال عقيدته، وذلك الموقف الذى لا نرتاب فى أنه موقف من أغراه مذهبه وخدعه هواه.

يقول المؤلف فى المقدمة ص٢، ٣ ما نصه: «... إن من أبين الأشياء وأظهرها، وأوضح الأمور وأشهرها، أن لكل آية من كلام الله المجيد... وكل فقرة من كتاب الله الحميد، ظهرًا وبطنًا؛ وتفسيرًا وتأويلاً، بل لكل واحدة منها ـ كما يظهر من الأخبار المستفيضة ـ سبعة بطون وسبعون بطنًا، وقد دلت أحاديث متكاثرة، كادت أن تكون متواترة، على أن بطونها وتأويلها، بل كثيرًا من تنزيلها وتفسيرها، فى فضل شأن السادة الأطهار، وإظهار جلالة حال القادة الأخيار، أعنى النبى المختار، وآله الأئمة الأبرار، عليهم صلوات الله الملك الغفار، بل الحق المتين، والصدق المبين، كما لا يخفى على البصير الخبير بأسرار كلام العليم القدير، المرتوى من عيون علوم أمناء الحكيم الكبير، أن أكثر آيات الفضل والإنعام، والمدح والإكرام، بل كلها فيهم وفى أوليائهم نزلت، وأن جل فقرات التوبيخ والتشنيع، والتهديد والتفضيح، بل جملتها فى مخالفيهم وأعدائهم وردت، بل التحقيق الحقيق ـ كما سيظهر عن قريب ـ أن تمام القرآن إنما أنزل للإرشاد إليهم، والإعلام بهم، وبيان العلوم والأحكام لهم، والأمر بإطاعتهم وترك مخالفتهم، وأن الله عز وجل جعل جملة بطن القرآن فى دعوة الإمامة والولاية، كما جعل جل ظهره فى دعوة التوحيد والنبوة والرسالة».

وهذه الدعاوى من المؤلف لا نكاد نسلمها له، إذ أنها لا تقوم على دليل صحيح، وما ادعاه من دلالة الأخبار المستفيضة والأحاديث المتكاثرة على ما ذهب إليه، أمر لا

يلتفت إليه ولا يعول عليه، لأن ما يعنيه من الأخبار والأحاديث لا يعدو أن يكون موضوعًا لا أصل له، ومن هذا يتضح لنا أن هذا الشيعى مبالغ فى تشيعه إلى حد جعله يحمل كتاب الله تعالى ما لا يحتمله، ويجعله موزعًا بين دعوة الحق ودعوة الباطل، تلك بظاهر القرآن وهذه بباطنه!!.

ثم ذكر المؤلف بعد ذلك ما كان من تسامح مفسرى الشيعة الذين سبقوه، وسكوتهم عن ذكر ما ثبت عن الأئمة فى تفاسيرهم، وبين عذرهم فى ذلك.

ثم ذكر أنه كان يجيش بصدره، ويدور بخاطره وخلده، أن يجمع ما تفرق من الأخبار المأثورة عن آل البيت ويشرح مضامينها، ثم يلحق نصوص كل آية بسورتها، وذلك كله فى كتاب مستقل، ولكن حال بينه وبين ما تطمح إليه نفسه ـ حقبة من الزمن ـ تفرقُ باله، وتشتت حاله، وكثرة أشغاله، ثم ظفر بعد ذلك بجملة من الآثار التى كان حريصًا على جمعها، فرأى أن الذى تطمح إليه نفسه لا يصح التغافل والتسامح فيه، فاستخار الله واستعان بحوله وقوته على تحقيق مرامه، فشرع فى جمع الروايات وتحريرها، وتفسير الآيات وتقريرها.

ثم بين لنا هدفه الذى يرمى إليه من وراء هذا التفسير، وهو أنه أراد أن يفسر آيات القرآن ويقرر معانيها على وجه منيف، وبيان لطيف، وطور رشيق، وطرز أنيق، بطريق الإيجاز والاختصار، مع ذكر لب المقصود من الآيات والأخبار، بحيث يوضح غوامض أسرارها، ويكشف عن خبايا أستارها، ويتبين طريق الوصول إلى ذخائر كنوزها، ويرفع النقاب عن وجوه رموزها، من غير تطويل ممل، ولا اختصار زائد مخل.

ثم بيَّن لنا منهجه الذى سلكه فى تأليفه لهذا التفسير، وهو يتلخص فيما يأتى:

١- يختصر الأخبار فلا يذكرها بتمامها، بل يقتصر على موضع الحاجة، ويحذف الأسانيد رغبة منه فى الاختصار.

٢- أنه لا يتعرض لبيان جمع ما يتعلق بظاهر الآيات إلا إذا وجد أن التصريح بالمعنى الظاهر أمر لازم محتوم، وقد جعل مدار هذا التفسير على بيان ما يتعلق بالبطون لخلو أكثر التفاسير منها أو من جلها.

٣- أنه إذا لم يعثر على نص يفسر به الآية اجتهد فى تفسيرها على وفق الأخبار العامة المطلقة التى يمكن استخلاص معنى الآية منها.

٤- أنه يحرص كل الحرص على ما ذكر ما يعرفه من قراءة أهل البيت عند كل آية من القرآن.

ثم ذكر أنه وفق لما وفق إليه من كتابة التفسير «ببركات أول من آمن بالله بعين الإيقان، وثاني أول ما خلق الله قبل الكون والمكان، قاسم درجات الجنان ودركات النيران... إمام المشارق والمغارب، أمير المؤمنين أبي الحسنين علي بن أبي طالب».

ثم قال: «وكنت لا أرجو من الإقدام على هذا الأمر إلا أن يدخلني في شيعته الخاصين وأوليائه الخالصين وأن تدركني شفاعته المقبولة، وحمايته المأمولة وجعلته خدمة لسدته السنية وثوابه هدية إلى حضرته العلية وسميته: مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار».

وبالجملة، فهذا التفسير أشبه ما يكون بالتفسير المأثور، لالتزام صاحبه فيه بيان المعنى بما ورد من الأخبار من علماء أهل البيت إما صريحًا أو استخلاصًا من عموم الأخبار، غاية الأمر أن هذه الأخبار أخبار لا يوثق بصحتها، ولا يعول على صدق نسبتها إلى من تنسب إليه من علماء آل البيت عليهم السلام.

بعد هذا البيان قال المؤلف: «ولنذكر قبل الشروع في المقصود ثلاث مقدمات نافعة لا بد من بيانها ههنا» ونستعرض هذه المقدمات الثلاث فنراه قد جعل المقدمة الأولى في بيان ما يوضح حقيقة ورود بطن القرآن فيما يتعلق بدعوة الولاية والإمامة، كما أن ورود ظهره فيما يتعلق بدعوة التوحيد والنبوة والرسالة، وأن الأصل في تنزيل آيات القرآن بتأويلها، إنما هو الإرشاد إلى ولاية النبي والأئمة صلوات الله عليهم وإعلام عز شأنهم وذل حال شانئهم، بحيث لا خير أخبر به إلا وهو فيهم وفي أتباعهم وعارفيهم ولا سوء ذكر فيه إلا وهو صادق على أعدائهم وفي مخالفيهم، قال: «ويستبين ذلك في ثلاث مقالات:

المقالة الأولى: في بيان ما يوضح المقصود بحسب الأخبار الواردة في خصوص هذه المقدمة، وهي تتم بفصول» ثم ذكر ثلاثة فصول.

جعل **الفصل الأول** منها في بيان نبذ مما يدل على أن للقرآن بطونًا ولآياته تأويلات، وأن مفاد فقرات القرآن غير مقصور على أهل زمان واحد، بل لكل منها تأويل يجري في كل أوان وعلى أهل كل زمان... ثم ساق الروايات الدالة على ذلك وكلها مسندة إلى آل البيت، فمن هذه الروايات ما رواه العياشي وغيره عن جابر قال:

«سألت أبا جعفر عليه السلام عن شيء من تفسير القرآن فأجابنى، ثم سألته ثانية فأجابنى بجواب آخر، فقلت: جعلت فداك كيف أجبت فى هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم؟ فقال لى: يا جابر، إن للقرآن بطنًا، وللبطن بطنًا وظهرًا، يا جابر، وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن... إن الآية ليكون أولها فى شيء وآخرها فى شيء وهو كلام متصل يتصرف على وجوه» ثم عقب المؤلف على هذا الخبر فقال: (دلالة مبدأ هذا الخبر على وجود تأويل له باطن وظاهر، وعلى تعدد تأويل آية واحدة، وعلى عدم تنافى تأويل أول آية فى شيء وآخرها فى آخر، بل عدم تنافى التفسير بالظاهر فى أولها والباطن فى آخرها أو بالعكس ظاهره، فإذا سمعت شيئًا من ذلك فلا تنكره؛ لأنهم عليهم السلام أعلم بالتنزيل والتأويل، وبما فيه إصلاح السائل والسامع، ولهذا ورد: «إن القرآن ذلول ذو وجوه فأحملوه على أحسن الوجوه» ويؤيده ما فى الكافى عن الصادق عليه السلام أنه قال لعمر بن يزيد لما سأله عن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ (الرعد: ٢١) هذه نزلت فى رحم آل محمد ﷺ وقد يكون فى قرابتك، فلا تكون ممن يقول للشيء إنه فى شيء واحد».

ومن هذه الروايات ما نقله عن كتاب العلل بإسناده إلى أبى حكيم الزاهد قال: حدثنى أبو عبد الله بمكة قال: «بينما أمير المؤمنين عليه السلام مار بفناء الكعبة إذ نظر إلى رجل يصلى فاستحسن صلاته، فقال: يا هذا الرجل، إن الله تبارك وتعالى ما بعث نبيه ﷺ بأمر من الأمور إلا وله متشابه وتأويل وتنزيل، وكل ذلك على التعبد، فمن لم يعرف تأويل صلاته فصلاته كلها خداج ناقصة غير تامة» ثم عقب المؤلف على هذا فقال: «الظاهر أن المراد بالمتشابه الشبيه، وبالتأويل الباطن، وبالتنزيل الظاهر، وبالتعبد سبيل الإطاعة، والمعنى: أن كل ما جاء به النبى ﷺ وأمر به فى الظاهر فله شبيه ونظير مأمور به فى الباطن، ويلزم الإيمان بهما جميعًا، فمن لم يعرف شبيه الصلاة وباطنها الذى هو الإمام إطاعته - كما سيأتى - فصلاته الظاهرية ناقصة». (ص٣، ٤).

وعقد الفصل الثانى فى ذكر الأخبار الصريحة فى أن بطن القرآن وتأويله إنما هو بالنسبة إلى الأئمة وولايتهم وأتباعهم وما يتعلق بذلك، فكان من جملة الأخبار التى ساقها: ما رواه الكلينى بإسناده إلى أبى بصير قال: «قال الصادق عليه السلام: يا أبا

محمد، ما من آية تقود إلى الجنة ويذكر أهلهـا بخير إلا وهى فينا وفى شيعتنا، وما من آية نزلت يذكر أهلها بشر وتسوق إلى النار إلا وهى فى عدونا ومن خالفنا».

وما نقله عن الكافى وتفسير العياشى وغيرهما، عن محمد بن ميمون، عن الكاظم عليـه السلام فى قوله تـعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...﴾ (الأعـراف: ٣٣) قال: «القرآن له ظهر وبطن، فجميع ما حرم الله فى الكتاب هو الظاهر، والباطن من ذلك أئمـة الجور، وجميع ما أحل الله فى الكتـاب هو الظاهر والباطن من ذلك أئمة الحق.

وما رواه عن البـاقر عليـه السلام قال: قـال النبى ﷺ فى خطبتـه يوم الغدير: «معاشر الناس: هذا علىٌّ أحقكم بى، وأقـربكم إلىَّ، والله وأنا عنه راضيان، وما نزلت آية رضى إلا فيه، وما خاطـب الذين آمنوا إلا بدأ به، وما نزلت آية مدح فى القرآن إلا فيه، معاشر الناس: إن فضائـل على عند الله عز وجل، وقد أنزلها علىَّ فى القرآن أكثر من أن أحصيها فى مكان واحد فمن نبأكم بها وعرفها فصدقوه».

وما رواه عن عبـد الله بن سنان أنه قال: قال زريح المحاربى: سـألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ (الحج: ٢٩) فقال: المراد لقاء الإمام، فأتيت أبا عبد الله عليه السـلام وقلت له: جعلت فداك، قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لْيَقْـضُوا تَفَثَـهُمْ﴾ قال: أخذ الشارب، وقص الأظافر، ومـا أشبه ذلك، فحكيت له كلام ذريح فقال: صـدق ذريح وصدقت، إن للقرآن ظاهرًا وباطنًا ومن يحتمل مـا يحتمل ذريح؟» ثم عقب المولى على هذا فقال: «الكلام من الإمـام عليه السلام صريح فى أنهم عليهم السلام كانوا يكتمون أمثال هذه التأويلات عن أكثر الناس، حتى عن ابن سنان الذى كان من فضلاء أصحابه». (ص٥).

وعقد **الفصل الثالث** فى بيان نبذ مما يدل على وجوه تناسب الظواهر مع البطون، وجـهات تشـابه أهل التأويل مع أهل التـنزيل فقـال: «اعلم أن ما دلت عليـه الأخبـار الماضـية، وما تدل عليه الأخـبار التى ستأتى من الـمعانى الباطنة والتـأويلات، ليست جملتها مـما استعمل فيها اللفظ على سـبيل الحقيقة، بل أكثـرها ومعظمها على طريق التجوز، ونهج الاسـتعارة، وسبيل الكناية، ومـن قبيل المجازات اللغـوية والعقلية، إذ أبواب التجوز فى كلام العرب واسعة وموارده فى عبارات الفـصحاء سائغة، فلا استبعاد

إن أراد الله عز وجل بحسب الاستعمال الذى يدل عليه ظاهر اللفظ معنى، وبحسب التجوز الذى تدل عليه القرائن ويجتمع مع الظاهر بنوع من التناسب معنى آخر، وسنشير إلى كثير من وجوه التناسب فى المقدمة الثالثة وغيرها، ولكن نذكر فى هذا المقام من كليات تلك الوجوه بعض ما يستفاد من أخبار الأئمة الأطياب، ونرفع عن وجوه الآيات لطالب تأويلها الحجاب، ونكشف عنها النقاب، تبصرة لمن أراد التبصر من أولى الألباب، وأما إحاطة العلم بالجميع، فهى للراسخين فى العلم ومن عنده علم الكتاب... كما سيظهر فى الفصل الأخير.

فاعلم أنه يمكنه تبيين المرام فى هذا المقام من وجوه وإن أمكن إرجاع بعضه إلى بعض» ثم ساق وجوها خمسة يرجع بعضها إلى بعض كما قال، فكان مما ذكره فى الوجه الرابع: ما جاء فى البصائر «عن نصر بن قابوس قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله عز وجل: ﴿**وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ**﴾ (الواقعة: ٣٠ - ٣٣) قال: يا نصر إنه ليس حيث يذهب الناس إنما هو العالمُ وما يخرج منه».

ثم قال المؤلف: «قال شيخنا العلامة ـ رحمه الله: لعل المعنى ليس حيث يذهب الناس من انحصار جنة المؤمنين فى الجنة الصورية الأخروية، بل لهم فى الدنيا أيضًا ببركة أئمتهم عليهم السلام جنات روحانية من ظل حمايتهم ولطفهم الممدود فى الدنيا والآخرة، وماء مسكوب من علومهم الممتعة التى بها تحيا النفوس والأرواح، وفواكه كثيرة من أنواع معارفهم التى لا تنقطع عن شيعتهم ولا يمنعون منها، وفرش مرفوعة مما يتلذذون به من حكمهم وآدابهم بل لا يتلذذ المقربون فى الآخرة أيضًا فى الجنان الصورية إلا بتلك الملاذ المعنوية التى كانوا يتنعمون بها فى الدنيا كما تشهد به الأخبار. انتهى كلامه أعلى الله مقامه. فتأمل ولا تغفل عن جريان مثله فى ساير نعم الجنة، مثل أنهار الخمر وأمثالها، كما يشهد له ما سيأتى فى الأنهار واللبن من تأويل اللبن والخمر بعلوم الأئمة عليهم السلام، وسيأتى فى الجنة والنار وما بمعناهما من تأويل الأولى بولاية الأئمة، والثانية بعداوتهم، وأمثال هذه التأويلات كثيرة ينادى بها كثير من الأخبار فى الترجمات الجائية المناسبة لها فافهم، وكذا كل ما ورد ظاهره فى

العذاب، والمسخ والهلاك، والموت البدنى، ونحو ذلك، فباطنه فى الهلاك المعنوى بضلالاتهم وحرمانهم عن العلم والكمالات، وموت قلوبهم ومسخها وعميها عن إدراك الحق، فهم إن كانوا فى صور البشر لكنهم كالأنعام بل هم أضل، وإن كانوا ظاهراً بين الأحياء، فهم أموات، ولكن لا يشعرون، إذ لا يسمعون الحق، ولا يبصرونه، ولا يعقلونه، ولا ينطقون به ولا يأتى منهم أمر ينفعهم فى أخراهم، فهم شر من الأموات وكذا كل ما كان فى القرآن مما ظاهره فى النهى عن القبائح الصورية، وتحريم الخبائث الظاهرية، كالزنا، والسرقة، والإيذاء، ونحوها مما هو علامة رذالة حال فاعله، ودليل خباثة طبع مرتكبه، كالخمر والميتة، والدم، ونحوها مما تستقذر منه الطبائع السليمة، وتنفر منه القرائح المستقيمة، فبطنه فى النهى عن القبائح الباطنة التى هى معاداة الأئمة عليهم السلام، والزجر عن الخبائث المعنوية التى هى أعاديهم ومنكروا ولايتهم والفضائل التى هى فيهم، فإنها أيضًا فى استقذار الأرواح، وتخبث القلوب، واستنفار العقول... ونحو ذلك مثل الخبائث الظاهرة والقبائح الصورية، بل أشد كما لا يخفى، وهكذا حال بطون ما ظاهره فى الترغيب بالمبرات والأمر بالخيرات بالنسبة إلى الأئمة وولايتهم ومعرفتهم، وبالجملة المدار علىٰ تشبيه الأمور المعنوية بالصورية، كالحياة والموت والانتفاعات والتصورات الروحانية بالجسمية... وهكذا فى البواقى، على أن فى هذا الأخير تناسبًا آخر أيضًا، وهو أنه لا خفاء فى كون النبى والأئمة صلوات الله عليهم وسائط معرفة العبادات والمأمورات، وأنهم الأصل فى قبولها فلا بُعدَ إن أريدوا بها فى بطن القرآن، وكذا لا بعد فى كون أعدائهم من حيث مضادتهم لهم من المراد بالخبائث والمنهيات). (ص٨).

وفى الوجه الخامس من العلل، علل ما ورد من تأويل معرفة الله، وعبادته ومخالفته، وأسفه، وظلمه، ورضاه، وسخطه، وأمثالها بمعرفة الإمام، وإطاعته ومخالفته، وأسفه وظلمه ورضاه، وسخطه وكذا تأويل الإمام، يد الله، وعينه، وجنبه، وقلبه وسائر ما هو من هذا القبيل مما نسبه الله إلى نفسه وخصه به، بالإمام عليه السلام، وما ورد من الأخبار فى تأويل روح الله ونفسه، ولفظ الجلالة والإله والرب الإمام عليه السلام... علل هذه التأويلات وما شاكلها بأن الذى جرى من عادة

الأعاظم والملوك والأكابر أن ينسبوا ما وقع من خدمهم بأمرهم إلى نفسهم تجوزًا، وكذا قد ينسبون مجازًا ما يصيب خدمهم ومقربيهم من الإطاعة والخير والشر إلى أنفسهم، إظهارًا لجلالة حال أولئك الخدم عندهم، وإشعارًا بأنهم فى لزوم المراعاة والإطاعة ودفع الضر عنهم وجلب النفع إليهم بمنزلة مخاديمهم وفى حكمهم، بحيث أن كل ما يصل إليهم فهو كالواصل إلى المخاديم.

قال الصادق عليه السلام - كما سيأتى عن الكافى وغيره: إن الله تعالى لا يأسف كأسفنا، ولكن خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون وهم مخلوقون مربوبون، فجعل رضاهم رضا نفسه، وسخطهم سخط نفسه؛ لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه. . . الخبر. . . فى رواية أخرى: ولكن الله خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته، ثم أنزل بذلك قرآنًا على نبيه. . . الخبر.

قال المؤلف: وسيأتى بقية الأخبار مفصلة، وهكذا كثيرًا ما يطلق تجوزًا على مقربى الرجل وأعوانه أسامى جوارحه وأعضائه وسائر ما يختص به فى النفع كما يقال للوزير الكامل المقرب عند السلطان النافع له جدًا: إنه يده وسيفه وعينه. . . وهكذا بناء على أنه فى الدفع والنفع والقرب والعزة مثل ذلك، حتى إنه قد يقال: إنه روحه ونفسه، بل ربما يقال إنه السلطان تجوزًا بمعنى أنه جعل إطاعته إطاعته، ومخالفته مخالفته، بحيث لا يرضى بغير ذلك» (ص٩).

ثم عقد الفصل الرابع فى بيان ما يدل على أن الواجب على الإنسان أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه، وتنزيله وتأويله معًا، كما أن الواجب الإيمان بمحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه، وبسائر ما يتعلق بذلك جميعًا مفصلاً أو على سبيل الإجمال إن لم يعلم التفصيل من طريق أهل البيت الذين هم أدرى بما فى البيت، وإن من أنكر الظاهر كافر وإن أقر بالباطن، كما هو مذهب الباطنية من ملاحدة الخطابية والإسماعيلية وغيرهم القائلين بسقوط العبادات كما سيظهر، وكذا بالعكس: أى إنكار الباطن وإن أقر بالظاهر، على كل مؤمن أن لا يجترئ بإنكار ما نقل عن الأئمة عليهم السلام فى ذلك تفسيرًا وتأويلاً وإن لم يفهم معناه ولم يدرك مغزاه. . . ثم ساق من الروايات ما يدل على ذلك، وكلها منسوبة إلى أهل البيت، فمن ذلك ما روى عن الباقر عليه السلام أنه

قال: «إن الله عز وجل قد أرسل رسله بالكتاب وبتأويله، فمن كذب بالكتاب أو كذب بما أرسل به رسله من تأويل الكتاب فهو مشرك». (ص٩).

ومنها ما روى عن الهيثم التميمى، قال: (قال أبو عبد عليه السلام: يا هيثم إن قومًا آمنوا بالظاهر وكفروا بالباطن فلم ينفعهم ذلك شيئًا، وجاء قوم من بعدهم فآمنوا بالباطن وكفروا بالظاهر فلم ينفعهم ذلك شيئًا لا إيمان بظاهر إلا بباطن، ولا بباطن إلا بظاهر). (ص٩).

وعقد الفصل الخامس: فى بيان ما يدل على أن علم تأويل القرآن كله عند الأئمة عليهم السلام، وما ذكر فى الأخبار الواردة فى المنع من تفسير القرآن بالرأى وبغير سماع من الأئمة، وفى الجمع بينها وبين ما يعارضها من الآيات والروايات وتوجيه ما هو الحق فى ذلك، فقال: «اعلم أنه لا ريب فى اطلاع النبى والأئمة على جميع وجوه آيات القرآن ومعانيها كلها؛ ظواهرها وبواطنها تنزيلها وتأويلها، وأنهم الذين عندهم علم الكتاب كله، كما أنزله الله فى بيتهم؛ فإن أهل البيت أدرى بما فى البيت، وقد دلت على هذا أخبار متواترة... فمنها ما فى البصائر بسند صحيح عن أبى الصباح قال: والله لقد قال لى جعفر بن محمد عليهما السلام: إن الله علم نبيه ﷺ التنزيل والتأويل قال: فعلم رسول الله ﷺ عليًا عليه السلام؛ قال: وعلمنا... الخبر.

وما فيه أيضًا بإسناده عن يعقوب بن جعفر قال: كنت مع أبى الحسن عليه السلام بمكة، فقال له رجل: إنك لتفسر من كتاب الله ما لم نسمع به، فقال أبو الحسن: فنحن نعرف حلاله وحرامه، وناسخه ومنسوخه، وسفريه وحضريه، وفى أى ليلة نزلت من آية، فيمن نزلت، وفيم أنزلت... الخبر.

واستدل أيضا بما فى الكافى عن أبى جعفر عليه السلام أنه قال: ما يستطيع أحد يدعى أن عنده علم جميع القرآن كله ظاهره وباطنه إلا الأولياء.

ثم قال المؤلف بعد سياقه لهذه الروايات وغيرها: «وأما غيرهم عليهم السلام فلا شبهة فى قصور علومهم وعجز أفهامهم عن الوصول إلى ساحة إدراك كثير من تفسير الظواهر والتنزيل، فضلاً عن البواطن والتأويل، بلا إسناد من الأئمة العاملين، وعناية من الله رب العالمين».

ثم بعد أن استدل على ذلك بما ذكره من روايات سابقة ولاحقة قال: «ولهذا ورد المنع من التفسير بغير الأخذ منهم عليهم السلام» ثم استدل على عدم جواز تفسير القرآن بالرأى وضرورة الرجوع إلى الأئمة فى فهم معانيه، فكان مما استدل به، ما رواه عن العياشى عن الصادق عليه السلام قال: «من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر، وإن أخطأ فهو أبعد من السماء» وما روى عن النبى ﷺ «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» وما ورد فى تفسير الإمام عليه السلام من قوله: «أتدرون من المتمسك بالقرآن الذى له الشرف العظيم؟ هو الذى يأخذا القرآن وتأويله عنا أهل البيت، أو عن وسائط السفراء عنا إلى شيعتنا، لا عن آراء المجادلين، وقياس الفاسقين، فأما من قال فى القرآن برأيه فإن اتفق له مصادفة صواب فقد جهل فى أخذه عن غير أهله، وإن أخطأ القائل فى القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار». (ص١١، ١٢).

ثم بعد ذلك وفق بين الأخبار الدالة بظواهرها على حرمة التفسير بالرأى وبين ما ورد من قوله تعالى: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ (محمد: ٢٤) وقوله: ﴿**لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ (النساء: ٨٣) وقوله ﷺ: «القرآن ذلول ذو وجوه، فاحملوه على أحسن الوجوه» وغير ذلك من الآيات والأخبار الدالة على أن فى معانى القرآن لأرباب الفهم متسعًا بالغًا ومجالاً رحبًا فقال: لنا فى هذا المقام توجيهات عديدة نشير ههنا إلى ما هو الأكمل منها، وهو ما ذكره بعض محققى علمائنا، وقال: «الصواب أن يقال: إن من أخلص الانقياد لله ورسوله ولأهل البيت، وأخذ علمه منهم؛ وتتبع آثارهم، واطلع على جملة من أسرارهم، بحيث يحصل له المراس فى العلم والطمأنينة فى المعرفة، وانفتح عينا قلبه، وهجم به العلم على حقائق الأمور، وباشر روح اليقين، وأنس بما استوحش منه الجاهلون، فله أن يستفيد من القرآن غرائبه، ويستنبط منه نبذًا من عجائبه، وليس ذلك من كرم الله بغريب، ولا من جوده بعجيب، وليست السعادة وقفًا على قوم دون آخرين، وقد عدوا عليهم السلام جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفات من أنفسهم، كما قالوا: سلمان منا أهل البيت، فمن هذه صفته لا يبعد دخوله فى الراسخين فى العلم، العالمين بالتأويل». (ص١٢، ١٣).

ثم قال: «وأما التفسير المنهى عنه، فقد نرله المحقق أيضًا على وجهين:

أحدهما: أن يكون للمفسر فى الشىء رأى وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه، ليحتج به على تصحيح غرضه ومدعاه، فيكون قد فسر القرآن برأيه؛ أى رأيه هو الذى حمله على ذلك التفسير، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه، وهذا كما أنه مع الجهل كأكثر تفاسير المخالفين مثلاً كذلك قد يكون مع العلم، كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك، ولكن يلبس على خصمه، ومن هذا ما مر من تأويلات الباطنية، وقد يصدر مثله عمن له غرض صحيح، لكن يطلب له دليلاً من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به ذلك، كالذى يدعو مثلاً إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول: قال الله تعالى: ﴿**اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ**﴾ (طه: ٢٤) ويشير إلى قلبه ويومئ إليه أنه المراد بفرعون، قال ذلك المحقق، وهذا قد يستغله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينًا للكلام وترغيبًا للمستمع، وهو ممنوع.

ثانيهما: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل عن الأئمة فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيها من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيها من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير، وفيما يتعلق بالناسخ والمنسوخ والخاص والعام والرخص والعزائم والمحكم والمتشابه، إلى غير ذلك من وجوه الآيات المفتقرة إلى السماع إذ من بادر إلى استنباط المعانى فيها بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل فى زمرة من يفسر بالرأى، فلا بد له أولاً من السماع وظاهر التفسير ليتقى مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط، فإن ظاهر التفسير يجرى مجرى تعليم اللغة التى لا بد منها للفهم، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿**وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا**﴾(الإسراء: ٥٩) فإن معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها، والناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء، ولا يدرى أنهم بماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم، ومن ذلك الآيات التى سنشير إلى كونها واردة على سبيل الكناية والرموز بحيث لا يطلع على ما فيها إلا من تجرع كئوس علوم آل محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، كما سيأتى فى الفصل السادس من المقالة الأولى من المقدمة الثالثة فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا**

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة: ٥٧) من أن المراد ظلم محمد وآله، ومنها ما سيأتى أيضا فى الفصل الثالث من المقالة المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٤) من أنه تعالى عنى بذلك غير النبى ﷺ كما قال الصادق عليه السلام: «ما خاطب الله به نبيه فهو يعنى به من قد مضى» وقد روى الكلينى وغيره عنه عليه السلام أنه قال: «نزل القرآن بإياك أعنى واسمعى يا جارة» وعن الباقر عليه السلام: «إذا علم الله شيئًا هو كائن أخبر عنه خبر ما قد كان» وقد مر فى حديث جابر قوله عليه السلام: «وليس شىء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إن الآية ليكون أولها فى شىء وآخرها فى شىء... الخبر» وسنذكر عن قريب فى فصول المقالة المذكورة وغيرها، ما يوضح حال تفسير الآيات التى كذا شأنها، ليتبصر به الناظر فيما نذكره من تفسير تلك الآيات إن شاء الله تعالى. (ص١٣).

ونحن لا نرى أدنى خلل فيما ذكره من الوجهين السابقين بصرف النظر عما ذكره من تفسير، ولكن نأخذ عليه أنه لم يأخذ بما قال، بل جعل القرآن تبعًا لرأيه، ونزَّله على معان تتفق وهواه، ورمى غيره بالداء الذى هو فيه.

ثم ذكر المقالة الثانية، فجعلها فى بيان ما يوضح اشتمال كلام الله تعالى، الوارد فيما يتعلق بالتوحيد والنبوة صريحًا وتنزيلاً، على ما يتعلق بالولاية والإمامة بطنًا وكناية وتأويلاً، بحسب الأخبار الواردة فى أن الولاية أى الإقرار بنبوة النبى وإمامة الأئمة والتزام حبهم وإطاعتهم وبغض أعدائهم ومخالفيهم أصل الإيمان، مع توحيد الله عز وجل؛ بحيث لا يصح الدين إلا بذلك كله، بل إنها بسبب إيجاد العالم، وبناء حكم التكليف، وشرط قبول الأعمال والخروج عن حد الكفر والشرك، وأنها التى عرضت كالتوحيد على الخلق جميعًا، وأخذ عليهم الميثاق، وبعث بها الأنبياء، وأنزلت فى الكتب، وكلف بها جميع الأمم ولو ضمنًا، وأن نسبة النبوة إلى الإمامة كنسبتها إلى التوحيد فى تلازم الإقرار بها وبقرينها، بحيث إن الكفر بكل فى حكم الكفر بالآخر، ولا يفيد الإيمان ببعض دون بعض، وأن الأئمة مثل النبى فى فرض الطاعة والأفضلية بعده على الخلائق أجمعين، وكونهم وسائط ووسائل لسائر عباد الله المكرمين، من الأنبياء والأوصياء والملائكة المقربين... عقد هذه المقالة الثانية لهذا الغرض فقال:

«اعلم أن الأحاديث الغير المحصورة، تدل على هذه الأمور المذكورة، بل أكثرها مما هو مجمع عليه عند علمائنا الإماميين، وقد نص على حقيقتها بل كون جلها من ضروريات هذا المذهب أعاظم أصحابنا المحدثين» وكفى فى بيان ذلك ما ذكروه من مباحث الإمامة وكتب فضائل الأئمة، وسنذكر فى هذا الكتاب لها شواهد كثيرة، فلنكتف ههنا بنقل شيء من تصريحات محققى أصحابنا فى هذا الباب، وذكر أقل قليل من نصوص الأئمة الأطياب إذا ليس هنا موضع البسط والإطناب ويكفى ما سنذكره فى تبصرة من هو من أولى الألباب «فههنا فصول خمسة»... ثم ساق الفصول الخمسة:

فجعل الفصل الأول منها فى بيان نبذ من تصريحات علماء الشيعة الإمامية من عظيم شأن الأئمة وولايتهم وكفر منكريهم.

وجعل الفصل الثانى فى بيان نبذ من الأخبار التى وردت فى خصوص فرض ولاية أهل البيت وحبهم وطاعتهم، وأن ذلك مناط صحة الإيمان، وشرط قبول الأعمال والخروج عن حد الكفر والشرك، وأورد فيه ما جاء من ذم إنكار الولاية والشك فيهم، وكفر مبغضيهم ومخالفيهم.

وجعل الفصل الثالث فى بيان بعض الأخبار التى وردت فى أن الإقرار بإمامة الأئمة وحبهم وولايتهم يتلو الإقرار بنبوة النبى ﷺ وآله فى مدخلية صحة الدين وصدق الإيمان، كما أن الإقرار بالنبوة يتلو التوحيد فى ذلك، وأن نسبة النبوة إلى الإمامية، كنسبتها إلى التوحيد فى تلازم الإقرار بها وبقرينها، بحيث إن الكفر بكل فى حكم الكفر بالآخر ولا يفيد الإيمان ببعض دون الآخر.

وجعل الفصل الرابع فى بيان بعض الأخبار التى وردت فى خصوص أن الولاية عرضت مع التوحيد على الخلق جميعًا، وأخذ عليهم الميثاق، وبعث بها الأنبياء، وأنزلت فى الكتب وكلف بها جميع الأمم، وأورد فيه ما يدل على أنها سبب إيجاد الخلق أيضًا.

وجعل الفصل الخامس فى بيان بعض الأخبار التى وردت فى أن النبى ﷺ وآله والأئمة عليهم السلام أول المخلوقين، وأفضلهم وأكملهم، وأكرمهم، بحيث كانت

الملائكة والأنبياء تتـوسل بهم وبولايتهم، وتفخر الملائكة بخدمتهم، وتعلـموا التسبيح والتمجيد منهم، وأنهم وولايتهم العلة فى الإيجاد، والأصل فى الطاعة والمعرفة.

ثم ذكر المقالة الثالثة وجعلها فى بيـان ما يوضح ورود بطون القرآن فيـما يتعلق بالولاية والإمـامة، بحـسب الأخـبار التـى تدل على أن هذه الأمة تقـتـفى سنن الأمم السابقة، وسيرة من كان قبلهم فى كل أفعالهم وجميع أطوارهم وأعمالهم، كما أنه كان كذلك فى سائر الأمم، قال: «فإنها بجملتها ـ يعنى بطون القرآن ـ تقتضى بحسب لطف الله تعالى أن لا يتـرك الإنذار والتبشيـر فيهم، كمـا لم يترك بالنسبة إلى سـابقهم، وأن يشير إلى الـزين والشين فى كل أوان بالنسبه إلى أهل كل زمـان، وحيث لم يكن وقت نزول القرآن بعض ما علم الله صدوره من هذه الأمة صار أبعد منهم، فلا بد من ألطافه الكاملة أن يجعل ذلك تأويل كلامه البليغ، بحيث يستفاد من التنزيل والتبليغ، ولا شك أن هذا أبلغ فى الإعجاز وأجمل للإيجاز. . .» وقـد أورد فى جملة ما أورد من الأخبار فى ذلك، ما رواه الطبرسى فى الاحتجاج عن على عليه السلام أنه قال فى قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (الانشـقاق: ١٩) أى لتسلكن سبيل من كان قبلكم من الأمم فى الغدر بالأوصياء بعـد الأنبياء، وما رواه الكلينى فى الصحيـح عن زرارة عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قال: يا زرارة. . . أى لتركبن هذه الأمة بعد نبيها طبقًا عن طـبق فى أمر فلان، وفلان، وفلان» قال المؤلف: «أقول: أى كانت ضلالتـهم بعد نبيهم مطابقة لمـا صدر من الأمم السابقة فى ترك الخليـفة واتباع العجل والسامرى وأشباه ذلك. . . قـال: ويحتمل أن يكون المعنى تطابق أحوال خلفاء الجور فى الشدة والفساد». (ص٢٣، ٢٤).

ثم ذكر المقدمـة الثانية فتكلم فى بيان ما يوضح وقـوع بعض تغيير فى القرآن وأنه السر فى جعل الإرشاد إلى أمر الولاية والإمامـة والإشارة إلى فضائل أهل البيت وفرض طاعة الأئمـة بحسب بطن القرآن وتأويله، والإشعـار بذلك على سبيل التـجوز والرموز التعويض فى ظاهر الـقرآن وتنزيله فقال: «اعلم أن الحق الذى لا محـيص عنه بحسب الأخبار الواردة المتـواترة الآتية وغيرها، أن هذا القرآن الذى فى أيدينا قـد وقع فيه بعد رسول الله ﷺ وآله شـىء من التغيـيرات، وأسـقط الذين جمـعوه بعـده كثيرًا من

الكلمات والآيات، وأن القرآن المحفوظ عما ذكر، الموافق لما أنزله الله تعالى، ما جمعه عليٌّ عليه السلام وحفظه إلى أن وصل إلى ابنه الحسن عليه السلام. . . وهكذا إلى أن ينتهى إلى القائم عليه السلام، وهو اليوم عنده صلوات الله عليه، ولهذا ـ كما قد ورد صريحًا حديث سنذكره ـ لما أن الله عز وجل قد سبق فى علمه الكامل صدور تلك الأفعال الشنيعة من المفسدين فى الدين، وأنهم بحيث كلما اطلعوا على تصريح بما يضرهم ويزيد فى شأن على عليه السلام وذريته الطاهرين، حاولوا إسقاط ذلك رأسًا أو تغييره محرفين، وكان فى مشيئته الكاملة ومن ألطافه الشاملة محافظة أوامر الإمامة والولاية، ومحارسة مظاهر فضائل النبى ﷺ وآله والأئمة، بحيث تسلم عن تغيير أهل التضييع والتحريف ويبقى لأهل مفادها مع بقاء التكليف، لم يكتف بما كان مصرحًا به منها فى كتابه الشريف، بل جعل جلّ بيانها بحسب البطون وعلى نهج التأويل، وفى ضمن بيان ما تدل عليه ظواهر التنزيل، وأشار إلى جمل من برهانها بطريق التجوز والتعريض، والتعبير عنها بالرموز والتورية وسائر ما هو من هذا القبيل، حتى تتم حجته على الخلائق جميعًا ولو بعد إسقاط المسقطين ما يدل عليه صريحًا بأحسن وجه وأجمل سبيل» قال: «ويستبين صدق هذا المقال بملاحظة جميع ما تذكره فى هذه الفصول الأربعة المشتملة على كل هذه الأحوال».

ثم عقد الفصل الأول فى بيان نبذ مما ورد فى جمع القرآن ونقصه وتغييره، من الروايات التى نقلها أصحابه من الإمامية فى كتبهم.

وعقد الفصل الثانى فى بيان نبذ مما ورد فى جمع القرآن ونقصه وتغييره، والاختلاف فيه من الروايات التى نقلها المخالفون فى كتبهم.

وعقد الفصل الثالث فى بيان ما وعد به سابقًا، من الخبر المشتمل على التصريح بتغيير القرآن، وأنه هو السر فى الإشارة إلى ما يتعلق بالولاية والإمامة على سبيل الرمز والتعريض.

وعقد الفصل الرابع فى بيان خلاصة أقوال علمائهم فى تغيير القرآن وعدمه وتزييف استدلال من أنكر التغيير.

ثم ذكر المقدمة الثالثة وقد عقدها لبيان ما يوضح نبذًا من التأويلات المأثورة عن

الأئمة السادات والمفهومة من بعض الروايات، المرشدة إلى تأويل ما لم يظفر من تأويله على نص خاص من الكلمات القرآنية والآيات، قال: ويستبان بها أيضًا ما بينته من صحة ورود بطن القرآن فيما يتعلق بالولاية والإمامة، وأن فى هذا الأمر تأويل ما ورد تنزيله فيما يتعلق بالتوحيد والنبوة. . . عقد هذه المقدمة لبيان ما تقدم فقال:

«اعلم أن التأويلات التى ظفرنا عليها من أخبار الأئمة الأطهار على ثلاثة أقسام:

الأول: ما ورد مختصًا بكلمة أو آية مذكورة فى موضع واحد بحيث لا يجرى فى غيرها، ومحل ذكر مورده.

الثانى: ما ورد فى آية أو كلمة قرآنية لكنه بحيث يجرى فى غيرها، بل ربما يكون الورود على سبيل العموم أيضًا، ونحن نذكر هذا القسم فى هذه المقدمة مع نصه أو الإشارة إلى موضع ذكر النص.

الثالث: ما لم يرد فى تأويل آية إلا أنه مما يجرى فيها، كقوله عليه السلام: «نحن يد الله» ونحوه، وهذا أيضًا مما نذكره فى هذه المقدمة مع ذكر نصه أو الإشارة إليه، وفى هذين الأخيرين إذا وصلنا فى كتابنا هذا إلى موضع يجرى فيه أحدهما أولناه على وفقه بعد الإشارة إلى ورود التأويل وموضعه، بل مع إعادة ذكر أكثر النصوص فى مواردها، ثم من هذه التأويلات ما هو على نهج الكناية والتعريض والمجازات العقلية، ومنها ما هو من قبيل المجاز اللغوى، وها نحن نرتب هذه المقدمة على مقالتين، نذكر فى إحداهما ما ظاهره على النهج الأول مما لا بد من إفراد ذكره، وفى الأخرى سائر التأويلات العامة مع نصوصها، ثم نلحقها بخاتمة نختم بها المقدمات». (ص٣٦).

ثم ذكر المقالة الأولى: فجعلها فى بيان بعض التأويلات التى لا بد من إفراد ذكرها من حيث عظم فوائدها، وجلها من قبيل المجازات العقلية، والتجوز فى الإسناد، والكناية، والتعريض وإن أمكن التكلف فى إدخال بعضها تحت المجاز اللغوى، وقد جعل هذه المقالة مشتملة على سبعة فصول:

جعل الفصل الأول منها: فى بيان ما يظهر من الأخبار من أن الله عز وجل كثيرًا ما أراد فى كتابه بحسب الباطن بالألفاظ والخطابات الواردة ظاهرًا على سبيل العموم خصوص بعض أفراد ما صدقت عليه، كالأئمة أو شيعتهم أو أعدائهم أو نحو ذلك،

قال: ويدل على هذا أحاديث كثيرة، منها ما سيأتى فى تأويل الكافرين بمن كفر بالولاية، والمنافقين بمن نافق فيها، والمشركين بمن أشرك مع الإمام من ليس بإمام، وأشباه ذلك... ثم قال: والحق أنه إذا تأمل بصير فى أكثر ما ورد من تفسير البطن علم أن معظم ذلك من هذا القبيل، وهو مجاز شائع ذائع استعماله فى كثير من الألفاظ العامة والمطلقة ونحوها... إلخ. (ص٣٦).

وجعل الفصل الثانى: فى بيان ما يظهر من الأخبار أن الله تعالى كثيراً ما يخاطب بخطاب أو وصف صادق على الماضين من أهل أزمان النبى ﷺ والأمم السالفة بحسب الظاهر، ومراده بحسب التأويل والباطن من صدق ذلك الخطاب أو الوصف عليه من هذه الأمة بالنظر إلى حال الإمامة والولاية وإن لم يكن فى ذلك الزمان... ثم ذكر فى ضمن ما رواه من الأخبار الدالة على ذلك ما جاء فى تفسير العياشى عن عبد ابن سنان عن أبى عبد الله فى قوله عز وجل: ﴿**وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾(الأعراف: ١٥٩) قال: قوم موسى: هم أهل الإسلام، قال المؤلف «والظاهر أن مراده عليه السلام، أن نظيره جار فيهم، وإنما ذكر فى الآية تمثيلاً لحال هذه الأمة، ويؤيده ما سيأتى فى الأئمة[١] فلا ينافى هذا ما هو الظاهر من الآية من وجود جماعة فى قوم موسى هادين إلى الحق صريحًا كما يظهر من بعض الأخبار». (ص٣٧).

وجعل الفصل الثالث: فى بيان ما يظهر من الأخبار من أن الله سبحانه قد يريد بخطابه فى كتابه بحسب التأويل والبطن مخاطبًا غير من يفهم من الظاهر كون الخطاب متوجهًا إليه، وكان ذلك فى أثناء الخطاب وبين الخطاب مع المخاطب المفهوم من الظاهر وفى آية واحدة، وذلك كما ورد فى خبر جابر من قوله عليه السلام: «إن الآية لتكون أولها فى شىء وآخرها فى شىء» وما ورد فى الكافى وفى تفسير العياشى عن عبد الله بن بكير عن أبى عبد الله قال: «نزل القرآن بإياك أعنى واسمعى يا جارة» وفيهما أيضًا عن أبى عمير عمن حدثه عن أبى عبد الله قال: «ما خاطب الله به فهو يعنى به من قد مضى ذكره فى القرآن مثل قوله: ﴿**وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ**

---

(١) لعله يريد قوله تعالى بعد هذه الآية مباشرة ﴿**وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا**﴾ الآية، حيث يحمل على الأئمة الاثنى عشر.

شَيْئًا قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٤) عنى بذلك غيره» قال بعض المحدثين: لعل المراد من مضى ذكره فى القرآن من الذين أسقط أسماءهم الملحدون فى آيات. . . قال وفى كنز الفوائد عن الأعمش قال: سمعت عطاء بن أبى رباح يقول: سئل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (ق: ٣٤) فقال رسول الله ﷺ «أنا وعلى نلقى فى جهنم كل من عادانا. . . الخبر». (ص٣٧).

وجعل الفصل الرابع: فى بيان ما يظهر من الأخبار من أن الضمير فى القرآن قد يكون بحسب التأويل راجعًا إلى شىء ليس بمذكور صريحًا، بل مقصود بحسب الباطن ومعهود تأويلاً، كالضمائر التى ورد رجوعها إلى الولاية أو إلى أمير المؤمنين عليه السلام أو نحو ذلك، بلا سبق ذكر ظاهرًا، ثم ذكر ما ورد من الأخبار فى ذلك، منها: ما رواه الكلينى عن المفضل قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ (يونس: ١٥) قال: قالوا: أو بدل عليّا. . . وما ورد فى كنز الفوائد للكراكجى من تأويل أهل البيت فى حديث أحمد بن إبراهيم عنهم عليهم السلام قالوا: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ (الواقعة: ٨٢) أى أن شكر النعمة التى رزقكم وما منَّ عليكم بمحمد وآله ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٨٢) أى بوصيَّته ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ (الواقعة: ٨٣، ٨٤) إلى وصيه على عليه السلام يبشر وليه بالجنة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ (الواقعة: ٨٥) يعنى أقرب إلى أمير المؤمنين على منكم ﴿وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ (الواقعة: ٨٥) أى لا تعرفون. ومنها ما ورد فى تفسير القمى عن أبى الشمال عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى فى سورة المدثر: ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ (المدثر: ٣٥، ٣٦) قال: يعنى فاطمة: وكذا قال فى سائر الضمائر التى فى السورة». (ص٣٨).

وجعل الفصل الخامس: فى بيان ما يدل على أنه لا استبعاد فى أن يحمل ما عبر عنه بالماضى على ما هو المستقبل الآتى كما يقتضيه كثير من التأويلات فقال: روى الكلينى فى الكافى بإسناده عن أبى جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «إذا علم الله شيئًا هو كائن أخبر خبر ما قد كان» يعنى إذا كان فى علم الله تعالى الكامل وقوع الشىء لا محالة وأنه سيكون قطعًا، أخبر عنه على سبيل ما قد مضى وكان، سواء كان ذلك مما

يدل عليه ظاهر القرآن وتنزيله، أو باطنه وتأويله، كما هـو مقتضى التطابق كأحوال يوم القيامة مثـلاً، والثواب والعقاب وسائر ما هو من هذا القبيل كالرجعـة وما يكون فيها، وما يصدر من الأمـة بالنسبة إلى الإمامة وأمثـال ذلك. . . قال: ولا يخفى أنه بناءً على هذا يرتفع الاستبعاد المذكور. (ص٣٨).

وجعل **الفصل السادس**: فى بيان ما يظهر من الأخبار من أن إيراد أكثر الأشياء التى نسبها الله عز وجل إلى نفسه على صيغة الجمع وضميره كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ** ﴾ (الزخرف: ٥٥) وقوله عز وجل: ﴿ **إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ** ﴾ (الغاشية: ٢٥، ٢٦) وأمثالها من الكلمات القـرآنية فإن السر فى إدخال النبى ﷺ والأئمـة فيهـا، بل إنهم هم المـقصودون فـى كثيـر منها، وعـد هذا من قبـيل المجـازات الشائعة فى كـلام الملوك والأعاظم. . . ثم قـال: فلنكتف ههنا بنقل بعض الأخبار الدالة عليه، وذكر أخبارًا، منها ما رواه الكلينى فى الصحيح عن حمزة بن بزيغ عن أبى عبد الله عليه السلام فى قول الله عز وجل: ﴿ **فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ** ﴾ فقال: إن الله تعـالى لا يأسف كأسـفنا، ولكنه خلق أوليـاء لنفسـه يأسفـون وهم مخلوقـون مربوبون، فجعل رضاهم رضى نفسه، وسـخطهم سخط نفسه؛ لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه. . . إلخ، وليس أن ذلك يصل إلى الله كـما يصل إلى خلقه، ولكن هذا معنى مـا قال من ذلك، وقد قـال: «من أهان لى وليّا فـقد بارزنى بالمحـاربة ودعانى إليها» وقال: ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ (النساء: ٨٠) وقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ﴾ (الفتح: ١٠) قال: وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك الخبر ولا يخفى صراحة فى المقصود ههنا. . . قال: وفى الكافى وغيره عن زرارة عن أبى جعفر قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿ **وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ (البقرة: ٥٧) فقال: إن الله أعظم وأعز وأجل من أن يظلم، ولكن خلطنا بنفسه، فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته حيث يقول: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ (المائدة: ٥٥) يعنى الأئمة منا». (ص٣٩).

وجعل **الفصل السابع**: فى بيان ما يظهر من الأخبار من إطلاق لفظ الجلالة والإله والرب بحسب بطن القرآن وتأويله على الإمام فى مواضع عديدة، بل هكذا حال بعض

الضمائر الراجعة بحسب التنزيل إليه سبحانه وأن تأويل ما نسبه الله إلى نفسه بإضافته إلى هذه الألفاظ من العبادة، والإطاعة، والمعرفة، والرضى، والسخط، والمخالفة، والفقر، والغنى، إلى غير ذلك هو ما يتعلق بالإمام كمتابعته، وإقامته، وإطاعته، ورضاه، وسخطه، وسبه، وأذاه، ومخالفته، وغناه، وفقره، ونحو ذلك، وعد ذلك من قبيل المجازات العقلية والتجوز فى الإسناد، قال: لكن يظهر من بعض ما سنذكره من الأخبار أن فى ذلك ما هو من قبيل المجاز اللغوى أو التشبيه بالمعنى العرفى، ثم ذكر بعض ما هو نص فى بيان المقصود، فذكر من ذلك ما رواه الطبرسى فى الاحتجاج عن على عليه السلام أنه قال فى حديث له طويل: إن قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَهٌ**﴾ (الزخرف: ٨٤) وقوله: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ (الحديد: ٤)، وقوله: ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾ (المجادلة: ٧) فإنما أراد بذلك استيلاء أمنائه بالقدرة التى ركبها فيهم على جميع خلقه، وأن فعلهم فعله... الخبر، وما رواه العياشى فى تفسيره عن أبى بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿**وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ (النحل: ٥١) يعنى بذلك لا تتخذوا إمامين إنما هو إمام واحد، وما جاء فى كنز الفوائد للكراكجى عن على بن أسباط عن إبراهيم الجعفرى عن أبى الجارود عن أبى عبد الله عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿**أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (النمل: ٦١) قال: أى أإمام هدى مع إمام ضلال فى قرن واحد؟ وما رواه القمى فى تفسير قوله تعالى: ﴿**وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**﴾ (الزمر: ٦٩) أن الصادق عليه السلام قال: أى رب الأرض، يعنى إمام الأرض، وما جاء فى تفسير القمى فى قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ...**﴾ (إبراهيم: ١٨) الآية، قال: من لم يقر بولاية على عليه السلام بطل عمله مثل الرماد الذى تجىء الريح فتحمله، وما جاء فى كنز الفوائد من تأويل قوله تعالى: ﴿**قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا**﴾ (الكهف: ٨٧) أن الإمام عليه السلام قال: هو يرد إلى أمير المؤمنين عليه السلام فيعذبه عذابًا نكرًا، ثم يقول: ﴿**يَا لَيْتَنِى كُنتُ تُرَابًا**﴾ (النبأ: ٤٠) أى من شيعة أبى تراب. (ص٤١).

وأما المقالة الثانية: فهى فى بيان سائر التأويلات العامة التى تجرى فى غير

موضعـها وتعم أكثر من موضع واحد مع نـصوصها وأدلتها، وقـد رتب المؤلف ما فى هذه المقالة عـلى ترتيب حروف الهجاء ونهج فـيها منهج كتب اللغة بـملاحظة الحرف الأول، ثم الآخر ثم الثانى، فمن ذلك الذى ذكره ما يأتى:

(الإصر) قال فى سورة البقرة وآل عمران والأعراف، وفى أساس البلاغة: الإصر: الثقل، وفى القامـوس: الإصر بالكسر: الذنب، وسيـأتى فى الذنب تأويله، وقد روى الكلينى أيضًا عن الباقر عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿ **وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** ﴾ (الأعراف: ١٥٧) أنه قال: «الإصر الذنوب التى كانوا فيها قبل معرفة فضل الإمام، فلمـا عرفوا فـضل الإمام وضع عنهم الإصر، قـال: قال عليه السـلام: الإصر الذنب، وهى الآصار... الخبـر» وتأويله ظاهر، وفى تفسير القـمى عن الصادق عليه السلام أنـه قال فى قوله تـعالى: ﴿ **وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي** ﴾ (آل عمـران: ٨١): أى عهدى، أى عهد الإيمان بالنبى ﷺ ونصرة على عليه السلام». (ص٥٠).

(البـــاطل) قال: الباطـل والمبطلون، والباطل ضد الحق وقـد ورد تأويله بأعداء الأئمة، وبدولة الباطل؛ وبما كان عليه بنو أمية وأشباههم من غاصبى الخلافة، كعداوة الأئمة وغيـرها، ومنه يظهر المراد بالمبطلين أى مـدعى الباطل وأتباعهم، ففى تفـسير القمى عن الصادق عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ** ﴾ (محمد: ٣) قال: هم الذين اتبعوا أعداء على وآل الرسول... الخبر». (ص٧٠).

(الراجـفة) قال: الرجفة، والرادفة، والرجفة، والمـرجفون: أصل الرجفة الحركة والاضطراب، ومنها الأرجوفة للكذب الذى يوقع فى الاضطراب، وفى سورة الأحزاب (فى الآية ٦٠) ﴿ **وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ** ﴾ قال: وسيأتى هناك عن الصادق عليه السلام: أن الراجفة الحـسين عليه السلام، والرادفة أبوه على عـليه السلام، وأن أول من ينفض التراب عن رأسه فى الرجفة الحسين عليه السلام، وقد فسرها المفسرون بالنفخ الأول، والرادفة بالنفخ الثانى، وهو أيضًا مناسب للتأويل المذكور كما سيأتى فى الصور، وربما أمكن إجراء مـا ذكرناه من التأويل فى بعض مـوارد الرجفة علـى حسب التناسب، بل يمكن التأويل أيضًا بقيام القائم ورجعة الناس فلا تغفل. (ص١٠٩).

(الزيت والزيتون) قال: أما الزيتون فمعروف، وأما الزيت ففرد منه، ويأتى إن شاء

الله فى المشكاة، وفى سورة النور عند تأويل آية النور ما يدل على تأويل الزيت بالعلم، وفى سورة (التين) ما يدل على تأويل الزيتون بالحسين، وقد أوله القمى أيضًا بعلى عليه السلام كما سيظهر فى السورة المذكورة، ولعله يمكن إجراء ذلك فى غير تلك السورة أيضًا، وقد قيل فى وجه هذه الاستعارة: إن الزيتون فاكهة وإدام ودواء وله دهن مبارك لطيف، وعلى عليه السلام وكذا الحسين عليه السلام كل واحد ثمرة فؤاد المقربين، وعلومه قوة قلب المؤمنين، وبنوره ونور أولاده الطاهرين اهتدى جميع المهتدين، وقد مثل الله نوره بأنوارهم كما شاع فى أخبارهم، ثم قد ورد تأويل الزيتون ببيت المقدس كما يأتى فى (الطور). (ص١١٣).

(القبلة) قال فى القاموس: القبلة التى يصلى نحوها، والجهة، والكعبة، وكل ما يستقبل، يقال: ما له قِبلة ولا دِبرة بكسرهما أى وجهة، هذا وقد مر فى الصلاة ما يدل على تأويل القبلة بالأئمة عليهم السلام، وأنهم المراد بها بحسب بطن القرآن، واستقبالها كناية عن التمسك بهم واتباعهم ونحو هذا، وفى تفسير العياشى عن الصادق عليه السلام «نحن قبلة الله ونحن كعبة الله» وسيأتى بعض المؤيِّد فى (الكعبة) والله الهادى. (ص١٨٣).

ثم ذكر الخاتمة: وجعلها مشتملة على فصلين:

الفصل الأول: فى بيان نبذ مما ورد من تأويلات الحروف المقطعة التى فى أوائل بعض السور فقال: «اعلم أن أصل تركيب مقطعات أوائل السور من غير ملاحظة ما تكرر منها أربع عشرة بعدد المعصومين الأربعة عشر: النبى وفاطمة والأئمة الاثنى عشر، والسور هى هذه: الم، المص، الر، المر، كهيعص، طه، طسم، طس، يس، ص، حم، حمعسق، ق، ن، ثم قال: وفى معانى الأخبار بإسناده إلى أبى بصير عن أبى عبد الله عليه السلام قال: «الم حروف من حروف اسم الله الأعظم المقطع فى القرآن، الذى يؤلفه النبى والإمام عليه السلام، فإذا دعا به أجيب» قال بعض الأفاضل: فى هذا الحديث دلالة على أن الحروف المقطعات أسرار بين الله ونبيه، ورموز لم يقصد بها إفهام غيره وغير الراسخين فى العلم من ذريته، أقول: ويؤيده ما فى تفسير الإمام عليه السلام: أن معنى الم أن هذا الكتاب الذى أنزلته هو الحروف المقطعة التى منها ا ل م وهو بلغتكم وحروف هجائكم، فأتوا بمثله إن كنتم صادقين. . ثم قال:

وسنشير فيما ورد فى (ص) إلى ما يدل على أن جميع المقطعات القرآنية اسم للنبى ﷺ ، ولنذكر بعض ما يتعلق بتأويلها على ترتيبها، فما ورد فى الم، والمص، والر، والمر، ما قيل من أن معنى الم: أنا الله أعلم وأرى، والمص: أنا الله أعلم وأفصل، وعلى هذا يمكن التأويل بأنه أعلم حيث اختار محمدًا وعليًا وآلهما الطيبين للنبوة والإمامة وأنزل لهم وفيهم كتابه المجيد، وعلى هذا القياس تأويل ما يأتى بعده. . . إلخ». (ص٢٣١).

ثم قال: «وأما (كهيعص) فمعناه أنا الكافى الهادى، والوالى العالم الصادق الوعد. . .

أقول: تأويل هذا: ما ورد عنه عليه السلام أيضًا أنه قال: أى كاف لشعيتنا، هاد لهم، ولىّ لهم، وعده حق، يبلغ بهم المنزلة التى وعدهم إياها فى بطن القرآن ـ وما فى الاحتجاج والمناقب وإكمال الدين عن سعد بن عبد الله عن الحجة القائم عليه السلام أنه سأل عن تأويل (كهيعص) فقال: إن هذه الحروف من أنباء الغيب أطلع الله عبده زكريا، ثم فصلها على محمد ﷺ ، وذلك أن زكريا سأل ربه أن يعلمه بأسماء الخمسة، فأهبط الله عليه جبريل عليه السلام فعلمه إياها، فكان زكريا إذا ذكر محمدًا وعليًا، وفاطمة، والحسن سرى عنه همه وانجلى كربه، وإذا ذكر الحسين خنقته العبرة ووقعت عليه البهرة، فقال ذات يوم: إلهى ما بالى إذا ذكرت أربعًا منهم تسليت بأسمائهم من همومى، وإذا ذكرت الحسين تدمع عينى وتثور زقرتى؟ فأنبأه تبارك وتعالى عن قصته فقال: كهيعص، فالكاف اسم كربلاء، والهاء هلاك العترة، والياء يزيد لعنة الله. . . وهو ظالم الحسين، والعين عطشه، والصاد صبره، فلما سمع بذلك زكريا لم يفارق مسجده ثلاثة أيام، ومنع فيها الناس من الدخول عليه. . . الخبر.

قال: وسيأتى تتمته فى سورته. (ص٢٢٣).

وجعل الفصل الثانى من الخاتمة فى ذكر بعض الفوائد.

فالفائدة الأولى: بين فيها أن دأبه فى هذا التفسير على شيئين:

أحدهما: تأويل ما ورد بحسب التنزيل بالنسبة إلى الأمم السابقة وما صدر منهم بالنسبة إلى إطاعة أنبيائه وعصيانهم، بأن المراد الإطاعة وعدمها فيما بلغوا إليهم وأمروهم به من الإقرار بولاية النبى والأئمة، والاعتراف بحقهم، والتمسك بهم، مع

التبرى من أعدائهم، بعد الإقرار بالله ورسوله، وتصديقهم فيما بلغوا جميعًا، لا سيما الولاية.

وثانيهما: تطبيق كثير مما ورد بالنسبة إلى تلك الأمم وإلى إطاعتهم وإلى معصيتهم وما ورد عليهم من الشر والنقم والخير والنعم وغير ذلك على طوائف هذه الأمة فيما صدر منهم بالنسبة إلى إطاعة النبى والأئمة فى أمر الولاية وعدمها، وما ورد ويرد عليهم من الشر والخير لذلك، وذلك بتمثيل الأخيار بالأخيار، والأشرار بالأشرار، وتبيان وجه الشبه فى تنظيم أفعالهم بأفعالهم، كتنظير أصحاب السبت بقتلة ذرية النبى كبنى أمية وبنى العباس مثلاً، وأصحاب الكهف بأبى طالب ونظرائه مثلاً، وأصحاب العجل بأهل السقيفة، وغير ذلك. (ص٢٣٥).

والفائدة الثانية: بين فيها أن المراد فى الباطن بجميع ما حرم الله فى القرآن أئمة الجور، وبما أحل أئمة الحق، وأنهم أصل كل خير، ومن فروعهم كل بر، وأعداؤهم أصل كل شر، ومن فروعهم كل قبيح وفاحشة، وأن أعداءهم المراد بالفواحش والمناهى وما يعبد من دون الله. (ص٢٣٦).

والفائدة الثالثة: قال فيها: «إنه تقدم وجوب الإيمان بظاهر القرآن وباطنه معًا، وأن كلا منهما مقصود البارى، ولكن لما كانت التفاسير المتداولة مشتملة على جل ما يتعلق بالظاهر وكان مقصدنا بالذات من وضع هذا الكتاب إبراز خبايا التأويلات المستفادة من الأئمة السادة؛ لخلو أكثر التفاسير عنها جميعًا، ومن أكثرها، جعلنا مدار كلامنا على تبين هذا الأمر وبيان ما يتعلق بالبطون فلا نتعرض لما يتعلق بالظواهر مفصلاً، حذرًا من التطويل والخروج عن المقصود الأصلى. (ص٢٣٦).

والفائدة الرابعة: بين فيها أن كل ما ذكره من تأويل الآيات والكلمات القرآنية فى تفسيره، فمبناه على التجوز فى المعنى، أو الإسناد، أو نحو ذلك من وجوه الاستعارات وأمثالها، قال: ومع هذا لا يجوز ذلك فى موضع إلا بعد وجدان مستند له فيه وفى مثله، أو بحسب العموم والإطلاق الشامل. (ص٢٣٦).

والفائدة الخامسة: بين فيها أنه اقتصر فى نقل الأخبار على موضع الحاجة منها وما يدل على المراد، مخافة التطويل.

قال: فربما فرقنا مضمون خبر على مواضع، وربما نقلنا خلاصة مضمون روايته، ولكن كل ذلك بحيث لا يخل بالحديث ولا يتغير منه معناه». (ص٢٣٦).

والفائدة السادسة: بين فيها أن كل ما ذكره فى تفسيره من التأويلات فهو غير خال من المستند المستفاد من الأئمة عليهم السلام. (ص٢٣٦).

والفائدة السابعة: بين فيها أن الرجعة من ضروريات مذهب الشيعى، وادعى تواتر الأحاديث المثبتة لها فى الجملة وإن كانت مختلفة فى تفصيلها وقال: لقد وقفت على أزيد من مائتى حديث فيها، ثم ذكر من الأخبار ما يدل على ذلك. (ص٢٣٧ - ٢٣٩).

ثم قال: «وليكن هذا آخر ما أردنا إيراده فى مقدمات تفسيرنا، ونشرع بعد هذا فى أصل التفسير إن شاء الله تعالى وبحوله وقوته وتوفيقه، حامدًا ومصليًا ومسلمًا، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الأئمة المعصومين، صلوات الله عليهم أجمعين، حمدًا وصلاة وتسليمًا كثيرًا كثيرًا كثيرًا».

ولكن أين هذا التفسير؟؟ قلنا: لم نعثر عليه فى مكتبة من مكاتبنا المصرية، وقلنا: إنه لو وقع لنا لكان خير مرجع يصور لنا معالم التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية. . . ولكن ألست معى فى أن هذه المقدمة التى لخصت لك أهم مباحثها تكشف لنا إلى حد كبير عن مذهب صاحبها فى تفسيره، وعن مقداره تأثره بعقيدته فى فهمه لكتاب الله؟ أظن أنك معى فى هذا وإليك أسوق أهم القواعد التى سار عليها المولى عبد اللطيف فى تفسيره وهى قواعد استخلصتها ولخصتها من مقدمة تفسيره، ولا أحسب أنه تخطاها أو شذ عنها بعدما دافع عنها وقواها بما استطاع من الأدلة، وهذه هى أهم القواعد:

أولا: القرآن له ظهر وبطن، بل كل فقرة من كتاب الله لها سبعة وسبعون بطنًا، وجملة باطن الكتاب فى الدعوة إلى الإمامية والولاية، وجملة ظاهره فى الدعوة إلى التوحيد والنبوة والرسالة، وكل ما ورد من الآيات المشتملة على المدح والإكرام ففى أئمتهم، وكل ما ورد من الآيات المشتملة على التهديد والوعيد والتوبيخ والتقريع ففى مخالفيهم وأعدائهم نزلت.

ثانيًا: لا تقتصر معانى الآيات القرآنية على أهل زمان واحد، بل لكل آية تأويل يجرى فى كل أوان وعلى أهل كل زمان.

ثالثًا: معانى القرآن الظاهرة متناسبة مع معانيه الباطنة.

رابعًا: المعانى الباطنة ليست جملتها مما استعمل فيها اللفظ على سبيل الحقيقة بل أكثرها ومعظمها على طريق التجوز ونهج الاستعارة وسبيل الكناية ومن قبيل المجازات اللغوية والعقلية، وهذا فى تقديره أمر لا غرابة فيه ولا استبعاد؛ إذ أن أبواب التجوز فى كلام العرب واسعة، وموارده فى عبارات الفصحاء سائغة.

خامسًا: يجب على الإنسان أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه على السواء، كما يجب عليه أن يؤمن بمحكم القرآن ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وبسائر ما يعلق بذلك تفصيلاً أو إجمالاً إن لم يعلم التفصيل من أهل البيت، ومن أنكر الظاهر وأقر بالباطن أو العكس فهو ملحد كافر، بل ويجب على كل إنسان أن يصدق بكل ما نقل عن الأئمة من تفسير وتأويل وإن لم يفهم معناه، ومن الجرأة أن ينكر أحد شيئًا من ذلك لخفائه عليه.

سادسًا: علم تأويل القرآن جميعه عند الأئمة، وهذا أمر اختصوا به دون من عداهم؛ فلهذا لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه وبدون سماع منهم، لأنه لا شبهة فى أن من عداهم تقصر علومهم وتعجز أفهامهم عن الوصول إلى كثير من ظواهر القرآن فضلاً عن بواطنه وتأويله.

سابعًا: ما علم الله صدوره من هذه الأمة المحمدية فى الأزمنة المستقبلة - أى بعد نزول القرآن - أشار الله إليه ونبه عليه فى كتابه الكريم، فكل ما جد ويجد من الحوادث بعد نزول القرآن يستفاد من آياته عن طريق تأويلها، وهذا أبلغ فى الإعجاز وأجمل للإيجاز، فقول تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (الانشقاق: ١٩) تأويله الإخبار من الله بأن هذه الأمة ستسلك سبيل من كان قبلها من الأمم فى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء.

ثامنًا: القرآن الذى جمعه على عليه السلام وتوارثته الأئمة من بعده هو القرآن الصحيح، وما عداه وقع فيه التغيير والتبديل، فكل ما ورد صريحًا فى مدح أهل البيت وذم شانئيهم أُسقط من القرآن أو حُرف وبُدل، ولعلم الله بما سيكون من التغيير والتبديل لم يكتف الله تعالى بالإرشاد إلى أمر الإمامة والولاية وفضائل أهل البيت ومثالب أعدائهم بما صرح به القرآن، بل أرشد إلى ذلك أيضًا بحسب ما يدل عليه باطن اللفظ وتأويله؛ لتقوم بذلك الحجة على الناس وإن حرف القرآن وبدل.

تاسعًا: كثيرًا ما يريد الله فى كتابه بحسب الباطن بالألفاظ والخطابات الواردة ظاهرًا على سبيل العموم خصوص بعض أفراد ما صدقت عليه، كالأئمة أو شيعتهم أو أعدائهم أو نحو ذلك، كما ورد فى تأويل المشركين بمن أشرك مع الإمام من ليس بإمام.

عاشرًا: ما ورد من الخطاب للأمم السابقة كثيرًا ما يراد به بحسب الباطن ما يصدق عليه الخطاب من هذه الأمة بحسب الإمامة والولاية وغيرهما، مع إرادة الظاهر أيضًا مثل ﴿**وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾ (الأعراف: ١٥٩) أراد فى الباطن بقوم موسى أهل الإسلام.

الحادية عشرة: قد يراد بالخطاب فى الباطن مخاطبًا غير من نفهم من الظاهر كون الخطاب له، كما ورد عن أبى عبد الله أنه قال: «نزل القرآن بإياك أعنى واسمعى يا جارة» فقوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا**﴾ (الإسراء: ٧٤) عنى به غير النبى.

الثانية عشرة: قد يرجع الضمير بحسب التأويل والباطن إلى ما لم يسبق له ذكر صريحًا مثل قوله تعالى: ﴿**ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ**﴾ (يونس: ١٥) يعنى أو بدل عليًا.

الثالثة عشرة: ما نسبه الله إلى نفسه بصيغة الجمع أو ضميره كقوله: ﴿**فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ**﴾ (الزخرف: ٥٥) السر فيه إدخال النبى ﷺ والأئمة فى مفهومه وهذا مجاز شائع معروف.

الرابعة عشرة: لفظ الجلالة وما شاكله والضمائر الراجعة إلى الله فى الظاهر مراد به الإمام باطنًا وتأويلاً، وهذا مجاز شائع معروف.

هذه هى أهم القواعد التى سار عليها المؤلف فى تفسيره، وهى كما ترى ملخصة من مقدمة تفسيره.

٢- تفسير الحسن العسكرى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد الحسن بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، الإمام الحادى عشر عند الإمامية الاثنى عشرية والمعروف بالحسن العسكرى[(١)]، وهو والد المهدى المنتظر.

ولد سنة ٢٣١هـ إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة ـ وقيل: سنة ٢٣٢هـ ـ بالمدينة على الراجح، وتوفى بـ «سر من رأى» سنة ٢٦٠هـ ستين ومائتين ودفن بها بجانب أبيه[(٢)].

التعريف بهذا التفسير:

عثرنا على هذا التفسير فى دار الكتب المصرية فوجدناه منسوبًا إلى الإمام أبى محمد الحسن العسكرى، ومرويًا عنه برواية أبى يعقوب يوسف بن محمد بن زياد، وأبى الحسن على بن محمد بن محمد بن سيار، وهما من الشيعة الإمامية، وقد تلقيا هذا التفسير وكتباه عن الحسن العسكرى فى سبع سنين، ولهما فى تلقى هذا التفسير عن الحسن العسكرى قصة غريبة فى مقدمة الكتاب حدَّثا بها فقالا ما ملخصه: كنا صغيرين، وكان أبوانا إماميين، وكانت الزيدية هم الغالبين بإستراباذ، وكنا فى إمارة الحسن بن زيد العلوى، الملقب بالداعى إلى الحق، إمام الزيدية، وكان كثير الإصغاء إليهم، يقتل الناس لسعاياتهم، فخاف أبوانا الوشاية بهما عنده فخرجا بنا وبأهلينا إلى حضرة الإمام أبى محمد الحسن بن على بن محمد أبى القائم، فلما دخلا عليه قال لهما: مرحبا بالآوين إلينا، الملتجئين إلى كنفنا، قد تقبل الله سعيكما، وأمن روعكما، وكفاكما أعداءكما، فانصرفا آمنين على أنفسكما وأموالكما، قالا: فماذا تأمر أيها

---

(١) **العسكرى** نسبة إلى العسكر وهى سر من رأى، لأن المعتصم لما بناها وانتقل إليها بعسكره قيل لها العسكر، وإنما نسب المذكور إليها لأن المتوكل أشخص أباه عليا إليها وأقام بها مدة طويلة، فنسب وولده هذا إليها.

(٢) وفيات الأعيان (١/ ٢٣٩، ٢٤٠) وله ترجمة مستفيضة فى أعيان الشيعة (٤/ ٢٨٨ - ٣٢٥.

الإمام؟ أن نرجع فى طريقنا إلى أن ننتهى إلى بلد خرجنا منه؟ وكيف ندخل ذلك البلد ومنه هربنا وطلب سلطان البلد لنا حثيث، ووعيده إيانا شديد؟ فقال عليه السلام: خلفا علىَّ ولديكما هذين لأفيدهما العلم الذى يشرفهما الله به، ثم لا تحفلا بالسعاة ولا بوعيد المسعى إليه؛ فإن الله عز وجل يقصم السعاة ويلجئهم إلى شفاعتكم فيهم عند من هربتم منه.

قال أبو يعقوب وأبو الحسن: فأتمرا لما أمرا، وخرجا وخلفانا هناك، فكنا نختلف إليه فيتلقانا ببر الإماء وذوى الأرحام الماسة، فقال لنا ذات يوم: إذا أتاكما خبر كفاية الله عز وجل أبويكما، وإخزائه أعداءهما، وصدق وعدى إياهما، جعلت من شكر الله عز وجل أن أفيدكما تفسير القرآن مشتملاً على بعض أخبار محمد ﷺ، فيعظم الله بذلك شأنكما، قالا: ففرحنا وقلنا: يا بن رسول الله.. فإذًا نأتى جميع علوم القرآن ومعانيه، قال: كلا إن الصادق علم ما أريد أن أعلمكما بعض أصحابه ففرح بذلك وقال: يا بن رسول الله قد جمعت علوم القرآن كلها، قال: قد جمعت خيرًا كثيرًا، وأوتيت فضلاً واسعًا، ولكنه مع ذلك أقل قليل أجزاء علم القرآن، إن الله عز وجل يقول: ﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾ (الكهف: ١٠٩) ويقول: ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ**﴾ (لقمان: ٢٧)، وهذا علم القرآن ومعانيه وما أودع من عجائبه، فكيف ترى مقدار ما أخذته من جميع هذا القرآن؟ ولكن القدر الذى أخذته قد فضلك الله به على كل من لا يعلم كعلمك ولا يفهم كفهمك.

ثم ذكر ما كان من أمر عدول الحسن بن زيد العلوى عن بطشه وفتكه، وعدم تعرضه للناس فى مذاهبهم، وأمره لأبويهما بملازمة الإمام أبى محمد الحسن العسكرى لما سمع بهذا، قال: هذا حين إنجازى ما وعدتكما من تفسير القرآن، ثم قال: قد وظفت لكما كل يوم شيئًا منه تكتبانه، فالزمانى وواظبا على توفيق الله تعالى من العبادة حظوظكما، فأول ما أملى علينا أحاديث فى فضل القرآن وأهله، ثم أملى علينا التفسير بعد ذلك فكتبناه فى مدة مقامنا عنده، وذلك سبع سنين، نكتب فى كل يوم منه مقدار ما ننشط له، فكان أول ما أملى علينا وكتبناه قال: حدثنى أبى: على بن محمد، عن

أبيه: محمد بن على، عن أبيه: على بن موسى، عن أبيه: موسى بن جعفر، عن أبيه: جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه: الباقر محمد بن على، عن أبيه: على بن الحسين زين العابدين، عن أبيه: الحسين بن على سيد المستشهدين، عن أبيه: أمير المؤمنين وسيد الوصيين وخليفة رسول الله رب العالمين، فاروق الأمة، وباب مدينة الحكمة، ووصى رسول الرحمة، على بن أبى طالب صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، عن رسول رب العالمين، وسيد المرسلين، وقائد الغر المحجلين، والمخصوص بأشرف الشفاعات فى يوم الدين، ﷺ وآله أجمعين. . .» ثم ذكر شيئًا من الأخبار فى فضل القرآن وحملته. . . ثم قال: «قال رسول الله: أتدرون من المتمسك الذى بتمسكه ينال هذا الشرف العظيم؟ هو الذى أخذ القرآن وتأويله عنا أهل البيت، وعن وسائطنا السفراء عنا إلى شيعتنا، لا عن آراء المجادلين وقياس القايسين. . .» ثم قال: «قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ (يونس: ٥٧، ٥٨) قال رسول الله ﷺ: «فضل الله عز وجل القرآن والعلم بتأويله، وبرحمته: توفيقه لموالاة محمد وآله الطيبين، ومعاداة أعدائهم. . .» ثم ذكر الحسن العسكرى تفسير أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم منسوبًا إلى على رضي الله عنه، وفيه يقول على: «ألا أنبئكم ببعض أخبارنا؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، قال: إن رسول الله لما بنى مسجده بالمدينة وأشرع فيه بابه وأشرع المهاجرون والأنصار أبوابهم، أراد الله إبانة محمد وآله الأفضلين بالفضيلة، فنزل جبريل عن الله تعالى: بأن سدوا الأبواب عن مسجد رسول الله قبل أن ينزل بكم العذاب، فأول من بعث إليه رسول الله ﷺ يأمره بسد بابه العباس بن عبد المطلب، فقال: سمعًا وطاعة لله ولرسوله - وكان الرسول معاذ بن جبل - ثم مر العباس بفاطمة فرآها قاعدة على بابها وقد أقعدت الحسن والحسين، فقال لها: ما بالك قاعدة انظروا إليها كأنها لبؤة بين يديها جرواها، أتظن أن رسول الله يخرج عمه ويدخل ابن عمه؟ فمر بهم رسول الله ﷺ فقال لها: ما بالك قاعدة؟ قالت: أنتظر أمر رسول الله بسد الأبواب، فقال لها: إن الله تعالى أمرهم بسد الأبواب واستثنى منهم رسول الله، وإنما أنتم نفس رسول الله،

ثم إن عمر بن الخطاب جاء فقال: أحب النظر إليك يا رسول الله إذا مررت إلى مصلاك، فأذن لى فى فرجة أنظر إليك منها، فقال: قد أبى الله عز وجل ذلك، قال: فمقدار ما أضع عليه وجهى، قال: قد أبى الله ذلك، قال: فمقدار ما أضع عليه إحدى عينى، قال: أبى الله ذلك، ولو قلت: قدر طرف الإبرة لم آذن لك، والذى نفس محمد بيده ما أنا أخرجتكم ولا أدخلتهم ولكن الله أدخلهم وأخرجكم، ثم قال: لا ينبغى لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت فى هذا المسجد جنبًا إلا محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين والمنتجبون(١) من آلهم الطيبين من أولادهم، قال: فأما المؤمنون فقد رضوا وسلموا، وأما المنافقون فاغتاظوا لذلك وأنفوا، ومشى بعضهم يقول إلى بعض فيما بينهم: ألا ترون محمدًا لا يزال يخص بالفضائل ابن عمه ليخرجنا منها صفرًا، والله لئن أنفذنا له فى حياته لنأتين عليه بعد وفاته، وجعل عبد الله بن أُبى يصغى إلى مقالتهم ويغضب تارة ويسكن أخرى، ويقول لهم: إن محمدًا لمتأله، فإياكم ومكاشفته، فإن من كاشف المتأله انقلب خاسئًا حسيرًا وينغص عليه عيشه، وإن الفطن اللبيب من يتجرع على الغصة لينتهز الفرصة، فبينما هم كذلك إذ طلع رجل من المؤمنين يقال به زيد بن أرقم فقال لهم: يا أعداء الله أبالله تكذبون؟ وعلى رسوله تطعنون؟ ولدينه تكيدون؟ والله لأخبرن رسول الله بكم، فقال عبد الله بن أبى والجماعة: والله لئن أخبرته بنا لنكذبنك ولنحلفن له؛ فإنه إذًا يصدقنا، ثم والله لنقيمن عليك من يشهد عليك عنده بما يوجب قتلك أو قطعك أو حدك، قال: فأتى زيد رسول الله فأسر إليه ما كان من عبد الله بن أُبى وأصحابه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ (الأحزاب: ٤٨) المجاهدين لك يا محمد فيما دعوتهم إليه من الإيمان بالله والموالاة لك ولأوليائك، والمعاداة لأعدائك ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ (الأحزاب: ٤٨) الذين يطيعونك فى الظاهر ويخالفونك فى الباطن ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ (الأحزاب: ٤٨) مما يكون منهم من القول السيئ فيك وفى ذويك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (الأحزاب: ٤٨) فى إتماما أمرك وإقامة حجتك، فإن المؤمن هو الظاهر بالحجة وإن غلب فى الدنيا؛ لأن العاقبة له؛ لأن غرض المؤمنين فى كدحهم فى الدنيا إنما هو الوصول إلى نعيم الأبد فى

(١) المنتجبون: أى المختارون.

الجنة، وذلك حاصل لك ولآلك ولأصحابك وشيعتك، ثم إن رسول الله ﷺ لم يلتفت إلى ما بلغه عنهم، وأمر زيداً فقال: إن أردت أن لا يصيبك شرهم ولا ينالك مكرهم فقل إذا أصبحت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ فإن الله يعيذك من شرهم؛ فإنهم شياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، وإذا أردت أن يؤمنك بعد ذلك من الغرق والحرق والسرق فقل إذا أصبحت: باسم الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، باسم الله لا يسوق الخير إلا الله، باسم الله ما شاء الله، ما يكون من نعمة فمن الله، باسم الله ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، باسم الله ما شاء الله وصلى الله على محمد وآله الطيبين، فإن من قالها ثلاثًا إذا أصبح أمن من الغرق والحرق والسرق حتى يمسى، ومن قالها ثلاثًا إذا أمسى أمن من الحرق والغرق حتى يصبح، وإن الخضر وإلياس يلتقيان فى كل موسم، فإذا تفرقا تفرقا عن هذه الكلمات، وإن ذلك شعار شيعتى، وبه يمتاز أعدائى من أوليائى يوم خروج قائمهم...» ثم ذكر حديثًا آخر طويلاً عن الباقر يتضمن ما كان من المحاورة بين العباس ورسول الله ﷺ بشأن إغلاق باب العباس وغيره، وإبقاء باب على وحده، وفيه شهادة رسول الله ﷺ بالفضل لعلى على غيره، وفى آخره يقول رسول الله ﷺ: «يا عم رسول الله إن شأن على عظيم، إن حال على جليل، إن وزن على ثقيل، وما وضع حب على فى ميزان أحد إلا رجح على سيئاته، ولا وضع بغضه فى ميزان أحد إلا رجح على حسناته... إلخ»(١).

هذا، والكتاب مطبوع فى مجلد صغير يقع فى ٢٨٦ صحيفة، وهو غير شامل للقرآن كله، بل بعد الفراغ من المقدمة وشرح الاستعاذة شرع فى الفاتحة ففسرها، ثم شرع فى سورة البقرة فوصل فيها إلى قوله تعالى فى الآية (١١٤): ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ وذلك يبدأ من أول الكتاب إلى ص٢٣٦.

ومن قوله تعالى فيها: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ...**﴾ الآية (١٥٨) إلى قوله: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾ الآية (١٧٩) وذلك يبدأ من ص٢٣٦ إلى ص٢٥٤.

---

(١) ص ٢ - ٧.

ومن قوله تعالى فيها: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ...﴾ الآية (١٩٨) إلى قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ...﴾ الآية (٢١٠) وذلك يبدأ من ص٢٥٤ إلى ص٢٦٧.

ومن قوله تعالى فيها: ﴿... أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ...﴾ الآية (٢٨٢) إلى قوله: ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ فى الآية (٢٨٣) وذلك يبدأ من ص٢٦٧ إلى ص٢٨٦.

هذا هو كل ما وجد وطبع من التفسير المنسوب إلى الحسن العسكرى رحمه الله تعالى، وأرى أن أسوق لك بعض النماذج لتقف بنفسك على مسلكه فى التفسير، وتأثره بمذهب الإمامية، ولنرى بعد ذلك هل يمكن أن يكون هذا التفسير حقيقة لهذا الإمام الصالح، أو نسب إليه زورًا وبهتانًا.

ولاية على:

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨) من سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: «قال العالم موسى بن جعفر: إن رسول الله لما أوقف أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى يوم الغدير موقفه المشهور المعروف، ثم قال: يا عباد الله انسبونى، فقالوا: أنت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ثم قال: يا أيها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فنظر إلى السماء وقال: اللهم اشهد بقول هؤلاء - وهو يقول ويقولون ذلك ثلاثًا - ثم قال: ألا فمن كنت مولاه وأولى به فهذا على مولاه وأولى به، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، ثم قال: قم يا أبا بكر فبايع له بإمرة المؤمنين، فقام وبايع لبه، ثم قال: قم يا عمر فبايع له بإمرة المؤمنين، فقام فبايع له، ثم قال بعد ذلك لتمام التسعة رؤساء المهاجرين والأنصار فبايعوا كلهم، فقام من بين جماعتهم عمر بن الخطاب قال: بخ بخ يا ابن أبى طالب، أصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة، ثم تفرقوا عند ذلك وقد وُكِّدتْ عليهم العهود والمواثيق، ثم إن قومًا من متمرديهم وجبابرتهم تواطئوا بينهم لئن كان محمد كائنة ليَدْفعُن هذا الأمر من على ولا يتركونه، فعرف الله ذلك من قبلهم، وكانوا يأتون

رسول الله ويقولون: لقد أقمت علينا أحب خلق الله إلى الله وإليك وإلينا فكفيتنا مؤنة الظلمة لنا، والمتجبرين فى سياستنا، وعلم الله من قلوبهم خلاف ذلك من مواطأة بعضهم لبعض أنهم على العداوة مقيمون، ولدفع الأمر عن مستحقه مؤثرون، فأخبر الله عز وجل محمدًا عنهم فقال: يا محمد ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الذى أمرك بنصب على إمامًا وسايسًا لأمتك ومدبرًا، ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ بذلك، ولكنهم يتواطئون على إهلاكك وإهلاكه، يوطئون أنفسهم على التمرد على على إن كانت بك كائنة»(١).

وعند قوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ يقول: «قال موسى بن جعفر: إذا قيل لهؤلاء الناكثين للبيعة: قال لهم خيار المؤمنين كسلمان والمقداد وأبى ذر وعمار: آمنوا برسول الله وعلى الذى أوقفه موقفه وأقامه مقامه وأناط مصالح الدين والدنيا كلها به، وآمنوا بهذا النبى وسلموا لهذا الإمام، وسلموا له فى ظاهر الأمر وباطنه كما آمن الناس المؤمنون كسلمان والمقداد وأبى ذر وعمار، قالوا فى الجواب لمن يفضون إليه لا لهؤلاء المؤمنين؛ فإنهم لا يجسرون على مكاشفتهم بهذا الجواب ولكنهم يذكرون لمن يفضون إليه من أهلهم والذين يثقون بهم من المنافقين ومن المستضعفين من المؤمنين الذين هم بالستر عليهم واثقون بهم، يقولون لهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ يعنون سلمان وأصحابه لما أعطوا عليًّا خالص ودهم ومحض طاعتهم، وكشفوا رءوسهم بموالاة أولياته ومعاداة أعدائه حتى إن اضمحل أمر محمد طحطحهم أعداؤه، وأهلكهم سائر الملوك والمخالفين لمحمد، فهم بهذا التعرض لأعداء محمد جاهلون سفهاء، قال الله عز وجل: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ الأخفاء العقول والآراء، الذين لم ينظروا فى أمر محمد حق النظر فيعرفوا نبوته، ويعرفوا صحة ما ناطه بعلمه من أمر الدين والدنيا، حتى بقوا لتركهم تأمل حجج الله جاهلين، وصاروا خائفين وجلين من محمد وذريته ومن مخالفيهم، لا يأمنون أيهم يغلب فيهلكون معه، فهم السفهاء حيث لا يسلم لهم بنفاقهم هذا لا محبة محمد

---

(١) ص ٤١، ٤٢.

ولا محبة اليهود وسائر الكافرين، لأنهم يظهرون لمحمد من موالاته وموالاة أخيه على ومعاداة أعدائهم اليهود والنصارى، كما يظهرون لهم من معاداة محمد وعلى وموالاة أعدائهم، فهم يقدرون فيهم نفاقهم معهم كنفاقهم مع محمد وعلى، ولكن لا يعلمون أن الأمر كذلك وأن الله يطلع نبيه على أسرارهم فيخشاهم ويلعنهم ويسقطهم»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (١٥٩، ١٦٠) من سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ يقول: «إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات من صفة محمد وصفة على وحليته، والهدى بعدما بيناه للناس فى الكتاب قال: والذى أنزلناه هو ما أظهرناه من الآيات على فضلهم ومحلهم، كالغمامة التى تظل رسول الله فى أسفاره، والمياه الأجاجة التى كانت تعذب فى الآبار بريقه، والأشجار التى كانت تتهدل ثمارها بنزوله تحتها، والعاهات التى كانت تزول بمسح يده عليها أو بنفث بريقه فيها، وكالآيات التى ظهرت على علىٍّ من تسليم الجبال والصخور والأشجار قائلة: يا ولى الله ويا خليفة رسول الله، السموم القاتلة التى تناولها من سمى باسمه عليها ولم يصبه بلاؤها.. وسائر ما خصه الله تعالى به من فضائله، فهذا من الهدى الذى بينه الله للناس فى كتابه... إلخ(٢).

روايات مكذوبة فى فضل أهل البيت:

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة ﴿... الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يقول: «ثم وصف هؤلاء المتقين الذين هذا الكتاب هدى لهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يعنى بما غاب عن حواسهم من الأمور التى يلزمهم الإيمان بها، كالبعث، والنشور، والحساب، والجنة، والنار، وتوحيد الله تعالى، وسائر ما لا يعرف بالمشاهدة وإنما يعرف بدلائل قد نصبها الله عز وجل عليها كآدم، وحواء، وإدريس، ونوح، وإبراهيم، والأنبياء الذين يلزمهم الإيمان بهم بحجج الله تعالى وإن لم يشاهدوهم، ويؤمنون بالغيب وهم من الساعة مشفقون، وذلك أن سلمان الفارسى مر

(١) ص ٤٤، ٤٥.

(٢) ص ٢٣٦، ٢٣٧.

بقوم من اليهود فسألوه أن يجلس إليهم ويحدثهم بما سمع من محمد فى يومه هذا، فجلس إليهم لحرصه على إسلامهم فقال: سمعت محمداً يقول: إن الله عز وجل يقول: يا عبادى، أوليس من له إليكم حوائج كبار لا تجودون بها إلا أن يتجمل عليكم بأحب الخلق إليكم تقضونها كرامة لشفيعه؟ ألا فاعلموا أن أكرم الخلق على وأفضلهم لدى محمد وأخوه على، ومن بعده الأئمة الذين هم الوسائل إلى، إلا فليدعنى من أهمته حاجة يريد نفعها، أو دهته دهياء يريد كف ضررها بمحمد وآله الأفضلين الطيبين الطاهرين أقضها له أحسن مما يقضيها من تشفعون إليه بأعز الخلق عليه، قالوا لسلمان - وهم يستهزئون به: يا عبد الله فما بالك لا تقترح على الله وتتوسل بهم أن يجعلك أغنى أهل المدينة؟ فقال سلمان: قد دعوت الله عز وجل بهم، وسألته ما هو أجل وأفضل وأنفع من ملك الدنيا بأسرها، وسألته بهم أن يهب لى لسانًا لتمجيد شأنه ذاكرًا، وقلبًا لآلائه شاكرًا، وعلى الدواهى الداهية لى صابرًا، وهو عز وجل قد أجابنى إلى ملتمسى من ذلك، وهو أفضل من ملك الدنيا بحذافيرها وما يشتمل عليه من خيراتها مائة ألف ألف مرة، قال: فجعلوا يهزأون ويقولون: يا سلمان، لقد ادعيت مرتبة عظيمة يحتاج أن يمتحن صدقك من كذبك فيها وها نحن إذًا قائمون إليك بسياط عذابنا فضاربوك، فاسأل ربك أن يكف أيدينا عنك، فجعل سلمان يقول: اللهم اجعلنى على البلايا صابرًا، وجعلوا يضربونه بسياطهم حتى أعيوا وملوا، وجعل سلمان لا يزيد على قوله: اللهم اجعلنى على البلايا صابرًا، فلما ملوا وأعيوا قالوا: يا سلمان ما ظننا أن روحًا تثبت فى مقرها على مثل هذا العذاب الوارد عليك فما بالك لا تسأل ربك أن يكفنا عنك؟ قال: لأن سؤال ذلك ربى خلاف الصبر، بل سلمت لإمهال الله تعالى لكم، وسألته الصبر، فلما استراحوا قاموا بعد إليه بسياطهم فقالوا: لا نزال نضربك بسياطنا حتى تزهق روحك أو تكفر بمحمد، فقال: ما كنت أفعل ذلك؛ فإن الله قد أنزل على محمد ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ وإن احتمالى لمكارهكم لأدخل فى جملة من مدحه الله بذلك سهل على يسير، فجعلوا يضربونه بسياطهم حتى ملوا، ثم قعدوا وقالوا: يا سلمان، لو كان لك عند ربك قدر لإيمانك بمحمد لاستجاب دعاءك وكفنا عنك، فقال سلمان: ما أجهلكم... كيف يكون مستجيبًا دعائى إذا فعل بى خلاف ما

أريد منه، أنا أردت منه الصبر فقد استجاب لى فصبرت، ولم أسأله كفكم عنى فيمنعنى حتى يكون ضد دعائى كما تظنون، فقاموا إليه ثالثة بسياطهم فجعلوا يضربونه وسلمان لا يزيد على قوله: اللهم صبرنى على البلايا فى حب صفيك وخليلك محمد، فقالوا له: يا سلمان، ويحك أوليس محمد قد رخص لك أن تقول كلمة الكفر به بما تعتقد ضدة للتقية؟ فقال سلمان: إن الله قد رخص لى ذلك ولم يفرضه علىَّ، بل أجاز لى ألا أعطيكم ما تريدون وأحتمل مكارهكم، وجعله أفضل المنزلتين، وأنا لا أختار غيره، ثم قاموا إليه بسياطهم وضربوه ضربًا كثيرًا وسيلوا دماءه، وقالوا له وهم ساخرون: لو لم تسأل الله كفنا عنك ولا تظهر لنا ما نريد منك لنكف به عنك فادع علينا بالهلاك إن كنت من الصادقين فى دعواك أن الله لا يرد دعاءك بمحمد وآله الطيبين الطاهرين، فقال سلمان: إنى لأكره أن أدعو الله بهلاككم مخافة أن يكون فيكم من قد علم الله أنه سيؤمن من بعد فأكون قد سألت الله اقتطاعه عن الإيمان، فقالوا: قل: اللهم أهلك من كان فى علمك أنه يبقى إلى الموت على تمرده، فإنك لا تصادف بهذا الدعاء ما خفته، قال: فانفرج له حائط البيت الذى هو فيه مع القوم وشاهد رسول الله ﷺ وهو يقول: يا سلمان ادع عليهم بالهلاك فليس فيهم أحد يرشد، كما دعا نوح على قومه لما عرف أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فقال سلمان: كيف تريدون أن أدعو عليكم بالهلاك؟ فقالوا: تدعو الله بأن يقلب سوط كل واحد منا أفعى تعطف رأسها ثم تمشش عظام سائر بدنه... فدعا الله بذلك، فما من سياطهم سوط إلا قلبه الله تعالى أفعى لها رأسان تتناول برأس رأسه وبرأس آخر يمينه التى كان فيها سوطه ثم رضضتهم ومششتهم وبلعتهم والتقمتهم، فقال رسول الله ﷺ وهو فى مجلسه: معاشر المؤمنين، إن الله تعالى قد نصر أخاكم سلمان ساعتكم هذه على عشرين فرقة من اليهود والمنافقين، قلبت سياطهم أفاعى رضضتهم ومششتهم وهشمت عظامهم والتقمتهم فقوموا بنا ننظر إلى تلك الأفاعى المبعوثة لنصرة سلمان، فقام رسول الله وأصحابه إلى تلك الدار وقد اجتمع إليها جيرانها من اليهود والمنافقين لما سمعوا ضجيج القوم بالتقام الأفاعى لهم، فإذا هم خائفون منها، نافرون من قربها، فلما جاء رسول الله ﷺ خرجت كلها عن البيت إلى شارع المدينة، وكان شارعًا ضيقًا فوسعه

الله تعالى وجعله عشرة أضعافه، ثم نادت الأفاعى: السلام عليك يا محمد يا سيد الأولين والآخرين، السلام عليك يا على يا سيد الوصيين، السلام على ذريتك الطيبين الطاهرين الذين جعلوا على الخلق قوامين، ها نحن سياط هؤلاء المنافقين الذين قلبنا الله تعالى أفاعى بدعاء هذا المؤمن سلمان، قال رسول الله: الحمد لله الذى جعل من يضاهى بدعائه عند قبضه وعند انبساطه نوحًا نبيه، ثم نادت الأفاعى: يا رسول الله.. قد اشتد غضبنا على هؤلاء الكافرين، وأحكامك وأحكام وصيك علينا جائزة فى ممالك رب العالمين، ونحن نسألك أن تسأل الله تعالى أن يجعلنا أفاعى جهنم حتى نكون فيها لهؤلاء معذبين كما كنا لهم فى هذه الدنيا ملتقمين، فقال رسول الله ﷺ: قد أجبتكم إلى ذلك فالحقوا بالطبق الأسفل من جهنم، بعد أن تقذفوا ما فى أجوافكم من أجزاء أجسام هؤلاء الكافرين ليكون أتم لخزيهم وأبقى للعار عليهم إذا كانوا بين أظهرهم مدفونين، يعتبر بهم المؤمنون المارون بقبورهم، يقولون: هؤلاء الملعونون المخزيون بدعاء ولى محمد سلمان الخير من المؤمنين، فقذفت الأفاعى ما فى بطونها من أجزاء أبدانهم، فجاء أهلوهم فدفنوهم، وأسلم كثير من الكافرين، وأخلص كثير من المنافقين، وغلب الشقاء على كثير من الكافرين والمنافقين، فقالوا: هذا سحر مبين، ثم أقبل رسول الله على سلمان فقال: يا عبد الله، أنت من خواص إخواننا المؤمنين، ومن أحباب قلوب ملائكة الله المقربين، إنك فى ملكوت السموات والحجب والكرسى والعرش وما دون ذلك إلى الثرى أشهر فى فضلك عندهم من الشمس الطالعة فى يوم لا غيم ولا قتر ولا غبار فى الجو، فأنت من أفاضل الممدوحين بقوله ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢١٠) من سورة البقرة: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**﴾ يقول ما نصه: «... قال على بن الحسين: طلب هؤلاء الكفار الآيات ولم يقنعوا بما أتاهم به منها بما فيه الكفاية والبلاغ، حتى قيل لهم ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ**﴾ أى إذا لم يقتنعوا بالحجج الواضحة الدامغة، فهل ينظرون إلا أن يأتيهم الله؟ وذلك محال، لأن

(١) ص ٢٤ - ٢٦.

الإتيان علــى الله لا يجوز، كذلك النواصب اقــترحــوا على رسول الله فى نصب أمــير المؤمنين على إمامًا، واقترحوا. . . حتى اقترحوا المحال، وذلك أن رسول الله لما نص على علىٍّ بالفـضيلة والإمـامة، وسكن إلـى ذلك قلوب المؤمنين وعـاند فيـه أصناف الجاحدين من المـعاندين، وشك فى ذلك ضعفاء من الشاكـين، واحتال فى السلم من الفريقــين من النبى وخيار أصــحابه ومن أصناف أعدائه جـماعة المنافقــين، وفاض فى صدورهم العداوة والبغضاء، والحسد والشـحناء، حتى قال قائل المنافقين: لقد أسرف محمد فى مدح نفسه، ثم أسـرف فى مدح أخيه على، وما ذاك من عند رب العالمين، ولكنه فى ذلك من المتقولين، يريد أن يثبت لنفســه الرياسة علينا حيا ولعلى بعد موته، قــال الله تعــالى: يا مـحمـد، قل لهم: وأى شىء أنـكرتم من ذلك؟ هو عظيم كـريم حكيم، ارتضى عبــادًا من عباده، قد اختـصهم بكرامات، لما علم من حـسن طاعتهم ولانقيادهم لأمره، ففوض إليهم أمور عباده، وجعل إليهم سياسة خلقه بالتدبير الحكيم الذى وفقهم له، أفلا ترون لملوك الأرض إذا ارتضى أحدهم خـدمة بعض عبيده ووثق بحسن اصطـناعه بما يندب له من أمـور ممـالكه، جعل ما وراء بابه إلـيه واعتـمد فى سياســة جيوشه ورعاياه عليه؟ كـذلك محمد فى التدبيـر الذى رفعه له ربه، وعلىّ من بعده الذى جعله وصيه وخليفته فى أهله، وقاضى دينه ومنجز عداته، والموازر لأوليائه والمناصب لأعدائه، فلـم يقنعوا بذلك ولم يسلموا، وقـالوا: ليس الذى تسنده إلى ابن أبى طالب أمـرًا صـغـيـرًا إنمـا هو دمـاء الخلق، ونسـاؤهم، وأولادهم، وأمـوالهم، وحقوقهم، وأنصباؤهم، ودنياهم، وأخراهم، فلتأتنا بآية تليق بجلالة هذه الولاية، فقال رسول الله: أما كفاكم نور على المشرق فى الظلمات الذى رأيتموه ليلة خروجه من عند رسول الله إلى منزله؟ أما كفاكم أن عليّا جاوز الحيطان بين يديه ففتحت له وفرجت ثم عادت والتـأمت؟ أما كـفاكم يوم غـدير خم أن عليّا لمــا أقامه رســول الله رأيتم أبواب السـمـاء مفتـحة والملائكة فـيها مطلعـين تناديكم: هذا ولى الله فاتبـعوه وإلا حل بكم عذاب الله فاحذروه؟ أمـا كفاكم رؤيتكم على بن أبى طالب وهو يمشى والجـبال تسير من بين يديه لئلا يحتـاج إلى انحراف عنها، فلما جاز رجعت الجـبال إلى أماكنها؟ ثم قال: اللهم زدهم آيات فإنها عليك سهلات يسيـرات لتزيد حجتك عليهم تأكيدًا، قال:

فرجع القوم إلى بيوتهم فأرادوا دخولها فاعتقلتهم الأرض ومنعتهم ونادتهم: حرام عليكم دخولها حتى تؤمنوا بولاية على، قالوا: آمنا... ودخلوا... ثم ذهبوا ينزعون ثيابهم ليلبسوا غيرها فثقلت عليهم ولم يقلوها، ونادتهم: حرام عليكم سهولة نزعنا حتى تقروا بولاية على، فأقروا... ونزعوها... ثم ذهبوا يلبسون ثياب الليل فثقلت عليهم ونادتهم: حرام عليكم لبسنا حتى تعترفوا بولاية على، فاعترفوا، ثم ذهبوا يأكلون فثقلت عليهم اللقم وما لم يثقل منها استحجر فى أفواههم وناداهم: حرام عليكم أكلنا حتى تعترفوا بولاية على، فاعترفوا... ثم ذهبوا يبولون ويتغوطون فتعذبوا وتعذر عليهم ونادتهم بطونهم ومذاكيرهم: حرام عليكم السلامة منا حتى تعترفوا بولاية على بن أبى طالب، فاعترفوا، ثم ضجر بعضهم وقال: ﴿ **اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ قال الله عز وجل: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ** ﴾ (الأنفال: ٣٣)... إلخ»[(١)].

الشجرة التى نهى آدم عن الأكل منها:

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة البقرة ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ** ﴾ يبين المراد من الشجرة ويعلل النهى عنها فيقول: «... لا تقربا هذه الشجرة: شجرة العلم، شجرة علم محمد وآل محمد، الذين آثرهم الله عز وجل به دون سائر خلقه، فقال الله تعالى: لا تقربا هذه الشجرة، شجرة العلم، فإنها لمحمد وآله خاصة دون غيرهم، ولا يتناول منها بأمر الله إلا هم... ومنها ما كان يتناوله النبى، وعلى، وفاطمة، والحسن، والحسين، بعد إطعامهم المسكين واليتيم والأسير حتى لم يحسوا بعد بجوع ولا عطش ولا تعب ولا نصب، وهى شجرة تميزت من بين أشجار الجنة، إن سائر أشجار الجنة كان كل نوع منها يحمل نوعًا من الثمار والمأكول، وكانت هذه الشجرة وجنسها تحمل البر، والعنب، والتين والعناب وسائر أنواع التمار والفواكه والأطعمة، فلذلك اختلف الحاكون لتلك الشجرة، فقال بعضهم: هى برة، وقال آخرون: هى عنبة، وقال آخرون: هى عنابه، قال الله تعالى: ولا تقربا هذه الشجرة تلتمسان بذلك دوحة محمد

(١) ص ٢٦٥ - ٢٦٧.

وآل محمد فى فضلهم، فإن الله تعالى خصهم بهذه دون غيرهم، وهى الشجرة التى من يتناول منها بإذن الله عـز وجل ألهم علم الأولين والآخرين من غـير تعلم، ومن تناول منها بغير إذن الله خـاب من مراده وعصى ربه ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ بمعصـيتكما والتماسكما درجة قد أوثر بها غيركما كما إذا أردتما بغير يحكم الله»[(١)].

توسل الأنبياء والأمم السابقة بمحمد ﷺ وبأهل البيت:

وقد جاء فى هذا التفسير من الأخبـار ما يدل على أن الأنبياء والأمم السابقين كانوا إذا حزبهم أمر وأهمهم توسلوا بمحمد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (٣٨) من سورة البقرة: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ نراه يقول: «. . . فلما زلت من آدم الخطيئة واعتذر إلى ربه عز وجل قال: يا رب، تب على واقـبل معذرتى، وأعدنى إلى مرتبتى، وارفع لديك درجتى فما أشد تبين بعض الخطيـئة وذلها بأعضائى وسائر بدنى، قال الله تعالى: يـا آدم، أما تذكر أمـرى إياك بأن تدعونى بمـحمـد وآله الطيبين عـند شدائدك ودواهيك وفى النوازل تنزل بك؟ قـال آدم: يا رب بلى، قال الله عز وجل له: فـتوسل بمحمد وعلى فاطمة والحسن والحسـين خصوصًا، فادعنى أجبك إلى ملتمسك وأزدك فـوق مرادك، فـقال آدم: يـا رب وقد بلغ عندك من مـحلهم أنك بالتـوسل بهم تقـبل توبتى، وتغفر خطيئتى، وأنا الذى أسجدت له ملائكتك، وأبحته جنتك، وزوجته حواء أمتك وأخـدمتـه كرام ملائكتك؟ قـال الله: يا آدم. . . إنما أمـرت الملائكة بتـعظيمك بالسجود إذا كنت وعـاء لهذه الأنوار، ولو كنت سألتنى بهم قبل خطيـئتك أن أعصمك منها وأن أفطنك لدواعى عـدوك إبليس حتى تحذر منها لكنت قـد جعلت ذلك، ولكن المعلوم فى سابق علمى يجـرى موافقًا لعلمى، فالآن بهم فـادعنى لأجبك، فعند ذلك قال آدم: اللهم بجاه محمد وآله الطيبين، بجاه محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين والطيبين من آلهم لما تفضلت بقبـول توبتى، وغفران زلتى، وإعادتى من كراماتك إلى مرتبتى، فـقال الله عز وجل: قد قبلت توبتك وأقـبلت برضوانى عليك، ورزقت آلائى ونعمـائى عليك، وأعدتك إلى مرتبـتك من كراماتى، ووفـرت نصيبك من رحـماتى،

(١) ص ٨٩.

فذلك قوله عز وجل: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٣٧)»[1].

ومثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٥٠) من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ نجده يقول: «قال الله عز وجل: واذكروا إذ جعلنا ماء البحر فرقا ينقطع بعضه من بعض، فأنجيناكم هناك وأغرقنا فرعون وقومه وأنتم تنظرون إليهم وهم يغرقون، وذلك أن موسى لما انتهى إلى البحر أوحى الله عز وجل إليه: قل لبنى إسرائيل جددوا توحيدى، وأمِرّوا بقلوبكم ذكر محمد سيد عبيدى وإمائى، وأعيدوا على أنفسكم الولاية لعلى أخى محمد وآله الطيبين، وقولوا: اللهم بجاههم جوزنا على متن هذا الماء، فإنه يتحول لكم أرضًا، فقال لهم موسى ذلك، فقالوا: أتورد علينا ما نكره، وهل فررنا من آل فرعون إلا من خوف الموت، وأنت تقتحم بنا هذا الماء الغمر بهذه الكلمات، وما يدرينا ما يحدث من هذه علينا؟ فقال لموسى كالب بن يوحنا وهو على دابة له ـ وكان ذلك الخليج أربعة فراسخ: يا نبى الله، أمرك الله بهذا أن نقوله وندخل الماء؟ قال: نعم، قال: وأنت تأمرنى به؟ قال: نعم، فوقف وجدد على نفسه من توحيد الله ونبوة محمد وولاية على والطيبين من آلهما ما أمر به، ثم قال: اللهم بجاههم جوزنى على متن هذا الماء، وإذا الماء قصته كأرض لينة، حتى بلغ آخر الخليج ثم عاد راكضًا، ثم قال لبنى إسرائيل: يا بنى إسرائيل... أطيعوا موسى، فما هذا الدعاء إلا مفتاح أبواب الجنان، ومغاليق أبواب النيران، ومستنزل الأرزاق، وجالب على عباد الله وإمائه رضا المهيمن الخلاق، فأبوا وقالوا: لا نسير إلا على الأرض، فأوحى الله: يا موسى... اضرب بعصاك البحر وقل: اللهم بجاه محمد وآله الطيبين لما فلقته، ففعل فانفلق وظهرت الأرض إلى آخر الخليج، فقال موسى: ادخلوها، قالوا: الأرض وحلة، نخاف أن نرسب فيها، فقال الله عز وجل: يا موسى... قل: اللهم بحق محمد وآله الطيبين جففها، فقالها، فأرسل الله عليها ريح الصبا فجفت، فقال موسى: ادخلوها، فقالوا: يا نبى الله، نحن اثنتا عشرة قبيلة بنو اثنى عشر أبًا، وإن دخلناها رام كل فريق منا تقدم صاحبه ولا نأمن

---

(١) ص ٩٠، ٩١.

من وقوع الشر بيننا، فلو كان لكل فريق منا طريق على حدة لأمنا ما نخافه، فأمر الله موسى أن يضرب البحر بعددهم اثنتى عشرة ضربة، فى اثنى عشر موضعًا إلى جانب ذلك الموضع ويقول: اللهم بجاه محمد وآله الطيبين بين الأرض لنا، وأقصر الماء عنا، فصار فيه تمام اثنى عشر طريقًا، وجف قرار الأرض بريح الصبا، فقال: ادخلوها، فقالوا: كل فريق منا يدخل سكة من هذه السكك لا يدرى ما يحدث على الآخرين، فقال الله عز وجل: فاضرب كل طود من الماء بين هذه السكك، فضرب فقال: اللهم بجاه محمد وآله الطيبين لما جعلت فى هذا الماء طيقانًا واسعة يرى بعضهم بعضًا، فحدثت طيقان واسعة يرى بعضهم بعضًا، ثم دخلوها، فلما بلغوا آخرها جاء فرعون وقومه فدخل بعضهم، فلما دخل آخرهم وهمَّ أولهم بالخروج أمر الله تعالى فانطبق عليهم فغرقوا، وأصحاب موسى ينظرون إليه، فذلك قوله عز وجل: ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾»(١) .

التقيـــــــة:

وهو يعترف بالتقية ويدين بها، ويروى عن رسول الله ﷺ أحاديث فيها، فمن ذلك: أنه روى عن الحسن بن على أن رسول الله ﷺ قال: «إن الأنبياء إنما فضلهم الله على الخلق أجمعين لشدة مداراتهم لأعداء دين الله، وحسن تقيتهم لأجل إخوانهم فى الله»(٢) .

وروى عن أمير المؤمنين أنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سئل عن علم فكتمه حيث يجب إظهاره وتزول عنه التقية، جاء يوم القيامة ملجمًا بلجام من النار»(٣) .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦٣) من سورة البقرة: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ يقول: « . . . الرحيم بعباده المؤمنين من شيعة آل محمد، وسع لهم فى التقية، يجاهرون بإظهار موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه إذا قدروا، ويسرونها إذا عجزوا»(٤) .

---

(١) ص ٩٨، ٩٩.

(٢) ص ١٦٢.

(٣) ص ١٤٢.

(٤) ص ٢٣٩.

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٧٣) من سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ...﴾ الآية يقول: «... نظر الباقر إلى بعض شيعته وقد دخل خلف بعض المنافقين إلى الصلاة، وأحس الشيعى بأن الباقر قد عرف ذلك منه بقصده وقال: أعتذر إليك يا بن رسول الله عن صلاتى خلف فلان فإنها تقية، ولو لا ذلك لصليت وحدى، قال له الباقر: يا أخى... إنما كنت تحتاج أن تعتذر لو تركت، يا عبد الله المؤمن... ما زالت ملائكة السموات السبع والأرضين السبع تصلى عليك وتلعن إمامك ذاك، وإن الله تعالى أمر أن تحسب صلاتك خلفه للتقية بسبعمائة صلاة لو صليتها لوحدك، فعليك بالتقية»(١).

تأثره بمذهب المعتزلة:

وإنا لنجد فى هذا التفسير تأثرًا بمذهب المعتزلة ومعتقداتهم، فمثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٧) من سورة البقرة: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ نجد المؤلف لا يرتضى نسبة الختم إلى الله على ظاهره، ونراه يتأول هذا الختم بما يتفق ورأى المعتزلة فيقول: «أى وسمها بسمة يعرفها من يشاء من ملائكته إذا نظروا إليها بأنهم الذين لا يؤمنون، وعلى سمعهم كذلك بسمات، وعلى أبصارهم غشاوة، وذلك أنهم لما أعرضوا عن النظر فيما كلفوه، وقصروا فيما أريد منهم، جهلوا ما لزمهم من الإيمان به، فصاروا كمن على عينه غطاء لا يبصر ما أمامه؛ فإن الله عز وجل يتعالى عن العبث والفساد، وعن مطالبة العباد بما قد منعهم بالقهر منه، فلا يأمرهم بمغالبته ولا بالمسير إلى ما قد صدهم بالعجز»(٢).

تأثره فى تفسيره بآراء الشيعة فى الفروع الفقهية:

كذلك نجد المؤلف يجرى فى تفسيره على وفق ما يميل إليه من الأحكام الفقهية التى يقول بها الإمامية الاثنا عشرية.

فمثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة البقرة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ...﴾ نراه يروى حديثًا طويلاً عن رسول الله ﷺ يؤخذ منه صراحة أن فرض الرجلين فى الوضوء مسحهما لا غسلهما وأن غسلهما لا يجوز إلا للتقية، وهذا

(١) ص ٢٤٥، ٢٤٦. (٢) ص ٣٦.

الحديث هو: أن رسول الله ﷺ قال: إن العبد إذا توضأ فغسل وجهه تناثرت ذنوب وجهه، وإذا غسل يديه إلى المرفقين تناثرت عنه ذنوب يديه، وإذا مسح رأسه تناثرت ذنوب رأسه، وإذا مسح رجليه، أو غسلهما تقية تناثرت ذنوب رجليه... إلخ»[(١)].

... وهكذا نجد هذا التفسير يسير مع الهوى الشيعى، سيرًا فيه كثير من التطرف والغلو والخروج عن دائرة المعقول المقبول، وإذا كان هذا التفسير من عمل الحسن العسكرى، الإمام المعصوم، الذى عنده علم القرآن كله، فتلك أكبر شهادة على أنه لا عصمة له ولا علم عنده، وكيف يصدر هذا التلاعب بنصوص القرآن من إمام له قيمته ومكانته؟!.

وإذا كان ما يذكره صاحب أعيان الشيعة من علمه وصلاحه أمرًا حقيقيا، فالظن بهذا الكتاب أن يكون منسوبًا إلى هذا الإمام زورًا وبهتانًا، وهذا ما أرجحه وأختاره، لأنى لم أعثر على نقل صحيح يدل على غلو الرجل وتطرفه فى التشيع كما فعل غيره.

* * *

(١) ص ٢١٥، ٢١٦.

(٣) مجمع البيان لعلوم القرآن
للطبرسى

ترجمة المؤلف ومكانته العلمية:

مؤلف هذا التفسير فى نظر أصحابه هو أبو على، الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرى المشهدى(١)، الفاضل العالم، المفسر، الفقيه، المحدث، الجليل، الثقة، الكامل، النبيل، وهو من بيت عرف أهله بالعلم، فهو وابنه رضى الدين أبو نصر حسن بن الفضل صاحب مكارم الأخلاق، وسبطه أبو الفضل على بن الحسن، وسائر سلسلته وأقربائه، من أكابر العلماء، ويروى عنه جماعة من العلماء منهم: ولده المذكور، وابن شهر آشوب، والشيخ منتخب الدين، والقطب الراوندى، وغيرهم، ويروى هو عن: الشيخ أبى على ابن الشيخ الطوسى، قال الشيخ منتخب الدين فى الفهرس: «هو ثقة، فاضل، دين، عين، له تصانيف، منها: مجمع البيان فى تفسير القرآن، والوسيط فى التفسير أربع مجلدات، والوجيز مجلدة، وإعلام الورى بأعلام الهدى مجلدتين، وتاج المواليد والآداب الدينية للخزانة المعيبة». قال صاحب روضات الجنات معقبًا على هذا: «وقد فرغ من تأليف المجمع فى منتصف ذى القعدة سنة ٥٣٤هـ أربع وثلاثين وخمسمائة، ولعل مراده بالوسيط هو تفسير جوامع الجامع المشهور، وبالوجيز الكاف الشاف عن الكشاف، ويحتمل المغايرة».

وقال صاحب مجالس المؤمنين ما معناه: «إن عمدة المفسرين، أمين الدين، ثقة الإسلام، أبو على الفاضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى، كان من نحارير علماء التفسير، وتفسيره الكبير الموسوم بمجمع البيان، بيان كاف ودليل واف لجامعيته لفنون الفضل والكمال، ثم لما وصل إليه بعد هذا التأليف كتاب الكشاف واستحسن طريقته، ألف تفسيرًا آخر مختصرًا، شاملاً لفوائد تفسيره الأول ولطائف الكشاف، وسماه الجوامع، وله تفسير ثالث أيضًا أخصر من الأولين، وتصانيف أخرى فى الفقه والكلام، ويظهر من كتاب اللمعة الدمشقية فى مبحث الرضاع أن الطبرسى هذا كان

---

(١) **الطبرسى**: نسبة إلى طبرستان: والمشهدى نسبة للمشهد الرضوى المدفون فيه.

داخلاً فى زمرة مجتهدى علمائنا أيضًا، ومقالته فى الرضاع معروفة، وهى قوله بعدم اعتبار اتحاد الفحل فى نشر الحرمة، وكذا قوله بأن المعاصى كلها كبائر، وإنما يكون اتصافها بالصغيرة بالنسبة لما هو أكبر».

ومن العجيب أنهم يذكرون قصة فى غاية الطرافة والغرابة فى سبب تأليفه لتفسيره مجمع البيان الذى نحن بصدده فيقولون: «ومن عجيب أمر هذا الطبرسى بل من غريب كراماته، ما اشتهر بين الخاص والعام، أنه قد أصابته السكتة فظنوا به الوفاة فغسلوه وكفنوه ودفنوه ثم رجعوا، فلما أفاق وجد نفسه فى القبر ومسدودًا عليه سبيل الخروج عنه من كل جهة، فنذر فى تلك الحال أنه إذا نجى من تلك الداهية ألف كتابًا فى تفسير القرآن، فاتفق أن بعض النباشين قصده لأخذ كفنه، فلما كشف عن وجه القبر أخذ الشيخ بيده، فتحير النباش ودهش مما رآه، ثم تكلم معه فازداد به قلقًا، فقال له: لا تخف، أنا حى وقد أصابتنى السكتة ففعلوا بى هذا، ولما لم يقدر على النهوض والمشى من غاية ضعفه، حمله النباش على عاتقه وجاء به إلى بيته الشريف، فأعطاه الخلعة وأولاه مالاً جزيلاً، وتاب على يده النباش، ثم إنه بعد ذلك وفَّى بنذره الموصوف، وشرع فى تأليفه مجمع البيان».

وكانت وفاته ليلة النحر سنة ٥٣٨هـ ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة(١).

الكلام على هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

قبل أن أخوض فى الكلام عن هذا التفسير أرى أن أسوق ما جاء فى مقدمة هذا التفسير للمؤلف رحمه الله؛ لما جاء فيها من بيان الحوافز التى دفعت مؤلفه إلى تأليفه، ولما أوضحه لنا من طريقته التى سلكها فى تفسيره، فهو أدرى بها وأعلم.

الدواعى التى حملت الطبرسى على كتابة هذا التفسير:

ذكر الطبرسى هذه الدواعى فقال:

«... وقد خاض العلماء قديمًا وحديثًا فى علم تفسير القرآن، واجتهدوا فى إبراز مكنونه وإظهار مضمونه، وألفوا فيه كتبًا جمّا غاصوا فى كثير منها إلى أعماق لججه، وشققوا الشعر فى إيضاح حججه، وحققوا فى تفتيح أبوابه وتغلغل شعابه، إلا أن

---

(١) انظر روضات الجنات ٥١٢ - ٥١٤..

أصحابنا ـ رضي الله عنهم ـ لم يدونوا فى ذلك غير مختصرات نقلوا فيها ما وصل إليهم فى ذلك من الأخبار، ولم يعنوا ببسط المعانى فيه وكشف الأسرار، إلا ما جمعه الشيخ الأجل السعيد، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى من كتاب التبيان، فإنه الكتاب الذى يقتبس من ضيائه الحق، ويلوح عليه رواء الصدق، وقد تضمن فيه من المعانى الأسرار البديعة، واختصر من الألفاظ اللغة الوسيعة، ولم يقنع بتدوينها دون تبيينها، ولا بتنميقها دون تحقيقها، وهو القدوة وأستضىء بأنواره، وأطأ مواقع آثاره، غير أنه خلط فى أشياء مما ذكره فى الإعراب والنحو الغث بالسمين، والخاثر بالزباد، ولم يميز الصلاح مما ذكر فيه والفساد، وأدى الألفاظ فى مواضع من متضمناته قاصرة عن المراد، وأخل بحسن الترتيب وجودة التهذيب، فلم يقع له لذلك من القلوب السلمية الموقع المرضى، ولم يعل من الخواطر الكريمة المكان العلى».

«وقد كنت فى ريعان الشباب وحداثة السن، وريان العيش ونضارة الغصن، كثير النزاع شديد التشوق إلى جمع كتاب فى التفسير، ينتظم أسرار النحو اللطيفة، ولمع اللغة الشريفة، ويفى موارد القراءات من متوجهاتها، مع بيان حججها الواردة من جميع جهاتها، ويجمع جوامع البيان فى المعانى المستنبطة من معادنها، المستخرجة من كوامنها، إلى غير ذلك من علومه الجمة، مطلعة من الغلف والأكمة، فيعترض لذلك جوائح الزمان، وعوائق الحدثان، وواردات الهموم، وهفوات القدر المحتوم، وهلم جرًّا إلى الآن، وقد زرف سنى على الستين واشتعل الرأس شيبًا، وامتلأت العيبة عيبًا، فحدانى على تصميم هذه العزيمة ما رأيت من عناية مولانا الأمير السيد الأجل العالم، ولى النعيم جلال الدين ركن الإسلام... فخر آل رسول الله ﷺ وآله، أبى منصور محمد بن يحيى بن هبة الله الحسين ـ أدام الله علاه ـ بهذا العلم، وصدق رغبته فى معرفة هذا الفن، وقصر همه على تحقيق حقائقه، والاحتواء على جلائله ودقائقه، والله عز اسمه المسئول أن يحرس للإسلام والمسلمين رفيع حضرته، ويفيض على الفضل والفضلاء سجال سيادته، ويمد على العلم والعلماء أمداد سعادته... فأوجبت على نفسى إجابته إلى مطلوبه، وإسعافه بمحبوبه، واستخرت الله تعالى، ثم قصرت وهمى وهمى على اقتناء هذه الذخيرة الخطيرة، واكتساب هذه الفضيلة النبيلة، وشمرت عن

ساق الجـد، وبذلت غاية الجـهد والكد، وأسـهرت الناظر وأتعبت الـخاطر، وأطلت التفكير وأحضرت التفاسير، واستمددت من الله التوفيق والتيسير»(١).

وصف الطبرسى لتفسيره:

ثم وصف الطبرسى تفسيره فقال:

«وابتدأت فى تأليف كتاب هو فى غاية التلخيص والتهذيب وحسن النظم والترتيب، يجمع أنواع هذا العلم وفنونه، ويحوى فصوصه وعيونه من علم قراءاته وإعرابه ولغاته، وغوامـضه ومـشكلاته، ومعـانيه وجهـاته، ونزوله وأخبـاره، وقصـه وآثاره، وحدوده وأحكامه، وحـلاله وحرامه، والكلام على مطـاعن المبطلين فيـه، وذكرنا ما يتـفرد به أصحابنا ـ ﷺ ـ من الاستدلال بمواضع كثيرة منه على صحة ما يعتقدونه من الأصول والفروع، والمعـقول والمسموع، على وجـه الاعتدال والاختصـار، فوق الإيجاز دون الإكثار؛ فإن الخواطر فى هذا الزمان لا تحمل أعباء العلوم الكثيرة وتضعف عن الإجراء فى الحلبات الخطيرة إذ لم يبق من العلماء إلا الأسماء، ومن العلوم إلا الذماء»(٢).

منهج الطبرسى فى تفسيره:

ثم وضح منهجه فقال:

«وقدمت فى مطـلع كل سورة ذكر مكيـها ومـدنيها، ثم ذكـر الاختـلاف فى عدد آياتها، ثم ذكرت تلاوتها، ثم أقدم فى كـل آية الاختلاف فى القراءات، ثم أذكر العلل والاحتـجاجات، ثم أذكـر العربية واللغـات، ثم أذكر الإعراب والمـشكلات، ثم أذكر الأسباب والنزولات، ثم أذكر المعـانى والأحكام والتأويلات، والقصص والجهات، ثم أذكر انتظام الآيات، على أنى قد جمعت فى عربيته كل غرة لائحة، وفى إعرابه كل حجة واضحة، وفى مـعانيه كل قول متـين، وفى مشكلاته كل برهان مبين، فهـو بحمد الله للأديب عمدة، وللنحوى عـدة، وللمقرئ بصيرة، وللناسك ذخيـرة، وللمتكلم حجة، وللمحدث محجة، وللفقيه دلالة، وللواعظ آلة، وسميته: «مجمع البيان لعلوم القرآن».

---

(١) هنا يذكر الشيخ الحـوافز التى دفـعـته إلى هـذا التـفسـيـر، وهى كمـا ترى مخـالفة للقـصة المتقدمة.

(٢) الذماء فى الأصل: بقية الروح فى المذبوح.

مقدمات الكتاب:

ثم استطرد إلى ذكر مقدمات تتعلق ببعض علوم القرآن فقال: وقبل أن نشرع فى تفسير السور والآيات، فنحن نصدر الكتاب بذكر مقدمات لا بد من معرفتها، لمن أراد الخوض فى علومه تجمعها فنون سبعة:

جعل الفن الأول منها: فى أعداد آى القرآن والفائدة من معرفتها.

والفن الثانى: فى ذكر أسامى القراء المشهورين فى الأمصار ورواتهم.

والفن الثالث: فى ذكر التفسير والتأويل والمعنى، والتوفيق بين ما ورد من الآيات والآثار من النهى عن التفسير بالرأى وإباحته.

والفن الرابع: فى ذكر أسامى القرآن ومعانيها.

والفن الخامس: فى أشياء من علوم القرآن يحال فى شرحها وبسط الكلام فيها على المواضع المختصة بها والكتب المؤلفة فيها كإعجاز القرآن، والكلام عن زيادة القرآن ونقصانه.

وهنا يقول: فأما الزيادة فيه فمجمع على بطلانه، وأما النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أن فى القرآن تغييراً ونقصاناً، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه، وهو الذى نصره المرتضى قدس الله روحه... إلخ»[١]، ثم ذكر من جملة العلوم التى يحال فى شرحها وبسط الكلام فيها على الكتب المؤلفة فيها الكلام فى النسخ والناسخ والمنسوخ وغير ذلك من العلوم المتعلقة بالقرآن وليست داخلة فى التفسير.

والفن السادس: فى ذكر بعض ما جاء من الأخبار المشهورة فى فضل القرآن وأهله.

والفن السابع: فى ذكر ما يستحب للقارئ من تحسين اللفظ وتزيين الصوت بقراءة القرآن[٢].

ثم شرع فى التفسير فتكلم عن الاستعاذة فالبسملة ففاتحة الكتاب وهكذا إلى آخر القرآن.

---

(١) جـ١ ص ٦. (٢) جـ١ ص ١ - ٦.

والحق أن تفسير الطبرسى ـ بصرف النظر عما فيه من نزعات تشيعية وآراء اعتزالية ـ كتاب عظيم فى بابه، يدل على تبحر صاحبه فى فنون مختلفة من العلم والمعرفة، والكتاب يجرى على الطريقة التى أوضحها لنا صاحبه، فى تناسق تام وترتيب جميل، وهو يجيد فى كل ناحية من النواحى التى يتكلم عنها، فإذا تكلم عن القراءات ووجوهها أجاد، وإذا تكلم عن المعانى اللغوية للمفردات أجاد، وإذا تكلم عن وجوه الإعراب أجاد، وإذا شرح المعنى الإجمالى أوضح المراد، وإذا تكلم عن أسباب النزول وشرح القصص استوفى الأقوال وأفاض، وإذا تكلم عن الأحكام تعرض لمذاهب الفقهاء، وجهر بمذهبه، ونصره إن كانت هناك مخالفة منه للفقهاء، وإذا ربط بين الآيات آخى بين الجمل، وأوضح لنا عن حسن السبك وجمال النظم، وإذا عرض لمشكلات القرآن أذهب الإشكال وأراح البال، وهو ينقل أقوال من تقدمه من المفسرين معزوة لأصحابها، ويرجح ويوجه ما يختار منها، وإذا كان لنا بعض المآخذ عليه فهو تشيعه لمذهبه وانتصاره له، وحمله لكتاب الله على ما يتفق وعقيدته، وتنزيله لآيات الأحكام على ما يتناسب مع الاجتهادات التى خالف فيها هو ومن على شاكلته، وروايته لكثير من الأحاديث الموضوعة، غير أنه ـ والحق يقال ـ ليس مغاليًا فى تشيعه، ولا متطرفًا فى عقيدته، كما هو شأن كثير غيره من علماء الإمامية الاثنى عشرية.

وإليك بعض المثل من هذا التفسير، لترى كيف يميل الطبرسى بالآيات القرآنية إلى المعانى التى تتفق ومذهبه، وكيف يحاول بكل قواه الجدلية العنيفة أن يقيم مذهبه على أسس من القرآن الكريم، وأن يرد ما يصادمه من ظواهر النصوص ويدفع بها فى وجه خصمه.

إمامة على:

لما كان الطبرسى يدين بإمامة على ﷺ، ويرى أنه خليفة النبى ﷺ بلا فصل، فإنا نراه يحاول بكل جهوده أن يثبت إمامته وولايته من القرآن فنراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ يبذل مجهودًا كبيرًا لاستخلاص وجوب إمامة على ﷺ من هذه الآية، فنجده أولاً يتكلم عن المعانى اللغوية لبعض مفردات الآية

فيفسر المولى بقوله: «الولى هو الذى يلى النصرة والمعونة، والولى هو الذى يلى تدبير الأمر، يقال: فلان ولى أمر المرأة إذا كان يملك تدبير نكاحها، وولى الدم من كان إليه المطالبة بالقود، والسلطان ولى أمر الرعية، ويقال لمن يرشحه للخلافة عليهم بعده ولى عهد المسلمين، قال الكميت يمدح عليّا:

ونعم ولى الأمر بعد وليه ومنتجع التقوى ونعم المؤدب

(ويروى الفتوى) وإنما أراد ولى الأمر والقائم بتدبيره، قال المبرد فى كتاب العبادة عن صفات الله: (أصل الولى الذى هو أولى أى أحق، ومثله المولى)، ثم بعد ذلك فسر الطبرسى (الركوع) و (الحزب)، ثم ذكر الإعراب، ثم ذكر سبب النزول فقال بعد سياقه لسند طويل: «. . . بينا عبد الله بن عباس جالس على شفير زمزم يقول: قال رسول الله ﷺ، إذ أقبل رجل متعمم بعمامة، فجعل ابن عباس لا يقول: قال رسول الله ﷺ إلا قال الرجل: قال رسول الله، فقال ابن عباس: سألتك بالله من أنت؟ فكشف العمامة عن وجهه وقال: يا أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا جندب بن جنادة البدرى أبو ذر الغفارى، سمعت رسول الله ﷺ بهاتين وإلا صمتا، ورأيته بهاتين وإلا عميتا يقول: (علىٌّ قائد البررة، وقاتل الكفرة، ومنصور من نصره، ومخذول من خذله) أما إنى صليت مع رسول الله ﷺ يومًا من الأيام صلاة الظهر فسأل سائل فى المسجد فلم يعطه أحد شيئًا، فرفع السائل يده إلى السماء فقال: اللهم إنى سألت فى مسجد رسول الله فلم يعطنى أحد شيئًا، وكان على راكعًا فأوى بخنصره اليمنى إليه - وكان يتختم فيها - فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين رسول الله ﷺ، فلما فرغ النبى من صلاته ورفع رأسه إلى السماء فقال: اللهم إن أخى موسى سألك فقال ﴿**رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾ (طه: ٢٥ - ٣٢) فأنزلت عليه قرآنًا ناطقًا ﴿**سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا**﴾ (القصص: ٣٥) اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك، اللهم فاشرح لى صدرى، ويسر لى أمرى، واجعل لى وزيرًا من أهلى، عليّا اشدد به ظهرى، قال أبو ذر: فوالله ما استتم رسول الله ﷺ الكلمة حتى نزل عليه جبريل من عند ربه فقال: يا محمد، اقرأ، قال: وما أقرأ! قال: اقرأ ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ**

وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ **(المائدة: ٥٥)** وروى هذا الخبر أبو إسحاق الثعلبى فى تفسيره بهذا الإسناد بعينه، وروى أبو بكر الرازى فى كتاب أحكام القرآن ـ على ما حكاه المغربى عنه ـ والرمانى، والطبرى أنها نزلت فى على حين تصدق بخاتمه وهو راكع، وهو قول مجاهد والسدى، والمروى عن أبى جعفر وأبى عبد الله وجميع علماء أهل البيت، وقال الكلينى: نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه لما أسلموا فقطعت اليهود موالاتهم فنزلت الآية، وفى رواية عطاء قال عبد الله بن سلام: يا رسول الله أنا رأيت عليّا تصدق بخاتمه وهو راكع فنحن نتولاه، وقد رواه السيد أبو الحمد عن أبى القاسم الحسكانى بالإسناد المتصل المرفوع إلى أبى صالح أبى الصلاح عن ابن عباس قال: أقبل عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه ممن قد آمنوا بالنبى ﷺ فقالوا: يا رسول الله. . إن منازلنا بعيدة، وليس لنا مجلس ولا متحدث دون هذا المجلس، وإن قومنا لما رأونا آمنا بالله ورسوله وصدقناه رفضونا وآلوا على أنفسهم أن لا يجالسونا ولا يناكحونا ولا يكلمونا فشق ذلك علينا، فقال لهم النبى ﷺ: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...**﴾ **(المائدة: ٥٥)** الآية، ثم إن النبى خرج إلى المسجد والناس بين قائم وراكع، فبصر بسائل، فقال النبى ﷺ: «هل أعطاك أحد شيئًا؟» فقال: نعم. . . خاتم من فضة، فقال النبى ﷺ: «من أعطاكه؟» قال: ذلك القائم ـ وأومأ بيده إلى علىٍّ ـ فقال النبى ﷺ: «على أى حال أعطاكه؟» قال: أعطانى وهو راكع، فكبَّر النبى ثم قرأ ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ **(المائدة: ٥٦)** فأنشأ حسان بن ثابت يقول فى ذلك:

أبا حسن تفديك نفسى ومهجتى ... وكل بطىء فى الهدى ومسارع
أيذهب مدحيك المحبر ضائعًا ... وما المدح فى جنب الإله بضائع
فأنت الذى أعطيت إذ كنت راكعًا ... زكاة فدتك النفس يا خير راكع
فأنزل فيك الله خير ولاية ... وثبتها ثبت الكتاب الشرائع

وفى حديث إبراهيم بن الحكم بن ظهير: أن عبد الله بن سلام أتى رسول الله ﷺ مع رهط من قومه يشكو إلى رسول الله ﷺ ما لقوا من قومهم، فبينا هم يشكون إذ نزلت هذه الآية، وأذن بلال فخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وإذا بمسكين يسأل، فقال ﷺ: ماذا أعطيت؟ قال: خاتم من فضة، قال: من أعطاكه؟

قال: ذلك القائم، فإذا هو على، قال: على أى حال أعطاكه؟ قال: أعطانى وهو راكع، فكبر رسول الله ﷺ وقال: ومن يتول الله ورسوله. . .».

ثم شرح المعنى فقال: «ثم بين تعالى من له الولاية على الخلق والقيام بأمرهم، ويجب طاعته عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أى الذى يتولى مصالحكم ويحقق تدبيركم هو الله تعالى، ورسوله يفعله بأمره ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم وصف الذين آمنوا فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ بشرائطها ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ أى ويعطون ﴿الزَّكَاةَ﴾ ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أى فى حال الركوع، وهذه الآية من أوضح الدلالة على صحة إمامة على بعد النبى ﷺ بلا فصل، والوجه فيه: أنه إذا ثبت أن لفظة (وليكم) فى الآية تفيد من هو أولى بتدبير أموركم ويجب طاعته عليكم، وثبت أن المراد بالذين آمنوا علىٌّ، ثبت النص عليه بالإمامة ووضح، والذى يدل على الأول هو الرجوع إلى اللغة، فمن تأملها علم أن القوم نصوا على ذلك، وقد ذكرنا قول أهل اللغة فيه قبل فلا وجه لإعادته، وإن الذى يدل على أنها فى الآية تفيد ذلك دون غيره، أن لفظة «إنما» على ما تقدم ذكره تفيد التخصيص ونفى الحكم عمن عدا المذكور، كما يقولون: إنما الفصاحة للجاهلية، ويعنون نفى الفصاحة عن غيرهم، وإذا تقرر هذا لم يجز حمل لفظة الوالى على الموالاة فى الدين والمحبة؛ لأنه لا تخصيص فى هذا المعنى لمؤمن دون مؤمن آخر، والمؤمنون كلهم مشتركون فى هذا المعنى، كما قال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١) وإذا لم يجز حمله على ذلك لم يبق إلا الوجه الآخر وهو التحقيق بالأمور، وما يقتضى فرض الطاعة على الجمهور؛ لأنه لا محتمل للفظ إلا الوجهان، فإذا بطل أحدهما ثبت الآخر، والذى يدل على أن المعنى بالذين آمنوا هو على، الرواية الواردة من طريق العامة والخاصة بنزول الآية فيه لما تصدق بخاتمه فى حال الركوع، وقد تقدم ذكرها، وأيضًا فإن كل من قال إن المراد بلفظة ولى ما يرجع إلى فرض الطاعة والإمامة، ذهب إلى أنه هو المقصود بالآية والمنفرد، ولا أحد من الأمة يذهب إلى أن هذه اللفظة تقتضى ما ذكرنا ويذهب إلى أن المعنى بها سواه، وليس لأحد أن يقول: إن لفظة الذين آمنوا لفظ جمع فلا يجوز أن يتوجه إليه على الانفراد، وذلك أن أهل اللغة قد يعبرون بلفظ الجمع عن الواحد على

سبيل التفخيم والتعظيم، وذلك أشهر فى كلامهم من أن يحتاج إلى الاستدلال عليه، وليس لهم أن يقولوا: إن المراد بقوله: وهم راكعون، أن هذه شيمتهم وعادتهم ولا يكون حالاً لإيتاء الزكاة؛ وذلك لأن قوله: (يقيمون الصلاة) قد دخل فيه الركوع، فلو لم يحمل قوله (وهم راكعون) على أنه حال من (يؤتون الزكاة) وحملناه على من صفتهم الركوع، كان ذلك كالتكرار غير المفيد، والتأويل المفيد أولى من البعد الذى لا يفيد، ووجه آخر فى الدلالة على أن الولاية فى الآية مختصة: أنه قال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ فخاطب جميع المؤمنين، ودخل فى الخطاب النبى ﷺ وغيره، ثم قال: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ فأخرج النبى ﷺ من جملتهم لكونهم مضافين إلى ولايته، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فوجب أن يكون الذى خوطب بالآية هو الذى جعلت له الولاية وإلا أدى إلى أن يكون المضاف هو المضاف إليه بعينه، وإلى أن يكون كل واحد من المؤمنين ولى نفسه، وذلك محال، واستيفاء الكلام فى هذا الباب يطول به الكتاب ومن أراده فليطلبه من مظانه. . .»(١).

ولا شك أن هذه محاولة فاشلة؛ فإن حديث تصدق على بخاتمه فى الصلاة ـ وهو محور الكلام ـ حديث موضوع لا أصل له، وقد تكفل العلامة ابن تيمية بالرد على هذه الدعوى فى كتابه منهاج السنة (جـ٤ ص٣ - ٩).

عصمة الأئمة:

ولما كان الطبرسى يدين بعصمة الأئمة فإنا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٣) من سورة الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ يحاول محاولة جدية أن يقصر أهل البيت على النبى ﷺ وعلى وفاطمة والحسن والحسين؛ ليصل من وراء ذلك إلى أن الأئمة معصومون من جميع القبائح كالأنبياء سواء بسواء، فلهذا يقول بعدما سرد من الروايات ما يشهد له بالقصر الذى يريده: «. . . والروايات فى هذا كثيرة من طريق العامة والخاصة، لو تصدينا لإيرادها لطال الكلام، وفيما أوردناه كفاية. . . واستدلت الشيعة على اختصاص الآية بهؤلاء الخمسة بأن قالوا: إن لفظة (إنما) محققة لما أثبت بعدها، نافية لما لم يثبت؛ فإن قول

(١) جـ١ ص٣٣٥، ٣٣٦.

القائل: إنما لك عندى درهم، وإنما فى الدار زيد، يقتضى أنه ليس عندى سوى الدرهم، وليس فى الدار سوى زيد، وإذا تقرر هذا فلا تخلو الإرادة فى الآية أن تكون هى الإرادة المحضة، أو الإرادة التى يتبعها التطهير وإذهاب الرجس، ولا يجوز الوجه الأول؛ لأن الله تعالى قد أراد من كل مكلف هذه الإرادة المطلقة، فلا اختصاص لها بأهل البيت دون سائر الخلق، ولأن هذا القول يقتضى المدح والتعظيم لهم بغير شك وشبهة، ولا مدح فى الإرادة المجردة، فثبت الوجه الثانى، وفى ثبوته ثبوت عصمة الأئمة بالآية من جميع القبائح، وقد علمنا أن من عدا من ذكرنا من أهل البيت غير مقطوع على عصمته، فثبت أن الآية مختصة بهم لبطلان تعلقها بغيرهم، ومتى قيل: إن صدر الآية وما بعدها فى الأزواج، فالقول فيه: إن هذا لا ينكره من عرف عادة الفصحاء فى كلامهم؛ فإنهم يذهبون من خطاب إلى غيره ويعودون إليه، والقرآن من ذلك مملوء وكذلك كلام العرب وأشعارهم...»(١).

فأنت ترى أن الطبرسى يحاول من وراء هذا الجدل العنيف أن يثبت عصمة الأئمة وهى عقيدة فاسدة يؤمن بها هو ومن على شاكلته من الإمامية الاثنى عشرية، ولا شك أن هذا تحكم فى كلام الله تعالى دفعه إليه الهوى، وحمله عليه تأثير المذهب.

الرجعة:

ولما كان الطبرسى يقول بالرجعة، فإنا نراه عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة البقرة ﴿**ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ يقول ما نصه: (... واستدل قوم من أصحابنا بهذه الآية على جواز الرجعة، وقول من قال: إن الرجعة لا تجوز إلا فى زمن النبى لتكون معجزة له ودلالة على نبوته، باطل؛ لأن عندنا بل عند أكثر الأمة يجوز إظهار المعجزات على أيدى الأئمة والأولياء، والأدلة على ذلك مذكورة فى كتب الأصول...»(٢).

المهدى:

والطبرسى يدين بالمهدى، ويعتقد أنه اختفى وسيرجع فى آخر الزمان، وقد تأثر بهذه العقيدة، فنجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة: ﴿**الَّذِينَ**

---

(١) جـ١ ص ٥٠.

(٢) جـ١ ص ٥٠.

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يذكر الأقوال الواردة فى المعنى المراد بالغيب، وينقل فى جملة ما ينقل من الأقوال: أن ابن مسعود وجماعة من الصحابة فسروا الغيب بما غاب عن العباد علمه، ثم يقول: «وهذا أولى لعمومه، ويدخل فيه ما رواه أصحابنا من زمان غيبة المهدى ووقت خروجه»(١).

التقيـــــة:

ولما كان الطبرسى يقول بمبدأ التقية، فإنا نجده يستطرد إلى الكلام فيها ويؤيد مذهبه عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة آل عمران: **﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً...﴾** الآية، فيقول: «من اتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فليس من الله فى شىء، أى ليس هو من أولياء الله، والله برىء منه، وقيل: ليس هو من ولاية الله تعالى فى شىء، وقيل: ليس من دين الله فى شىء، ثم استثنى فقال: **﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾** والمعنى: إلا أن يكون الكفار غالبين والمؤمنون مغلوبين فيخافهم المؤمن إن لم يظهر موافقتهم ولم يحسن العشرة معهم، فعند ذلك يجوز له إظهار مودتهم بلسانه، ومداراتهم تقية منهم ودفعًا عن نفسه من غير أن يعتقد ذلك، وفى هذه الآية دلالة على أن التقية جائزة فى الدين عند الخوف على النفس، وقال أصحابنا: إنها جائزة فى الأحوال كلها عند الضرورة، وربما وجبت فيها لضرب من اللطف والاستصلاح وليس تجوز من الأفعال فى قتل المؤمن، ولا فيما يعلم أو يغلب على الظن أنه استفساد فى الدين.

قال المفيد: إنها قد تجب أحيانًا وتكون فرضًا، وتجوز أحيانًا من غير وجوب، وتكون فى وقت أفضل من تركها، وقد يكون تركها أفضل وإن كان فاعلها معذورًا أو معفوًا عنه متفضلاً عليه بترك اللوم عليها، وقال الشيخ أبو جعفر الطوسى: وظاهر الروايات يدل على أنها واجبة عند الخوف على النفس، وقد روى رخصته فى جواز الإفصاح بالحق عنده، وروى الحسن: أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ فقال لأحدهما: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، قال:

---

(١) جـ١ ص ١٧.

أفتشهد أنى رسول الله؟ قال: نعم، ثم دعا بالآخر فقال: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، قال: أفتشهد أنى رسول الله؟ قال: إنى أصم، قالها ثلاثًا، كل ذلك يجيبه بمثل الأول، فضرب عنقه، فبلغ ذلك رسول الله فقال: أما ذلك المقتول فمضى على صدقه ويقينه، وأخذ بفضله فهنيئًا له، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه، فعلى هذا تكون التقية رخصة والإفصاح بالحق فضيلة»(١).

تأثر الطبرسى بفقه الشيعة فى تفسيره:

ونجد الطبرسى فى تفسيره يتأثر بفقه الإمامية الاثنى عشرية وآرائهم الاجتهادية، فنراه يستشهد بكثير من الآيات على صحة مذهبه، أو يرد استدلال مخالفيه بآيات القرآن على مذاهبهم، وهو فى استدلاله ورده، ودفاعه وجدله، عنيف كل العنف، قوى إلى حد بعيد، بحيث يخيل لغير المدقق الخبير أن الحق بجانبه، والباطل بجانب من يخالفه.

نكاح المتعة:

فمثلاً نجد الإمامية الاثنى عشرية يقولون بجواز نكاح المتعة، ولا يعترفون بنسخه كغيرهم من المسلمين؛ فلهذا حاول الطبرسى - وهو واحد منهم - أن يأخذ هذا المذهب بدليله من كتاب الله تعالى فعندما فسر قوله تعالى فى الآية (٢٤) من سورة النساء: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً...﴾ الآية، يقول ما نصه: ﴿... فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً...﴾ الآية، قيل: المراد بالاستمتاع هنا درك البغية والمباشرة وقضاء الوطر من اللذة، عن الحسن ومجاهد وابن زيد، فمعناه على هذا: فما استمتعتم وتلذذتم من النساء بالنكاح فآتوهن مهورهن، وقيل: المراد نكاح المتعة، وهو النكاح المنعقد بمهر معين إلى أجل معلوم... عن ابن عباس والسدى وابن سعيد وجماعة من التابعين، وهو مذهب أصحابنا الإمامية، وهو الواضح؛ لأن أصل الاستمتاع والتمتع وإن كان فى الأصل واقعًا على الانتفاع والالتذاذ فقد صار بعرف الشرع مخصوصًا بهذا العقد

---

(١) جـ١ ص ١٨٣.

المسمى متعة فآتوهن أجورهن، ويدل على ذلك أن الله علق وجوب إعطاء المهر بالاستمتاع وذلك يقتضى أن يكون معناه هذا العقد المخصوص دون الجماع والاستلذاذ، لأن المهر لا يجب إلا به، هذا وقد روى عن جماعة من الصحابة منهم أبى بن كعب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود: أنهم قرأوا: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن» وفى ذلك تصريح بأن المراد به عقد المتعة، وقد أورد الثعلبى فى تفسيره عن حبيب بن أبى ثابت قال: أعطانى ابن عباس مصحفًا فقال: هذا على قراءة أبى، فرأيت فى المصحف: فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى، وبإسناده عن أبى نضرة قال: سألت ابن عباس عن المتعة فقال: أما تقرأ سورة النساء؟ فقلت: بلى، فقال: فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى، قلت: لا أقرأها هكذا، قال ابن عباس: والله هكذا أنزلها الله تعالى (ثلاث مرات)، وبإسناده عن سعيد ابن جبير أنه قرأ: فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى، وبإسناده عن شعبة بن الحكم بن عيينة قال: سألته عن هذه الآية ﴿ **فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ** ﴾ أمنسوخة هى؟ قال: قال الحكم: قال على بن أبى طالب: لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شفى[1]، وبإسناده عن عمران بن الحصين قال: نزلت آية المتعة فى كتاب الله تعالى ولم تنزل آية بعدها تنسخها، فأمرنا رسول الله ﷺ، وتمتعنا مع رسول الله ﷺ ومات ولم ينهنا عنها، فقال بعد رجل برأيه ما شاء، ومما أورده مسلم بن الحجاج فى الصحيح قال: حدثنا الحسن الحلوانى، قال: حدثنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا ابن جريج، قال: قال عطاء: قدم جابر بن عبد الله معتمرًا فجئناه فى منزله، فسأله القوم عن أشياء، ثم ذكروا المتعة، فقال: استمتعنا على عهد رسول الله وأبى بكر وعمر، ومما يدل أيضًا على أن لفظ الاستمتاع فى الآية لا يجوز أن يكون المراد به الانتفاع والجماع، أنه لو كان كذلك لوجب أن لا يلزم شىء من المهر من لا ينتفع من المرأة بشىء، وقد علمنا أنه لو طلقها قبل الدخول لزم نصف المهر، ولو كان المراد به النكاح الدائم لوجب للمرأة بحكم الآية جميع المهر بنفس العقد؛ لأنه قال: ﴿ **فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** ﴾ أى مهورهن، ولا خلاف فى أن ذلك غير واجب، وإنما يجب الأجر بكماله بنفس العقد فى نكاح المتعة.

(١) **الأشفى بالفاء:** أى: إلا قليل.

ومما يمكن التعلق به فى هذه المسألة، الرواية المشهورة عن عمر بن الخطاب أنه قال: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ حلالاً، أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما، فأخبر بأن هذه المتعة كانت على عهد رسول الله وأضاف النهى عنها إلى نفسه بضرب من الرأى، فلو كان النبى ﷺ نسخها أو نهى عنها أو أباحها فى وقت مخصوص دون غيره لأضاف التحريم إليه دون نفسه، وأيضًا فإنه قرن بين متعة الحج ومتعة النساء فى النهى، ولا خلاف فى أن متعة الحج غير منسوخة ولا محرمة، فوجب أن يكون حكم متعة النساء حكمها، وقوله: ﴿**وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنۢ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ**﴾ **(النساء: ٢٤)** من قال: إن المراد بالاستمتاع والانتفاع والجماع، قال: المراد به ولا حرج ولا إثم عليكم فيما تراضيتم به من زيادة مهر ونقصانه، أو حط، أو إبراء، أو تأخير، وقال السدى: معناه لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من استئناف عقد آخر بعد انقضاء مدة الأجل المضروب فى عقد المتعة، يزيدها الرجل فى الأجر وتزيده فى المدة، وهذا قول الإمامية وتظاهرت به الروايات عن أئمتهم...»(١).

فرض الرجلين فى الوضوء:

كذلك يقول الطبرسى - كغيره من علماء مذهبه - بأن المسح هو فرض الرجلين فى الوضوء، فلهذا نراه يجادل بكل قوة، ويدافع عن مذهبه وينصره بأدلة إن دلت على شىء فهو قوة عقلية هذا الرجل وسعة ذهنه وكثرة اطلاعه، فعندما فسر قوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ...**﴾ الآية، يقول ما نصه: «... وأرجلكم إلى الكعبين، اختلف فى ذلك، فقال جمهور الفقهاء: إن فرضهما الغسل، وقالت الإمامية: فرضهما المسح دون غيره، وبه قال عكرمة، وقد روى القول بالمسح عن جماعة من الصحابة والتابعين، كابن عباس، وأنس وأبى العالية والشعبى، وقال الحسن البصرى بالتخيير بين المسح والغسل، وإليه ذهب الطبرى والجبائى إلا أنهما قالا: يجب مسح جميع القدمين ولا يجوز الاقتصار على مسح ظاهر القدم، قال ناصر الحق من جملة أئمة الزيدية: يجب الجمع بين المسح والغسل، وروى عن ابن

---

(١) جـ١ ص ٢٥٥.

عباس أنه وصف وضوء رسول الله فمسح على رجليه، وروى عنه أنه قال: إن فى كتاب الله المسح، ويأبى الناس إلا الغسل، وقال: الوضوء غسلتان ومسحتان، وقال قتادة: فرض الله غسلتين ومسحتين، وروى ابن علية، عن حميد، عن موسى بن أنس: أنه قال لأنس ونحن عنده: إن الحجاج خطبنا بالأهواز فذكر الطهر فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برءوسكم، وإنه ليس شىء من بنى آدم أقرب من خبثه من قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعواقبهما، فقال أنس: صدق الله وكذب الحجاج، قال الله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ قال: فكان أنس إذا مسح قدميه بلهما، وقال الشعبى: نزل جبريل عليه السلام بالمسح، وقال: إن فى التيمم يمسح ما كان غسلاً، ويلغى ما كان مسحًا، وقال يونس: حدثنى من صحب عكرمة إلى واسط، قال: فما رأيته غسل رجليه، إنما كان يمسح عليهما، وأما ما روى عن سادة أهل البيت فى ذلك فأكثر من أن يحصى، فمن ذلك ما روى الحسين بن سعيد الأهوازى، عن فضالة، عن حماد بن عثمان، عن غالب بن هذيل قال: سألت أبا جعفر عن المسح على الرجلين فقال: هو الذى نزل به جبريل، وعنه عن أحمد بن محمد قال: سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عن المسح على القدمين كيف هو؟ فوضع بكفه على الأصابع ثم مسحهما إلى الكعبين؛ فقلت له: لو أن رجلاً قال بأصبعين من أصابعه هكذا إلى الكعبين؟ قال: لا، إلا بكفه كلها، وأما وجه القراءتين فى (أرجلكم) فمن قال بالغسل حمل الجر فيه على أنه عطف على (برءوسكم) وقال: المراد بالمسح هو الغسل، وروى عن أبى زيد أنه قال: المسح خفيف الغسل، فقد قالوا: تمسحت للصلاة، وقوى ذلك بأن التحديد إنما جاء فى المغسول ولم يجئ فى الممسوح، فلما وقع التحديد فى المسح علم أنه فى حكم الغسل لموافقة الغسل فى التحديد، وهذا قول أبى على الفارسى.

وقال بعضهم: هو خفض على الجوار، كما قالوا جحر ضب خرب، وخرب من صفات الجحر لا الضب، وكما قال امرؤ القيس:

كأن ثبيرا فى عرانين وبله كبير أناس بجاد مزمل

وقال الزجاج: إذا قرئ بالجر يكون عطفًا على الرءوس فيقتضى كونه ممسوحًا،

وذكر عن بعض السلف أنه قال: نزل جبريل بالمسح، والسنة فيه الغسل، قال: والخفض على الجوار لا يجوز فى كتاب الله تعالى، ولكن المسح على هذا التحديد فى القرآن كالغسل، وقال الأخفش: هو معطوف على الرءوس فى اللفظ، مقطوع فى المعنى، كقول الشاعر:

* علفتها تبنًا وماء باردا *

المعنى: وسقيتها ماء باردًا.

وأما القراءة بالنصب، فقالوا فيه... إنه معطوف على (أيديكم) لأنا رأينا فقهاء الأمصار عملوا على الغسل دون المسح، ولما روى أن النبى ﷺ رأى قومًا توضأوا وأعقابهم تلوح، فقال: «ويل للعراقيب من النار» ذكره أبو على الفارسى، وأما من قال بوجوب مسح الرجلين... حمل الجر والنصب فى (أرجلكم) على ظاهره بدون تعسف، فالجر للعطف على الرءوس، والنصب للعطف على موضع الجار والمجرور، وأمثال ذلك فى كلام العرب أكثر من أن تحصى، قالوا: ليس فلان بقائم ولا ذاهبًا، وأنشد:

معاوى إننا بشر فأسجع فلسنا بالجبال ولا الحديدا

وقال تأبط شرّا:

هل أنت باعث دينارًا لحاجتنا أو عبد رب أخا عون بن مخراق

فعطف عبد على موضع دينار، فإنه منصوب فى المعنى، ومن ذلك قول الشاعر:

جئنى بمثل بنى بدر لقومهم أو مثل إخوة منظور بن سيار

فإنه لما كان معنى جئنى هات وأحضر لى مثلهم، عطف بالنصب على المعنى، وأجابوا الأولين عما ذكروه فى وجه الجر والنصب بأجوبة نوردها على وجه الإيجاز: قالوا: ما ذكروه أولاً من أن المراد بالمسح الغسل فباطل من وجوه:

أحدها: أن فائدة اللفظين فى اللغة والشرع مختلفة، وقد فرق الله سبحانه بين الأعضاء المغسولة وبين الأعضاء الممسوحة، فكيف يكون معنى المسح والغسل واحدًا؟.

وثانيها: أن الأرجل إذا كان معطوفًا على الرءوس، وكان الفرض فى الرءوس

المسح الذى ليس بغسل بلا خلاف، فيجب أن يكون حكم الأرجل كذلك؛ لأن حقيقة العطف تقتضى ذلك.

وثالثها: أن المسح لو كان بمعنى الغسل لسقط استدلالهم بما رووه عن النبى ﷺ أنه توضأ وغسل رجليه، لأن على هذا لا ينكر أن يكون مسحهما فسموا المسح غسلاً وفى هذا ما فيه.

فأما استشهاد أبى زيد بقولهم: تمسحت للصلاة، فالمعنى فيه: أنهم لما أرادوا أن يخبروا عن الطهور بلفظ موجز ولم يجز أن يقولوا تغسلت للصلاة لأن ذلك تشبيه بالغسل، قالوا بدلا من ذلك تمسحت، لأن المغسول من الأعضاء ممسوح أيضًا فتجوزوا لذلك تعويلاً على أن المراد مفهوم، وهذا لا يقتضى أن يكونوا جعلوا المسح من أسماء الغسل.

وأما ما قالوا فى تحديد طهارة الرجلين فقد ذكر المرتضى فى الجواب عنه: أن ذلك لا يدل على الغسل، وذلك لأن المسح فعل قد أوجبته الشريعة كالغسل فلا ينكر تحديده كتحديد الغسل، ولو صرح سبحانه وتعالى فقال: وامسحوا أرجلكم وانتهوا بالمسح إلى الكعبين، لم يكن منكرًا، فإن قالوا: إن تحديد اليدين لما اقتضى الغسل فكذلك تحديد الرجلين يقتضى الغسل، قلنا: إنا لم نوجب الغسل فى اليدين للتحديد بل للتصرح بغسلهما، وليس كذلك فى الرجلين، وإن قالوا: عطف المحدود على المحدود أولى وأشبه بترتيب الكلام، قلنا: هذا لا يصح؛ لأن الأيدى محدودة وهى معطوفة على الوجوه التى ليست فى الآية محدودة، فإذًا جاز عطف الأرجل وهى محدودة، على الرءوس التى ليست بمحدودة، وهذا أشبه مما ذكرتموه؛ لأن الآية تضمنت ذكر عضو مغسول غير محدود وهو الوجه، وعطف عضو محدود مغسول عليه، ثم استؤنف ذكر عضو ممسوح غير محدود، فيجب أن يكون أرجل ممسوحة محدودة معطوفة على الرءوس دون غيره، ليتقابل الجملتان فى عطف مغسول محدود على مغسول غير محدود، وعطف ممسوح محدود على ممسوح غير محدود.

وأما من قال: إنه عطف على الجوار، فقد ذكرنا عن الزجاج أنه لم يجوز ذلك فى القرآن، ومن أجاز ذلك فى الكلام فإنما يجوز مع فقد حرف العطف، وكل ما استشهد

به على الإعراب بالمجاورة فلا حرف فيه حائل بين هذا وذاك، وأيضًا فإن المجاورة إنما وردت فى كلامهم عند ارتفاع اللبس والأمن من الاشتباه، فإن أحدًا لا يشتبه عليه أن (خربا) لا يكون من صفة الضب، ولفظة (مزمل) لا يكون من صفة البجاد، وليس كذلك الأرجل فإنها يجوز أن تكون ممسوحة كالرءوس، وأيضًا فإن المحققين من النحويين نفوا أن يكون الإعراب بالمجاورة جائزًا فى كلام العرب، وقالوا فى جحر ضب خرب: إنهم أرادوا خرب جحره، فحذفوا المضاف الذى هو جحر وأقيم المضاف إليه وهو الضمير المجرور مقامه وإذا ارتفع الضمير استكن فى خرب، وكذلك القول فى كبير أناس فى بجاد مزمل، فتقديره مزمل كبيره، فبطل الإعراب بالمجاورة جملة، وهذا واضح لمن تدبره.

وأما من جعله مثل قول الشاعر: علفتها تبنًا وماء باردًا، كأنه قدر فى الآية: واغسلوا أرجلكم، فقوله أبعد من الجميع؛ لأن مثل ذلك لو جاز فى كتاب الله تعالى ـ على ضعفه وبعده فى سائر الكلام ـ فإنما يجوز إذا استحال حمله على ظاهر، فأما إذا كان الكلام مستقيمًا ومعناه ظاهرًا فكيف يجوز مثل هذا التقدير الشاذ البعيد؟.

وأما ما قاله أبو على فى القراءة بالنصب على أنه معطوف على الأيدى، فقد أجاب عنه المرتضى بأن قال: جعل التأثير فى الكلام للقريب أولى من جعله للبعيد، فنصب الأرجل عطفًا على الموضع أولى من عطفها على الأيدى والوجوه، على أن الجملة الأولى المأمور فيها بالغسل قد انقضت وبطل حكمها باستئناف الجملة الثانية، ولا يجوز بعد انقطاع حكم الجملة الأولى أن تعطف على ما فيها، فإن ذلك يجرى مجرى قولهم: ضربت زيدًا وعمرًا وأكرمت خالدًا وبكرًا، فإن رد بكر إلى خالد الإكرام هو الوجه فى الكلام لا يسوغ الذى سواه، ولا يجوز رده إلى الضرب الذى قد انقطع حكمه، ولو جاز ذلك أيضًا لترجح ما ذكرناه لتطابق معنى القراءتين ولا تتنافيان.

فأما ما روى فى الحديث أنه قال: ويل للعراقيب من النار، وغير ذلك من الأخبار التى رووها عن النبى ﷺ أنه توضأ وغسل رجليه، فالكلام فى ذلك أنه لا يجوز أن يرجع عن ظاهر القرآن المعلوم بظاهر الأخبار الذى لا يوجب علمًا وإنما يقتضى الظن، على أن هذه الأخبار معارضة بأخبار كثيرة وردت من طرقهم ووجدت فى كتبهم،

ونقلت عن شيوخهم، مثل ما روى عن أوس بن أبى أوس أنه قال: رأيت النبى ﷺ يتوضأ ومسح على نعليه ثم قام فصلى، وعن حذيفة قال: أتى رسول الله سباطة قوم فبال عليها ثم دعا بماء فتوضأ ومسح على قدميه، وذكره أبو عبيدة فى غريب الحديث، إلى غير ذلك مما يطول ذكره.

وقوله: ويل للعراقيب من النار، فقد روى فيه أن قومًا من أجلاف الأعراب كانوا يبولون وهم قيام، فيتشرشر البول على أعقابهم وأرجلهم فلا يغسلونها، ويدخلون المسجد للصلاة، وكان ذلك سببًا لهذا الوعيد.

وأما الكعبان فقد اختلف فى معناهما، فعند الإمامية هما العظمان النابتان فى ظهر القدم عند معقد الشراك، ووافقهم فى ذلك محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة، وإن كان يوجب غسل الرجلين إلى هذا الموضع، وقال جمهور المفسرين والفقهاء: الكعبان هما عظما الساقين؛ قالوا: ولو كان كما قالوه لقال سبحانه: وأرجلكم إلى الكعاب ولم يقل إلى الكعبين؛ لأن على ذلك القول يكون فى كل رجل كعبان»[(١)].

نكاح الكتابيات:

ولما كان مذهب الطبرسى عدم جواز نكاح أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فإنا نجده يتأثر بهذا المذهب فيفسر كلام الله على مقتضاه، فنجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢١) من سورة البقرة: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ...﴾ الآية، يقول بعدما تكلم عن اللغة والإعراب وسبب النزول: «لما تقدم ذكر المخالطة بيَّن تعالى من يجوز مخالطته بالنكاح فقال: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ أى لا تزوجوا النساء الكافرات ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ أى يصدقن بالله، وهى عامة عندنا فى تحريم مناكحة جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، وليست بمنسوخة ولا مخصوصة، فاختلفوا فيه، فقال بعضهم: لا يقع اسم المشركات على أهل الكتاب، وقد فصل الله بينهما فقال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ (البينة: ١) و ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة: ١٠٥) وعطف أحدهما على الآخر، فلا نسخ فى الآية ولا تخصيص، وقال بعضهم: الآية متناولة جميع

(١) جـ١ ص ٣١٤ - ٣١٦.

الكفار، والشرك يطلق على الكل، ومن جحد نبوة نبينا محمد ﷺ فقد أنكر معجزته وأضافه إلى غير الله، وهذا هو الشرك بعينه؛ لأن المعجزة شهادة من الله له بالنبوة، ثم اختلف هؤلاء: فمنهم من قال: إن الآية منسوخة فى الكتاب بالآية التى فى المائدة ﴿... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ (المائدة: ٥) عن ابن عباس والحسن ومجاهد، ومنهم من قال: إنها مخصوصة بغير الكتابيات... عن قتادة وسعيد بن جبير، ومنهم من قال: إنها على ظاهرها فى تحريم نكاح كل كافرة كتابية كانت أو مشركة... عن ابن عمر وبعض الزيدية وهو مذهبنا، وسيأتى بيان آية المائدة فى موضعها إن شاء الله ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ معناه مملوكة مصدقة مسلمة خير من حرة مشركة ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ معناه ولو أعجبتكم بمالها أو حسبها أو جمالها، فظاهر هذا يدل على أنه لا يجوز نكاح الأمة المؤمنة فى وجود الطول، فأما قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً...﴾ (النساء: ٢٥) الآية، فإنما هى على التنزيه دون التحريم ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ (البقرة: ٢٢١) معناه: ولا تنكحوا النساء المسلمات جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم حتى يؤمنوا، وهذا يؤيد قول من يقول إن قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ يتناول جميع الكافرات، وقوله: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ أى عبد مصدق مسلم خير من حر مشرك ولو أعجبكم ماله أو حاله أو جماله...»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ...﴾ الآية، نراه يقول ما نصه: ﴿... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهم اليهود والنصارى، واختلف فى معناه فقيل: هن العفائف حرائر كن أو إماء، حربيات كن أو ذميات... عن مجاهد والحسن والشعبى وغيرهم، وقيل: هن الحرائر أو ذميات كن أو حربيات، وقال أصحابنا: لا يجوز عقد نكاح الدوام على الكتابية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ ولقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ (الممتحنة: ١٠) وأولوا هذه الآية بأن المراد بالمحصنات

(١) جـ١ ص ١٣٤.

من الذين أتوا الكتاب: اللاتى أسلمن منهن، والمراد بالمحصنات من المؤمنات، اللاتى كن فى الأصل مؤمنات بأن ولدن على الإسلام، وذلك أن قوما كانوا يتحرجون من العقد على من أسلمت عن كفر، فبين سبحانه أنه لا حرج فى ذلك؛ ولهذا أفردهن بالذكر، حكى ذلك أبو القاسم البلخى، قالوا: ويجوز أن يكون مخصوصًا أيضًا بنكاح المتعة وملك اليمين، فإن عندنا يجوز وطؤهن بكلا الوجهين، على أنه قد روى أبو الجارود عن أبى جعفر أنه منسوخ بقوله: ﴿ **وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ** ﴾ وبقوله: ﴿ **وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ** ﴾»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة الممتحنة: ﴿ **وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ** ﴾ قال ما نصه: «أى لا تمسكوا بنكاح الكافرات، وأصل العصمة المنع، وسمى النكاح عصمة، لأن المنكوحة تكون فى حبال الزوج وعصمته، وفى هذا دلالة على أنه لا يجوز العقد على الكافرة سواء كانت حربية أو ذمية، وعلى كل حال، الآية عامة فى الكوافر، وليس لأحد أن يخص الآية بعابدة الوثن لنزولها بسببهن، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بالسبب . . . »(٢).

الغنـــائم:

ولما كانت الإمامية الاثنا عشرية لهم فى الغنائم نظام خاص يخالفون به من عداهم فيجبون الخمس لمستحقيه فى مطلق الغنيمة، فهو غير مختص عندهم بغنائم الحرب بل يشمل أنواعًا سبعة هى: غنائم الحرب، وغنائم الغوص، والكنز الذى يعثر عليه، والمعدن الذى يستنبط من الأرض، وأرباح المكاسب، والحلال المختلط بالحرام، والأرض المنتقلة من المسلم إلى الذمى، وليس الخمس الهاشمى الذى يرون وجوبه فيما عدا الغنائم الحربية من الصدقات كما يتوهم البعض، ولكنهم يعتبرونه حقًا امتيازيًا لآل محمد الذين حرمت عليهم الصدقات نظير ما تمتاز به الأسر المالكة اليوم من التمتع بمخصصات خاصة، وقد تضافر الحديث عن الأئمة بأن الخمس حق سلطانى بإرادة ملكية، هى إرادة مليك الكائنات لمستحقيه الذين ذكرهم القرآن(٣).

(١) جـ١ ص ٣١٣.
(٢) جـ٢ ص ٤٩٧.
(٣) تعريف الشيعة ص٣١.

لما كان هذا فإنا نجد الطبرسى ينزل ما ورد فى الغنائم من الآيات على مذهبه، ولهذا عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٤١) من سورة الأنفال: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ**﴾ الآية، يقول متأثرًا بمذهبه: «. . . اختلف العلماء فى كيفية قسمة الخمس ومن يستحقه على أقوال:

أحدها: ما ذهب إليه أصحابنا، وهو أن الخمس يقسم على ستة أسهم، فسهم لله، وسهم للرسول، وهذان السهمان مع سهم ذى القربى للإمام القائم مقام الرسول، وسهم ليتامى آل محمد، وسهم لمساكينهم، وسهم لأبناء سبيلهم، لا يشركهم فى ذلك غيرهم، لأن الله سبحانه حرم عليهم الصدقات لكونها أوساخ الناس وعوضهم من ذلك الخمس، وروى ذلك الطبرى عن على بن الحسين زين العابدين، ومحمد بن على الباقر، وروى أيضًا عن أبى العالية والربيع أنه يقسم على ستة أسهم إلا أنهما قالا: سهم الله للكعبة، والباقى لمن ذكره الله، وهذا القسم مما يقتضيه ظاهر الكتاب ويقويه.

الثانى: أن الخمس يقسم على خمسة أسهم، وأن سهم الله والرسول واحد، ويصرف هذا السهم إلى الكراع والسلاح، وهو المروى عن ابن عباس، وإبراهيم، وقتادة، وعطاء.

الثالث: أن يقسم على أربعة أسهم: سهم لذى القربى. . . لقرابة النبى ﷺ، والأسهم الثلاثة لمن ذكروا بعد ذلك من سائر المسلمين، وهو مذهب الشافعى.

الرابع: أنه يقسم على ثلاثة أسهم، لأن سهم الرسول قد سقط بوفاته، لأن الأنبياء لا تورث فيما يزعمون، وسهم ذوى القربى قد سقط، لأن أبا بكر وعمر لم يعطيا سهم ذى القربى ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة عليهما. . . وهو مذهب أبى حنيفة وأهل العراق، ومنهم من قال: لو أعطى فقراء ذوى القربى سهمًا والآخرون ثلاثة أسهم جاز، ولو جعل ذوى القربى أسوة بالفقراء ولا يفرد لهم سهم جاز، واختلف فى ذى القربى: فقيل: هم بنو هاشم خاصة من ولد عبد المطلب، لأن هاشمًا لم يعقب إلا منه. . . عن ابن عباس ومجاهد، وإليه ذهب أصحابنا، وقيل: هم بنو هاشم بن عبد مناف، وبنو عبد المطلب بن عبد مناف. . . وهو مذهب الشافعى، وروى ذلك عن جبير بن مطعم

عن النبى ﷺ، وقال أصحابنا: إن الخمس واجب فى كل فائدة تحصل للإنسان من المكاسب، وأرباح التجارات، وفى الكنوز والمعادن والغوص، وغير ذلك مما هو مذكور فى الكتب، ويمكن أن يستدل على ذلك بهذه الآية، فإن فى عرف اللغة يطلق على جميع ذلك اسم الغنم والغنيمة...»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الحشر: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الآية، يقول ما نصه: «﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ أى من أموال كفار أهل القرى ﴿فَلِلَّهِ﴾ يأمركم فيه بما أحب ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ بتمليك الله إياه ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ يعنى أهل بيت رسول الله وقرابته، وهم بنو هاشم ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ منهم، لأن التقدير ولذى قرباه، ويتامى أهل بيته ومساكينهم وابن السبيل منهم، وروى المنهال بن عمرو عن على بن الحسين قال: قلت: قوله: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ قال: هم أقرباؤنا ومساكيننا وأبناء سبيلنا، وقال جميع الفقهاء: هم يتامى الناس عامة، وكذلك المساكين وأبناء السبيل، وقد روى أيضًا ذلك عنهم، وروى محمد ابن مسلم عن أبى جعفر أنه قال: كان أبى يقول: لنا سهم رسول الله وسهم ذوى القربى، ونحن شركاء الناس فيما بقى، والظاهر يقتضى أن ذلك لهم، سواء كانوا أغنياء أو فقراء... وهو مذهب الشافعى، وقيل: إن مال الفىء للفقراء من قرابة رسول الله وهم بنو هاشم وبنو المطلب، وروى عن الصادق أنه قال: نحن قوم فرض الله طاعتنا، ولنا الأنفال، ولنا صفو المال... يعنى ما كان يصطفى لرسول الله ﷺ من فره الدواب، وحسان الجوارى والدرة الثمينة والشىء الذى لا نظير له»(٢).

ميراث الأنبياء:

والطبرسى يقول كغيره من علماء مذهبه بأن الأنبياء عليهم السلام يورثون كما يورث سائر الناس، ولهذا نراه يتأثر بمذهبه هذا، فيحمل عليه كلام الله، فمثلاً عندما فسر قوله تعالى فى الآيتين (٥، ٦) من سورة مريم: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ

---

(١) (١/ ٤٨٢، ٤٨٣).
(٢) (٢/ ٤٩١).

رَضِيًّا﴾ يقول ما نصه: «. . . اختلف فى معناه، فقيل: معناه: يرثنى مالى ويرث من آل يعقوب النبوة. . . عن أبى صالح، وقيل معناه يرث نبوتى ونبوة آل يعقوب. . . عن الحسن ومجاهد، واستدل أصحابنا بالآية على أن الأنبياء يورثون المال، وأن المراد بالإرث المذكور فيها المال دون العلم والنبوة، بأن قالوا: إن لفظ الميراث فى اللغة والشريعة لا يطلق إلا على ما ينقل من الموروث إلى الوارث كالأموال، ولا يستعمل فى غير المال إلا على طريق المجاز والتوسع، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز بغير دلالة، وأيضًا فإن زكريا قال فى دعائه: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أى اجعل يا رب ذلك المولى الذى يرثنى رضيًا عندك ممتثلاً لأمرك، ومتى حملنا الإرث على النبوة لم يكن لذلك معنى، وكان لغوًا عبثًا، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول أحد: اللهم ابعث لنا نبيًا، واجعله عاقلاً رضيًا فى أخلاقه، لأنه إذا كان نبيًا فقد دخل الرضا وما هو أعظم من الرضا فى النبوة، ويقوى ما قلناه أن زكريا صرح بأنه يخاف بنى عمه بعده بقوله ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾ وإنما يطلب وارثًا لأجل خوفه، ولا يليق خوفه منهم إلا بالمال دون النبوة والعلم، لأنه كأن أعلم بالله تعالى من أن يخاف أن يبعث نبيًا من ليس بأهل النبوة، وأن يورث علمه وحكمته من ليس لهم بأهل، ولأنه إنما بعث لإذاعة العلم ونشره فى الناس، فكيف يخاف من الأمر الذى هو الغرض من بعثته، فإن قيل: إن هذا يرجع عليكم فى ورثة المال، لأن فى ذلك إضافة الضن والبخل إليه، قلنا: معاذ الله أن يستوى الأمران، فإن المال قد يروق المؤمن والكافر، والصالح والطالح، ولا يمتنع أن يأسى على بنى عمه إذا كانوا من أهل الفساد أن يظفروا بماله فيصرفوه فيما لا ينبغى، بل فى ذلك غاية الحكمة، فإن تقوية الفساق، وإعانتهم على أفعالهم المذمومة محظورة فى الدين، فمن عد ذلك بخلا وضنًا فهو غير منصف، وقوله: ﴿خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾ يفهم منه أن خوفه إنما كان من أخلاقهم وأفعالهم ومعان فيهم لا من أعيانهم، كما أن من خاف الله تعالى فإنما خاف عقابه، فالمراد به: خفت تضييع الموالى مالى وإنفاقهم إياه فى معصية الله»[(١)].

وعندما فسر قوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾

(١) (٢/ ١١٤، ١١٥).

نجده يقول ما نصه: «فى هذا دلالة على أن الأنبياء يورثون المال كتوريث غيرهم... وهو قول الحسن، وقيل: معناه أنه ورث علمه ونبوته وملكه دون سائر أولاده، ومعنى الميراث هنا أنه قام مقامه فى ذلك، فأطلق عليه اسم الإرث كما أطلق على الجنة اسم الإرث... عن الجبائى، وهذا خلاف الظاهر، والصحيح عند أهل البيت هو الأول...»(١).

الإجمـــاع:

ولما كان الطبرسى كعلماء مذهبه لا يعتبرون حجية الإجماع مهما كان نوعه إلا إذا كان كاشفًا عن رأى الإمام أو كان الإمام داخلاً فى جملة المجمعين(٢)، فإنا نراه يرد الأدلة القرآنية التى استدل بها الجمهور على حجية الإجماع ويناقشهم فى فهم هذه الآيات.

فمثلاً عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة النساء: ﴿ **... فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ نراه يرد استدلال الجمهور بهذه الآية على حجية الإجماع فيقول ما نصه «... واستدل بعضهم بقوله: ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾ على أن إجماع الأمة حجة بأن قالوا: إنما أوجب الله الرد إلى الكتاب والسنة بشرط وجود التنازع، فدل على أنه إذا لم يوجد التنازع لا يجب الرد، ولا يكون كذلك إلا والإجماع حجة، وهذا الاستدلال إنما يصح لو فرض أن فى الأمة معصومًا حافظًا للشرع، فأما إذا لم يفرض ذلك فلا يصح، لأن تعليق الحكم بشرط أو صفة لا يدل على أن ما عداه بخلافة عند أكثر العلماء، فكيف اعتمدوا عليه ههنا، على أن الأمة لا تجمع على شىء إلا عن كتاب أو سنة، وكيف يقال إنها إذا أجمعت على شىء لا يجب عليها الرد إلى الكتاب والسنة وقد ردت إليهما؟»(٣).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١٥) من سورة النساء: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى...** ﴾ الآية، يقول ما

(١) (٢/ ٢٢٩).
(٢) تعريف الشيعة ص ١٦.
(٣) (١/ ٢٧٠).

نصه «. . . وقد استدل بهذه الآية على أن إجماع الأمة حجة، لأنه توعد على مخالفة سبيل المؤمنين كما توعد على مشاقة الرسول، والصحيح أنه لا يدل على ذلك، لأن ظاهر الآية يقتضى إيجاب متابعة من هو مؤمن على الحقيقة ظاهرًا وباطنًا، لأن من أظهر الإيمان لا يوصف بأنه مؤمن إلا مجازًا، فكيف يحمل ذلك على إيجاب متابعة من أظهر الإيمان، وليس كل من أظهر الإيمان مؤمنًا، ومتى حملوا الآية على بعض الأمة حملها غيرهم على من هو مقطوع على عصمته عنده من المؤمنين وهم الأئمة من آل محمد ﷺ، على أن ظاهر الآية يقتضى أن الوعيد إنما يتناول من جمع بين مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين، فمن أين لهم أن من يفعل أحدهما يتناوله الوعيد؟ ونحن إنما علمنا أن الوعيد إنما يتناول بمشاقة الرسول بانفرادها بدليل غير الآية، فيجب أن يسندوا تناول الوعيد باتباع غير سبيل المؤمنين إلى دليل آخر»[(١)].

تأثر الطبرسى بمذهب المعتزلة فى تفسيره:

هذا . . وإن عقيدة الطبرسى كعقيدة غيره من الشيعة لها كثير الارتباط بمبادئ المعتزلة فى علم الكلام، ولهذا نراه فى تفسيره كثيرًا ما يوافق المعتزلة فى بعض آرائهم الكلامية، ويرتضى مذهبهم، ويدافع عنه، ويحاول أن يهدم ما عداه، وأحيانا نراه لا يرتضى ما يقوله المعتزلة ولا يسلمه لهم بل يقف موقف المنازع لهم، والمعارض لأدلتهم.

الهدى والضلال:

ففى الآيات التى لها تعلق بهداية العبد وضلاله، نراه يوافق المعتزلة فى عقيدتهم، ويدافع عنها، ويهدم ما عداها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢٥) من سورة الأنعام: ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا . . .** ﴾ الآية، يقول ما نصه: «. . . قد ذكر فى تأويل الآية وجوه:

أحدها: أن معناه من يرد الله أن يهديه إلى الثواب وطريق الجنة يشرح صدره للإسلام فى الدنيا؛ بأن يثبت عزمه عليه، ويقوى دواعيه على التمسك به، ويزيل عن

(١) (١/ ٢٩٠).

قلبه وساوس الشيطان وما يعرض فى القلوب من الخواطر الفاسدة، وإنما يفعل ذلك لطفًا لها ومنّا عليه وثوابًا على اهتدائه بهدى الله وقبوله إياه، ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (محمد: ١٧)، و ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ (مريم: ٧٦) ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ﴾ عن ثوابه وكرامته ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ﴾ فى كفره ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ عقوبة له على ترك الإيمان من غير أن يكون سبحانه مانعًا له عن الإيمان وسالبًا إياه القدرة عليه، بل ربما يكون ذلك سببًا داعيًا له إلى الإيمان، فإن من ضاق صدره بالشىء كان ذلك داعيًا له إلى تركه، والدليل على أن شرح الصدر قد يكون ثوابًا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ...﴾ (الشرح: ١) الآيات، ومعلوم أن وضع الوزر ورفع الذكر يكون ثوابًا على تحمل أعباء الرسالة وكلفها، وكذلك ما قرن به من شرح الصدر، والدليل على أن الهدى قد يكون إلى الثواب قوله: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ (محمد: ٤، ٥) ومعلوم أن الهداية بعد القتل لا تكون إلا إلى الثواب؛ فليس بعد الموت تكليف، وقد وردت الرواية الصحيحة: أنه لما نزلت هذه الآية سئل رسول الله ﷺ عن شرح الصدر: ما هو؟ فقال: نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فيشرح له صدره، وينفسح، قالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال: نعم... الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت.

وثانيها: أن معنى الآية: فمن يرد الله أن يثبته على الهدى يشرح صدره من الوجه الذى ذكرنا جزاءً له على إيمانه واهتدائه، وقد يطلق لفظ الهدى والمراد به الاستدامة كما قلنا فى قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦)، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ﴾ أى يخذلها ويخلى بينه وبين ما يريده لاختياره الكفر وتركه الإيمان ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بأن يمنعه الألطاف التى ينشرح بها صدره لخروجه من قبولها بإقامته على كفره، فإن قيل: إنا نجد الكافر غير ضيق الصدر لما هو فيه، ونراه طيب القلب على كفره، فكيف يصح الخلف فى خبره سبحانه؟ قلنا: إنه سبحانه بيَّن أنه يجعل صدره ضيقًا ولم يقل فى كل حال، ومعلوم من حاله فى أحوال كثيرة أنه يضيق صدره بما هو فيه من ورود الشبه والشكوك عليه، وعندما يجازى الله المؤمنين على استعمال الأدلة الموصلة إلى الإيمان، وهذا القدر هو الذى يقتضيه الظاهر.

وثالثها: أن معنى الآية: من يرد الله أن يهديه زيادة الهدى التى وعدها المؤمن يشرح صدره لتلك الزيادة، لأن من حقها أن تزيد المؤمن بصيرة ﴿**وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ**﴾ عن تلك الزيادة بمعنى يذهبه عنها من حيث أخرج هو نفسه من أن يصح عليه ﴿**يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ لمكان فقد تلك الزيادة؛ لأنها إذا اقتضت فى المؤمن ما قلناه أوجب فى الكافر ما يضاده، ويكون الفائدة فى ذلك الترغيب فى الإيمان والزجر عن الكفر... وهذا التأويل قريب مما تقدم، وقد روى عن ابن عباس أنه قال: إنما سمى الله قلب الكافر حرجًا، لأنه لا يصل الخير إلى قلبه، وفى رواية أخرى: لا تصل الحكمة إلى قلبه، ولا يجوز أن يكون المراد بالإضلال فى الآية الدعاء إلى الضلال، ولا الأمر به، ولا الإجبار عليه؛ لإجماع الأمة على أن الله تعالى لا يأمر بالضلال ولا يدعو إليه، فكيف يجبر عليه، والدعاء إليه أهون من الإجبار عليه، وقد ذم الله تعالى فرعون والسامرى على إضلالهما عن دين الهدى فى قوله: ﴿**وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى**﴾ (طه: ٧٩)، وقوله ﴿**وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ**﴾ (طه: ٨٥) ولا خلاف فى أن إضلالهما إضلال أمر وإجبار ودعاء، وقد ذمهما الله تعالى عليه مطلقًا، فكيف يتمدح بما ذم عليه غيره»[(١)].

رؤيـــــة الله:

كذلك يقول الطبرسى بما يقول به المعتزلة من عدم جواز رؤية الله ووقوعها فى الآخرة، ولهذا نراه يفسر قوله تعالى فى الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ بما يتفق ومذهبه فيقول: «﴿**إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ اختلف فيه على وجهين:

أحدهما: أن معناه نظرة العين.

والثانى: أنه الانتظار، واختلف من حمله على نظر العين على قولين:

أحدهما: أن المراد: إلى ثواب ربها ناظرة، أى هى ناظرة إلى نعيم الجنة حالاً بعد حال، فيزداد بذلك سرورها، وذكر الوجوه والمراد بها أصحاب الوجوه، روى ذلك عن جماعة من علماء المفسرين من الصحابة والتابعين وغيرهم... فحذف المضاف وأقيم

---

(١) (١/ ٤٠١).

المضاف إليه مقامه، كما فى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ (الفجر: ٢٢) أمر ربك، وقوله: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ (غافر: ٤٢) أى إلى إطاعة العزيز الغفار وتوحيده، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾ (الأحزاب: ٥٧) أى أولياء الله.

والآخر: أن النظر بمعنى الرؤية، والمعنى تنظر إلى الله معاينة، روى ذلك عن الكلبى ومقاتل وعطاء وغيرهم، وهذا لا يجوز، لأن كل منظور إليه بالعين مشار إليه بالحدقة واللحاظ، والله يتعالى عن أن يشار إليه بالعين، كما يجل سبحانه عن أن يشار إليه بالأصابع، وأيضًا فإن الرؤية بالحاسة لا تتم إلا بالمقابلة والتوجه، والله يتعالى عن ذلك بالاتفاق، وأيضًا فإن رؤية الحاسة لا تتم إلا باتصال الشعاع بالمرئى، والله منزه عن اتصال الشعاع به، على أن النظر لا يفيد الرؤية فى اللغة، فإنه إذا علق بالعين أفاد طلب الرؤية، كما أنه إذا علق بالقلب أفاد طلب المعرفة بدلالة قولهم: نظرت إلى الهلال فلم أره، فلو أفاد النظر الرؤية لكان هذا القول ساقطًا متناقضًا، وقولهم: ما زلت أنظر إليه حتى رأيته، والشىء لا يجعل غاية لنفسه، فلا يقال: ما زلت أراه حتى رأيته، ولأنَّا نعلم الناظر ناظرًا بالضرورة، ولا نعلمه رائيًا بالضرورة، بدلالة أنا نسأله هل رأيت أم لا؟.

وأما من حمل النظر فى الآية على الانتظار فإنهم اختلفوا فى معناه على أقوال:

أحدها: أن المعنى منتظرة لثواب ربها... روى ذلك عن مجاهد، والحسن وسعيد ابن جبير، والضحاك... وهو المروى عن على، ومن اعترض على هذا بأن قال: إن النظر بمعنى الانتظار لا يتعدى بإلى، فلا يقال: انتظرت إليه، وإنما يقال انتظرته، فالجواب عنه على وجوه:

منها: أنه قد جاء فى الشعر بمعنى الانتظار ومعدى بإلى، كما فى البيت الذى سبق ذكره:

... ناظرات إلى الرحمن[1]

---

(١) وذلك حيث، فسر النظر لغة فقال: «... والنظر تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئى طلبًا لرؤيته، ويكون النظر بمعنى الانتظار، كما قال عز شأنه: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ﴾ أى منتظرة، وقال الشاعر:

وجوه يوم بدر ناظرات إلى الرحمن تنظر الفلاحا =

وكقول جميل بن معمر:

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتنى نعما [(١)]

وقول الآخر:

إنى إليك لما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغنى الموسر

ونظائره كثيرة:

ومنها: أن تحمل (إلى) فى قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ على أنها اسم، فهو واحد الآلاء التى هى النعم، فإن فى واحدها أربع لغات: إلا وألا مثل معى وقفا، وألى وإلى مثل جدى وحسى، وسقط التنوين بالإضافة، وقال الأعشى:

أبيض لا يرهب الهزال ولا يقطع رحمًا ولا يخون إلى

وليس لأحد أن يقول: إن هذا من أقوال المتأخرين وقد سبقهم الإجماع، فإنا لا نسلم ذلك؛ لما ذكرناه من أن عليّا ومجاهدًا والحسن وغيرهم قالوا: المراد بذلك تنتظر الثواب.

ومنها: أن لفظ النظر يجوز أن يعدى بإلى فى الانتظار على المعنى، كما أن الرؤية عديت بإلى فى قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ **(الفرقان: ٤٥)** فأجرى الكلام على المعنى، ولا يقال: رأيت إلى فلان، ومن إجراء الكلام على المعنى قول الفرزدق:

ولقد عجبت إلى هوازن أن أصبحت منى تلوذ ببطن أم جرير

فعدى عجبت بإلى لأن المعنى نظرت.

وثانيها: أن معناه مؤملة لتجديد الكرامة، كما يقال: عينى ممدودة إلى الله تعالى وإلى فلان، وأنا شاخص الطرف إلى فلان... ولما كانت العيون بعض أجزاء الوجوه أضيف الفعل الذى يقع بالعين إليها... عن أبى مسلم.

وثالثها: أن المعنى أنهم قطعوا آمالهم وأطماعهم عن كل شىء سوى الله، ورجوه

= ثم يستعمل فى الفكر فيقال: نظرت فى هذه المسألة أى: تفكرت، ومنه المناظرة: وتكون بمعنى المقابلة، يقال: دور بنى فلان تتناظر أى تقابل» جـ٢ ص ٥٥٢.

(١) وفى رواية: جدتنى نعما، أى: جدت علىّ.

دون غيره، فكنى سبحانه عن الطمع بالنظر، ألا ترى أن الرغبة تتوقع نظر السلطان وتطمع فى أفضاله عليها وإسعافه فى حوائجها، فنظر الناس مختلف: فناظر إلى السلطان، وناظر إلى تجارة، وناظر إلى زراعة، وناظر إلى ربه يؤمله، وهذه الأقوال متقاربة فى المعنى، وعلى هذا فإن هذا الانتظار متى يكون؟ فقيل: إنه بعد الاستقرار فى الجنة، وقيل: إنه قبل استقرار الخلق فى الجنة والنار، فكل فريق ينتظر ما هو له أهل... وهذا اختيار القاضى عبد الجبار، وذكر جمهور أهل العدل أن النظر يجوز أن يحمل على المعنيين جميعًا، ولا مانع لنا من حمله على الوجهين، فكأنه سبحانه أراد أنهم ينظرون إلى الثواب المعد لهم فى الحال من أنواع النعيم، وينتظرون أمثالها حالاً بعد حال ليتم لهم ما يستحقون من الإجلال، ويسأل على هذا فيقال: إذا كان بمعنى النظر بالعين حقيقة وبمعنى الانتظار مجازًا فكيف يحمل عليهما؟ والجواب: أن عند أكثر المتكلمين فى أصول الفقه يجوز أن يرادا بلفظ واحد إذ لا تنافى بينهما... وهو اختيار المرتضى قدس الله روحه، ولم يجوز ذلك أبو هاشم إلا إذا تكلم به مرتين: مرة يريد النظر، ومرة يريد الانتظار، وأما قولهم: المنتظر لا يكون نعيمه خالصًا فكيف يوصف أهل الجنة بالانتظار؟ فالجواب عنه: أن من ينتظر شيئًا لا يحتاج إليه فى الحال وهو واثق بوصوله إليه عند حاجته فإنه لا يهتم بذلك ولا ينقص سروره به، بل ذلك زايد فى نعيمه، وإنما يلحق الهم المنتظر إذا كان يحتاج إلى ما ينتظره فى الحال ويلحقه بفوته مضرة وهو غير واثق بالوصول إليه، وقد قيل فى إضافة النظر إلى الوجود: إن الغم والسرور إنما يظهران فى الوجوه، فبين الله سبحانه أن المؤمن إذا ورد يوم القيامة تهلل وجهه، وأن الكافر يخاف مغبة أفعاله القبيحة فيكلح وجهه...»[(١)].

السحر:

والطبرسى ينكر حقيقة السحر ولا يقول به، ويخالف جمهور أهل السنة فى ذلك، ويرد أدلتهم، وينكر حديث البخارى فى سحر رسول الله ﷺ ولهذا نراه فى آخر تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠٢) من سورة البقرة ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ الآية، يقول ما نصه: «... واختلف فى ماهية السحر على أقوال:

---

(١) (٢/ ٥٥٢ - ٣٥٥).

فقيل: إنه ضرب من التخيل وصنعة لطيفة من الصنائع، وقد أمر الله تعالى بالتعوذ منه وجعل التحرز منه بكتابه وقاية منه، وأنزل فيه سورة الفلق، وهو قول الشيخ المفيد أبى عبد الله من أصحابنا.

وقيل: إنه خدع ومخاريق وتمويهات لا حقيقة لها، تخيل إلى المسحور لها حقيقة.

وقيل: إنه يمكن الساحر أن يقلب الإنسان حماراً ويقلبه من صورة إلى صورة، وينشئ الحيوان على وجه الاختراع، وهو لا يجوز، ومن صدق به فهو لا يعرف النبوة، ولا يأمن من أن تكون معجزات الأنبياء من هذا النوع، ولو أن الساحر والمعزم قدرا على نفع أو ضرر، وعلما الغيب لقدرا على إزالة الممالك واستخراج الكنوز من معادنها والغلبة على البلدان بقتل الملوك من غير أن ينالهم مكروه وضرر، فلما رأيناهم أسوأ الناس حالاً وأكثرهم مكيدة واحتيالاً، علمنا أنهم لا يقدرون على شىء من ذلك، فأما ما روى من الأخبار أن النبى ﷺ سُحر فكان يرى أنه فعل ما لم يفعله أو أنه لم يفعل ما فعله فأخبار مفتعلة لا يلتفت إليها، وقد قال الله حكاية عن الكفار: ﴿**إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً**﴾ (الفرقان: ٨) فلو كان السحر عمل فيه لكان الكفار صادقين فى مقالهم، حاشا النبى من كل صفة نقص تنفر عن قبول قوله؛ فإنه حجة الله على خلقه وصفوته على بريته...»[(١)].

الشفاعة:

هذا ولا يلتزم الطبرسى القول بكل معتقدات المعتزلة، بل تراه يخالفهم فى كثير من الأحيان، ويرد عليهم معتقداتهم، ويجادلهم فيها جدالاً عنيفًا قويّا.

فمذهب الطبرسى فى الشفاعة - مثلاً - يخالف مذهب المعتزلة، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٨) من سورة البقرة: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾ يقول ما نصه: ﴿**... وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾ قال المفسرون: حكم هذه الآية مختص باليهود، لأنهم قالوا: نحن أولاد الأنبياء وآباؤنا يشفعون لنا، فأيأسهم الله عن ذلك فخرج الكلام مخرج العموم

---

(١) (١/ ٧٥).

والمراد به الخصوص، ويدل على ذلك أن الأمة اجتمعت على أن للنبى شفاعة مقبولة وإن اختلفوا فى كيفيتها فعندنا هى مختصة بدفع المضار وإسقاط العقاب عن مستحقيه من مذنبى المؤمنين.

وقالت المعتزلة: هى فى زيادة المنافع للمطيعين والتائبين دون العاصين، وهى ثابتة عندنا للنبى، ولأصحابه المنتخبين، وللأئمة من أهل بيته الطاهرين، ولصالحى المؤمنين، وينجى بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين، ويؤيده الخبر الذى تلقته الأمة بالقبول وهو قوله: (ادخرت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى) وما جاء فى روايات أصحابنا ﷺ مرفوعًا إلى النبى أنه قال: «إنى أشفع يوم القيامة فأشفع، ويشفع على فيشفع، ويشفع أهل بيتى فيشفعون، وإن أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع فى أربعين من إخوانه كل قد استوجب النار) وقوله مخبراً عن الكفار عند حسراتهم على الفائت لهم مما حصل لأهل الإيمان من الشفاعة ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ (الشعراء: ١٠٠، ١٠١) »[(١)].

حقيقة الإيمان:

وهو أيضًا يخالف المعتزلة فى حقيقة الإيمان، فلذلك لما عرض لتفسير قوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة: ﴿... الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال ما نصه: «... وقالت المعتزلة بأجمعها: الإيمان هو فعل الطاعة، ثم اختلفوا فمنهم من اعتبر الفرائض والنوافل، ومنهم من اعتبر الفرائض فحسب، واعتبروا الاجتناب من الكبائر كلها، وقد روى العام والخاص عن على بن موسى الرضى: أن الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان، وقد روى ذلك على لفظ آخر منه أيضًا: الإيمان قول مقول، وعمل معمول، وعرفان بالعقول، واتباع الرسول.

وأقول أنا: أصل الإيمان هو المعرفة بالله وبرسله وبجميع ما جاءت به رسله، وكل عارف بشىء فهو مصدق به، يدل عليه هذه الآية، فإنه تعالى لما ذكر الإيمان علقه بالغيب، ليعلم أنه تصديق للمخبر فيما أخبر به من الغيب على معرفة وثقة، ثم أفرده

(١) (١/ ٤٥).

بالذكر عن سائر الطاعات البدنية والمالية وعطفها عليه فقال: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ والشىء لا يعطف على نفسه وإنما يعطف على غيره، ويدل عليه أيضًا أنه تعالى حيث ذكر الإيمان أضافه إلى القلب فقال: ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ (النحل: ١٠٦)، وقال: ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ (المجادلة: ٢٢) وقال النبى ﷺ: «الإيمان سر - وأشار إلى صدره - والإسلام علانية» وقد يسمى الإقرار إيمانًا كما يسمى تصديقًا إلا أنه متى صدر عن شك أو جهل كان إيمانًا لفظيًا لا حقيقيًا، وقد تسمى أعمال الجوارح أيضًا إيمانًا استعارة وتلويحًا كما يسمى تصديقًا كذلك، فيقال: فلان تصدق أفعاله مقاله، ولا خير فى قول لا يصدقه الفعل، والفعل ليس بتصديق حقيقى باتفاق أهل اللغة، وإنما استعير هذا الاسم على الوجه الذى ذكرناه، فقد آل الأمر مع تسليم صحة الخبر وقبوله إلى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب والتصديق به على نحو ما تقتضيه اللغة، ولا يطلق لفظه إلا على ذلك، إلا أنه يستعمل فى الإقرار باللسان والعمل بالأركان مجازًا واتساعًا، وبالله التوفيق...»[(١)].

روايته للأحاديث الموضوعة:

هذا، ولا يفوتنا أن نقول: إن الطبرسى رحمه الله لم يكن صادقًا فى وصفه لكتابه هذا بأنه محجة للمحدث، ذلك لأنا تتبعناه فوجدناه غير موفق فيما يروى من الأحاديث فى تفسيره، فقد أكثر من ذكر الموضوعات، خصوصًا ما وضعه الشيعة ونسبوه إلى النبى ﷺ أو إلى أهل البيت مما يشهد لمعتقداتهم ويدل على تشيعهم، وإذا نحن تتبعنا ما يرويه من الأحاديث فى فضائل السور لوجدناه قد وقع فيما وقع فيه كثير من المفسرين من الاغترار بما جاء من الأحاديث فى فضائل السور مسندًا إلى أبى وغيره، ومرفوعًا إلى رسول الله ﷺ، وهى أحاديث موضوعة باتفاق أهل العلم.

كذلك لو تتبعنا هذا التفسير لوجدنا صاحبه يروى فى تفسيره من الأحاديث ما يشهد لمذهبه أو يتصل به، وهى أخبار نقرؤها ولا نكاد نرى عليها صبغة الصدق ورواء الحق.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الرعد: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ

(١) (١/ ١٧).

وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ نجد أنه يذكر من الروايات ما هو موضوع على ألسنة الشيعة، ثم يمر عليها بدون تعقيب منها، مما يدل على أنه يصدقها ويقول بها، فهو بعد أن ذكر أقوالاً أربعة فى معنى هذه الآية نقل عن ابن عباس أنه قال: «لما نزلت الآية قال رسول الله ﷺ: أنا المنذر وعلى الهادى من بعدى، يا على بك يهتدى المهتدون» ونقل بسنده إلى أبى بردة الأسلمى أنه قال: «دعا رسول الله ﷺ بالطهور وعنده على بن أبى طالب، فأخذ رسول الله بيد على بعد ما تطهر فألزمها بصدره ثم قال: إنما أنت منذر، ثم ردها إلى صدره، ثم قال: ولكل قوم هاد، ثم قال: إنك منارة الأنام، وغاية الهدى، وأمير القرى وأشهد على ذلك أنك كذلك»(١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الشورى ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ نجده يذكر أقوالاً ثلاثة فى معنى هذه الآية:

أحدها: لا أسألكم على تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة أجرًا إلا التوادد والتحاب فيما يقرب إلى الله تعالى من العمل الصالح.

وثانيها: أن معناه: إلا أن توذونى فى قرابتى منكم وتحفظونى لها.

وثالثها: إلا أن تودوا قرابتى وتحفظونى فيهم.... وهنا يسوق من الروايات عن أهل البيت وغيرهم ما يصرح بأن الذين أمر الله بمودتهم: على وفاطمة وولدهما، ويروى فيما يروى هذا الحديث الغريب الذى نقله من كتاب (شواهد التنزيل لقواعد التفضيل) مرفوعًا إلى أبى أمامة الباهلى... قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الأنبياء من أشجار شتى، وخلقت أنا وعلى من شجرة واحدة، فأنا أصلها، وعلى فرعها، وفاطمة لقاحها، والحسن والحسين ثمارها، وأشياعنا أوراقها، فمن تعلق بغصن من أغصانها نجا، ومن زاغ عنها هوى، ولو أن عبدًا عبد الله بين الصفا والمروة ألف عام ثم ألف عام ثم ألف عام حتى يصير كالشن البالى، ثم لم يدرك محبتنا كبه الله على منخريه فى النار، ثم تلا ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾»(٢).

(١) (٢/ ٥).

(٢) (٢/ ٣٨٧ - ٣٨٩).

موقفه من الإسرائيليات:

وكثيرًا ما يروى الطبرسى فى تفسيره الروايات الإسرائيلية معزوة إلى قائليها ونلاحظ عليه أنه يذكرها بدون أن يعقب عليها. . . اللهم إلا إذا كانت مما يتنافى مع العقيدة، فإنه ينبه على كذب الرواية، ويبين ما فيها من مجافاتها للحق وبعدها عن الصواب، فمثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٢١) وما بعدها من سورة (ص): ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ** . . .﴾ الآيات، نجده يقول: «واختلف فى استغفار داود من أى شىء كان، فقيل: إنه حصل منه على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى والخضوع والتذلل بالعبادة والسجود، كما أخبر سبحانه عن إبراهيم بقوله ﴿ **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** ﴾ (الشعراء: ٨٢)، وأما قوله: ﴿ **فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ** ﴾ (ص: ٢٥) فالمعنى أنا قبلناه منه وأثبتناه، فأخرجه على لفظ الجزاء مثل قوله: ﴿ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ** ﴾ (النساء: ١٤٢) وقوله: ﴿ **اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ** ﴾ (البقرة: ١٥)، فلما كان المقصود من الاستغفار والتوبة القبول قيل فى جوابه: غفرنا، وهذا قول من ينزه الأنبياء عن جميع الذنوب من الإمامية وغيرهم، ومن جوز على الأنبياء الصغائر قال: إن استغفاره كان لذنب صغير وقع منه، ثم إنهم اختلفوا فى ذلك على وجوه:

أحدها: أن أوريا بن حيان خطب امرأة وكان أهلها أرادوا أن يزوجوها منه، فبلغ داود جمالها فخطبها أيضًا فزوجوها منه، فقدموه على أوريا، فعوتب داود على الدنيا. . . عن الجبائى.

وثانيها: أنه أخرج أوريا إلى بعض ثغوره فقتل فلم يجزع عليه جزعه على أمثاله من جنده إذ مالت نفسه إلى نكاح امرأته، فعوتب على ذلك بنزول الملكين.

وثالثها: أنه كان فى شريعته أن الرجل إذا مات وخلف امرأته فأولياؤه أحق بها إلا أن يرغبوا عن التزوج بها، فحينئذ يجوز لغيرهم أن يتزوج، فلما قتل أوريا خطب داود امرأته ومنعت هيبة داود وجلالته أولياءه أن يخطبوها، فعوتب على ذلك.

ورابعها: أن داود كان متشاغلاً بالعبادة فأتاه رجل وامرأة متحاكمين فنظر إلى المرأة ليعرفها بعينها وذلك مباح، فمالت نفسه إليها ميل الطباع ففصل بينهما وعاد إلى عبادة ربه، فشغله الفكر فى أمرها عن بعض نوافله فعوتب.

وخامسها: أنه عوتب على عجلته فى الحكم قبل التثبت، وكان يجب عليه حين سمع الدعوى من أحد الخصمين أن يسأل الآخر عما عنده فيها ويحكم عليه قبل ذلك، وإنما أنساه التثبت فى الحكم فزعه من دخولهما عليه فى غير وقت العادة.

وأما ما ذكر فى القصة أن داود كان كثير الصلاة فقال: يا رب فضلت علىَّ إبراهيم فاتخذته خليلاً، وفضلت علىَّ موسى فكلمته تكليمًا، فقال: يا داود إنا ابتليناهم بما لم نبتلك بمثله فإن شئت ابتليت، فقال: نعم يا رب فابتلنى، فبينا هو فى محرابه ذات يوم وقعت حمامة، فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوة المحراب، فذهب ليأخذها فاطلع من الكوة فإذا امرأة أوريا بن حيان تغتسل فهواها وهمَّ بتزوجها، فبعث بأوريا إلى بعض سراياه وأمر بتقديمه أمام التابوت الذى فيه السكينة ففعل ذلك وقتل، فلما انقضت عدتها تزوجها وبنى بها فولد له منها سليمان، فبينا هو ذات يوم فى محرابه يقرأ إذ دخل عليه رجلان ففزع منهما، فقالا: لا تخف ﴿**خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ**﴾ (ص: ٢٢) فنظر أحد الرجلين إلى صاحبه ثم ضحك، فتنبه داود على أنهما ملكان بعثهما الله إليه فى صورة خصمين ليبكتاه على خطيئته فتاب وبكى حتى نبت الزرع من كثرة دموعه، فمما لا شبهة فى فساده؛ فإن ذلك مما يقدح فى العدالة فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله تعالى الذين هم أمناؤه على وحيه وسفراؤه بينه وبين خلقه بصفة من لا تقبل شهادته وعلى حالة تنفر عن الاستماع إليه والقبول منه؟ جل أنبياء الله عن ذلك، وقد روى عن أمير المؤمنين أنه قال: لا أوتى برجل يزعم أن داود تزوج امرأة أوريا إلا جلدته حدين، حدًا للنبوة وحدًا للإسلام...»(١).

التفسير الرمزى:

والطبرسى مع أنه فى كتابه هذا يفسر القرآن تفسيرًا يتمشى مع الظاهر المتبادر الى الذهن إلا أنا نلاحظ عليه احيانًا انه يذكر المعانى الباطنية، أو بعبارة أخرى يذكر التفسير الرمزى الذى يقول به الشيعة، وهو وإن كان ناقلاً لهذه الاقوال إلا أنه يرتضيها ولا يرد عليها، كثيرًا ما يؤيدها بأدلة من عنده.

مثال ذلك أنه عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النور: ﴿**اللَّهُ نُورُ**

(١) (٢/ ٣٤٩).

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...﴾ الآية، نجده يقول بعد كلام طويل: «واختلف فى هذا المشبه والمشبه به على أقوال... ثم ذكر هذه الأقول، فكان من جملة ما ذكره هذه الروايات التى لا تعدو أن تكون من وضع الشيعة، وهى ما روى عن الرضا أنه قال: «نحن المشكاة فيها المصباح محمد ﷺ يهدى الله لولايتنا من أحب» وما نقله من كتاب التوحيد لأبى جعفر بن بابويه رحمه الله بالإسناد عن عيسى ابن راشد عن أبى جعفر الباقر فى قوله: ﴿**كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ**﴾ قال: نور العلم فى صدر النبى ﴿**الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ**﴾ الزجاجة صدر على، صار علم النبى إلى صدر على، علم النبى عليًا ﴿**يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ**﴾ نور العلم ﴿**لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ**﴾ لا يهودية ولا نصرانية ﴿**يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ**﴾ قال: يكاد العالم من آل محمد يتكلم بالعلم قبل أن يسأل ﴿**نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ**﴾ أى إمام مؤيد بنور العلم والحكمة فى إثر إمام من آل محمد ﷺ، ذلك من النبى آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة، فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم الله خلفاء فى أرضه، وحججه على خلقه، لا تخلو الأرض فى كل عصر من واحد منهم، ويدل عليه قول أبى طالب:

أنت الأمير محمد ... قرم أغر مسود
لمسودين أطاهر ... كرموا وطاب المولد
أنت السعيد من السعو ... د تكنفتك الأسعد
من لدن آدم لم يزل ... فينا وصى مرشد
ولقد عرفتك صادقا ... والقول لا يتفند
ما زلت تنطق بالصوا ... ب وأنت طفل أمرد

تحقيق هذه الجملة يقتضى أن الشجرة المباركة المذكورة فى الآية هى دوحة التقى والرضوان وعترة الهدى والإيمان، شجرة أصلها النبوة، وفرعها الإمامة، وأغصانها التنزيل، وأوراقها التأويل، وخدمها جبريل وميكائيل...»(١).

---

(١) (٢/ ١٨٩).

اعتداله فى تشيعه:

والطبرسى معتدل فى تشيعه غير مغال فيه كغيره من متطرفى الإمامية الاثنى عشرية، ولقد قرأنا فى تفسيره فلم نلمس عليه تعصبًا كبيرًا، ولم نأخذ عليه أنه كفَّر أحدًا من الصحابة أو طعن فيهم بما يذهب بعدالتهم ودينهم.

كما أنه لم يغال فى شأن على بما يجعله فى مرتبة الإله أو مصاف الأنبياء وإن كان يقول بالعصمة، ولقد وجدناه يروى عن رسول الله ﷺ حديثًا فى شأن من والى عليًا ومن عاداه، وهو بصرف النظر عن درجته من الصحة يدل على أن الرجل وقف موقفًا وسطًا أو فوق الوسط إلى حد ما من حبه لعلى ﷺ، هذا الحديث هو ما رواه فى الوجه الرابع من الوجوه التى قيلت فى سبب نزول قوله تعالى فى الآية (٥٧) من سورة الزخرف ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ حيث قال: «... ورابعها: ما رواه سادة أهل البيت عن على عليهم أفضل الصلوات أنه قال: جئت إلى رسول الله يومًا فوجدته فى ملأ من قريش فنظر إلى ثم قال: يا على إنما مثلك فى هذه الأمة كمثل عيسى ابن مريم أحبه قوم فأفرطوا فى حبه فهلكوا، وأبغضه قوم وأفرطوا فى بغضه فهلكوا، واقتصد فيه قوم فنجوا، فعظم ذلك عليهم فضحكوا وقالوا: يشبهه بالأنبياء والرسل، فنزلت الآية...»(١).

وكل ما لاحظناه عليه من تعصبه أنه يدافع بكل قوة عن أصول مذهبه وعقائد أصحابه، كما أنه إذا روى أقوال المفسرين فى آية من الآيات ونقل أقوال المفسرين من أهل مذهبه فيها نجده يرتضى قول علماء مذهبه ويؤيده بما يظهر له من الدليل.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٨) من سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الآية، يقول: «قيل فى المعنى بهذه الآية أقوال... ثم يذكر الأقول، ويذكر ما رواه أصحابه عن أبى جعفر الباقر وأبى عبد الله الصادق من أنهما قالا: «أمر الله كل واحد من الأئمة أن يسلم الأمر إلى من بعده» ثم قال مؤيدًا لهذا القول: «ويعضده أنه أمر الرعية بعد هذا بطاعة ولاة الأمر، وروى عنهم أنهم قالوا: آيتان إحداهما لنا والأخرى لكم قال الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾

---

(١) (٢/ ٣٩٩).

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ...﴾ (النساء: ٥٩) الآية»[١].

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ...﴾ الآية، نجده بعد أن يذكر ما جاء عن بعض السلف من أن المراد بأولى الأمر الأمراء، وما جاء عن بعضهم من أن المراد بهم العلماء يقول: «وأما أصحابنا فإنهم رووا عن الباقر والصادق أن أولى الأمر هم الأئمة من آل محمد، أوجب الله طاعتهم بالإطلاق كما أوجب طاعته وطاعة رسوله، ولا يجوز أن يوجب الله طاعة أحد على الإطلاق إلا من ثبت عصمته، وعلم أن باطنه كظاهره، وأمن منه الغلط والأمر بالقبيح، وليس ذلك بحاصل فى الأمراء ولا العلماء سواهم، جل الله أن يطاعة من يعصيه، أو بالانقياد للمختلفين فى القول والفعل؛ لأنه محال أن يطاع المختلفون، كما أنه محال أن يجتمع ما اختلفوا فيه، ومما يدل على ذلك أيضًا أن الله لم يقرن طاعة أولى الأمر بطاعة رسوله كما قرن طاعة رسوله بطاعته، إلا وأن أولى الأمر فوق الخلق جميعًا، كما أن الرسل فوق أولى الأمر وفوق سائر الخلق، وهذه صفة أئمة الهدى من آل محمد الذين ثبتت إمامتهم وعصمتهم، واتفقت الأمة على علو رتبتهم وعدالتهم...»[٢].

وبعد... أفلا ترى معى أن هذا التفسير يجمع بين حسن الترتيب، وجمال التهذيب، ودقة التعليل، وقوة الحجة؟ أظن أنك معى فى هذا، وأظن أنك معى أيضًا فى أن الطبرسى وإن دافع عن عقيدته ونافح عنها لم يغل غلو غيره ولم يبلغ به الأمر إلى الدرجة التى كان عليها صاحب مرآة الأنوار[٣] وأمثاله من غلاة الإمامية الاثنى عشرية.

---

(١) (١/ ٢٦٩). (٢) (١/ ٢٦٩).

(٣) فى الأصل: (المولى الكازرانى) وما أثبتناه الصواب. (د. مصطفى الذهبى.

(٤) الصافى فى تفسير القرآن الكريم
لملا محسن الكاشى (١)

التعريف بصاحب هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو محمد بن الشاه مرتضى بن الشاه محمود، المعروف بملا حسن وبالفيض الكاشانى، وأحد غلاة الإمامية الاثنى عشرية، قال صاحب روضات الجنات فى ترجمته ما ملخصه: «وأمره فى الفضل والفهم والنبالة فى الفروع والأصول، والإحاطة بمراتب المعقول والمنقول، وكثرة التأليف والتصنيف، مع جودة التعبير والترصيف، أشهر من أن يخفى فى هذه الطائفة على أحد إلى منتهى الأبد، وعمره كما استفيد لنا من تتبع تصانيفه الوافرة تجاوز حدود الثمانين، ووفاته بعد الألف من الهجرة الطاهرة بنيف يلحق تمام التسعين، وأبوه مرتضى المذكور أيضًا كان من العلماء، وكذا أخوه محمد المعروف بنور الدين، وكذا أخوه الآخر المشهور بالمولى عبد الغفور، وبالجملة، فقد كان بيته الجليل المرتفع قدره إلى ذروة الأفلاك، من كبار بيوتات العلم والعمل والفضل والإدراك، وأما نفس الرجل فقد بلغ فضله إلى حيث لم يعرف بين هذه الطائفة مثله، وخصوصًا فى مراتب المعرفة والأخلاق، وتطبيق الظواهر بالبواطن بحسن المذاق، وجودة الإشراق، وكان يشبه مشربه مشرب أبى حامد الغزالى، وقد نسب إليه الشيخ على المشهدى العاملى فى ذيل رسالته فى تحريم الغناء وغيرها، كثيرًا من الأقاويل الفاسدة، والآراء الباطلة العاطلة، التى تفوح منها رائحة الكفر والمضارة بضروريات هذا الدين المتين، والمضادة لما هو من قطعيات علم هذا الشرع المتين، ولو أردنا تأويل جملة منها بمحامل وجيهة صحيحة لما أمكننا ذلك بالنسبة إلى ما تدل عليه ألفاظه الظاهرة بل الصريحة... من منافيات أصول هذه الشريعة وفروع مذهب الشيعة، مثل قوله بوحدة الوجود، وبعدم خلود الكفار فى عذاب النار، وعدم نجاة أهل الاجتهاد وإن كانوا من جملة أجلائنا الكبار، وفى قوله بعدم منجسية المتنجس لغيره مثل النجس... وبالجملة فقد كان رحمه الله دائمًا فى طرف

---

(١) هكذا فى الأصل، وضُبِط أيضًا: «الكاشانى» (د/ مصطفى الذهبى).

النقيض من الشيخ على المذكور. . . ومن جملة من كان ينكر عليه أيضًا كثيرًا من علماء زمانه الفاضل المحدث المولى محمد طاهر القمى صاحب كتاب حجة الإسلام وغيره، وإن قيل إنه رجع فى أواخر عمره عن اعتقاده السوء فى حقه، فخرج من «قم» المباركة إلى بلدة كاشان للاعتراف عنده بالخلاف، والاعتذار لديه بحسن الإنصاف، ماشيًا على قدميه إلى أن وصل إلى باب داره، فنادى: يا محسن قد أتاك المسىء، فخرج إليه مولانا المحسن وجعلا يتصافحان ويتعانقان ويستحل كل منهما من صاحبه، ثم رحل من فوره إلى بلده وقال: لم أرد من هذه الحركة إلا هضم النفس وتدارك الذنب وطلب رضوان الله العزيز الوهاب، ويقال أيضًا: إن بعض من اعتقد فى حقه الباطل رجع عنه بعد وفاته لما رآه فى المنام على هيئة حسنة يأمره بالرجوع إلى بعض ما كتبه فى أواخر عمره وهو فى مكان كذا وكذا، فلما استيقظ وطلبه وجده كما نسبه، وكان فيه تبرئة نفسه من جميع ما ينسب إليه من أقوال الضلال. . . وقد ذكره صاحب أمل الآمل فقال: المولى الجليل، محمد بن مرتضى، المدعى بمحسن الكاشانى، كان فاضلا عالمًا، حكيمًا متكلمًا، محدثًا فقيهًا، شاعرًا أديبًا، أحسن التصنيف، من المعاصرين، وله كتب: منها كتاب الوافى فى جمع الكتب الأربعة مع شرح أحاديثها المشكلة، وهو حسن إلا أن فيه ميلاً إلى بعض طريقة الصوفية، وكذا جملة من كتبه، وكتاب سفينة النجاة فى طريقة العمل، وتفاسير ثلاثة كبير وصغير ومتوسط، وكتاب عين اليقين، وكتاب علم اليقين، وكتاب حق اليقين. . . وقال صاحب لؤلؤة البحرين «وهذا الشيخ كان فاضلاً، محدثًا، إخباريًا، صلبًا، كثير الطعن على المجتهدين، ولا سيما فى رسالة سفينة النجاة، حتى إنه يفهم منها نسبة جملة من العلماء إلى الكفر فضلاً عن الفسق، مثل إيراده لآية ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ (هود: ٤٢) وهو تفريط وغلو بحت، مع أن له أدلة من المقالات التى جرى فيها على مذهب الصوفية والفلاسفة مما يكاد يوجب الكفر والعياذ بالله، مثل ما يدل فى كلامه على القول بوحدة الوجود، وقد وقفت له على رسالة قبيحة صريحة فى القول بذلك، قد جرى فيها على عقائد ابن عربى الزنديق، وأكثر فيها من النقل عنه وإن عبر عنه ببعض العارفين، ثم قال: وقد تتلمذ فى الحديث على السيد ماجد البحرانى، وفى الحكمة

والأصول على صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازى، كان صهره على ابنته؛ ولذا ترى أن كتبه فى الأصول كلها على قواعد الصوفية والفلاسفة، ولاشتهار مذهب التصوف فى بلاد العجم وميلهم إليه، بل وغلوهم فيه صارت إليه المرتبة العليا فى زمانه، والغاية القصوى فى أوانه، وفاق عند الناس جملة أقرانه، حتى جاء شيخنا المجلسى فسعى غاية السعى فى سد تلك الشقاشق الفاغرة، وإطفاء ثائرة تلك البدع البائرة، وله تصانيف كثيرة أفرد لها فهرسًا على حدة ونحن ننقل عنه ملخصًا: كتاب الصافى فى تفسير القرآن يقرب من سبعين ألف بيت فرغ من تأليفه فى سنة ١٠٧٥هـ خمس وسبعين بعد الألف من الهجرة، وكتاب الأصفى، منتخب منه... أحد وعشرين ألف بيت تقريبًا، ثم عدد كتبه التى ألفها وهى كثيرة، وحكى السيد السعيد السيد نعمة الله الجزائرى التسترى قال: كان أستاذنا المحقق المولى محمد حسن الكاشانى صاحب مؤلفات وفيرة مما يقرب من مائتى كتاب ورسالة، وكان نشؤه فى بلدة قم، فسمع بقدوم السيد الأجل المحقق الإمام الهمام السيد ماجد البحرانى الصادقى إلى شيراز، فأراد الارتحال إليه لأخذ العلوم منه، فتردد والده فى الرخصة إليه، ثم بنوا الرخصة وعدمها على الاستخارة، فلما فتح القرآن جاءت الآية ﴿**فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ...**﴾ (التوبة: ١٢٢) الآية، ثم بعده تفاءل بالديوان المنسوب إلى مولانا أمير المؤمنين فجاءت الأبيات هكذا:

تغرب عن الأوطان فى طلب العلا — وسافر ففى الأسفار خمس فوائد

تفرج هم، واكتساب معيشة — وعلم، وآداب، وصحبة ماجد

هذه ترجمة المؤلف، وفيها ما يشهد للرجل بعلو كعبه بين أصحابه فى العلم، كما أن الأقوال التى قيلت من عقيدته تكاد تكون مجمعة على أنها عقيدة زائفة فاسدة، وإن كان صاحب روضات الجنات يحاول تبرئته من هذه التهمة ويقول: إنها فرية بلا مرية... أما أنا فلم ألاحظ عليه فى تفسيره أثرًا للقول بوحدة الوجود، ولا ما يشهد بأنه يرى عدم خلود الكفار فى عذاب النار، ولم أر على تفسيره ذلك اللون الصوفى الفلسفى، ولعل الكتاب من أواخر مؤلفاته وبعد رجوعه عما نسب إليه واتهم به»[(١)].

(١) انظر ترجمته فى روضات الجنات ص ٥٤٢ - ٥٤٩.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

الصافى فى تفسير القرآن الكريم، كتاب فسر فيه صاحبه القرآن الكريم على وفق مبادئ الإمامية الاثنى عشرية، وهو تفسير وسط يقع فى جزأين كبيرين ومتناول لشرح الآيات القرآنية شرحًا مختصرًا جدًا ولا يطيل إلا إذا وجد فى الآية ما يمكن أن يأخذ منه شاهدًا على مبدأ من مبادئه، أو دليلاً على عقيدة من عقائده، أو دفعًا يدفع به رأيًا من آراء مخالفيه، كذلك يطيل عندما يعرض لشرح قصة من قصص القرآن، أو غزوة من غزوات الرسول ﷺ، والكتاب يعتمد أولاً وقبل كل شىء على ما ورد من التفسير عن الأئمة وعلماء أهل البيت، شأنه فى هذا شأن كل كتب التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية، الذين يعتقدون أن أهل البيت هم أدرى الناس بأسرار القرآن وأعلمهم بمعانيه، والكتاب فى جملته يدل على مقدار تعصب صاحبه لمذهبه وغلوه فى تشيعه، فهو يجادل ويدافع عن مبادئ حزبه، ويطعن فى صحابة رسول الله ﷺ، ويرميهم بالنفاق والكفر . . . إلى غير ذلك مما ستقف عليه فيما بعد إن شاء الله تعالى، هذا وقد قدم ملا محسن الكاشانى لتفسيره باثنتى عشرة مقدمة، أرى أنه لا داعى لذكرها جميعًا، ولكن حسبى وحسب القارئ أن أذكر أهم الآراء التى يقول بها المؤلف ويشرحها لنا فى هذه المقدمات، ثم أذكر طريقته التى سار عليها فى تفسيره كما أوضحها هو، ثم أعرض على القارئ بعد ذلك بعض مواقف المؤلف فى تفسيره؛ ومنها يتبين جليًا قيمة هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه، ومسلكه الذى سلكه فى شرحه لكتاب الله تعالى بما يتفق مع مذهبه ويتمشى مع عقيدته، وإليك أهم هذه الآراء التى قالها المؤلف.

آل البيت هم تراجمة القرآن؛ لأنهم جمعوا علمه كله دون من عداهم:

يرى المؤلف أن آل البيت هم تراجمة القرآن دون من عداهم، فهم الذين جمعوا علم القرآن كله وأحاطوا بمعانيه وأسراره، ووقفوا على رموزه وإشاراته؛ ذلك لأن القرآن نزل فى بيتهم ـ بيت النبوة ـ ورب البيت أدرى بما فيه، وهو فى هذه العقيدة لا يشذ وحده بل ذلك هو رأى هذه الطائفة كلها لا فرق بين معتدل ومتطرف.

يرى المؤلف هذا الرأى ويصرح به فى مقدمة تفسيره فيقول: « . . . وإن العترة تراجمة القرآن فمن الكاشف عن وجوه عرايس أسراره ودنائقه وهم خوطبوا به؟ ومن

لتبيان مشكلاته ولديه مجمع بيان معضلاته ومنبع بحر حقائقه وهم أبو حسنه؟ ومن يشرح آيات الله وييسر تفسيرها بالرموز والصراح إلا من شرح الله صدره بنوره ومثله بالمشكاة والمصباح؟ ومن عسى يبلغ علمهم بمعالم التنزيل والتأويل، وفى بيوتهم كان ينزل جبريل؟ . . . وهى البيوت التى أذن الله أن ترفع، فعنهم يؤخذ ومنهم يسمع، إذًا أهل البيت بما فى البيت أدرى، والمخاطبون بما خوطبوا به أوعى، فأين نذهب عن بابهم وإلى من نصير؟ . . . »[(١)].

ثم يمضى صاحبنا بعد ذلك فيؤيد قوله هذا بأحاديث يرويها عن أهل البيت كلها ـ فيما نعتقد وكما يظهر من أسلوبها ـ من وضع الشيعة وأخلاقهم، فمن ذلك ما نقله عن الكافى بإسناده عن سليم بن قيس الهلالى قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول. . . وساق الحديث إلى أن قال: ما نزلت آية على رسول الله ﷺ إلا أقرأنيها وأملاها علىَّ فأكتبها بخطى، وعلمنى تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، ودعا الله أن يعلمنى فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله، ولا علمًا أملاه علىَّ فكتبته منذ دعا لى بما دعا، وما ترك شيئًا علمه الله من حلال وحرام، ولا أمر ولا نهى كان أو يكون من طاعة أو معصية إلا علمنيه وحفظته فلم أنس منه حرفًا واحدًا، ثم وضع يده على صدرى ودعا الله أن يملأ قلبى علمًا وفهمًا وحكمة ونورًا، فقلت: يا رسول الله. . . بأبى أنت وأمى دعوت الله لى بما دعوت لم أنس شيئًا ولم يفتنى شىء لم أكتبه. . . أوتتخوف على النسيان فيما بعد؟ فقال: لست أتخوف عليك نسيانًا ولا جهلاً. قال: ورواه العياشى فى تفسيره والصدوق فى إكمال الدين، بتفاوت يسير فى ألفاظه، وزيد فى آخره «وقد أخبرنى ربى أنه قد استجاب لى فيك وفى شركائك الذين يكونون من بعدك، فقلت: يا رسول الله. . . ومن شركائى من بعدى؟ قال: الذين قرنهم الله بنفسه وبى، فقال: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ (النساء: ٥٩) فقلت: ومن هم؟ قال الأوصياء منى إلى أن يردوا علىَّ الحوض كلهم هادين مهتدين **لا** يضرهم من خذلهم، وهم مع القرآن والقرآن معهم، لا يفارقهم ولا يفارقونه، بهم تنصر أمتى وبهم تمطر، وبهم يدفع عنهم البلاء، وبهم

---

(١) (١/ ٢).

يستجاب دعاؤهم، فقلت: يا رسول الله... سمهم لى... فقال: ابنى هذا... ووضع يده على رأس الحسن، ثم ابنى هذا... ووضع يده على رأس الحسين، ثم ابن له يقال له: على، وسيولد فى حياتك فأقرئه منى السلام، ثم تكملة اثنى عشر من ولد محمد، فقلت له: بأبى وأمى أنت فسمهم لى، فسماهم رجلاً رجلاً، فقال: منهم والله يا أخا بنى هلال مهدى أمة محمد، الذى يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجورًا، والله إنى لأعرف من يبايعه بين الركن والمقام وأعرف أسماء آبائهم وقبائلهم»[(١)].

ومنها ما نقله عن الكافى بإسناده إلى زيد الشحام... قال: «دخل قتادة بن دعامة على أبى جعفر عليه السلام فقال: يا قتادة أنت فقيه أهل البصرة؟ فقال: هكذا يزعمون، فقال أبو جعفر عليه السلام: بعلم تفسيره أم بجهل؟ قالا: لا... بل بعلم، فقال له أبو جعفر عليه السلام: فإن كنت تفسره بعلم فأنت أنت وأنا أسألك، قال قتادة: سل، قال: أخبرنى عن قول الله تعالى فى سبأ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (سبأ: ١٨) فقال قتادة: من خرج من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يريد هذا البيت كان آمنًا حتى يرجع إلى أهله، فقال أبو جعفر عليه السلام: نشدتك بالله يا قتادة هل تعلم أنه قد يخرج الرجل من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يريد هذا البيت فيقطع عليه الطريق فتذهب نفقته ويضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه؟ قال قتادة: اللهم نعم، فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة... إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت، وإن كنت أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلكت، ويحك يا قتادة... ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يؤم هذا البيت عارفًا بحقنا، يهوانا قلبه، كما قال الله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (إبراهيم: ٣٧) ولم يعين البيت، فقيل إليه: نحن والله دعوة إبراهيم عليه السلام التى من هوانا قلبه قبلت حجته وإلا فلا، يا قتادة فإذا كان كذلك كان آمنًا من عذاب جهنم يوم القيامة، قال قتادة: لا جرم والله لا أفسرها إلا هكذا، فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة... إنما يعرف القرآن من خوطب به»[(٢)].

---

(١) (١/ ٥، ٦).

(٢) المرجع السابق.

من يجوز له أن يفسر القرآن برأيه:

ولكن هل معنى ذلك أن ملا محسن يرى أن فهم معانى القرآن ومعرفة أسراره أصبح أمرًا مقصورًا على أهل البيت وحدهم فيكون بذلك قد حجر واسعًا وجحد فضل من عداهم من العلماء؟ أو يرى أن القرآن فى فهمه قدر مشترك بين العلماء جميعًا لا فرق بين أهل البيت وغيرهم؟ الحق أن صاحبنا يرى أن فى معانى القرآن لأرباب الفهم متسعًا بالغًا ومجالاً رحبًا، ولكن من هم أولوا الفهم الذين يجوز لهم أن يعملوا عقولهم فى فهم معانى القرآن واستنباط أحكامه؟ نرى المؤلف يحدد لنا أولى الفهم بحدود، ويقيدهم بقيود لها صلة قوية بمذهبه الشيعى، وذلك حيث يقول: «. . . فالصواب أن يقال: إن من أخلص الانقياد لله ولرسوله ولأهل البيت عليهم السلام، وأخذ علمه منهم، وتتبع آثارهم، واطلع على جملة من أسرارهم، بحيث حصل له الرسوخ فى العلم، والطمأنينة فى المعرفة، وانفتح عينا قلبه، وهجم به العلم على حقائق الأمور، وباشر روح اليقين، واستلان ما استوعره المترفون، وأنس بما استوحش منه الجاهلون، وصحب الدنيا ببدن روحه معلقة بالمحل الأعلى، فله أن يستفيد من القرآن بعض غرائبه، ويستنبط منه نبذًا من عجائبه، ليس ذلك من كرم الله بغريب، ولا من جوده بعجيب، فليست السعادة وقفًا على قوم دون آخرين، وقد عدوا عليهم السلام جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفات من أنفسهم، كما قالوا: سلمان منا أهل البيت، فمن هذه صفته فلا يبعد دخوله فى الراسخين فى العلم، العالمين بالتأويل»(١).

المولف يرى أن تفسيره للقرآن بما جاء عن أهل البيت هو التفسير المثالى ويطعن فى بقية الصحابة وفى تفسيرهم:

ولما كان المؤلف رحمه الله قد جعل جل اعتماده فى تفسيره، بل كله، على ما وصل إليه من التفسير عن آل البيت؛ لاعتقاده أنهم أدرى به من غيرهم، فإنا نراه يرى ـ مع شىء من التواضع التقليدى ـ أن تفسيره هو التفسير المثالى الذى يجب أن يحتذى، كما نراه لا يعترف بتفسير غيره ممن تقدم عصره بل ويبالغ فى عدم الاعتراف فيطعن على من عدا أهل البيت من الصحابة ويرميهم بالنفاق وغيره، ولا يرتضى ما

(١) (١/ ١٠).

جاء عنهم من تفسير، كأن عقول الصحابة جميعًا قد عقمت وضلت إلا عقول أهل البيت ومن والاهم. . .

يقرر المؤلف هذا بكل صراحة وجراءة مع حملة ظالمة على صحابة رسول الله ﷺ، وذلك حيث يقول: «. . . هذا يا إخوانى ما سألتمونى من تفسير القرآن، بما وصل إلينا من أئمتنا المعصومين من البيان، أتبتكم به مع قلة البضاعة، وقصور يدى عن هذه الصناعة، على قدر مقدور، فإن المأمور معذور، والميسور لا يترك بالمعسور، ولا سيما أنى كنت أراه أمرًا مهمًا؛ وبدونه أرى الخطب مدلهمًا، فإن المفسرين وإن أكثروا القول فى معانى القرآن، إلا أنه لم يأت أحد منهم فيه بسلطان؛ وذلك لأن فى القرآن ناسخًا ومنسوخًا، ومحكمًا ومتشابهًا، وخاصًا وعامًا، ومبينًا ومبهمًا، ومقطوعًا وموصولاً، وفرائض وأحكامًا، وسننًا وآدابًا، وحلالاً وحرامًا، وعزيمة ورخصة، وظاهرًا وباطنًا، وحدًا ومطلعًا، ولا يعلم تمييز ذلك كله إلا من نزل فى بيته، وذلك هو النبى ﷺ وآله وأهل بيته، فكل ما لا يخرج من بيتهم فلا تعويل عليه، ولهذا ورد عن النبى ﷺ: من فسر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد أخطأ، وقد جاءت عن أهل البيت صلوات الله عليهم فى تفسير القرآن وتأويله أخبار كثيرة، إلا أنها خرجت متفرقة عن أسئلة السائلين، وعلى أقدار أفهام المخاطبين، وبموجب إرشادهم إلى مناهج الدين، وبقيت بعد خبايا فى زوايا، خوفًا من الأعداء وتقية من البعداء، ولعله مما برز وظهر لم يصل إلينا الأكثر؛ لأن رواته كانوا فى محنة من التقية، وشدة من الخطر، وذلك أنه لما جرى فى الصحابة ما جرى، وضل بهم عامة الورى، أعرض الناس عن الثقلين[1]، وتاهوا فى بيداء ضلالاتهم عن النجدين إلا شرذمة من المؤمنين فمكث العامة بذلك سنين، وعمهوا فى غمرتهم حتى حين فآل الحال إلى أن نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته، فكان الكتاب وأهله فى الناس وليسا فى الناس، ومعهم وليسا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا، وكان العلم مكتومًا، وأهله مظلومًا، لا سبيل لهم بإبرازه إلا بتعميته وإلغازه، ثم خلف من بعدهم خلف غير عارفين ولا ناصبين، لم يدروا ما صنعوا بالقرآن، وعمن أخذوا التفسير والبيان، فعمدوا إلى طائفة

(١) أراد بالثقلين: كتاب الله والعترة، كما أفصح عن ذلك فى أول المقدمة ص ٢.

يزعمون أنهم من العلماء، فكانوا يـ[illegible]ون لهم بالآراء، ويروون تفسيره عمن يحسبونه من كبرائهم؛ مثل أبى هريرة وأنس وابن عمر ونظرائهم، وكانوا يعدون أمير المؤمنين من جملتهم، ويجعلونه كواحد من الناس، وكان خير من يستندون إليه بعده ابن مسعود وابن عباس، ممن ليس على قوله كثير تعويل، ولا له إلى لباب الحق سبيل، وكان هؤلاء الكبراء ربما ينقلونه من تلقاء أنفسهم غير خائفين من مآله، وربما يسندونه إلى رسول الله ﷺ وآله، ومن الآخذين عنهم من لم يكن له معرفة بحقيقة أحوالهم، لما تقرر عندهم من أن الصحابة كلهم عدول ولم يكن لأحد منهم عن الحق عدول، ولم يعلموا أن أكثرهم كانوا يبطنون النفاق، ويجترئون على الله ويفترون على رسول الله ﷺ فى عزة وشقاق، وهكذا كان حال الناس قرنًا بعد قرن، فكان لهم فى كل قرن رؤساء ضلالة، عنهم يأخذون، وإليهم يرجعون، وهم بآرائهم يجيبون، أو إلى كبرائهم يستندون، وربما يروون عن بعض أئمة الحق عليهم السلام فى جملة ما يروون عن رجالهم، ولكن يحسبونه من أمثالهم، فتبًّا لهم ولأدب الرواية، إذ ما رعوها حق الرعاية، نعوذ بالله من قوم حذفوا محكمات الكتاب، ونسوا الله رب الأرباب؛ وراموا غير باب الله أبوابًا، واتخذوا من دون الله أربابًا، وفيهم أهل بيت نبيهم، وهم أزمة الحق، وسنة الصدق، وشجرة النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحى، وعيبة العلم، ومنار الهدى، والحجج على أهل الدنيا، خزائن أسرار الوحى والتنزيل، ومعادن جواهر العلم والتأويل، والأمناء على الحقائق، والخلفاء على الخلائق، أولو الأمر الذين أمروا بطاعتهم، وأهل الذكر الذين أمروا بمسألتهم، وأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، والراسخون فى العلم الذين عندهم القرآن كله تأويلاً وتفسيرًا، ومع ذلك كله يحسبون أنهم مهتدون، إنا لله وإنا إليه راجعون، ولما أصبح الأمر كذلك وبقى العلم سخريًا هنالك، صار الناس كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب بإمامهم فضربوا بعضه ببعض لترويج مرامهم وحملوه على أهوائهم فى تفاسيرهم وكلامهم، والتفاسير التى صنفها العامة من هذا القبيل، فكيف يصح عليها التعويل، وكذلك التى صنفها متأخروا أصحابنا فإنها أيضًا مستندة إلى رؤساء العامة وشذ ما نقل فيه حديث عن أهل العصمة عليهم السلام، وذلك لأنهم إنما

نسجوا على منوالهم، واقتصروا فى الأكثر على أقوالهم، مع أن أكثر ما تكلم به هؤلاء وهؤلاء ـ فإنما تكلموا فى النحو، والصرف، والاشتقاق، واللغة، والقراءة، وأمثالها ـ مما يدور على القشور دون اللباب، فأين هم والمقصود من الكتاب؟ وإنما ورد على طائفة منهم ما قويت فيه منته، وترك ما لا معرفة له به مما قصرت عنه همته، ومنهم من أدخل فى التفسير ما لا يليق به، فبسط الكلام فى فروع الفقه وأصوله، وطول القول فى اختلاف الفقهاء، أو صرف همته فيه إلى المسائل الكلامية وذكر ما فيها من الآراء وأما ما وصل إلينا مما ألفه قدماؤنا من أهل الحديث فغير تام، لأنه إما غير منته إلى آخر القرآن؛ وإما غير محيط بجميع الآيات المفتقرة إلى البيان، مع أن منه ما لم يثبت صحته عن المعصوم، لضعف رواته أو جهالة حالهم، ونكارة بعض مقالهم. . . إلى أن قال: وبالحرى أن يسمى هذا التفسير بالصافى، لصفائه عن كدورات آراء العامة والممل والمحير والمتنافى. . . »(١).

جل القرآن نازل فى شأن آل البيت وأوليائهم وأعدائهم:

ويعتقد صاحبنا أن معظم القرآن إنما نزل فى شأن آل البيت وأوليائهم وأعدائهم، فما كان من آية مدح فهى فى آل البيت وأشياعهم، وما كان من آية ذم أو وعيد أو تهديد فهى فى مخالفيهم، ثم يقوى رأيه هذا ويستدل له بما يرويه عن علماء أهل البيت من روايات واردة فى هذا المعنى، فمن ذلك ما نقله عن الكافى وتفسير العياشى بالإسناد إلى أبى جعفر عليه السلام قال: «نزل القرآن على أربعة أرباع: ربع فينا، وربع فى أعدائنا، وربع سنن وأمثال، وربع فرائض وأحكام» وزاد العياشى «ولنا كرائم القرآن» ثم مضى بعد ذكره لهذه الرواية وأمثالها فقال: «وقد وردت أخبار جمة عن أهل البيت عليهم السلام، فى تأويل كثير من آيات القرآن بهم وبأوليائهم وبأعدائهم، حتى إن جماعة من أصحابنا صنفوا كتبًا فى تأويل القرآن على هذا النحو جمعوا فيها ما ورد عنهم عليهم السلام فى تأويل آية آية إما بهم أو بشيعتهم، أو بعدوهم، على ترتيب القرآن، وقد رأيت منها كتابًا يقرب من عشرين ألف بيت. . . ثم قال: وذلك مثل لما رواه الكافى عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ**

(١) (١/ ٢ - ٤).

قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥) قال: هى الولاية لأمير المؤمنين عليه السلام، وفى تفسير العياشى عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر عليه السلام قال: يا أبا محمد. . . إذا سمعت الله ذكر قومًا من هذه الأمة بخير فنحن هم، وإذا سمعت الله ذكر قومًا بسوء ممن مضى فهم عدونا، وفيه عن عمير بن حنظلة عن أبى عبد الله عليه السلام: سأله عن قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ٤٣) قال: فلما رآنى أتتبع هذا وأشباهه من الكتاب قال: حسبك. . . كل شىء فى الكتاب من فاتحته إلى خاتمته، مثل هذا، فهو فى الأئمة عنوا به»(١).

رأى المصنف فى تحريف القرآن وتبديله:

يدين ملا محسن بأن عليًا ﷺ هو أول من جمع القرآن، وأن القرآن الذى جمعه هو القرآن الكامل الذى لم يتطرق إليه تحريف ولا تبديل، ويروى لنا أحاديث عن آل البيت كمستند له فى رأيه هذا، فمن ذلك: ما نقله عن القمى فى تفسيره بإسناده عن أبى عبد الله عليه السلام أنه قال: إن النبى ﷺ قال لعلى عليه السلام: يا على. . إن القرآن خلف فراشى فى الصحف والحرير والقراطيس فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة، فانطلق عليه السلام فجمعه فى ثوب أصفر ثم ختم عليه فى بيته وقال: لا أرتدى حتى أجمعه قال: كان الرجل ليأتيه فيخرج إليه بغير رداء حتى جمعه.

ومنها ما رواه القمى بإسناده عن سالم بن سلمة قال: قرأ رجل على أبى عبد الله - وأنا أستمع - حروفًا من القرآن ليس على ما يقرأها الناس، فقال أبو عبد الله: كف عن هذه القراءة، اقرأ كما يقرأ الناس حتى يقوم القائم، فإذا قام اقرأ كتاب الله تعالى على حدة وأخرج المصحف الذى كتبه على عليه السلام إلى الناس حين فرغ منه وكتبه، فقال لهم: هذا كتاب الله كما أنزله الله على محمد ﷺ، وقد جمعته بين اللوحين، فقالوا: هو ذا عندنا مصحف جامع فيه القرآن لا حاجة لنا فيه، فقال: أما والله ما ترونه بعد يومكم هذا أبدًا، إنما كان على أن أخبركم حين جمعته لقراءته.

ومن ذلك ما روى عن أبى ذر الغفارى ﷺ: أنه لما توفى رسول الله ﷺ جمع

(١) (١/ ٦، ٧).

على عليه السلام القرآن وجاء به إلى المهاجرين والأنصار وعرضه عليهم؛ لما قد أوصاه بذلك رسول الله ﷺ، فلما فتحه أبو بكر خرج فى أول صفحة فتحها فضائح القوم، فوثب عمر وقال: يا على اردده فلا حاجة لنا فيه، فأخذه على عليه السلام، وانصرف، ثم حضر زيد بن ثابت ـ وكان قارئًا للقرآن ـ فقال له عمر: إن عليًا جاءنا بالقرآن وفيه فضائح المهاجرين والأنصار، وقد أردنا أن تؤلف لنا القرآن وتسقط منه ما كان فيه فضيحة وهتك للمهاجرين والأنصار، فأجابه زيد إلى ذلك، ثم قال: فإن أنا فرغت من القرآن على ما سألتم وأظهر على القرآن الذى ألفه أليس قد بطل كل ما عملتم؟ ثم قال عمر: فما الحيلة؟ قال زيد: أنتم أعلم بالحيلة، فقال عمر: ما الحيلة دون أن نقتله ونستريح منه، فدبر فى قتله على يد خالد بن الوليد فلم يقدر على ذلك... فلما استخلف عمر سأل عليًا عليه السلام أن يدفع إليه القرآن فيحرفوه فيما بينهم، فقال: يا أبا الحسن، إن كنت جئت به إلى أبى بكر فأت به إلينا حتى نجمع عليه، فقال على عليه السلام: هيهات ليس إلى ذلك سبيل، إنما جئت به لأبى بكر لتقوم به الحجة عليكم ولا تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا: ما جئتنا به، إن القرآن الذى عندى لا يمسه إلا المطهرون والأوصياء من ولدى، فقال عمر: فهل وقت لإظهاره معلوم؟ قال على عليه السلام: نعم، إذا قام القائم من ولدى فيظهره ويحمل الناس عليه فتجرى السنة به»(١).

ولكنا نجد صاحبنا بعدما ساق هذه الروايات وكثيرًا غيرها يقف منها موقف المستشكل فيقول: «ويرد على هذا كله إشكال، وهو أنه على هذا التقدير لم يبق لنا اعتماد على شىء من القرآن؛ إذ على هذا يحتمل كل آية منه أن يكون محرفًا ومغيرًا، أو يكون على خلاف ما أنزل الله، فلم يبق لنا فى القرآن حجة أصلاً، فتنتفى فائدة الأمر باتباعه والوصية بالتمسك به إلى غير ذلك، وأيضًا قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (فصلت: ٤١، ٤٢) وقال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩) فكيف يتطرق إليه التحريف والتغيير؟ وأيضًا قد استفاض عن النبى والأئمة صلوات الله عليهم حديث عرض الخبر المروى على

---

(١) (١/ ١٠، ١١).

كتاب الله ليعلم صحته بموافقته له، وفساده بمخالفته[١]، فإذا كان القرآن الذى بأيدينا محرفًا فما فائدة العرض؟ مع أن خبر التحريف مخالف لكتاب الله مكذب له، فيجب رده والحكم بفساده أو تأويله».

وهنا يجيب ملا محسن على إشكاله هذا بجوابين:

أولهما: أن هذه الأخبار إن صحت فلعل التغيير إنما وقع فيما لا يخل بالمقصود كثير إخلال، كحذف اسم على وآل محمد، وحذف أسماء المنافقين؛ فإن انتفاء التعبير باق لعموم اللفظ.

وثانيهما: أن بعض المحذوفات كان من قبيل التفسير والبيان ولم يكن من أجزاء القرآن، فيكون التبديل من حيث المعنى، أى حرفوه وغيروه فى تفسيره وتأويله، بأن حملوه على خلاف ما يراد منه»[٢].

ثم ذكر بعد هذا أقوال من تقدمه من شيوخه وعلماء مذهبه وهم ما بين مجيز للتحريف والنقصان ومانع لذلك، ولكل أدلته وحجته، ولا نطيل بذكرها ومن أرادها فليرجع إليها فى المقدمة السادسة (ص١٤، ١٥).

طريقة المؤلف فى تفسيره:

بيَّن المؤلف فى المقدمة الثانية عشرة من مقدمات تفسيره طريقته واصطلاحاته التى جرى عليها فى كتابه فقال: «كل ما يحتاج من الآيات إلى بيان وتفسير لفهم المقصود من معانيه، أو إلى تأويل لمكان تشابه فيه، أو إلى معرفة سبب نزوله المتوقف عليه فهمه وتعاطيه، أو إلى تعرف نسخ أو تخصيص أو صفة أخرى فيه، وبالجملة ما يزيد على شرح اللفظ والمفهوم مما يفتقر إلى السماع عن المعصوم، فإن وجدنا شاهدًا من محكمات القرآن يدل عليه أتينا به فإن القرآن يفسر بعضه بعضًا، وقد أمرنا من جهة أئمة الحق عليهم السلام أن نرد متشابهات القرآن إلى محكماته، وإلا فإن ظفرنا فيه بحديث معتبر عن أهل البيت عليهم السلام فى الكتب المعتبرة من طرق أصحابنا ﷺ أوردناه، وإلا أوردنا ما روينا عنهم عليهم السلام من طرق العامة... نظائره فى الأحكام ما روى عن الصادق:

(١) هذا الحديث المشار إليه موضوع بإجماع أهل العلم.

(٢) (١/ ١٠ - ١٤).

إذا نزلت بكم حادثة لا تجدون حكمها فيما يروى عنا، فانظروا إلى ما رووه عن على عليه السلام فاعملوا به. . . رواه الشيخ الطوسى فى العدة، وما لم نظفر فيه بحديث عنهم عليهم السلام أوردنا ما وصل إلينا من غيرهم من علماء التفسير إذا وافق القرآن وفحواه، وأشبه حديثهم فى معناه، فإن لم نعتمد عليه من جهة الاستناد، اعتمدنا عليه من جهة الموافقة والشبه والسداد، قال رسول الله ﷺ: «إن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه» وقال الصادق: «ما جاءك فى رواية من راوٍ فاجرٍ يوافق القرآن فخذ به، وما جاءك فى رواية من راوٍ فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به» وقال الكاظم: «إذا جاءك الحديثان المختلفان فَقِسْهما على كتاب الله وعلى أحاديثنا، فإن أشبههما فهو حق، وإن لم يشبههما فهو باطل» وما ورد فيه أخبار كثيرة فإن لم يكن فيها كثير اختلاف اقتصرنا منها على ما اشتمل على مجامعها، وتركنا سايرها مما فى معناه رومًا للاختصار، وصونًا عن الإكثار، وربما أشرنا إلى تعددها وتكثرها إذا أهمنا الاعتماد.

وإن كانت مختلفات نقلنا أصحها وأحسنها وأعمها فائدة، ثم أشرنا إلى موضع الاختلاف ما استطعنا، وما لا يحتاج إلا إلى شرح اللفظ والمفهوم، والنكات المتعلقة لعلوم الرسوم، مما لا يفتقر إلى السماع من المعصوم، أوردنا فيه ما ذكره المفسرون الظاهريون، من كان تفسيره أحسن، وبيانه أوجز وأتقن، كائنًا من كان. . . ثم ذكر أنه اقتبس من تفسير الحسن العسكرى وغيره، وذكر اصطلاحاته فى العزو إلى الكتب التى استقى منها، وفى نسبة الأقوال إلى قائليها ولا نطيل بذكرها»(١).

هذه هى أهم الآراء التى يقول بها ملا محسن، والتى استخلصناها من مقدماته التى قدم بها تفسيره، وهذه هى طريقته التى سار عليها فى كتابه الذى نحن بصدده، والكتاب ـ كما أشرنا آنفًا ـ مذهبى إلى حد التطرف والغلو؛ فهو لا يكاد يمر بآية من القرآن إلا ويحاول صاحبه أن يأخذ منها شاهدًا لمذهبه أو دفعًا لمذهب مخالفيه! . . . ولقد قرأت فى هذا الكتاب، فلمست فيه روح التحيز المزرى، والتعصب الممقوت، ولأجل أن يكون القارئ على بينة من الأمر أسوق إليه نماذج من نواح شتى وفى

(١) (١/ ١٩ - ٣٠).

موضوعات مختلفة ليلمس كما لمست مقدار هذا التعصب الذى يريد صاحبه من ورائه أن يحجب نور الحق ويطمس معالمه.

القرآن وأهل البيت:

فمثلاً، نجد كثيرًا من آيات القرآن لها معان خاصة، ولا صلة لها بأهل البيت، ولا بما لهم من مناقب وشمائل، ولكنا نجد صاحبنا يتأثر بمذهبه الشيعى، فيحاول أن يلوى هذه الآيات إلى معان لا صلة لها باللفظ... معان تحمل فى طياتها طابع التعصب المذهبى بصورة مكشوفة مفضوحة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٤) من سورة البقرة ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ...**﴾ الآية، يقول ما نصه: «وذلك لما كان فى صلبه من أنوار نبينا وأهل بيته المعصومين، وكانوا قد فضلوا على الملائكة باحتمالهم الأذى فى جنب الله، فكان السجود لهم تعظيمًا وإكرامًا، ولله سبحانه عبودية، ولآدم طاعة، قال على بن الحسين: حدثنى أبى عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: يا عباد الله، آدم لما رأى النور ساطعًا من صلبه - إذ كان الله قد نقل أشباحنا من ذروة العرش إلى ظهره - رأى النور ولم يتبين الأشباح، فقال: يا رب ما هذه الأنوار؟ فقال الله عز وجل: أنوار أشباح نقلتهم من أشرف بقاع عرشى إلى ظهرك؛ ولذلك أمرت الملائكة بالسجود لك إذ كنت وعاء لتلك الأشباح، فقال آدم: يا رب... لو بينتها لى، فقال الله عز وجل: انظر يا آدم إلى ذروة العرش، فنظر آدم عليه السلام ووقع نور أشباحنا من ظهر آدم إلى ذروة العرش، فانطبع فيه صور أنوار أشبحانا التى فى ظهره، كما ينطبع وجه الإنسان فى المرآة الصافية، فرأى أشباحنا فقال: ما هذه الأشباح يا رب؟ قال الله: يا آدم... هذه أشباح أفضل خلائقى وبرياتى، هذا محمد، وأنا الحميد المحمود فى فعالى، شققت له اسمًا من اسمى، وهذا على، وأنا العالى، شققت له اسمًا من اسمى، وهذه فاطمة، وأنا فاطر السموات والأرض، فاطم أعدائى من رحمتى يوم فصل قضائى، وفاطم أوليائى عما يعيرهم ويشينهم، فشققت لها اسمًا من اسمى، وهذا الحسن، وهذا الحسين، وأنا المحسن المجمل، شققت اسميهما من اسمى، هؤلاء خيار خليقتى، وكرام بريتى، بهم آخذ، وبهم أعطى، وبهم أعاقب، وبهم أثيب، فتوسل بهم إلىَّ يا آدم، وإذا دهتك

داهية فاجعلهم إلىَّ شفعاءك؛ فإنى آليت على نفسى قسمًا حقًا لا أخيب بهم أملاً، ولا أرد بهم سائلاً؛ فلذلك حين زلت به الخطيئة دعا الله عز وجل بهم، فتاب عليه وغفر له) (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١، ٢، ٣) من سورة البلد: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ يقول ما نصه: «فى المجمع عن الصادق، يعنى آدم وما ولد من الأنبياء والأوصياء وأتباعهم...» (٢).

فأنت ترى من كل هذا أن المؤلف يجد فى إخضاع آيات القرآن لمذهبه، وتنزيلها على وفق هواه وعقيدته، وهذا خروج بكتاب الله عن معانيه الظاهرة المرادة منه!!.

طعن المؤلف على الصحابة:

كذلك نجد ملا محسن فى تفسيره هذا، يطعن على أبى بكر، وعمر، وعثمان، وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ، ويرميهم بما لا يليق يمؤمن فضلاً عن صحابى جاهد مع رسول الله ﷺ وبذل فى سبيل نصرته دمه وماله، كما يطعن فى بنى أمية ويرميهم بكل نقيصة، وهو فى حملته هذه مدفوع بدافع الخصومة المذهبية والنزعة الشيعية.

طعنه على عثمان رضى الله عنه:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٨٤، ٨٥) من سورة البقرة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ نجده يفسر الآية تفسيرًا مختصرًا مقبولاً، ثم يروى عن القمى «أنها نزلت فى أبى ذر - رحمة الله عليه - وفيما فعل به عثمان بن عفان وكان سبب ذلك: أنه لما أمر عثمان بنفى أبى ذر - رحمة الله عليه - إلى الربذة، دخل عليه أبو ذر وكان عليلاً وهو متكئ على عصاه، وبين يدى عثمان مائة ألف درهم أتته من

(١) (١/ ٢٩).
(٢) (١/ ٣٥٩).

بعض النواحى، وأصحابه حوله ينظرون إليه ويطمعون أن يقسمها فيهم، فقال أبو ذر لعثمان: ما هذا المال؟ فقال: حمل إلينا من بعض الأعمال مائة ألف درهم أريد أن أضم إليها مثلها ثم أرى فيها رأيى... قال أبو ذر: يا عثمان... أيما أكثر؟ مائة ألف درهم أو أربعة دنانير؟ قال عثمان: بل مائة ألف درهم، فقال: أما تذكر إذ أنا وأنت دخلنا على رسول الله ﷺ وآله عشاء فوجدناه كئيبًا حزينًا فسلمنا عليه فلم يرد علينا السلام، فلما أصبحنا أتيناه فرأيناه ضاحكًا مستبشرًا، فقلت له: بأبى أنت وأمى... دخلنا عليك البارحة فرأيناك كئيبًا حزينًا، وعدنا إليك اليوم فرأيناك ضاحكا مستبشراً، فقال: نعم... قد بقى عندى من فىء المسلمين أربعة دنانير لم أكن قسمتها، وخفت أن يدركنى الموت وهى عندى، وقد قسمتها اليوم فاسترحت، فنظر عثمان إلى كعب الأحبار فقال له: يا أبا إسحاق... ما تقول فى رجل أدى زكاة ماله المفروضة... هل يجب عليه فيها بعد ذلك شىء؟ فقال: لا ولو اتخذ لبنة من ذهب ولبنة من فضة ما وجب عليه شىء، فرفع أبو ذر عصاه فضرب بها رأس كعب، فقال: يا بن اليهودية المشركة، ما أنت والنظر فى أحكام المسلمين؟ قول الله عز وجل أصدق من قولك حيث قال: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ إلى قوله: ﴿**فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾ (التوبة: ٣٤، ٣٥) قال عثمان: يا أبا ذر.. إنك شيخ قد خرفت، وذهب عقلك، ولولا صحبتك لرسول الله ﷺ لقتلتك، فقال. كذبت يا عثمان... ويلك... أخبرنى حبيبى رسول الله ﷺ فقال: لا يفتنونك يا أبا ذر ولا يقتلونك... أما عقلى فقد بقى منه ما أذكرنى حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ قاله فيك وفى قومك، قال: وما سمعت من رسول الله فىَّ وفى قومى؟ قال: سمعته يقول - وهو قوله ﷺ: إذا بلغ إلى أبى العاص ثلاثون رجلاً صيروا مال الله دولاً، وكتاب الله دغلاً، وعباد الله خولاً، والصالحين حربًا، والفاسقين حزبًا، قال عثمان: يا معشر أصحاب محمد، هل سمع أحد منكم هذا الحديث من رسول الله؟ قالوا: لا، ما سمعنا هذا من رسول الله ﷺ، قال عثمان: ادعوا عليّا... فجاء أمير المؤمنين فقال له عثمان: يا أبا الحسن اسمع ما يقول هذا الشيخ الكذاب، فقال أمير المؤمنين: يا عثمان، لا تقل كذابًا، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما أظلت

الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذى لهجة أصدق من أبى ذر، قال أصحاب رسول الله: صدق على، سمعنا هذا من رسول الله، فعند ذلك بكى أبو ذر وقال:

ويلكم.. كلكم قد مد عنقه إلى هذا المال، ظننتم أنى أكذب على رسول الله ﷺ، ثم نظر إليهم فقال: من خيركم؟ فقالوا: أنت تقول إنك خيرنا، قال: نعم... خلفت حبيبى رسول الله ﷺ وهو على بعيره، وأنتم قد أحدثتم أحداثًا كثيرة، والله سائلكم عن ذلك ولا يسألنى، فقال عثمان: يا أبا ذر... أسألك بحق رسول الله إلا ما أخبرتنى عما أنا سائلك عنه، فقال أبو ذر: والله لو لم تسألنى بحق رسول الله ﷺ لما أخبرتك، فقال: أى البلاد أحب إليك أن تكون فيها؟ فقال: مكة حرم الله وحرم رسوله، أعبد الله فيها حتى يأتينى الموت، فقال: لا ولا كرامة لك، قال: المدينة حرم رسول الله، فقال: لا ولا كرامة لك، قال: فسكت أبو ذر، فقال: وأى البلاد أبغض إليك أن تكون بها؟ قال: الربذة التى كنت بها على غير دين الإسلام، فقال عثمان: سر إليها، فقال أبو ذر: قد سألتنى فصدقتك، وأنا أسألك فاصدقنى، قال: نعم، قال: أخبرنى لو أنك بعثتنى فيمن بعثت من أصحابك إلى المشركين فأسرونى وقالوا لا نفديه إلا بثلث ما تملك...؟ قال: كنت أفديك، قال: فإن قالوا: لا نفديه إلا بكل ما تملك، قال: كنت أفديك، فقال أبو ذر: الله أكبر... قال لى حبيبى رسول الله ﷺ يومًا: يا أبا ذر كيف أنت إذا قيل لك أى البلاد أحب إليك أن تكون فيها؟ فتقول مكة حرم الله وحرم رسوله... أعبد الله فيها حتى يأتينى الموت، فيقال: لا ولا كرامة لك، فتقول: المدينة حرم رسول الله، فيقال: لا ولا كرامة لك، ثم يقال لك: فأى البلاد أبغض إليك أن تكون فيها؟ فتقول: الربذة التى كنت بها على غير دين الإسلام، فيقال لك: سر إليها، فقلت: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟ فقال: والذى نفسى بيده إنه لكائن، فقلت: يا رسول الله أفلا أضع سيفى على عاتقى فأضرب به قدما قدما؟ قال: لا... اسمع واسكت ولو لعبد حبشى، وقد أنزل الله فيك وفى عثمان خصمك آية، فقلت: وما هى يا رسول الله؟ فقال: قول الله... وتلا الآية»(١).

---

(١) (١/ ٤٢، ٤٣).

طعنه على أبى بكر:

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٠) من سورة التوبة ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا...** ﴾ الآية، نجده لا يعترف بهذه المنقبة لأبى بكر، ﷺ، بل ويحاول بكل جهوده أن يأخذ منها مغمزًا وطعنًا على أبى بكر، وذلك حيث يقول ما نصه: «... ﴿ **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ** ﴾ وهو أبو بكر ﴿ **لا تَحْزَنْ** ﴾ لا تخف ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ بالعصمة والمعونة... فى الكافى عن الباقر أن رسول الله ﷺ أقبل يقول لأبى بكر فى الغار: اسكن فإن الله معنا، وقد أخذته الرعدة وهو لا يسكن، فلما رأى رسول الله حالة قال له: تريد أن أريك أصحابى من الأنصار فى مجالسهم يتحدثون؟ وأريك جعفر وأصحابه في البحر يغوصون؟ قال: نعم، فمسح رسول الله ﷺ بيده على وجهه فنظر إلى الأنصار يتحدثون، وإلى جعفر وأصحابه فى البحر يغوصون، فأضمر تلك الساعة أنه ساحر ﴿ **فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ** ﴾ أمنته التى تسكن إليها القلوب ﴿ **عَلَيْهِ** ﴾ فى الكافى عن الرضا: أنه قرأها (على رسوله) قيل له: هكذا؟ قال: هكذا نقرأها، وهكذا تنزيلها، والعياشى عنه: إنهم يحتجون علينا بقوله تعالى: ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ** ﴾ وما لهم فى ذلك من حجة، فوالله لقد قال الله: ﴿ **فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ** ﴾ (الفتح: ٢٦) وما ذكره فيها يخبر، قيل: هكذا تقرأونها؟ قال: هكذا قراءتها...»(١).

طعنه على أبى بكر وعمر وعائشة وحفصة:

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة التحريم: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ...** ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿ **فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ** ﴾ نراه ينقل عن القمى فى سبب نزول هذه الآية «أن رسول الله ﷺ كان فى بعض بيوت نسائه، وكانت مارية القبطية تكون معه تخدمه، وكانت ذات يوم فى بيت حفصة، فذهبت حفصة فى حاجة لها، فتناول رسول الله مارية، فعلمت حفصة بذلك فغضبت، وأقبلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله... فى يومى؟ وفى دارى؟ وعلى فراشى؟ فاستحيى رسول الله منها فقال: كفى فقد حرمت مارية على

---

(١) (١/ ٢٥٧).

نفسى، ولا أطؤها بعد هذا أبدًا، وأنا أفضى إليك سرًا إن أخبرت به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فقالت: نعم... ما هو؟ فقال: إن أبا بكر يلى الخلافة بعدى، ثم بعده أبوك، فقالت: من أنبأك هذا؟ قال: نبأنى العليم الخبير، فأخبرت حفصة به عائشة من يومها ذلك، وأخبرت عائشة أبا بكر، فجاء أبو بكر إلى عمر فقال له: إن عائشة أخبرتنى عن حفصة بشيء ولا أثق بقولها فاسأل أنت حفصة، فجاء عمر إلى حفصة فقال لها: ما هذا الذى أخبرت عنك عائشة؟ فأنكرت ذلك وقالت: ما قلت لها من ذلك شيئًا، فقال لها عمر: إن هذا حق فأخبرينا حتى نتقدم فيه، فقالت: نعم... قد قاله رسول الله ﷺ، فاجتمعوا أربعة على أن يسموا رسول الله، فنزل جبريل على رسول الله بهذه السورة، قال: ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعنى أظهره الله على ما أخبرت به وما هموا به من قتله ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾ أخبرها وقال: لم أخبرت بما أخبرتك؟ ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ قال: لم يخبرهم بما يعلم مما هموا به من قتله»[(١)].

صرفه لآيات العتاب عن ظاهرها:

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة عبس ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ الآيات إلى آخر القصة، نجده يصرف الآيات عن ظاهرها المتعارف بين المفسرين جميعًا، ويجعل العتاب موجهًا إلى عثمان ﷺ، أو إلى رجل آخر من بنى أمية، والذى حمله على ذلك هو ما يراه من أن مثل هذا العتاب لا يليق أن يكون موجها إلى النبى ﷺ أو إلى أحد من الأئمة المعصومين، كما أن سبب العتاب لا يليق أن يصدر منهم، أما توجه العتاب إلى عثمان وصدور سببه منه فهذا أمر جائز وواقع فى نظره؛ لأن عثمان ليس له من العصمة ما للأئمة فلهذا تراه يروى عن القمى «أنها نزلت فى عثمان وابن أم مكتوم، وكان ابن أم مكتوم مؤذنًا لرسول الله ﷺ، وكان أعمى، وجاء إلى رسول الله ﷺ وعنده أصحابه وعثمان عنده، فقدمه رسول الله ﷺ على عثمان فعبس عثمان وجهه وتولى عنه، فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾، ونقل عن مجمع البيان أنها نزلت فى رجل من بنى أمية كان عند النبى فجاء ابن أم مكتوم، فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه، فحكى

---

(١) (٢/ ٣٢٠).

الله ذلك وأنكره عليه. . .» ثم قال: «أقول: وأما ما اشتهر من تنزيل هذه الآيات فى النبى ﷺ دون عثمان فيأباه سياق مثل هذه المعاتبات الغير اللائقة بمنصبه، وكذا ما ذكره بعدها إلى آخر السورة كما لا يخفى على العارف بأساليب الكلام، ويمكن أن يكون من مختلقات أهل النفاق خذاهم الله»(١).

دفاع المؤلف عن أصول مذهبه:

كذلك نجد المؤلف ينظر إلى القرآن من خلال عقيدته، ونراه ينتصر لمذهبه ويتعصب له، ويؤيد أصوله بكل ما يستطيع من الأدلة، ويدفع الشبه عنها، ويرد على الخصوم بما يستطيع من أوجه الرد؛ فلهذا نجده إذا مر بآية من آيات القرآن التى يستطيع أن يستند إليها ويعتمد عليها فى نظره، أخذ فى تأويلها على وفق مذهبه وهواه، وإن كان فى ذلك خروج عن ظاهر النظم القرآنى.

ولايـــة على:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ نراه يستند إلى هذه الآية استنادًا قويًا فى أن عليًا ؓ هو وصى النبى ﷺ وخليفته من بعده، فيقول ما نصه «فى الكافى عن الصادق فى تفسير هذه الآية: «أولى بكم»: أى أحق بكم وبأموركم من أنفسكم وأموالكم الله ورسوله والذين آمنوا ـ يعنى عليًا وأولاده الأئمة إلى يوم القيامة ـ ثم وصفهم الله فقال: ﴿**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ وكان أمير المؤمنين فى صلاة الظهر ـ وقد صلى ركعتين ـ وهو راكع، عليه حلة قيمتها ألف دينار، وكان النبى أعطاه إياها، وكان النجاشى أهداها له، فجاء سائل فقال: السلام عليك يا ولى الله وأولى بالمؤمنين من أنفسهم. . . تصدق على مسكين، فطرح الحلة إليه، وأومأ بيده إليه أن احملها، فأنزل الله عز وجل فيه هذه الآية، وصير نعمة أولاده بنعمته، فكل من بلغ من أولاده مبلغ الإمامة يكون بهذه النعمة مثله، فيتصدقون وهم راكعون، والسائل الذى سأل أمير المؤمنين من الملائكة، والذين يسألون الأئمة من أولاده يكونون من الملائكة، وعنه عن أبيه عن جده فى قوله عز وجل: ﴿**يَعْرِفُونَ**

---

(١) (٢/ ٣٤٨، ٣٤٩).

نعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ (النحل: ٨٣) قال: لما نزلت ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ** ﴾ الآية، اجتمع نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فى مسجد المدينة فقال بعضهم: إن كفرنا بهذه الآية نكفر بسائرها، وإن آمنا فإن هذا ذل حين يسلط علينا على بن أبى طالب، فقالوا: قد علمنا أن محمدًا صادق فيما يقول، ولكنا نتولاه ولا نطيع عليّا فيما أمرنا، قال: فنزلت هذه الآية ﴿ **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا** ﴾ يعنى ولاية على ﴿ **وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ (**النحل: ٨٣**) بالولاية، وعنه أنه سئل: الأوصياء طاعتهم مفروضة؟ قال: نعم هم الذين قال الله ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ (النساء: ٥٩) وهم الذين قال الله ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...** ﴾ الآية، وروى المؤلف غير ذلك من الروايات، وكلها يدور حول هذا الشأن... ثم ادعى إجماع الأمة على أنه لم يؤت الزكاة يومئذ أحد منهم وهو راكع غير رجل واحد هو على... ثم علل عدم ذكره باسمه فى الكتاب بأنه لو ذكر باسمه فى الكتاب لأسقط مع ما أسقط... ثم وفق بين الروايات القائلة بانه تصدق بحلته وبين الروايات القائلة بأنه تصدق بخاتمه فقال: «لعله تصدق مرة فى ركوعه بالحلة، ومرة بالخاتم...» والآية نزلت بعد الثانية، وقوله تعالى ﴿ **وَيُؤْتُونَ** ﴾ إشعار بذلك؛ لتضمنه التكرار والتجدد، كما أن فيه إشعارًا بفعل أولاده أيضًا»[(١)].

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة المائدة ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...** ﴾ الآية، نراه يحمل التبليغ المأمور به عليه السلام على تبليغه للناس إمامة على وولايته... ويروى هنا قصة طويلة جدا، ويروى خطبة النبى لأصحابه عند غدير خم، وهى خطبة طويلة كذلك، وفى هذه الخطبة يقول رسول الله ﷺ مبينًا سبب نزول الآية: «وأنا مبين لكم سبب هذه الآية: إن جبريل هبط إلىَّ مرارًا ثلاثة، يأمرنى عن السلام ربى وهو السلام: أن أقوم فى هذا المشهد وأعلم كل أبيض وأسود أن على بن أبى طالب أخى، ووصيى وخليفتى، والإمام من بعدى، الذى محله منى محل هارون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى وهو وليكم بعد الله ورسوله، وقد أنزل الله علىَّ بذلك آية من كتابه ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**

(١) (١/ ١٦٤).

وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وعلى بن أبى طالب أقام الصلاة وآتى الزكاة وهو راكع، يريد لله عز وجل فى كل حال، وسألت جبريل أن يستغفر لى عن تبليغ ذلك إليكم أيها الناس، لعلمى بقلة المتقين، وكثرة المنافقين، وإدغال الآثمين، وحيل المستهزئين بالإسلام، الذين وصفهم الله فى كتابه بأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، ويحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم، وكثرة أذاهم لى غير مرة حتى سمونى أُذنا، وزعموا أنى كذلك لكثرة ملازمته إياى وإقبالى عليه، حتى أنزل الله عز وجل فى ذلك ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ (التوبة: ٦١) الآية، ولو شئت أن أسميهم بأسمائهم لسميت، وأن أومئ إليهم لأعيانهم لأومات، وأن أدل عليهم لدللت، ولكنى - والله - فى أمورهم قد تكرمت، وكل ذلك لا يرضى الله منى إلا أن أبلغ ما أنزل إلى... ثم تلا: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...﴾ (المائدة: ٦٧) ... إلخ»[١].

أولو الأمر الذين تجب طاعتهم:

ومثلاً عند قوله تعالى فى (٥٩) من سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ...﴾ الآية، نراه يحمل هذه الآية على وفق مذهبه، فيقصر أولى الأمر على الأئمة من أهل البيت خاصة، أما من عداهم فليسوا أولى الأمر، وليس يجب على أحد أن يقوم بطاعتهم، ولهذا يقول عند تفسيره لهذه الآية ما نصه: «فى الكافى والعياشى عن الباقر: إيانا عنى خاصة... أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا، وفى الكافى عن الصادق: أنه سئل عن الأوصياء... طاعتهم مفترضة؟ قال: نعم، هم الذين قال الله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ الآية، وقال الله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ...﴾ الآية، وفيه والعياشى عنه فى هذه الآية قال: نزلت فى على بن أبى طالب والحسن والحسين، فقال: إن الناس يقولون فما له لم يسم عليًا وأهل بيته فى كتابه؟ فقال: فقولوا لهم: نزلت الصلاة ولم يسم الله لهم ثلاثًا ولا أربعًا حتى كان رسول الله فسر ذلك لهم، ونزلت ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ ونزلت فى على

---

(١) (١/ ١٦٥ - ١٧١).

والحسن والحسين؛ فقال رسول الله ﷺ فى على: من كنت مولاه فهذا على مولاه، وقال: أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتى، فإنى سألت الله أن لا يفرق بينهما حتى يوردهما على الحوض، فأعطانى ذلك، وقال: لا تعلموهم، فإنهم أعلم منكم، وقال: إنهم لم يخرجوكم من باب هدى ولم يدخلوكم فى باب ضلالة، فلو سكت رسول الله ﷺ ولم يبين مَنْ أهل بيته لادعاها آل فلان وآل فلان، ولكن الله أنزل فى كتابه تصديقًا لنبيه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣) فكان على والحسن والحسين وفاطمة، فأدخلهم رسول الله ﷺ تحت الكساء فى بيت أم سلمة، ثم قال: اللهم إن لكل نبى أهلاً وثقلاً، وهؤلاء أهل بيتى وثقلى، فقالت أم سلمة: ألست من أهلك؟ فقال: إنك إلى خير، ولكن هؤلاء أهل بيتى وثقلى... الحديث، وزاد العياشى: آل عباس، وآل عقيل، قبل قوله: وآل فلان. وعن الصادق أنه سئل عما بنيت عليه دعائم الإسلام التى إذا أخذ بها زكى العمل ولم يضر جهل ما جهل بعده، فقال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وحق فى الأموال الزكاة، والولاية التى أمر الله بها، ولاية آل محمد، فإن رسول الله قال: من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية... قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فكان على، ثم صار من بعده الحسن، ثم بعده الحسين، ثم من بعده على بن الحسين، ثم من بعده محمد بن على، ثم هكذا يكون الأمر... إن الأرض لا تصلح إلا بإمام... الحديث، وفى المعانى عن سليم بن قيس الهلالى عن أمير المؤمنين أنه سأله: ما أدنى ما يكون به الرجل ضالاً؟ فقال: أن لا يعرف من أمر الله بطاعته وفرض ولايته، وجعله حجته فى أرضه، وشاهده على خلقه... قال: فمن هم يا أمير المؤمنين؟ قال: الذين قرنهم الله بنفسه ونبيه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قال: فقبلت رأسه وقلت: أوضحت لى، وفرجت عنى، وأذهبت كل شىء فى قلبى. وفى الإكمال عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال: لما نزلت هذه الآية قلت: يا رسول الله... عرفنا الله ورسوله، فمن أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال: هم خلفائى يا جابر وأئمة المسلمين من بعدى، أولهم على بن أبى طالب، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم

على بن الحسين، ثم محمد بن على المعروف فى التوراة بالباقر، وستدركه يا جابر، فإذا لقيته فأقرئه منى السلام، ثم الصادق جعفر بن محمد بن موسى بن جعفر، ثم على ابن موسى، ثم محمد بن على، ثم على بن محمد، ثم الحسن بن على، ثم سمى محمد، وكنيته حجة الله فى أرضه، وبقيته فى عباده، ابن الحسن بن على، ذاك الذى يفتح على يديه مشارق الأرض ومغاربها؛ ذاك الذى يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للإيمان، قال جابر: فقلت: يا رسول الله... فهل لشيعته الانتفاع به فى غيبته؟ فقال: أى... والذى بعثنى بالنبوة إنهم يستضيئون بنوره، وينتفعون بولايته، كانتفاع الناس بالشمس وإن تجللها سحاب، يا جابر... هذا من مكنون سر الله ومخزون علم الله فاكتمه إلا عن أهله... والأخبار فى هذا المعنى فى الكتب المتداولة المعتبرة لا تحصى كثرة. وفى التوحيد عن أمير المؤمنين: اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسول، وأولى الأمر بالمعروف والعدل والإحسان. وفى العلل عنه، لا طاعة لمن عصى الله، وإنما الطاعة لله ولرسوله ولولاة الأمر، إنما أمر الله بطاعة الرسول لأنه معصوم مطهر لا يأمر بمعصية، وإنما أمر بطاعة أولى الأمر لأنهم معصومون مطهرون لا يأمرون بمعصية»[(١)].

الإمام يوصى لمن بعده:

ولما كان مذهب المؤلف أن كل إمام يوصى بالإمامة لمن بعده، وليس ذلك لأحد من المسلمين غيره، فإنا نجده يتأثر بهذه العقيدة ويفسر قوله تعالى فى الآية (٥٨) من سورة النساء ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**﴾ الآية، على وفق هذه العقيدة فيقول: «فى الكافى وغيره فى عدة روايات: إن الخطاب إلى الأئمة... أمر كلا منهم أن يؤدى إلى الإمام الذى بعده ويوصى إليه، ثم هى جارية فى سائر الأمانات، وفيه وفى العياشى عن الباقر، إيانا عنى أن يؤدى الإمام الأول إلى الذى بعده العلم والكتب والسلاح... إلخ»[(٢)].

---

(١) (١/ ١٣٣).

(٢) (١/ ١٣٢).

استدلاله على الرجعة:

ولما كان المؤلف يدين بالرجعة فإنا نجده يستدل على جوازها بقوله تعالى فى الآيتين (٥٥، ٥٦) من سورة البقرة ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ وذلك حيث يقول: «. . . أقول: قيد البعث بالموت لأنه قد يكون من إغماء ونوم، وفيه دلالة واضحة على جواز الرجعة التى قال بها أصحابنا نقلاً عن أئمتهم، واحتج بهذه الآية أمير المؤمنين على ابن الكواء حين أنكرها كما رواه عنه الإصبع بن نباتة، والقمى، هذا دليل على الرجعة فى أمة محمد ﷺ، فإنه قال: لم يكن فى بنى إسرائيل شىء إلا وفى أمته مثله، يعنى دليلاً على وقوعها»[(١)].

الإيمان بالرجعة وقيام القائم من الإيمان بالغيب:

ولكون المؤلف يعتقد بالرجعة ويرى ضرورة الإيمان بها لكل مؤمن، فإنا نراه يعد الإيمان بها من ضمن الإيمان بالغيب الذى مدح الله به عباده المتقين وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢، ٣) من سورة البقرة ﴿ . . . هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ . . . ﴾ «﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ بما غاب عن حواسهم من توحيد الله، ونبوة الأنبياء، وقيام القائم، والرجعة، والبعث، والحساب، والجنة، والنار، وسائر الأمور التى يلزمهم الإيمان بها مما لا يعرف بالمشاهدة وإنما يعرف بدلائل نصبها الله عز وجل»[(٢)].

التقيـــــة:

ولما كان ملا محسن يقول بالتقية، ويراها ضررة من ضروريات قيام مذهبه وصون أصحابه من الاضطهاد، فإنا نراه يفيض فيها عندما تكلم عن قوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة آل عمران ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً . . . ﴾ الآية، فيقول: «﴿ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم خوفًا وأمرًا يجب أن يخاف منه، وقرئ (تقية) منع عن موالاتهم ظاهرًا وباطنًا فى الأوقات كلها إلا وقت المخافة، فإن إظهار الموالاة حينئذ

---

(١) (١/ ٣٥).

(٢) (١/ ٢٣).

جائز بالمخالفة كما قيل: كن وسطًا وامش جانبًا...) ثم قال: (وفى العياشى عن الصادق قال: كان رسول الله ﷺ يقول: لا إيمان لمن لا تقية له، ويقول: قال الله ﴿**إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً**﴾، وفى الكافى عنه قال: التقية ترس الله بينه وبين خلقه، وعن الباقر قال: التقية فى كل شىء يضطر إليه ابن آدم، وقد أحل الله له، والأخبار فى ذلك مما لا تحصى»[1].

تأثره فى تفسيره بالفروع الفقهية للإمامية:

ولما كان المؤلف كغيره من علماء مذهبه له فى بعض المسائل الاجتهادية الفقهية رأى يخالف آراء مجتهدى المذاهب الأخرى، فإنا نراه ينتصر لمذهبه ويعمل على تأييده بما يظهر له من آيات القرآن... والمتتبع لتفسيره لآيات الأحكام يجد أثر هذا كله ظاهرًا جليًا، فهو يحاول محاولة جدية أن يأخذ رأيه من النص القرآنى أو يدفع رأى مخالفيه بما يظهر له منه، وإليك بعض المثل لتعرف مقدار تأثر هذا التفسير بمذهب صاحبه الفقهى.

المتعة:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٤) من سورة النساء ﴿**فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ...**﴾ نراه يتأثر بما يراه من حل نكاح المتعة فيحمل الآية على هذا ويجعلها دليلاً على صحة مذهبه وذلك حيث يقول ما نصه: (﴿**فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ**﴾ مهورهن، سمى أجرًا لأنه فى مقابلة الاستمتاع ﴿**فَرِيضَةً**﴾ مصدر مؤكد، فى الكافى عن الصادق، إنما أنزلت: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن فريضة» والعياشى عن الباقر، أنه كان يقرأها كذلك، ورواه العامة أيضًا عن جماعة من الصحابة ﴿**وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ**﴾ من زيادة فى المهر أو الأجل، أو نقصان فيهما، أو غير ذلك مما لا يخالف الشرع، فى الكافى مقطوعًا والعياشى عن الباقر «لا بأس بأن تزيدها وتزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما، تقول: استحللتك بأجل آخر يرضى منها، ولا تحل لغيرك حتى تنقضى عدتها، وعدتها حيضتان ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا**﴾ بالمصالح فيما شرع من الأحكام، فى الكافى عن

(١) (١/ ٩٦).

الصادق، المتعة نزل بها القرآن، وجرت بها السنة من رسول الله ﷺ، وعن الباقر كان على يقول: لولا ما سبقنى به ابن الخطاب ما زنى إلا شفى ـ بالفاء، يعنى إلا قليل ـ أراد أنه لولا ما سبقنى به عمر من نهيه عن المتعة وتمكن نهيه من قلوب الناس، لندبت الناس عليها، ورغبتهم فيها، فاستغنوا بها عن الزنى، فما زنى منهم إلا قليل، وكان نهيه عنها تارة بقوله: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا محرمهما ومعاقب عليهما: متعة الحج، ومتعة النساء، وأخرى بقوله: ثلاث كن على عهد رسول الله ﷺ أنا محرمهن ومعاقب عليهن: متعة الحج، ومتعة النساء، وحى على خير العمل فى الأذان، وفيه جاء عبد الله بن عمر الليثى إلى أبى جعفر فقال له: ما تقول فى متعة النساء، فقال: أحلها الله فى كتابه وعلى لسان نبيه، فهى حلال إلى يوم القيامة، فقال: يا أبا جعفر... مثلك يقول هذا وقد حرمها عمر ونهى عنها، فقال: وإن كان فعل، قال: فإنى أعيذك بالله من ذلك أن تحل شيئًا حرمه عمر، فقال له: فأنت على قول صاحبك وأنا على قول رسول الله ﷺ، فهلم ألاعنك أن القول ما قال رسول الله ﷺ وأن الباطل ما قال صاحبك، وقال: فأقبل عبد الله بن عمر فقال: أيسرك أن نساءك، وبناتك، وأخواتك، وبنات عمك، يفعلن ذلك، فأعرض عنه أبو جعفر حين ذكر نساءه وبنات عمه، وفيه: سأل أبو حنيفة أبا جعفر محمد بن النعمان صاحب الطاق فقال: يا أبا جعفر: ما تقول فى المتعة؟ أتزعم أنها حلال؟ قال: نعم، قال: فما يمنعك أن تأمر نساءك ليستمتعن ويكسبن عليك، فقال أبو جعفر: ليست كل الصناعات يرغب فيها وإن كانت حلالاً، وللناس أقدار ومراتب يرفعون أقدارهم، ولكن ما تقول يا أبا حنيفة فى النبيذ أتزعم أنه حلال؟ قال: نعم؛ قال: فما يمنعك أن تقعد نساءك فى الحوانيت نباذات فيكسبن عليك؟ فقال أبو حنيفة: واحدة بواحدة، وسهمك أنفذ، ثم قال: يا أبا جعفر، إن الآية التى فى (سأل سائل) تنطق بتحريم المتعة(١) والرواية عن النبى قد جاءت بنسخها، فقال أبو جعفر: يا أبا حنيفة، إن سورة (سأل سائل) مكية وآية المتعة مدنية، وروايتك شاذة ردية، فقال أبو حنيفة: وآية الميراث أيضًا

---

(١) يريد قوله تعالى فى الآيتين (٢٩، ٣٠) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

تنطق بنسخ المتعة، فقال أبو جعفر: قد ثبت النكاح بغير ميراث، فقال أبو حنيفة: من أين قلت ذاك؟ فقال أبو جعفر: لو أن رجلاً من المسلمين تزوج بامرأة من أهل الكتاب ثم توفى عنها، ما تقول فيها؟ قال: لا ترث منه، فقال: قد ثبت النكاح بغير ميراث... ثم افترقا، وعن الصادق أنه سأله أبو حنيفة عن المتعة فقال: عن أى المتعتين تسأل؟ فقال: سألتك عن متعة الحج فأنبئنى عن متعة النساء أحق هى؟ فقال: سبحان الله... أما تقرأ كتاب الله ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ قال أبو حنيفة: والله لكأنها آية لم أقرأها قط، وفى الفقه عنه: ليس منا من لم يؤمن بكرتنا ويستحل متعتنا (أقول) الكرة: الرجعة، وهى إشارة إلى ما ثبت عندهم من رجوعهم إلى الدنيا مع جماعة من شيعتهم فى زمن القائم لينصروه، وقد مضت الإشارة إليه فيما سلف، ويأتى أخبار أخر فيها إن شاء الله»[1].

نكاح الكتابيات:

وملا محسن لا يميل إلى حرمة نكاح الكتابيات من اليهود والنصارى، بل نراه يذكر لنا فى تفسيره للآيات التى تتصل بهذا الموضوع أقوال العلماء، ويفيض فى سرده لأقوال المجيزين منهم، ويعقب على أقوال المجيزين بما يدل على أنه مؤيد لعدم الحرمة، ومرتض لقول من يقول بالحل؛ ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢١) من سورة البقرة: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ...﴾ الآية، يقول ما نصه: «﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ لا تزوجوا الكافرات ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ ﴿وَلأَمَةٌ﴾ مملوكة ﴿مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ حرة ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ المشركة بجمالها أو مالها أو حسبها ﴿وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ لا تزوجوا منهم المؤمنات ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ مملوك ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ حر ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ جماله أو ماله أو حاله ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المشركين والمشركات ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ إلى الكفر المؤدى إلى النار، فحقهم أن لا يوالوا ولا يصاهروا ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ إلى فعل ما يوجب الجنة والمغفرة من الإيمان والطاعة ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بأمره وتوفيقه ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ﴾ أوامره ونواهيه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويتعظون، القمى: هى منسوخة بقوله تعالى فى الآية (٥) من سورة

---

(١) (١/ ١٢٦، ١٢٧).

المائدة ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ قال: فنسخ هذه الآية ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ وترك قوله ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ على حاله لم ينسخ؛ لأنه لا يحل للمسلم أن ينكح المشرك، ويحل له أن يتزوج المشركة من اليهود والنصارى، وكذلك قال النعمانى[1] فى كتابه، وكلاهما عد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ من منسوخ النصف من الآيات، ويأتى تمام الكلام فيه فى سورة المائدة إن شاء الله تعالى)[2].

وعندما تكلم عن قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ.....﴾ الآية، يقول ما نصه: «﴿... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فى الفقيه عن الصادق: هن العفائف، والعياشى عن الكاظم أنه سئل ما معنى إحصانهن؟ قال: هن العفائف من نسائهم، وفى الكافى، والمجمع، والعياشى، عن الباقر: أنها منسوخة بقوله ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ (الممتحنة: ١٠) وزاد فى المجمع: وبقوله ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ القمى، أحل الله نكاح أهل الكتاب بعد تحريمه فى قوله فى سورة البقرة ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ قال: وإنما يحل نكاح أهل الكتاب الذين يؤدون الجزية، وغيرهم لم تحل مناكحتهم (أقول): يؤيد هذا الحديث النبوى إن سورة المائدة آخر القرآن نزولاً فأحلوا حلالها وحرموا حرامها، وفى الكافى عن الحسن بن الجهم قال: قال لى أبو الحسن الرضا: يا أبا محمد ما تقول فى رجل يتزوج نصرانية على مسلمة؟ قلت: جعلت فداك، وما قولى بين يديك؟ قال: لتقولن... فإن ذلك تعلم به قولى، قلت: لا يجوز تزوج نصرانية على مسلمة ولا على غير مسلمة، قال: ولم؟ قلت: لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ قال: فما تقول فى هذه الآية ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؟ قلت: فقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ نسخت هذه الآية، فتبسم ثم سكت، وفيه وفى

---

(١) يقصد تفسير النعمانى. (د/ مصطفى الذهبى). (٢) (١/ ٧٣).

الفقيه عن الصادق فى الرجل المؤمن يتزوج النصرانية واليهودية قال: إذا أصاب المسلمة فماذا يصنع باليهودية والنصرانية؟ فقيل: يكون له فيها الهوى، فقال: إن فعل فيمنعها من شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، واعلم أن عليه فى دينه غضاضة، وعن الباقر: لا ينبغى للمسلم أن يتزوج يهودية ولا نصرانية وهو يجد مسلمة حرة أو أمة، وعنه: إنما يحل منهم نكاح البله، وفى الفقيه عنه أنه سئل عن الرجل المسلم يتزوج المجوسية، قال: لا . . . ولكن إن كانت له أمة مجوسية فلا بأس أن يطأها ويعزل عنها ولا يطلب ولدها، وفى رواية: لا يتزوج الرجل اليهودية ولا النصرانية على المسلمة، ويتزوج المسلمة على اليهودية والنصرانية، وفى التهذيب عن الصادق: لا بأس أن يتمتع الرجل باليهودية والنصرانية وعنده حرة، وفيه فى جواز التمتع بهما وبالمجوسية أحبار أخر . . .»[(١)].

وفى سورة الممتحنة عند قوله تعالى فى الآية (١٠) ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ قال ما نصه: «﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ بما يعتصم به الكافرات من عقد ونسب . . . جمع عصمة، والمراد نهى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، القمى عن الباقر فى هذه الآية قال: يقول: من كانت عنده امرأة كافرة ـ يعنى على غير ملة الإسلام ـ وهو على ملة الإسلام فليعرض عليها الإسلام، فإن قبلت فهى امرأته، وإلا فهى بريئة منه، فنهى الله أن يمسك بعصمتها، وفى الكافى عنه قال: لا ينبغى نكاح أهل الكتاب، قيل: وأين تحريمه؟ قال: قوله ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ (أقول): قد مضى فى سورة المائدة ما يخالف ذلك»[(٢)].

فرض الرجلين فى الوضوء وحكم المسح على الخفين:

ويرى صاحبنا أن فرض الرجلين فى الوضوء مسحها لا غلسها، كما يرى عدم جواز المسح على الخفين، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ الآية، نراه يقول بوجوب وصول الماء إلى بشرة سائر الأعضاء كما هو مقتضى الأمر بالغسل والمسح، وعليه فلا يجزئ المسح

(١) (١/ ١٥٣، ١٥٤).

(٢) (٢/ ٣١٠).

على القلنسوة ولا على الخفين، ثم يروى ما جاء فى التهذيب عن الباقر من أن عمر جمع أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم على فقال: ما تقولون فى المسح على الخفين؟ فقام المغيرة بن شعبة فقال: رأيت رسول الله ﷺ يمسح على الخفين، فقال على: قبل المائدة أو بعد المائدة؟ قال: لا أدرى، فقال على: سبق الكتاب الخفين؛ إنما نزلت المائدة قبل أن يقبض بشهرين أو ثلاثة» وهنا يعقب ملا محسن على هذه الرواية فيقول: «أقول: المغيرة بن شعبة هذا هو أحد رؤساء المنافقين من أصحاب العقبة والسقيفة لعنهم الله... ثم يقول: وفى الفقيه روت عائشة عن النبى أنه قال: أشد الناس حسرة يوم القيامة من رأى وضوءه على جلد غيره، وروى عنها أنها قالت: لأن أمسح على ظهر عير بالفلاة أحب إلى من أن أمسح على خفى، ولم يعرف للنبى خف إلا خف أهداه النجاشى وكان موضع ظهر القدمين منه مشقوقًا، فمسح النبى ﷺ على رجليه وعليه خفاه، فقال الناس: إنه مسح على خفيه، على أن الحديث فى ذلك غير صحيح الإسناد. اهـ كلام الفقيه»(١).

وبعد هذا انتقل المؤلف إلى الكلام على فرض الرجلين فى الوضوء، فقال بعدما بين أولاً أن قراءة نصب الأرجل مردودة عندهم: «... ثم دلالة الآية على مسح الرجلين دون غسلهما أظهر من الشمس فى رابعة النهار، وخصوصًا على قراءة الجر، ولذلك اعترف بها جمع كثير من القائلين بالغسل، وفى التهذيب عن الباقر أنه سئل عن قول الله عز وجل ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ على الخفض هى أم على النصب؟ قال: «بل هى على الخفض» ثم قال: (أقول) وعلى تقدير القراءة على النصب، أيضًا، تدل على المسح، لأنها تكون حينئذ معطوفة على محل الرءوس كما تقول: مررت بزيد وعمراً؛ إذ عطفهما على الوجوه خارج عن قانون الفصاحة، بل عن أسلوب العربية... ثم روى من الأخبار عن أهل البيت ما يشهد لمذهبه..»(٢).

الغنائم:

وهو يرى فى الغنائم ما يراه غيره من علماء مذهبه من أن الخمس يقسم إلى ستة سهام: سهم لله، وسهم للرسول، وسهم للإمام، وسهم ليتامى آل الرسول، وسهم

(١) (١/ ١٥٤).
(٢) (١/ ١٥٥).

لمساكينهم، وسهم لأبناء سبيلهم، وسهم الله وسهم الرسول يرثهما الإمام، فيكون للإمام ثلاثة أسهم من ستة... ثم يعلل اختصاص الإمام من الخمس بالأسهم الثلاثة، بأن الله تعالى قد ألزم الإمام بما ألزم به النبى من تربية الأمة، وموتى المسلمين وقضاء ديونهم، وحملهم فى الحج والجهاد، وذلك قول رسول الله ﷺ لما أنزل عليه «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم» فلما جعله الله أبًا للمؤمنين لزمه ما يلزم الوالد للولد، فقال عند ذلك: من ترك مالاً فلورثته، ومن ترك دينًا أو ضياعًا فعلىّ وإلىّ، فلزم الإمام ما لزم الرسول، فلذلك صار له من الخمس ثلاثة أسهم.

والمؤلف يرى أن الله تعالى عوَّض يتامى آل البيت ومساكينهم وأبناء سبيلهم بما خصوا به من هذه السهام عن الصدقات التى حرمت عليهم ومنعوا من أخذها لكونها أوساخ الناس، ويروى فى ذلك أخبارًا كثيرة عن علماء آل البيت»(١).

وعندما فسر المؤلف قوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الحشر ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ الآية، نقل من الكافى عن أمير المؤمنين أنه قال: «نحن والله الذين عنى الله بذى القربى الذين قرنهم الله بنفسه ونبيه فقال: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ منا خاصة ولم يجعل لنا سهمًا فى الصدقة... أكرم الله نبيه وأكرمنا أن يطعمنا أوساخ ما فى أيدى الناس»(٢).

الاستنباط:

ويرى ملا محسن أن الاستنباط لا يجوز لأحد من الأمة إلا للأئمة؛ لأنهم هم المعصومون عن الخطأ، أما من عداهم فليس له هذه العصمة؛ ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨٣) من سورة النساء ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ الآية، يقول ما نصه: «﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ﴾ مما يوجب الأمن والخوف ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ فشوه، قيل: كان قوم من ضعفه المسلمين إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ أو أخبرهم الرسول بما أوحى إليه من وعد بالظفر أو تخويف من الكفرة أذاعوه،

---

(١) (٢/ ٢٤٤).

(٢) (٢/ ٣٠٦).

وكانت إذاعتهم مفسدة ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ ردوا ذلك الأمر ﴿إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ قيل: أي يستخرجون تدبيره بتجاربهم وأنظارهم، فى الجوامع عن الباقر: هم الأئمة المعصومون، والعياشى عن الرضا: يعنى آل محمد عليه وهم الذين يستنبطون من القرآن، ويعرفون الحلال والحرام، وهم حجة الله على خلقه، وفى الإكمال عن الباقر: من وضع ولاية الله وأهل استنباط علم الله فى غير أهل الصفوة من بيوتات الأنبياء فقد خالف أمر الله عز وجل، وجعل الجهال ولاة أمر الله، والمتكلفين بغير هدى زعموا أنهم أهل استنباط علم الله فكذبوه على الله وزاغوا عن وصية الله وطاعته، فلم يضعوا فضل الله حيث وضعه الله تبارك وتعالى، فضلوا وأضلوا أتباعهم، فلا تكون لهم يوم القيامة حجة»[(١)].

موقف المؤلف من مسائل علم الكلام:

والمؤلف كغيره من الشيعة متأثر إلى حد ما بتعاليم المعتزلة وآرائهم الكلامية، فهو يوافقهم فى بعض المسائل، ويخالفهم فى بعض آخر منها، وإنا لنلحظ هذا التأثر فى تفسيره للآيات التى لها ارتباط بالمسائل الكلامية، وإليك بعض المثل التى وافق فيها المعتزلة، وبعض المثل التى خالفهم فيها:

أفعال العباد:

يرى صاحبنا أن العبد يخلق أفعال نفسه، ويوافق برأيه هذا رأى المعتزلة القائلين بخلق العباد أفعال أنفسهم، ولهذا نراه يتأثر بهذه العقيدة فى تفسيره.

فمثلاً عندما فسر قوله تعالى فى الآية (١٢٣) من سورة الأنعام ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا...﴾ الآية، نراه يفر من نسبة هذا الجعل إلى الله تعالى فيقول: «... والمعنى خليناهم وشأنهم ليمكروا ولم نكفهم عن المكر...»[(٢)].

رؤيـــة الله:

كذلك يوافق ملا محسن المعتزلة فى أن رؤية الله تعالى غير جائزة، ولا واقعة؛ ولهذا نراه يتأول آيات الرؤية كما تأولها المعتزلة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة ﴿وُجُوهٌ

---

(١) (١/ ١٣٧).

(٢) (١/ ١٩٦).

يومئذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يقول ما نصه: «﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ القمى: أى مشـرقة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَـا نَاظِرَةٌ﴾ قال: ينظرون إلى وجه الله أى إلى رحمـته ونعمته، وفى العيون عن الرضـا قال: يعنى مشرقة تنـتظر ثواب ربها، وفى التوحيد والاحـتجاج عن أمير المؤمنين فى حديث قال: ينتهى أوليـاء الله بعدما يفرغ من الحساب إلى نهر يسمى الحيوان فيـغتسلون فيه ويشربون منه فـتبيض وجوههم إشراقًا، فـيذهب عنهم كل قذى ووعث، ثم يؤمرون بدخـول الجنة، فمن هذا المـقام ينظرون إلى ربهم، قـال: فذلك قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَـا نَاظِرَةٌ﴾ وإنما نعنى بالنظر إليه النظر إلى ثوابه تبارك وتعالى، وزاد فى الاحتجاج: والناظرة فى بعض اللغة هى المنتظرة ألم تسمع إلى قوله ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (النمل: ٣٥) أى منتظرة»(١).

الشـــــفاعة:

ويخالف المـؤلف المعتـزلة فى القول بالشفـاعة فهـو يرى أنها جائزة وواقـعة يوم القيامة، وأن أهل البيت يشفعون للعصاة من شيعتهم، ولهذا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٨) من سورة البقرة ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ الآية، نراه ينقل من تفسيره الإمام عن الصادق أنه قال: «هذا يوم الموت فإن الشفاعة والفداء لا يغنى عنه، فأما القـيامة فإنا وأهلنا نجزى عن شيعتنا كل جزاء، ليكـونن على الأعراف بين الجنة والنار مـحمـد، وعلى، وفاطمـة، والحسن، والحسين، والطيبون من آلهم، فنرى بعض شيـعتنا فى تلك العرصات، فمن كان منهم مقـصرًا وفى بعض شدائدها فنبـعث عليهم خيـار شيعـتنا كسلمان والمـقداد وأبى ذر، وعمار، ونظرائهم فى العصر الذى يليهم، ثم فى كل عصـر إلى يوم القيامة، فينقضون عليهم كالبزاة والصقور، ويتناولونهم كما تتناول البـزاة والصقور صيدها، فيزفونهم إلى الجنة زفًا، وإنا لنبـعث على آخرين من محبـينا خيار شيعـتنا كالحمام فـيلتقطونهم من العرصات كما يلتقط الطير الحب وينقلونهم إلى الجنان بحضرتنا، وسيؤتى بالواحد من مقصرى شيعتنا فى أعماله بعد أن حاز الولاية والتقية وحقوق إخوانه ويوقف بإزائه مائة أو أكثر من ذلك إلى مائة ألف من النُّصَّاب(٢) فيقال له: هؤلاء فداؤك من النار، فيدخل

---

(١) (٢/ ٢٤١).

(٢) النِّصاب جمع ناصب، والناصب على حسب بيان كتب الشيعة من يقدم الأول والثانى، يعنى أبا بكر وعمر ـ علىَ علىّ، أو يعتقد إمامة الأول والثانى. الوشيعة ص٢٤.

هؤلاء المؤمنون الجنة وأولئك النصاب النار، وذلك ما قال الله عز وجل فى الآية (٣) من سورة الحجر ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى بالولاية ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ فى الدنيا، منقادين للأئمة، ليجعل مخالفوهم من النار فداءهم»[١].

السحر:

كذلك يخالف المؤلف المعتزلة فى القول بالسحر؛ فهو يعترف بحقيقته ولا ينكر أن النبى ﷺ سحر، ولهذا نراه عند تفسيره لسورة الفلق يقول ما نصه: «﴿... وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ومن شر النفوس أو النساء السواحر اللواتى يعقدن عقدًا فى خيوط وينفثن عليها، والنفث: النفخ مع ريق... ثم ذكر الحديث الذى فيه أن رسول الله ﷺ سحر بفعل لبيد بن الأعصم»[٢].

روايته للأحاديث الموضوعة:

ثم لا يفوتنا أن ننبه على أن هذه الأحاديث التى يرويها المؤلف فى تفسيره عن رسول الله ﷺ أو عن أهل البيت كشاهد لصحة ما يقول، هى فى الغالب مكذوبة موضوعة لا أصل لها، وقد مر بك الكثير من هذه الروايات، وهى ناطقة على نفسها بالوضع، فلست فى حاجة إلى بيان وضعها بميزان نقد الرواة، إذ نحن فى غنى عن هذا بعدما حمل الحديث تكذيب نفسه بنفسه فى ثنايا ألفاظه ومعانيه، والمصنف بعد هذا لا يفوته أن يذكر فى نهاية تفسير كل سورة من الروايات عن أهل البيت ما يشهد لفضل هذه السورة، وما أعد الله لقارئها من الأجر والثواب، وفى اعتقادى أن هذه الروايات لا تعدو أن تكون مكذوبة كالروايات المنسوبة إلى أبى وابن عباس فى فضائل السور، وليس بغريب أن يذكر صاحبنا مثل هذه الروايات المكذوبة فى تفسيره بعدما سود كتابه من أوله إلى آخره بالأحاديث الموضوعة على رسول الله ﷺ وعلى آل بيته عليهم رضوان الله.

---

(١) (١/ ٢٣).

(٢) (٢/ ٣٧٦).

٥ - تفســـــير القـــــرآن
للسيد عبد الله العلوى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو السيد عبد الله بن مـحمد رضا، العلوى، الحسينى، الشهير بشبَّـر، ولد بأرض النجف سنة ١١٨٨هـ ثمـان وثمانين ومـائة بعد الألف من الهـجرة النبـوية. . . ثم ارتحل مع والده إلى الكاظميـة ومكث بها إلى أن مـات سنة ١٢٤٢هـ اثنتين وأربعين ومائتـين بعد الألف من الهجرة، كان فى نظر أصحابه من أعـيان الشيعة وفضلائهم، فقيهًا، محدثًا، مفسرًا متبحرًا، جامعًا لعلوم كثيرة، آية فى الأخلاق، تلقى العلم على والده، وعلى الإمام الكبـير السيد مـحسن الأعرجى، وقد تتلمـذ عليه خلق كثير، لأنهم كـانوا يعتبرونه علمًا من أعلام الشـيعة، وشخصية علمـية بارزة لها مكانها ومقدارها، ولقد عكف مدة حياته العلمية على التأليف والتصنيف حتى أخرج للناس مع سنه الذى لم يتجاوز الأربع والخمسين سنة كتبًا كثيرة ومصنفات عديدة نذكر منها:

١ - الدرر المنثورة فى المـواعظ المأثورة عن الله تعالى والـنبى والأئمة الطاهرين عليهم السلام والحكماء.

٢ - رسالة فى حجية خبر الواحد.

٣ - أعمال السنة، كتاب على نمط زاد المعاد للمجلسى.

٤ - رسالة فى حجية العقل والحسن والقبح العقليين.

٥ - مصباح الظلام فى شرح مفاتيح شرائع الإسلام.

٦ - قصص الأنبياء.

٧ - البرهان المبين فى فتح أبواب علوم الأئمة المعصومين.

٨ - كتاب شرح نهج البلاغة.

٩ - صفوة التفاسير فى ستين ألف بيت.

١٠- الجوهر الثمين فى تفسير القرآن المبين. . فى مجلدين فى ثلاثين ألف بيت.

١١- التفسـير الوجـيز مجلد واحد فى ثمانية عشر ألف بيت، ولعل هـذا التفسير

هو الذى فى أيدينا، وهناك مؤلفات أخرى كثيرة مذكورة فى ترجمته لا نطيل بذكرها»[١].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير يجرى على مذهب الإمامية الاثنى عشرية، من حمل ألفاظ القرآن الكريم على معان تتفق وأصول المذهب وتعاليمه، مع شيء من التعصب والغلو فى التنويه بشأن أهل البيت والحط من قدر الصحابة الذين يعتبرهم غير موالين لعلى وذريته، والكتاب مختصر فى ألفاظه، موجز فى عباراته، مع تضمنه للمعانى الكثيرة الدقيقة، فهو أشبه ما يكون بتفسير الجلالين من جهة إفادة المعانى الكثيرة، والنكات الخفية الدقيقة، بعبارة سهلة موجزة.

ولقد حرص المؤلف فيه على أن يكون جل اعتماده على ما ورد من التفسير عن أهل البيت، وإن كان لا يعزو كل قول إلى قائله فى الغالب، كما حرص على أن ينصر مذهبه ويدافع عنه سواء فى ذلك ما يتعلق بأصول المذهب أو بفروعه، وهو بعد ذلك يشرح الآيات التى لها صلة بمسائل علم الكلام شرحًا يتفق أحيانًا كثيرة مع مذهب المعتزلة، وأحيانًا مع مذهب أهل السنة، وذلك راجع إلى أنه يأخذ بمذهب المعتزلة فى بعض المسائل، وبمذهب أهل السنة فى بعض آخر منها، شأن الكثير الغالب من علماء الإمامية الاثنى عشرية، ثم لا يفوت المؤلف فى تفسيره هذا أن يشير إلى بعض مشكلات القرآن التى ترد على ظاهر النظم الكريم، ثم يجيب عنها، كما لا يفوته أن يكشف لنا عن كثير من النكات اللفظية والبيانية والمعنوية، مع الخوض أحيانًا فى المعانى اللغوية والمسائل النحوية، كل هذا ـ كما قلت ـ فى أسلوب ممتع لا يمل قارئه من تعقيد ولا يسأم من طول.

ولقد وصف المؤلف تفسيره هذا، وبين مسلكه فيه فقال فى مقدمته:

«هذه كلمات شريفة، وتحقيقات منيفة، وبيانات شافية، وإشارات وافية، تتعلق ببعض مشكلات الآيات القرآنية، وغرائب الفقرات الفرقانية، وتتحرى غالبًا ما ورد عن خزان أسرار الوحى والتنزيل، ومعادن جواهر العلم والتأويل، الذين نزل فى بيوتهم

(١) انظر ترجمته فى روضات الجنات ص٣٧٤، وترجمته الموجودة بأول الكتاب لتلميذه السيد محمد معصوم.

جبرائيل، بأوجز إشارة، وألطف عبارة، وفيما يتعلق بالألفاظ والأغراض والنكات البيانية تفسير وجيز، فإنه ألطف التفاسير بيانًا وأحسنها تبيانًا مع وجازة اللفظ وكثرة المعنى».

هذا، وقد أتم المؤلف تفسيره هذا ـ كما قال فى خاتمته ـ فى جمادى الأولى سنة ١٢٣٩هـ تسع وثلاثين ومائتين بعد الألف من الهجرة، والكتاب مطبوع فى مجلد واحد كبير الحجم، وموجود بدار الكتب المصرية، وإليك بعض ما يكشف عن منهج هذا التفسير.

تعصب المؤلف لأصول مذهبه وأثر ذلك فى تفسيره:

هذا، وإن المؤلف بحكم عقيدته وهواه يتأثر فى تفسيره بتعاليم الإمامية الاثنى عشرية وأصول مذهبهم، فلا يكاد يمر بآية يلمح منها حجة لمذهبه أو دفعًا لمذهب مخالفيه إلا فسرها كما يحب ويهوى.

الإمامة:

فمثلاً نراه يتأثر بعقيدته فى الإمامة عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ فيذكر أنها «نزلت فى على عليه السلام حين سأل سائل وهو راكع فى صلاته فأومأ إليه بخنصره فأخذ خاتمه منها» ويدعى إطباق أكثر المفسرين على ذلك واستفاضة الروايات فيه من الجانبين ـ جانب الموافقين وجانب المخالفين ـ ثم يقول بعد ذلك: «وتدل ـ يعنى الآية ـ على إمامته دون من سواه؛ للحصر وعدم اتصاف غيره بهذه الصفات، وعبر عنه بصيغة الجمع تعظيمًا، أو لدخول أولاده الطاهرين»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة المائدة أيضًا ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**...﴾ الآية، يروى عن أهل البيت وابن عباس وجابر: «أن الله أوحى إلى نبيه أن يستخلف عليًا، فكان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه فنزلت، فأخذ بيده فقال: ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى... قال: من كنت مولاه فعلى مولاه»(٢).

---

(١) ص ٢.   (٢) ص ٢٦٤.

كل إمام يوصى لمن بعده:

ويدين المؤلف بأن أمر الإمامة ليس موكولاً لأحد من الناس، بل كل إمام يوصى لمن بعده، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٨) من سورة النساء ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...**﴾ الآية، يعترف بأن الأمر يعم كل مكلف وكل أمانة... ثم يقول: «وعنهم عليهم السلام أنه أمر لكل واحد من الأئمة أن يسلم الأمر لمن بعده»(١).

وفى سورة الأحزاب عند قوله تعالى فى الآية (٣٦) ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ...**﴾ الآية، يقول: (وفيه رد على من جعل الإمامة بالاختيار»(٢). اهـ.

وجود الأئمة فى كل زمان وعصمتهم، ووجوب الرجوع إليهم عند الاختلاف دون غيرهم:

ولما كان المؤلف يرى أنه لا يخلو كل زمان من إمام، وأن الأئمة لهم من الله العصمة كالأنبياء وليس هذا لغيرهم، فإنه يوجب الرجوع إليهم عند الاختلاف وعدم وجود نص من الكتاب أو السنة، أما من عداهم من الناس فلا يصح الرجوع إليه بحال من الأحوال، لأن غير المعصوم لا يرجع إليه، ولا يؤخذ برأيه فى مسائل الخلاف:

يقول المؤلف هذا ويدين به فنجده يتأثر به فى تفسيره، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة النساء ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ...**﴾ الآية، يقول: «دل على وجود أولى الأمر فى كل زمان، بحيث يجب طاعتهم لعلمهم وفضلهم، وعصمتهم، ولا ينطبق إلا على مذهب الإمامية... وعنهم عليهم السلام: إيانا عنى خاصة... أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ**﴾ أيها المأمورون ﴿**فِي شَيْءٍ**﴾ من أمور الدين ﴿**فَرُدُّوهُ**﴾ فراجعوا فيه ﴿**إِلَى اللَّهِ**﴾ إلى محكم كتابه ﴿**وَالرَّسُولِ**﴾ بالأخذ لسنته، والمراجعة إلى من أمر بالمراجعة إليه، فإنها رد إليه، وقرئ: فإن خفتم تنازعًا فى شىء فردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أولى الأمر منكم...»(٣).

---

(١) ص ٢٠٣. (٢) ص ٨٧٣. (٣) ص ٢٠٤.

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨٣) من سورة النساء أيضًا ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم...﴾ يقول: «﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم﴾ هم آل محمد عليهم السلام ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ يستخرجون تدبيره بأفكارهم وهم آل محمد عليهم السلام...»(١).

الرجعة:

والمؤلف يدين بالرجعة ويتأثر بها فمثلا فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة ﴿هدى للمتقين (٢) الذين يؤمنون بالغيب﴾ نجده يفسر الغيب «بما غاب عن حواسهم من معرفة الصانع، وصفاته، والنبوة، وقيام القائم، والرجعة، والبعث، والحساب، والجنة، والنار».

ومثلاً فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة البقرة أيضًا ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ يقول: «... وفيه حجة على صحة البعث والرجعة».

التقية:

ولتأثر المؤلف بعقيدته نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة آل عمران ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة...﴾ الآية، يقول: «... رخص لهم إظهار موالاتهم إذا خافوهم مع إبطان عداوتهم وهى التقية التى تدين بها الإمامية، ودلت عليها الأخبار المتواترة وقوله: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾(٢).

تحريف القرآن:

كذلك نجد شبرًا يعتقد بأن القرآن بدل وحرف، ولما اصطدم بقوله تعالى فى الآية (٩) من سورة الحجر ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ نجده يتفادى هذا الاصطدام بالتأويل فيقول: «﴿وإنا له لحافظون﴾ عند أهل الذكر واحدًا بعد واحد إلى القائم، أو فى اللوح... وقيل: الضمير للنبى»(٣).

(١) ص ٢١٠، ٢١١.
(٢) ص ١٢٩.
(٣) ص ٥٤٦.

آيات العتاب:

والمؤلف يكبر عليه معاتبة الله لنبيه محمد ﷺ على أمر من الأمور، فيحاول بكل ما يستطيع أن يحول العتاب إلى غير النبى ﷺ .

فمثلاً عتاب الله لنبيه ﷺ فى شأن ابن أم مكتوم يشق على شبر أن يكون مقصودًا به النبى، فنراه يقتصر على ما روى عن أهل البيت من أن آيات العتاب «نزلت فى رجل من بنى أمية، كان عند النبى ﷺ فجاء ابن أم مكتوم فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه»(١) .

طعنه على الصحابة:

وإنا لنلاحظ على المؤلف أنه يطعن على الصحابة ويرميهم بالكفر أو ما يقرب منه، ويجردهم من كل فضل نسب إليهم فى القرآن تنقيصًا لهم، وحطًا من قدرهم.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٠) من سورة التوبة ﴿**ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا**﴾ الآية، نجده يعرض عن تعيين هذا الذى صحب النبى ﷺ فى هجرته، وهو أبو بكر، ثم يصرح أو يلمح بما ينقص من قدره، أو يذهب بفضله المنسوب إليه والمنوه به فى القرآن الكريم فيقول: «﴿**ثَانِيَ اثْنَيْنِ**﴾ حال أى معه واحد لا غير ﴿**إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ**﴾ نقب فى ثور، وهو جبل بقرب مكة ﴿**إِذْ**﴾ بدل ثان ﴿**يَقُولُ لِصَاحِبِهِ**﴾ ولا مدح فيه إذ قد يصحب المؤمن الكافر كما قال: ﴿**قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ**﴾ **(الكهف: ٣٧)** ﴿**لا تَحْزَنْ**﴾ فإنه خاف على نفسه وقبض واضطرب حتى كاد أن يدل عليهما فنهاه عن ذلك ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ عالم بنا ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ...**﴾ إلى قوله ﴿**إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ**﴾ **(المجادلة: ٧)** أى عالم بهم ﴿**فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ**﴾ طمأنينته ﴿**عَلَيْهِ**﴾ على الرسول... وفى إقراة ﷺ ههنا مع اشتراك المؤمنين معه حيث ذكرت ما لا يخفى، وجعل الهاء لصاحبه ينفيه كونها للرسول قبل وبعد... إلخ»(٢) .

---

(١) ص١١٩١ .

(٢) ص ٤١٧، ٤١٨ .

تعصبه لآل البيت:

ولقد مر بنا عند قراءتنا فى هذا التفسير، الكثير مما يدل على تعصب المؤلف لآل البيت تعصبًا ممقوتًا مرذولاً، فتارة نجده يصرف اللفظ العام إلى على ﷺ، كما فعل فى الآية (٤) من سورة التحريم عند قوله تعالى ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** ﴾ فإنه صرف لفظ (صالح المؤمنين) من عمومه وادعى أنه خاص بأمير المؤمنين على، عليه السلام، كما ادعى رواية العامة والخاصة لذلك[(١)].

كما نجده يحاول أن يأخذ من القرآن ما يدل على أن آل البيت كانوا معروفين لدى الأمم السابقة وأنبيائهم يتوسلون إلى الله، فيكشف عنهم الغمة، ويزحزح عنهم الكربة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٤) وما بعدها من سورة البقرة ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ...** ﴾ إلى آخر القصة، نجده يدعى أن السجود لآدم إنما كان (لما فى صلبه من نور محمد ﷺ وأهل بيته) ويدعى أن الكلمات التى تلقاها آدم من ربه ليتوب عليه هى (التوسل فى دعائه بمحمد ﷺ وآله الطيبين)[(٢)].

ومثل هذا التعصب كثير فى مواضع من هذا التفسير.

علم القرآن كله عند آل البيت:

والمؤلف يدعى - كغيره من الإمامية الاثنى عشرية - أن علم القرآن كله عند أهل البيت دون غيرهم، وإنا لنجد أثر هذا واضحًا فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة آل عمران ﴿ **... وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ...** ﴾ الآية، وذلك حيث يقول: «﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ** ﴾ تأويل القرآن كله الذى يجب أن يحمل عليه ﴿ **إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** ﴾ الثابتون فيه ومن لا يختلف فى علمه... عن الصادق عليه السلام: نحن الراسخون فى العلم، ونحن نعلم تأويله، ومن وقف من الجمهور على الله؛ فسر المتشابه بما استأثر الله تعالى بعلمه كوقت قيام الساعة ونحوه»[(٣)].

---

(١) ص ١١٣٥.   (٢) ص ١٩، ٢٠.   (٣) ص ١٩، ٢٠.

تأثر المؤلف فى تفسيره بفروع الإمامية الفقهية:

ثم إن المؤلف يجرى فى تفسيره لآيات الأحكام على وفق ما يأخذ به ويميل إليه من اجتهادات فقهاء الإمامية.

نكاح المتعة:

فمثلاً نجده يتأثر برأيه الذى يقول بجواز نكاح المتعة وعدم نسخه، فنراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٤) من سورة النساء ﴿ ... وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ... ﴾ الآية، يقول: «... والمراد به نكاح المتعة بإجماع أهل البيت، ويدل عليه قراءة أبى وابن عباس وابن مسعود «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى» ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن ﴿فَرِيضَةً﴾ من الله ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ من استئناف عقد آخر بعد انقضاء المدة بزيادة فى الأجر والمدة»[١].

فرض الرجلين فى الوضوء:

ولما كان المؤلف يرى أن فرض الرجلين فى الوضوء هو المسح لا الغسل، فإنا نراه يشير إلى ذلك عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ...﴾ الآية، فيقول: «﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ بالجر كما عن حمزة وابن كثير وأبى عمرو... ونصبه الباقون عطفا على رءوسكم محلا»[٢].

الغنائم:

كذلك يقول المؤلف بما يقول له علماء مذهبه فى تفسير خمس الغنائم، ويجرى على مذهبه فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤١) من سورة الأنفال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ...﴾ الآية، فيقول: «﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ خبر محذوف، أو مبتدأ، أى فالحكم أو فواجب أن لله خمسه ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ الإمام ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ يتامى الرسول ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ منهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ منهم..»[٣].

---

(١) ص ١٢٢. (٢) ص ٢٤٦.

(٣) ص ٣٩٥.

وفى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الحشر ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾ الآية، يقـول مثل ما قاله فى الآية السابقة وينبه على أنه مر فى الأنفال نحوه[١].

ميراث الأنبياء:

ونجد شبرًا يقول بأن الأنبياء يورثون المال كـسائر الناس، ولهذا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٥، ٦) من سورة مريم ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ يقـول ما نصه: «﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ الذين يلونى فى النسب، وهم بنو عمه ﴿مِن وَرَائِي﴾ بعد موتى أن يرثوا مالـى فيصرفوه فيمـا لا ينبغى، إذ كانوا أشرارًا ﴿وَكَـانَتِ امْـرَأَتِي عَاقِرًا﴾ لا تلد ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ ابنًا ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾... إلى آخره»[٢].

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ الآية، يقول ما نصه: «وورث سليمان داود مـاله وهلكه. وقيل: نبوته وعلمه، بأن قام مقامه فى ذلك دون سائر بنيه وهم تسعة عشر، والأول مروى»[٣].

نكاح الكتابيات:

ولكن نرى المـؤلف فى مـسألة نكاح الكتـابيـات يميل إلـى القول بالحل وعـدم الحرمة؛ ففى قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية، يقول: «﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَـبْلِكُمْ﴾ ظاهره حل نكاح كل كتابـية ذمية أو حربية، دائمًـا، أو منقطعًا، أو ملكًا، فيـخص آية ولا تنكحوا المـشركات إن شـملت الكتابية، وعن الـباقر عليـه السلام أنه منسوخ بتلك»[٤]. اهـ.

(١) ص ١١٠٧.
(٢) ص ٦٣٤.
(٣) ص ٧٨٨.
(٤) ص ٢٤٥.

وعند قوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة الممتحنة ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ نراه يمر عليها بدون أن يتعرض لهذا الموضوع أصلاً.

تأثره بمذهب المعتزلة فى تفسيره:

والمؤلف كغيره من علماء الإمامية الاثنى عشرية ينظر إلى بعض المسائل الكلامية نظرة المعتزلة إليها، ويقول بما يقولون به فى كثير من أمور العقائد، كما يخالف أهل الاعتزال فى بعض منها ويقول بما يقول به أهل السنة، وإننا لنلمس أثر ذلك واضحا جليًا فى تفسيره لكتاب الله تعالى.

حرية الإرادة وخلق الأفعال:

فمثلاً نجد المؤلف يوافق المعتزلة فى أن العبد حر فى إرادته، خالق لأفعاله كلها، ولهذا نراه كلما اصطدم بآية من الآيات التى تدل على أن الله هو الذى يخلق أفعال العباد، لجأ إلى التأويل الذى يتفق مع عقيدته هذه.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة البقرة ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ نراه يفر من نسبة الختم إلى الله تعالى ويقول: «﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ وسمها بسمة يعرفها من يشاء من ملائكته وأوليائه، إذا نظروا إليها علموا بأنهم لا يؤمنون، وعن الرضا عليه السلام: الختم هو الطبع على قلوب الكفار عقوبة على كفرهم، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ (النساء: ١٥٥) ﴿ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ غطاء، أقول: ويمكن أن يكون تهكمًا حكاية لقولهم ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ (فصلت: ٥) أو فى الآخرة، والتعبير بالماضى لتحققه، ويشهد له قوله ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ (الإسراء: ٩٧)»(١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠٨) من سورة الأنعام ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ... ﴾ الآية، نراه يفر من نسبة التزيين إلى الله فيقول: «﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ أى لم نكفهم حتى حسن عندهم سوء عملهم، أو أمهلنا الشيطان حتى زينه لهم»(٢).

---

(١) ص ٨، ٩. (٢) ص ٣١٧.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١٢) من السورة نفسها ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ... ﴾ الآية، يتخلص من نسبة الجعل هنا الى الله تعالى بتأويله بالتخلية فيقول: «أسند الجعل إليه تعالى لأنه بمعنى التخلية، أى لم يمنعهم العداوة»(١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢٥) من السورة نفسها ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ الآية، نراه يخرج من هذه الورطة بإرادة معنى اللطف والخذلان فيقول: «﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ ﴾ أى يلطف به ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ بأن يفسح فيه وينور قلبه ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ أى يمنعه ألطافه حتى ينبو عن قبول الحق فلا يدخله الإيمان...»(٢).

رؤيـــــة الله:

ولقد تأثر المؤلف أيضًا فى تفسيره باعتقاده بعدم رؤية الله وعدم وقوعها ولهذا لما فسر قوله تعالى فى الآية (١٤٣) من سورة الأعراف ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ... ﴾ الآية، قال ما نصه: «﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ روى لما كرر سؤال الرؤية أوحى الله إليه: يا موسى سلنى ما سألوك فلن أؤاخذك بجهلهم... قال: ﴿ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ علق على المحال ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ أى أظهر له أمره واقتداره أو نورة وعظمته... ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ تنزيهًا لك عما لا يليق بك من الرؤية وغيرها ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ من طلب الرؤية، أو السؤال بلا إذن ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بأنك لا تُرى»(٣).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ يقول: «ناظرة إلى رحمته وإنعامه»(٤).

---

(١) ص ٣١٨.
(٢) ص ٣٢٢.
(٣) ص ٣٦٧.
(٤) ص ١٧٤؛

غفران الذنوب:

ولما كان المؤلف يخالف المعتزلة فى بعض معتقداتهم، فإنا نراه يفسر الآيات التى يستندون إليها فى بعض عقائدهم بخلاف تفسيرهم لها، فلا يرى المؤلف أنه يجوز فى حق الله تعالى أن يغفر الذنوب ـ إلا الشرك ـ بدون توبة من العبد تفضلاً منه ورحمة، وهذا ما لا يقول به المعتزلة؛ فلهذا نجده يجرى على هذه العقيدة فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٨) من سورة النساء ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ فيقول: «﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ**﴾ أى الشرك ﴿**بِهِ**﴾ بدون توبة للإجماع على غفرانها بها ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ**﴾ ما سواه من الذنوب بدون توبة ﴿**لِمَن يَشَاءُ**﴾ تفضلاً، ومقتضاه الوقوف بين الخوف والرجاء»[١].

وهكذا نجد هذا الكتاب يجمع بين الاختصار وسهولة العبارة مع كثير من التعصب للمذهب الشيعى، والدفاع عن أصوله وفروعه.

* * *

(١) ص ٣٠.

٦- بيان السعادة فى مقامات العبادة
لسلطان محمد الخراسانى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو سلطان محمد بن حيدر الجنابذى الخراسانى أحد متطرفى الإمامية الاثنى عشرية فى القرن الرابع عشر الهجرى (١).

قيمة هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه

يعطينا هذا التفسير لونًا آخر من ألوان التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية، وذلك لأن كل ما تقدم لنا من كتبهم فى التفسير يكاد يكون متفقًا على لون واحد، وهو نقل ما جاء فى التفسير عن الأئمة وآل البيت، وما كان من تفاوت بينهما فهو لا يعدو أن يكون تفاوتًا بمقدار ما بين مؤلفيها من اعتدال فى التشيع أو غلو فيه، وبمقدار ما بينهم من تفاوت فى القدرة على تأييد مذهبهم وتدعيم أصوله بالأدلة والبراهين.

أما هذا الكتاب الذى نحن بصدده فقد سلك مؤلفه فيه مسلكًا غير هذا المسلك، مما جعل له لونًا مخالفًا للون تلك الكتب السابقة؛ ذلك أن المؤلف وإن كان يعتقد كغيره من علماء مذهبه أن علم القرآن كله عند الأئمة، إلا أنه لم يعتمد فى تفسيره على هذه الناحية كل الاعتماد، بل نراه يمزج بها التفسير الصوفى الذى يقوم على الرموز والإشارات، كما يخلط بالتفسير كثيرًا من البحوث الفلسفية الدقيقة، والذى يقرأ هذا الكتاب ويتتبع ما فيه من الشطحات الصوفية العميقة فى إدراكها، الغريبة فى لفظها وأسلوبها، لا يسعه إلا أن يحكم على الكتاب بأنه مغلق فى إدراك معانيه، عسير فى فهم مراده ومراميه، وأنا إذ أحكم على الكتاب هذا الحكم لا أكون مغاليًا ولا متجنيًا فيما حكمت، فكثيرًا ما قرأت فيه العبارة المرة بعد المرة، ولا أخرج منها إلا بالمعنى القاصر المبتور، بعد أن يرتد إلىَّ البصر خاسئًا وهو حسير، ويرجع الذهن عاجزًا عن الفهم وهو كليل. . . وربما أكون واهمًا فى هذا الحكم؛ لقصور معرفتى باصطلاحات القوم، وعدم وقوفى على أصول مذهبهم ومرامى رموزهم التى يرمزون بها. . . ولو

---

(١) لم نقف له على ترجمة أكثر من هذا.

تيسر لى ذلك لجاز أن يكون لى حكم على هذا التفسير مغاير لهذا الحكم، ورأى فيه مخالف لهذا الرأى.

والذى نلحظه فى هذا التفسير بعد ذلك: أنه يدافع عن أصول مذهبه ويطيل فى دفاعه، مع تعصب كبير، وتطرف بالغ إلى درجة الغلو والعناد، أما فروع المذهب ومسائله الاجتهادية الفقهية، فيمر عليها مرّا سريعًا بدون تفصيل للأدلة وبيان لوجهة النظر، كما نلحظ فيه أنه لا يقتصر على النقل من تفاسير الشيعة بل ينقل من تفاسير أهل السنة أيضًا كالبيضاوى وغيره، وكثيرًا ما ينقل بعض العبارات الفارسية لبعض العلماء كشاهد على ما يقول.

وبالجملة، فالكتاب يكاد يكون فى جملته تفسيرًا جاريًا على النمط الذى يجرى عليه الصوفية فى تفاسيرهم، ويظهر أن مؤلفه كان يقصد هذا اللون الصوفى فى تفسيره أولاً وبالذات؛ يدلنا على ذلك هذه العبارة التى نقتطفها من مقدمة تفسيره وهى قوله: «... وقد كنت نشيطًا منذ أوان اكتسابى للعلوم وعنفوان شبابى بمطالعة كتب التفاسير والأخبار ومدارستها، ووفقنى الله تعالى لذلك، وقد كان يظهر لى بعض الأحيان من إشارات الكتب وتلويحات الأخبار لطائف ما كنت أجدها فى كتاب ولا أسمعها من خطاب، فأردت أن أثبتها فى وريقات، وأجعلها نحو تفسير للكتاب، لتكون تذكرة لى ولإخوانى المؤمنين، وتنبيهًا لنفسى ولجملة الغافلين، راجيًا من الله أن يجعلها لى ذخيرة ليوم الدين، ولسان صدق فى الآخرين وهو جدير بأن يسمى: بيان السعادة فى مقامات العبادة»(١).

فأنت ترى أن المؤلف يقرر هذه العبارة أن تفسيره هذا عبارة عن مجموعة تلك الإشارات والتلويحات التى فتح الله بها عليه ولم يسبق إليها فلو أنا جعلناه ضمن تفسير الصوفية لما كنا بعيدين عن وجهة الحق والصواب، ولكنا آثرنا أن نجعله ضمن تفاسير الإمامية الاثنى عشرية؛ لما فيه من اللون المذهبى والأثر الشيعى البالغ حد التطرف والغلو حتى فى ناحيته الصوفية والفلسفية، والكتاب مطبوع فى جزأين، وموجود بدار الكتب المصرية، وفى آخره ما يدل على أن مؤلفه فرغ منه سنة ١٣١١هـ.

---

(١) (١/ ٣).

وأرى قبل كل شـىء أن أسوق للقارئ الكريم أهـم الآراء التى يقول بها الـمصنف ويجهر بها فى مقدمة تفسـيره، ثم أعرض بعد هذا لتوضيح مسلكه الذى سلكه فى هذا التفسير بما أذكره ضمن النماذج المختلفة، وإليك أهم هذه الآراء:

الإمامية الاثنا عشرية والمهدى المنتظر:

يدين صاحبنا بأن عليّا أول العترة، ووارث علم مـحمد ﷺ، وبعده الأحد عشر من ولده، وأن الحادى عشر منهم غـائب قائم منتظر لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج ويملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما ملئت ظلمًا وجورًا، وأن هؤلاء الاثنى عشر أئمة وشفعاؤه يوم القيامة... (١).

القرآن والعترة:

ويعتـقد المؤلـف أن القرآن دليل العتـرة، وأن العترة مـبينون للقـرآن، ويقول: إن القرآن إمـام صامت، والعـترة إمـام ناطق، كمـا يقول: «إن مـحبـة العالم من العـترة وتعظيمـه، والنظر إليه، والجلوس عنده، واستـماع قوله وسـماعه، والتدبر فى أفـعاله وأحواله وأخـلاقه، والتفكر فى شئـونه والتسليم له ولمتـشابهات مـا منه، وتخلية بيت القلب لنزوله بملكوته فيه، بملاحظة أنه حـبل الله الممدود إلى الناس من غير عناد منه من أعظم العـبـادات، كـذلك تعظيم القـرآن، والنظر فى سـوره، واسـتمـاع كلمـاته وسماعها، والتدبر فى عباراته، والتفكر فى إشاراته ولطائفه، وتخلية بيت القلب لتجلى حقائقه، واتباع أحكامه وتسليم متشابـهاته من أعظم العبادات إذا كان بلحاظ كونه حبلا ممدودًا من الله»(٢).

علم القرآن جميعه عند محمد والأوصياء:

ويعتقـد المؤلف أن علم القرآن جمـيعه عند النبى ﷺ والأئمـة، أما من عداهم فعلمـهم بمعـانى القرآن قاصـر لا يبلغ المبلغ الذى خص به النبـى والأئمة، وذلك فى نظره راجع إلى تفاوت المقامات التى يتفاوت العلم بتـفاوتها، ونظرية تفاوت المقامات التى يتفاوت من أجلها العلم بمعانى القرآن، نظرية فلسفـية صوفية شيعية، وإليك نص عبارة المؤلف فى الفصل العاشر من مقدمة كتابه لتكون على بصيرة بها:

---

(١) (١/ ٢).

(٢) (١/ ٢).

يقول المؤلف ما نصـه: «الفصل العاشر: أن علم القرآن بتمام مـراتبه منحصر فى محمد ﷺ وأوصيائه الاثنى عشر وليس لغـيرهم إلا بقدر مقامه، قد مضى أن بطون القرآن وحقـائقه كثيرة متـعددة، وأن بطنه الأعلى وحقيقـته العليا هو محمدية مـحمد، وعلوية على، وهو مـقام المـشيـئة الـتى هى فوق الإمكان، وكل نبى ووصى كـان لا يتجاوز مقامه الإمكان سوى محمد ﷺ وأوصيائه، ومن لم يبلغ إلى مقام المشيئة لا يعلم ما فـيه ولا يتبين من ذلك المـقام شيئًـا، لأن المفسر لا يتـجاوز فى تفسـيره حد نفسه، فكل من علم مـن القرآن شيئًا أو فسـر منه شيئًا وإن بلغ من المـقامات لا يكون علمه وتفسيره بالنسبة إلى علم القرآن إلا كقطرة من بحر محيط؛ فإن حقيقة القرآن التى هى حقيقة محمد وعـلى هى مقام الإطلاق الذى لا نهاية له، والممكن وإن كان أشرف الممكنات الذى هو العقل الكلى يكون محدودًا، ولا يتصـور النسبة بين المحدود وغير المتناهى الغير محدود، فعلم كل عالم ومفسر للقرآن بالنسبة إلى علم القرآن كقطرة إلى البحار، ولما كان مقام محمد ﷺ وعلى وأولاده المـعصومين مقام المشيئة كان علم القرآن كله عندهم، وكان على هو من عنده علم الكتاب كما فى الآية بإضافة العلم إلى الكتاب المفيد للاستـغراق، وكان آصف هو الذى عنده علم من الكتاب، وكان إبراهيم ابتلاه ربه بكلمـات معدودة لا بجـملة الكلمات، مع أنه كان أكـمل الأنبياء بعـد نبينا، وكان محمد ﷺ يؤمن بالله وكلماته جميعًا فى قوله تعالى ﴿**فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ**﴾(الأعـــراف: ١٥٨) فإن الكلمـات جمع مضاف مـفيد للاستـغراق، وليس المـراد به الإيمان الإجـمالى وإلا لشـاركه غيـره فيـه، بل الإيمان التفصيلى، والإيمان التفصيلى لا يكون إلا بإدراك المؤمن به شهودًا وعيانًا»[١].

تحريف القرآن وتبديله:

والمؤلف يذكر لنا رأيه بوضـوح فى تحريف القرآن وتبديله فيقـول ما نصه: (اعلم أنه قد استفاضت الأخبار عن الأئمة الأطهار بوقوع الـزيادة والنقيصة والتحريف والتغيير فيه بحيث لا يكاد يقع شك فى صدور بعضها منهم وتأويل الجميع بأن الزيادة والنقيصة والتغيـير إنما هى فى مدركاتهم من القرآن لا فى لفظ القـرآن كلفة، ولا يليق بالكاملين

(١) (١/ ١٠).

فى مخاطباتهم العامة؛ لأن الكامل يخاطب بما فيه حظ العوام والخواص، وصرف اللفظ عن ظاهره من غير صارف، وما توهموه صارفًا من كونه مجموعًا عندهم فى زمن النبى، وكانوا يحفظونه ويدرسونه، وكانت الأصحاب مهتمين بحفظه عن التغيير والتبديل، حتى ضبطوا قراءات القراء وكيفيات قراءاتهم.

فالجواب عنه: أن كونه مجموعًا غير مسلم، فإن القرآن نزل فى مدة رسالته إلى آخر عمره نجومًا، وقد استفاضت الأخبار بنزول بعض السور وبعض الآيات فى العام الآخر، وما ورد من أنهم جمعوه بعد رحلته، وأن عليّا جلس فى بيته مشغولاً بجمع القرآن، أكثر من أن يمكن إنكاره، وكونهم يحفظونه ويدرسونه مُسَلَّم، لكن كان الحفظ والدرس فيما كان بأيديهم، واهتمام الأصحاب بحفظه وحفظ قراءات القراء وكيفيات قراءاتهم كان بعد جمعه وترتيبه، وكما كانت الدواعى متوفرة فى حفظه، كذلك كانت متوفرة من المنافقين فى تغييره، وأما ما قيل: إنه لم يبق لنا حينئذ اعتماد عليه، والحال أنا مأمورون بالاعتماد عليه، واتباع أحكامه، والتدبر فى آياته، وامتثال أوامره ونواهيه، وإقامة حدوده، وعرض الأخبار عليه، لا يعتمد عليه صرف مثل هذه الأخبار الكثيرة الدالة على التغيير والتحريف عن ظواهرها؛ لأن الاعتماد على هذا المكتوب ووجوب اتباعه، وامتثال أوامره ونواهيه، وإقامة حدوده وأحكامه، إنما هى للأخبار الكثيرة الدالة على ما ذكر، للقطع بأن ما بين الدفتين هو الكتاب المنزل على محمد ﷺ من غير نقيصة وزيادة وتحريف فيه، ويستفاد من هذه الأخبار: أن الزيادة والنقيصة والتغيير إن وقعت فى القرآن لم تكن مخلة بمقصود الباقى منه، بل نقول: كان المقصود الأهم من الكتاب الدلالة على العترة والتوسل بهم، وفى الباقى منه حجتهم أهل البيت، وبعد التوسل بأهل البيت إن أمروا باتباعه كان حجة قطعية لنا ولو كان مغيرًا تغييرًا مخلاً بمقصوده، وإن لم نتوسل بهم أو لم يأمروا باتباعه، وكان التوسل به، واتباع أحكامه، واستنباط أوامره ونواهيه، وحدوده، وأحكامه، من قبل أنفسنا كان من قبيل التفسير بالرأى الذى منعوا منه، ولو لم يكن مغيرًا»[1].

(١) (١/ ١٢).

نزول القرآن فى شأن الأئمة وأشياعهم وأعدائهم:

ويرى المؤلف أن القرآن نزل بتمامه فى الأئمة الاثنى عشر بوجه، ونزل فيهم وفى أعدائهم بوجه، ونزل أثلاثًا: ثلث فيهم وفى أعدائهم، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام... بوجه، أو ثلث فيهم وفى أحبائهم، وثلث فى أعدائهم، وثلث سنة ومثل... بوجه، ونزل أرباعًا: ربع فيهم، وربع فى عدوهم، وربع سنن وأمثال، وربع فرائض وأحكام... بوجه... ويرى أن كل هذا قد أشعرت به الأخبار الواردة عن أهل البيت، ويوجه ذلك فيقول: «لما كان جميع الشرائع الإلهية والكتب السماوية لتصحيح الطريق الإنسانية، وتوجيه الخلق إلى الولاية، وكان أصل المتحققين بالطريق الإنسانية والولاية والمتحقق بالولاية المطلقة محمدًا ﷺ وعليًا وأولادهما، صح أن يقال: جملة الشرائع الإلهية وجميع الكتب السماويبة نزلت فيهم وفى توجيه الخلق إليهم، وهو أيضًا وصف وتبجيل لهم، ولما كان كثير من آيات القرآن نزلت فيهم تصريحًا أو تعريضًا أو تورية، وما كان فى أعدائهم لم يكن المقصود منه إلا الاعتبار بمخالفيهم والانزجار عن مخالفتهم ليكون سببًا للتوجه إليهم ولمعرفة قدرهم وعظمة شأنهم، وكان سائر آيات الأمر والنهى والقصص والأخبار لتأكد السير على الطريق الإنسانية إلى الولاية، صح أن يقال: جميع القرآن نزل فيهم، ولما كان القرآن مفصلاً يكون بعض آياته فيهم وفى محبتهم، وبعضها فى أعدائهم ومخالفيهم، وبعضها سننًا وأمثالاً، وبعضها فرائض وأحكامًا، صح أن يقال: نزل القرآن فيهم وفى أعدائهم، أو نزل أثلاثًا أو أرباعًا والآية الدالة على أخبار الأخيار والأشرار الماضين، كلها تعريض بالأئمة وأخيار هذه الأمة وأشرارهم، مع قطع النظر عن رجوعها إليهم وإلى أعدائهم بسبب كونهم أصلاً فى الخير وكون أعدائهم أصلاً فى الشر، بل يقول: كل آية ذكر فيها خير كان المراد بها أخيار الأمة، وكل آية ذكر فيها شر كان المراد بها أشرار الأمة؛ لكون الآية فيهم أو تعريضًا بهم، أو لكونهم وكون أعدائهم أصلاً فى الخير والشر»(١).

هذه أهم آراء المصنف التى يراها فى القرآن وتفسيره ومفسريه، وإليك بعض النماذج التى توضح لك الطريقة التى جرى عليها المصنف فى تفسيره، ومقدار تأثره بنزعته الصوفية، وهواه الشيعى.

---

(١) (١/ ١٣).

من التفسير الصوفى:

قلنا: إن هذا التفسير يغلب عليه الطابع الصوفى لكثرة ما فيه من التأويلات الإشارية، والشطحات الصوفية، والمواجيد التى نقرؤها للمؤلف فى تفسيره للآيات القرآنية، وإليك بعض المثل لتعرف مقدار طغيان هذه الناحية على باقى النواحى فى هذا التفسير.

فمثلاً عندما تكلم عن قوله تعالى فى الآية (٧٥) من سورة النساء ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾ يقول عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ...** ﴾ الآية «إن كان النزول فى ضعفاء قرية فلا اختصاص لها بهم كما فى الخبر، فالقرية مكة وكل قرية لا يجد الشيعة فيها وليّا من الإمام ومشايخهم، وكل قرية وقع بها الأئمة بين منافقى الأمة، وقرية النفس الحيوانية التى لا يجد الجنود الإنسانية فيها وليّا ويطلبون الخروج منها إلى قرية الصدر ومدينة القلب، ويسألون الحضور عند إمامهم أو مشايخهم فى بيت القلب خاليًا عن مزاحمة الأغيار بقولهم ﴿ **وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾ تكرار اجعل، لأن مقام التضرع والابتهال يناسبه التطويل والإلحاح فى السؤال، ولأن المسئول ليس شخصًا واحدًا ولو كان واحدًا لم يكن مسئولاً من جهة واحدة، بل المسئول محمد ﷺ وعلى، أو المسئول محمد من جهة هدايته ومن جهة نصرته، أو على كذلك».

«وقد بقى بين الصوفية أن يكون التعليم والتلقين بتعاضد نفسين متوافقتين، يسمى أحد الشخصين هاديًا والآخر دليلاً، والشيخ الهادى له الهداية وتولى أمور السالك فيما ينفعه ويجذبه، والشيخ الدليل ينصره لمدافعة الأعداء، ويخرجه عن الجهل والردى بدلالة طريق التوسل إلى شيخ الهدى، وفى الآية إشارة إلى أن السالك ينبغى له أن يطلب دائمًا حضوره عند شيخه بحسب مقام نورانيته ومقام صدره، وهو معنى انتظار ظهور الشيخ فى عالم الصغير وأما ظهور الشيخ بحسب بشريته على بشرية السالك، فلا يصدق عليه أنه من لدن الله، وإذا ظهر الشيخ بحسب النورانية كان وليّا من لدن الله ونصيرًا من لدنه»(١).

(١) (١/ ٢١١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨٧) من سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ بقوله: «. . . اعلم أن الإنسان ذو مراتب عديدة بعضها فوق بعض إلى ما لا نهاية له، والتكاليف الإلهية الواردة عليه ليست لمرتبة خاصة منه بل - كما عرفت سابقًا - للمفاهيم الواردة فى التكاليف مصاديق متعددة بتعدد مراتب الإنسان، وبعضها فوق بعض، فكل ما ورد فى الشريعة المطهرة من الألفاظ فهى مقصودة من حيث مفاهيمها العامة باعتبار جميع مصاديقها بحيث لا يشذ عنها مصداق من المصاديق، فالإنسان بحسب مرتبته النباتية له محللات إلهية، وبحسب مرتبته الحيوانية أخرى، وبحسب الصدر أخرى، وبحسب القلب أخرى، وبحسب الروح أخرى، والتحريم الإلهى فى كل مرتبة بحسبه، وكذا تحريم الإنسان على نفسه، فالمحللات بحسب مرتبته الحيوانية والنباتية: ما أباح الله له من المأكول، والمشروب، والملبوس، والمركوب، والمنكوح والمسكن، والمنظور، وبحسب الصدر: ما أباح الله له من الأفعال الإرادية، والأعمال الشرعية، والتدبيرات المعادية والمعاشية، والأخلاق الجميلة، والمكاشفات الصورية، وبحسب القلب: ما أباح الله له من الأعمال القلبية، والواردات الإلهية، والعلوم اللدنية، والمشاهدات المعنوية الكلية. . . وهكذا فى سائر المراتب، والطيبات من ذلك فى كل مرتبة: ما تستلذه المدارك المختصة بتلك المرتبة، ومطلق المباح فى كل مرتبة طيب بالنسبة إلى مباح المرتبة الدانية منه، وأن الله تعالى يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه، ولا يحب الشره والاعتداء فى رخصه بحيث يؤدى إلى الانتقال إلى ما هو حرام محظور بأصل الشرع، أو بحيث يؤدى إلى صيرورة المباح حرامًا بفرض التجاوز عن حد الترخيص بالإكثار فيه، كما لا يحب الامتناع عن رخصه، فمعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تمتنعوا من الرخص، ولا تحرموا بقسم وشبهة، ولا بكسل ونحوه، على أنفسكم ما تستلذه المدارك بحسب كل مرتبة وقوة مما أباحه الله لكم؛ لأن الله يحب أن يرى عبده مستلذًا بما أباحه له، كما يجب أن يراه مستلذًا بعباداته ومناجاته، ولا تمتنعوا بالاكتفاء بمستلذات المرتبة الدانية عن مستلذات المرتبة العالية، فإنه يحب أن يرى عبده مصرًا على طلب مستلذات المرتبة العالية، كما يحب أن يراه

فى هذه الحالة معرضًا عن مباحات المرتبة الدانية، مكتفيًا بضرورياتها وراجحاتها، ولا تعتدوا عما أباح الله إلى ما حظره، وفى المباح إلى حد الحظر، والآية إشارة إلى التوسط بين التفريط والإفراط فى كل الأمور من الأفعال والطاعات والأخلاق والعقائد والسير إلى الله، فإن المطلوب من السائر إلى الله يكون واقعًا بين إفراط الجذب وتفريط السلوك. . . ».

ثم بعد ذلك فسر قوله تعالى ﴿ **وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ** ﴾ (المائدة: ٨٨) بما يشبه التفسير السابق. . . ثم بعد ذلك ذكر أن الآية نزلت فى على وبلال وعثمان بن مظعون، فأما على فحلف أن لا ينام بالليل، وأما بلال فحلف أن لا يفطر بالنهار أبدًا، وأما عثمان بن مظعون فإنه حلف أن لا ينكح أبدًا، فلما علم بذلك رسول الله خرج على الناس ونادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ما بال أقوام يحرمون على أنفسهم الطيبات؟ إنى أنام الليل وأنكح وأفطر بالنهار، فمن رغب عن سنتى فليس منى، فقام هؤلاء فقالوا: يا رسول الله. . . فقد حلفنا على ذلك، فأنزل الله آيات الحلف. . . ثم استشكل المؤلف على هذه الرواية إشكالين: **أولهما:** أن مثال هذه المعاتبات ونسبة التحريم والاعتداء والتقوى ولغو الإيمان غير مناسبة لمقام على، **وثانيهما:** أن عليّا إما كان عالمًا بأن تحريم الحلال إن كان بالاستبداد والرأى كان من البدع والضلال، وإن كان بالنذر وشبهه ـ كما دل عليه الخبر ـ كان مرجوحًا غير مرضى لله تعالى، ومع ذلك حرمه على نفسه، أو كان جاهلاً بذلك، وكلا الوجهين غير لائق بمقامه. . . ثم أجاب عن هذين الإشكالين بجواب كله من قبيل النظرات الصوفية فقال: «والجواب الجلى لطالبى الآخرة والسالكين إلى الله، الذين بايعوا عليّا بالولاية، وتابعوه بقدم صدق، واستشهوا نفحات نشأته حال سلوكه أن يقال: إن السالك إلى الله يتم سلوكه باستجماعه بين نشأتى الجذب والسلوك، بمعنى توسطه بين تفريط السلوك الصرف، وإفراط الجذب الصرف، فإنه إن كان فى نشأة السلوك فقد جمد طبعه ببرودة السلوك حتى يقف عن السير، وإن كان فى نشأة الجذب فقط، فنى بحرارة الجذب عن أفعاله وصفاته وذاته، بحيث لا يبقى منه أثر ولا خبر، وهو وإن كان فى روح وراحة، لكنه

ناقص كمال النقص من حيث إن المطلوب منه حضوره بالعودة لدى ربه مع جنوده، وخدمه، وأتباعه، وحشمه، وهو طرح الكل، وتسارع بوحدته، فالسالك إلى الله تكميله مربوط بأن يكون فى الجذب والسلوك منكسرًا برودة سلوكه بحرارة جذبه، فالجذب والسلوك كالليل والنهار وكالصيف والشتاء، من حيث إنهما يربيان المواليد بتضادهما، فهما ـ مع كونهما متنازعين ـ متآلفان متوافقان.

إذا علمت ذلك، فاعلم أن السالك إذا وقع فى نشأة الجذب، وشرب من شراب الشوق الزنجبيلى، سكر وطرب ووجد، بحيث لا يبقى فى نظره سوى الخدمة للمحبوب، وكل ما رآه منافيًا للخدمة رآه ثقلاً ووبالاً على نفسه ومكروها لمولاه، فيصمم فى طرحه، ويعزم على ترك الاشتغال به، وهو من كمال الطاعة لا أنه ترك الطاعة كما يظن، فلا ضير أن يكون أمير المؤمنين حال سلوكه وقع فى تلك النشأة، وحرم على نفسه كل ما يشغله عن الخدمة؛ لكمال الاهتمام بالطاعة، ولما لم يكن تحصيل الكمال التام إلا بالجمع بين النشأتين، أسقاه محمد ﷺ من شراب السلوك، لأنه كان مكملاً مربيًا له ولغيره، ولذا قالوا: لأن يكون للسالك شيخ وإلا فيوشك أن يقع فى الورطات المهلكة، ولا منقصة فى أمثال هذه المعاتبات على الأحباب، بل فيها من اللطف والترغيب فى الخدمة ما لا يخفى، وعلىٌّ كان عالمًا بأن الكمال لا يحصل إلا بالنشأتين، لكنه يرى حين الجذب أن كل ما يشغله عن الخدمة فهو مكروه المحبوب، ومرجوح عنده، فحلف على ترك المرجوح، أو يقال: إن عليًا لما كان شريكًا للرسول ﷺ فى تكميل السلاك لقوله: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى» وكان له شأن الدلالة، ولمحمد شأن الإرشاد، والمرشد بنشأته النبوية شأنه تكميل السالك بحسب نشأة السلوك، وإن كان بنشأته الولوية وشأن الإرشاد شأنه التكميل بحسب الجذب، والدليل بنشأته الولوية شأنه التكميل بحسب نشأة الجذب، وإن كان بنشأته النبوية وشأن الدلالة شأنه التكميل بحسب السلوك فالدليل بولايته يقرب السالك إلى الحضور، ويعلمه آداب الحضور، وطريق العبودية من عدم الالتفات إلى ما سوى المعبود، وطرح جميع العوائق من طريقه، والمرشد بنبوته يبعده عن الحضور، ويقربه إلى السلوك، ويرغبه فيه، فهما فى فعلهما كالنشأتين: متضادان متوافقان، فأمير

المؤمنين لما رأى بلالاً وعثمان مستعدين لنشأة الجذب؛ رغبهما إلى تلك النشأة بطرح المستلذات وترك المألوفات، وشاركهما فى ذلك ليستكمل بذلك شوقهما ويتم جذبهما، ولما مضى مدة ورأى الرسول أن عودهما إلى السلوك أوفق وأنفع لهما، ردهما إلى نشأة السلوك، وعابتهما بألطف عتاب، ولا يرد نقص على أمير المؤمنين، ولما قالوا بعد عتابه: قد حلفنا.. نزل ﴿ **لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ** ﴾ **(البقرة: ٢٢٥)** وهو الذى يؤتى به للتاكيد فى الكلام كما هو عادة العوام... إلخ»(١).

فأنت ترى من هذين المثالين السابقين، أن المؤلف يفيض فى الناحية الصوفية فى تفسيره للآيات، كما أنه لم يخل تفسيره الصوفى من التشيع لعلى وذريته بل ومن اتخاذه مخرجًا يخرج به من الإشكالات التى ترد عليه.

من التفسير الفلسفى:

كذلك نجد المؤلف فى كثير من الأحيان يخلط البحوث الفلسفية بتفسيره للآيات القرآنية، فمثلاً فى أول سورة الإسراء نراه يحقق أن المعراج كان بجسده وروحه عليه السلام، ويرد على الفلاسفة الذين ينكرون ذلك، ويقدم لبحثه هذا بمقدمة كلها نظريات فلسفية مخلوطة ببعض خرافات منسوبة إلى الإمام على ﷺ، وذلك حيث يقول:

«العالم ليس منحصرًا فى هذا العالم المحسوس المعبر عنه بعالم الطبع بسماواته وأراضيه، بل فوقه البرزخ، وهو عالم بين عالم الطبع وعالم المثال، وله الحكومة على عالم الطبع والتصرف فيه أى تصرف شاء، من الإحياء، والإماتة، وإيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، وستر المحسوس، وإظهار غير المحسوس بصورة المحسوس، ومنه طى الأرض، والسير على الماء والهواء، والدخول فى النار سالمًا، وقلب الماهيات، ومنه طى الزمان، كما ورد فى الأخبار أنه قال المعصوم لمنافق: اخسأ، فصار كلبًا، وقال لآخر: أنت امرأة بين الرجال، فصار امرأة، وأنكر آخر قلب الماهيات عند المعصوم، فسار إلى نهر ليغتسل فدخل الماء وارتمس(٢) فخرج ورأى نفسه امرأة على ساحل بحر قرب قرية منكورة، فدخلت القرية وتزوجت وعاشت مدة وولدت لها أولاد... ثم خرجت لتغتسل فى البحر فدحلت الماء وارتمست فخرجت على ساحل

(١) (١/ ٢٤٩ - ٢٥١).

(٢) ارتمس من الارتماس وهو الانغماس.

النهر المعهود وهو رجل وإذا بثيابه موضوعة كما وضعها، فلبسها ودخل بيته وأهله غير شاعرين بغيبته لقصر الزمان، وأمثال ذلك رويت عن التابعين لهم على الصدق، وهذا من قبيل بسط الزمان إن كان وقوعه فى عالم الملك، كما نقل أن امرأة وقع لها ذلك فأخبرت وأنكرها جماعة فأتيت بأولادها بعد ذلك من بلدة بعيدة، مع أنه لم يمض فى بلدها قدر ساعة، أو من قبيل البسط فى الدهر من غير تصرف فى الزمان إن كان وقوعه فى الملكوت، وفوق البرزخ عالم المثال، وله التصرف فى البرزخ والطبع، وفوقه عالم النفوس الكليات المُعَبَّرُ عنها بالمدبرات أمرًا، وفوقه الأرواح المُعَبَّرُ عنها بالصافات صفا؛ ويعبر عنها فى لسان الإشرافيين بأرباب الأنواع وأرباب الطلسمات، وفوقها العقول المُعَبَّرُ عنها بالمقربين، وفوقها الكرسى، وفوقه العرش، وهو سرير الملك المتعال، وهما بين الوجوب والإمكان لا واجبان ولا ممكنان، بل فوق الإمكان وتحت الوجوب، وكل من تلك العوالم له الإحاطة والتصرف والحكومة على جميع ما دونه، فإذا غلب واحد من تلك العوالم على ما دونه صار ما دونه بحكمة، وذهب عنه حكم نفسه.

ثم اعلم أن الإنسان مختصر من تلك العوالم، وله مراتب بإزاء تلك العوالم، وكل مرتبة عالية لها الحكومة على ما دونها من غير فرق، كما نشاهده من حكومة النفس على البدن والقوى، لكن تلك المراتب فى أكثر الناس بالقوة، وما بالفعل من النفس المجردة التى هى بإزاء عالم النفوس ضعيفة غاية الضعف، بحيث لا يمكنها التصرف فى بدنها زائدًا على ما جعله الله فى جبلتها، فكيف بغير بدنها؟ فإذا صار بعض تلك المراتب بالفعل كما فى أكثر الأنبياء والأولياء، أو جميعها كما فى خاتم الأنبياء وصاحبى الولاية الكلية، كان لهم التصرف فى أبدانهم بأى نحو شاءوا، وفى سائر أجزاء العالم، كما روى عن الأنبياء والأولياء من طى المكان والزمان، والسير على الماء والهواء، ودخول النار، وإحياء الموتى، وإماتة الأحياء، وقلب الماهيات، وغير ذلك مما لا ينكر تمامها لكثرتها، وتواتر الأخبار بمجموعها وإن كان آحادها غير متواترة، وأما التصرف فى البدن الطبيعى بحيث يخرجه عن حكم الإمكان ويدخله فى عالم العرش الذى هو فوق الإمكان وفوق عالم العقول والملائكة المقربين، كما روى

أن جبريل تخلف عن الرسول ﷺ فى المعراج، وقال: لو دنوت أنملة لاحترقت، مع أنه من عالم العقول المقربين، فهو من خواص خاتم الكل فى الرسالة والنبوة والولاية، وهو من خواص نبينا ﷺ لا يشاركه فيه غيره لا نبى مرسل ولا خاتم الأولياء، ولذلك جعلوا المعراج الجسمانى بالكيفية المخصوصة من خواصه ﷺ ، ولما كان المعراج بتلك الكيفية أمرًا لا يتصور أمر فوقه من الممكن، وكان لا يتيسر إلا إذا غلب العالم الذى فوق الإمكان على البدن الطبيعى، ولا تتيسر تلك الغلبة بسهولة ولكل أحد وفى كل زمان، قالوا: إن المعراج للنبى ﷺ كان مرتين؛ مع أنه نسب إلى بعض العرفاء أنه قال: إنى أعرج كل ليلة سبعين مرة، والمعراج بالروح أمر يقع لكثير من الرياضيين، بل ورد أن الصلاة معراج المؤمن.

إذا تقرر ذلك نقول: إنه عرج ببدنه الطبيعى وعليه عباءة إلى بيت المقدس، ومنه إلى السموات، ومنها إلى الملكوت، ومنها إلى الجبروت، ومنها إلى العرش الذى هو فوق الإمكان، وفى هذا السير تخلف جبريل عنه ﷺ ؛ لأنه كان من عالم الإمكان، ولم يكن له طريق إلى ما فوق الإمكان؛ لأن الملائكة كل له مقام معلوم لا يتجاوزه، بخلاف الإنسان، ولم يكن منه ذلك المعراج إلا مرتين كما فى الأخبار، ولا يلزم منه خرق السماوات؛ لارتفاع حكم الملك عن بدنه بغلبة الملكوت ـ ولا استغراب فى عروج البدن الطبيعى إلى الملكوت والجبروت ـ ولسقوط حكم الملك بل حل الإمكان عنه مع بقاء عينه، ولا غرو فى كثرة وقائعه فى المعراج؛ فإنه من بسط الدهر مع قصر الزمان كما قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧) وقال أيضًا: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: ٤) فقدر ساعة من الدهر بإزاء ساعة من الزمان تكون كألف ساعة من الزمان أو خمسين ألف ساعة...»[(١)]. اهـ.

ومثلاً عن تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢١) من سورة الحجر: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ يقول ما نصه: «اعلم أنه قد يطلق الشىء ويراد به ما يساوق الموجود، فيشمل الحق الأول تعالى شأنه، وقد يطلق ويراد به المشىء وجوده، فلا يشمل الحق الأول، ولا حضرة الأسماء ولا حضرة الفعل الذى هو مبدأ إضافته، ويشمل الممكنات كلها

---

(١) (١/ ٤١٩).

من حضرة العقول المعبر عنها بالأقلام العالية والملائكة المقربين، وحضرة الأرواح المعبر عنها بأرباب الأنواع والصافات صفًا، وحضرة النفوس الكلية المعبر عنها بالأرواح الكلية المحفوظة والمدبرات أمرًا، وحضرة النفوس الجزئية المعبر عنها بألواح المحو والإثبات وبعالم المثال باعتبارين، ويشمل موجودات عالم الطبع تمامًا، وكل ما فى تلك الحضرات له حقيقة فى حضرة الأسماء وحقيقة فى حضرة الفعل والإضافة الإلهية الإشراقية، وكل ما فى حضرة الفعل له حقيقة أيضًا فى حضرة الأسماء، وكل ما فى حضرة الأرواح له حقيقة فى حضرة الأقلام، وحقيقة فى حضرة الفعل، وحقيقة فى حضرة الأسماء، وهكذا حضرة النفوس الكلية وما فيها، وحضرة النفوس الجزئية وما فيها، وعالم الطبع وما فيه، وبعبارة أخرى: كل دان له صورة بالاستقلال فى العالى، وصورة بالاستقلال فى عالى العالى، وصورة بتبع العالى فى عالى العالى، فلكل شىء من الممكنات حقائق فى حضرة الأسماء استقلالاً وتبعًا، وهكذا فى حضرة الفعل، وهكذا فى حضرة الأقلام إلى عالم المثال، وكل تلك الحضرات من حيث إنها عوالم مجردة عن المادة وأغشيتها، تسمى عند الله، ولدن الله؛ لحضورها فى محضره، ولما كانت تلك الحقائق محفوظة عن التغير والتبدل كالأشياء النفسية المخزونة المحفوظة، سماها تعالى بالخزائن، فكل ما فى عالم الملك له حقيقة فى عالم المثال، ينزله - تعالى شأنه - من عالم المثال إلى عالم الملك بقدر استعداد المادة لقبوله وحين استعدادها، وهكذا من النفوس الكلية إلى عالم المثال، وهكذا الأمر فى العالى والأعلى إلى حضرة الأسماء، ولما كان موجودات عالم الملك متجددة بالتحدد الذاتى، بمعنى أنها كل آن فانية عن ذواتها، وموجودة بموجدها كما حقق فى محله، فما من شىء مما فى عالم الملك إلا ويفنى آنًا فآنًا، وينزله تعالى من خزائنه آنًا فآنًا، فلذلك قال: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾»(١).

آل البيت والأمم السابقة:

ومما نلاحظه على المؤلف أنه يذكر لنا من الأخبار ما يدل على أن محمدًا ﷺ وآل بيته كانوا معروفين عند الأمم السابقة، وكان لهم أشياع وأتباع يوالونهم، ويتوسلون بهم، وينالهم الخير والبركة بسبب حبهم.

---

(١) (١/ ٤٠٢، ٤٠٣).

وهذه الروايات لا نعتقد إلا أنها من قبيل الخرافات التى تسلطت على عقول أولئك القوم، ومن هذه الروايات ـ مثلاً ـ ما ذكره المؤلف فى قصة قتيل بنى إسرائيل المذكورة فى قوله تعالى فى الآية (٦٧) وما بعدها من سورة البقرة ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً** ﴾ الآيات إلى آخر القصة، من أن موسى جمع أماثل القبيلة التى وجد القتيل فيها، وألزمهم أن يحلف خمسون منهم بالله القوى الشديد إله بنى إسرائيل بفضل محمد وآله الطيبين على البرايا أجمعين ما قتلناه ولا علمنا له قاتلاً (١).

وبعد ذلك بقليل يذكر أنهم طلبوا هذه البقرة المذكورة بأوصافها فى القرآن فلم يجدوها إلا عند شاب من بنى إسرائيل أراه الله فى منامه محمدًا وعليًا وطيبى ذريتهما فقالا: إنك لنا محبًا مفضلاً، ونحن نريد أن نسوق إليك بعض جزائك فى الدنيا، فإذا راموا شراء بقرتك فلا تبعها إلا بأمر أمك، فإن الله يلقنها ما يغنيك وعقبك، وجاء القوم يطلبون بقرته؛ فقالوا: بكم تبيع بقرتك هذه؟ قال: بدينارين والخيار لأمى، قالوا: رضينا بدينار، فسألها، فقالت: بأربعة، فأخبرهم، فقالوا: نعطيك دينارين، فأخبر أمه، فقالت: ثمانية... فما زالوا يطلبون على النصف مما تقول أمه، ويرجع إلى أمه فتضعف الثمن حتى بلغ ثمنها ملء مسك ثور أكبر ما يكون دنانير، فأوجب لهم البيع فذبحوها وما كادوا يفعلون(٢).

وبعد ذلك بقليل يقول: «وفى تفسير الإمام أن أصحاب البقرة ضجوا إلى موسى وقالوا: افتقرت القبيلة، وانسلخنا بلجاجنا عن قليلنا وكثيرنا، فأرشدهم موسى إلى التوسل بنبينا ﷺ، فأوحى الله إليه: ليذهب رؤساؤهم إلى خربة بنى فلان ويكشفوا عن موضع كذا ويستخرجوا ما هناك، فإنه عشرة آلاف ألف دينار، وليردوا على كل من دفع من ثمن هذه البقرة ما دفع، لتعود أحوالهم على ما كانت، ثم ليتقاسموا بعد ذلك ما يفضل وهو خمسة آلاف ألف دينار على قدر ما دفع كل واحد منهم، لتتضاعف أموالهم جزاء على توسلهم بمحمد وآله، واعتقادهم لتفضيلهم»(٣).

كما يروى «أنهم توسلوا إلى الله تعالى بالنبى محمد وآله عند ضربهم للقتيل ببعض البقرة، لأجل أن يحييه لهم فاستجاب، وأن القتيل بعد حياته توسل إلى الله بمحمد وآله أن يبقيه فى الدنيا متمتعًا بابنة عمه، ويجزى عنه أعداءه، ويرزقه رزقًا كثيرًا طيبًا،

---

(١) (١/ ٥٧). (٢) (١/ ٥٨). (٣) (١/ ٥٨).

فوهب له سبعين سنة زيادة على السنين التى عاشها قبل ذلك، وعاش فى الدنيا صحيحة حواسه، قوية شهواته، متمتعًا بحلال الدنيا، وعاش معها لم يفارقها ولم تفارقه، وماتا جميعًا معًا، وصارا إلى الجنة وكانا فيها زوجين ناعمين»[١].

قصص القرآن:

وإنا لنجد المؤلف يقرر فى غير موضع من كتابه: أن القصص القرآنى وما ورد فى شروحه من الروايات على اختلافها وتضاربها، ليس المقصود منه ظاهره الذى يتبادر إلى الذهن، بل هى من قبيل المرموزات التى رمزوا بها لأشياء يعلمونها ويريدونها، كما يقرر أن من يريد حملها على الظاهر فلا بد وأن يتحير فيها، وليس يمكن له أن يصل إلى حقيقتها، والمقصود منها بمجرد قوته البشرية: فعندما تكلم على قصة آدم فى أول البقرة وجدناه يقول: «ولما كان قصة آدم وخلقته، وأمر الملائكة بسجدته، وإباء إبليس عن السجود، وهبوطه من الجنة، وبكائه فى فراق الجنة وفراق حواء، وخلقته حواء من ضلع الجنب الأيسر، وغروره بقول الشيطان وحواء، وكثرة نسله، وحمل حواء فى كل بطن ذكرًا وأنثى، وتزويج كل بطن لذكر البطن الآخر من مرموزات الأوائل، وقد كثر ذكره فى كتب السلف خصوصًا كتب اليهود وتواريخهم، وردت أخبارنا مختلفة فى هذا الباب اختلافًا كثيرًا، مرموزًا بها إلى ما رمزوه، ومن أراد أن يحملها على ظاهرها تحير فيها، ومن رام أن يدرك المقصود بقوته البشرية والمدارك الشيطانية منها طرد عنها، ولم يدرك منها إلا خلاف مدلولها»[٢]..

وبعد أن يقرر المؤلف هذا نراه يكشف لنا عن تلك الأمور المرموز إليها فى القصة، لا بقوته البشرية؛ فإنها عاجزة عن إدراكها كما يقول، بل بقوته الروحية التى تستلهم المعارف من الله، وذلك حيث يقول فى أثناء تفسيره للقصة نفسها: «اعلم أن قصة خلق آدم وحواء من الطين ومن ضلعه الأيسر، وأمر الملائكة بالسجود لآدم، وإباء إبليس عن السجدة، وإسكان آدم وحواء الجنة، ونهيهما عن أكل شجرة من أشجارها، ووسوسة إبليس لهما، وأكلهما من الشجرة المنهية، وهبوطهما، من المرموزات المذكورة فى كتب الأمم السالفة وتواريخهم كما ذكرنا سابقًا، فالمراد بآدم فى العالم

---

(١) (١/ ٥٨).
(٢) (١/ ٤٢).

الصغير: اللطيفة العاقلة الآدمية، الخليفة على الملائكة الأرضيين، وعلى الجنة والشياطين المطرودين عن وجه أرض النفس والطبع، المسجودة للملائكة، المخلوقة من الطين، الساكنة فى جنة النفس الإنسانية، وهى أعلا من مقام النفس الحيوانية المخلوق من ضلع جنبها الأيسر الذى يلى النفس الحيوانية زوجتها المسماة بحواء لكدورة لونها بقربها من النفس الحيوانية، والمراد بالشجرة المنهية: مرتبة النفس الإنسانية التى هى جامعة لمقام الحيوانية والمرتبة الآدمية، والمراد بالحية واختفاء إبليس بين لحييها: القوة الواهمة؛ فإنها لكونها مظهراً لإبليس، تسمى بإبليس فى العالم الصغير، ووسوسته تزيينها ما لا حقيقة له للجنب الأيسر من آدم المعبر عنه بحواء، وهبوط آدم وحواء عبارة عن تنزيلهما إلى مقام الحيوانية، وهبوط الحية وذريتهما: عبارة عن تنزلهما عن مقام التبعية لآدم؛ فإن إبليس لما كان الواهمة أحد مظاهره كان رفعتها رفعته، وشرافتها باستخدام آدم لها شرافته، وهبوط الواهمة كان هبوطًا له، وإذا أريد بالشجرة: النفس الإنسانية ارتفع الاختلاف من الأخبار؛ فإن النفس الإنسانية شجرة لها أنواع الثمار والحبوب، وأصناف الأوصاف والخصال؛ لأن الحبوب والثمار وإن لم تكن بوجود ذاتها العينية الدانية الموجودة فيها لكن الكل بحقائقها موجودة فيها، فتعيين تلك الشجرة بشيء من الحبوب والثمار، والعلوم والأصناف بيان لبعض شئونها، روى فى تفسير الإمام: أنها شجرة علم محمد وآل محمد الذين آثرهم الله تعالى دون سائر خلقه، فقال الله تعالى: «لا تقربا هذه الشجرة... شجرة العلم؛ فإنها لمحمد وآله دون غيرهم، ولا يتناول منها بأمر الله إلا هم، ومنها ما كان يتناوله النبى ﷺ، وعلى، وفاطمة، والحسن، والحسين بعد إطعامهم المسكين، واليتيم، والأسير، حتى لم يحسوا بجوع، ولا عطش، ولا تعب، ولا نصب، وهى شجرة تميزت من بين سائر الأشجار بأن كلا منها إنما يحمل نوعًا من الثمار، وكانت هذه الشجرة وجنسها تحمل البر، والعنب، والتين، والعناب، وسائر أنواع الثمار، والفواكه والأطعمة، فلذلك اختلف الحاكون... فقال بعضهم: برة، وقال آخرون: هى الشجرة التى من تناول منها بإذن الله ألهم علم الأولين والآخرين من غير تعلم، ومن تناول بغير إذن الله خاب مراده وعصى ربه.

أقول: آخر الحديث يدل على ما قالته الصوفية من أن السالك ما لم يتم سلوكه، ولم ينته إلى مقام الفناء، ولم يرجع إلى الصحو بعد المحو بإذن الله، لم يجز له الاشتغال بالكثرات ومقتضيات النفس زائدًا على قدر الضرورة، وشجرة علم محمد وآل محمد إشارة إلى مقام النفس الجامع لكمالات الكثرة والواحدة»[١].

وفى سورة البقرة أيضًا عندما تكلم عن قصة هاروت وماروت يقول: «اعلم أن أكثر قصص سليمان كان من مرموزات الأوائل، وأخذها المتأخرون بطريق الأسمار، وأخذوا منها ظاهرها الذى لا يليق بشأن الأنبياء، وورد عن المعصومين تقرير ما أخذوه أسمارًا نظرًا إلى ما رمزها الأقدمون، وأمثال هذه ورد عنهم تكذيبها نظرًا إلى ظاهر ما أخذها العوام، وتصديقها نظرًا إلى ما رمزوا إليه. . . »[٢].

وفى أول سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ الآية، يقول: «لما كان تلك الحكاية وأمثالها من مرموزات الأوائل من الأنبياء والأولياء والحكماء التابعين لهم، وحملها العوام من الناس على ظاهرها، اختلفت الأخبار فى تصديقها وتقريرها وتكذيبها وتوهينها فإن فى كيفية خلقه آدم وتناسلهما وتناكحهما وتناكح أولادهما، وكذا فى قصة هاروت وماروت، وقصة داود، وغير ذلك، اختلافًا كثيرًا فى الأخبار، واضطرابا شديدًا، بحيث يورث التحير والاضطرابات لمن لا خبرة له، حتى يكاد يخرج من الدين، ولكن الراسخين فى العلم يعلمون أن كلا من معادن النبوة ومحال الوحى صدر، ولا اختلاف فيها ولا اضطراب، جعلنا الله منهم، والله ولى التوفيق»[٣].

وفى سورة (ص) عند قوله تعالى ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ**. . .﴾ الآيات من (٣٤) إلى تمام القصة، يقول بعدما ذكر قصة الفتنة: «وأمثال هذه، وأمثال روايات سلب ملك سليمان، وجلوس الشيطان على كرسيه، وكون ملكه منوطًا بخاتم، ليس إلا من الرموز التى رمزها الأقدمون، ثم أخذها العامة بصورها الظاهرة، ومفاهيمها العامية، ونسبوا إلى الأنبياء ما لا يليق أن ينسب إلى مؤمن، فكيف بكامل أو نبى؟»[٤].

---

(١) (١/ ٤٥، ٤٦).
(٢) (١/ ٦٧).
(٣) (١/ ١٩٠).
(٤) (٢/ ١٧٦).

الإمامـــــــــة:

والمؤلف يقـرر فى تفسيره إمـامة على ﵁، وخلافتـه للنبى ﷺ بدون فصل، فمثلا فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ نجده يؤكـد أن الآية نازلة فى حق على ﵁، وأن المراد من الولاية ولاية التصرف لا ولاية المعاشرة، ويرد على من يخـالف ذلك بما يظهـر له من الدليل، كـما يبـين السر الذى من أجله ذكـر على بوصفه دون اسـمه، وذلك حيث يقول: (قد ورد من طريق العامـة والخاصة أن الولاية نازلة فى على حين تـصدق فى المسـجد فى ركوع الصـلاة بخاتمة أو بحلتـه التى كان قيمتها ألف دينار، ومفسرو العـامة لا ينكرون الأخبار فى كونها نازلة فى أمير المؤمنين وقد نقلوا بطرق عديدة من رواتهم أنها نزلت فى على، ومع ذلك يقولون فى تفسيرها: إن الآية نزلت بعـد النهى عن اتخاذ أهل الكتـاب أولياء، ولا شك أن المـراد بالأولياء هناك أولياء المعـاشرة، بقرينة المقابلة، وبـقرينة جمع المؤمنين، ولو كان المـراد أمير المؤمنين وبالولاية ولاية التـصرف لصرح باسمه، أو لقـال: والذى آمن بالإفراد، وهم غافلون عن أنه لو صـرح باسمه، أو أفرد المـؤمن ـ مع الاتفاق فى أنها نازلة فى أمـير المؤمنين ـ لأسقطوه تمويهًا على عابدى عجلهم، فنقول: نسبة الولاية أولاً إلى الله، ثم إلى رسوله ﷺ وآله، ثم إلى الذين آمنوا، تدل على أن المراد بالولاية ولاية التصرف التى فى قولـه تعالى ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾**(الأحـزاب: ٦)** لأن ولايـة الله ليست ولاية المعاشرة ولا ولاية الرسول؛ بقرينة العطف، وبما هو معلوم من الخارج، فكذلك ولاية الذين آمنوا بقـرينة العطف، وبقـرينة عـدم تكرار الولى، فإن المـراد أن الولاية ههنا أمر واحد مـترتب فى الظهور، فإن ولاية الرسول ليست شـيئًا سوى ولاية الله، وولاية الله تتحـقق بولاية الرسول، فهكذا ولاية الذين آمنوا، فإنهـا ولاية الرسول ﷺ وآله تظهـر فى ولاية الذين آمنوا على مـا قاله الشـيعـة، ولو كان المـراد ولاية المعاشرة كان أولياؤكم بلفظ الجمع أولى، وتقييد الذين آمنوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى حال الركوع يدل على أنهـا ليست ولاية المعاشرة، وإلا لكان جملة المـؤمنين فيها سواء، وليس كل المؤمنين متـصفين بالصفات المذكورة، على أنه لا خـلاف معتدًا فى

أنها نزلت فى على وصورة الأوصاف خاصة به، وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ بالمضارع إشارة إلى أن هذا الوصف مستمر لهم، يعنى حالهم استمرار إقامة الصلاة وإيتاء الزكاء فى حال الخضوع لله، لا فى حال بهجة النفس، لأنهم ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠) بخلاف الفاعل من قبل النفس فإن شأنه الارتضاء بفعله، وتوقع المدح من الغير على فعله؛ لأن كل حزب من أحزاب النفس بما لديهم فرحون، ويحسبون أن يحمدوا على ما لم يفعلوا، فضلاً عما فعلوا، واستمرار الصفات بحسب المعنى: لعلى وأولاده المعصومين بشهادة أعدائهم، وبحسب الصورة: ما كان أحد مصدافها إلا على نقلاً عن طريق العامة والخاصة، ووقع صدور الزكاة فى الركوع من كل الأئمة كما ورد عن طريق الخاصة، وفى نسبة الولاية إلى الله دون المخاطب والإتيان بأداة الحصر دلالة تامة على أن المراد بها ولاية التصرف، فإنها ثابتة لله ذاتًا ولرسوله ولخلفاء رسوله باعتبار كونهما مظهرين لله، وليس لأحد شركة فيها، وليس المراد بها ولاية المعاشرة التى تكون بالمواضعة والاتخاذ، وإلا لم يكن للحصر وجه، وكان اقتضاء المقابلة أن يقول: بل أنتم أولياء الله . . . إلخ، أو بل اتخذوا الله ورسوله والمؤمنين أولياء، ولأن المراد بها ولاية التصرف التى كانت بالذات لله قال فى عكسه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (المائدة: ٥٦) إشعارًا بأن الولاية السابقة هى ولاية التصرف وليست لغير الله إلا قبولها، ومن قبلها منهم باستعداده لظهورها فيه صار مرتبطًا بالله وخلفائه، ومن صار مرتبطًا بالله صار من حزب الله، ومن صار من حزب الله كان غالبًا ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (المائدة: ٥٦) ولو كان المراد بها المعاشرة لكان الأولى أن يقول: ومن يتخذ الله، أو ومن صار وليّا لله، والحاصل: أن فى لفظ الآية دلالات واضحة على أن المراد بالولاية ولاية التصرف، وأنها بعد الرسول ليست لجملة المؤمنين، بل لمن اتصف بصفات خاصة كائنًا من كان، متعددًا أو منفردًا، سواء قلنا نزلت فى على أو لم نقل، لكن باتفاق الفريقين لم توجد الأوصاف إلا فيه، ونزلت الآية فى حقه، والمراد بالذين آمنوا ههنا، هم الموصوفون فى الآية السابقة، لما تقرر عندهم أن المعرفة إذا تكررت كانت عين الأولى»(١).

(١) (١/ ١٢٤).

وفى سورة المائدة أيضًا عند قوله تعالى فى الآية (٦٧) ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...﴾ الآية، نجده يدعى ـ كغيره من الإمامية ـ أن القراءة الصحيحة كانت «بلغ ما أنزل إليك من ربك فى على» ويحمل التبليغ المأمور به النبى على ذلك فحسب، ويمنع إرادة العموم، ويقيم الأدلة على ذلك ردًا على من يدعى العموم، وغرضه من ذلك كله إثبات إمامة على ﷺ بنص القرآن الكريم(١).

الرجعة:

والمؤلف يتأثر بعقيدة الرجعة، فلهذا نراه عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة البقرة ﴿... ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يستدل بهذا البعث على جواز الرجعة فيقول: «وهذه الآية تدل على جواز الرجعة كما ورد الإخبار عنها وصارت كالضرورى فى هذه الأمة، وقد احتج أمير المؤمنين عليه السلام بها على أن الكواء فى إنكاره الرجعة»(٢).

تحريف القرآن:

ولما كان المؤلف ممن يقولون بوقوع التحريف والتبديل فى القرآن، فإنا نجده عندما يصطدم بقوله تعالى فى الآية (٩) من سورة الحجر ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ يحاول أن يتخلص من هذا النص الذى يجبهه فيقول: «ولا ينافى حفظه تعالى للذكر بحسب حقيقة التحريف فى صورة تدوينه، فإن التحريف إن وقع وقع فى الصورة المماثلة له كما قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٧٩) وكما قال: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٧٨)»(٣).

---

(١) (١/ ٢٣٤ - ٢٤٧) وراجع ما كتبه على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (١/ ٢٠٦ - ٢٠٨).

(٢) (١/ ٥٤).
فى الآية (٨٧) من سورة آل عمران، وفى الأصل تحريف وحذف وخلط بين الآيتين.

(٣) (١/ ٤٠١، ٤٠٢).

موقف المؤلف من الصحابة:

لم نلاحظ على المؤلف فى تفسيره هذا ما يدل صراحة على أنه يكفر أحدًا من الصحابة، كما لاحظنا على ملا محسن فى تفسيره، غاية الأمر أننا نأخذ عليه أنه أحيانًا يقف من الآيات التى وردت فى شأن بعض الصحابة وما لهم من الفضل موقفًا يراد منه سلب هذا الفضل عنهم أو تقليل أهميته، وأحيانًا ينسب إلى بعض الصحابة ما يكاد يكون تصريحًا منه بفسقهم أو كفرهم.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٤٤) من سورة آل عمران ﴿ ... **وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ نراه يصرف لفظ (الشاكرين) عن عمومه ويريد منه خصوص على ونفر معه فيقول: (والمراد بالشاكرين ههنا: على ونفر يسير بقوا عند رسول الله ﷺ حين انهزم المسلمون) وهنا يروى رواية عليها دليل الواضع وسمته فيقول:

(روى عن الصادق: أنه لما انهزم المسلمون يوم أحد عن النبى ﷺ انصرف إليها بوجهه وهو يقول: أنا محمد رسول الله؛ لم أقتل ولم أمت، فالتفت إليه فلان وفلان فقالا: الآن يسخر بنا أيضًا وقد هزمنا، وبقى معه على وأبو دجانة رحمه الله، فدعاه النبى ﷺ فقال: يا أبا دجانة انصرف وأنت فى حل من بيعتك، فأما على فهو أنا، وأنا هو، فتحول وجلس بين يدى النبى وبكى وقال: لا والله، ورفع رأسه إلى السماء وقال: لا والله، لا جعلت نفسى فى حل من بيعتك، إنى بايعتك فإلى من أنصرف يا رسول الله؟ إلى زوجة تموت؟ أو ولد يموت؟ أو دار تخرب ومال يفنى وأجل قد اقترب؟ فرقَّ له النبى ﷺ، فلم يزل يقاتل حتى قتل، فجاء به على إلى النبى فقال: يا رسول الله. . . أوفيت ببيعتى؟ فقال: نعم، وقال له النبى خيرًا، وكان الناس يحملون على النبى ﷺ الميمنة فيكشفهم على، فإذا كشفهم أقبلت الميسرة إلى النبى فلم يزل كذلك حتى تقطع سيفه بثلاث قطع، فجاء إلى النبى فطرحه بين يديه وقال: سيفى قد تقطع، فيومئذ أعطاه النبى ذا الفقار، ولما رأى النبى ﷺ اختلاج ساقيه من كثرة القتال، رفع رأسه إلى السماء وهو يبكى وقال: يا رب وعدتنى أن تظهر دينك وإن شئت لم يعيك، فأقبل على إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أسمع دويًا شديدًا،

وأسمع: أقدم يا حيزوم، وما أهم أضرب أحدًا إلا سقط ميتًا قبل أن أضربه، فقال: هذا جبريل وميكائيل وإسرافيل والملائكة، ثم جاء جبريل فوقف إلى جنب رسول الله ﷺ فقال: يا محمد... إن هذه لهى المواساة، فقال النبى ﷺ: إن عليّا منى وأنا منه، فقال جبريل: وأنا منكم... إلخ الحديث، ونزل ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ **(آل عمران: ١٤٥)**»[(١)]. اهـ.

ومثلاً نجد أن المؤلف عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٤) وما بعدها إلى آخر سورة الليل ﴿**فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ**﴾ يصعب عليه أن يعترف اعترافًا جازمًا بأن الأتقى مراد به الصديق رضي الله عنه كما يقول المفسرون من أهل السنة، كما نراه حريصًا على أن يكون علىٌّ هو أولى الناس بهذا الشرف، وهذا التنويه الإلهى، فلهذا نراه يقول ما نصه: «إن كانت الآيات نزلت فى رجل خاص فالمعنى عام، والأصل فيمن أعطى واتقى: على، وفيمن بخل واستغنى هو الثانى، وقيل المراد بمن أعطى: أبو بكر حيث اشترى بلالاً فى جماعة من المشركين وكانوا يؤذون فأعتقه، والمراد بالأشقى: أبو جهل وأمية ابن خلف»[(٢)].

وفى سورة النور عند قوله تعالى فى الآية (١١) ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ...**﴾ الآية، يقول: «قد نقل فى تفاسير الخاصة والعامة أن الآيات نزلت فى عائشة» ثم يروى السبب المعروف لنا... ثم يقول: «ونقل عن الخاصة أنها نزلت فى مارية القبطية وما رمتها به عائشة، روى عن الباقر أنه قال: لما هلك إبراهيم ابن رسول الله ﷺ حزن عليه رسول الله ﷺ حزنًا شديدًا، فقالت له عائشة: ما الذى يحزنك عليه؟ فما هو إلا ابن جريج، فبعث رسول الله ﷺ عليّا وأمره بقتله، فذهب على ومعه السيف، وكان جريج القبطى فى حائط، فضرب على باب البستان، فأقبل إليه جريج ليفتح له الباب، فلما رأى عليّا عرف فى وجهه الغضب، فأدبر راجعًا ولم يفتح باب البستان، فوثب على على الحائط، ونزل إلى البستان واتبعه، وولى جريج مدبرًا،

---

(١) (١/ ١٦٦). (٢) ص ٣١٦.

فلما خشى أن يرهقه صعد فى نخلة وصعد على فى أثره، فلما دنا منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال، ولا له ما للنساء، فانصرف على إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إذا بعثتنى فى أمر أكون فيه كالمسمار المحمى فى الوبر أمضى على ذلك أم أتثبت؟ قال: لا بل تثبت، قال: والذى بعثك بالحق ما له ما للرجال وما له ما للنساء، فقال: الحمد لله الذى صرف عنا السوء أهل البيت»[(١)].

وفى سورة التحريم عند تفسيره لقوله تعالى فى أولها: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ...**﴾ الآيات إلى آخر القصة، نراه يذكر سبب نزولها فيقول: «قال القمى وغيره: سبب نزول الآيات أن رسول الله ﷺ كان فى بيت عائشة أو فى بيت حفصة، فتناول رسول الله ﷺ مارية، فعلمت حفصة بذلك فغضبت، وأقبلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله فى يومى؟ وفى دراى؟ وعلى فراشى؟ فاستحيى رسول الله ﷺ فقال: كفى، فقد حرمت مارية على نفسى، وأنا أفضى إليك سرّا إن أنت أخبرت به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فقالت: نعم... ما هو؟ فقال: إن أبا بكر يلى الخلافة بعدى، ثم بعده أبوك، فقالت: من أنبأك هذا؟ قال: نبأنى العليم الخبير، فأخبرت حفصة به عائشة من يومها ذلك، وأخبرت عائشة أبا بكر، فجاء أبو بكر إلى عمر فقال له: إن عائشة أخبرتنى بشىء عن حفصة ولا أثق بقولها، فاسأل أنت حفصة، فجاء عمر إلى حفصة فقال: ما هذا الذى أخبرت عنك عائشة؟ فأنكرت ذلك وقالت: ما قلت لها من ذلك شيئًا، فقال لها عمر: إن هذا حق فأخبرينا حتى نتقدم فيه، فقالت: نعم... قاله رسول الله ﷺ، فاجتمعوا أربعة على أن يسموا رسول الله ﷺ، فنزل جبريل على رسول الله ﷺ بهذه السورة «وأظهره الله عليه» يعنى أظهره الله على ما أخبرت به وما هموا من قتله و «عرف بعضه» أى خبرها وقال: لم أخبرت بما أخبرتك؟ «وأعرض عن بعض» يعنى لم يخبرهم بما يعلمه مما هموا به من قتله»[(٢)].

(١) (٢/ ٦٦).

(٢) (٢/ ٣٧٨).

عتاب النبى ﷺ:

ويرى المؤلف ـ كغيره من الشيعة ـ أن ما ورد من الآيات مشتملاً على عتاب النبى ﷺ ؛ أو على التهديد والوعيد للنبى ﷺ على فرض وقوع المعصية منه إنما هو من قبيل (إياك أعنى واسمعى يا جارة) والذى دفعه إلى ذلك، هو ارتفاعه بمقام النبوة عن أن يوجه إليه عتاب من الله، أو لوم وتهديد على فرض صدور المعصية.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٧٤، ٧٥) من سورة الإسراء ﴿**وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا**﴾ نجده يقول: «وقد ورد فى الأخبار أن هذه الآية من قبيل (إياك أعنى واسمعى يا جارة) وورد أنها من فرية الملحدين، ولو كان الخطاب له ﷺ من غير كونه عن طريق إياك أعنى واسمعى يا جارة، ولم تكن فرية لم يكن فيها ازدراء به ﷺ بل يكون صدر الآية ازدراء بالملحدين، لإشعاره بأنهم بالغوا فى فتنته، يعنى أنهم ما أهملوا شيئًا مما يفتن به، ولو كان المفتون غيرك ولم يكن التثبيت من الله لفتن، وذيلها ببيان امتنانه عليه بأنه ثبته فى مثل هذا المقام»(١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة الكهف ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...**﴾ الآية، يقول ما نصه: «وهذا على: إياك أعنى واسمعى يا جارة»(٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة عبس: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ...**﴾ الآيات إلى قوله: ﴿**فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ**﴾ يقول ما نصه: «وقد استبعد بعض العلماء كون الآيات فى رسول الله، لبعد مقامه عن العبوس والتولى عن الأعمى، وعلو مرتبته عن أن يصير معاتبًا بمثل هذا العتاب (أقول): لو كانت الآيات فيه والعتاب له لم يكن فيه نقص لشأنه، ولم يكن منافيًا لما قاله تعالى فى حقه من قوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (القلم: ٤) فإنه إقباله وإدباره، وعبوسه، واستبشاره، كان لله، فإن عبوسه إن كان لمنع الأعمى عن نشر دين الله، وإسماع كلماته لأعداء الله وأعداء دينه وتقريبهم إلى دينه، لم يكن فيه نقص فيه وفى خلقه، وأما أمثال العتاب له ﷺ فإنها تدل على

---

(١) (١/ ٤٢٩).

(٢) (١/ ٤٢٧).

تفخيمه والاعتداد به، فإن كلها كانت بإياك أعنى واسمعى يا جارة، فالخطاب والعتاب يكون لغيره لا له، وكذا نسبة الله زراية عيب العبوس والقول له يكون متوجهًا إلى غيره فى الحقيقة».

الناحية الفقهية فى هذا التفسير:

أما الناحية الفقهية فى هذا التفسير: فإنها تظهر فيه بمظهر التأثر بما لفقهاء الشيعة من الاجتهادات التى يخالفون فيها من عداهم، غير أن المؤلف يطوى الكلام طيّا، فلا يتعرض لتفصيل المسائل الجزئية، ولا يشغل نفسه بكثرة الأدلة والبراهين، ولا بالدفاع عن مذهبه ورد مذهب مخالفيه، كما يفعل الطبرسى مثلاً.

نكاح الكتابيات:

فمثلاً عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ...** ﴾ الآية، يقول ما نصه: قد اختلفت الأخبار والأقوال فى نكاح النساء من أهل الكتاب، وكذا فى أن هذه الآية منسوخة بآية حرمة نكاح المشركات، وحرمة الأخذ بعصم الكوافر، أو ناسخة، وكذا فى الدوام والتمتع بهن، وقول النبى ﷺ وآله: إن سورة المآئدة آخر القرآن نزولاً، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها، ينفى كونها منسوخة (١).

المتعـــــة:

وعندما فسر قوله تعالى فى الآية (٢٤ من سورة النساء ﴿ **فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ** ﴾ نجده يقول: «وفى لفظ الاستمتاع، وذكر الأجور، وذكر الأجل - على قراءة إلى أجل - دلالة واضحة على تحليل المتعة... ﴿ **وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ** ﴾ من إعطاء الزيادة على الفريضة أو إسقاطهن شيئًا من الفريضة ﴿ **مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ** ﴾ وفيه إشعار بكون الأجر من أركان عقد التمتع كما عليه من قال به، وعن الباقر: لا بأس بأن تزيدها وتزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما، تقول: استحللتك بأجر آخر يرضى منها ولا تحل

(١) (١/ ٢٣٢).

لغيرك حتى تنقضى عدتهـا . . . وعدتها حيضتان ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فـحلل المتعة عن علم، ولغايات منوطة بالمصالح والحكم)(١).

فرض الرجلين فى الوضوء:

وعند تفسيره لقـوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ الآية، يقول: «﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالجر عطف على رءوسكم، وبالنصب على محل رءوسكم، وعطفه على وجوهكم مع جواز العطف على رءوسكم فى غاية البعد، غاية الأمر أنها فى هذا العطف مـحتملة مجملة كسائر أجزاء الآية محـتاجة إلى البيان، ولم يكن رأينا مبـينًا للقرآن لاسـتلزامه الترجـيح بلا مرجح، بل المـبين: من نص الله ورسوله عليـه، لا من نصبوه لبيـانه، فإن نصب شخص إنسـانى لبيان القرآن وخـلافة الرحـمن ليس بأقل من نصب الأصنـام لعبـادة الأنام، أو العـجل المـصنوع للعـوام، وتفصـيل الوضوء وكيفـيته قد وصل إلينا مـفصلاً مبـينًا عن أئمتنا المعصـومين من الله ورسوله، وقد فصله الفقهاء ﷺ، فلا حاجة إلى التفصيل ههنا»(٢).

ميراث الأنبياء:

والمؤلف يقول كغيره من علماء مذهبه بأن الأنبياء يورثون كما يورث سائر الناس، ولكننا نلاحظ عليه أنه لم يقف من الآيات التى استدل بها عـلماء مذهبه على أن الأنبياء يورثون المال مـوقفًا فيـه تلك المغالاة وهذا التطرف كـالذى وقفه الطبـرسى منها، بل نجده عندمـا فسر قوله تعالى فى الآيـة (٥) من سورة مريم ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي...﴾ يقول: «﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ فى الإرث الصورى من التضييع والنزاع والخلاف، أو فى الإرث المعنوى من الاختلاف وتضيـيع العباد، وهذا إشعار بأن دعاءه خال من مداخلة الهوى مقدمة للإجابة»(٣) هذا هو كل ما قاله فى هذه الناحية من الآية فأنت ترى أنه لم يـقطع أن الآية فى الإرث الصورى دون المعنـوى، بل جوز صدقـها على كل منهما، ولم يدافع عن مذهبه هذا الدفاع العنيف الذى كان من الطبرسى عندما أراد أن يقصر الإرث فى الآية على الإرث الصورى.

---

(١) (١/ ٢٩٥). (٢) (١/ ٢٣٢). (٣) (٢/ ٢).

ونجده عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ الآية، يقرر أن الميراث هو ميراث ما ينبغى أن يرثه منه من الرسالة والعلم والملك والسلطنة، ثم يقول: «ولذلك حذف المفعول الثانى»[(١)] يقول هذا أيضًا ولا يحاول أن يخرج الآية عن ظاهرها وسياقها كما حاول غيره.

الغنائم:

ويرى المؤلف كغيره من علماء مذهبه أن الغنائم لا تختص بما أخذ من الكفار بطريق القهر والغلبة، بل تعم ذلك وكل ما استفاده الإنسان من أى وجه كان، كما يرى أن الخمس يقسم بين ذوى القربى وهو الإمام، ويتامى آل البيت، ومساكينهم، وأبناء سبيلهم، وذلك تعويض لهم من الله عن الصدقات التى هى أوساخ الناس.

يرى المؤلف هذا كله ويقرره فى تفسيره باختصار فيقول عند قوله تعالى فى الآية (٤١) من سورة الأنفال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ...﴾ الآية، ما نصه: «﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ اسم الغنيمة قد غلب على ما كان يؤخذ من الكفار بالقهر والغلبة حين القتال، وإلا فهى اسم لكل ما استفاد الإنسان من أى وجه كان وأى شىء كان، فعن الصادق هى والله الإفادة يومًا بيوم ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وقد فسر ذوى القربى بالإمام من آل محمد؛ فإنه ذو القربى حقيقة، وفسر الثلاثة الأخيرة بمن كان من قربات الرسول، جعل ذلك لهم بدلا عن الزكاة التى هى أوساخ الناس تشريفًا لهم»[(٢)].

وفى سورة الحشر عند قوله تعالى فى الآية (٧) ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ...﴾ الآية، يقول: «﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أى ذى قربى الرسول ﷺ، ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ من قرابات الرسول ﷺ، وقد خص فى الأخبار كل ذلك بأقرباء الرسول ﷺ»[(٣)].

---

(١) (١/ ٩٨). (٢) (١/ ٣١٨). (٣) (١/ ٢٦٦).

موقف المؤلف فى تفسيره من المسائل الكلامية:

وإنا لنجد المؤلف يتأثر بمذهب المعتزلة فى بعض المسائل الكلامية فيوافقهم عليها فى تفسيره، ويخالفهم فى بعض آخر منها بما يقول به أهل السنة، فمن المسائل التى يوافق فيها المعتزلة مثلاً:

رؤيـــــة الله:

فهو ينكر جوازها ووقوعها، ويجرى تفسيره لآيات الرؤية على هذه العقيدة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة البقرة ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**﴾ نجده يقول ما نصه: (وورد أنه سئل الرضا كيف يجوز أن يكون كليم الله موسى بن عمران لا يعلم أن الله لا يجوز عليه الرؤية حتى يسأل هذا السؤال؟ فقال: إن كليم الله علم أن الله منزه عن أن يُرى بالأبصار، ولكنه لما كلمه وقربه نجيا رجع إلى قومه فأخبرهم أن الله كلمه وقربه وناجاه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعته وكان القوم سبعمائة ألف فاختار منهم سبعين ألفًا، ثم اختار منهم سبعة آلاف، ثم اختار منهم سبعمائة، ثم اختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربه، فخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم فى سفح الجبل، وصعد موسى إلى الطور وسأل ربه أن يكلمه ويسمعهم كلامه، وكلمه الله وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام ـ لا أن الله أحدثه فى الشجرة، ثم جعله منبعثًا منها ـ حتى سمعوه من جميع الوجوه، فقالوا: لن نؤمن بأن هذا الذى سمعناه كلام الله حتى نرى الله جهرة، فلما قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا، بعث الله عليهم صاعقة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، فماتوا، فقال موسى: ما أقول لبنى إسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا: إنك ذهبت بهم فقتلتهم؛ لأنك لم تكن صادقًا فيما ادعيت من مناجاة الله إياك، فأحياهم وبعثهم، فقالوا: إنك لو سألت الله أن يريك تنظر إليه لأجابك فتخبرنا كيف هو ونعرفه حق معرفته، فقال موسى: يا قوم. . . إن الله لا يرى بالأبصار ولا كيفية له، وإنما يعرف بآياته ويعلم بأعلامه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى تسأله، فقال موسى: يا رب إنك قد سمعت مقالة بنى إسرائيل، وأنت أعلم بصلاحهم، فأوحى الله إليه: يا موسى سلنى ما سألوك فلن آخذك بجهلهم، فعند ذلك قال موسى: ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ قال: ﴿**لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ**﴾ وهو يهوى ﴿**فَسَوْفَ**

ترانى فلما تجلى ربه للجبل﴾ بآية ﴿جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك﴾ يقول: رجعت إلى معرفتى بك عن جهل قومى ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ (الأعراف: ١٤٣) منهم بأنك لا ترى»(١).

وفى سورة القيامة عند قوله تعالى فى الآيتين (٢٢، ٢٣) ﴿وجوه يومئذ ناضرة (٢٢) إلى ربها ناظرة﴾ يقول: «﴿إلى ربها ناظرة﴾ أى إلى ربها المضاف لظهوره الولاية وصاحبها فى ذلك اليوم، أو إلى ربها المطلق لظهور آثاره، أى إلى آثاره ناظرة، أو منتظرة إلى ثواب ربها، روى عن أمير المؤمنين فى حديث «ينتهى أولياء الله بعدما يفرغ من الحساب إلى نهر يسمى الحيوان فيغتسلون فيه ويشربون منه فتبيض وجوههم إشرقًا، فيذهب كل قذى ووعث، ثم يؤمرون بدخول الجنة، فمن هذا المقام ينظرون إلى ربهم كيف يثيبهم، قال: فذلك قوله تعالى ﴿إلى ربها ناظرة﴾ وإنما يعنى بالنظر إليه، النظر إلى ثوابه تبارك وتعالى، وفى الخبر: والناظرة فى بعض اللغة هى المنتظرة، ألم تسمع إلى قوله: ﴿فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ (النمل: ٣٥) أى منتظرة»(٢).

ومن المسائل التى يخالف فيها المعتزلة:

السحر:

فهو يقول به ويعترف بحقيقته ويوضح لنا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠٢) من سورة البقرة ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر...﴾ الآية، حقيقة السحر وكيفية تأثيره فى المسحور وذلك حيث يقول: «... والسحر اسم لقول أو فعل أو نقش فى صفحة يؤثر فى عالم الطبع تأثيرًا خارجًا عن الأسباب والمعتاد، وذلك التأثير يكون بسبب مزج القوى الروحانية مع القوى الطبيعية، أو بتسخير القوى الروحانية بحيث تتصرف على إرادة المسخر الساحر، وهذا أمر واقع فى نفس الأمر ليس محض تخييل كما قيل... وتحقيقه أن يقال: إن عالم الطبع واقع بين الملكوت السفلى والملكوت العلوى كما مر، وأن لأهل العالمين تصرفًا بإذن الله عالم الطبع بأنفسهم، أو بأسباب من قبل النفوس البشرية، وأن النفوس البشرية إذا تجردت من علائقها، وصفت من كدورتها بالرياضات الشرعية أو غير الشرعية، وناسبت المجردات العلوية أو السفلية، تؤثر

(١) (١/ ٥٤).

(٢) (٢/ ٢٩٤).

بالأسباب أو بغير الأسباب فى أهل العالمين بتسخيرها إياهم، وجذبها لهم إلى عالمها، وتوجيهم فى مراداتها شرعية كانت أو غير شرعية، وإذا كان التأثير كان من أهل العالم السفلى تسمى أسبابه سحرًا، وقد يسمى ذلك التأثير والأثر الحاصل به سحرًا، وإذا كان من أهل العالم العلوى يسمى ذلك التأثير والأثر الحاصل به معجزة وكرامة، وقد تتقوى فى الجهة السفلية أو العلوية فتؤثر بنفسها من دون حاجة إلى التأثير فى الأرواح، ويسمى ذلك التأثير والأثر أيضًا سحرًا ومعجزة، فالسحر هو السبب المؤثر فى الأرواح الخبيثة الذى خفى سببيته، أو تأثير تلك الأرواح وآثارها فى عالم الطبع بحيث خفى مدركها، ثم أطلق على كل علم وبيان دقيق قلما يدرك مدركه، ويطلق على العالم بذلك العلم اسم الساحر، ومنه ﴿يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ على وجه... فيستعمل على هذا فى المدح والذم»(١).

وفى الآية (٤) من سورة الفلق نجده يعترف أيضًا بالسحر ويروى أن الرسول سحر بيد لبيد بن الأعصم وذلك حيث يقول: «﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أى من شر النفوس اللاتى يعقدن على الشعور والخيوط، وينفثن فيها، ويسحرن الناس بها، أو النساء اللاتى يفعلن ذلك... ثم ساق حديث سحر الرسول ﷺ»(٢).

وهناك مسائل أخرى يوافق فيها المعتزلة، ومسائل أخرى يخالفهم فيها ويوافق أهل السنة، ولا أطيل بذكرها بعد أن ذكرت نموذجًا من كل طائفة، ومن أراد الرجوع إليها فليرجع إلى تفسيره للآيات التى تتعلق بهذه المسائل.

هذا... ولا يفوتنا أن ننبه على أن المؤلف كثيرًا ما يهتم فى بعض المواضع بالمسائل النحوية، فتراه يذكر الأعاريب التى فى الآية، كما يهتم فى بعض النواحى بالقراءات وإن كان يعتمد فى كثير من الأحيان ما نسب إلى أهل البيت من قراءات لا أصل لها، كما نراه يذكر بعض النكات التى ترجع إلى نظم القرآن وأسلوبه.

وبالجملة، فهذا التفسير يكشف لنا عن مقدار تعصب صاحبه لمذهبه، وتأثيره بعقيدته الشيعية، ونزعته الصوفية الفلسفية فى فهمه لكتاب الله تعالى... والكتاب مطبوع فى جزأين كبيرين، وموجود بدار الكتب المصرية.

---

(١) (١/ ٦٨).

(٢) (٢/ ٣٣٩).

الإمامية الإسماعيلية (الباطنية)
وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

كلمة إجمالية عن الإسماعيلية وعقائدهم وأغراضهم:

قلنا: إن الإسماعيلية من الشيعة الإمامية تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وقلنا: إنهم يلقبون بالباطنية أيضًا لقولهم بباطن القرآن دون ظاهره، أو لقولهم بالإمام الباطن المستور.

والحق أن هذه الطائفة لا يمكن أن تكون داخلة فى عداد طوائف المسلمين، وإنما هى فى الأصل جماعة من المجوس رأوا شوكة الإسلام قوية لا تقهر، وأبصروا عزة المسلمين فتية لا تغلب ولا تكسر، فاشتعلت بين جوانحهم نار الحقد على الإسلام والمسلمين، ورأوا أنه لا سبيل لهم إلى الغلب على المسلمين بقوة الحديد والنار، ولا طاقة لهم بالوقوف أمام جيشهم الزاخر الجرار، فسلكوا طريق الاحتيال الذى يوصلهم إلى مآربهم وأهوائهم؛ ليطفئوا نور الله بأفواههم، وخفى على هؤلاء الملاحدة أن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

مؤسسو هذه الطائفة:

ظهرت بوادر هذه الفتنة، ونبتت نواة هذه الطائفة، زمن المأمون، وبيد جماعة جمع بينهم سجن العراق، هم: عبد الله بن ميمون القداح، وكان مولى جعفر بن محمد الصادق، ومحمد بن الحسين المعروف بذيذان، وجماعة كانوا يدعون (الجهاربجة)(١).

اجتمع هؤلاء النفر، فوضعوا مذهب الباطنية وأسسوا قواعده، فلما خلصوا من السجن ظهرت دعوتهم، ثم استفحل أمرها، واستطار خطرها إلى كثير من بلاد المسلمين، وما زالت لها بقية إلى يومنا هذا بين كثير ممن يدعون الإسلام(٢).

---

(١) أى العلماء الأربعة.

(٢) انظر الفرق بين الفرق ص ٢٦٦، والتبصير فى الدين ص ٨٣.

احتيالهم على الوصول إلى أغراضهم:

رأى المؤسسون لمبادئ الباطنية أنه لا طاقة لهم بالوقوف فى وجه المسلمين صراحة وجهارًا، فاحتالوا ـ كما قلنا ـ على الوصول إلى مآربهم بشتى الحيل، فاندسوا بين المسلمين باسم الحدب على الإسلام، وتلفعوا بالتشيع والمولاة لأهل البيت، وتظاهروا بالورع الكاذب، وجعلوا ذلك كله ستارًا لما يريدون أن يبذروه بين المسلمين من بذور الفساد والاضطراب فى العقيدة والسياسة.

ومن المحزن أن يدعى هؤلاء الملاحدة الانتماء إلى أهل بيت النبوة، ويصلون أنسابهم بأنسابهم عن طريق آباء وأئمة مستورين، فيلقى هذا الادعاء رواجًا وقبولاً من أناس ضعفاء أغمار، غرهم التباكى على آل البيت والتحزن عليهم، فتحركت أحقاد دفينة، وثارت فتن دامية بين المسلمين كان لها أثرها وخطرها.

أسس هؤلاء الباطنية الجمعيات السرية لنشر مذهبهم وهدم مذهب المسلمين، ورسموا لهذا المذهب خطة دبروها بنوع من المكر والخديعة، فجعلوا هدفهم الأول: الاحتيال على الطعام بتأويل الشرائع إلى ما يعود إلى قواعدهم من الإباحة والإلحاد، وتدرجوا فى وصولهم إلى غرضهم هذا بجعلهم الدعوة على مراتب وهى ما يأتيك:

مراتب الدعوة عند الباطنية:

أولاً: الذوق: وهو تفرس حال المدعو، هل هو قابل للدعوة أو لا؟ ولذلك منعوا من إلقاء البذر فى السبخة، أى دعوى من ليس قابلاً لها، ومنعوا التكلم فى بيت فيه سراج... أى فى موضع فيه فقيه أو متعلم.

ثانيًا: التأنيس: باستمالة كل أحد من المدعوين بما يميل إليه بهواه وطبعه، من زهد، وخلاعة، وغيرهما، فإن كان يميل إلى زهد زينه فى عينه وقبح نقيضه، وإن كان يميل إلى الخلاعة زينها وقبح نقيضها، ومن رآه الداعى مائلاً إلى أبى بكر وعمر مدحهما عنده وقال: لهما حظ فى تأويل الشريعة، ولهذا استصحب النبى أبا بكر إلى الغار، ثم إلى المدينة، وأفضى إليه فى الغار تأويل الشريعة... وهكذا حتى يحصل له الأنس به.

ثالثًا: التشكيك فى أصول الدين وأركان الشريعة: كأن يقول للمدعو: ما معنى الحروف المقطعة فى أوائل السور؟ ولمَ تقضى الحائض الصوم دون الصلاة؟ ولمَ يجب الغسل من المنى دون البول؟ ولم اختلفت الصلوات فى عدد ركعاتها فكان بعضها ركعتين، وبعضها ثلاثًا، وبعضها أربعًا؟ . . . وحيث يشككون بمثل هذا فلا يجيبون ليتعلق قلب من يشككونه بالرجوع إليهم والأخذ عنهم.

رابعًا: الرابط: وهو أمران: **أحدهما**: أخذ الميثاق على الشخص بأن لا يفشى لهم سرا، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**﴾ (الأحزاب: ٧) وقوله: ﴿**وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا**﴾ (النحل: ٩١) **وثانيهما**: حوالته على الإمام فى حل ما أشكل عليه من الأمور التى ألقيت إليه؛ فإنها لا تعلم إلا من قبل الإمام.

خامسًا: التدليس: وهو دعوى موافقة أكابر الدين والدنيا ليزداد الإقبال على مذهبهم.

سادسًا: التأسيس: وهو تمهيد مقدمات يراعون فيها حال المدعو لتقع تعاليمهم منه موقع القبول من نفسه.

سابعًا: الخلع: وهو الطمأنينة إلى إسقاط الأعمال البدنية.

ثامنًا: السلخ: وهو سلخ المدعو من العقائد الإسلامية، ثم بعد ذلك يأخذون فى تأويل الشريعة على ما تشاء أهواؤهم(١).

فأنت ترى أن الباطنية توسلوا بكل هذه الحيل إلى تشكيك المسلمين فى عقائدهم، وكأنهم رأوا أن القرآن ما دام موجودًا بين المسلمين ومحفوظًا عندهم يرجعون إليه فى أمور الدين، ويهتدون بهديه كلما نزلت بهم نازلة، فليس من السهل صرف الناس عنه إلا بواسطة تأويله، وصرف ألفاظه وآياته عن مدلولاتها الظاهرة، فأخذوا يجدون فى تأويل نصوص القرآن كما يحبون، وعلى أى وجه يرونه هدمًا لتعاليم الإسلام، الذى أصبح قذى فى أعينهم وشجى فى حلوقهم!!.

---

(١) راجع المواقف (٨/ ٣٨٩، ٣٩٠) والفرق بين الفرق ص ٢٨٢ وما بعدها.

وحرصًا منهم على أن تكون دعواهم فى تأويل القرآن مقبولة لدى من يستخفونه... قالو: «إن الأئمة هم الذين أودعهم الله سره المكنون، ودينه المخزون، وكشف لهم بواطن هذه الظواهر، وأسرار هذه الأمثلة، وإن الرشد والنجاة من الضلال بالرجوع إلى القرآن وأهل البيت؛ ولذلك قال عليه السلام - لما قيل: ومن أين يعرف الحق بعدك؟ - «ألم أترك فيكم القرآن وعترتى؟»... وأراد به أعقابه، فهم الذين يطلعون على معانى القرآن»(١).

ولكن احتيال الباطنية بتأويل القرآن على هدم الشريعة لم يلق رواجًا عند عقلاء المسلمين، ولم يجد غباوة فى عقول علمائهم الذين نصبوا أنفسهم لحماية القرآن من أباطيل المضللين... وكيف يمكن أن يجد رواجًا عند هؤلاء أو غباوة من أولئك وقد علموا وتيقنوا بأن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه ينقل عن صاحب الشريعة، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ؛ فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به، والباطن لا ضبط له، بل تتعارض فيه الخواطر، ويمكن تنزيله على وجوه شتى.

إنتاج الباطنية فى تفسير القرآن الكريم:

ومع أن هؤلاء الباطنية قد اتخذوا من تأويل القرآن بابًا للوصول إلى أغراضهم، فإنا لم نقف لهم على كتب مستقلة فى تفسير كتاب الله تعالى، ولم نسمع أن واحدًا منهم كتب تفسيرًا جامعًا للقرآن كله، سورة سورة، وآية آية، ولعل السر فى ذلك: أنهم لم يستطيعوا أن يتمشوا بعقائدهم مع القرآن آية آية، ولو أنهم حاولوا ذلك لاصطدموا بعقبات وصعاب لا يستطيعون تذليلها ولا يقدرون على التخلص منها، وكل الذى وجدناه لهم فى تفسير القرآن أو تأويله على الأصح: إنما هو نصوص متفرقة فى بطون الكتب وتعطينا إلى حد ما صورة واضحة، وفكرة جلية عن موقف هؤلاء القوم من القرآن الكريم، ومبلغ تهجمهم على القول فيه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

---

(١) فضائح الباطنية ص ٦.

وأرى أن أقسم موقف الباطنية من القرآن الكريم إلى قسمين اثنين:

الأول: موقف الباطنية المتقدمين من القرآن الكريم.

والثانى: موقف الباطنية المتأخرين منه أيضًا.

ونريد بالمتقدمين: الذين أسسوا مذهب الباطنية ومن قاربهم فى الزمن، وبالمتأخرين: البابية والبهائية، وسنوضح عند الكلام عن البابية والبهائية السبب الذى من أجله عددناهم من قبيل الباطنية.

* * *

موقف متقدمى الباطنية
من تفسير القرآن الكريم

علمت أن الغرض الأول الذى تقوم عليه دعوة الباطنية وتتركز فيه: هو العمل على هدم الشرائع عمومًا، وشريعة الإسلام على الخصوص، فكان لزامًا عليهم - وقد قاموا يحاربون الإسلام - أن يعملوا معاول الهدم فى ركن الإسلام المكين، وهو القرآن الكريم، وقد عجموا معاولهم كلها فلم يجدوا معولاً أصلب ولا أقوى على تنفيذ غرضهم من معول التأويل والميل بالآيات القرآنية إلى غير ما أراد الله.

كتب عبيد الله بن الحسن القيروانى إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنانى رسالة طويلة جاء فيها «. . . وإنى أوصيك بتشكيك الناس فى القرآن والتوراة والزبور والإنجيل، وتدعوهم إلى إبطال الشرائع، وإلى إبطال المعاد والنشور من القبور، وإبطال الملائكة فى السماء، وإبطال الجن فى الأرض، وأوصيك أن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير، فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم»(١).

رأى هذا الزعيم الباطنى أن التشكيك فى القرآن خير معوان لهم على تركيز عقائدهم، ورأى رأيه أهل الباطن جميعًا فقالوا: «للقرآن ظاهر وباطن، والمراد منه باطنه دون ظاهره المعلوم من اللغة، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر، والمتمسك بظاهره معذب بالشقشقة فى الكتاب، وباطنه مؤد إلى ترك العمل بظاهره، وتمسكوا فى ذلك بقوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة الحديد ﴿**فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾»(٢).

فانظر إليهم كيف وضعوا هذه القاعدة لفهم نصوص القرآن الكريم، ثم اعجب ما شاء الله لك أن تعجب من استدلالهم بهذه الآية الكريمة على قاعدتهم التى قعدوها، ولست أدرى ما صلة هذه الآية بتلك القاعدة والآية واردة فى شأن من شئون الآخرة ينساق إلى فهمه كل من يمر بالآية بدون كلفة ولا عناء.

---

(١) الفرق بين الفرق ص ١٨٠، وبمثل وهذه العبارة يستدل أبو منصور البغدادى على أنهم دهريون.
(٢) المواقف (٨/ ٣٨٨).

من تأويلات الباطنية القدامى:

على هذه القاعدة السابقة جرى القوم فى شرحهم لكتاب الله تعالى، فكان من تأويلاتهم ما يأتى:

(الوضوء) عبارة عن موالاة الإمام، و (التيمم) هو الأخذ من المأذون عند غيبة الإمام الذى هو الحجة، و (الصلاة) عبارة عن الناطق الذى هو الرسول بدليل قوله تعالى فى الآية (٤٥) من سورة العنكبوت: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾، و (الغسل) تجديد العهد ممن أفشى سرّاً من أسرارهم من غير قصد، وإفشاء السر عندهم على هذا النحو هو معنى (الاحتلام) و (الزكاة) عبارة عن تزكية النفس بمعرفة ما هم عليه من الدين، و (الكعبة) النبى، و (الباب) على، و (الصفا) هو النبى، و (المروة) على، و (الميقات) الإيناس، و (التلبية) إجابة الدعوة، و (الطواف بالبيت سبعًا) موالاة الأئمة السبعة، و (الجنة) راحة الأبدان من التكاليف، و (النار) مشقتها لمزاولة التكاليف [(١)].

وتأولوا أنهار الجنة فقالوا: (أنهار من لبن) أى معادن العلم... اللبن العلم الباطن، يرتفع به أهلها، ويتغذون به تغذيا يدون به حياتهم اللطيفة؛ فإن غذاء الروح اللطيفة بارتضاع العلم من المعلم، كما أن حياة الجسم الكثيف بارتضاع اللبن من ثدى الأم (وأنهار من خمر) هو العلم الظاهر (وأنهار من عسل مصفى) هو علم الباطن المأخوذ من الحجج والأئمة [(٢)].

كذلك تجد الباطنية يرفضون المعجزات، ولا يعترفون بها للرسل، وينكرون نزول ملائكة من السماء بالوحى من الله، بل وزادوا على ذلك فأنكروا أن يكون فى السماء ملك وفى الأرض شيطان، وأنكروا آدم والدجال، ويأجوج ومأجوج، ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام آيات من القرآن تكذب دعواهم هذه، فتخلصوا منها بمبدئهم الذى ساروا عليه فى تفسيرهم وهو إنكار الظاهر والأخذ بالباطن، وأولوا هذه الآيات بما يتفق ومذهبهم، فتأولوا (الملائكة) على دعاتهم الذين يدعون إلى بدعتهم، وتأولوا (الشياطين) على مخالفيهم، وتأولوا كل ما جاء فى القرآن من معجزات الأنبياء عليهم

---

(١) المواقف (٨/ ٣٩٠).

(٢) فضائح الباطنية للغزالى ص ١٣.

السلام، فقالوا: (الطوفان) معناه طوفان العلم . . . . أغرق به المتمسكون بالسنة. و (السفينة) حرزه الذى تحصن به من استجاب لدعوته، و (نار إبراهيم) عبارة عن غضب نمرود عليه لا النار الحقيقية، و (ذبح إسحاق) معناه أخذ العهد عليه، و (عصا موسى) حجته التى تلقفت ما كانوا يأفكون من الشبه لا الخشب و (انفلاق البحر) افتراق علم موسى فيهم عن أقسام، و (البحر) هو العلم و (الغمام الذى أظلهم) معناه الإمام الذى نصبه موسى لإرشادهم وإفاضة العلم عليهم، و (الجراد والقمل والضفادع) هى سؤالات موسى والتزاماته التى سلطت عليهم، و (المن والسلوى) علم نزل من السماء لداع من الدعاة هو المراد بالسلوى، و (تسبيح الجبال) معناه تسبيح رجال شداد فى الدين راسخين فى اليقين، و (الجن الذين ملكهم سليمان بن داود) باطنية ذلك الزمان، و (الشياطين) هم الظاهرية الذين كلفوا بالأعمال الشاقة، و (عيسى) له أب من حيث الظاهر، وإنما أراد بالأب المنفى: الإمام، إذ لم يكن له إمام، بل استفاد العلم من الله بغير واسطة، وزعموا - لعنهم الله - أن أباه يوسف النجار، و (كلامه فى المهد) اطلاعه فى مهد القالب قبل التخلص منه على ما يطلع عليه غيره بعد الوفاة والخلاص من القالب، و (إحياء الموتى من عيسى) معناه الإحياء بحياة العلم عن موت الجهل بالباطن، و (إبراؤه الأعمى) عن عمى الضلالة، و (الأبرص) عن برص الكفر ببصيرة الحق المبين، و (إبليس وآدم) عبارة عن أبى بكر وعلى، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلى والطاعة له فأبى واستكبر، و (الدجال) أبو بكر، وكان أعورًا، إذ لم يبصر إلا بعين الظاهر دون عين الباطن، و (يأجوج ومأجوج) هم أهل الظاهر»(١).

بل بالغوا فقالوا: «إن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة، فساسوا العامة بالنواميس والحيل، طلبًا للزعامة بدعوى النبوة والإمامة»(٢).

هذا. . . وإن مما زعمته الباطنية: أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها وتأولوا فى ذلك قوله تعالى فى الآية (٩٩) من سورة الحجر: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ وحملوا اليقين على معرفة التأويل.

كذلك استحل الباطنية نكاح البنات والأخوات وجميع المحارم، بحجة أن الأخ

---

(١) فضائح الباطنية ص ١٣.

(٢) الفرق بين الفرق ص٢٧٩.

أحق بأخته، والأب أولى بابنته. . . وهكذا، ولست أدرى على أى وجه تأولوا آية النساء التى حرمت ذلك، ومنعته منعًا باتا.

ويقول القيروانى فى رسالته التى أرسلها إلى سليمان بن الحسن: «. . . وينبغى أن تحيط علمًا بمخاريق الأنبياء ومناقضاتهم فى أقوالهم، كعيسى ابن مريم، قال لليهود: لا أرفع شريعة موسى، ثم رفعها بتحريم الأحد بدلاً من السبت وأباح العمل فى السبت، وأبدل قِبْلَة موسى بخلاف جهتها. . . وبذلك قتلته اليهود لما اختلفت كلمته، ولا تكن كصاحب الأمة المنكوسة حين سألوه عن الروح فقال: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء: ٨٥) لما لم يحضره جواب المسألة، ولا تكن كموسى فى دعواه التى لم يكن عليها برهان سوى المخرقة بحسن الحيلة والشعوذة، ولما لم يجد المحق فى زمانه عنده برهانًا قال له: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (الشعراء: ٢٩) وقال لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ (النازعات: ٢٤) لأنه كان صاحب الزمان فى وقته. . .».

ثم قال فى آخر هذه الرسالة: «. . . وما العجب من شىء كالعجب من رجل يدعى العقل، ثم يكون له أخت أو بنت حسناء وليس له زوجة فى حسنها، فيحرمها على نفسه وينكحها من أجنبى، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته، وبنته من الأجنبى، ما وجه ذلك إلا أن صاحبهم حرم عليهم الطيبات وخوفهم بغائب لا يعقل، وهو الإله الذى يزعمونه، وأخبرهم بكون ما لا يرونه أبدًا من البعث من القبور، والحساب، والجنة، والنار، حتى استعبدهم بذلك عاجلاً وجعلهم له فى حياته، ولذريته بعد وفاته خولاً، واستباح بذلك أموالهم بقوله ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (الشورى: ٢٣) فكان أمره معهم نقدًا، وأمرهم معه نسيئة، وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون، وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب فى الصلاة والصيام والجهاد والحج».

ثم قال لسليمان بن الحسن فى هذه الرسالة: «. . . وأنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس، وفى هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة على

الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس، فهنيئًا لكم ما نلتم من الراحة عن أمرهم»[١].

ومن جملة تأويلاتهم الباطلة التى يتوصلون بها إلى هواهم النفسى، ومأربهم الشخصى، أنهم بعد أن يلقوا على المدعو ما يشككونه به، وتتطلع إلى معرفته من جهتهم نفسه، يقولون له: لا نظهره إلا بتقديم خير عليه، فيطلبون مائة وتسعة عشر درهمًا من السبيكة الخالصة، ويقولون: هذا تأويل قوله تعالى: ﴿ **وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** ﴾ (المزمل: ٢٠) فالحاء والسين والنون والألف إذا جمع عددها بحساب الجمل يكون مبلغه مائة وتسعة عشر»[٢].

ومن ذا الذى قال إن القرآن يخضع فى تفسيره وفهم معانيه إلى حساب الجمل؟... اللهم إن هذا لا يصدر إلا عن مخرف أو زنديق يريد أن يضل الناس ويحتال على سلب أموالهم بدعوى يدعيها على كتاب الله!!.

كذلك نجد الباطنية يحرصون على نفى وجود الإله الحق، والنبى المرسل محمد ﷺ؛ ليتوصلوا بذلك إلى رفع التكاليف، فنراهم يقولون للمبتدئ: «إن الله خلق الناس واختار منهم محمدًا ﷺ، فيستحسن المبتدئ هذا الكلام، ثم يقول له: أتدرى من محمد؟ فيقول: نعم... محمد رسول الله، خرج من مكة، وادعى النبوة، وأظهر الرسالة، وعرض المعجزة، فيقول له: ليس هذا الذى تقول إلا كقول هؤلاء الحمير - يعنون به المؤمنين من أهل الإسلام - إنما محمد أنت، فيستعيذ السامع ويقول: لست أنا محمدًا، فيقول له: الله تعالى وصفه فى هذا القرآن فقال: ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (التوبة: ١٢٨) وهؤلاء الحمير يقولون: من مكة... فيقول له الغر الغمر: على أى معنى تقول أنا محمد؟ فيقول: خلقك وصورك خلقة محمد، فالرأس بمنزلة الميم، واليدان بمنزلة الحاء، والسرة بمنزلة الميم، والرجلان بمنزلة الدال، وكذلك أنت على أيضًا، عينك هى العين، والألف هى اللام، والفم الياء»[٣].

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٨١، ٢٨٢.
(٢) التبصير فى الدين ص ٨٧.
(٣) التبصير فى الدين ص ٨٧، ٨٨.

وبهذا يوهمه أنه هو محمد الذى جاء ذكره فى القرآن، أما ما يدعى من وجود رسول اسمه محمد، فهذا ظاهره غير مراد.

ولأجل أن يوهمه أيضا بأنه لا إله موجود على الحقيقة، وما جاء فى القرآن من ذلك فظواهر غير مرادة، نجده يقول للمبتدئ: إن المراد بإثبات الذات يرجع إلى نفسك، ويؤولون عليه قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (قريش: ٣) ويقولون: الرب هو الروح والبيت هو البدن.

ولقد وصل الغلو ببعض الباطنية إلى ادعاء ألوهية محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأنه هو الذى كلم موسى بقوله ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ (طه: ١٢) وفى هذا يروى لنا البغدادى صاحب (الفرق بين الفرق) قصة رجل دخل فى دعوة الباطنية، ثم وفَّقه الله لتركها والرجوع لرشده... يحكى هذا الرجل قصته للبغدادى فيقول: «إنهم لما وثقوا بإيمانه قالوا له: إن المسمين بالأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة: كانوا أصحاب نواميس ومخاريق، أحبوا الزعامة على العامة، فخدعوهم بنيرجات، واستعبدوهم بشرائعهم، قال الحاكى البغدادى: ثم ناقض الذى كشف لى هذا السر بأن قال: ينبغى أن تعلم أن محمد بن إسماعيل بن جعفر هو الذى نادى موسى بن عمران من الشجرة فقال له: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ ثم قال: فقلت: سخنت عينك، تدعونى إلى الكفر برب قديم خالق العالم، ثم تدعونى مع ذلك إلى الإقرار بربوبية إنسان مخلوق، وتزعم أنه كان قبل ولادته إلهًا مرسلاً لموسى؟ فإن كان موسى عندك كاذبًا، فالذى زعمت أنه أرسله أكذب، فقال: إنك لا تفلح أبدًا، وندم على إفشاء أسراره إلىَّ وتبت من بدعتهم»(١).

فانظر إليهم - لعنهم الله - كيف يصرفون القرآن عن أن يكون الله هو المتكلم به، ويدعون أنه كلام إلههم المزعوم محمد بن إسماعيل!! أليس هذا غلوّا فى الإلحاد؟ وإغراقًا فى الكفر والعناد؟.

وبين أيدينا كتاب أسرار الباطنية، وهو يكشف لنا عن نواياهم، ويفضح أسرارهم وخباياهم، وهو لمحمد بن مالك اليمانى أحد علماء القرن الخامس الهجرى، ولا أريد

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٨٨.

أن أطيل على القارئ بذكر ما فيه من مخازى القوم، ولكن أكتفى بذكر نبذة من الكتاب، ضمنها المصنف ما شهده بنفسه من ضلالهم وإضلالهم، وذلك حين اندس بينهم متظاهرًا بدخوله فى زمرتهم، ليقف بنفسه على ما بلغه عنهم من أباطيل وأضاليل، وإنما اخترت هذه النبذة بالذات؛ لأنها تعطينا فكرة واضحة عن مقدار تلاعب الباطنية بكتاب الله تحت ستار التأويل، وعن مبلغ استهزائهم بعقول العامة الذين وقعوا فيما نصبوه لهم من الأحابيل!!.

مقالة محمد بن مالك اليمانى فى الباطنية:

يقول محمد بن مالك اليمانى: «أول ما أشهد به وأشرحه، وأبينه للمسلمين وأوضحه، أن له ـ يريد على بن محمد الصليحى زعيم باطنية اليمن فى وقته ـ نوابًا يسميهم الدعاة المأذونين، وآخرين يلقبهم المكلبين، تشبيهًا لهم بكلاب الصيد؛ لأنهم ينصبون للناس الحبائل، ويكيدونهم بالغوائل، وينقبضون عن كل عاقل، ويلبسون على كل جاهل، بكلمة حق يراد بها الباطل، ويحضونه على شرائع الإسلام، من الصلاة والزكاة والصيام، كالذى ينثر الحب للطير ليقع فى شركه، فيقيم أكثر من سنة يمنعون به، وينظرون صبره، ويتصفحون أمره، ويخدعونه بروايات عن النبى ﷺ محرفة، وأقوال مزخرفة، ويتلون عليه القرآن على غير وجهه، ويحرفون الكلم عن مواضعه، فإذا رأوا منه الانهماك والركون والقبول والإعجاب بجميع ما يعلمونه، والانقياد بما يأمرونه، قالوا حينئذ: اكشف عن السرائر ولا ترض لنفسك ولا تقنع بما قنع به العوام من الظواهر، وتدبر القرآن ورموزه، واعرف مثله وممثوله، واعرف معانى الصلاة والطهارة، وما روى عن النبى ﷺ بالمرموز والإشارة، دون التصريح فى ذلك والعبارة، فإنما جميع ما عليه الناس أمثال مضروبة، لممثولات محجوبة، فاعرف الصلاة وما فيها، وقف على باطنها ومعانيها، فإن العمل بغير علم لا ينتفع به صاحبه، فيقول: عم أسأل؟ فيقول: قال الله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة: ٤٣) فالزكاة مفروضة فى كل عام مرة، وكذلك الصلاة، من صلاها مرة فى السنة فقد أقام الصلاة بغير تكرار، وأيضًا فالصلاة والزكاة لهما باطن لأن الصلاة صلاتان، والزكاة زكاتان، والصوم صومان، والحج حجان، وما خلق الله سبحانه من ظاهر إلا وله

باطن، يدل على ذلك: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٠) و ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأعراف: ٣٣) ألا ترى أن البيضة لها ظاهر وباطن؟ فالظاهر ما تساوى به الناس، وعرفه الخاص والعام، وأما الباطن فقصر علم الناس به عن العلم به، فلا يعرفه إلا القليل، من ذلك قوله: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠) وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ (ص: ٢٤) وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣) فالأقل من الأكثر الذين لا عقول لهم.

و (الصلاة) و (الزكاة) سبعة[1] أحرف دليل على محمد وعلىٍّ صلى الله عليهما؛ لأنهما سبعة أحرف، فالمعنى بالصلاة والزكاة ولاية محمد وعلى، فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة، فيوهمون عَلَى من لا يعرف لزوم الشريعة والقرآن وسنن النبى ﷺ، فيقع هذا من ذلك المخدوع بموقع الاتفاق والموافقة؛ لأن مذهب الراحة والإباحة يريحهم مما تلزمهم الشرائع من طاعة الله، ويبيح لهم ما حظر عليهم من محارم الله، فإذا قبل منهم ذلك المغرور هذا قالوا له: قرب قربانًا يكون لك سلمًا ونجوى، ونسأل لك مولانا يحط عنك الصلاة، ويضع عنك هذا الإصر، فيدفع اثنى عشر دينارًا، فيقول ذلك الداعى: يا مولانا، إن عبدك فلانًا قد عرف الصلاة ومعانيها، فاطرح عنه الصلاة وضع عنه هذا الإصر، وهذا نجواه اثنا عشر دينارًا، فيقول: اشهدوا أنى قد وضعت عنه الصلاة ويقرأ له: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: ١٥٧) فعند ذلك يقبل إليه أهل هذه الدعوة ويهنئونه ويقولون: الحمد لله الذى وضع عنك ﴿وِزْرَكَ ② الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ (الشرح: ٢، ٣). . . ثم يقول له ذلك الداعى ـ الملعون ـ بعد مدة: قد عرفت الصلاة وهى أول درجة، وأنا أرجو أن يبلغك الله إلى أعلى الدرجات، فاسأل وابحث، فيقول: عم أسأل؟ فيقول له: سل عن الخمر والميسر اللذين نهى الله تعالى عنهما أبا بكر وعمر لمخالفتهما على على، وأخذهما الخلافة دونه، فأما ما يعمل من العنب والزبيب والحنطة وغير ذلك فليس بحرام؛ لأنه مما أنبتت الأرض، ويتلو عليه ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف: ٣٢) إلى آخر الآية، ويتلو عليه: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ

---

(١) لعله عدهما سبعة بحذف إحدى الألفين لتكرارها فى الكلمتين.

فِيمَا طَعِمُوا ﴾ (المائدة: ٩٣) إلى آخر الآية، والصوم : الكتمان، فيتلو عليه ﴿ **فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ** ﴾ (البقرة: ١٨٥) يريد كتمان الأئمة فى وقت استتارهم خوفًا من الظالمين، ويتلو عليه: ﴿ **إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا** ﴾ (مريم: ٢٦) فلو كان عنى بالصيام ترك الطعام لقال: فلن أطعم اليوم شيئًا، فدل على أن الصيام الصموت، فحينئذ يزداد ذلك المخدوع طغيانًا وكفرًا، وينهمك إلى قول ذلك الداعى المعلون؛ لأنه أتاه بما يوافق هواه، والنفس أمارة بالسوء. . . ثم يقول له: ادفع النجوى تكن له سلمًا ووسيلة حتى تسأل مولانا يضع عنك الصوم، فيدفع اثنى عشر دينارًا، فيمضى به إليه فيقول: يا مولانا عبدك فلان، قد عرف معنى الصوم على الحقيقة، فأبح له الأكل فى رمضان، فيقول له: قد وثقته وأمنته على سرائرنا؟ فيقول له: نعم، فيقول: قد وضعت عنه ذلك، ثم يقيم بعد ذلك مدة، فيأتيه ذلك الداعى الملعون فيقول له: قد عرفت ثلاث درجات، فاعرف الطهارة ما هى، ومعنى الجنابة ما هى فى التأويل، فيقول له: فسر لى ذلك، فيقول له: اعلم أن معنى الطهارة طهارة القلب، وأن المؤمن طاهر بذاته، والكافر نجس لا يطهره الماء ولا غيره، وأن الجنابة هى موالاة الأضداد أضداد الأنبياء والأئمة، فأما المنى فليس بنجس؛ منه خلق الله الأنبياء، والأولياء، وأهل طاعته، وكيف يكون نجسًا وهو مبدأ خلق الإنسان، وعليه يكون أساس البنيان؟ فلو كان التطهير منه من أمر الدين لكان الغسل من الغائط والبول أوجب؛ لأنهما نجسان، وإنما معنى ﴿ **وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا** ﴾ (المائدة: ٦) معناه: وإن كنتم جهلة بالعلم الباطن فتعلموا واعرفوا العلم الذى هو حياة الأرواح، كالماء الذى هو حياة الأبدان، قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** ﴾ (الأنبياء: ٣٠) وقوله: ﴿ **فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ** ﴾ (الطارق: ٥، ٦) فلما سماه الله بهذا دل على طهارته، ويوهمون ذلك المخدوع بهذه المقالة، ثم يأمره ذلك الداعى أن يدفع اثنى عشر دينارًا، ويقول: يا مولانا عبدك فلان قد عرف معنى الطهارة حقيقة وهذا قربانه إليك، فيقول: اشهدوا أنى قد حللت له ترك الغسل من الجنابة، ثم يقيم مدة فيقول له هذا الداعى المعلون: قد عرفت أربع درجات، وبقى عليك الخامسة، فاكشف عنها؛ فإنها منتهى أمرك وغاية سعادتك، ويتلو عليه ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ**

أَعْيُنٍ﴾ (السجدة: ١٧) فيقول له: ألهمنى إياها ودلنى عليها، فيتلو عليه ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢) ثم يقول له: أتحب أن تدخل الجنة فى الحياة الدنيا؟ فيقول: وكيف لى ذلك؟ فيتلو عليه ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى﴾ (الليل: ١٣) ويتلو عليه ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف: ٣٢) والزينة ههنا: ما خفى على الناس من أسرار النساء التى لا يطلع عليها إلا المخصوصون بذلك، وذلك قوله: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ (النور: ٣١) والزينة مستورة غير مشهورة، ثم يتلو عليه ﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ (الواقعة: ٢٢، ٢٣) فمن لم ينل الجنة فى الدنيا لم ينلها فى الآخرة؛ لأن الجنة مخصوص بها ذو الألباب، وأهل العقول دون الجهال؛ لأن المستحسن من الأشياء ما خفى؛ ولذلك سميت الجنة جنة لأنها مستجنة، وسميت الجن جنًا لاختفائهم عن الناس، والمجنة المقبرة لأنها تستر من فيها، والترس المجن لأنه يستتر به، فالجنة هاهنا: ما استتر عن هذا الخلق المنكوس الذين لا علم لهم ولا عقول، فحينئذ يزداد هذا المخدوع انهماكًا، ويقول لذلك الداعى الملعون: تلطف فى حالى، وبلغنى إلى ما شوقتنى إليه، فيقول: ادفع النجوى اثنى عشر دينارًا تكون لك قربانًا وسلمًا، فيمضى به فيقول: يا مولانا... إن عبدك فلانًا قد صحت سريرته، وصفت خبرته وهو يريد أن تدخله الجنة، وتبلغه حد الأحكام، وتزوجه الحور العين، فيقول له: قد وثقته وأمنته؟ فيقول: يا مولانا قد وثقته وأمنته وخبرته فوجدته على الحق صابرًا، ولأنعمك شاكرًا، فيقول: علمنا صعب مستصعب لا يحمله إلا نبى مرسل، أو ملك مقرب، أو عبد امتحن الله قلبه بالإيمان، فإذا صح عندك حاله فاذهب به إلى زوجتك فاجمع بينه وبينها، فيقول: سمعًا وطاعة لله ولمولانا، فيمضى به إلى بيته، فيبيت مع زوجته، حتى إذا كان الصباح قرع عليهما الباب وقال: قوما قبل أن يعلم نبأنا هذا الخلق المنكوس، فيشكر ذلك المخدوع ويدعو له، فيقول له: ليس هذا من فضلى، هذ من فضل مولانا، فإذا خرج من عنده تسامع به أهل هذه الدعوة الملعونة، فلا يبقى منهم أحد إلا بات مع زوجته كما فعل ذلك الداعى الملعون، ثم يقول له: لا بد لك أن تشهد هذا المشهد الأعظم عند مولانا، فادفع قربانك، فيدفع

اثنى عشر دينارًا ويصل به ويقول: يا مولانا. . . إن عبدك فلانًا يريد أن يشهد المشهد الأعظم، وهذا قربانه، حتى إذا جن الليل، ودارت الكئوس وحميت الرءوس، وطابت النفوس، أحضر جميع أهل هذه الدعوى المعلونة حريمهم، فيدخلن عليهم من كل باب، وأطفئوا السراج والشموع، وأخذ كل واحد منهم ما وقع عليه فى يده، ثم يأمر المقتدى زوجته أن تفعل كفعل الداعى الملعون وجميع المستجيبين، فيشكره ذلك المخدوع على ما فعل له، فيقول له: ليس هذا من فضلى، هذا من فضل مولانا أمير المؤمنين فاشكروه ولا تكفروه على ما أطلق من وثاقكم، ووضع عنكم أوزاركم، وحط عنكم آصاركم، ووضع عنكم أثقالكم، وأحل لكم بعض الذى حرم عليكم جهالكم ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٥)».

قال محمد بن مالك ـ رحمه الله تعالى: «هذا ما اطلعت عليه من كفرهم وضلالتهم، والله تعالى لهم بالمرصاد، والله تعالى علىَّ شهيد بجميع ما ذكرته مما اطلعت عليه من فعلهم وكفرهم وجهلهم، والله يشهد علىَّ بجميع ما ذكرته عالم به، ومن تكلم عليهم بباطل فعليه لعنة الله، ولعنة اللاعنين، والملائكة، والناس أجمعين، وأخزى الله من كذب عليهم، وأعد له جهنم وساءت مصيرًا، ومن حكى عنهم بغير ما هم عليه فهو يخرجة من حول الله وقوته إلى حول الشيطان وقوته. . .»[١]. اهـ.

وبعد. . . ألست ترى معى أن تأويلهم للقرآن تأويل فاسد لا يقوم على أساس ولا يستند إلى برهان، وإنما هى أوهام وأباطيل، غرروا بها ضعاف العقول ليسلخوهم من الدين، وليدخلوهم فى زمرة الملحدين وحزب الشياطين؟ أعتقد ذلك، وأظن أن سؤالاً يدور بخلد القارئ هو: كيف نجزم بنسبة هذه التأويلات كلها إلى الباطنية مع وجود التناقض والاختلاف بين بعض المعانى التى نقلت عنهم للفظ الواحد؟ أليس هذا دليلاً على عدم صحة كل ما ينسب إليهم؟. . . والحق أن السؤال وارد، ولكنه مدفوع بما ذكره الغزالى من أن سر هذا الاضطراب راجع إلى أنهم كانوا لا يخاطبون الخلق بمسلك واحد، بل غرضهم الاستتباع والاحتيال، فلذلك تختلف كلمتهم، ويتفاوت نقل المذهب عنهم[٢].

---

(١) كشف أسرار الباطنية ص ١١ - ١٦.

(٢) فضائح الباطنية ص ٨.

موقف متأخرى الباطنية من تفسير القرآن الكريم

تمهيد: فى بيان انتشار الباطنية فى البلاد الآن وتعدد ألقابهم:

قلنا: إن الباطنية يعرفون بأسماء عدة، وقلنا: إنه لا تزال منهم بقية إلى يومنا هذا فى كثير من بلاد المسلمين، والآن أزيدك على ما تقدم أن الباطنية يوجدون بالهند، ويعرفون بالبهرة أو الإسماعيلية، وزعيمهم أغاخان الزعيم الإسماعيلى المعروف، ويوجدون فى بلاد الأكراد ويعرفون (بالعلوية) حيث يقولون: على هو الله، ويوجدون فى تركيا ويعرفون (بالبكداشية) وفى مصر جماعة من البكداشية من أصل ألبانى يقيمون فى الجبل المعروف بالمغاورى[١]، ويوجدون فى بلاد العجم ويعرفون (بالبابية) ويوجودون فى فلسطين ويعرفون (بالبهائية) ومنهم جماعات فى بلاد متفرقة[٢]، وتوجد بالهند فرقة أخرى من الباطنية هى القاديانية، وهى أحدث فرقهم عهدًا، وأقربها ظهورًا.

هذه الفرق التى تنتشر بين المسلمين إلى اليوم لا بد أن يكون لكل منها رأى فى التأويل الباطنى للقرآن الكريم، يتفق مع مبدئها ومشربها.

ولا بد أن يكون لعلمائها تأويلات قرآنية يميلون بها نحو مذاهبهم وعقائدهم، غير أننا لم نقف على شىء من ذلك، اللهم إلا شيئًا يسيرًا للبابية والبهائية. . .

لهذا قصرنا كلامنا على هذه الطائفة[٣] وموقفها من كتاب الله تعالى، لأن ما وصلنا عنها ـ وإن قل ـ فهو يعطينا فكرة ولو إلى حد ما عن موقفها من تفسير القرآن الكريم.

واعتمادنا فى كل ما نكتب: على بعض الكتب التى وصلتنا عنهم، وعلى ما نشر فى المجلات العلمية من البحوث التى تدور حولهم، فنقول وبالله التوفيق:

---

(١) لما قامت الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ طردت جماعة البكداشية من مصر وذلك لما ظهر من فساد حالهم وسوء فعالهم.

(٢) ومن محاسن ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، طرد البهائيين من مصر، والاستيلاء على مركزهم العام وتحويله إلى جمعية المحافظة على القرآن الكريم، وقد تم ذلك فى حفل عام سنة ١٩٦١م.

(٣) البابية والبهائية فى واقع الأمر طائفة واحدة، نسبت إلى الباب زعيمها الأول فقيل لها: بابية، ثم نسبت إلى البهاء زعيمها الثانى، فقيل لها: بهائية كما هو موضح بعد.

البابية والبهائية

كلمة إجمالية عن نشأة البابية والبهائية:

البابيـــــــة:

نسبـة إلى الباب، وهو لـقب ميرزا على مـحمـد، الذى ابتدع هذه النحلـة، وإليه تنسب هذه الطائفة؛ باعتباره المؤسس الأول لها.

والبهائيـــــة:

نسبة إلى بهاء الله، وهو لقب ميرزا حسين على، الزعيم الثانى للبابية، وإليه تنسب هذه الطائفة؛ باعتباره المؤسس الثانى لها.

وأصل نشأة هذه الطائفة: أن ميرزا على محمد، الملقب بالباب، والمولود فى سنة ١٢٣٥ هجرية، توفى عند والده مـيرزا محمد رضـا قبل فطامه، فربى فى حـجر خاله ميرزا سيد على، ونشأ معه فى مدينة شيراز بجنوب إيران، واشتغل معه بالتجارة، ولما بلغ سنة الخامـسة والعشرين ادعى أنه الباب ـ والبـاب عند الشيعة معـناه نائب المهدى المنتظر ـ وكـان ادعاؤه هذا فى سنة ١٢٦٠ هجـرية، وما لبث أن وصلت هـذه الدعوة إلى طائفة من الجـاهلين فصدقوا بـها، وتتابعوا عليـها، وكان عدد من صـدقه فى أول الأمر ثمانية عشر رجلاً، فسماهم بكلمة (حـى) لأن عدد حرفيها بحساب الجمل ثمانية عشـر، ثم أمر أتباعـه هؤلاء بالانتشار فى إيـران وبلاد العراق؛ يبشـرون به وبدعوته، وأوصاهم بكتمان اسـمه حتى يظهره هو بنفسه، ولمـا حج وفرغ من أعمال الحج أعلن دعـوته فى المجـمع الكبـير فـاشتـهر اسـمه، وذاعت دعـوته، فـثارت عليـه طوائف المسلمين، وقاموا فى سبيل دعوته يحاربونها بكل الوسائل.

وقد عقـد بعض الولاة بين العلماء وبين الباب مناظرات أظهـرت ما فى دعوته من غواية وضلال، فكفـره بعض العلماء، ورماه بعض آخر منهم بالجنون، فـاعتقله الوالى فى سجن شيراز، ثم فى سجن أصفهـان، ثم فى طهران، ثم فى أذربيجان، وفى عهد السلطان ناصر الدين شاه اشتدت الخصومة بين البابيين ومخالفيهم، وقامت بينهم حرب

طاحنة كان من نتائجها أن أمر الصدر الأعظم بقتل الباب، فعلق فى ميدان مدينة تبريز، وقتل رميًا بالرصاص، وذلك فى سنة ١٢٦٥ هجرية.

وبعد قتله اختلف أتباعه على أنفسهم فى شأن من ينوب عنه، وظهرت من بعض أتباعه دعاوى مختلفة، من قبيل النبوة، والوصاية، والولاية، وأمثالها، وظلوا على هذا الأمر إلى أن حاول بعضهم اغتيال ناصر الدين شاة سنة ١٢٦٨ هجرية انتقامًا لزعيمهم الباب، ولما خاب سعيهم وفشلوا فى هذه المؤامرة، أخذت الحكومة تضطهد زعماء البابيين، وتسوقهم إلى التحقيق، فقتل من قتل، ونفى من نفى، وكان من بين زعمائهم فى هذا الوقت - وقت الاضطهاد - ميرزا حسين على الملقب فيما بعد بـ (بهاء الله).

بهاء الله:

ولد بهاء الله سنة ١٢٣٣ هجرية، وكان ابنه ميرزا عباس من كبار وزراء الدولة فى وقته، فلما قام الباب واشتهر أمره صدقه بهاء الله، فاشتد به أزر البابيين وكثرت جماعتهم، ولما حدثت حادثة سنة ١٢٦٨ هجرية، وهى محاولة اغتيال ناصر الدين شاه، قبض على بهاء الله وسجن نحو أربعة أشهر، ثم أفرج عنه وأبعد إلى العراق، فدخل بغداد سنة ١٢٦٩ هجرية، ومكث بها اثنى عشر عامًا، يدعو الناس إلى نفسه، ويزعم أنه هو الموعود به الذى أخبر عنه الباب، وكان يشير إليه بلفظ (من يظهره الله) وهناك تجمع حوله بعض أتباعه الذين لحقوا به من البابيين، وتسموا حينئذ بالبهائيين، ووقعت بينهم وبين شيعة العراق فتنة كادت تفضى إلى قيام حرب أهلية بين الفريقين، فقررت الحكومة العثمانية فى ذلك الوقت إرسال بهاء الله إلى الآستانة، فأرسل إليها ومكث بها نحوًا من أربعة أشهر، ثم نفى إلى أدرنة[1] ومكث بها نحوًا من خمس سنوات، ثم نفى منها إلى عكا من بلاد الشام سنة ١٢٨٥ هجرية، وبقى بها إلى أن مات سنة ١٣٠٩ هجرية، فتولى رئاسة الطائفة ابنه عباس المولود سنة ١٨٤٤م المتوفى سنة ١٩٢١م والملقب (عبد البهاء) فأخذ يدعو إلى هذا المذهب، ويتصرف

---

(١) وقع بين أتباع البهاء وأتباع أخيه يحيى الملقب بصبح أزل - وكان ممن رفض دعوى أخيه، وأتباعه يعرفون بالأزلية - فتنة فى أدرنة، فأمرت الحكومة العثمانية بإبعاد الفريقين من أدرنة، فنفت البهاء وأتباعه إلى عكا، ونفت يحيى وأتباعه إلى قبرص.

فيـه كيف يشاء، فلم يرض هذا الصنيع أتبـاع البهاء فـانشقوا عليـه، والتف فريق منهم حول أخيه الميرزا على، وألفوا كتبًا فى الطعن على عبد البهاء يتهمونه فيها بالمروق من دين البهاء(١).

الصلة بين عقائد البابية وعقائد الباطنية القدامى:

بالرغم من أن هذه الفرقة لم تظهر إلا قريبًا، فإنا نجدها ليست بالفرقة المحدثة فى عقائدها وتعاليـمها، بل هى فى الحقيقة ونفس الأمر وليـدة من ولائد الباطنية، تغذت من ديانات قديمـة، وآراء فلسفية، ونزعـات سياسـية، ثم درجت تحذو حذو البـاطنية الأول، وتترسم خطاهم فى كل شىء، وتهذى فى كتاب الله، فـتأولته بمثل ما تأولوه؛ لتصرف عنه قلوبًا تعلقت به ونفوسًا اطمأنت إليه.

والذى يقرأ تاريخ الباطنية الأول، ويطلع على ما فى كـتبهم من خرافات وأباطيل، ثم يقرأ تاريخ البابية والبهائية، ويطلع على ما فى كتبهم من خرافات وأباطيل، لا يسعه إلا أن يحكم بأن روح البـاطنيـة حلت فى جسم مـيرزا عـلى، وميـرزا حسـين على، فخرجت للناس أخيرًا باسم البابية والبهائية.

تقوم دعوة قدماء الباطنية على إبطال الشريعة الإسلامية، وينفذون إلى عقول العامة بإظهـارهم الحب والتـشـيع، بل والانتـساب إلى آل الـبيت، ثم يـصلون إلى أهوائهم ومآربهم بصرفهم القرآن إلى معـان باطنية لا يقبلها العقل، ولا تمتُّ إلى الدين بسبب، وعلى هذا الأسـاس قامت دعـوة البـابية والبـهـائية، وبمـثل هذه الوسـيلة وصلوا إلى أغراضهم وأهوائهم، وإليك ما يوضح ذلك.

أولاً: فى الباطنيـة من يدعى النبوة لنفســه أو يدعيهـا لغيره، ومـيرزا على الملقب بالباب يدعى أنه رسـول للناس من قبل الله تعالى، وله كـتاب اسمه (البـيان) ادعى أنه منزل عليه من عند الله تعالى، وقد جاء فى رســالة بعث بها الباب إلى العلامة الآلوسى صاحب التفـسير المعروف، يدعوه فـيها إلى الإيمان به: (إننى أنا عبـد الله، قد بعثنى

---

(١) لخصنا هذا البـحث التاريخى من مقـال لأبى الفضائل الإيرانى منشـور بمجلة المقـتطف الجزء التاسع، السنة العـشرين، ومن مقال السيـد محمد الخـضر حسين منشور بـمجلة نور الإسلام (مجلة الأزهر فيما بعد) العدد الخامس من السنة الأولى.

بالهدى من عنده) وسمى فى هذه الرسالة مذهبه دين الله فقال: (ومن لم يدخل فى دين الله، مثله كمثل الذين لم يدخلوا فى الإسلام)(١).

ولا نعلم ماذا أجاب به الآلوسى على هذه الرسالة، وإن كنا نعلم رأيه فى هذه الطائفة عندما تعرض لتفسير قوله تعالى فى الآية (٤٠) من سورة الأحزاب ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وذلك حيث يقول: «وقد ظهر فى هذا العصر عصابة من غلاة الشيعة لقبوا أنفسهم بالبابية، لهم فى هذا الباب فصول يحكم بكفر معتقدها كل من انتظم فى سلك ذوى العقول، وقد كاد يتمكن عرقهم من العراق لولا همة واليه النجيب الذى وقع على همته وديانته الاتفاق، حيث خذلهم - نصره الله - وشتت شملهم، وغضب عليهم - ﷺ - وأفسد عملهم، فجزاه الله تعالى عن الإسلام خيرًا، ودفع عنه فى الدارين ضيمًا وضيرًا»(٢).

وكذل ادعى زعيمهم الثانى الملقب ببهاء الله: أنه رسول من عند الله، جاء لتأسيس الإسلام على الأرض، وبين أيدينا كتاب بهاء الله، ويطلق عليه اسم (الكتاب) قرأنا فيه فوجدناه يقول:

«لعمر الله إن البهاء ما نطق عن الهوى، قد أنطقه الذى أنطق الأشياء بذكره وثنائه، لا إله إلا هو الفرد الواحد المقتدر المختار»(٣).

«لعمرى ما أظهرت نفسى، بل الله أظهرنى كيف أراد، إنى كنت كأحد من العباد، وراقدًا على المهاد، مرت على نسائم السبحان، وعلمنى علم ما كان، ليس هذا من عندى بل من لدن عزيز عليم، وأمرنى بالنداء بين الأرض والسماء، وبذلك ورد على ما ذرفت به دموع العارفين، ما قرأت ما عند الناس من العلم، وما دخلت المدارس، فاسأل المدينة التى كنت فيها لتوقن بأنى لست من الكاذبين»(٤).

«قل قد أتى المختار، فى ظل الأنوار، ليحيى الأكوان، من نفحات اسمه الرحمن، ويتحد العالم، و ويجتمعوا على هذه المائدة التى نزلت من السماء»(٥).

---

(١) رسائل الإصلاح (٣/ ٩٨).
(٢) روح المعانى (٢٢/ ٣٩).
(٣) الكتاب ص ٧.
(٤) المرجع السابق ص ٩.
(٥) المرجع السابق ص ٣٥.

ويرى الباب أن شريعته ناسخة للشريعة الإسلامية، فابتدع لأتباعه أحكامًا خالف بها ما جاءت به الشريعة الإسلامية، فجعل السوم تسعة عشر يومًا من شروق الشمس إلى غروبها، وعين لهذه الأيام وقت الاعتدال الربيعى، بحيث يكون عيد الفطر عندهم يوم (النيروز) على الدوام، وفى كتاب البيان «. . . أيام معدودات، وقد جعلنا النيروز عيدًا لكم بعد إكمالها»[(١)].

كذلك يرى بهاء الله أن شريعته ناسخة للشريعة الإسلامية، ويقرر ذلك فى كتابه فيقول: «لو كان القديم هو المختار عندكم، لما تركتم ما شرع فى الإنجيل، بينوا يا قوم. . . لعمرى ليس لكم اليوم من محيص، إن كان هذا جرمى فقد سبقنى فى ذلك محمد رسول الله، ومن قبله الروح، ومن قبله الكليم، وإن كان ذنبى إعلاء كلمة الله وإظهار أمره، فأنا أول المذنبين، لا أبدل هذا الدين بملكوت السموات والأرضين»[(٢)].

وقرر البهاء أن الدين قسمان: عملى وروحانى، فالقسم الروحانى وهو مظاهر الألوهية والنبوة، غير قابل للتبديل، والقسم العملى، وهو المتعلق بالصور والأشكال الخارجية، قابل للتغيير، وعلى هذا المبدأ جعل لأتباعه الصلاة تسع ركعات فى اليوم والليلة، وجعل قبلتهم فى الصلاة أين يكون هو!! وفى هذا يقول: «إذا أردتم الصلاة فولوا وجوهكم شطرى الأقدس»[(٣)] وسوى بين الرجل والمرأة فى الحقوق الشرعية والسياسية، وقرر عقوبات مالية للزنى والسرقة وغيرهما، ومنع التسرى، وحرم الزواج بأكثر من واحدة، وقيد لهم الطلاق وصعبه، وحجته فى هذا كله: أن جميع الأديان أضحت لا تصلح لإصلاح العالم، فلا بد من دين جديد يوافق هذا العصر. . . عصر التقدم المادى العظيم، وهذا الدين الذى جاء به هو الذى يصلح فى نظره لمسايرة هذا العصر دون غيره[(٤)].

ثانيًا: منع الحسن بن الصباح وغيره من زعماء الباطنية، العوام من دراسة العلوم، والخواص من النظر فى الكتب المتقدمة، وفعل الباب مثل ذلك فحرم فى كتابه (البيان)

---

(١) رسائل الإصلاح (٣/ ٩٩).
(٢) كتاب بهاء الله ص ٣٩.
(٣) رسائل الإصلاح (٣/ ٩٩).
(٤) انظر مقال أبى الفضائل فى المقتطف العدد التاسع من السنة العشرين، وانظر المحاضرة التى ألقاها عبد العزيز نصحى عن البهائيين بدار جمعية الهدايا الإسلامية.

التعليم وقراءة كتب غير كتبه، فكان من وراء ذلك أن حرق أتباعه القرآن الكريم، وما فى أيديهم من كتب العلم... ولكن بهاء الله أدرك أن هذا التحجير قد يصرف بعض الناس عن دعوته، فنسخ ذلك التحجير، وذلك حيث يقول فى كتابه المسمى بـ (الأقدس) «قد عفا الله عنكم ما نزل فى البيان من محو الكتب، وآذنا بكم بأن تقرأوا من العلوم ما ينفعكم»(١).

ثالثًا: من الباطنية من يدعى حلول الإله فى بعض الأشخاص، كالقرامطة الذين يدعون حلول الإله فى إمامهم محمد بن إسماعيل، ونجد مثل هذه الدعوى متجلية فى بعض مقالات البابية، فهذا بهاء الله يقول فى الكتاب «لنا مع الله حالات نحن فيها هو، وهو نحن، ونحن نحن»(٢) وهذا عباس الملقب بعبد البهاء يقول: «وقد أخبرنا بهاء الله بأن مجىء رب الجنود والأب الأزلى، ومخلص العالم الذى لا بد منه فى آخر الزمان، كما أنذر جميع الأنبياء، عبارة عن تجليه فى الهيكل البشرى، كما تجلى فى هيكل عيسى الناصرى، إلا أن تجليه فى هذه المرة أتم وأكمل وأبهى، فعيسى وغيره من الأنبياء هيأوا الأفئدة والقلوب لاستعداد هذا التجلى الأعظم»(٣) يريد بهذا: أن الله تجلى فيه بأعظم من تجليه فى أجسام الأنبياء على ما يزعم، وهذا أبو الفضل الإيرانى أحد دعاتهم يقول: «... فكل ما توصف به ذات الله ويضاف ويسند إلى الله من العزة، والعظمة، والقدرة والعلم، والحكمة، والإرادة، والمشيئة، وغيرها من الأوصاف، إنما يرجع بالحقيقة إلى مظاهر أمره، ومطالع نوره، ومهابط وحيه، ومواقع ظهوره»(٤) ومثل هذا كثير فى كلام زعمائهم ودعاتهم.

رابعًا: يدعى الباطنية رجوع الإمام المعصوم بعد استتاره، ويحصرون مدارك الحق فى أقواله، والبهائية يقولون هذا القول ويثبتون فى كتبهم.

يقول بهاء الله فى الكتاب: «يسند القائم ظهره إلى الحرم، ويمد يده المباركة، فترى بيضاء من غير سوء، ويقول: هذه يد الله، ويمين الله، وعين الله، وبأمر الله، أنا الذى لا يقع عليه اسم ولا صفة، ظاهرى إمامة، وباطنى غيب لا يدرك»(٥).

---

(١) رسائل الإصلاح (٣/ ١٠٠).
(٢) الكتاب ص ٣٣.
(٣) رسائل الإصلاح (٣/ ١٠٠).
(٤) المرجع نفسه.
(٥) الكتاب ص ٨٣.

وقد عـرفت أن البابيـة والبهائيـة يعبـرون عن الإمام المعـصوم بن سـيظهره الله، ويزعمون أنه هو الذى يعرف تأويل ما جاءت به الرسل عليهم السلام.

خامسًا: من مبادئ قدماء الباطنية التفرس، وعلى هذا المبدأ منعوا التكلم بآرائهم فى بيت فيه سراج أى فقيه أو متعلم، والبـهائية يسيرون على هذا المبدأ وإليك ما يثبت ذلك.

أرسل إلى أبى الفضـائل الإيرانى بعض إخوانه كتـابًا يرجوه فيه أن يرد على مـقال كـتبـه جرجس صـال الإنجليـزى بإمضـاء هاشم الشامى، والـمقـال يتضـمن توجيـه الاعتراضات على فصاحة القرآن الكريم، فاعتذر أبو الفضائل عن ذلك فى رسالة أرسل بها إلى صاحبه يقول فيها:

« . . . إن هنالك موانع جمة، أعظمـها وأشدها مانع كبير لا يسـتسهل العاقل تذليل صعـوباته، ولا يتسنم النبـيه متن صـهواته، حيث إن قلـوب الذين اكتفـوا من الإسلام باسمه، ومن القرآن برسمه، تغذت فى مدة مديدة، وأزمنة غير وجيزة بقشور المطالب، وألفت سـفاسف المسـائل حتى بعـدت عن لباب الكتـاب، وجهلت حـقيـقة مـعانى الخطاب، فلو كشـفنا عن حقـائق الإشارات، وأظهرنا المـعانى المقـصودة من ظواهر العبارات، فطلعت صور الحـقائق المقصورة فى قصر الآيـات، وتهللت وجوه المعانى المستورة فى خدور الاستعـارات، لندفع تلك الردود والاعتراضات، ونظهر بطلان تلك الإيرادات والانتقادات، تثور أولاً أحقاد جهلائنا، ويرتفع نعيب سفهائنا، وينادون بالويل والثبور، ويثيرون الأحقاد الكامنة فى الصـدور. . . » ثم يقول لصاحبه فى آخر الرسالة: « . . . لتـعلم حق العلم أنى مـا نسـيت ولم أكـره صفـة من صـفـاتك، ولا خلة من خلالك، ولكن ـ والحق يـقال ـ إنك نسيت وصـية روح الله الواردة فى سفـر متى «لا تلقوا جواهركم تحت أرجل الخنـازير» حيث تجاهر بجواهر الأسرار ومعـالى المعانى، عند من لا يستـحق أن تخاطبه وتلاطفه، وتجـالسه وتؤانسه، فكيف أنه يكون مـستودع الحكمـة الإلهية، والأسـرار الربانية، فـتمـسك بالحكمة، وكن على جـانب عظيم من الفطنة» (١).

---

(١) رسائل أبى الفضائل ص ١٢٦ - ١٢٧.

ويقول فى رسالة أرسلها إلى الشيخ فرج الله زكى الكردى أحد أتباعهم فى مصر «. . . واعلم يا حبيى أنه سيدخل عليكم كثيرون، ويتظاهرون بنوايا المتفحص الباحث، ويظهرون السلم والوفاق، وهم أهل النفاق وأصل الشقاق، ومقصودهم معرفة أهل الإيمان، واضطهاد أصحاب الإيقان، كما تصرح وتنادى آى الفرقان: منها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ . . .﴾ (الحديد: ١٣ - ١٥) إلى آخر الآيات، فتحكم الآية المباركة أنه لا بد من دخول أهل النفاق على أصحاب الوفاق، للاستطلاع والاستراق، فلا يغرنك تحببهم وترفقهم، ولا يخدعنك ملاينتهم وتملقهم، فإن التهور، والتعجيل يوجب الندم والافتضاح، والتروى يكفل النجاح والفلاح، ومن الحكم المأثورة (العجلة من الشيطان، والتأنى من الرحمن»[(١)].

من كل ما تقدم يظهر لنا بوضوح: أن البابية والبهائية ليسوا أصحاب نحلة جديدة فى تعاليمها ومعتقداتها، وإنما هم قوم من أهل الباطن يريدون الكيد للإسلام باسم الإصلاح الدينى، وسيظهر لك من تأويلاتهم للقرآن ـ علاة على ما سبق ـ أنهم ينهجون نهج الباطنية الأول، ويترسمون خطاهم فى تحريفهم لكتاب الله، والعبث بآياته!!.

* * *

(١) رسائل أبى الفضائل ص ١٣٨، ١٣٩.

موقف البابية والبهائية من تفسير القرآن الكريم

لم تحل عقائد البابية والبهائية بينهم وبين الاعتراف بالقرآن الكريم، ولم يمنعهم موقفهم الشاذ من الرجوع إليه ليأخذوا منه الشواهد على دعاواهم الباطلة، ومذاهبهم الفاسدة؛ تمويهًا على العامة، وتغريراً بعقول الأغمار الجهلة.

أبو الفضائل الإيرانى يعيب تفاسير أهل السنة:

ولم يكن فى وجوههم قطرة من الحياة تمنعهم من التنديد بتفاسير علماء أهل السنة وتحقيرها، فهذا داعيتهم أبو الفضائل الإيرانى، نجده فى رسالة أرسلها لصديق له، يعيب على تفاسير أهل السنة فيقول: «... ولقد يدهش الإنسان ويتحير يا حبيبى من تعاليمهم الباطلة، وتفاسيرهم المضحكة فإن أحباءنا الأمريكيين الذين تشرفوا بالوفود على الأرض المقدسة فى هذه الأيام الأخيرة، قابلناهم فى بيروت، وسافرنا معهم إلى الأرض الفيحاء مدينة حيفا، أخبرونا بما يتحير منه الأريب، ويدهش منه اللبيب، كيف تقدمت كلمة الله فى تلك الأقطار البعيدة الشاسعة مع هذه التفاسير الباطلة الضائعة، من النفوس الجاهلة الخادعة؟ أليس ذلك من عظيم قدرة الله وشديد قوته؟ وسطوع آياته وظهور بيناته؟...»(١).

يعيب أبو الفضائل تفسير أهل السنة؛ لأنه يرى فى زعمه أنه وأهل نحلته خير من يفهم القرآن، ويعلم ما فيه من أسرار ورموز، ويرى أنه ومن شاكله هم الراسخون فى العلم، الذين يقفون على عجائب القرآن التى لا يدل عليها إلا باطنه، أما ما يعنى به مفسروا أهل السنة من الظواهر فليس فى زعمه من المعانى التى يرمى إليها القرآن، وفى هذا يقول ما نصه: «... لو كان معانى آيات القرآن ما هو ظاهر يعرفه كل من يعرف اللغة العربية، ويتلذذ منه كل من له إلمام بالعلوم الأدبية، كيف يتم هذا القول - يريد قول رسول الله ﷺ فى شأن القرآن إنه لا تنقضى عجائبه - وكيف يصدق قول الله فى الآية (٧) من سورة آل عمران ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾»(٢).

---

(١) رسائل أبى الفضائل ص ٦٦.

(٢) رسائل أبى الفضائل ص ٧٦.

إنتاج البابية والبهائية فى التفسير، ومثل من تأويلاتهم الفاسدة:

ولكن هل وصل إلى أيدينا شىء من كتب هذه الطائفة فى تفسير القرآن؟ لم نسمع ولم نقرأ أنهم ألفوا تفسيرًا متناولاً للقرآن آية آية، وإنما قرأنا أن رئيسهم الأول فسر سورة البقرة، وسورة يوسف، وسورة الكوثر، ولكن لم يصل إلى أيدينا شىء فى ذلك، وكل ما وصل إلينا هو نبذ من تفسيره، وتفسير بعض أشياعه ودعاته، قرأناها فى كتبهم أنفسهم، وفى الكتب والمقالات التى كتبت عنهم، وهذه النبذ مع قلتها تصور لنا مقدار تهجمهم على تحريف القرآن الكريم، والميل بنصوصه إلى ما يرضى أهواءهم، ويشبع أطماعهم، وإليك بعض هذه التأويلات، لتقف بنفسك على مقدار هذيان القوم، وتلاعبهم بالقرآن وبالعقول!!.

من تأويلات الباب:

فسر الباب سورة يوسف، فمشى فيها على طريقة التأويل الذى لا يقره الشرع ولا يقبله العقل، ولا يمكنه أن يفهمه إلا من يفهم لغة المبرسمين(١) كما قيل.

وإليك بعض ما قاله الباب فى تفسيره لسورة يوسف، لتقف على مقدار هذيانه، وتلاعبه بالنصوص القرآنية.

عند قوله تعالى فى الآية (٤) ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾ يقول ما نصه: «وقد قصد الرحمن من ذكر يوسف نفس الرسول، وثمرة البتول، حسين بن على بن أبى طالب مشهودًا... إذ قال حسين لأبيه يومًا: إنى رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم بالإحاطة على الحق لله القديم سجادًا... وإن الله قد أراد بالشمس فاطمة، وبالقمر محمدًا، وبالنجوم أئمة الحق فى أم الكتاب معروفًا، فهم الذين يبكون على يوسف بإذن الله سجدًا وقيامًا»(٢).

وفى قوله تعالى فى الآية (٥) ﴿**قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ يقول ما نصه: (إذ قال على: يا بنى لا تخبر مما أراك الله من أمرك إخوتك ترحمًا على إلفهم، وصبرًا لله العلى، وهو الله كان عزيزًا حميدًا، إن كنت تخبر من أمرك فى بعض مما قضى الله فيك، فيكيدوا لك كيدًا، بأن

---

(١) البرسام ـ بكسر الباء: علة يصحبها هذيان.

(٢) مفتاح باب الأبواب ص ٣٠٩.

يقتلـوا أنفسهم فى مـحبـة الله من دون نفسك الحق شـهيدًا، وإن الله لوجـهك بدمك محمرًا على الأرض بالحق على الحق صبيغًا وإن الله قـد شاء كما شاء أن يراك مخضبًا شعرك من دمك، ونفسك على الأرض على غير الحق لدى الحق قتيلاً، وجسمك على الأرض عـريًا، وإن الله شـاء كمـا شـاء بأن يرى بناتك وحـريمك فى أيدى الكافـرين أسيرًا. . . »(١).

وعند قـوله تعـالى فى الآية (٨) ﴿**إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ يقول ما نصه: (. . . إذ قالوا حروف لا إله إلا الله، وإن يوسف أحب إلى أبينا منا بما قد سبق من علم الله حرفًا مسـتسرًا بالسر مقنعًا على السر محتجبًا فى سطر، غايبًا فى سر السر مرتفعًا عما فى الدنيا وأيدى العالمين جميعًا، وإنا نحن عصبة فيما أراد الله فى شأن يوسف النبى محمد العربى حول السطر مسطورًا، وإن الله قد فضل أبانا بفضل نفسه وقدر الله سر المستسر من سر أمره بما فى أيدى العالمين بالكشف المبين على أهل النار من سر (الباء) ضلالاً. . . إلخ)(٢). اهـ.

من تأويلات بهاء الله:

ويرى بهـاء الله أن ما ورد فى القـرآن من الصراط، والزكـاة، والصيـام، والحج، والكعبة، والبلد الحرام، وما إلى ذلك، كله لا يراد به ظاهره وإنما يراد به الأئمة، وفى هذا يقول فى الكتاب: «قال أبو جعـفر الطوسى: قلت لأبى عبد الله: أنتم الصراط فى كتاب الله، وأنتم الزكاة، وأنتم الحج؟ قال: يا فلان. . . نحن الصراط فى كتاب الله عز وجل، ونحن الزكاة، ونحن الصيام، ونحن الحـج، ونحن الشهر الحرام، ونحن البلد الحرام، ونحن كعبة الله، ونحن قبلة الله، ونحن وجه الله»(٣).

وفى كتاب بهاء الله والعصر الجديد، ما يدل على أن البهائيين لا يعترفون بالبعث، ولا بالجنة والنار؛ حيث يفسرون يوم الجزاء ويوم القيـامة بمجىء ميرزا حسين الملقب ببهاء الله، قـال فى كتاب بهاء الله والعـصر الجديد: «وطبقا للتـفاسير البـهائية، يكون مجئ كل مظهر إلهى عبارة عن يوم الجزاء، إلا أن مجىء المظهر الأعظم بهاء الله: هو

(١) مفتاح باب الأبواب ص ٣١٠.

(٢) مفتاح باب الأبواب ص ٣١٢.

(٣) الكتاب ص ٨٣.

يوم الجزاء الأعظم للدورة الدنيوية التى نعيش فيها» وقال: «ليس يوم القيامة أحد الأيام العادية، بل هو يوم يبتدئ بظهور المظهر، ويبقى ببقاء الدورة العالمية»[(١)].

ويفسر البهائية الجنة بالحياة الروحانية، والنار بالموت الروحانى، فقد جاء فى كتاب بهاء الله والعصر الجديد «أن الجنة والنار فى الكتب المقدسة حقائق مرموزة» فالجنة ترمز إلى حياة الكمال، والنار ترمز إلى حياة النقص، ولما كانت الحياة الروحية فى نظر البهاء هى الإيمان به، والموت الروحى هو تكذيب دعوته، فإنا نراه يقرر ذلك فيقول: «. . . منهم من قال: هل الآيات نزلت؟ قل: إى ورب السموات، قال: أين الجنة والنار؟ قل: الأولى لقائى، والأخرى نفسك يا أيها المشرك المرتاب»[(٢)].

من تأويلات عبد البهاء عباس:

كذلك نجد عبد البهاء، يتكلم عن النبوة والوحى بما يوافق كلام قدماء الباطنية الذين قلدوا الفلاسفة فيقول: «الأنبياء مرايا تنبئ عن الفيض الإلهى، والتجلى الروحانى، وانطبعت فيه أشعة ساطعة من شمس الحقيقة، وارتسمت فيه الصور العالية ممثلة لها تجليات أسماء الله الحسنى، ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى، فهم معادن الرحمة، ومهابط الوحى، ومشارقة الأنوار، ومصادر الإرسال، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»[(٣)].

ونجد قرة العيون إحدى أتباع الباب، تدعى أنها الصور الذى ينفخ فيه يوم القيامة، وتقول: «إن الصور الذى ينتظرون فى اليوم الآخر هو أنا»[(٤)].

وبين أيدينا رسائل أبى الفضائل، محمد بن رضا الجرفادقانى، المعروف بفضل الله الإيرانى، أحد دعاة البابية المتعصبين، وكتاب الحجج البهية له أيضًا، وفيهما تفسير لبعض الآيات القرآنية، يما يتفق ومذهبه الباطل.

فمن ذلك مثلاً أنه يفسر الروح الأمين الذى ورد فى القرآن بأنه الحقيقة المقدسة، ثم يعرفها فيقول: «هى غيب فى ذاتها، مجردة بحقيقتها عن الجسم أو الجسمانيات، فلا توصف بأوصاف الماديات، ولا تذكر بخصائصها، ولا يطلق عليها الخروج

---

(١) رسائل الإصلاح (٣/ ١٠٣).
(٢) كتاب بهاء الله ص ٩٧.
(٣) خطابات ومحادثات عبد البهاء.
(٤) المبادئ البهائية ص ٢١.

والدخول، ولا توصف بالتحيز والحلول، وإنما هى حقيقة تنجلى فى مظاهر أمر الله ...ى، عرشها قلوب الأصفياء، ومرآة تجليها صدور الأولياء، وإنما مثل طلوعها ...راقها فى النفوس القدسية كمثل انطباع الشمس فى المرايا، فلا يقال: إن الشمس حت فى المرآة، ولا إنها دخلت فيها، بل ولا يقال: إنها عرضت عليها، بل يقال: إن الشمس تجلت فى المرآة، وظهرت منها وأشرقت، وانطبعت بها)(١). وهذا بعينه مذهب قدماء الباطنية والفلاسفة.

ومن ذلك أيضا أنه فسر قوله تعالى فى الآيتين (١٤٢، ١٤٣) من سورة الأعراف ﴿**وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً...**﴾ الآية، تفسيرًا باطنيًا فقال: «المراد بالليل ـ كما سمعته منى مرارًا ـ هو عبارة عن أيام غيبة شمس الحقيقة، واليوم على حسب ما نزل فى التوراة المقدس يحسب كل يوم واحد بسنة واحدة، وكان موسى عليه السلام لما فارق أرض مصر، وفر من فرعون وملئه إلى مدين، كان ابن ثلاثين، وأقام فى مدين عشر سنوات يشتغل فيها برعى أغنام شعيب النبى عليه السلام، وكان فى طى هذه المدة التى كانت الليالى المظلمة، والدياجى الكالحة من ظلم الفراعنة، وأوهام الصابئة، مشتغلاً بتهذيب أخلاقه، وتطييب أعراقه، وتنقية فؤاده، والمناجاة مع ربه فى وحدته وانفراده، فلما طاب خلقه، وتم خلقه، بعثه الله نبيًا لهداية بنى إسرائيل، وإنقاذهم من ذلك الوبيل، فالمراد بأربعين ليلة هو أربعون سنة، أقام موسى عليه السلام فى أثنائها فى مصر ومدين، ولا تنافى كلمة واعدنا هذا التفسير، حيث ظاهرها يقتضى تكلم الرب مع موسى قبل بعثته، فإن أمثال هذه الكلمة كثيرًا ما أطلقت على ما ألقى فى الروع، وألهم فى القلب، حتى على الحيوانات، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا**﴾ (النحل: ٦٨) ﴿**وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (الأعراف: ١٤٢) ظاهر الآية المباركة يدل على أن موسى عليه السلام أخلف أخاه هارون حينما كان مع الشعب فى البرية، كما هو مذكور فى التواريخ، إلا أن التواريخ القديمة مظلمة جدًا، حيث إن المؤرخين اعتمدوا فى هذه المسائل على ما جاء فى التوراة

---

(١) رسائل أبى الفضائل ص ٣٩.

وسائر الكتب العتيقة، ولكنا أثبتنا فى كتاب الدرر البهية ضعف هذا المستند من حيث العلم، فيجوز أن يكون هارون مستخلفًا عن موسى عليهما السلام؛ لحفظ الشعب أيام غياب موسى فى مدين، وقد كان بنو إسرائيل يحافظون على التوحيد من لدن جدهم إبراهيم عليه السلام، فلما غاب موسى وضع بنو إسرائيل رسم عجل أبيس أحد معبودات المصريين تزلفًا إلى فرعون وقومه، فكأنهم تجنسوا بالجنسية المصرية، واعتنقوا الديانة الوثنية، فلما رجع موسى عليه السلام ورآهم على تلك الحال السيئة والعبادة الباطلة، أنكر ذلك على هارون، كما ذكره المؤرخون، إذ لا يعقل أن بنى إسرائيل على ما عرفوا بصلابة الرأى يتركون ديانتهم الموروثة بسبب تأخير موسى عن الرجوع إليهم عشر ليال.

ثم قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (الأعراف: ١٤٣) اعلم ـ حفظك الله ـ أن علماءنا ـ سامحهم الله ـ اختلفوا فى رؤية الله تعالى وعدم جواز رؤيته، فالشيعة والمعتزلة أنكروا جواز رؤيته، حيث تقتضى الجهة والمقابلة، وهى من مقتضيات الجسد والتحين والتحدد وأمثال ذلك، وهو منزه عن تلك الأوصاف، إذ لم يفهموا من لفظة الله سوى الذات، ولا شك أن الذات منزهة عن تلك الصفات، وأهل السنة والجماعة جوزوا رؤية الله تعالى اعتمادًا على صريح الآيات، واستنادًا على صريح الأحاديث والروايات، وكانوا على هذه العقيدة الصالحة إلى أواسط القرون الهجرية، فمزجوها بالعقائد الوهمية، حيث شاعت فى تلك القرون بينهم المسائل الكلامية، والمعارف الناقصة العقلية، فإنهم قالوا: إن رؤية الله تعالى جائزة وواقعة فى القيامة، إلا أنها لست من قبيل الإحاطة بالنظر، فترى ذات الله تعالى من غير مواجهة ومقابلة، وكيفية وإحاطة، مما يرجع إلى الوهم الصريح، وإنكار الرؤية حقيقة، وأهل البهاء المستظلين بظلال الفرع الكريم المتشعب من الدوحة المباركة العليا، لما عرفوا ـ على حسب ما يعلمون من القلم الأعلى ـ أن ذات الله بسبب تجردها وتقديسها الذاتى لا تدرك، ولا توصف ولا تسمى باسم، ولا تشارك بإشارة، ولا تتعين بإرجاع ضمير،

والأسماء والأوصاف وكل ما يسند ويضاف إليها راجعة فى الحقيقة إلى مظاهرها ومطالعها ولذلك سهل عليهم فهم معنى أمثال تلك الألفاظ التى نزلت فى الكتب المقدسة والصحف المطهرة؛ من قبيل رؤية الله تعالى، ولقاء الله وظهور الله ومجىء الله وغيرها مما ليس بخاف على أهل التحقيق. . . ثم اعلم أيها الحبيب اللبيب أن أهل البيان كثيرًا ما أطلقوا فى عباراتهم لفظ (جل) على أكابر الرجال استعارة، سواء كانوا من صناديد الدولة والملك؛ أو من قروم أهل العلم والفضل كما أطلق أمير المؤمنين عليه السلام على مالك بن الحارث النخعى المعروف بالأشتر، لما اشتهر ذكر وفاته، وأخبر بمماته، ومقامه عليه السلام معلوم لديك فى الفصاحة والبراعة، ورسائله وخطبه مستغنية عن المدح والإطراء بالطلاوة والصناعة، وعبارته هذه مذكورة فى نهج البلاغة، وهذه استعارة فى غاية المناسبة واللطافة حيث إن أكابر الرجال هم بمنزلة الأوتاد، لاستقرار أرض المعارف والديانة، أو الأمة والدولة، وكثيرًا ما أطلقه داود عليه السلام فى مزاميره، وسائر الأنبياء من بنى إسرائيل فى كتبهم على الرب تعالى، كما جاء فى مزمور (٤٢) (أقول لله صخرتى لماذا نسيتنى) وجاء فى مزمور (٧١) (كن لى صخرة وملجأ أدخله دائمًا، أمرت بخلاصى لأنك صخرتى وحصنى) إلى كثير من أمثالها، فإذا عرفت هذا، فاعلم أن موسى عليه السلام إنما طلب رؤيا الله تعالى بسبب اقتراح الشعب عليه أن يريهم الله، كما يدلك عليه قوله تعالى ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾(النساء: ١٥٣) إلا أن الله تعالى أخبره بأن رؤيته موقوفة باستقرار جبال العلم والإيمان فى مكانهم من الإذعان واليقين ولكنهم بسبب عدم بلوغهم إلى المقام الثابت الراسخ المكين من العلم والمعرفة واليقين فلا بد وأن تندك جبال وجودهم؛ ويتزعزع بنيان إذعانهم لمعبودهم حين لقائه فيتبدل إيمانهم بالكفر، ويقينهم بالشك، وإقبالهم بالإعراض، حيث لم تكمل بعد مراتب عرفانهم، ولم يبلغ إلى الدرجة العليا بنيان إيمانهم؛ فلم يبلغوا بعد إلى رتبة استحقاق الرؤية واللقاء ولم يصعدوا إلى درجة الاستقرار والبقاء؛ فلا بد من ظهور الأنبياء، وقيام الأصفياء، لتربية أشجار الوجودات البشرية، وتكمل معارفهم بالإيمان على ممر الدهور وطى العصور، حتى يبلغوا إلى درجة التمكن والاستقرار، حينئذ يتجلى عليهم رب الأرض والسماء، ويتشرف البالغون منهم إلى درجة المشاهدة

واللقاء، فخلاصة تفسير الآية الكريمة: أن موسى عليه السلام قال: رب أرنى أنظر إليك؛ حيث إن الشعب طلبوا منه رؤية الله تعالى فأجابه الله تعالى بأنك لن ترانى، لأن بنى إسرائيل لم يبلغوا بعد إلى درجة كمال وجودهم، ولم يستعدوا للقاء معبودهم، فانظر إلى جبال الوجودات، ومقادير استقرار الإيقان، فإن استقر جبل الوجود فى مقام إيمانه وإيقانه حين تجلى المعبود ولم يتزلزل ولم يتزعزع من مقامه حين الشهود، حينئذ استعد للقاء الله، واستحق للوقوف بين يدى الله، والتشرف برؤية الله، ثم تجلى الرب لأحد من تلك الأمة ممن كان من رؤساء الشعب، ومن جبال الإيمان والإيقان، فاندك وجوده، وتضعضع ريمانه، واضطرب إيقانه فانصعق موسى من ذلك الامتحان، وعرف مقدار صعوبة مقام الافتتان، فندم على ما سأل الرؤية للطالبين، ورجع فى الحين، وقال: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

فانظر إليه كيف أول الأربعين ليلة بأنها أربعين سنة، وهى التى يبعث الأنبياء على رأسها، وكيف علل التعبير بلفظ ليلة بأن مدة الأربعين سنة كانت مظلمة كالليالى بظلم فرعون وملئه، وكيف تخلص من منافاة لفظ واعدنا للمعنى الذى يهذى به، وكيف اتهم التوراة وسائر الكتب العتيقة ـ بما فيها القرآن طبعًا كما سيأتى بعد ـ بأنها لا يعول عليها فى الروايات التاريخية، وكيف رمى المعتزلة وأهل السنة بعدم إصابة المعنى الحقيقى للرؤية الواردة فى الآية، وكيف ادعى أنه ومن على شاكلته من البهائيين هم الذين أصابوا المعنى الحقيقى للآية، وكيف صرف لفظ الجبل عن معناه المراد إلى معنى لا يفهم من لفظ القرآن وسياق الآية!!... ولست فى حاجة إلى أن أبين ما فى هذا التفسير من خطأ وضلال، فإن الحق بين واضح(٢).

وفى كتاب الدرر البهية، صرح أبو الفضائل بأن قصص القرآن غير واقعة، وأنها فى الحقيقة رموز إلى معان خفية فقال: «لا يمكن للمؤرخ أن يستمد معارفه التاريخية من آيات القرآن»(٣) وقال: «إن الأنبياء عليهم السلام تساهلوا مع الأمم فى معارفهم التاريخية، وأقاصيصه القومية، ومبادئهم العلمية؛ فتكلموا بما عندهم، وستروا الحقائق تحت أستار الإشارات، وسدلوا عليها ستائر بليغ الاستعارات»(٤).

---

(١) رسائل أبى الفضائل ص ٩٦ - ١٠٣. (٢) رسائل الإصلاح (٣/ ٩٦).
(٣، ٤) رسائل الإصلاح (٣/ ٩٦).

ولا شك أن هذه دعوى كاذبة يراد بها إدخال الشك فى قلوب المؤمنين، وإيهامهم بأن القرآن لا يعتمد على ظاهره، وإنما يعتمد على باطنه الذى عندهم علمه دون من عداهم من الناس، وإلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لم ولن يقوم دليل تاريخى أو عقلى على عدم صحة قصة من قصص القرآن، وهو الذى ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ (فصلت: ٤٢).

كذلك نجد أبا الفضائل يعرض فى كتابه المسمى (الدرر البهية) لقوله تعالى فى الآية (٣٩) من سورة يونس ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** ﴾ ولقوله تعالى فى الآية (٥٣) من سورة الأعراف ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** ﴾ فيقول:

«ليس المراد من تأويل آيات القرآن معانيها الظاهرية ومفاهيمها اللغوية، بل المراد المعانى الخفية التى أطلق عليها الألفاظ على سبيل الاستعارة والتشبيه والكناية» . . . ثم قال بعد هذا: «قرر الله تنزيل تلك الآيات على ألسنة الأنبياء وبيان معانيها وكشف الستر عن مقاصدها إلى روح الله حينما ينزل من السماء» وقال: «إنما بعثوا عليهم السلام لسوق الخلق إلى النقطة المقصودة، واكتفوا منهم بالإيمان الإجمالى حتى يبلغ الكتاب أجله؛ وينتهى سير الأفئدة إلى رتبة البلوغ فيظهر روح الله الموعود ويكشف لهم الحقائق المكنونة فى اليوم المشهود» وقال: «وفى نفس الكتب السماوية تصريحات بأن تأويل آياتها إلى معانيها الأصلية المقصودة لا تظهر إلا فى اليوم الآخر، يعنى يوم القيامة، ومجىء مظهر أمرالله وإشراق آفاق الأرض ببهاء وجه الله» ثم قال: «ولذلك جاءت من لدن نزول التوراة إلى نزول البيان تافهة باردة عقيمة جامدة، بل مضلة مبعدة منحرفة مفسدة)(١).

ومعلوم أن لفظ التأويل فى الآيتين عبارة عن وقوع المخبر به ولكن يأبى هذا المخرف المنحرف إلا أن يحمل التأويل على تأويل الآيات إلى المعانى الخفية وعجيب بعد هذا أن يتهم الرسل بأنهم لا يعرفون تأويل الآيات، لأن وظيفتهم البلاغ فحسب، وأما كشف الستر عن المعانى الخفية فإلى روح الله حين نزولة، وروح الله فى نظره

(١) رسائل الإصلاح (٣/ ٩٥).

ونظر أشياعه: هو البهاء الذى يعبر عنه بالنقطة، ويدعى أن الرسل أرسلوا لسوق الخلق إليه، ويدعى أيضًا أن ظهوره يكون يوم القيامة، ولا شك أن هذا تفسير بارد عقيم، وجامد مضل، ولكنه لا يريد أن يعترف بهذا، بل نجده يتعسف فيرمى كل التفاسير من لدن نزول التوراة إلى نزول البيان بأنها تافهة باردة، عقيمة جامدة، مضلة مبعدة، محرفة مفسدة، لأن أصحابها خاضوا فيما لا علم لهم به، والعلم فى نظره عند البهاء وحده.

كذلك نجد أبا الفضائل يفسر قوله تعالى فى الآية (٣١) من سورة المدثر ﴿**وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ بما لا يقره شرع، أو يرضى به عقل فيقول: «إن لفظ الملك واحد الملائكة، والملائكة فى اللغة العربية توافق لفظًا ومعنى ما فى اللغة العبرانية، حيث إنها مأخوذة من الأصل السامى، الذى اشتقت منه اللغات السريانية، والعبرانية، والعربية، والآشورية، والكلدانية، وهو يفيد معنى المالكية والاستيلاء على شىء فكما أنه أطلق لفظ الملك والملائكة فى الكلمات النبوية المحفوظة فى الكتب السماوية على النفوس القدسية، والأئمة الهداة، لخلعهم ثياب البشرية وتخلقهم بالأخلاق الروحانية الملكوتية، فملكوا زمام الهداية، وصاروا ملوك ممالك الولاية، كأنهم أعطوا سلطة مطلقة فى سعادة الناس وشقاوتهم، وهدايتهم وضلالهم، وهذا هو معنى الولاية المطلقة التى جاءت فى الأخبار، ولذا سمى سيد الأبرار وأمير الأبرار، بقسيم الجنة والنار، كذلك أطلق هذا اللفظ فى الكلمات النبوية على رؤساء الأشرار، وأئمة الضلال، حيث إنهم قادة الفجار يقودونهم إلى النار ولذا أطلق عليهم لفظ الملائكة، كما أنه أطلق عليهم لفظ الأئمة فى قوله: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ**﴾ (القصص: ٤١) ثم استدل أبو الفضائل بعبارات من الكتب القديمة على جواز إطلاق الملائكة على أئمة الجور والضلال ثم تكلم عن سر تخصيص العدد بتسعة عشر، فذكر أن الديانات أبواب لدخول جنة الله ورضوانه؛ كما أنها أبواب للدخول فى جهنم بسخط الله حين تغييرها مثلاً، ثم استطرد من هذا إلى أن الباب كما يطلق على الديانات، يطلق أيضًا على الأنبياء وكبار الأولياء، واستدل على هذا بعبارة نقلها عن الجامعة وردت فى شأن الأئمة وهى (أنتم بابه المؤتى والمأخوذ عنه) قال: وإليه أشير فى الآية الكريمة ﴿**فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾

(الحديد: ١٣) بعد أن قرر هذا، ادعى «أن أبواب الجنة كانت عند ظهور النقطة الأولى تسعة عشر، وهى ثمانية عشر حروف (الحى) والنقطة الفردانية[١] وبهم صعد المخلصون إلى الذروة العليا، ودخلوا الجنة... ثم عارض الدجال الرب سبحانه فعين تسعة عشر إنسانًا من رؤساء أصحابه ودهاة أحبابه؛ لإضلال أهل الإيمان، ومعارضة جمال الرحمن» ثم قال: «فالمراد بملائكة النار فى الآية المباركة هو هذه الرجال من أصحاب الدجال وأئمة الضلال» ثم ذكر بعد ذلك أن عدد أبواب النار صار فى هذا الدور الحميد[٢]، والكون المجيد ثلاثة فقط وهى أيضًا ملائكة الجحيم، وقادة أصحاب الشمال إلى العذاب الأليم».

واستدل على ذلك بقوله تعالى ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ (المرسلات: ٣٠، ٣١) ثم قال: «وفى كل دور وزمان تجد لكلمات الله تعالى مصاديق يعرفها أهل الإيمان، وحملة القرآن، ومخازن الحكمة، ومطالع البيان...»[٣]

وفى الحجج البهية يقرر أبو الفضائل: أن جميع الديانات السماوية، وغير السماوية واحدة من ناحية الاتفاق على العقائد الأصلية، وإن اختلفت فى الأحكام الفرعية، وذلك حيث يقول فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة الشورى ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ «... فانظروا - وفقكم الله - كيف اعتبر فى الآية الكريمة ديانات الصابئة والزردشتية والموسوية، والنصرانية والإسلامية دينًا واحدًا، كما اعتبر مؤسسها وشارعها إلهًا واحدًا، على اختلافها فى الأحكام والحدود والآداب»[٤] وهذا منه كفر صريح، لأن الآية تدل على أكثر من اتحاد جميع الشرائع السماوية فى أصول العقائد؛ أما الديانة الصابئية، والديانة الزردشتية فلم يقل أحد إنها من شرائع الله، حتى يسوى بينها وبين سائر الشرائع السماوية.

كذلك نجد أبا الفضائل يقول بالرجعة، ويريد بها: رجوع الحقيقة المقدسة التى

---

(١) يريد الباب نفسه، والثمانية عشر الذين استجابوا له أولا.
(٢) لعله يريد زمن بهاء الله.
(٣) رسائل أبى الفضائل ص ١٠٤ - ١٠٩.
(٤) الحجج البهية ص ٢٨.

هى الوحى، على معنى أن الوحى بعد انقطاعه بموت محمد ﷺ يرجع فينزل مرة ثانية على زعيمهم الباب ثم البهاء، ويفسر القيامة: بأنها قيام مظهر الحقيقة المقدسة، والساعة: بساعة طلوعها وإشراقها بعد الغيبة ويقول: «وأما الرجعة والقيامة بالمعنى الذى تعتقد وتنتظره الأمم فهى أمر غير معقول؛ إذ هو مخالف للنواميس الطبيعية، ومباين للسنن الإلهية»(١).

ويقول: «إن جميع ما نزل فى الكتب المقدسة من بشارات يوم الله، ويوم القيامة، وظهور الرب، وورود الساعة وأشراطها... لا بد أن تكون لتلك الألفاظ مقاصد معقولة، ومفاهيم ممكنة، ومعان غير المعانى الظاهرية، ومدلولات غير المدلولات الأولية»(٢).

وكأنى بأبى الفضائل ـ وقد قال بنبوة الباب والبهاء ـ نظر فى كتاب البيان وكتاب بهاء الله، فلم يجدهما فى رصانة القرآن وفصاحته، فأراد أن ينزل بالقرآن عن مستواه فى البلاغة، ويسلب عنه إعجازه حتى يكون فى درجة البيان والكتاب فقال: «ولا يعرف ولا يمتاز كلام الله عن كلام البشر بفصاحته، وبلاغته، ورصف كلماته، وتسجيع عباراته، وترصيع جمله، ولطيف استعاراته، كما يدعيه قوم»(٣) كما أعتقد أنه ـ وقد أدعى نبوة الباب والبهاء ـ راح يفتش لهما عن معجزة تصدق دعواهما النبوة، فلم يعثر ولا على جزء معجزة فجره ذلك أن ينكر معجزات الرسل، ويتأول ما ورد فى القرآن منها بأنها من قبيل الاستعارات عن الأمور المعقولة، والحقائق الممكنة، مما يجوزه العقل السليم، كما جره إلى القول بأنه لا صلة بين دعوى الرسالة، وبين القدرة على الإتيان بالخوارق فقال: «لا نسبة بين القدرة على إتيان المعجزات والعجائب، وبين ادعاء النبوة والرسالة، فإن الرسالة والنبوة ليست إلا بعث إنسان من قبل الله تعالى لهداية الخلق، فما هو ارتباط هذا المعنى بالقدرة على شق البحار، وجفاف الأنهار، وإنطاق الأحجار والأشجار مثلاً»(٤).

ولا يشك عاقل فى أن هذا الزنديق يريد من وراء هذا أن يفتح باب شر عظيم؛ ليدخل منه كل من يدعى النبوة والرسالة، كما دخل منه أنبياء البابية البهائية من قبل.

---

(١) الحجج البهية ص ٣٠، ٣١.

(٢) الحجج البهية ص ٥٨.

(٣) الحجج البهية ص ٣٧.

(٤) الحجج البهية ص ٧٠.

وكما تأول متعصبو الشيعة الشجرة المباركة، والشجرة الملعونة، فحملوا الأولى على آل البيت، والثانية على أعدائهم من بنى أمية، كذلك تأولهما أبو الفضائل، فقال فى شرحه لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النور ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ...﴾ الآية «أطلق لفظ شجرة مباركة زيتونة على مظهر أمر الله، ومطلع شمس حقيقته وذاته، ومشرق أنوار سمائه وصفاته، فإن من هذه السدرة المباركة وحدها تتألق وتضىء الأنوار الإلهية وتشرق وتلمع أشعة العلم والقوة، والقدرة الملكوتية السماوية، وهذه استعارة فى غاية الرقة واللطافة، وتجوز فى نهاية اللطافة والبراعة، لم يوجد مثلها إلا فى الكلمات النبوية، ولم يسمع شبيهها إلا من نغمان طيور القدس فى الحدائق القدسية»... قال: «وكذلك فى الآية (٦٠) من سورة بنى إسرائيل، أطلق لفظ الشجرة الملعونة: استعارة على أعداء الله، ومحاربى رسول الله، من السلالة الأموية، والسلطة العضوضية السفيانية، حيث قال جل وعلا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ...﴾ (الإسراء: ٦٠)»(١).

هذه نبذ من تأويلات البابية للقرآن الكريم، تعطينا دليلاً قويّا، وبرهانًا صادقًا على أن المذهب البابى، أو البهائى يقوم على أطلال الباطنية، ويحمل فى سريرته القصد إلى هدم شريعة الإسلام بمعول التأويل فى آيات القرآن، ودعوى النبوة والرسالة، بعد أن ختمها الله برسالة محمد ﷺ، وإذا كان لنا كلمة بعد ذلك فهى: أن البابية والبهائية وأسلافهم من الباطنية، لم يكونوا أول من ابتدأ التأويل لنصوص الشريعة على هذه الصورة التى تأتى على بنيان الدين من قواعده، وإنما هو صنيع قلدوا فيه طائفة من فلاسفة اليهود الذين سبقوهم، فهذا هو (فيلون) الفيلسوف اليهودى المولود ما بين عشرين وثلاثين سنة قبل الميلاد، نجده ألف كتابًا فى تأويل التوراة، ذاهبًا إلى أن كثيرًا مما فيها رموز إلى أشياء غير ظاهرة، ويقول الكاتبون فى تاريخ الفلسفة: إن هذا التأويل الرمزى كان موجودًا ومعروفًا عند أدباء اليهود بالإسكندرية قبل زمن (فيلون) ويذكرون أمثلة من

(١) الحجج البهية ص ١٧٥، ١٧٦.

تأويلهم: أنهم فسروا آدم بالعقل، والجنة برياسة النفس، وإبراهيم بالفضيلة الناتجة من العلم، وإسحاق عندهم هو الفضيلة الغريزية، ويعقوب الفضيلة الحاصلة من التمرين، إلى أمثال هذا من التأويل الذى لا يحوم عليه إلا الجاحدون المراءون، ولا يقبله منهم إلا قوم هم عن مواقع الحكمة ودلائل الحق غافلون»[١].

وبعد أن انتهينا من موقف الباطنية - قديمهم وحديثهم - من القرآن الكريم، نتكلم عن موقف الزيدية منه فنقول وبالله التوفيق:

* * *

(١) رسائل الإصلاح (٣/ ٩٧، ٩٨).

الزيدية وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

تمهيـــــــد:

لم يقع بين الزيدية من الشيعة، وبين جمهور أهل السنة خلاف كبير مثل ما وقع من الخلاف بين الإمامية وجمهور أهل السنة، والذى يقرأ كتب الزيدية يجد أنهم أقرب فرق الشيعة إلى مذهب أهل السنة، وما كان بين الفريقين من خلاف فهو خلاف لا يكاد يذكر.

يرى الزيدية: أن عليّا أفضل من سائر الصحابة، وأولى بالخلافة بعد رسول الله ، ويقولون: إن كل فاطمى عالم زاهد شجاع سخى خرج للإمامة صحت إمامته، ووجبت طاعته، سواء أكان من أولاد الحسن، أم من أولاد الحسين، ومع ذلك فهم لا يتبرأون من الشيخين، ولا يكفرونهما، بل يجوزون إمامتهما؛ لأنه تجوز عندهم إمامة المفضول مع وجود الفاضل، كما أنهم لم يقولوا بما قالت به الإمامية من التقية، والعصمة للأئمة، واختفائهم ثم رجوعهم فى آخر الزمان، وغير ذلك من خرافات الإمامية ومن على شاكلتهم.

وكل الذى نلحظه على الزيدية، أنهم يشترطون الاجتهاد فى أئمتهم؛ ولهذا كثر فيهم الاجتهاد، وأنهم لا يثقون برواية الأحاديث إلا إذا كانت عن طريق أهل البيت، والذى يقرأ كتاب المجموع للزيدية يرى أن كل ما فيه من الأحاديث مروية عن زيد بن على زين العابدين، عن آبائه من الأئمة، عن رسول الله ﷺ، وليس فيه بعد ذلك حديث يروى عن صحابى آخر من غير أهل البيت ﷺ.

كما نلاحظ على الزيدية أيضًا أنهم تأثروا إلى حد كبير بآراء المعتزلة ومعتقداتهم، ويرجع السر فى هذا إلى أن إمامهم زيد بن على، تتلمذ على واصل بن عطاء، كما قلنا ذلك فيما سبق.

إذًا فلا نطمع بعد ذلك أن نرى للزيدية أثرًا مميزًا، وطابعًا خاصًا فى التفسير كما رأينا للإمامية؛ لأن التفسير إنما يتأثر بعقيدة مفسره، ويتخذ له طابعًا خاصًا، واتجاهًا معينًا، حينما يكون لصاحبه طابع خاص واتجاه معين، وليست الزيدية ـ بصرف النظر

عن ميولهم الاعتزالية ـ بمنأى بعيد عن تعاليم أهل السنة وعقائدهم، حتى يكون لهم فى التفسير خلاف كبير.

أهم كتب التفسير عند الزيدية:

وإذا نحن ذهبنا نفتش عن تفاسير الزيدية فى المكتبات التى تحت أبصارنا، وفى متناول أيدينا، فإنا لا نكاد نظفر منها إلا بتفسير الشوكانى المسمى (فتح القدير) وهو تفسير متناول للقرآن كله، وجامع بين الرواية والدراية، وتفسير آخر فى شرح آيات الأحكام اسمه (الثمرات اليانعة) لشمس الدين يوسف بن أحمد، من علماء القرن التاسع الهجرى، هذا هو كل ما عثرنا عليه للزيدية من كتب فى التفسير.

ولكن هل هذا هو كل ما أنتجته هذه الطائفة؟ أو أن هناك كتبًا أخرى ألفت فى التفسير ثم درست؟ أو ألفت وبقيت إلى اليوم غير أنه لم يكتب لها الذيوع والانتشار، ولذا لم تصل إلى أيدينا؟.

الحق أنى وجهت هذا السؤال إلى نفسى، فرجَّحت أن تكون هناك كتب كثيرة فى التفسير لهذه الطائفة، منها ما درس، ومنها ما بقى إلى اليوم مطمورًا فى بعض المكاتب الخاصة؛ إذ ليس من المعقول أن لا يكون لطائفة إسلامية قامت من قديم الزمان، وبقيت محتفظة بتعاليمها ومقوماتها إلى اليوم إلا هذا الأثر الضئيل فى التفسير.

رجحت هذا الرأى، فذهبت أفتش وأبحث فى بعض الكتب التى لها عناية بهذا الشأن؛ على أن أعثر على أسماء لبعض كتب فى التفسير لبعض من علماء الزيدية... وأخيرًا وجدت فى الفهرست لابن النديم: أن مقاتل بن سليمان ـ وعده من الزيدية ـ له من الكتب، كتاب التفسير الكبير، وكتاب نوادر التفسير[١].

ووجدت فى الفهرست أيضًا: أن أبا جعفر محمد بن منصور المرادى الزيدى، له كتابان فى التفسير: أحدهما: كتاب التفسير الكبير، والآخر: كتاب التفسير الصغير[٢].

وقرأت مقدمة شرح الأزهار من كتب الزيدية فى الفقه، وهى مقدمة تشتمل على تراجم الرجال المذكورة فى شرح الأزهار لأحمد بن عبد الله الجندارى، فخرجت منها بما يأتى:

---

(١) الفهرست ص ٢٥٤.
(٢) الفهرست ص ٢٧٤.

١- تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن على، جمعه بإسناده محمد بن منصور بن يزيد الكوفى، أحد أئمة الزيدية، المتوفى سنة نيف وتسعين ومائتين[(١)].

٢- تفسير إسماعيل بن على البستى الزيدى، المتوفى فى حدود العشرين وأربعمائة، قال: وهو فى مجلد واحد[(٢)].

٣- التهذيب، لمحسن بن محمد بن كرامة المعتزلى ثم الزيدى، المقتول سنة ٤٩٤هـ أربع وتسعين وأربعمائة، قال: وهذا التفسير مشهور، ويمتاز من بين التفاسير بالترتيب الأنيق؛ فإنه يورد الآية كاملة، ثم يقول القراءة ويذكرها ويميز السبع من غيرها، ثم يقول اللغة ويذكرها، ثم يقول الإعراب ويذكره، ثم يقول النظم ويذكره، ثم يقول المعنى ويذكره، ويذكر أقوالاً متعددة، وينسب كل قول إلى قائلة من المفسرين، ثم يقول النزول ويذكر سببه، ثم يقول الأحكام ويستنبط أحكامًا كثيرة من الآية[(٣)].

٤- تفسير عطية بن محمد النجوانى الزيدى، المتوفى سنة ٦٦٥هـ خمس وستين وستمائة، قال: وقد قيل إنه تفسير جليل، جمع فيه صاحبه علوم الزيدية[(٤)].

٥- التيسير فى التفسير، للحسن بن محمد النحوى الزيدى الصنعانى، المتوفى سنة ٧٩١هـ إحدى وتسعين وسبعمائة[(٥)].

هذا هو كل ما قرأت عنه من كتب الزيدية فى التفسير، لكن هل بقيت هذه الكتب إلى اليوم؟ أو درست بتقادم العهد عليها؟ سألت نفسى هذا السؤال، وحاولت أن أقف على جوابه، وأخيرًا انتهزت فرصة وجود الوفد اليمنى فى مصر[(٦)] ـ وفيه الكثير من علماء الزيدية الظاهرين ـ فاتصلت بأحد أعضائه البارزين، وهو القاضى محمد بن عبد الله العامرى الزيدى، فسألته عن أهم مؤلفات الزيدية فى التفسير، وعن الموجود منها إلى اليوم، فأخبرنى بأن للزيدية كتبًا كثيرة فى تفسير القرآن الكريم، منها ما بقى، ومنها

---

(١) مقدمة شرح الأزهار ص ٣٦.

(٢) ص ٧ من المرجع السابق.

(٣) ص٣٢ من المرجع السابق، وحقق الكتاب الدكتور عدنان زرزور، ولكنه لم يطبع حتى الآن، ونقل عنه القاسمى الكثير فى تفسيره.

(٤) ص٢٣ من المرجع السابق.

(٥) ص١١ من المرجع السابق.

(٦) كان ذلك فى سنة ١٩٤٥م.

ما اندثر، وما بقى منها إلى اليوم لا يزال مخطوطًا، وموجودًا فى مكاتبهم، وذكر لى من تلك المخطوطات الموجودة عندهم ما يأتى:

١- تفسير ابن الأقضم. . . أحد قدماء الزيدية.

٢- شرح الخمسمائة آية (تفسير آيات الأحكام) لحسين بن أحمد النجرى، من علماء الزيدية فى القرن الثامن الهجرى.

٣- الثمرات اليانعة (تفسير آيات الأحكام) للشيخ شمس الدين يوسف بن أحمد ابن محمد بن عثمان، من علماء الزيدية فى القرن التاسع الهجرى.

٤- منتهى المرام، شرح آيات الأحكام، لمحمد بن الحسين بن القاسم، من علماء الزيدية فى القرن الحادى عشر الهجرى.

٥- تفسير القاضى بن عبد الرحمن المجاهد، أحد علماء الزيدية فى القرن الثالث عشر الهجرى.

قال: وهناك كتب أخرى لا يحضرنى اسمها، ولا اسم مؤلفيها، فسألته عن السر الذى من أجله بقيت هذه الكتب مخطوطة إلى اليوم؟ وأى شىء يحول بينكم وبين طبعها، حتى تصبح متداولة بين أهل العلم، وعشاق التفسير؟ فأجابنى بأن السر فى هذا أمران: **أحدهما**: عدم تقدم فن الطباعة عندهم، **وثانيهما**: أن كل اعتمادهم فى التفسير على كتاب الكشاف للزمخشرى؛ نظرًا للصلة التى بين الزيدية والمعتزلة، مما جعل أهل العلم ينصرفون عن كل ما عداه من كتب التفسير، ورجا ورجوت معه أن يهيئ الله لهذا التراث العلمى فى التفسير من الأسباب ما يجعله متداولاً بين أهل العلم، ورجال التفسير.

وبعد. . . فما دامت أيدينا لم تصل إلى شىء من كتب التفسير عند الزيدية سوى كتاب (فتح القدير) للشوكانى، و (الثمرات اليانعة) لشمس الدين يوسف بن أحمد؛ فإنى سأقتصر على هذين الكتابين فى دراستى وبحثى، وسأبدأ بتفسير الشوكانى، وإن كان لا يمثل لنا تفسير الزيدية تمثيلاً وافيًا شافيًا، وأرجئ الكلام عن (الثمرات اليانعة) إلى أن أعرض للكلام عن تفاسير الفقهاء إن شاء الله.

فتح القدير ـ للشوكانى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

ومؤلف هذا التفسير هو العلامة محمد بن على بن عبد الله الشوكانى، ولد فى سنة ١١٧٣هـ ثلاث وسبعين ومائة بعد الألف من الهجرة النبوية، فى بلدة هجرة شوكان، ونشأ ـ رحمه الله تعالى ـ بصنعاء، وتربى فى حجر أبيه على العفاف والطهارة، وأخذ فى طلب العلم والسماع من العلماء الأعلام، وجدَّ فى طلب العلم، واشتغل كثيرًا بمطالعة كتب التاريخ ومجاميع الأدب، وسار على هذه الطريقة ما بين مطالعة وحفظ، وما بين سماع وتلق، إلى أن صار إمامًا يعول عليه، ورأسًا يرحل إليه «فريدًا فى عصره، ونادرة لدهره، وقدوة لغيره، بحرًا فى العلم لا يجارى، ومفسرًا للقرآن لا يبارى، ومحدثًا لا يشق له غبار، ومجتهدًا لا يثبت أحد معه فى مضمار».

ولقد خلف رحمه الله كتبًا فى العلم نافعة وكثيرة، أهمها: كتاب فتح القدير فى التفسير، وهو الكتاب الذى نحن بصدد الكلام عنه، وكتاب نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار فى الحديث، وكتاب إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والميعاد والنبوات.. رد به على موسى بن ميمون الأندلسى اليهودى، وغير هذا كثير من مؤلفاته.

تفقه رحمه الله على مذهب الزيدية، وبرع فيه، وألف وأفتى، ثم خلع ربقة التقليد، وتحلى بمنصب الاجتهاد، وألف رسالة سماها (القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد) تحامل عليه من أجلها جماعة من العلماء، وأرسل إليه أهل جهته سهام اللوم والمقت، وثارت من أجل ذلك فتنة فى صنعاء اليمن بين من هو مقلد ومن هو مجتهد.

وعقيدة الشوكانى عقيدة السلف، من حمل صفات الله تعالى الواردة فى القرآن والسنة على ظاهرها من غير تأويل ولا تحريف، وقد ألف رسالة فى ذلك سماها (التحف بمذهب السلف).

هذا وقد توفى الشوكانى رحمه الله سنة ١٢٥٠هـ، فرحمه الله وأرضاه[١].

---

(١) انظر ترجمة المؤلف فى أول فتح القدير، وفى أول نيل الأوطار.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يعتبر هذا التفسير أصلاً من أصول التفسير، ومرجعًا مهمّا من مراجعه، لأنه جمع بين التفسير بالدراية، والتفسير بالرواية، فأجاد فى باب الدراية، وتوسع فى باب الرواية، وقد ذكر مؤلفه فى مقدمته أنه شرع فيه فى شهر ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وعشرين بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية، وفرغ منه فى شهر رجب سنة تسع وعشرين بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل السلام وأزكى التحية، كما ذكر أنه اعتمد فى تفسيره هذا على أبى جعفر النحاس، وابن عطية الدمشقى، وابن عطية الأندلسى، والقرطبى، والزمخشرى، وغيرهم.

طريقة الشوكانى فى تفسيره:

وطريقة الشوكانى التى سلكها فى تفسيره يكفينا فى بيانها عبارته التى ذكرها فى مقدمة هذا التفسير مبينًا بها منهجه فيه.

قال رحمه الله: «. . . ووطنت النفس على سلوك طريقة هى بالقبول عند الفحول حقيقة، وها أنا أوضح لك منارها، وأبين لك إيرادها وإصدارها فأقول: إن غالب المفسرين تفرقوا فريقين، وسلكوا طريقين، الفريق الأول: اقتصروا فى تفاسيرهم على مجرد الرواية، وقنعوا برفع هذه الراية، والفريق الآخر: جردوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللغة العربية، وما تفيده العلوم الآلية، ولم يرفعوا إلى الرواية رأسًا، وإن جاءوا به لم يصححوا لها أساسًا، وكلا الفريقين قد أصاب، وأطال وأطاب، وإن رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب، وترك منها ما لا يتم بدونه كمال الانتصاب» ثم قال بعد أن دلل على قوله هذا: «وبهذا يعرف أنه لا بد من الجمع بين الأمرين، وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين، وهذا هو المقصد الذى وطنت نفسى عليه، والمسلك الذى عزمت على سلوكه إن شاء الله، مع تعرضى للترجيح بين التفاسير المتعارضة مهما أمكن واتضح لى وجهه، وأخذى من بيان المعنى العربى والإعرابى والبيانى بأوفر نصيب، والحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله ﷺ، أو الصحابة، أو التابعين، أو تابعيهم، أو الأئمة المعتمدين، وقد أذكر ما فى إسناده ضعف؛ إما لأن فى المقام ما يقويه، أو لموافقته للمعنى العربى، وقد أذكر الحديث معزوّا إلى راويه من

غيـر بيان حال الإسناد، لأنى أجده فى الأصـول التى نقلت عنها كذلك، كـما يقع فى تفسير ابن جرير والقـرطبى وابن كثير والسيوطى، وغيرهم، ويبـعد كل البعد أن يعلموا فى الحديث ضعفًـا ولا يبينوه، ولا ينبغى أن يقال فيما أطلقـوه: إنهم قد علموا ثبوته، فإن من الجـائز أن ينقلوه من دون كشف عن حـال الإسناد، بل هذا هو الذى يغلب به الظن؛ لأنهم لو كشفـوا عنه فثبت عندهم صحـته لم يتركوا بيان ذلك، كـما يقع منهم كثيرًا التصريح بالصحة أو الحسن، فمن وجد الأصول التى يروون عنها، ويعزون ما فى تفاسيرهم إليها، فلينظر إلى أسانيدها موفقًا إن شاء الله.

واعلم أن تفسـير السيوطى الـمسمى بالدر المنثـور، قد اشتمل على غـالب ما فى تفاسير السلف من التفاسير المرفوعة إلى النبى ﷺ، وتفاسير الصحابة ومن بعدهم، وما فاته إلا القليل النادر، وقد اشتمل هذا التفسـير على جميع ما تدعو إليه الحاجة منه مما يتـعلق بالتفسيـر، مع اختصار لمـا تكرر لفظًا واتحد معنى بقولى: ومـثله ونحوه؛ وضممت إلى ذلك فوائد لم يشمل عليها، وجدتها فى غيرها من تفاسير علماء الرواية، أو من الفوائد التى لاحت لى، من تصحيح، أو تحسـين، أو تضعيف، أو تعقيب، أو جمع، أو ترجيح فـهذا التفسـير وإن كبر حجـمه فقد كـثر علمه، وتوفر من التـحقيق قسـمه، وأصاب غرض الحـق سهمه، واشـتمل على ما فى كـتب التفاسـير من بدائع الفوائد، مـع زوائد فرائد، وقواعـد شرائد، ثم أرجع إلى تفـاسيـبر المـعتمـدين على الدراية، ثم أنظر فى هذا التفـسير بعد النظـرين، فعند ذلك يسفر الصـبح لدى عينين، ويتبـين لك أن هذا الكتـاب هو اللباب، وعـجب العجـاب، وذخيرة الطلاب، ونـهاية مآرب أولى الألباب. . . وقد سميـته «فتح القدير، الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير». . . »[1].

مما تقدم يتضح لك جليًا طريقة المؤلف التى سلكها فى تفسيره هذا، وقد رجعت إلى هذا التفسـير وقرأت فيه كـثيرًا، فوجدته يذكر الآيات، ثم يـفسرها تفسيرًا مـعقولاً ومقبـولاً، ثم يذكر بعد الفراغ من ذلك: الروايات التفـسيرية الواردة عن السلف، وهو ينقل كثيرًا عمن ذكر من أصحاب كـتب التفسير، ووجدته يذكر المناسابت بين الآيات،

(١) مقدمة الكتاب ص ١ - ٤.

ويحتكم إلى اللغة كثيرًا، ويتفل عن أئمتها كالمبرد وأبى عبيدة والفراء، كما أنه يتعرض أحيانًا للقراءات السبع، ولا يفوته أن يعرض لمذاهب العلماء الفقهية فى كل مناسبة، ويذكر اختلافاتهم وأدلتهم، ويدلى بدلوه بين الدلاء، فيرجح، ويستظهر، ويستنبط، ويعطى نفسه حرية واسعة فى الاستنباط؛ لأنه يرى نفسه مجتهدًا لا يقل عن غيره من المجتهدين.

نقله للروايات الموضوعة والضعيفة:

غير أنى آخذ عليه - كرجل من أهل الحديث - أنه يذكر كثيرًا من الروايات الموضوعة، أو الضعيفة، ويمر عليها بدون أن ينبه عليها.

فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾ الآية، وقوله فى الآية (٦٧) منها ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...﴾ الآية، يذكر من الروايات ما هو موضوع على ألسن الشيعة، ولا ينبه على أنها موضوعة، مع أنه يقرر عدم صلاحية مثل هذه الروايات للاستدلال على إمامة على، ففى الآية الأولى يقول: «... ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ جملة حالية من فاعل الفعلين اللذين قبله، والمراد بالركوع: الخشوع والخضوع، أى يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، وهم خاشعون لا يتكبرون، وقيل: هو حال من فاعل الزكاة، والمراد بالركوع هو المعنى المذكور، أى يضعون الزكاة فى مواضعها غير متكبرين على الفقراء، ولا مترفعين عليهم، وقيل: المراد بالركوع على المعنى الثانى: ركوع الصلاة، ويدفعه عدم جواز إخراج الزكاة فى تلك الحال»(١).

ثم نراه يذكر فى ضمن ما يذكر من الروايات عن ابن عباس أنه قال: تصدق على بخاتم وهو راكع، فقال النبى ﷺ للسائل: من أعطاك هذا الخاتم؟ قال: ذلك الراكع، فأنزل الله فيه ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾ الآية(٢)، ثم يمر على هذه الرواية الموضوعة باتفاق أهل العلم ولا ينبه على ما فيها.

وفى الآية الثانية نجده يروى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال: «نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾ على رسول الله ﷺ يوم غدير خم، فى على

---

(١) جـ٢ ص ٤٨. (٢) جـ٢ ص ٥٠.

ابن أبى طالب ﷺ» ويروى عن ابن مسعود أنه قال: (كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ : يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، أن عليًا مولى المؤمنين، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس»[1] ثم يمر على هاتين الروايتين أيضًا بدون أن يتعقبهما بشيء أصلاً.

ذمه للتقليد والمقلدين:

كذلك نلاحظ على الشوكانى أنه لا يكاد يمر بآية من القرآن تنعى على المشركين تقليدهم آباءهم إلا ويطبقها على مقلدى أئمة المذاهب الفقهية، ويرميهم بأنهم تاركون لكتاب الله، معرضون عن سنة رسوله ﷺ، ونحن وإن كنا لا نمنع من الاجتهاد من له قدرة عليه بتحصيله لأسبابه وإلمامه بشروطه إلا أنا لا ننكر أن فى الناس من ليس أهلاً للاجتهاد، وهؤلاء لا بد لهم من التقليد، ولست فى شك من أن الشوكانى مخطئ فى حملاته على المقلدة، كما أنه قاس إلى حد كبير حيث يطبق ما ورد من الآيات فى حق الكفرة على مقلدى الأئمة وأتباعهم، وإليك بعض ما قاله فى تفسيره:

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة الأعراف: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ قال ما نصه: «... وفى هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر، وأبلغ واعظ للمقلدة، الذين يتبعون آباءهم فى المذاهب المخالفة للحق، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق، فإنهم القائلون: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾ (الزخرف: ٢٣) والقائلون: ﴿**وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا**﴾ (الأعراف: ٢٨) والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب، مع اعتقاده بأنه الذى أمر الله به، وأنه الحق لم يبق عليه، وهذه الخصلة هى التى بقى بها اليهودى على اليهودية، والنصرانى على النصرانية، والمبتدع على بدعته، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباهم فى اليهودية أو النصرانية أو البدعة، وأحسنوا الظن بهم، بأن ما هم عليه هو الحق الذى أمر الله به، ولم ينظروا لأنفسهم، ولا طلبوا الحق كما يجب، ولا بحثوا عن دين الله كما ينبغى، وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص، فيا من نشأ

---

(١) جـ٢ ص ٥٧.

على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية، أنا لك النذير المبالغ فى التحذير من أن تقول هذه المقالة، وتستمر على الضلالة، فقذ اختلط الشر بالخير، والصحيح بالسقيم، وفاسد الرأى بصحيح الرواية، ولم يبعث الله إلى هذه الأمة إلا رسولاً واحداً أمرهم باتباعه، ونهى عن مخالفته فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (الحشر: ٧) ولو كان محض رأى أئمة المذاهب وأتباعهم حجة على العباد، لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعددون بعدد أهل الرأى، المكلفين للناس بما لم يكلفهم الله به، وإن من أعجب الغفلة، وأعظم الذهول عن الحق، اختيار المقلدة لآراء الرجال، مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله، ووجود من يأخذونهما عنه، ووجود آلة الفهم لديهم، وملكة العقل عندهم»(١).

وفى سورة التوبة عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣١) ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول ما نصه: «. . . وفى هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد فى دين الله، وإيثار ما يقوله الأسلاف على ما فى الكتاب العزيز، والسنة المطهرة؛ فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله، ويستن بسنته من علماء هذه الأمة، مع مخالفته لما جاءت به النصوص، وقامت به حجج الله وبراهينه، ونطقت به كتبه وأنبياؤه، هو كاتخاذ اليهود والنصارى الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله؛ للقطع بأنهم لم يعبدوهم، بل أطاعوهم، وحرموا ما حرموا، وحللوا ما حللوا وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة، والتمرة بالتمرة، والماء بالماء، فيا عباد الله، ويا أتباع محمد بن عبد الله: ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانبًا، وعمدتم إلى رجال هم مثلكم فى تعبد الله لهم بهما، وطلبه منهم للعمل بما دلا عليه وأفاداه؟ فعملتم بما جاءوا به من الآراء التى لم تعمد بعماد الحق، ولم تعضد بعضد الدين، ونصوص الكتاب والسنة تنادى بأبلغ نداء، وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه، فأعرتموهما آذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا، وأفهامًا مريضة، وعقولاً مهيضة، وأذهانًا كليلة، وخواطر عليلة، وأنشدتم بلسان الحال:

---

(١) جـ٢ ص ١٨٩.

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فدعوا ـ أرشدكم الله وإياى ـ كتبًا كتبها لكم الأموات من أسلافكم، واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالفكم، ومتعبدهم ومتعبدكم، ومعبودهم ومعبودكم، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاءوكم به من الرأى، بأقوال إمامكم وإمامهم، وقدوتكم وقدوتهم، وهو الإمام الأول محمد بن عبد الله ﷺ.

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمنٌ فى دينه كمخاطر

اللهم هادى الضال، مرشد التائه، موضح السبيل... اهدنا إلى الحق، وأرشدنا إلى الصواب، وأوضح لنا منهج الهداية»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٢، ٥٣، ٥٤) من سورة الأنبياء ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ نجده يذم المقلدة، وأئمة المذاهب بما لا يليق أن يصدر من عالم فى حق عالم آخر ربما كان أفضل منه عند الله، وذلك حيث يقول: «... وهكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملة الإسلامية، فإن العالم بالكتاب والسنة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأى المدفوع بالدليل... قالوا: هذا قد قال به إمامنا الذى وجدنا آباءنا له مقلدين، وبرأيه آخذين، وجوابهم هو ما أجاب به الخليل ههنا ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى فى خسران واضح لا يخفى على أحد، ولا يلتبس على ذى عقل؛ فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التى لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تبصر، وليس بعد هذا الضلال ضلال، ولا يساوى هذا الخسران خسران، وهؤلاء المقلدة من أهل الإسلام استبدلوا بكتاب الله وبسنة رسوله كتابًا، قد دونت فيه اجتهادات عالم من علماء الإسلام، زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها، إما لقصور منه، أو لتقصير فى البحث، فوجد ذلك الدليل من وجده، وأبرزه واضح المنار، كأنه علم فى رأسه نار، وقال: هذا كتاب الله، أو هذه سنة رسول الله، وأنشدهم:

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمنٌ فى دينه كمخاطر

---

(١) جـ٢ ص ٢٣٧.

فقالوا كما قال الأول:

ومـــا أنا إلا من غـزية إن غـــوت غـويت وإن ترشـــد غـزية أرشـد

وقد أحسن من قال:

يأبى الـفــتى إلا اتبـــاع الهـــوى ومـنـهـج الحـق لـه واضـح»[(١)]

حياة الشهداء:

هذا... وإن الشوكانى ليقرر فى تفسيره هذا: أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، حياة حقيقية لا مجازية، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦٩) من سورة آل عمران ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ «... وقد اختلف أهل العلم فى الشهداء المذكورين فى هذه الآية من هم؟ فقيل: شهداء أحد، وقيل: فى شهداء بدر، وقيل: فى شهداء بئر معونة... وعلى فرض أنها نزلت فى سبب خاص فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب... ومعنى الآية عند الجمهور: أنهم أحياء حياة محققة، ثم اختلفوا: فمنهم من قال: إنها ترد إليهم أرواحهم فى قبورهم فيتنعمون، وقال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة، أى يجدون ريحها وليسوا فيها، وذهب من عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية، والمعنى: أنهم فى حكم الله مستحقون للنعم فى الجنة، والصحيح الأول، ولا موجب للمصير إلى المجاز، وقد وردت السنة المطهرة بأن أرواحهم فى أجواف طيور خضر، وأنهم فى الجنة يرزقون ويأكلون ويتمتعون»[(٢)].

التوســـــل:

ولكنه مع هذه الموافقة للجمهور، نراه يقف من مسألة التوسل بالأنبياء؟ والأولياء موقف المعارضة، ويفيض فى الإنكار على من يفعل ذلك فى سورة يونس عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٩): ﴿ **قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ...** ﴾ يقول ما نصه: «... وفى هذا أعظم واعظ، وأبلغ زاجر لمن صار دينه وهجيراه المناداة لرسول الله ﷺ، والاستغاثة به عند نزول النوازل التى لا يقدر على دفعها إلا الله

---

(١) جـ٣ ص ٣٩٨.
(٢) جـ١ ص ٣٦٥.

سبحانه، وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه، فإن هذا مقام رب العالمين، الذى خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين، ورزقهم وأحياهم ويميتهم، فكيف يطلب من نبى من الأنبياء، أو ملك من الملائكة، أو صالح من الصالحين، ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ويترك الطلب لرب الأرباب، القادر على كل شيء الخالق الرازق، المعطى المانع، وحسبك بما فى هده الآية موعظة، فإن هذا سيد ولد آدم، وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده: لا أملك لنفسى ضرّا ولا نفعًا، فكيف يملكه لغيره؟ وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته، ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته لنفسه فضلاً عن أن يملكه لغيره؟ فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين صاروا تحت أطباق الثرى، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك، ولا يتنبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى (لا إله إلا الله) ومدلول ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١).

وأعجب من هذا، اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى، بل إلى ما هو أشد منها، فإن أولئك يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق، المحيى المميت، الضار النافع، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله، ومقربين لهم إليه، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع، وينادونهم تارة على الاستقلال، وتارة مع ذى الجلال، وكفاك من شر سماعه، والله ناصر دينه، ومطهر شريعته من أوضار الشرك، وأدناس الكفر، ولقد توسل الشيطان ـ أخزاه الله ـ بهذه الذريعة إلى ما تقر به عينه، وينثلج به صدره، من كفر كثير من هذه الأمة المباركة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا!!... إنا لله وإنا إليه راجعون»(١).

موقفه من المتشابه:

ثم إن المؤلف ـ كما قلنا فى ترجمته ـ سلفى العقيدة، فكل ما ورد فى القرآن من ألفاظ توهم التشبيه حملها على ظاهرها، وفوض الكيف إلى الله؛ ولهذا نراه مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٥٥) من سورة البقرة ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾

---

(١) جـ٢ ص ٤٢٩.

يقول: «الكرسى: الظاهر أنه الجسم الذى وردت الآثار بصفته كما سيأتى بيان ذلك، وقد نفى وجوده جماعة من المعتزلة، وأخطأوا فى ذلك خطأ بينًا، وغلطوا غلطًا فاحشًا، وقال بعض السلف: إن الكرسى هنا عبارة عن العلم، ومنه قول الشاعر:

تحف بهم بيض الوجوه وعصبة كراسى بالأخبار حين تنوب

ورجح هذا القول ابن جرير، وقيل: كرسيه: قدرته التى يمسك بها السموات والأرض، كما يقال: اجعل لهذا الحائط كرسيا... أى ما يعمده، وقيل: إن الكرسى هو العرش، وقيل: هو تصوير لعظمته ولا حقيقة له، وقيل: هو عبارة عن الملك، والحق القول الأول، ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقى إلى مجرد خيالات وضلالات»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ...﴾ الآية، يقول ما نصه: «قد اختلف العلماء فى معنى هذا على أربعة عشر قولاً، وأحقها وأولالها بالصواب مذهب السلف الصالح: أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف، بل على الوجه الذى يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه»(٢).

موقفه من آراء المعتزلة:

وبالرغم من أن الزيدية تأثروا كثيراً بتعاليم المعتزلة، وأخذوا عنهم آراءهم وعقائدهم فى غالب مسائل الكلام، فإنا نجد صاحبنا لا يميل إلى القول بمبادئهم بل ونجده يرد عليهم، ويعارضهم معارضة شديدة فى كثير من المواقف.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً...﴾ الآية، يقول ما نصه: «... وإنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم؛ لأنهم طلبوا ما لم يأذن الله به من رؤية الدنيا، وقد ذهبت المعتزلة ومن تابعهم إلى إنكار الرؤية فى الدنيا والآخرة، وذهب من عداهم إلى جوازها فى الدنيا، ووقوعها فى الآخرة، وقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم فى الآخرة، وهى قطعية الدلالة، لا ينبغى لمنصف أن يتمسك فى مقابلها بتلك القواعد

---

(١) جـ١ ص ٢٤٤. (٢) جـ٢ ص ٢٠١.

الكلامية التى جاء بها قدماء المعتزلة، وزعموا أن العقل قد حكم بها، دعوى مبنية على شفا جرف هار، وقواعد لا يغتر بها إلا من لم يحظ من العلم بنصيب نافع...»[١].

كذلك نراه يرد على الزمخشرى فى دعواه: أن دخول الجنة مستحق بسبب العمل الصالح، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة الأعراف: ﴿... ونُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ «... قال الكشاف: بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقوله المبطلة. أقول: يا مسكين... هذا قاله رسول الله ﷺ فيما صح عنه «سددوا وقاربوا واعملوا، إنه لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته» والتصريح بسبب لا يستلزم نفى سبب آخر، ولولا التفضل من الله سبحانه وتعالى على العامل بإقداره على العمل لم يكن عمل أصلاً، فلو لم يكن التفضل إلا بهذا الإقدار لكان القائلون به محقة لا مبطلة، وفى التنزيل ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ (النساء: ٧٠)، وفيه ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ (النساء: ١٧٥)»[٢].

كذلك نراه ينكر على المعتزلة القائلين: بأن العين لا تأثير لها فى المعين، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة يوسف: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ...﴾ الآية «وقد أنكر بعض المعتزلة كأبى هاشم والبلخى، أن للعين تأثيرًا، وليس هذا بمستنكر من هذين وأتباعهما، فقد صار دفع أدلة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم، وأى مانع من إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق، وأصيب بها جماعة فى عصر النبوة، ومنهم رسول الله ﷺ، وأعجب من إنكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الازدراء على من يعمل بالدليل المخالف، لمجرد الاستبعاد العقلى، والتنطع فى العبارات، كالزمخشرى فى تفسيره؛ فإنه فى كثير من المواطن لا يقف عند دفع دليل الشرع بالاستبعاد، حتى يضم إلى ذلك الوقاحة فى العبارة، على وجه يوقع المقصرين فى الأقوال الباطلة، والمذاهب الزائفة،

---

(١) جـ١ ص ٧٢. (٢) جـ٢ ص ١٩٦.

وبالجملة، فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة، وإجماع من يعتد به من هده الأمة سلفًا وخلفًا، وبما هو مشاهد فى الوجود، فكم من شخص من هذا النوع الإنسانى، وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب»[(١)].

ويقف الشوكانى من المعتزلة موقف المعارضة فى مسألة غفران الذنوب، فعندما تعرض لتفسير قوله تعالى فى الآية (٥٣) من سورة الزمر ﴿**قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا...**﴾ الآية، نجده يقول: «... وأما ما يزعمه جماعة من المفسرين من تقييد هذه الآية بالتوبة، وأنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين، وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات، فهو جمع بين الضب والنون، وبين الملاح والحادى، وعلى نفسها براقش تجنى، ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع، فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين، وقد قال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ **(النساء: ١١٦)** فلو كانت التوبة قيدًا فى المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة، وقد قال سبحانه: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ**﴾ **(الرعد: ٦)** قال الواحدى: المفسرون كلهم قالوا: إن هذه الآية فى قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام، كالشرك، وقتل النفس، ومعاداة النبى ﷺ، قلت: هب أنها فى هؤلاء فكان ماذا؟ فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب، كما هو متفق عليه بين أهل العلم، ولو كانت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها، لارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة إن لم ترتفع كلها، واللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله»[(٢)].

موقف الشوكانى من مسألة خلق القرآن:

هذا... ولم يرض الشوكانى موقف أهل السنة، ولا موقف المعتزلة من مسألة خلق القرآن، وإنما رضى أن يكون من العلماء الوقوف فى هذه المسألة، فلم يجزم فيها برأى، وراح ينحى بالأئمة على من يقطع بأن القرآن قديم أو مخلوق، فعندما تعرض لتفسير قوله تعالى فى الآية (٢) من سورة الأنبياء: ﴿**مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ**

---

(١) جـ٣ ص ٣٨.

(٢) جـ٤ ص ٤٥٧.

إلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يقول ما نصه: «... وقد استدل بوصف الذكر بكونه محدثًا على أن القرآن محدث، لأنه الذكر هنا هو القرآن، وأجيب بأن لا نزاع في حدوث المركب من الأصوات والحروف، لأنه متجدد في النزول، فالمعنى: محدث تنزيله، وإنما النزاع في الكلام النفسي[١]، وهذه المسألة - أعني قدم القرآن وحدوثه - قد ابتلي بها كثير من أهل العلم... ولقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن وحدوثه، وحفظ الله بهم أمة نبيه عن الابتداع، ولكنهم - رحمهم الله - جاوزوا ذلك إلى القول بقدمه، ولم يقتصروا على ذلك حتى كفروا من قال بالحدوث، بل جاوزوا إلى ذلك إلى تكفير من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من وقف، وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف، وإرجاع العلم إلى علام الغيوب، فإنه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم - إلى وقت قيام المحنة وظهور القول في هذه المسألة - شيء من الكلام، ولا تنقل عنهم كلمة في ذلك، فكان الامتناع من الإجابة إلى ما دعوا إليه، والتمسك بأذيال الوقف، وإرجاع علم ذلك إلى عالمه، هو الطريقة المثلى؛ وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله، والأمر لله سبحانه»[٢].

هذا هو أهم ما في تفسير الشوكاني من البحوث التي أعطى فيها لنفسه حرية واسعة، خولت له أن يسخر من عقول العامة، وأن يهزأ من تعاليم المعتزلة، وأن يندد ببعض مواقف أهل السنة، وأحسب أن الرجل قد دخله شيء من الغرور العلمي، فراح يوجه لومه لهؤلاء وهؤلاء، وليته وقف منهم جميعًا موقف الحاكم النزيه، والناقد العف... وعلى الجملة، فالكتاب له قيمته ومكانته، وإن كان لا يعطينا الصورة الواضحة للتفسير عند الإمامية الزيدية ونرجو أن نوفق إلى العثور على بعض ما لهم في التفسير وأحسب أنه كثير والكتاب مطبوع في خمس مجلدات ومتداول بين أهل العلم.

---

(١) ليس هذا هو محل النزاع، لأن الكلام النفسي بمعنى أنه صفة أزلية قائمة بذات الله تعالى ليست بحرف ولا صوت منزهة عن التقديم والتأخير ولوازم الكلام اللفظي ومنزهة عن السكون النفسي وعن الآفة الباطنة... الكلام النفسي بهذا المعنى يقول به الأشعري وينفيه باقي الفرق - انظر محاضرات التوحيد للمرحوم الشيخ محمود أبي دقيقة ص ١٢٨ مطبعة الإرشاد سنة ١٩٣٦م.

(٢) جـ٣ ص ٣٨٤.

الخوارج - وموقفهم من تفسير القرآن

كلمة إجمالية عن الخوارج:

بعد مقتل عثمان ﷺ، نشط أنصار على ﷺ فى الدعوة له، حتى أخذوا له البيعة من المسلمين، ليكون خليفة لهم... ولكن لم تكد تتم له البيعة حتى قام ثلاثة من كبار الصحابة ينازعونه الأمر؛ لاعتقادهم أن الحق فى غير جانبه، وهؤلاء الصحابة هم: معاوية بن أبى سفيان، وطلحة بن عبد الله، والزبير بن العوام.

وكان لعلى - ﷺ - شيعة وأنصار، وكان لمعاوية - ﷺ - شيعة وأنصار كذلك، وكانت حروب طاحنة بين الفريقين!! كان الغلب فيها لعلى وحزبه، إلى أن جاءت موقعة صفين، فكاد الفشل يحيق بجيش معاوية، وأوشكت الهزيمة أن تحدق به، لولا أن لجأ إلى حيلة رفع المصاحف على أسنة الرماح، طلبًا للهدنة، ورغبة فى التحكيم بين الحزبين، وبعد أخذ ورد بين جيش على فى قبول التحكيم وعدمه، رأى على ﷺ قبول التحكيم؛ رغبة منه فى حقن الدماء، واختار معاوية: عمرو بن العاص ليمثله واختار أصحاب على: أبا موسى الأشعرى.

وكان قبول على - ﷺ - لمبدأ التحكيم أول عامل من عوامل التصدع فى جيشه وحزبه؛ إذ أن بعض شيعته رأوا أن التحكيم خطأ، لأن الحق ظاهر فى جانب على، ولا يعتوره شك فى نظرهم، وقبول التحكيم دليل الشك من على فى أحقيته بالخلافة، وهم إنما قاموا معه فى حروبه لاعتقادهم بأن الحق فى جانبه، فكيف يشك هو فيه؟؟.

لم يرض هؤلاء بفكرة التحكيم، فخرجوا على علىٍّ، ولم يقبلوا أن يرجعوا إليه إلا إذا أقر على نفسه بالكفر، لقبوله التحكيم، وإلا إذا نقض ما أبرم من الشروط بينه وبين معاوية، ولكن عليا ﷺ لم يستجب لرغبتهم هذه، فأخذوا كلما خطب على أو ضمه وإياهم مكان جامع رفعوا أصواتهم بقولهم: (لا حكم إلا لله).

وكان التحكيم، وفيه خدع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعرى، فلم يكن إلا تحكيمًا فاشلاً، أمال قلوب كثير من الناس إلى ناحية الخوارج، وأخيرًا، وبعد يأس الخوارج من رجوع على إليهم اجتمعوا فى منزل أحدهم، وخطب فيهم خطبة حثهم

على التمسك بمبدئهم والدفاع عنه، وطلب منهم الخروج من الكوفة إلى قرية بالقرب منها يقال لها حروراء، فخرجوا إليها، وأمَّروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبى(١)، ووقعت بينهم وبين على حروب طاحنة هزمهم فيها، ولكن لم يقض عليهم، وأخيرًا دبروا له مكيدة قتله، فقتله عبد الرحمن بن ملجم.

وجاءت دولة الأمويين، فكان الخوارج شوكة فى جنبها يهددونها ويحاربونها، حتى كادوا يقضون عليها، ثم جاءت الدولة العباسية، فكان بينهم وبينها حروب كذلك، ولكن لم يكونوا فى قوتهم الأولى، لتفرق كلمتهم وتشتت وحدتهم، وضعف سلطانهم، وخور قواهم.

دبت فى وحدة الخوارج جرثومة التفرق، وأصيبوا بداء التحزب، فبلغ عدد أحزابهم عشرين حزبًا، كل حزب يفارق الآخر فى المبدأ والعقيدة... ولكن يجمع الكل على مبدأين اثنين:

أحدهما: إكفار على، وعثمان، والحكمين، وأصحاب الجمل، وكل من رضى بتحكيم الحكمين.

وثانيهما: وجوب الخروج على السلطان الجائر.

وهناك مبدأ ثالث يقول به أكثر الخوارج، وهو: الإكفار بارتكاب الكبائر(٢).

هذا... وقد وضع الخوارج مبدأ للخلافة فقالوا: «إن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين، وإذا اختير الخليفة فليس يصح أن يتنازل، أو يحكم، وليس بضرورى أن يكون الخليفة قرشيًّا، بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم، ولو كان عبدًا حبشيًّا، وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ويجب أن يضخع خضوعًا تامًّا لما أمر الله، وإلا وجب عزله، ولهذا أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبى، ولم يكن قرشيًّا»(٣).

وعلى هذا حكموا بصحة خلافة أبى بكر وعمر، وبصحة خلافة عثمان فى سنيه الأولى، فلما غير وبدل ولم يسر سيرة الشيخين ـ كما زعموا ـ وجب عزله، وأقروا

(١) نسبة إلى راسب، حى من الأزد.
(٢) انظر الفرق بين الفرق ص ٥٥.
(٣) فجر الإسلام (١/ ٣١٧).

بصحة خلافة على أولاً، ثم خرجوا عليه بعد أن أخطأ فى التحكيم، وكفر به كما يزعمون!.

ولا يسعنا فى تلك العجالة إلا أن نطوى الحديث عن التعرض لكل فرقة من فرق الخوارج، ولكن نكتفى بالكلام عن أشهرها، وهى ما يأتى:

أولاً: الأزارقة: وهم أتباع نافع بن الأزرق، وهم يكفرون من عداهم من المسلمين، ويحرمون أكل ذبحائهم ومناكحتهم، ولا يجيزون التوارث بينهم، ويعاملونهم معاملة الكفار من المشركين... إما الإسلام، وإما السيف، ودارهم دار حرب، ويحل قتل نسائهم وأطفالهم، ولا يقولون برجم الزانى المحصن، ولا يقولون بحد من يقذف المحصنين من الرجال... أما قاذف المحصنات فعليه الحد قطعًا، ولا يرون جواز التقية.

ثانيًا: النجدات: وهم أتباع نجدة بن عامر، وهم يرون أنه لا حاجة للناس إلى إمام قط، بل عليهم أن يتناصفوا فيها بينهم، فإن رأوا أن الحاجة تدعو إلى إمام أقاموه، وإلا فلا، كما أنهم يكفرون من يقول بإمامة نافع بن الأزرق، ويكفرون من يكفر القاعدين عن الهجرة لنافع وحزبه، ويقولون: إن الدين أمران:

أحدهما: معرفة الله تعالى، ومعرفة الرسول، والإقرار بما جاء به جملة، فهذا واجب معرفته على كل مكلف.

وثانيهما: ما عدا ما تقدم، فالناس معذورون بجهالته إلى أن تقوم عليهم الحجة.

فمن استحل شيئًا حرامًا باجتهاد فله عذره؛ وهم يعظمون جريمة الكذب، ويجعلونها أكبر جرمًا من شرب الخمر والزنى.

ومن بدع نجدة: أنه تولى أصحاب الحدود من موافقيه، وقال: لعل الله يعذبهم بذنوبهم فى غير نار جهنم ثم يدخلهم الجنة، وزعم أن النار يدخلها من خالفه فى دينه.

ثالثًا: الصفرية: وهم أتباع زياد بن الأصفر، وهم يقولون بأن أصحاب الذنوب مشركون، غير أنهم لا يرون قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم كما ترى الأزارقة ذلك، ومن الصفرية من يخالف فى ذلك فيقول: كل ذنب له حد فى الشريعة لا يسمى مرتكبه مشركًا، ولا كافرًا، بل يدعى باسمه المشتق من جريمته يقال: سارق، وقاتل، وقاذف،

وكل ذنب ليس فيه حد معلوم فى الشريعة مثل الإعراض عن الصلاة فمرتكبه كافر . . . ولا يسمى مرتكب واحد من هذين النوعين جميعًا مؤمنًا، ومنهم من يقول: إن صاحب الذنب لا يحكم عليه بالكفر حتى يرفع إلى الوالى فيحده ويحكم بكفره.

رابعًا: الإباضية: وهم أتباع عبد الله بن إباض، وهم أعدل فرق الخوارج، وأقربها إلى تعاليم أهل السنة، وهم يجمعون على أن مخالفيهم من المسلمين ليسوا مشركين، ولا مؤمنين، ولكنهم كفار، ويروى عنهم أنهم يريدون كفر النعمة، وأجازوا شهادة مخالفيهم من المسلمين، ومناكحتهم، والتوارث معهم، وحرموا دماءهم فى السر دون العلانية، لأنهم محاربون لله ولرسوله ولا يدينون دين الحق ودارهم دار توحيد إلا معسكر السلطان، واستحلوا من غنائمهم: الخيل والسلاح، وكل ما فيه قوة حربية لهم، ولم يستحلوا غنائم الذهب والفضة، بل يردونها لأهلها.

واختلفوا فى النفاق على ثلاثة أقوال:

فريق يرى أن النفاق براءة من الشرك والإيمان معًا، ويحتج بقوله تعالى فى الآية (١٤٣) من سورة النساء ﴿ **مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ** ﴾.

وفريق يرى أن كل نفاق فهو شرك، لأنه ينافى التوحيد.

وفريق ثالث يرى أن النفاق لا يسمى به غير القوم الذين سماهم الله تعالى منافقين.

وهناك مخالفة لبعض الإباضية فى بعض المسائل، لا نعرض لها هنا، مخافة التطويل.

هذه هى أهم فرق الخوارج، وهذه هى أهم ما لهم من تعاليم وعقائد؛ نضعها بين يدى القارئ قبل أن نتكلم عن موقفهم من التفسير، ليكون على علم بها، وليعلم بعد ذلك مقدار الصلة بينها وبين ما لهم من تفسير.

* * *

مواقف الخوارج من تفسير القرآن الكريم

تعددت فرق الخوارج، وتعددت مذاهبهم وآراؤهم، فكان طبيعيّا ـ وهم ينتسبون إلى الإسلام، ويعترفون بالقرآن ـ أن تبحث كل فرقة منهم عن أسس من القرآن الكريم، تبنى عليها مبادئها وتعاليمها، وأن تنظر إلى القرآن من خلال عقيدتها، فما رأته فى جانبها ـ ولو ادعاء ـ تمسكت به، واعتمدت عليه، وما رأته فى غير صالحها حاولت التخلص منه بصرفه وتأويله، بحيث لا يبقى متعارضًا مع آرائها وتعاليمها.

سلطان المذهب يغلب على الخوارج فى فهم القرآن:

والذى يقرأ تاريخ الخوارج، ويقرأ ما لهم من أفكار تفسيرية، يرى أن المذهب قد سيطر على عقولهم، وتحكم فيها، فأصبحوا لا ينظرون إلى القرآن إلا على ضوئه، ولا يدركون شيئًا من معانيه إلا تحت تأثير سلطانه، ولا يأخذون منه إلا بقدر ما ينصر مبادئهم ويدعو إليها.

فمثلاً نرى أن أكثر الخوارج يجمعون على أن مرتكب الكبيرة كافر، ومخلد فى نار جهنم، ونقرأ فى الكتب التى تكلمت عن الخوارج فنجد ابن أبى الحديد ـ وهو ممن تعرض لهم فى كتابه (شرح نهج البلاغة) ـ يسوق لنا أدلتهم التى أخذوها من القرآن، وبنوا عليها رأيهم فى مرتكب الكبيرة، كما نجده يناقش هذه الأدلة ويفندها دليلاً بعد دليل، ونرى أن نمسك عن مناقشة ابن أبى الحديد لهذه الأدلة، ويكفى أن نسوق للقارئ الكريم هذه الآيات التى استندوا إليها ووجهة نظرهم فيها، فهى التى تعنينا فى هذا البحث وهى التى ترينا إلى أى حد تأثر الخوارج بسلطان العقيدة فى فهم نصوص القرآن.

فمن هذه الأدلة ما يأتى:

قوله تعالى فى الآية (٩٧) من سورة آل عمران: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾ قالوا: فجعل تارك الحج كافرًا.

ومنها: قوله تعالى فى الآية (٨٧) من سورة يوسف ﴿**إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ قالوا: والفاسق، لفسقه وإصراره عليه، آيس من روح الله، فكان كافرًا.

ومنهـا: قوله تعالى فى الآيات (٤٤) من سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قالوا: وكل مرتكب للذنوب فقد حكم بغير ما أنزل الله.

ومنهـا: قوله تعالى فى الآيات (١٤ - ١٦) من سورة الليل ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ قالوا: وقد اتفقنا مع المعتزلة على أن الفاسق يصلى النار، فوجب أن يسمى كافرًا.

ومنها: قوله تعالى فى الآية (١٠٦) من سورة آل عمران ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قـالوا: والفاسق لا يـجوز أن يكون مـمن ابيـضت وجوههم، فـوجب أن يكون مـمن اسودت، ووجب أن يسمى كافرًا؛ لقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

ومنها: قوله تعالى فى الآيات (٣٨) وما بعدها إلى آخر سورة عبس ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ قالوا: والفاسق على وجهه غبرة، فوجب أن يكون من الكفرة الفجرة.

ومنهـا: قوله تعالى فى الآية (١٧) من سـورة سبأ ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ قالوا: والفاسق لا بد أن يجازى، فوجب أن يكون كفورًا.

ومنهـا: قوله تعالى فى الآية (٤٢) من سـورة الحجر ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ وقال فى الآية (١٠٠) من سورة النحل ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ قالوا: فجعل الغاوى الذى يتبعه مشركًا.

ومنهـا: قوله تعالى فى الآية (٢٠) من سورة السجدة ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ قالوا: فجعل الفاسق مكذبًا.

ومنها: قوله تعالى فى الآية (٣٣) من سورة الأنعام ﴿... وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ قالوا: فأثبت الظالم جاحدًا، وهذه صفة الكفار.

ومنهـا: قوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة النور ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

ومنها: قوله تعالى فى الآيات (١٠٢ - ١٠٥) من سورة المؤمنون ﴿**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ**﴾ قالوا: فنص سبحانه على أن من تخف موازينه يكون مكذبًا، والفاسق تخف موازينه فكان مكذبًا، وكل مكذب كافر.

ومنها: قوله تعالى فى الآية (٢) من سورة التغابن ﴿**هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ**﴾ قالوا: وهذا يقتضى أن من لا يكون مؤمنا فهو كافر، والفاسق ليس بمؤمن، فوجب أن يكون كافراً(١).

هذه بعض الآيات التى تمسك بها الخوارج فى موقفهم من مرتكب الكبيرة الذى لم يتب، والتى حسبوا أنها حجج دامغة لمذهب مخالفيهم من المسلمين، ولا يسع الذى يعرف سياق هذه الآيات وسباقها، ويعرف الآيات والأحاديث الواردة فى شأن عصاة المؤمنين، ويتأمل قليلاً فى هذه التخريجات والاستنتاجات التى يقولون بها، لا يسعه بعد هذا كله إلا أن يحكم بأن القوم متعصبون، ومندفعون بدافع العقيدة، وسلطان المذهب.

وهناك نصوص من القرآن استغلها أفراد من الخوارج، لتدعيم مبادئهم التى يشذون بها عمن عداهم من بعض فرق الخوارج، وهى فى مظهرها التفسيرى أكثر تعصبًا، وأبلغ تعنتًا، فمن ذلك: أن نافع بن الأزرق كان لا يرى جواز التقية التى هى فى الأصل من مبادئ الشيعة، ويستدل على حرمتها بقوله تعالى فى الآية (٧٧) من سورة النساء ﴿... **إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ**﴾.

ويرى نجدة بن عامر جواز التقية، ويستدل على ذلك بقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة غافر ﴿**وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ**﴾.

وأظهر من هذا: أن نجدة بن عامر كان لا يصوب نافع بن الأزرق فيما يقول به من إكفار القعدة، واستحلال قتل أطفال مخالفيه، وعدم رد الأمانات إلى مخالفيه، وغير ذلك من آرائه التى شذ بها، فأرسل نجدة إلى نافع رسالة يقول له فيها: «... وأكفرت

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المجلد الثانى ص ٣٠٧، ٣٠٨.

الذين عذرهم الله تعالى فى كـتابه مـن قعـدة المسلـمين وضعـفتهم، قال الله عز وجل ـ وقـوله الحق ووعده الصـدق: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (التـوبة: ٩١) ثم سماهم ـ تعالى ـ أحسن الأسماء فقال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ (التوبة: ٩١) ثم استحللت قتل الأطفال وقد نهى رسول الله ﷺ عن قـتلهم، وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْـرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤) وقال سبحانه فى القعدة خيرًا فقال: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٥) فتفضيله المجاهدين على القاعدين لا يدفع منزلة من هو دون المجـاهدين... أوما سمعت قـوله تعالى ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّـرَرِ﴾ (النسـاء: ٩٥) فجعلهم من المؤمنين، ثم إنك لا تؤدى الأمانة إلى من خالفك والله تعالـى قد أمر أن تؤدى الأمـانات إلى أهلها، فـاتق الله فى نفسك؛ واتـق يومًا لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جـاز عن والده شيئًا، فإن الله بالمـرصاد، وحكمه العدل، وقوله الفصل، والسلام».

فرد عليـه نافع بكتاب جاء فـيه: «... وعبت ما دنت بـه من إكفار القعـدة وقتل الأطفال، واستحلال الأمانة من المخالفين، وسأفسر لك إن شاء الله.

أما هؤلاء القـعدة، فليســوا كمن ذكرت مـمن كان على عهـد رسول الله ﷺ، لأنهم كانوا بمكة مقـهورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سـبيلاً، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا، وهؤلاء قد تفقهوا فى الدين وقرأوا القرآن والطريق لهم نهج واضح، وقد عرفت ما قاله الله تعالى فـيمن كان مثلهم إذ قالوا ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾ (النساء: ٩٧) فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ (النساء: ٩٧) وقال سبحانه: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (التـوبة: ٨١) وقال: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٩٠) فخبر بتعـذيرهم، وأنهم كذبوا الله ورسـوله، ثم قال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة: ٩٠) فانظر إلى أسمائهم وسماتهم.

وأما الأطفال، فإن نوحًا نبى الله كان أعلم بالله منى ومنك، وقد قال ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾

(نــوح: ٢٦، ٢٧) فسماهم بالكفر وهم أطفــال وقبل أن يولدوا، فكيف كان ذلك فى قوم نوح ولا نقوله فى قومنا... والله تعالى يقول: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (القمر: ٤٣) وهؤلاء كمشركى العرب لا يقبل منهم جزية، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام.

وأما استحلال أمانات من خالفنا، فإن الله تعالى أحل لنا أموالهم كما أحل دماءهم لنا، فدماؤهم حلال طلق وأموالهم فىء للمسلمين...»(١).

ولا شك لدينا فى أن نافع بن الأزرق متـعصب فى فهمـه للآيات على النحو الذى جاء فى رســالته هذه، وهو تـعصب بلغ به إلى درجـة المغالـطة، وإلا فهو جـهل منه بمواقع كلام الله، ومدلول آياته.

مدى فهم الخوارج لنصوص القرآن:

هذا... وإن الخــوارج عندمــا ينظرون إلى القـرآن لا يتعــمـقون فى التـأويل ولا يغوصــون وراء المعانى الدقـيقة، ولا يكلفـون أنفسهم عناء البـحث عن أهداف القرآن وأسراره، بل يقـفون عند حـرفية ألفــاظه، وينظرون إلى الآيات نظرة سطحيــة، وربما كانت الآية لا تنطبق على مــا يقصدون إليه، ولا تتـصل بالموضوع الذى يستـدلون بها عليه، لأنهم فهموا ظاهراً معطلا، وأخذوا بفهم غير مراد.

ولقد يعجب الإنسان ويدهش عندما يقرأ ما للقــوم من سخافات فى فهمهم لبعض نصوص القرآن، أوقعهم فيها التنطع والتمسك بظواهر النصوص، ولكى لا أتهم بالقسوة فى حكمى هذا، أضع بين يدى القــارئ الكريم بعض ما جاء عن القوم، حـتى لا يجد مفرّا من الحكم عليهم بمثل ما حكمت به.

«روى أن عبيــدة بن هلال البشكرى اتهم بامرأة حداد رأوه يدخل منــزله بغير إذنه، فــأتوا قطريّا(٢) فذكروا ذلك له، فـقال لهم: إن عبيدة من الدين بـحيث علمتم، ومن الجهاد بحيث رأيتم، فـقالوا: إنا لا نقاره على الفاحشة، فـقال: انصرفوا... ثم بعث إلى عبيدة فأخبـره وقال: إنا لا نقار على الفاحشة، فقال: بهتونى يا أمـير المؤمنين فما

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المجلد الأول ص ٣٨٢.
(٢) هو قطرى بن الفجاءة الزعيم الثالث للأزارقة.

إلى عبيدة فأخبـره وقال: إنا لا نقار على الفاحشة، فقال: بهتونى يا أمـير المؤمنين فما ترى؟ قال: إنى جامـع بينك وبينهم؛ فلا تخضع خضـوع المذنب، ولا تتطاول تطاول البرىء. . . فـجمع بينهم فتكلمـوا، فقام عبـيدة فقال: بسم الله الرحـمن الرحيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ. . .﴾ الآيات (١١ وما بعدها من سورة النور) فبكوا وقاموا إليه فاعتنقوه وقالوا: استغفر لنا. . . ففعل»[(١)].

«ويروى أن واصل بن عطـاء وقع هو وبعض أصـحـابه فى يـد الخـوارج فـقـال لأصحابه: اعتزلوا ودعونى وإياهم ـ وكانوا قد أشرفوا على العطب ـ فقالوا: شأنك. . . فخرج إليهم فقالوا: مـا أنت وأصحابك؟ قال: مشركون مستجيـرون ليسمعوا كلام الله ويعرفـوا حدوده، فقالوا: قـد أجزناكم، قال: فعلمـونا: فجعلوا يعلمـونه أحكامهم، وجعل يقول: قد قبلـت أنا ومن معى، قالوا: فامضوا مصاحبـين فإنكم إخواننا، قال: ليس ذلك لكم، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (التـوبة: ٦) فأبلغونا مأمننا، فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا: ذلك لكم، فساروا بأجمعهم حتى بلغوهم المأمن»[(٢)].

ومن الخوارج من أداه تمسكه بظاهر النصـوص إلى أن قال: «لو أن رجلاً أكل من مال يتـيم فلسين وجبت له النار، لـقوله تعالى فى الآية (١٠) من سـورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ ولو قـتل اليتيم أو بقر بطنه لم تجب له النار، لأن الله لم ينص على ذلك»[(٣)].

وهذا هو ميمون العجردى زعيم الميمونية[(٤)] من الخوارج، يرى جواز نكاح بنات الأولاد وبنات أولاد الإخوة والأخوات ويستدل على ذلك فـيقول: «إنما ذكر الله تعالى فى تحريم النسـاء بالنسب الأمهات، والبنات والأخوات والعـمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت، ولم يذكر بنات البنـات ولا بنات البنين، ولا بنات أولاد الإخوة ولا بنات أولاد الأخوات»[(٥)].

(١) الكامل للمبرد (٢/ ٢٣٦).
(٢) الكامل للمبرد (٢/ ١٠٦).
(٣) تلبيس إبليس ص ٩٥.
(٤) يعدهم صاحب الفرق بين الفرق من غير فرق المسلمين.
(٥) الفرق بين الفرق ص ٢٦٤، ٤٦٥.

ويروى أن رجلاً من الإباضية أضاف جماعة من أهل مذهبه، وكانت له جارية على مذهبه قال لها: قدمى شيئًا، فأبطأت، فحلف ليبيعها من الأعراب، فقيل له: تبيع جارية مؤمنة من قوم كفار، فقال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة: ٢٧٥)(١).

وأيضًا نرى أن الخوارج خرجوا على عائشة أم المؤمنين ﵂، وقالوا: لم خرجت من بيتها، والله تعالى يقول: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ (الأحزاب: ٣٣)(٢).

وأيضًا فإن الأزارقة قالوا: من قذف امرأة محصنة فعليه الحد، ومن قذف رجلاً محصنًا فلا حد عليه(٣)... وهذا لأن الله تعالى نص على حد قاذف المحصنات، ولم ينص على حد قاذف المحصنين.

وقالوا - أيضًا - بأن سارق القليل يجب عليه القطع(٤)، أخذًا بظاهر قوله تعالى فى الآية (٣٨) من سورة المائدة ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾.

وغير هذا كثير نجده عنهم فى بطون الكتب، وهو لا يدع مجالاً للشك فى أن الخوارج قوم سطحيون فى فهمهم لآيات القرآن الكريم، وإدراك معانيه.

موقف الخوارج من السنة وإجماع الأمة، وأثر ذلك فى تفسيرهم للقرآن:

ولقد كان من أثر جمود الخوارج عند ظواهر النصوص القرآنية، أنهم لم يلتفتوا إلى ما جاء من الأحاديث النبوية ناسخًا لبعض آيات الكتاب، أو مخصصًا لبعض عموماته، أو زائدًا على بعض أحكامه، ويظهر أن هذا المبدأ قد تملك قلوب الخوارج، وتسلط على عقولهم، فنتج عنه أن وضع بعضهم على رسول الله ﷺ هذا الحديث، وهو: «إنكم ستختلفون من بعدى، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله وما خالفه فليس منى» فقد قال عبد الرحمن المهدى: «الزنادقة والخوارج وضعوا حديث: ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله... إلخ»(٥).

كما كان من أثر هذا الجمود عند ظواهر القرآن أيضًا، أنهم لم يلتفتوا إلى إجماع

(١) التبصير فى الدين ص ٣٥.
(٢) التبصير فى الدين ص ٣٦.
(٣) التبصير فى الدين ص ٢٩.
(٤) التبصير فى الدين ص ٢٩.
(٥) انظر القول الفصل لشيخ الإسلام مصطفى صبرى ص ٦٤، ٦٥ (هامش) وقد اغتر بهذا الحديث الموضوع كثير من المسلمين، وكان ذريعة لتشكيك بعض الناس فى عقائدهم.

الأمة، ولم يقدروه عند فهمهم لنصوص القرآن، مع أن الإجماع فى الحقيقة يستند إلى أصل من الكتاب أو السنة، وليس أمرًا مبتدعًا فى الدين، أو خارجًا على قواعده وأصوله.

وفى هذا كله نجد العلامة ابن قتيبة يحدثنا عن بعض أحكام احتج بها الخوارج، وهى مخالفة لإجماع الأمة، ومناقضة لما صح عن الرسول ﷺ، وقالوا: يبطلها القرآن... فيقول:

«... وقالوا: حكم فى الرجم يدفعه الكتاب... قالوا: رويتم أن رسول الله ﷺ رجم، ورجمت الأئمة من بعده، والله تعالى يقول فى الإماء: ﴿**فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ**﴾ (النساء: ٢٥) والرجم إتلاف للنفس لا يتبعض، فكيف يكون على الإماء نصفه؟... وذهبوا إلى أن المحصنات؛ ذوات الأزواج... قالوا: وفى هذا دليل على أن المحصنة حدها الجلد»[(١)].

«قالوا: حكم فى الوصية يدفعه الكتاب... قالوا: رويتم أن رسول الله ﷺ قال: (لا وصية لوارث) والله تعالى يقول: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ**﴾ (البقرة: ١٨٠) والوالدان وارثان على كل حال لا يحجبهما أحد عن الميراث، وهذه الرواية خلاف كتاب الله عز وجل»[(٢)].

(قالوا: حكم فى النكاح يدفعه الكتاب... قالوا: رويتم أن رسول الله ﷺ قال: (لا تنكح المرأة على عمتها، ولا على خالتها) وأنه قال: (يحرم من الرضاع من يحرم من النسب) والله عز وجل يقول: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ...**﴾ (النساء: ٢٣) إلى آخر الآية، ولم يذكر الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها، ولم يحرم من الرضاع إلا الأم المرضعة والأخت بالرضاع... ثم قال: ﴿**وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ**﴾ (النساء: ٢٤) فدخلت المرأة على عمتها وخالتها، وكل رضاع سوى الأم، والأخت فيما أحله الله تعالى»[(٣)].

يحدثنا ابن قتيبة بهذا عنهم، ثم يتولى بنفسه الرد عليهم فى ذلك كله ردًا مسهبًا فيه

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤١.

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤٢.

(٣) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤٣، ٢٤٤.

إزالة كل شبهة، ودفع كل حجة وردت على ألسن القوم، ولا نطيل بذكر ذلك، ومن أراد الوقوف عليه، فليرجع إليه فى (تأويل مختلف الحديث) ص٢٤١ - ٢٥٠.

الإنتاج التفسيرى للخوارج:

لم يكن للخوارج من الإنتاج التفسيرى مثل ما كان للمعتزلة، أو الشيعة، أو غيرهما من فرق المسلمين التى خلفت لنا الكثير من كتب التفسير، وكل ما وصل إلينا من تفسير الخوارج الأول لم يزد عن بعض أفهام لهم لبعض الآيات القرآنية تضمنها جدلهم، واشتملت عليه مناظراتهم، وذكرنا لك منها كل ما وصل إلى أيدينا، وجميع ما استخلصناه من بطون الكتب المختلفة.

ولكن هل هذا هو كل ما كان للخوارج من تفسير؟ وهل وقف إنتاجهم عند هذا المقدار الضئيل؟ أو كان لهم مع هذا كتب مستقلة فى التفسير، ولكن فقدتها المكتبة الإسلامية على طول الأيام ومر العصور؟.

الحق أنى وجهت لنفسى هذا السؤال، وكدت أعجز عن الجواب عنه... ولكن هيأ الله لى ظرفًا جمعنى مع رجل من الإباضية المعاصرين، يقيم فى القاهرة، فوجهت إليه هذا السؤال نفسه، فأفهمنى أن الإنتاج التفسيرى للخوارج كان قليلاً بالنسبة لإنتاج غيرهم من فرق الإسلام، ومع هذا فلم تحتفظ المكتبة الإسلامية من هذا النتاج القليل إلا ببعض منه، لبعض العلماء من الإباضية فى القديم والحديث.

فسألته: وهل تذكر شيئًا من هذه الكتب؟ فذكر لى من الكتب ما يأتى:

١- تفسير عبد الرحمن بن رستم الفارسى... من أهل القرن الثالث الهجرى.

٢- تفسير هود بن محكم الهوارى... من أهل القرن الثالث الهجرى.

٣- تفسير أبى يعقوب، يوسف بن إبراهيم الورجلانى....... من أهل القرن السادس الهجرى.

٤- داعى العمل ليوم الأمل... للشيخ محمد بن يوسف اطفيش... من أهل القرن الحاضر.

٥- هميان الزاد إلى دار المعاد... له أيضًا.

٦- تيسير التفسير... له أيضًا.

فقلت له: وهل يوجد شيء من هذه الكتب إلى اليوم؟ . . . فقال لى:

أما تفسير عبد الرحمن بن رستم، فغير موجود، وأما تفسير هود بن محكم، فموجود، ومتداول بين الإباضية فى بلاد المغرب، وهو يقع فى أربع مجلدات، وقد أطلعنى منه على جزءين مخطوطين عنده، وهما الأول والرابع، أما الأول: فيبدأ بسورة الفاتحة، وينتهى بآخر سورة الأنعام، وأما الرابع: فيبدأ بسورة الزمر، وينتهى بآخر القرآن(١).

قال: وأما تفسير أبى يعقوب الورجلانى، فغير موجود، ويذكر المحققون من علمائنا أنه من أحسن التفاسير بحثًا، وتحقيقًا، وإعرابًا.

وأما تفسير داعى العمل ليوم الأمل، فلم يتمه مؤلفه؛ لأنه عزم على أن يجعله فى اثنين وثلاثين جزءًا، ثم عدل عن عزمه هذا، واشتغل بتفسير هميان الزاد إلى دار المعاد.

وقد أطلعنى محدثى على أربعة أجزاء من تفسير داعى العمل، فى مجلدين مخطوطين بخط المؤلف، أما أحد المجلدين: فإنه يحتوى على الجزء التاسع والعشرين، والجزء الثلاثين من أجزاء الكتاب، وهو يبدأ بسورة الرحمن، وينتهى بآخر سورة التحريم، وأما المجلد الثانى: فإنه يحتوى على الجزء الحادى والثلاثين، والجزء الثانى والثلاثين، وهو يبدأ بسورة تبارك، وينتهى بآخر القرآن، وقد وجدت بالمجلد الأخير بعض ورقات فيها تفسير أول سورة (ص) ويظهر ـ كما قال محدثى ـ أن المؤلف قد ابتدأ تفسيره هذا بسورة الرحمن إلى أن انتهى إلى آخر سورة الناس، ثم بدأ بسورة (ص) ووقف عندها ولم يتم.

وأما تفسير هميان الزاد، فموجود ومطبوع فى ثلاثة عشر مجلدًا كبارًا، ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية، ونسخة أخرى عند محدثى.

وأما تيسير التفسير، فموجود ومطبوع فى سبع مجلدات متوسطة الحجم، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية، وأخرى عند محدثى أيضًا.

---

(١) طبع مؤخرًا، وسنتكلم عليه بالتفصيل فى التتمة (د. مصطفى الذهبى).

أسباب قلة إنتاج الخوارج فى التفسير:

وأنت ترى أن هذه الكتب المذكورة، ما وجد منها وما لم يوجد، كلها للإباضية وحدهم، ولعل السر فى ذلك: أن جميع فرق الخوارج ما عدا الإباضية بادت ولم يبق لها أثر.

أما الإباضية فموجودون إلى يومنا هذا، ومذهبهم منتشر فى بلاد المغرب، وحضرموت، وعمان، وزنجبار.

ولكن بقى بعد هذا سؤال يتردد فى نفسى، ولعله يتردد فى نفس القارئ أيضًا، وهو: ما السر فى أن الخوارج قل إنتاجهم فى التفسير؟.

والجواب عن هذا السؤال ـ كما أعتقد ـ ينحصر فى أمور ثلاثة وهى ما يأتى:

أولاً: أن الخوارج كان أكثرهم من عرب البادية، ومن قبائل تميم على الأخص، وقليل منهم كان يسكن البصرة والكوفة مع احتفاظه ببداوته، فكانوا لغلبة البداوة عليهم أبعد الناس عن التطور الدينى، والعلمى، والاجتماعى، وكانوا يمثلون الإسلام الأول فى بساطته، وعلى فطرته، بدون أن تشوبه تعاليم الأمم الأخرى، أضف إلى ذلك: احتفاظهم بأهم خصائص أهل البدو من سذاجة التفكير، وضيق التصور، والبعد عن التأثر بحضارة الأمم المجاورة لهم.

ثانيا: أنهم شغلوا بالحروب من مبدأ نشأتهم، وكانت حروبًا قاسية وطويلة، ومتتابعة... أسلمتهم حروب على إلى حروب الأمويين، وأسلمتهم حروب الأمويين إلى حروب العباسيين التى تركتهم فى حالة تشبه الاحتضار، وتؤذن بالفناء، فكان من الطبيعى أن لا تدع الحرب لهم من الوقت ما يتسع للبحث والتصنيف.

ثالثًا: أن الخوارج ـ مع ما هم عليه من شذوذ ـ كانوا يخلصون لعقيدتهم، ويتمسكون بإيمانهم إلى حد كبير، ويرون أن الكذب جريمة من أكبر الجرائم، وبه ـ عند جمهورهم ـ يخرج الإنسان من عداد المؤمنين، فلعل هذا دعاهم إلى عدم الخوض فى تفسير القرآن، وجعلهم يتورعون عن البحث وراء معانيه، مخافة أن لا يصيبوا الحق فيكونوا قد كذبوا على الله... وقد سئل بعضهم: لمَ لمْ تفسر القرآن؟ فقال: (كلما رأيت قوله تعالى ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**﴾ (الحاقة: ٤٤ - ٤٦) أحجمت عن التفسير).

من أجل هذا كله لم يكن ينتظر من الخوارج أن يؤلفوا لنا فى التفسير كما ألف غيرهم، وليس التفسير وحده هو الذى حرم من تصنيف الخوارج وتأليفهم بل كل العلوم فى ذلك سواء، وما وجد لهم من مؤلفات فى علم الكلام أو الفقه، أو الأصول، أو الحديث، أو التفسير، أو غير ذلك من العلوم فكله من عمل الإباضية وحدهم، لأن هذه الفرقة هى التى عاشت وانتشرت فى كثير من بلاد المسلمين، واستمرت إلى يومنا هذا، وتأثرت بتعاليم المعتزلة وغيرهم، وسايرت التطور العلمى والاجتماعى.

وبعد: فهذا هو تراث الخوارج فى التفسير، وهو تراث نادر عزيز، وما وجد منه أندر وأعز، وأرى أن أكتفى بالكلام عن هميان الزاد إلى دار المعاد وحده، وعذرى فى ذلك: أن ما وجدناه من تفسير هود بن محكم، لم يتيسر لنا الاطلاع عليه الاطلاع الكافى الذى يعطينا فكرة واضحة عنه، وعن مؤلفه، وذلك راجع إلى رداءة خطه، وضياع بعض أوراقه، وتآكل بعضها.

وما وجدناه من تفسير (داعى العمل ليوم الأمل) لم يكن أكثر حظًا من تفسير هود ابن محكم.

وأما تيسير التفسير، فهو فى الحقيقة خلاصة لما تضمنه هميان الزاد فلم يكن الكلام عنه بمعطينا فكرة جديدة عن التفسير عند الإباضية أو عند مفسره على الأصل.

* * *

هميان الزاد إلى دار المعاد
لمحمد بن يوسف إطفيش

التعريف بمؤلف هذا التفسير[١]:

مؤلف هذا التفسير هو محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح إطفيش الوهبى[٢]، الإباضى، وهو من وادى ميزاب بصحراء الجزائر من بلاد المغرب،و نشأ بين قومه، وعرف عندهم بالزهد والورع، واشتغل بالتدريس والتأليف وهو شاب لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، وانكب على القراءة والتأليف، حتى قيل إنه لم ينم فى ليلة أكثر من أربع ساعات، وله من المؤلفات فى شتى العلوم ثروة عظيمة تربو على الثلاثمائة مؤلف. . . فمن ذلك: نظم المغنى لابن هشام فى خمسة آلاف بيت. . . وكان ذلك فى شبابه، وشرح كتاب التوحيد للشيخ عيسى بن تبغورين وهو من أهم مؤلفاته فى علم الكلام، وشرح كتاب العدل والإنصاف فى أصول الفقه لأبى يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلانى، وله فى الحديث: وفاء الضمانة بأداء الأمانة، وهو مطبوع فى ثلاثة مجلدات، وجامع الشمل فى حديث خاتم الرسل، وهو مطبوع فى مجلد واحد، وله فى الفقه: شرح كتاب النيل، وهو مطبوع فى عشرة مجلدات، وله مؤلفات أخرى فى النحو والصرف، والبلاغة، والفلك، والعروض، والوضع، والفرائض، وغيرها.

وأما التفسير فله فيه: داعى العمل ليوم الأمل، لم يتم، وهميان الزاد إلى دار المعاد. . . وهو ما نحن بصدده، وتيسير التفسير. . . وهو مختصر من السابق هذا، وقد توفى المؤلف سنة ١٣٣٢هـ اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة، وله من العمر ست وتسعون سنة.

---

(١) اعتمدنا فى هذه الترجمة على ما حدثنا به الشيخ إبراهيم اطفيش، وهو تلميذ المؤلف وابن أخيه.

(٢) الوهبى نسبة إلى عبد الله بن وهب الراسبى، الزعيم الأول للخوارج.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يعتبر هذا التفسير هو المرجع المهم للتفسير عند الإباضية من الخوارج، غير أنه لا يصور لنا حالة التفسير عندهم فى عصورهم الأولى؛ وذلك لقرب عهد مؤلفه، وتأخره عن زمن كثير من علماء التفسير الذين وافقوه على مذهبه، والذين خالفوه فيه.

ولقد جرت سنة الله بين المؤلفين أن يأخذ اللاحق من السابق، وأن يستفيد المتأخر من المتقدم، وصاحبنا فى تفسيره هذا، استمد من كتب من سبقه من المفسرين على اختلاف نحلهم ومشاربهم وإن كان يدعى فى مقدمته أنه لا يقلد فيه أحدًا إلا إذا حكى قولاً، أو قراءة، أو حديثًا، أو قصة، أو أثرًا لسلف، وأما نفس تفاسير الآى، والرد على بعض المفسرين، والجواب، فمن عنده إلا ما نسبه لقائله، كما يدعى أنه كان ينظر بفكره فى الآية أولاً، ثم تارة يوافق نظر جار الله الزمخشرى، والقاضى البيضاوى... وهو الغالب، وتارة يخالفهما، ويوافق وجهًا أحسن مما أثبتاه أو مثله.

ومهما يكن من شىء فلا يسعنا إلا أن نقول: إن الرجل ـ وقد قرأ الكثير من كتب التفسير ـ تأثر بما جاء فيها، واستفاد الكثير من معانيها مما يدعونا إلى القول أن تفسيره بمثل التفسير المذهبى للخوارج الإباضية فى أواخر عصورهم فقط، وبعد أن خرجوا من عزلتهم التى مكثوا فيها مدة طويلة من الزمن.

نقرأ فى هذا التفسير فنجد أن صاحبه يذكر فى أول كل سورة عدد آياتها، والمكى منها والمدنى، ثم يذكر فضائل السورة، مستشهدًا لذلك فى الغالب بالأحاديث الموضوعة فى فضائل السور، ثم يذكر فوائد السورة بما يشبه كلام المشعوذين الدجالين، ثم بعد ذلك كله يشرح الآيات شرحًا وافيًا، فيسهب فى المسائل النحوية، واللغوية، والبلاغية، ويفيض فى مسائل الفقه والخلاف بين الفقهاء، كما يتعرض لمسائل علم الكلام ويفيض فيها، مع تأثر كبير بمذهب المعتزلة، كما لا يفوته أن يعرض للأبحاث الأصولية والقراءات، وهو مكثر إلى حد كبير من ذكر الإسرائيليات التى لا يؤيدها الشرع، ولا يصدقها العقل، كما يطيل فى ذكر تفاصيل الغزوات التى كانت على عهد رسول الله ﷺ، ثم هو بعد ذلك لا يكاد يمر بآية يمكن أن يجعلها فى جانبه إلا مال بها إلى مذهبه، وجعلها دليلاً عليه، ولا بآية تصارحه بالمخالفة إلا

تلمس لها كل ما فى طاقته من تأويل؛ ليتخلص من معارضتها... وقد يكون تأويلاً متكلفًا وفاسدًا، لا ينجيه من معارضة الآية له، لكنه التعصب الأعمى... يدفع الإنسان إلى أن ينسى عقله، ويطرح تفكيره الصائب، ليمشى مع الهوى بعقل فارغ وتفكير خاطئ!! وإليك بعض ما جاء فى هذا التفسير؛ لتقف على مسلك صاحبه فى فهمه لآيات القرآن الكريم.

حقيقة الإيمان:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢، ٣) من سورة البقرة ﴿ **... هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ نراه يقرر: أن الإيمان يطلق على مجموع الاعتقاد، والإقرار، والعمل، ثم يقول: «فمن أخل بالاعتقاد وحده، أو به وبالعمل، فهو مشرك من حيث الإنكار، منافق أيضًا من حيث أنه أظهر ما ليس فى قلبه، ومن أخل بالإقرار وحده، أو بالإقرار والعمل، فهو مشرك عند جمهورنا وجمهور قومنا، وقال القليل: إنه إذا أخل بالإقرار وحده، مسلم عند الله من أهل الجنة، وإن أخل به وبالعمل ففاسق كافر كفر نعمة... وإن أخل بالعمل فقط، فمنافق عندنا، فاسق ضال، كافر كفرًا دون شرك غير مؤمن الإيمان التام... ثم قال: واختلف الخوارج... وهم الذين خرجوا عن ضلالة على، فقالت الإباضية الوهبية، وسائر الإباضية فيمن أخل بواحد من الثلاثة: ما تقدم من إشراكه بترك الاعتقاد، أو بترك الإقرار، وينافق بترك العمل، ويثبتون الصغيرة، وقال الباقون كذلك وإنه لا صغيرة، ومذهب المحدثين انضمام العمل والإقرار إلى الاعتقاد على التكميل لا على أنه ركن، ونحن نقول: انضمامهما إليه ركن، وهما جزء ماهيته...»(١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٥) من سورة البقرة ﴿ **... وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ الآية، نراه يحاول محاولة جدية فى تحقيق أن العمل جزء من الإيمان ولا يتحقق الإيمان بدونه، فيقول: «ترى الإنسان يقيد كلامه مرة واحدة بقيد، فيحمل سائر كلامه المطلق على هذا التقييد، فكيف يسوغ لقومنا أن يلغوا تقييد الله ـ عز وجل ـ الإيمان بالعمل الصالح مع أنه لا

(١) جـ١ ص ٢٠٠.

يكاد يذكر الفعل من الإيمان إلا مقرونًا بالعمل الصالح؟ بل الإيمان نفسه مفروض لعبادة من يجب الإيمان به وهو الله تعالى، إذ لا يخدم الإنسان مثلاً سلطانًا لا يعتقد بوجوده، وثبوت سلطته، فالعمل الصالح كالبناء النافع، المظلل المانع للحر، والبرد والمضرات، والإيمان أس، ولا ينفع الأس بلا بناء عليه، ولو بنى الإنسان ألوفًا من الأسس ولم يبن عليها لهلك باللصوص، والحر، والبرد، وغير ذلك: فإذا ذكر الإيمان مفردًا قيد بالعمل الصالح، وإذا ذكر العمل الصالح، فما هو إلا فرع الإيمان؛ إذ لا نعمل لمن لا نقر بوجوده، وفى عطف الأعمال الصالحات على الإيمان، دليل على أن كلا منهما غير الآخر؛ لأن الأصل فى العطف المغايرة بين المتعاطفين، ففى عطف الأعمال الصالحات على الإيمان إيذان بأن البشارة بالجنات إنما يستحقها من جمع بين الأعمال الصالحات والإيمان»(١).

موقفه من أصحاب الكبائر:

كذلك نجد المؤلف يحاول أن يأخذ من القرآن ما يدل على أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار وليس بخارج منها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨١) من سورة البقرة ﴿**بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ يقول: (. . . «سيئة» خصلة قبيحة، وهى الذنب الكبير، سواء كان نفاقًا أو إشراكًا، ومن الذنوب الكبيرة: الإصرار، فإنه نفسه كبيرة، سواء كان على الصغيرة أو الكبيرة، والدليل على أن السيئة: الكبيرة قوله ﴿**فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ**﴾ ويحتمل وجه آخر وهو أن السيئة: الذنب صغيرًا أو كبيرًا، ثم يختص الكلام بالكبيرة بقوله ﴿**وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**﴾ وإن قلت: روى قومنا عن ابن عباس ﵄ أن السيئة هنا الشرك، وكذا قال الشيخ هود ـ رحمه الله ـ إنها الشرك، قلت: ما ذكرته أولى مما ذكراه؛ فإن لفظ السيئة عام، وحمله على العموم أولى؛ إذ ذلك تفسير منهما لا حديث، ولا سيما أنهما وقومنا يعترفون بأن الكبيرة تدخل فاعلها النار، ولم يحصروا دخولها على الشرك، ومعترفون بأن لفظ الخلود يطلق على المكث الكبير، سواء كان أبديًا، أو غير أبدى، وادعاء أن الخلود فى الموحدين

---

(١) جـ١ ص ٣٦٠، ٣٦١.

بمعنى المكث الطويل، وفى الشرك بمعنى المكث الدائم، استعمال للكلمة فى حقيقتها ومجازها، وهو ضعيف، وأيضًا ذكر إحاطة الخطيئات ولو ناسب الشرك كغيره، لكنه أنسب بغيره؛ لأن الشرك أقوى ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ ربطته ذنوبه وأوجبت له دخول النار، فصار لا خلاص له منها، كمن أحاط به العدو، أو الحرق، أو حائط السجن، وذلك بأن مات غير تائب»(١).

حملته على أهل السنة:

ونرى المؤلف كلما سنحت له الفرصة للتنديد بجمهور أهل السنة القائلين بأن صاحب الكبيرة من المؤمنين يعذب فى النار على قدر معصيته، ثم يدخل الجنة بعد ذلك، ندد بهم ولمزهم.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤) من سورة البقرة ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يقول: «. . . وترى أقوامًا يتسبون إلى الملة الحنيفية يضاهئون اليهود فى قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ (آل عمران: ٢٤)»(٢).

مغفرة الذنوب:

ثم إن المؤلف حمل كل آيات العفو والمغفرة على مذهبه القائل: بأن الكبائر لا يغفرها الله إلا بالتوبة منها والرجوع عنها، ويحمل على الأشاعرة القائلين بأن الله يجوز أن يغفر لصاحب الكبيرة وإن لم يتب.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٨٤) من سورة البقرة ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ...﴾ يقول: «. . . ولا دليل فى الآية على جواز المغفرة لصاحب الكبيرة الميت بلا توبة منها، كما زعم غيرنا، لحديث «هلك المصرون»(٣).

وعند قوله تعالى فى الآية (١٢٩) من سورة آل عمران ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ يقول: «يغفر لمن يشاء الغفران له بأن يوفقه للتوبة، ويعذب من يشاء تعذيبه بأن لا يوفقه، وليس من الحكمة أن يعذب المطيع

---

(١) جـ٢ ص ١٤٠. (٢) جـ١ ص ٢٢٨. (٣) جـ٣ ص ٤٤٣.

الموفى، وليس مدبها أن يرحم العاصى المصر، وقد انتفى الله من أن يكون ظالمًا، وعد من الظلم: النقص من حسنات المحسن، والزيادة فى سيئات المسىء، وليس من الجائز عليه ذلك، خلافًا للأشعرية فى قولهم: يجوز أن يدخل الجنة جميع المشركين، والنار جميع الأبرار، وقد أخطأوا فى ذلك...»[(١)].

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٣) من سورة الزمر ﴿... إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يقول: «بشرط التوبة منها، بدليل التقييد بها فى مواضع من القرآن والسنة، والمطلق يحمل على المقيد، وقد ذكرت فى القرآن مرارًا شرطًا للغفران، فذكرها فيما ذكرت، ذكر لها فيما لم تذكر، وإنما تحذف لدليل، والقرآن فى حكم كلام واحد لا يتناقض، حاشاه، وأيضًا لا يليق أن يذكر لهم أنه يغفر الكبائر بلا توبة مع أنه ناه عنها، لأن ذلك يؤدى بهم إلى الاجتراء عليها، وقد أخفى الصغائر لئلا يجترأ عليها من حيث إنه غفرها، ويدل لذلك تعقيب الآية بقوله: «وأنيبوا إلى ربكم» لئلا يطمع طامع كالقاضى - يريد البيضاوى - فى حصول المغفرة بلا توبة، ويدل له أيضًا قراءة ابن مسعود وابن عباس «يغفر الذنوب جميعًا لمن يشاء» أى لمن يشاؤه بالتوبة... وأما قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فاستئناف معلل لمغفرة الذنوب بالتوبة، أى يغفرها، ويقبل التوبة منها، لأن من شأنه الغفران العظيم، الرحمة العظيمة وملكه وغناه واسع لذلك، والمراد بالآية: التنبية على أنه لا يجوز لمن عصى الله - أى عصيان كان - أن يظن أنه لا يغفر له، ولا يقبل توبته، وذلك مذهبنا معشر الإباضية، وزعم القاضى وغيره: أن الشرك يغفر بلا توبة، ومشهور مذهب القوم: أن الموحد إذا مات غير تائب: يرجى له، وأنه إن شاء عذبه بقدر ذنبه وأدخله الجنة، وإن شاء غفر له، ومذهبنا: أن من مات على كبيرة غير تائب: لا يرجى له»[(٢)].

رأيه فى الشفاعة:

ويرى المؤلف: أن الشفاعة لا تقع لغير الموحدين، ولا لأصحاب الكبائر، ومن خلال رأيه هذا ينظر إلى آيات الشفاعة فلا يرى فيها إلا ما يتفق ومذهبه.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٨) من سورة البقرة ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ

(١) جـ٤ ص ٢٤٠، ٢٤١.

(٢) جـ١٢ ص ٧٢.

تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يقول: «. . . وإن قلت: فهل الشفاعة والفداء بالعدل واقعان ولكن لا يقبلان؟ أم غير واقعين؟ قلت: غير واقعين. . . أما من تأهل للشفاعة من الملائكة والأنبياء والعلماء والصالحين، فلا يتعرضون بها لمن ظهرت شقاوته لهم، فإن تعرضوا بها لهم قبل أن تظهر لهم، قيل لهم: إنهم بدلوا وغيروا، وليسوا أهلاً لها، فيتركوا التعرض لها، وأما من لم يتأهل لها فمشغول بنفسه لا يدرى ما يفعل به»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢٣) من السورة نفسها ﴿**وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ**﴾ يقول: «﴿**وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ**﴾ لعدمها هناك فالمراد أنه لا شفاعة تنفعها، فالشفاعة هنالك منفية من أصلها، وليس المراد أنه هناك شفاعة لا تقبل، وإنما ساغ ذلك، لأن القضية السالبة تصدق بنفى الموضوع، كما تصدق بنفى المحمول، فكما تقول: ليس زيد قاعدًا فى السوق وتريد أنه فيها لكنه قائم، كذلك تقول: ليس زيد قاعدًا فيها، وتريد أنه ليس فيها أصلاً وذلك مخصوص بالمشرك؛ فإنه لا شفاعة له هنالك إلا شفاعة القيام لدخول النار ولا نفع له فى دخول النار، وإنما الشفاعة للموحد التائب»(٢).

وعند قوله تعالى فى الآية (١٥٩) من سورة الأنعام ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ...**﴾ الآية، يقول: «. . . فالآية نص أو كالنص فى أن لا شفاعة لأهل الكبائر، أى أنت برىء منهم على كل وجه وقد علمت عن عمر وأبى هريرة أن الآية فى أهل البدع من هذه الأمة»(٣).

رؤيـــة الله تعالى:

ويرى صاحبنا: أن رؤية الله تعالى غير جائزة، ولا واقعة لأحد مطلقًا، ويصرح بذلك فى تفسيره لآيات الرؤية، ويرد على أهل السنة الذين يقولون يجوازها فى الدنيا، ووقوعها للمؤمنين فى الآخرة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة البقرة ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**﴾ الآية، نراه يذكر ما ورد من الروايات فى هذا الباب،

---

(١) جـ٢ ص ١٧. (٢) جـ٢ ص ٢٩٩. (٣) جـ٦ ص ٢٧٤.

ومن الروايات رواية تفيد: أن موسى سأل ربه أن ينظر إليه بالمجاهرة، يعقب عليها فيقول: «وهذه الرواية تقتضى أن موسى يجيز الرؤية، حتى سألها ومُنعَهَا... وليس كذلك، بل إن صح سياق هذه الرواية فقد سألوه الرؤية قبل ذلك، فنهاهم عن ذلك وحرمه، أو سكت انتظارًا للوحى فى ذلك، فلما فرغ وخرج، عاودوه ذكر ذلك، فقال لهم: قد سألته على لسانكم كما تحبون، لأخبركم بالجواب الذى يقمعكم لا لجواز الرؤية، فتجلى للجبل بعض آياته فصار دكّا، فكفروا بطلب الرؤية، لاستلزامها اللون، والتركيب، والتحيز، والحدود، والحلول... وذلك كله يستلزم الحدوث، وذلك كله محال على الله، وإذا كان ذلك مستلزمًا عقلاً لم يختلف دنيا وأخرى، فالرؤية محال دنيا وأخرى، ولا بالإيمان، والكفر، والنبوة، وعدمها»(١).

وعند قوله تعالى فى الآية (١٥٣) من سورة النساء ﴿**يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً**﴾ الآية، يقول: «فأخذتهم الصاعقة بظلمهم إذ سألوا رؤية الله جل وعلا الموجبة للتشبيه... وقالت الأشعرية: الصاعقة إنما هى من أجل امتناعهم من الإيمان بما وجب إيمانه إلا بشرط الرؤية، لا من أجل طلب الرؤية، وهو خلاف ظاهر الآية، مع أن الرؤية توجب التحيز، والجهات، والتركيب والحلول، واللون، وغير ذلك من صفات الخلق، ويدل لما قلته قوله تعالى: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ**﴾ **(الأنعام: ١٠٣)** والأشعرية لما أُفحموا قالوا: بلا كيف، وحديث الرؤية إن صح فمعناه: يزدادون يقينًا بحضور ما وعد الله فى الآخرة، فلا يشكون فى وجود الله، وكمال صدقه، وقدرته، كما لا يشكون فى البدر»(٢).

أفعال العباد:

وإذا كان المؤلف يتأثر بآراء المعتزلة أحيانًا، فإنه يصرح بمخالفتهم فى بعض المسائل، فمثلاً نراه يقرر: أن أفعال العباد كلها بإرادة الله تعالى وأن العبد لا يخلق أفعال نفسه، ونراه يرد على المعتزلة ولا يرضى موقفهم من هذه المسألة، فمثلاً عندما فسر قوله تعالى فى الآية (١٠٧) من سورة الأنعام ﴿... **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا**

---

(١) جـ٢ ص ٤٢.

(٢) جـ٥ ص ١٧٣.

جعلناك عليهم حفيظًا...﴾ الآية، يقول: «ولو شاء الله عدم إشراكهم بالله تعالى ما أشركوا به تعالى شيئًا، فالآية دليل على أن إشراكهم بإرادة الله ومشيئته، وفيه رد على المعتزلة في قولهم: لم يرد معصية العاصى... وزعموا أن المعنى: لو شاء الله لأكرههم على عدم الإشراك، ولزم عليهم أن يكون مغلوبًا على أمره إذا عصى ولم يرد المعصية، بل أراد الإيمان منهم ولم يقع - تعالى الله عن ذلك - والحق أن المعصية بإرادته ومشيئته، مع اختيار العاصى... لا جبر، للذم عليها والعقاب والنهى عنها»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٢) من سورة الزمر ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يقول: «من إيمان، وكفر، وخير، وشر، مما هو كائن دنيا وأخرى»(٢).

موقفه من المتشابه:

كذلك نجد المؤلف يقف من المتشابه موقف التأويل، ويعيب على من يقول بالظاهر، وإن فوض علمه وكيفيته لله.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢١٠) من سورة البقرة ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ يقول: «﴿إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ على حذف مضاف أى أمر الله، بدليل قوله تعالى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ (النحل: ٣٣) والحاصل؛ أن مذهبنا ومذهب هؤلاء - يريد المعتزلة ومن وافقهم - تأويل الآية عن ظاهرها إلى ما يجوز وصف الله به»(٣).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٢) من سورة المائدة ﴿... وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ نراه يذكر الحديث القائل (إن المقسطين على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين) ثم يقول: «ويمين الرحمن عبارة عن المنزلة الرفيعة، والعرب تذكر اليمين فى الأمر الحسن، ودل لذلك قوله: وكلتا يديه يمين، والتأويل فى مثل ذلك هو الحق، وأما قول سلف الأشعرية فى

(١) جـ٦ ص ٦٨. (٢) جـ١٢ ص ٧٧.

(٣) جـ٢ ص ١٥٧.

مثل ذلك: إنا نؤمن به ونتزهه عن صفة الخلق ونكل معناه إلى الله، ونقول: هو على معنى يليق به... وكذا طوائف من المتكلمين؛ فجمود وتعام عن الحق»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ...﴾ الآية، يقول: «...واستوى بمعنى استولى بالملك، والغلبة، والقوة، والتصرف فيه كيف شاء، والعرش جسم عظيم وذلك مذهبنا ومذهب المعتزلة وأبى المعالى وغيره من حذاق المتكلمين، وخص العرش بذكر الاستيلاء لعظمته»(٢).

موقفه من تفسير الصوفية:

ونجد المؤلف يبدى رأيه فى تفسير الصوفية بصراحة تامة؛ ويحمل على من يفسر هذا التفسير، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: «... قيل ويحتمل أن يراد الإنفاق من جميع ما رزقهم الله من أنواع الأموال؛ والعلم، وقوة البدن، والجاه، وفصاحة اللسان... ينفعون بذلك عيال الله سبحانه وتعالى على الوجه الجائز، وقيل: المعنى ومما خصصناهم به من أنوار معرفة الله - جل وعلا - يفيضون... وهذا القول والذى قبله أظنهما للصوفية أو لمن يتصوف، وليس تفسير الصوفية عندى مقبولاً إذا خالف الظاهر، وكان تكلفًا، أو خالف أسلوب العربية، ولا أعذر من يفسر به ولا أقبل شهادته، وأتقرب إلى الله تعالى ببغضه والبراءة منه، فإنه ولو كان فى نفسه حقًا لكن جعله معنى للآية أو للحديث خطأ لأنه خروج عن الظاهر وأساليب العرب التى يتخاطبون بها وتكلف من التكلف الذى يبغضه الله، فإن القولين وإن ناسبهما قوله ﷺ: «إن علمًا لا يقال به ككنز لا ينفق منه» الذى رواه الطبرانى فى الأوسط، لكن لا يصحان تفسيرا للآية، إذ لا يتبادر ذلك ولا يجرى على أسلوب العرب والقول الأخير أبعد وأنا أعد اعتقادى ذلك نورًا ومعرفة أفاضها الله الرحمن الرحيم علىّ، وقد أقبل القول الذى قبله، لأنه قريب من أسلوب العرب، وقليل التكلف، والصحيح أن المراد النفقة الواجبة وغير الواجبة من المال»(٣).

---

(١) جـ٥ ص ٣٣٩. (٢) جـ٦ ص ٣٦١. (٣) جـ١ ص ٢٢٠.

موقفه من الشيعة:

وصاحبنا لا يسلم للشيعة استدلالهم على إمامة على بقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ بل نراه يفند احتجاجهم بالآية فيقول: «وزعم الشيعة أن الذين آمنوا الذى يقيمون الصلاة. . . إلى راكعون، المراد به على بن أبى طالب وأن جملة «هم راكعون» حال من واو «يؤتون الزكاة» وهى مقارنة، وأنه أعطى الزكاة وهو فى الصلاة راكع سأل سائل وهو فى ركوع الصلاة فأعطاه خاتمه فى حال ركوعه وأراد به الزكاة، وعبر عنه بالجمع تعظيمًا، وهى دعوى بلا دليل عليها والأصل العموم، والأصل أن لا يطلق لفظ الجمع على المفرد، ومن دعوى الشيعة أن المراد بالولى فى الآية المتولى للأمور المستحق للتصرف فيها، وأن هذه الآية دليل على إمامة على. . . وهذا أيضًا تكلف بلا دليل»(١).

رأيه فى التحكيم:

ونرى المؤلف يتأثر فى تفسيره هذا بعقيدته فى مسألة التحكيم بين على ومعاوية ﵄، فيفر من الآيات التى تعارضه، ويمكن أن تكون مستندًا لمخالفيه.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النساء ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا...**﴾ الآية، نراه يقول: «. . . ولا دليل فى الآية على جواز التحكيم، لأن مسألة الحال إنما هى ليتحقق بالحكمين ما قد يخفى من حال الزوجين، بخلاف ما إذا ظهر بطلان إحدى الفرقتين بأن الله قد حكم بقتالها، وأيضًا المراد هنا: الإصلاح مثلاً لا مجرد بيان الحق»(٢).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٩، ١٠) من سورة الحجرات ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا.....**﴾ إلى قوله: ﴿**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ يقول: «. . . . والإصلاح بالنصح والدعاء إلى حكم الله. . .» ثم يقول: «وسمع علىٌّ رجلاً يقول فى ناحية المسجد: (لا حكم إلا الله) فقال: كلمة حق أريد بها باطل. . . لكم علينا ثلاث: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نمنعكم الفىء ما دامت

(١) جـ٥ ص ٣٧٦.
(٢) جـ٤ ص ٤٧٨.

أيديكم فى أيدينا، ولا نبدأكم بقتال. قلت: الحق أنه إذا حكم الله بحكم فى مسألة فلا حكم لأحد فيها سواه، فالحق مع الرجل، ولو كان على أعلم عالم، ثم قال: قيل: وفى الآية دليل على أن البغى لا يزيل اسم مؤمن؛ لأن الله سماهم مؤمنين مع كونهم باغين. . . وسماهم إخوة مؤمنين.

قلت: لا دليل؛ أما وإن طائفتان من المؤمنين. . . فتسميتهم فيه مؤمنين: باعتبار ما يظهر لنا قبل ظهور البغى، وأما إنما المؤمنون إخوة. . . فتسميتهم فيه مؤمنين إخوة: باعتبار ما ظهر لنا قبل البغى، فقوله: وأصلحوا بين أخويكم فى معنى اهدوهم إلى الحال التى كانوا عليها قبل، أو المراد بالمؤمن الموحد لا الموفى؛ بدليل «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» وأما لفظ آمن وإيمان، فلا يختصان بالموفى»[(١)].

إشادته بالخوارج وحطه من قدر عثمان وعلى ومن والاهما:

ثم إنه لا تكاد تأتى مناسبة لذكر الخوارج إلا رفع من شأنهم، ولا لذكر على، أو عثمان، أو من يلوذ بهما إلا وغض من شأنهم، ورماهم بكل نقيصة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (١٠٥، ١٠٦) من سورة آل عمران ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** . . . ﴾ إلخ، نراه يعيب على من يقول من المفسرين: «إن الذين تفرقوا واختلفوا هم من خرج على علىّ عند قبوله التحكيم ويقول: إن أمر الحكمين لم يكن حين نزلت الآية، بل فى إمارة على، وتفرقوا واختلفوا صيغتان ماضيتان، ولا دليل على صرفها للاستقبال، ولا على التعيين لمن ذكر، بل دلت الآية على خلوصهم من ذلك، وعلى أنهم المحقون الذين تبيض وجوههم، فمن خالفهم فهو داخل فى قوله تعالى ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾ (**آل عمران: ١٠٦**) وهو يعم كل من كفر بعد إيمانه، واعلم أنه قد خرج على على حين أذعن للحكومة صحابة كثيرون - ﷺ - وتابعون كثيرون، فترى المخالفين يذمون ويشتمون من خرج عنه، ويلعنونه، غير الصحابة الذين خرجوا عنه،

---

(١) جـ١٢ ص ٥١٧.

والخروج واحد إما حق فى حق الجميع، وإما باطل فى حق الجميع... فإذا كان حقًا فى جنب الكل، فكيف يشتمون من خرج عليه غير الصحابة، وإن كان باطلا فى جنب الكل، فقد استحق الصحابة الشتم أيضًا... عافاهم الله، ونرى المخالفين يروون أحاديث لم تصح عن رسول الله ﷺ، وقد يصح الحديث ويزيدون فيه، وقد يصح ويؤولونه فينا وليس فينا»... ثم سرد المؤلف بعض الأحاديث التى حملت عليهم، وردوها بعدم صحتها، أو بحملها على غلاة الخوارج كالصفرية، أو بحملها على من قبل التحكيم... ثم قال: «والدليل الأقوى على أن تلك الأحاديث ليست فينا ولا فيمن اقتدينا بهم، وأن الراضين بالتحكيم هم المبطلون، ما رواه أبو عمر، وعثمان بن خليفة: أن رجلاً من تلاميذ أبى موسى الأشعرى عبد الله بن قيس، لقيه بعدما وقع فيما وقع من أمر التحكيم، فقال له: قف يا عبد الله بن قيس أستفتك، فوقف... وكان التلميذ قد حفظ عنه أنه حكى عن رسول الله ﷺ أنه قال: سيكون فى هذه الأمة حكمان ضالان مضلان يضلان ويضل من اتبعهما قال: فلا تتبعهما وإن كنت أحدهما، ثم قال له التلميذ: إن صدقت فعليك لعنة الله، وإن كذبت فعليك لعنة الله، ومعنى ذلك: إن كانت الرواية التى رواها عن رسول الله ﷺ صحيحة ثم وقع فيها، فعليه لعنة الله، وإن كان كاذبًا على رسول الله ﷺ، فعليه لعنة الله؛ لنقله الكذب عن رسول الله، لا محيص عن الأمرين جميعًا...»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٩) من سورة التوبة ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ...﴾ الآية، نراه يحاول الغض من شأن عثمان الذى بذل ماله فى غزوة تبوك دفاعًا عن رسول الله ﷺ، ونصرة لدين الله فيقول: «... وعن عمران بن حصين أن نصارى العرب كتبت إلى هرقل: إن هذا الرجل الذى يدعى النبوة هلك وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم، فبعث رجلاً من عظمائهم، وجهز معه أربعين ألفًا، فبلغ ذلك النبى ﷺ ولم يكن للناس قوة، وكان عثمان قد جهز عيرًا إلى الشام، فقال: يا رسول الله... هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية، قال صاحب المواهب: قال عمران بن حصين: فسمعته يقول: لا يضر عثمان ما عمل

(١) جـ٤ ص ١٨٥، ١٨٦.

بعدها - والعهدة على القسطلانى وعمران - فإن صح ذلك فمعنى ذلك: الدعاء له بالخير، لا القطع بأنه من أهل الجنة، وعن عبد الرحمن بن سمرة: جاء عثمان بن عفان بألف دينار فى كمه حين جهز جيش العسرة، فنثرها فى حجره ﷺ، فرأيت رسول الله ﷺ يقلبها فى حجره ويقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم، فإن صح هذا فذلك أيضًا دعاء، وإنما قلت ذلك لأخبار سوء وردت فيه عن رسول الله ﷺ . . . »(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠٣ - ١٠٦) وما بعدها من سورة الكهف ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً**﴾ الآيات إلى قوله: ﴿**ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا**﴾ يقول: « . . وزعم علىٌّ أنهم أهل حروراء، وهم المسلمون الذين خرجوا عنه؛ لعدم رضاهم بالتحكيم فيما كان لله فيه حكم، وسأله ابن الكواء فقال: منهم حروراء، وسئل أهم مشركون؟ فقال: لا، فقال: أمنافقون؟ فقال: لا . . . بل إخواننا بغوا علينا . . . وذلك خطأ تشهد به عبارته؛ لأنه ليس الإنسان إلا مؤمنًا أو مشركًا أو منافقًا، فإذا انتفى الشرك والنفاق عن أهل حروراء فهم مؤمنون، والمؤمن لا يوصف بالبغى وهو مؤمن، ومن بغى دخل فى حدود النفاق، وأيضًا الباغى من يرى التحكيم فيما كان لله فيه حكم، والسافك دماء من لم يتبعه على هذه الزلة، وأيضا أهل حروراء لم يكفروا بآيات الله، ولا بلقائه، بل مؤمنون بآيات الله وبالبعث، والأخسرون أعمالاً قد وصفهم الله سبحانه وتعالى بكفر الآيات واللقاء، ولست أقول ذلك معجبًا بنفسى، ولا متعجبًا ممن عصى، بل حق ظهر لى فصرحت به»(٢).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة النور ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ...**﴾ الآية، يقول: « . . . قال المخالفون عن الضحاك: إن الذين آمنوا هم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وإن استخلافهم: إمامتهم العظمى، وسيأتى ما يدل على بطلان دخول عثمان وعلى فى ذلك . . . ثم قال: وفى أيام أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وبعدهم، كانت الفتوح العظيمة، وتمكين الدين لأهله، لكن لا دليل فى ذلك على إصابة عثمان وعلى، فإنهما وإن

---

(١) جـ٧ ص ٢١٣.

(٢) جـ١٠ ص ١٨٣، ١٨٤.

كانت خلافتهما برضى الصحابة، لكن ما ماتا إلا وقد بدلا وغيرا فسحقا... كما فى أحاديث عنه ﷺ أنهما مفتونان»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى آخر الآية السابقة ﴿**وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ يقول: «... أقول - والله أعلم بغيبه: إن أول من كفر بتلك النعمة وجحد حقها: عثمان بن عفان... جعله المسلمون على أنفسهم، وأموالهم، فخانهم فى كل ذلك، زاد فى مسجد رسول الله ﷺ ووسعه وابتاع من قوم وأبى آخرون فغصبهم، فصاحوا به فسيرهم للحبس، وقال: قد فعل لكم عمر هذا فلم تصيحوا به، فكلمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فأطلقهم من السجن، وقد جمع فى ذلك غصب المال، وقذف عمر رضي الله عنه، واستعمل أخاه لأمه وهو الوليد بن عقبة، ونزل ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً**﴾ **(الأنفال: ٢٥)** بحضرة أبى بكر، وعمر - رضي الله عنهما - وعثمان وعلى، فقال لعثمان: بك تفتح وبك تشب، وقال لعلى: أنت إمامها، وزمامها، وقائدها، تمشى فيها مشى البعير فى قيده، وقال: لضرس بعض الجلوس فى نار جهنم أعظم من جبل أحد، وقال: يثور دخانها تحت قدمى رجل يزعم أنه منى وليس منى، ألا إن أوليائى المتقون... إلى آخر ما ذكره من النقائص فى حق على وعثمان رضي الله عنهما...»(٢).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الشورى ﴿**قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...**﴾ الآية، يقول: «... فمودة قرابته ﷺ من لم يبدل منهم ولم يغير، مثل فاطمة، وحمزة، والعباس، وابنه - رضي الله عنهم - واجبة» ثم ذكر روايات كثيرة فى الحث على حب آل البيت ومودتهم... وبعدما فرغ منها قال: «لكن المراد بآله: آله الذين لم يبدلوا، فخرج على ونحوه ممن بدل، فإنه قتل من قال ﷺ : لا يدخل قاتله الجنة، ولم يصح عندنا معشر الإباضية رواية: أنه لما نزلت قيل: من قرابتك الذين تجب علينا مودتهم؟ فقال: على، وفاطمة، وابناهما...»(٣).

---

(١) جـ١٠ ص ٢٨٠، ٢٨١.
(٢) جـ١٠ ص ٢٨٢، ٢٨٣.
(٣) جـ١٢ ص ٢٢٧.

اعتداده بنفسه وحملته على جمهور المسلمين:

هذا... وإن المؤلف ليفخر كثيراً فى مواضع من تفسيره بنفسه وبأهل نحلته، ويرى أنه وحزبه أهل الإيمان الصادق، والدين القويم، والتفكير السليم، وأما من عداهم: فضالون مضلون، مبتدعون مخطئون.

فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٧٠) من سورة البقرة ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ الآية، يقول ما نصه: «... واعلم أن الحق هو القرآن والسنة، وما لم يخالفهما من الآثار، فمن قام بذلك، فهو الجماعة والسواد الأعظم، ولو كان واحداً؛ لأنه نائب النبى ﷺ والصحابة، والتابعين الذين اهتدوا، وكل مهتد، ومن خالف ذلك، فهو مبتدع ضال، ولو كان جمهوراً، هذا ما يظهر لى بالاجتهاد، وكنت أقرره للتلاميذ عام تسع وسبعين ومائتين وألف، فأصحابنا الإباضية الوهبية هم الجماعة والسواد الأعظم وأهل السنة ولو كانوا أقل الناس، لأنهم المصيبون فى أمر التوحيد، وعلم الكلام، والولاية، والبراءة، والأصول دون غيرهم»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١٢) من سورة هود ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ**﴾ الآية، يقول ما نصه: «واعلم يا أخى - رحمك الله - أنى استقريت هذه المذاهب المعتبرة كمذهبنا معشر الإباضية ومذهب المالكية، ومذهب الشافعية ومذهب الحنفية، ومذهب الحنبلية، بالمنقول والمعقول، فلم أر مستقيماً منها فى علم التوحيد والصفات سوى مذهبنا، فإنه مستقيم خال عن التشبيه والتعطيل، حججه لا تقاومها حجة، ولا نثبت لها، والحمد لله وحده»(٢).

هذا هو مفسرنا الإباضى، وهذا هو تفسيره الذى ملأه بالدفاع عن العقيدة الزائفة، والتعصب للمذهب الفاسد، وهو بعد - كما ترى - لا يسلم من مجاراة المعتزلة فى بعض عقائدهم، كما لم يسلم من الأحاديث الموضوعة التى جرت على ألسن وضاع الخوارج، لينصروا بها مذهبهم؛ ويروجوا له بين الناس.

---

(١) جـ٢ ص ٤٥٥ - ٤٥٦.

(٢) جـ٨ ص ٢١٣.

الفصل الرابع

تفسير الصوفية

تمهيد:

أصل كلمة تصوف ـ معناها ـ نشأته وتطوره ـ أقسامه.

أصل كلمة تصوف:

وقع الاختلاف فى أصل هذه الكلمة (تصوف) فقيل: إنها مشتقة من الصوف؛ وذلك لأن الصوفية خالفوا الناس فى لبس فاخر الثياب فلبسوا الصوف تقشفًا وزهدًا، وقيل: إنه من الصفاء؛ وذلك لصفاء قلب المريد، وطهارة باطنه وظاهره عن مخالفة ربه، وقيل: إنه مأخوذ من الصُّفَّة التى ينسب إليها فقراء الصحابة المعروفون بأهل الصفة، ويرى غيرهم أنه لقب غير مشتق، قال القشيرى رحمه الله: «ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية، ولا قياس، والظاهر أنه لقب، ومن قال باشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوى، قال: وكذلك من الصوف؛ لأنهم لم يختصوا به»(١).

معنى التصوف:

وأما معنى التصوف... فقيل: «هو إرسال النفس مع الله على ما يريده»(٢).

وقيل: «هو مناجاة القلب ومحادثة الروح، وفى هذه المناجاة طهرة لمن شاء أن يتطهر، وصفاء لمن أردا التبرؤ من الرجس والدنس، وفى تلك المحادثة عروج إلى سماء النور والملائكة وصعود إلى عالم الفيض والإلهام، وما هذا الحديث والنجوى إلا ضرب من التأمل، والنظر، والتدبر فى ملكوت السموات والأرض، بيد أن الجسم والنفس متلازمان وتوأمان لا ينفصلان، ولا سبيل إلى تهذيب أحدهما بدون الآخر، فمن شاء لنفسه صفاء ورفعة فلا بد له أن يتبرأ عن الشهوات وملذات البدن، فالتصوف إذن: فكر وعمل، ودراسة، وسلوك»(٣).

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٢. (٢) دائرة المعارف للبستانى المجلد السادس ص ١٣٣.

(٣) دروس فى تاريخ الفلسفة للدكتور مدكور، ويوسف كرم ص ١٤٠.

نشأة التصوف وتطوره:

والتصوف بهذا المعنى موجود منذ الصدر الأول للإسلام فكثير من الصحابة كانوا معرضين عن الدنيا ومتاعها، آخذين أنفسهم بالزهد والتقشف، مبالغين فى العبادة، فكان منهم من يقوم الليل ويصوم النهار، ومنهم من يشد الحجر على بطنه تربية لنفسه وتهذيبًا لروحه، غير أنهم لم يعرفوا فى زمنهم باسم الصوفية، وإنما اشتهر بهذا اللقب فيما بعد من عرفوا بالزهد والتفانى فى طاعة الله تعالى، وكان هذا الاشتهار فى القرن الثانى الهجرى، وأول من سمى بالصوفى: أبو هاشم الصوفى المتوفى سنة ١٥٠هـ خمسين ومائة من الهجرة(١).

وفى هذا القرن وما بعده تولدت بعض الأبحاث الصوفية، وظهرت تعاليم القوم ونظرياتهم التى تواضعوا عليها، وأخذت هذه الأبحاث تنمو وتتزايد كلما تقادم العهد عليها، وبمقدار ما اقتبسه القوم من المحيط العلمى الذى يعيشون فيه تطورت هذا الأبحاث والنظريات.

ولقد استفاد المتصوفة من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء ما كان له الأثر الأكبر فى هذا التورط الصوفى، غير أنهم أخذوا من الفلسفة بحظ وافر، بل وكونوا فلسفة خاصة بهم، حتى أصبحنا نرى بينهم رجالاً أشبه بالفلاسفة منهم بالمتصوفة، وأصبحنا نرى بعضهم يدين بمسائل فلسفية لا تتفق ومبادئ الشريعة، مما أثار عليهم جمهور أهل السنة، وجعلهم يحاربون التصوف الفلسفى، ويؤيدون التصوف الذى يدور حول الزهد، والتقشف، وتربية النفس، وإصلاحها... وما زال أهل السنة يحاربون التصوف الفلسفى حتى كادوا يقضون عليه فى نهاية القرن السابع الهجرى.

ومن ذلك الوقت دخل فى التصوف رجال من غير أهله، تظاهروا بالورع والطاعة، وتحلوا بالزهد الكاذب والتقشف المصطنع، فأصبحنا نرى بعض الجهلاء الأميين، يشرفون على الطريق، ويتولون تربية الأتباع والمريدين، ووقفت التعاليم الصوفية عند دائرة محدودة، هى دائرة الأوراد والأذكار، وإن تعدتها فلا أكثر من بعض الأبحاث الضيقة فى الفقه والتفسير والحديث.

(١)كشف الظنون (١/ ١٥٠).

أقســـــام التصـــــوف

مما تقدم يتضح لنا أن التصوف ينقسم إلى قسمين أساسيين:

تصوف نظرى: وهو التصوف الذى يقوم على البحث والدراسة.

وتصــوف عــملى: وهو التصــوف الذى يقوم على التقشف والزهد، والتـفانى فى طاعة الله، وكل من القسمــين كان له أثره فى تفسير القرآن الكريم، مما جـعل التفسير الصوفى ينقـسم أيضًا إلى قـسمين: تفـسير صـوفى نظرى، وتفسـير صوفى فـيضى أو إشارى، وسنتكلم على كل قسم منهما بما يفتح الله به ويوفق إليه:

أولاً: التفسير الصوفى النظرى

وجد من المـتصـوفة ـ كمـا قلنا ـ من بنى تصوفـه على مباحث نظريـة، وتعاليم فلسـفيـة، فكان من البدهـى أن ينظر هؤلاء المتـصوفـة إلى القـرآن نظرة تتمـشى مع نظرياتهم، وتتفق وتعاليمهم.

وليس من السهل أن يجد الصـوفى فى القرآن ما يتفق صراحة مع تعـاليمه، ولا ما يتمـشى بوضوح مع نظرياته التى يـقول بها؛ إذ أن القـرآن عربى جاء لـهداية الناس لا لإثبات نظرية من النظريات، ربـما كانت فى الغالب مـستحدثة وبعـيدة عن روح الدين وبداهة العقل.

غير أن الصوفى حرصًا منه على أن يتسلم له تعاليمه ونظرياته، يحاول أن يجد فى القرآن ما يشهد له أو يستند إليه، فتـراه من أجل هذا يتعسف فى فهمه للآيات القرآنية، ويشرحها شرحًا يخرج بها عن ظاهرها الذى يؤيده الشرع، وتشهد له اللغة.

ابن عربى شيخ هذه الطريقة:

ونستطيع أن نـعتبـر الأستاذ الأكـبر محـيى الدين بن عربى شيخ هـذه الطريقة فى التفسير، إذ أنه أظهـر من خب فيها ووضع، وأكثر أصحابه معـالجة للقرآن على طريقة التصــوف النظرى، وإن كان له من التـفسـير الإشارى مـا يجعله فى عـداد المفـسرين الإشاريين إن لم يكن شيخهم أيضًا.

تأثر ابن عربى بالنظريات الفلسفية:

نقرأ لابن عربى فى الكتب التى يشك فى نسبتها إليه، كالتفسير المشهور باسمه، وفى الكتب التى تنسب إليه على الحقيقة كالفتوحات المكية، والفصوص. فنراه يطبق كثيرًا من الآيات القرآنية على نظرياته الصوفية الفلسفية.

فمثلاً يفسر بعض الآيات بما يتفق والنظريات الفلسفية الكونية، فعند قوله تعالى فى الآية (٥٧) من سورة مريم فى شأن إدريس عليه السلام: ﴿**وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا**﴾ نجده يقوله: «وأعلى الأمكنة المكان الذى تدور عليه رحى عالم الأفلاك، وهو فلك الشمس، وفيه مقام روحانية إدريس، وتحته سبعة أفلاك، وفوقه سبعة أفلاك، وهو الخامس عشر»... ثم ذكر الأفلاك التى تحته، والتى فوقه، ثم قال: «وأما علو المكانة فهو لنا أعنى المحمديين كما قال تعالى: ﴿**وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ**﴾ (محمد: ٣٥) فى هذا العلو، وهو يتعالى عن المكان لا عن المكانة»(١).

وعند قوله تعالى فى الآية (٨٧) وما بعدها من سورة البقرة: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ..**﴾ إلى قوله: ﴿**كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ يقول: «.. والظاهر أن جبرائيل هو العقل الفعال، وميكائيل هو روح الفلك السادس وعقله المفيض للنفس النباتية الكلية الموكلة بأرزاق العباد، وإسرافيل هو روح الفلك الرابع وعقله المفيض للنفس الحيوانية الكلية الموكلة بالحيوانات، وعزرائيل هو روح الفلك السابع الموكل بالأرواح الإنسانية كلها يقبضها بنفسه أو بالوسائط التى هى أعوانه ويسلمها إلى الله تعالى»(٢).

وعند قوله تعالى فى الآيتين (١٩، ٢٠) من سورة الرحمن ﴿**مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ**﴾ يقول: «﴿**مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ**﴾ بحر الهيولى الجسمانية الذى هو الملح الأجاج، وبحر الروح الذى هو العذب الفرات ﴿**يَلْتَقِيَانِ**﴾ فى الوجود الإنسانى ﴿**بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ**﴾ هو النفس الحيوانية التى ليست فى صفاء الروح المجردة ولطافتها، ولا فى كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها ﴿**لاَّ يَبْغِيَانِ**﴾ لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصيته، فلا الروح يجرد البدن ويخرج به ويجعله

---

(١) الفصوص (١/ ٢٦).

(٢) تفسير ابن عربى (١/ ٥١).

من جنسه، ولا البدن يجسد الروح ويجعله مـاديًا. . . سبحان خالق الخلق القادر على ما يشاء»(١).

تأثره فى تفسيره بنظرية وحدة الوجود:

كذلك نرى ابن عربى يتأثر فى تفسيره للقرآن بنظرية وحدة الوجود، التى هى أهم النظريات التى بنى عليها تصوفه، فنراه فى كثير من الأحيان يشرح الآيات على وفق هذه النظرية، حتى إنه ليخرج بالآية عن مدلولها الذى أراده الله تعالى.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى أول سورة النساء ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ الآية، نجده يقول: «﴿**اتَّقُوا رَبَّكُمُ**﴾ اجعلوا ما ظهر منكم وقاية لربكم، واجعلوا ما بطن منكم ـ وهو ربكم ـ وقاية لكم؛ فإن الأمر ذم وحمد، فكونوا وقايته فى الذم، واجعلوه وقايتكم فى الحمد تكونوا أدباء عالمين»(٢).

وفى تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢٩، ٣٠) من سورة الفجر ﴿**فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ يقول: «. . . وادخلى جنتى التى هى سترى، وليست جنتى سواك، فأنت تسترنى بذاتك الإنسانية فلا أعرف إلا بك، كما أنك لا تكون إلا بى، فمن عرفك عرفنى، وأنا لا أُعْرَف فأنت لا تعرف، فإذا دخلت جنته دخلت نفسك، فتعرف نفسك معرفة أخرى، غير المعرفة التى عرفتها حين عرفت ربك بمعرفتك إياها، فتكون صاحب معرفتين: معرفة به من حيث أنت، ومعرفة به بك من حيث هو لا من حيث أنت، فأنت عبد رأيت ربًا، وأنت رب لمن له فيه أنت عبد، وأنت رب وأنت عبد لمن فى الخطاب عهد. . . إلخ»(٣).

وفى سورة آل عمران عند قوله تعالى فى الآية (١٩١) ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً**﴾ يقول: أى شيئا غيرك، فإن غير الحق هو الباطل، بل جعلته أسماءك ومظاهر صفاتك ﴿**سُبْحَانَكَ**﴾ ننزهك أن يوجد غيرك، أى يقارن شىء فردانيتك أو يثنى وحدانيتك. . .»(٤).

ومثلاً عند قوله تعالى فى الآيتين (٩، ١٠) من سورة الشمس ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**

---

(١) تفسير ابن عربى (٢/ ٢٨٠).
(٢) الفصوص (١/ ٥٠).
(٣) الفصوص (١/ ١٩١ - ١٩٣).
(٤) تفسير ابن عربى (١/ ١٤١).

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (٩) يقول: «تحقيق هذا الذكر أن النفس لا تزكو إلا بربها، فيه تشريف وتعظيم فى ذاتها، لأن الزكاة ربو، فمن كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه، والصورة فى الشاهد صورة خلق، فقد زكت نفس من هذا نعته، وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، كالأسماء الإلهية لله، والخلق كله بهذا النعت فى نفس الأمر، ولولا أنه هكذا فى نفس الأمر ما صح بصورة الخلق ظهور ولا وجود، ولذلك خاب من دساها؛ لأنه جهل ذلك فتخيل أنه دسها فى هذا النعت، وما علم أن هذا النعت لنفسه نعت ذاتى لا ينفك عنه ويستحيل زواله، لذلك وصفه بالخيبة حيث لم يعلم هذا، ولذلك قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ ففرض له البقاء، والبقاء ليس إلا لله، أو لما كان عند الله، وما ثم إلا الله، أو ما هو عنده، فخزائنه غير نافذة، فليس إلا صور تعقب صورًا...»(١).

وغير هذا كثير من قسر الآيات وإخضاعها لنظرية وحدة الوجود التى يدين بها ابن عربى.

قياسه الغائب على الشاهد:

كذلك نجد ابن عربى يفهم بعض النصوص القرآنية فهمًا خياليًا منتزعًا من المشاهد المحسوس، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة الرحمن ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ يقول ما نصه: (﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ على أى قلب نزل ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ فعين له الصنف المنزل عليه ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أى نزل له البيان فأبان عن المراد الذى فى الغيب ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ميزان حركات الأفلاك ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ لهذا الميزان، أى من أجل هذا الميزان، فمنه ذو ساق وهو الشجر، ومنه ما لا ساق له وهو النجم، فاختلفت السجدتان ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ وهى قبة الميزان ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ليزن به الثقلان ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ بالإفراط والتفريط من أجل الخسران ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ مثل اعتدال نشأة الإنسان، إذ

(١) الفتوحات (٤/ ١١٩).

الإنسان لسان الميزان ﴿ولا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أى لا تفرطوا بترجيح إحدى الكفتين إلا بالفضل، وقال تعالى: ﴿ونَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ (الأنبياء: ٤٧) فأعلم أنه ما من صنعة ولا مرتبة ولا حال ولا مقام إلا والوزن حاكم عليه علمًا وعملاً، فللمعانى ميزان بيد العقل يسمى المنطق، يحتوى على كفتين تسمى المقدمتين، وللكلام ميزان يسمى النحو يوزن به الألفاظ لتحقيق المعانى التى تدل عليه ألفاظ ذلك اللسان، ولكل ذى لسان ميزان وهو المقدار المعلوم الذى قرنه الله بإنزال الأرزاق فقال: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الحجر: ٢١) ﴿وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ (الشورى: ٢٧) وقد خلق جسد الإنسان على صورة الميزان، وجعل كفتيه: يمينه وشماله، وجعل لسانه: قائمة ذاته، فهو لأى جانب مال، وقرن الله السعادة باليمين، وقرن الشقاء بالشمال، وجعل الميزان الذى يورن بالأعمال على شكل القبان، ولهذا وصف بالثقل والخفة؛ ليجمع بين الميزان العددى وهو قوله تعالى ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ وبين ما يوزن بالرطل، وذلك لا يكون إلا فى القبان، فلذلك لم يعين الكفتين، بل قال: فأما من ثقلت موازينه... فى حق السعداء، وأما من خفت موازينه... فى حق الأشقياء، ولر كان ميزان الكفتين لقال: وأما من ثقلت كفة حسناته فهو كذا، وأما من ثقلت كفة سيئاته فهو كذا، وإنما جعل ميزان الثقل هو عين ميزان الخفة كصورة القبان، ولو كان ذا كفتين لوصف كفة السيئات بالثقل أيضًا إذا رجحت على الحسنات، وما وصفها قط إلا بالخفة فعرفنا أن الميزان على شكل القبان...»(١).

إخضاعه قواعد النحو لنظراته الصوفية:

وكذلك يخضع ابن عربى التفسير الصوفى النظرى إلى القواعد النحوية أحيانًا، ولكنه خضوع يكيفه الصوفى على حسب ما يرضى روحه ويوافق ذوقه، فنجد ابن عربى مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٠) من سورة الحج ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ يقول: «... وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ العامل فى هذا الظرف فى طريقنا، قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ﴾ أى من يعظمها عند ربه، أى فى ذلك الموطن، فلتبحث فى المواطن التى تكون فيها عند ربك ما هى؟... كالصلاة مثلاً، فإن المصلى يناجى

---

(١) الفتوحات (٣/ ٦).

ربه، فإذا عظم حرمة الله فى هذا الموطن كان خيراً له. . . والمؤمن إذا نام على طهارة فروحه عنـد ربه، فيعظم هناك حرمـة الله، فيكون الخير الذى له فى مـثل هذا الموطن المبَشرَة التى تحصل له فى نومه أو يراها له غيـره، والمواطن التى يكون العبد فيها عند ربه كثيرة فيعظم فيها حرمات الله على الشهود. . .»[(١)].

* * *

التفسير الصوفى النظرى فى الميزان

من هذه الأمثلة السـابقة كلها نسـتطيع أن نقرر فى صراحـة واطمئنان: أن التفسـير الصوفى النظرى تفسير يخرج بالقـرآن ـ فى الغالب ـ عن هدفه الذى يرمى إليه!! يقصد القرآن هدفًا معـينًا بنصوصه وآياته، ويقصد الصوفى هدفًا مـعينًا بأبحاثه ونظرياته، وقد يكون بين الهدفين تنافر وتضاد، فيأبى الصوفى إلا أن يحول القرآن عن هدفه ومقصده، إلى ما يـقصده هو ويـرمى إليه، وغـرضه بهذا كـله: أن يروج لتصـوفه على حـساب القـرآن، وأن يقيـم نظرياته وأبحـاثه عن أساس من كـتـاب الله، وبهـذا الصنيع يكون الصوفى قد خدم فلسفـته التصوفية ولم يعمل للقرآن شـيئًا، اللهم إلا هذا التأويل الذى كله شر على الدين وإلحاد فى آيات الله!!.

رأينا ابن عربى يميل ببـعض الآيات إلى مذهبه القائل بوحدة الوجـود، ورأينا غيره كأبى يزيد البـسطامى، والحلاج، وغـيرهما، يسلك هذا الملـسك نفسه أو قـريبًا منه، ووحـدة الوجود ـ عندهـم ـ معناها أنه ليـس هناك إلا وجود واحـد كل العـالم مظاهر ومجال له، فالله سبحانه هو الموجود الحق، وكل ما عداه ظواهر وأوهام، ولا توصف بالوجود إلا بضرب من التوسع والمجاز، وهذه الـنظرية سرت إلى بعض المتصوفة عن طريق الفلاسفة، وعن طريق الإسماعيلية الباطنية الذين خالطوهم وأخذوا عنهم مذهبهم القائـل بحلول الإله فى أئمتـهم، وصوروه ـ أعنى الصـوفيـة ـ بصورة أخرى تتـفق مع مذهب الباطنية فى الحقيقة، وإن اختلفت فى الاصطلاح والألفاظ. . . !![(٢)].

هذا المـذهب الذى خول لمـثل الحلاج أن يقـول: أنا الله، ولمثل ابن عـربى أن

---

(١) الفتوحات (٤/ ١١٥).

(٢) وحدة الوجود ليست هى نظرية الحلول، غاية الأمر أن أصحاب القول بوحدة الوجود ينقسمون =

يقول: إن عجل بنى إسرائيل أحد المظاهر التى اتخذها الله وحل فيها، والذى جره فيما بعد إلى القول بوحدة الأديان لا فرق بين سماوى وغير سماوى؛ إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلى فى صورهم وصور جميع المعبودات.

هذا المذهب الذى يذهب بالدين من أساسه، هل يكون سائغًا ومقبولاً أن نجعله أصلاً نبنى عليه إفهامنا لآيات القرآن الكريم؟! وهل يليق بابن عربى وهو الأستاذ الأكبر، أن ينظر من خلاله إلى مثل قوله تعالى فى الآيتين (٦، ٧) من سورة البقرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

فيقول شارحًا لهذا النص القرآنى: «يا محمد... إن الذين كفروا: ستروا محبتهم فىَّ... دعهم فسواء عليهم أأنذرتهم بوعيدك الذى أرسلتك به، أم لم تنذرهم لا يؤمنون بكلامك؛ فإنهم لا يعقلون غيرى، وأنت تنذرهم بخلقى وهم ما عقلوه ولا شاهدوه، وكيف يؤمنون بك وقد ختمت على قلوبهم فلم أجعل فيها متسعًا لغيرى، وعلى سمعهم فلا يسمعون كلامًا فى العالم إلا منى، وعلى أبصارهم غشاوة من بهائى عند مشاهدتى، فلا يبصرون سواى، ولهم عذاب عظيم عندى... أردهم بعد هذا المشهد السنى إلى إنذارك وأحجبهم عنى، كما فعلت بك بعد قاب قوسين أو أدنى قربًا... أنزلتك إلى من يكذبك، ويرد ما جئت به إليه منى فى وجهك، وتسمع فى ما يضيق له صدرك، فأين ذلك الشرح الذى شاهدته فى إسرائك؟ فهكذا أمنائى على خلقى الذين أخفيتهم رضاى عنهم»(١).

وهل يجدر بمثل هذا الصوفى الكبير أن يتأثر بمذهبه فى وحدة الوجود فيقول فى قوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾: «... فعلماء الرسوم يحملون لفظ قضى على الأمر، ونحن نحمله على الحكم كشفًا... وهو الصحيح؛ فإنهم اعترفوا أنهم ما يعبدون هذه الأشياء إلا لتقربهم إلى الله زلفى، فأنزلهم منزلة النواب الظاهرة بصورة من استنابهم، وما ثم صورة إلا الألوهية

= إلى فريقين: فريق يقول بالحلول، وفريق لا يقول به. انظر الفلسفة الإسلامية للدكتور محمد البهى ص ٤٧.

(١) الفتوحات (١/ ١١٥).

فنسبوها إليهم، ولهذا يقضى الحق حوائجهم إذا توسلوا بها إليه غيره منه على المقام أن يهتضم، وإن أخطأوا فى النسبة فما أخطأوا فى المقام، ولهذا قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ (النجم: ٢٣) أى أنتم قلتم عنها: إنها آلهة... وإلا فسموها، فلو سموهم لقالوا: هذا حجر، أو شجر، أو ما كان، فتتميز عندهم بالاسمية؛ إذ ما كل حجر عُبِدَ ولا اتخذ إلهًا، ولا كل شجر، ولا كل جسم منير، ولا كل حيوان، فلله الحجة البالغة عليهم بقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾»(١).

وأصرح من هذا أنه لما عرض لقوله تعالى فى الآية (١٦٣) من سورة البقرة ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ قال: «... إن الله تعالى خاطب فى هذه الآية المسلمين، والذين عبدوا غير الله قربة إلى الله، فما عبدوا إلا الله، فلما قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فأكدوا ذكر العلة، فقال الله لنا: إن إلهكم والإله الذى يطلب المشرك القربة إليه بعبادة هذا الذى أشرك به واحد كأنكم ما اختلفتم فى أحديته... فقال: وإلهكم، فجمعنا وإياهم إله واحد، فما أشركوا إلا بسببه فيما أعطاهم نظرهم، ومن قصد من أجل أمر ما فذلك الأمر على الحقيقة هو المقصود لا من ظهر أنه قصد، كما يقال: من صحبك لأمر أو أحبك لأمر ولى بانقضائه؛ ولهذا ذكر الله أنهم يتبرأون منهم يوم القيامة، وما أخذوا إلا من كونهم فعلوا ذلك من نفوسهم، لا أنهم جعلوا قدر الله فى ذلك، ألا ترى الحق لما علم هذا منهم كيف قال: وإلهكم إله واحد؟ ونبههم فقال: «قل سموهم» فيذكرونهم بأسمائهم المخالفة أسماء الله، ثم وصفهم بأنهم فى شركهم قد ضلوا ضلالاً بعيدًا، أو مبينًا؛ لأنهم أوقعوا أنفسهم فى الحيرة؛ لكونهم عبدوا ما نحتوا بأيديهم، وعلموا أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم من الله شيئًا، فهى شهادة من الله بقصور نظرهم وعقولهم، ثم أخبرنا الله أنه قضى ألا نعبد إلا إياه بما نسبوه من الألوهية لهم أى جعلوهم كالنواب لله والوزراء، كأن الله استخلفهم، ومن عادة الخليفة أن يكون فى رتبة من استخلفه عند المستخلف عليه؛ فلهذا نسبوا الألوهية لهم ابتداء من غير نظر فيمن جعل ذلك، وقول من قال: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إنما كان من أجل اعتقادهم فيما عبدوه أنهم آلهة دون الله المشهود له عندهم بالعظمة على

---

(١) الفتوحات (٣/ ١١٧).

الجميع، فأشبه هذا القول ما ثبت فى الشرع الصحيح من اختلاف الصور فى التجلى، ومعلوم عند من يشاهد ذلك أن الصورة ما هى هذه الصورة، وكل صورة لا بد أن يقول المشاهد لها: إنها الله، لكن لما كان هذا من عند الله، وذلك الآخر من عندهم أنكر عليهم التحكم فى ذلك، كما ثبت فى قوله تعالى ﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾ (البقرة: ١١٥) هذا حقيقة؛ فوجه الله موجود فى كل جهة يتولى أحد إليها، ومع هذا لو تولى الإنسان فى صلاته إلى غير الكعبة مع علمه بجهة الكعبة لم تقبل صلاته، لأنه ما شرع له إلا استقبال هذا البيت الخاص بهذه العبادة الخاصة، فإذا تولى فى غير هذه العبادة التى لا تصح إلا بتعيين هذه الجهة الخاصة، فإن الله يقبل ذلك التولى، كما أنه لو اعتقد أن كل جهة يتولى إليها ما فيها وجه الله لكان كافرًا وجاهلاً، ومع هذا فلا يجوز له أن يتعدى بالأعمال حيث شرعها الله، ولهذا اختلفت الشرائع: فما كان محرمًا فى شرع ما، حلله الله فى شرع آخر، ونسخ ذلك الحكم الأول فى ذلك المحكوم عليه بحكم آخر فى عين ذلك المحكوم عليه، قال الله تعالى: ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾ (المائدة: ٤٨) فما نسخ من شرع واتبعه من اتبعه بعد نسخه فذلك المسمى هوى النفس الذى قال الله فيه لخليفته داود ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ** ﴾ (ص: ٢٦) يعنى الحق الذى أنزلته إليك ﴿ **وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى** ﴾ (ص: ٢٦) وهو ما خالف شرعك ﴿ **فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ (ص: ٢٦) وهو ما شرعه الله لك على الخصوص، فإذا علمت هذا وتقرر لديك، علمت أن الله إله واحد فى كل شرع عينًا، وكثير صورة وكونًا، فإن الأدلة العقلية تكثره باختلافها فيه، وكلها حق ومدلولها صدق، والتجلى فى الصورة كثرة أيضًا لاختلافها، والعين واحدة، فإذا كان الأمر هكذا فما تصنع؟ أو كيف يصح لى أن أخطئ قائلاً؟ ولهذا لا يصح خطأ من أحد فيه، وإنما الخطأ فى إثبات الغير وهو القول بالشريك، فهذا القول بالعدم؛ لأن الشريك ليس ثم، وذلك لا يغفره الله، لأن الغفر الستر، ولا يستر إلا من له وجود، والشريك عدم فلا يستر... فهى كلمة تحقيق ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ** ﴾(النساء: ١١٦) لأنه لا يجده، فلو وجده لصح وكان للمغفرة عين تتعلق بها، وما فى الوجود من يقبل الأضداد إلا

العالم من حيث ما هو واحد، وفى هذا الواحد ظهرت الأضداد، وما هى إلا أحكام عين الممكنات فى عين الوجود التى بظهورها علمت الأسماء الإلهية المتضادة وأمثالها...»[١].

رأينا فى التفسير الصوفى النظرى:

ورأيى الذى أدين الله عليه: أن مثل هذا التفسير القائم على نظرية وحدة الوجود ما كان لنا أن نقبله مهما كان قائله.

كذلك ليس لنا أن نقبل التفسير الذى أسس على نظريات الفلاسفة الذين بحثوا فى الطبيعة وما وراء الطبيعة، والذى جرى عليه ابن عربى وغيره من المتصوفة فى تفسيرهم لبعض الآيات القرآنية... لا نقبله على أنه تفسير موافق لمراد الله تعالى ومقصوده الذى جاء القرآن من أجله، وإن كنا نقبله ـ إن صح ـ على أنه مما تحتمله الآية ما دام لا يعارض القرآن ولا ينافيه، على أن كل ما جاء من ذلك لا يعدو أن يكون ظنيًّا، وقد يظهر خطأه فى يوم من الأيام، فكيف نحمل عليه القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟.

أما التفسير الذى يبنى على قياس الغائب على الشاهد كتفسير ابن عربى لحقيقة الميزان الذى توزن به الأعمال يوم القيامة، فهذا أيضًا ضرب من التخمين، والتخمين لا يجوز أن يدخل فى فهم الأشياء التى لا يتوصل إلى حقيقتها إلا من طريق السمع عن المعصوم ﷺ.

وأما التفسير الذى يبنى على قواعد نحوية أو بلاغية، فهذا إن ساعده السياق والسباق قُبِل، وإلا أعرضنا عنه، وأخذنا بما يصححه النظر ويقويه الدليل.

هذا هو رأينا فى التفسير الصوفى النظرى، وليس لدينا من المعاذير ما نستطيع أن نتلمسه للقوم حتى نصحح لهم مثل هذا التفسير الذى يقوم على نظريات فاسدة تذهب بالدين من أساسه، وإذا صح ـ وما أرانى أرتضى ذلك ـ أن نغض الطرف عما قالوه فى التفسير من بيان لحقائق الموجودات علويها وسفليها، وحقائق الملائكة والروح، والعرش، والكرسى، وأمثال ذلك، فلا يصح أن نغض الطرف بحال عما قالوه فى

---

(١) الفتوحات (٤/ ١٠٦، ١٠٧).

التفسير المبنى على وحدة الوجود، وإذا أمكننا ـ على كره ـ أن نتسامح فى بعض عبارات شديدة جرى بها لسان صوفى أخذه الوجد، وارتفع به الحال، وغاب عن نفسه، وشاهد ما لا نشاهد، فقال فى لحظة نسى فيها نفسه فلم ير إلا الله: أنا الحق، أو أنا الله، فليس فى مقدورنا أن نتسامح فى مثل هذه التفاسير التى جرت بها ألسنة القوم وأقلامهم وهم فى حالة الهدوء النفسى، يقدورن ما يقولون، ويشعرون بكل ما ينطقون أو يكتبون.

هذا ولم نسمع بأن أحدًا ألف فى التفسير الصوفى النظرى كتابًا خاصًا يتتبع القرآن آية آية، كما ألف مثل ذلك بالنسبة للتفسير الإشارى، وكل ما وجدناه من ذلك هو نصوص متفرقة اشتمل عليها التفسير المنسوب إلى ابن عربى، وكتاب الفتوحات المكية له، وكتاب الفصوص له أيضًا، كما يوجد بعض من ذلك فى كثير من كتب التفسير المختلفة المشارب.

* * *

ثانيا: التفسير الصوفى الفيضى أو الإشارى

حقيقته:

التفسير الفيضى أو الإشارى: هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة.

الفرق بينه وبين التفسير الصوفى النظرى:

وعلى هذا فالفرق بين التفسير الصوفى الإشارى والتفسير الصوفى النظرى من وجهين:

أولاً: أن التفسير الصوفى النظرى، ينبنى على مقدمات علمية تنقدح فى ذهن الصوفى أولاً، ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك.

أما التفسير الإشارى، فلا يرتكز على مقدمات علمية، بل يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفى نفسه حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من سجف العبارات هذه الإشارات القدسية، وتنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية.

ثانيًا: أن التفسير الصوفى النظرى، يرى صاحبه أنه كل ما تحتمله الآية من المعانى، وليس وراءه معنى آخر يمكن أن تحمل الآية عليه... وهذا بحسب طاقته طبعًا.

أما التفسير الإشارى، فلا يرى الصوفى أنه كل ما يراد من الآية، بل يرى أن هناك معنى آخر تحتمله الآية ويراد منها أولاً وقبل كل شىء، ذلك هو المعنى الظاهر الذى ينساق إليه الذهن قبل غيره.

هل للتفسير الإشارى أصل شرعى؟

ربما يجول بخاطر القارئ الكريم هذا السؤال وهو: هل للتفسير الإشارى أصل شرعى يقوم عليه، أو هو أمر جد بعد ظهور المتصوفة وذيوع طريقتهم؟ وللجواب عن هذا السؤال نقول:

لم يكن التفسير الإشارى بالأمر الجديد فى إبراز معانى القرآن الكريم، بل هو أمر معروف من لدن نزوله على رسول الله ﷺ . . . أشار إليه القرآن، ونبه عليه الرسول ﷺ، وعرفه الصحابة ﷺ وقالوا به.

أما إشارة القرآن إليه، ففى قوله تعالى فى الآية (٧٨) من سورة النساء: ﴿**فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا**﴾ وقوله فى الآية (٨٢) منها أيضًا: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا**﴾ وقوله فى الآية (٢٤) من سورة محمد ﷺ: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ فهذه الآيات كلها تشير إلى أن القرآن له ظهر وبطن، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى حيث ينعى على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثًا، ويحضهم على التدبر فى آيات القرآن الكريم لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون نفس الكلام، أو حضهم على فهم ظاهره، لأن القوم عرب، والقرآن لم يخرج عن لغتهم فهم يفهمون ظاهره ولا شك، وإنما أراد بذلك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، وحضهم على أن يتدبروا فى آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده، وذلك هو الباطن الذى جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم[(١)].

وأما تنبيه الرسول ﷺ، فذلك فى الحديث الذى أخرجه الفريابى من رواية الحسن مرسلاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع» وفى الحديث الذى أخرجه الديلمى من رواية عبد الرحمن بن عوف مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «القرآن تحت العرش له ظهر وبطن يحاج العباد».

ففى هذين الحديثين تصريح بأن القرآن له ظهر وبطن، ولكن ما هو الظهر وما هو البطن؟ اختلف العلماء فى بيان ذلك:

فقيل: ظاهرها ـ أى الآية ـ لفظها، وباطنها تأويلها.

وقال أبو عبيدة: إن القصص التى قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين، وحديث حدث به عن قوم، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم، فيحل بهم مثل ما حل بهم . . . ولكن هذا خاص بالقصص، والحديث يعم كل آية من آيات القرآن.

---

(١) انظر الموافقات (٣/ ٣٨٢ - ٣٨٣).

وحكى ابن النقيب قولاً ثالثًا: وهو أن ظهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التى أطلع الله عليها أهل الحقائق.

هذا هو أشهر ما قيل فى معنى الظهر والبطن، وأما قوله فى الحديث الأول: ولكل حرف حد، فمعناه على ما قيل، لكل حرف حد أى منتهى فيما أراد الله من معناه أو لكل حكم مقدار من الثواب والعقاب، والأول أظهر، وقوله: ولكل حد مطلع، ومعناه على ما قيل أيضًا: لكل غامض من المعانى والأحكام مطلع يتوصل به إلى معرفته ويوقف على المراد به، وقيل: كل ما يستحقه من الثواب والعقاب يطلع عليه فى الآخرة عند المجازاة، والأول أظهر أيضًا.

وأما الصحابة فقد نقل عنهم من الأخبار ما يدل على أنهم عرفوا التفسير الإشارى وقالوا به، أما الروايات الدالة على أنهم يعرفون ذلك فمنها:

ما أخرجه ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال: «إن القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطون، لا تنقضى عجائبه، ولا تبلغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجا، ومن أخبر فيه بعنف هوى، أخبار وأمثال، وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فجالسوا به العلماء، وجانبوا به السفهاء».

وروى عن أبى الدرداء أنه قال: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوها».

عن ابن مسعود أنه قال: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن» وهذا الذى قالوه لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر.

وأما الروايات الدالة على أنهم فسروا القرآن تفسيراً إشاريّا، فما رواه البخارى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رئيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم، قال: ما تقولون فى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر: ١)؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لى: أكذاك تقول

يا بن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول)[١].

فبعض الصحابة لم يفهم من السورة أكثر من معناها الظاهر، أما ابن عباس وعمر فقد فهما معنى آخر وراء الظاهر هو المعنى الباطن الذى تدل عليه السورة بطريق الإشارة.

وأيضًا ما ورد من أنه لما نزل قوله تعالى فى الآية (٣) من سورة المائدة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ فرح الصحابة وبكى عمر رضي الله عنه وقال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعرًا نعيه ﷺ، فقد أخرج ابن أبى شيبة (أن عمر رضي الله عنه لما نزلت الآية بكى، فقال النبى: ما يبكيك؟ قال: أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شىء قط إلا نقص، فقال ﷺ: صدقت)[٢].

فعمر رضي الله عنه أدرك المعنى الإشارى: وهو نعى رسول الله ﷺ، وأقره النبى على فهمه هذا، وأما باقى الصحابة: فقد فرحوا بنزول الآية؛ لأنهم لم يفهموا أكثر من المعنى الظاهر لها.

هذه الأدلة مجتمعة تعطينا أن القرآن الكريم له ظهر وبطن... ظهر يفهمه كل من يعرف اللسان العربى... وبطن يفهمه أصحاب الموهبة وأرباب البصائر، غير أن المعانى الباطنية للقرآن لا تقف عند الحد الذى تصل إليه مداركنا القاصرة، بل هى أمر فوق ما نظن وأعظم مما نتصور، ولقد فهم ابن مسعود أن فى فهم معانى القرآن مجالاً رحبًا ومتسعًا بالغًا فقال: (من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن) وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨)، وقال: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (يوسف: ١١١).

---

(١) البخارى باب التفسير (٦/ ١٧٩).

(٢) تفسير الآلوسى (٦/ ٦٠).

التفاوت فى إدراك المعانى الباطنة وإصابتها:

غير أن هذه المعانى المتكاثرة التى يشتمل عليها باطن القرآن لم تكن فى متناول المفسرين جميعًا، كما أنهم لم يكونوا متساوين فى القدر الذى أدركوه منها، بل تفاوتوا فى ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت فى الأخذ بالأسباب، كما أنهم لم يكونوا جميعًا مصيبين فيما وصلوا إليه منها وأدركوه، بل أصابوا فى بعض منها وأخطأوا فى بعض آخر، وما أخطأوا فيه: بعضه عن جهل، وبعضه عن تعمد خبيث ونية سيئة، فالإمامية مع قولهم بالظاهر على ما به، قالوا بالباطن أيضًا، ولكنهم تعمدوا أن يفسروا الباطن على ما يتفق وعقيدتهم الفاسدة، والباطنية لم يعترفوا بظاهر القرآن واعترفوا بالباطن فقط، ولكنهم أيضًا تعمدوا أن يفسروا الباطن على ما يتفق ونواياهم السيئة، وكلا الفريقين ضال مبتدع.

أما الصوفية أهل الحقيقة وأصحاب الإشارة، فقد اعترفوا بظاهر القرآن ولم يجحدوه، كما اعترفوا بباطنه، ولكنهم حين فسروا المعانى الباطنة خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فبينما تجد لهم أفهامًا مقبولة سائغة، تجد لهم يجوارها أفهامًا لا يمكن أن يقبلها العقل أو يرضى بها الشرع؛ ولهذا أرى أن أستعرض بعض ما للقوم من أفهام فى التفسير، ثم أحكم عليها حكمًا مجردًا عن كل شىء إلا عن الحق والإنصاف، ثم بعد هذا أذكر شروط التفسير الإشارى، وهى الشروط التى إذا توافرت فيه جاز لنا قبوله والأخذ به، وإلا أسقطناه ورفضناه مهما كان لقائله من المكانة فى نفوسنا أو فى نفوس القوم.

* * *

التفسير الإشارى فى الميزان

قلنا: إن القرآن له ظهر وبطن وذكرنا لك أهم الأقوال فى معنى الظاهر والباطن ومهما يكن من شىء فإن ظاهر القرآن ـ وهو المنزل بلسان عربى مبين ـ هو المفهوم العربى المجرد، وباطنه هو مراد الله تعالى وغرضه الذى يقصد إليه من وراء الألفاظ والتراكيب، هذا هو خير ما يقال فى معنى الظاهر والباطن.

وعلى ذلك نقول: إن كل ما كان من المعانى العربية التى لا ينبنى فهم القرآن إلا

عليها داخل تحت الظاهر، فالمسائل البيانية، والمنازع البلاغية، لا معدل لها عن ظاهر القرآن، فـإذا فهم الإنسان مثـلاً الفرق بين (ضيق) فى قـوله تعالى فى الآية (١٢٥) من سورة الأنـعام ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ وبين (ضائق) فى قـوله تعالى فى الآية (١٢) من سورة هود ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ وعرف أن (ضيق) صفة مشبهة دالة على الثبوت والدوام فى حق من يرد الله أن يضله، وأن (ضائق) اسم فاعل يدل على الحدوث والـتجدد وأنه أمر عارض له ﷺ، إذا فهم الإنسان مثل هذا فقد حصل له فهم ظاهر القرآن.

إذًا فلا يشتـرط فى فهم ظاهر القرآن زيادة على الجريان علـى اللسان العربى، وإذًا كل معنى مسـتنبط من القرآن غير جـار على اللسان العربى فليس من تفسـير القرآن فى شىء... لا ممـا يستفاد منه ولا مـما يستفـاد به، ومن ادعى فيه ذلك فهـو مبطل فى دعواه.

أما المعنى الباطن، فلا يكفى فيه الجريان على اللسان العربى وحده، بل لا بد فيه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى فى قلب الإنسان يصير به نافذ البصيرة سليم التفكير، ومعنـى هذا أن التفسـير البـاطن ليس أمرًا خـارجًا عن مـدلول اللفظ القرآنـى، ولهذا اشترطوا لصحة المعنى الباطن شرطين أساسيين:

أولهـما: أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر فى لسان العرب بحيث يجرى على المقاصد العربية.

وثانيهـما: أن يكون له شاهد نصّا أو ظاهرًا فى محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.

أمـا الـشـرط الأول: فظاهر من قاعدة كـون القرآن عربيّا، فـإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عـربيّا بإطلاق، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن وليس فى ألفاظه ولا فى معانيه ما يدل عليـه، وما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلاً؛ إذ ليست نسـبته إليـه على أنه مدلوله أولى من نسـبة ضده إليـه، ولا مرجح يدل على أحدهمـا، فإثبـات أحدهما تحكم وتقـول على القرآن ظاهر، وعند ذلك يـدخل قائله تحت إثم من قال فى كتاب الله بغير علم.

وأما الشـرط الثانى: فلأنه إن لم يكن له شاهد فى محل آخـر أو كان وله معارض صار من جـملة الدعاوى التى تدعى على الـقرآن، والدعوى المـجردة عن الدليل غـير مقبولة باتفاق العلماء[١].

إذا توافر هذان الشرطان فى معنى من المعانى الباطنة قُبِل؛ لأنه معنى باطن صحيح وإلا رفض رفضًا باتًا؛ لأنه معنى باطن فاسد وتقول على الله بالهوى والتشهى.

إذا عرفنـا هذا كله ثم ذهبنا نستـعرض على ضـوئه أقوال القـوم فى معانـى القرآن الباطنية، وجدنا الكثير منها يمكن أن يكون من قبـيل الباطن الصحيح، وكثير منها أيضًا هو من قبيل الباطن الفـاسد المرفوض، وكبرى المشاكل أن بعـضها منسوب إلى رجال من أهل العلم لهم مكانة علميـة ودينية فى نفوسنا، بل وبعضهـا منسوب إلى رجال من الصحابة، وهم أعرف الناس بكتاب الله وما يحويه من المعانى والأسرار.

فـمن الأفهـام البـاطنـة المنقـول عنهـم ويمـكن أن تكـون مـن قبـيـل البـاطـن الصـحيح المقبول: ما جاء فى قوله تعالى فى الآية (٢٢) من سورة البقرة ﴿**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ من قول سهل التسترى: «﴿**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا**﴾ أى أضدادًا، فأكبـر الأضداد: النفس الأمارة بالسـوء، المتطلعة إلى حظوظها ومناها بغـير هدى من الله»[٢].

فهذا القول من سهل يشير إلى أن النفس الأمارة داخلة تحت عموم الأنداد حتى لو فصل لكان المعنى: فلا تجعلوا لله أندادًا لا صنمًا، ولا شيطانًا، ولا النفس، ولا كذا، ولا كذا. . . وهذا مشكل مـن حيث الظاهر، لأن سياق الآية وما يحـف بها من قرائن يدل على أن الأنداد مراد بها كل ما يعبـد من دون الله، سواء أكان صنمًا أم غير صنم، أما الأنفس فلـم تكن معبـودة لهم، ولم يعرف أنهم اتخـذوها أربابًا من دون الله، ومع هذا فيمكن أن يكون لهذا التفسير وجه صحيح، وبيان ذلك:

أن الناظر فى القـرآن الكريم، قد يأخـذ من معنى الآية مـعنى من باب الاعتـبار، فيجـريه فيما لم تنزل فـيه الآية؛ لأنه يجامعه فى القـصد أو يقاربه، وسهل التـسترى ـ

---

(١) الموافقات (٣/ ٣٩٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم للتسترى ص ١٤.

رحمه الله ـ حين قال فى الآية ما قال، لم يرد أنه تفسير للآية، بل أتى بما هو ند فى الاعتبار الشرعى؛ وذلك لأن حقيقة الند: أنه المضاد لنده، الجارى على مناقضته، والنفس الأمارة هذا شأنها؛ لأنها تأمر صاحبها بمراعاة حظوظها، لاهية أو صادة عن مراعاة حقوق خالقها، وهذا هو الذى يعنى به الند بالنسبة لنده، لأن الأصنام نصبوها لهذا المعنى بعينه، وعلى هذا فلا غبار على قول سهل فى الآية، بل وهناك ما يشهد له من الجهتين: جهة حمل الأنداد على الأنفس الأمارة اعتبارًا، وجهة كون الخطاب ـ وإن كان موجهًا للمشركين ـ فيه لأهل الإسلام نظر واعتبار.

أما ما يشهد له من الجهة الأولى: فقوله تعالى فى الآية (٣١) من سورة التوبة: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ وظاهر أنهم لم يعبدوهم من دون الله، ولكنهم ائتمروا بأوامرهم، وانتهوا عما نهوهم عنه كيف كان، فما حرموا عليهم حرموه، وما أباحوا لهم حللوه، وفاتهم أن المحلل والمحرم هو الله، فقال الله سبحانه: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ وهذا بعينه هو شأن المتبع لهوى نفسه.

وأما ما يشسهد له من الجهة الثانية: فهو أن عمر بن الخطاب ﷺ قال لبعض من توسع فى الدنيا من أهل الإيمان: أين تذهب بكم هذه الآية ﴿**أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا**﴾ (**الأحقاف: ٢٠**) وكان هو يعتبر نفسه بها، مع أن الآية نزلت فى حق الكفار لقوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ...**﴾ (**الأحقاف: ٢٠**) الآية، فعمر ﷺ له فى الآية نظر واعتبار، فأخذ من معناها معنى أجرى الآية فيه وإن لم تنزل فيه، حذرًا منه وخوفًا أن يكون التوسع فى المباحات سببًا فى الحرمان من نعيم الآخرة ومتاعها، فإذا صح لعمر ﷺ أن ينزل الآية على المتوسعين فى المباحات من المؤمنين ولم تنزل فيهم، صح لسهل أيضًا أن ينزل الآية على النفس الأمارة وإن لم تنزل فيها كذلك.

ومن ذلك أيضًا ما جاء فى قوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة البقرة ﴿**... وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ من قول سهل رحمه الله: «لم يرد الله معنى الأكل فى الحقيقة، وإنما أراد معنى مساكنة الهمة لشىء هو غيره... أى لا تهتم بشىء

هو غيرى، قال: فآدم عليه السلام لم يعصم من الهمة والفعل فى الجنة، فلحقه ما لحقه من أجل ذلك، قال: وكذلك كل من ادعى ما ليس له وساكنه قلبه ناظرًا إلى هوى نفسه، لحقه الترك من الله عز وجل مع ما جبلت عليه نفسه إلا أن يرحمه الله فيعصمه من تدبيره وينصره على عدوه وعليها... قال: وآدم لم يعصم عن مساكنة قلبه إلى تدبير نفسه للخلود لما أدخل الجنة، ألا ترى أن البلاء دخل عليه من أجل سكون القلب إلى ما وسوست به نفسه، فغلب الهوى والشهوة العلم والعقل والبيان ونور القلب؛ لسابق القدر من الله تعالى، كما قال عليه السلام: الهوى والشهوة يغلبان العلم والعقل»(١).

وبالنظر فى كلام سهل هذا نرى أنه ادعى فى الآية خلاف ما ذكره المفسرون من أن المراد النهى عن نفس الأكل، لا عن سكون الهمة لغير الله، وإن كان هذا منهيّا عنه أيضًا، لكن يمكن أن يكون لهذا الكلام الذى قاله سهل وجه يجرى عليه، وذلك أن النهى فى الآية لا يصح حمله على نفس القرب مجردًا، إذ لا مناسبة فيه ظاهرة، ولأنه لم يقل به أحد، وإنما النهى عن معنى فى القرب وهو إما التناول والأكل، وإما غيره وهو شىء ينشأ الأكل عنه، وذلك مساكنة الهمة، فإنه الأصل فى تحصيل الأكل، ولا شك فى أن السكون لغير الله لجلب منفعة أو دفع مفسدة منهى عنه.

فهذا التفسير له وجه ظاهر فكأنه يقول: لم يقع النهى عن مجرد الأكل من حيث هو أكل، بل عما ينشأ عنه الأكل من السكون لغير الله، إذ لو انتهى عما نهى الله عنه لكان ساكنًا لله وحده فلما لم يفعل وسكن إلى أمر فى الشجرة غره به الشيطان وهو الخلود فى الجنة، أضاف الله إليه لفظ العصيان فقال فى الآيتين (١٢١، ١٢٢) من سورة طه: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

مثل هذا ـ وهو كثير فى كلام الصوفية ـ لا نعدم له وجهًا نحمله عليه حتى يكون تفسيرًا صحيحًا ومقبولاً.

ولكن هناك أقوال لهم فى التفسير الإشارى يقف أمامها العقل حائرًا وعاجزًا عن تلمس محمل لها تحمل عليها حتى تبدو صحيحة وتصبح مقبولة، فمن ذلك:

(١) تفسير القرآن العظيم للتسترى ص١٦، ١٧.

ما يروونه عن ابن عباس أنه فسر ﴿الٓمٓ﴾ (البقرة: ١) فقال: «الألف: الله، واللام: جبريل، والميم محمد ﷺ، وأن الله أقسم بنفسه وجبريل ومحمد عليهما السلام»(١).

وهذا إن صح نقله فهو مشكل إلى حد بعيد، ذلك لأن الإشارة إلى الكلمة بحرف ليس معهودًا فى كلام العرب، اللهم إلا إن دل عليه الدليل اللفظى أو الحالى كقول الشاعر:

* فقلت لها قفى فقالت قاف *

أراد: قالت: وقفت.

وقول زهير:

بالخير خيرات وإن شرًا فا ولا أريد الشر إلا أن تا

أراد: وإن شرًا فشر، وأراد: إلا أن تشاء.

وقول الآخر:

نادوهموا ألا الجموا ألا تا قالوا جميعًا كلهم ألا فا

أراد: ألا تركبون، قالوا: ألا فاركبوا.

وقوله ﷺ «كفى بالسيف شا» أراد، شافيًا(٢).

. . . ولكن أين الدليل على ما ذكر فى قوله: ﴿الٓمٓ﴾؟.

على أنه لم يقم دليل من الخارج يدل على هذا التفسير، إذ لو كان له دليل لاقتضت العادة نقله، لأنه من المسائل التى تتوفر الدواعى على نقلها لو صح أنه مما يفسر ويقصد تفهيم معناه. . . ولما لم يثبت شىء من ذلك دل على أنه من قبيل المتشابهات، فإن ثبت له دليل عليه صرنا إليه وإلا توقفنا.

ومثل هذا المروى عن ابن عباس ـ ولعله أشكل منه ـ ما قاله سهل التسترى فى تفسيره للبسملة حيث قال: ««بسم الله الرحمن الرحيم» الباء: بهاء الله عز وجل، والسين: سناء الله عز وجل، والميم: مجد الله عز وجل، والله: هو الاسم الأعظم الذى حوى الأسماء كلها، وبين الألف واللام منه حرف مكنى غيب من غيب إلى

(١)تفسير القرآن العظيم للتسترى ص ١٢.

(٢)انظر تفسير القرطبى (١/ ١٥٥، ١٥٦).

غيب، وسر من سر إلى سر، وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة، لا ينال فهمه إلا الطاهر من الأدناس، الآخذ من الحلال قوامًا ضرورة الإيمان، والرحمن: اسم فيه خاصية من الحرف المكنى بين الألف واللام، والرحيم: هو العاطف على عباده بالرزق فى الفرع والابتداء فى الأصل، رحمة لسابق علمه القديم»(١).

وما فسر به ﴿الٓمٓ﴾ فاتحة البقرة وهو قوله: «﴿الٓمٓ﴾ اسم الله عز وجل فيه معان وصفات يعرفها أهل الفهم به، غير أن لأهل الظاهر فيه معان كثيرة، فأما هذه الحروف إذا انفردت، فالألف: تأليف الله عز وجل، ألف الأشياء كما شاء، واللام: لطفه القديم، والميم: مجده العظيم» وقال: «لكل كتاب أنزله الله تعالى سر، وسر القرآن فواتح السور؛ لأنها أسماء وصفات، مثل قوله ﴿الٓمٓصٓ﴾ (الأعراف: ١) ﴿الٓر﴾ (يونس: ١) ﴿الٓمٓر﴾ (الرعد: ١) ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ (مريم: ١) ﴿طسٓمٓ﴾ (الشعراء: ١) ﴿حمٓ ① عٓسٓقٓ﴾ (الشورى: ١، ٢)، فإذا جمعت هذه الحروف بعضها إلى بعض كانت اسم الله الأعظم، أى إذا أخذ من كل سورة حرف على الولاء أى على ما أنزلت السورة وما بعدها على النسق ﴿الٓر﴾ و ﴿حمٓ﴾ (غافر: ١) و ﴿نٓ﴾ (القلم: ١) معناه الرحمن، وقال ابن عباس والضحاك: ﴿الٓمٓ﴾ معناه أنا الله أعلم، وقال على ﷺ: هذه أسماء مقطعة، إذا أخذ من كل حرف حرفًا لا يشبه صاحبه فجمعن كان اسمًا من أسماء الرحمن إذا عرفوه ودعوه به كان الاسم الأعظم الذى إذا دعى به أجاب..»(٢).

وما قاله أبو عبد الرحمن السلمى فى تفسير ﴿الٓمٓ﴾ فاتحة البقرة وهو قوله: «الم: قيل: إن الألف ألف الوحدانية، واللام: لام اللطف، والميم: ميم الملك، معناه من وجدنى على الحقيقة بإسقاط العلائق والأغراض تلطفت له... فأخرجته من رق العبودية إلى الملك الأعلى، وهو الاتصال بمالك الملك، دون الاشتغال بشىء من الملك... وقيل: الم، معنى الألف: أى أفرد سرك، واللام ليت جوارحك لعبادتى، والميم: أقم معى بمحو رسومك وصفاتك، أزينك بصفات الأنس بى، والمشاهدة إياى، والقرب منى»(٣).

(١، ٢) تفسير القرآن العظيم للتسترى ص ٩، ١٠، ١١، ١٢.
(٣) حقائق التفسير ص ٩.

فهذا الذى قاله سهل التسترى والذى قاله أبو عبد الرحمن السلمى مشكل كالمروى عن ابن عباس، بل وأعظم منه إشكالاً حيث ادعوا أن هذه الحروف ترمز إلى أسرار غيبية ومعان مكنية، وإذا جمعت هذه الحروف على طريقة مخصوصة كان كذا وكذا، بل ويدعون أحيانًا أن هذه الحروف هى أصل العلوم ومنبع المكاشفات على أحوال الدنيا والآخرة، وينسبون ذلك إلى أنه مراد الله تعالى فى خطابه العرب الأمية التى لا تعرف شيئًا من ذلك، وهذه كلها دعاوى يدعونها على القرآن، ولا أحسب أنهم استندوا فيها إلى دليل برهانى أو إقناعى، وكل ما أقوله فيها: إنها دعاوى محالة على الكشف والاطلاع، ودعوى الكشف والاطلاع لا تصلح دليلاً شرعيًا بحال من الأحوال.

ومن المواضع المشكلة أيضًا، ولكنها أخف إشكالاً مما مر. . . ما جاء عنهم من نحو تفسير سهل التسترى لقوله تعالى فى الآية (٩٦) من سورة آل عمران: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ**﴾ الآية، بقوله: «أول بيت وضع للناس بيت الله عز وجل بمكة، هذا هو الظاهر، وباطنها الرسول يؤمن به من أثبت الله فى قلبه التوحيد من الناس»(١).

ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٦) من سورة النساء ﴿. . . **وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ**. . .﴾ حيث يقول ـ بعد ذكره للتفسير الظاهر: «. . . وأما باطنها، فالجار ذى القربى: هو القلب، والجار الجنب: هو الطبيعة، والصاحب بالجنب: هو العقل المقتدى بالشريعة، وابن السبيل: هو الجوارح المطيعة لله. . .»(٢).

وتفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤١) من سورة الروم: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾ بقوله: «مثل الله الجوارح بالبر، ومثل القلب بالبحر، وهم أعم نفعًا وأكثر خطرًا، هذا هو باطن الآية، ألا ترى أن القلب إنما سمى قلبًا لتقلبه وبعد غوره؟. . .»(٣).

وتفسير ابن عطاء الله السكندرى لقوله تعالى فى الآية (٣٣) من سورة (يس) ﴿**وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ**﴾ بقوله: «القلوب الميتة

(١، ٢) تفسير القرآن العظيم للتسترى ص ٤١، ٤٥.

(٣) المرجع السابق.

بالغفلة أحييناها بالتيقظ والاعتبار والموعظة، وأخرجنا منها حبا معرفة صافية تضىء أنوارها على الظاهر والباطن»[١].

هذا وأمثاله من كلام الصوفية لو قلنا إنهم أرادوا به تفسير الآيات القرآنية وبيان معانيها التى تحمل عليها لا غير لكان هو بعينه مذهب الباطنية؛ وذلك لأن المعانى التى حملوا عليها الألفاظ فى الآيات السابقة لا تعرفها العرب مدلولات لهذه الألفاظ، لا بالوضع الحقيقى ولا بالوضع المجازى المناسب، وليس فى مساق الآيات ما يدل على هذه المعانى المذكورة، ومعلوم أن القرآن عربى ومخاطب به العرب الذين يفهمون ألفاظه وتراكيبه، فهذه الآيات المذكورة آنفا لا يفهم منها العربى أكثر من المعانى المتبادرة إلى فهمه، والتى تنساق إلى ذهنه ابتداء، فلا يفهم من البيت الحرام، ولا من الجار ذى القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، ولا من البر والبحر، ولا من الأرض والحب، إلا ما يفهمه العربى من هذه الألفاظ وما وراء ذلك فليس عليه دليل.

وأيضًا لم ينقل لنا عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين تفسير للقرآن يماثل هذا التفسير أو يقاربه، ولو كان عندهم معروفًا لنقل؛ لأنهم أدرى بمعانى القرآن ظاهرها وباطنها باتفاق الأمة، وغير معقول أن يأتى آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها، ولا هم أعرف بالشريعة منهم، ولا أدرى بلغة القرآن من قومه الذين نزل بلسانهم وعلى لغتهم.

ولكن إجلالنا لهؤلاء المفسرين ووثوقنا بهم من الناحية العلمية والدينية، واعترافهم فى تفاسيرهم ـ التى نقلنا عنها ـ بالمعانى الظاهرية للقرآن وإنكارهم على من يقول بباطن القرآن دون ظاهره، كل هذا يجعلنا نحسن الظن بالقوم، فنحمل أمثال هذه المعانى على أنها ليست من قبيل التفسير، وإنما هى ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن، فإن النظير يذكر بالنظير كما قال ابن الصلاح فى فتاواه[٢].

---

(١) حقائق التفسير للسلمى ص ٢٨٤.

(٢) فتاوى ابن الصلاح ص ٢٩.

مقالة الشاطبى فى التفسير الإشارى:

ولزيادة الإيضاح أذكر لك ما قاله الشاطبى فى هذا الموضوع:

قال رحمه الله: «الاعتبارات القرآنية الواردة على القلوب، الظاهرة للبصائر، إذا صحت على كمال شرزطها فهى على ضربين:

أحدهما: ما يكون أصل انفجاره من القرآن ويتبعه سائر الموجودات، فإن الاعتبار الصحيح فى الجملة هو الذى يخرق نورُ البصيرة فيه حجبَ الأكوان من غير توقف، فإن توقف فهو غير صحيح أو غير كامل، حسبما بينه أهل التحقيق بالسلوك.

والثانى: ما يكون أصل انفجاره من الموجودات: جزئيها أو كليها، ويتبعه الاعتبار فى القرآن.

فإن كان الأول، فذلك الاعتبار صحيح، وهو معتبر فى فهم باطن القرآن من غير إشكال؛ لأن فهم القرآن إنما يرد على القلوب على وفق ما نزل له القرآن، وهو الهداية التامة على ما يليق بكل واحد من المكلفين، وبحسب التكاليف وأحوالها، لا بإطلاق، وإذا كانت كذلك فالمشى على طريقها مشى على الصراط المستقيم، ولأن الاعتبار القرآنى قلما يجده إلا من كان من أهله عملا به على تقليد أو اجتهاد، فلا يخرجون عند الاعتبار فيه عن حدوده كما لم يخرجوا فى العمل به والتخلق بأخلاقه عن حدوده، بل تنفتح لهم أبواب الفهم فيه على توازى أحكامه، ويلزم من ذلك أن يكون معتدًا به لجريانه على مجاريه، والشاهد على ذلك ما نقل من فهم السلف الصالح فيه، فإنه كله جار على ما تقضى به العربية، وما تدل عليه الأدلة الشرعية.

وإن كان الثانى، فالتوقف عن اعتباره فى فهم باطن القرآن لازم، وأخذه على إطلاقه فيه ممتنع لأنه بخلاف الأول، فلا يصح القول باعتباره فى فهم القرآن، فنقول:

إن تلك الأنظار الباطنة فى القرآن فى الآيات المذكورة - يريد ﴿**وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ وما ذكره معها مما تقدم لنا ذكره - إذا لم يظهر جريانها على مقتضى الشروط المتقدمة فهى راجعة إلى الاعتبار غير القرآنى وهو الوجودى[1] ويصح تنزيله على معانى القرآن لأنه وجودى أيضًا، فهو مشترك من تلك

---

(١) مثال الاعتبار الخارجى ما يروونه عن بعضهم فى معنى قوله تعالى فى الآية (٣) من سورة =

الجهة غير خاص، فلا يطالب فيه المعتبر بشاهد موافق إلا ما يطلبه المربى، وهو أمر خاص، منفرد بنفسه، لا يختص بهذا الموضع، فلذلك يوقف على محله، فكون القلب جارًا ذا قربى، والجار الجنب هو النفس الطبيعى... إلى سائر ما ذكر، يصح تنزيله اعتباريًا مطلقًا، فإن مقابلة الوجود بعضه ببعض فى هذا النمط صحيح وسهل جدًا عند أربابه، غير أنه مغرر بمن ليس براسخ أو داخل تحت إيالة راسخ.

وأيضًا فإن من ذكر عنه مثل ذلك من المعتبرين لم يصرح بأنه المعنى المقصود المخاطب به الخلق، بل أجراه مجراه وسكت عن كونه هو المراد وإن جاء شىء من ذلك وصرح صاحبه أنه هو المراد، فهو من أرباب الأحوال الذين لا يفرقون بين الاعتبار القرآنى والوجودى، وأكثر ما يطرأ هذا لمن هو بعد فى السلوك، سائر على الطريق، لم يتحقق بمطلوبه، ولا اعتبار بقول من لم يثبت اعتبار قوله من الباطنية وغيرهم...)[١].

فالشاطبى ـ رحمه الله ـ يقرر فى كلامه هذا: أن مثل هذا النوع الأخير من كلام الصوفية راجع إلى الاعتبار غير القرآنى، ومع ذلك فيمكن تنزيله على معانى القرآن، كما أنه يقرر: أن من قال هذا لم يذكر عنه أنه قاله على أنه تفسير للآية وبيان للمقصود منها، وهذا من حسن ظنه بالقوم.

مقالات بعض العلماء فى التفسير الإشارى:

وإذا نحن رجعنا إلى أقوال العلماء التى قالوها فى تفسير الصوفية وجدناها جميعًا تقوم على حسن الظن بهم، وإليك بعضًا منها:

= القدر ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ قال: ألف شهر هى مدة الدولة الأموية، لأنها مكثت ثلاثًا وثمانين سنة وأربعة أشهر وأن ذلك من الله تسلية لرسوله ﷺ حين أطلعه على ملوك بنى أمية واحدًا واحدًا فسرى عنه بهذه السورة، هذا المعنى لم يؤخذ من القرآن، بل أخذ من الخارج والواقع فى ذاته، بمصادفة مطابقة العدد، واللفظ لا ينبو عنه، لكنه لا دليل من الشرع على كونه هو المعنى المقصود). هامش الموافقات (٣/ ٤٠٤).

(١) الموافقات (٣/ ٤٠٣ - ٤٠٥).

مقالة ابن الصلاح:

قال ابن الصلاح فى فتاواه ـ وقد سئل عن كلام الصوفية، فى القرآن ـ «وجدت عن الإمام أبى الحسن الواحدى المفسر رحمه الله تعالى أنه قال: صنف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق التفسير، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر، قال ابن الصلاح: وأنا أقول: الظن بمن يوثق به منهم أنه إذا قال شيئًا من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيراً، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة من القرآن العظيم، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية، وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن، فإن النظير يذكر بالنظير، ومن ذلك قتال النفس فى الآية المذكورة ـ يريد قوله تعالى فى الآية (١٣٣) من سورة التوبة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ ـ فكأنه قال: أمرنا بقتال النفس ومن يلينا من الكفار، ومع ذلك فيا ليتهم لم يتساهلوا فى مثل ذلك لما فيه من الإبهام والإلباس»(١).

مقالة سعد الدين التفتازانى:

وقد علق التفازانى على قول النسفى فى كتابه العقائد: «والنصوص على ظواهرها، فالعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد» فقال ـ رحمه الله ـ: «وسموا الباطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها، بل لها معان باطنة لا يعرفها إلا المعلم، وقصدهم بذلك نفى الشريعة بالكلية... ثم قال: وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص محمولة على ظواهرها ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان»(٢).

مقالة ابن عطاء الله السكندرى:

ونقل السيوطى عن ابن عطاء الله السكندرى أنه قال فى كتابه لطائف المنن: «اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعانى الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلت عليه فى عرف اللسان،

(١) فتاوى ابن الصلاح ص ٢٩.

(٢) العقائد النسفية وشرحها لسعد الدين التفتازانى ص ١٤٢.

وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه، وقد جاء فى الحديث «لكل آية ظهر وبطن» فلا يصدنك عن تلقى هذه المعانى منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة: هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله... فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مرادًا بها موضوعاتها ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم»(١).

فهؤلاء العلماء حسنوا ظنهم بالقوم، فحملوا أقوالهم الغريبة التى قالوها فى القرآن على أنها ذكر لنظير ما ورد به القرآن، أو على أنها إشارات خفية، ومعان إلهامية، تنهل على قلوب العارفين، ونزهوهم عن إرادة التفسير الحقيقى لكتاب الله بمثل هذه الشروح الغريبة التى نقلت عنهم، وهذا عمل حسن وصنع جميل من هؤلاء العلماء، وقد تابعناهم عليه حملاً لحال المؤمن على الصلاح... ولكن لم يلبث أن تبدد حسن ظننا بالقوم على أثر تلك المقالة التى قرأناها لابن عربى فى فتوحاته... وفيها يصرح بأن مقالات الصوفية فى كتاب الله ليست إلا تفسيرًا حقيقيّا لمعانى القرآن، وشرحًا لمراد الله من ألفاظه وآياته ويذكر لنا أن تسميتها إشارة ليس إلا من قبيل التقية والمداراة لعلماء الرسوم أهل الظاهر... وفى هذه المقالة يحمل حملة شعواء على أهل الرسوم ـ على حد تعبيره ـ الذين ينكرون عليه وعلى غيره من الصوفية، وإليك ما قاله بالنص لتقف على رأيه الصريح الذى لا مواربة فيه ولا التواء.

مقالة ابن عربى فى التفسير الإشارى:

قال رحمه الله: «اعلم أن الله عز وجل لما خلق الخلق، خلق الإنسان أطوارًا، فمنا العالم والجاهل، ومنا المنصف والمعاند، ومنا القاهر ومنا المقهور، ومنا الحاكم ومنا المحكوم، ومنا المتحكم ومنا المتحكم فيه، ومنا الرئيس والمرءوس، ومنا الأمير والمأمور، ومنا الملك والسوقة، ومنا الحاسد والمحسود، وما خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته العارفين به من طريق الوهب الإلهى الذى منحهم أسراره فى خلقه، وفهمهم معانى كتابه وإشارات خطابه فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل عليهم السلام لما كان الأمر فى الوجود الواقع على ما سبق به

(١) الإتقان (٢/ ١٨٥).

العلم القديم ـ كما ذكرنا ـ عدل أصحابنا إلى الإشارات، فكلامهم ـ رضي الله عنهم ـ فى شرح كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إشارات، وإن كان ذلك حقيقة وتفسيرًا لمعانيه النافعة، ورد ذلك كله إلى نفسهم مع تقريرهم إياه فى العموم، وفيما نزل فيه، كما يعلمه أهل اللسان الذين نزل الكتاب بلسانهم، فعم به سبحانه عندهم الوجهين كما قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ**﴾ (فصلت: ٥٣) يعنى الآيات المنزلة فى الآفاق وفى أنفسهم، فكل آية منزلة لها وجهان: وجه يرونه فى نفوسهم ووجه آخر يرونه فيما خرج عنهم، فيسمون ما يرونه فى نفوسهم إشارة ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك، ولا يقولون فى ذلك إنه تفسير؛ وقاية لشرهم وتشنيعهم فى ذلك بالكفر عليه؛ وذلك لجهلهم بمواقع خطاب الحق، واقتدوا فى ذلك بسنن الهدى، فإن الله كان قادرًا على تنصيص ما تأوله أهل الله فى كتابه، ومع ذلك فما فعل؛ بل أدرج فى تلك الكلمات الإلهية التى نزلت بلسان العامة علوم معانى الاختصاص التى فهمها عباده حين فتح لهم فيها بعين الفهم الذى رزقهم».

(ولو كان علماء الرسوم ينصفون، لاعتبروا فى نفوسهم إذا نظروا فى الآية بالعين الظاهرة التى يسلمونها فيما بينهم فيرون أنهم يتفاضلون فى ذلك، ويعلو بعضهم على بعض فى الكلام فى معنى تلك الآية، ويقر القاصر بفضل غير القاصر فيها، وكلهم فى مجرى واحد، ومع هذا الفضل المشهود لهم فيما بينهم فى ذلك، ينكرون على أهل الله إذا جاءوا بشىء مما يغمض عن إدراكهم، وذلك لأنهم يعتقدون فيهم أنهم ليسوا بعلماء وأن العلم لا يحصل إلا بالتعليم المعتاد فى العرف، وصدقوا، فإن أصحابنا ما حصل لهم ذلك العلم إلا بالتعلم وهو الإعلام الرحمانى الربانى قال تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ (العلق: ١ - ٥) فإنه القائل ﴿**أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا**﴾ (النحل: ٧٨)، وقال تعالى: ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ (الرحمن: ٣، ٤) فهو سبحانه معلم الإنسان، فلا شك أن أهل الله هم ورثة الرسل عليهم السلام، والله يقول فى حق الرسول: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ**﴾ (النساء: ١١٣) وقال فى حق عيسى: ﴿**وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ**﴾ (آل عمران: ٤٨) وقال فى حق خضر

صاحب موسى عليهما السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف: ٦٥) فصدق علماء الرسوم عندنا فيما قالـوا: إن العلم لا يكون إلا بالتعلم وأخطأوا فى اعتقادهم أن الله لا يعلم من ليس بنبى ولا رسول، يقول الله: ﴿يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٦٩) وهى العلم، وجاء بمن وهى نكرة، ولكن عـلماء الرسوم لما آثروا الدنيـا على الآخرة وآثروا جانب الخلق على جانب الحق، وتعودوا أخذ العلم من الكتب ومن أفواه الرجال الذين من جنسهـم، ورأوا فى زعمهم أنهم من أهـل الله بما علموا وامـتازوا به عن العـامة، حجـبهم ذلك عن أن يعلموا أن لله عبـادًا تولى الله تعليمهم فى سـرائرهم بما أنزله فى كتبه وعلى ألسنة رسله وهو العلم الصحـيح عن العالم المعلم الذى لا يشك مؤمن فى كمال عـلمه ولا غير مـؤمن؛ فإن الذين قالوا: إن الله لا يعلم الجزئيـات ما أرادوا نفى العلم عنه، وإنما قصـدوا بذلك أنه تعالى لا يتجدد له علم بشىء، بل علمـها مندرجة فى علمه بالكليات، فـأثبتوا له العلم سبحـانه مع كونهم غير مؤمنين، وقـصدوا تنزيهه سبـحانه فى ذلك وإن أخطأوا فى التـعبيـر عن ذلك، فتولى الله بعنـايته لبعض عـباده تعليمهم بنفسه بإلهامه وإفهامه إياهم ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشـمس: ٨) فى إثر قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (الشمس: ٧) فبين لها الفجور من التقوى إلهامًا من الله لها لتجتنب الفجور وتعمل بالتقوى».

«وكما كـان أصل تنزيل الكتاب من الله على أنبيائه، كـان تنزيل الفهم على قلوب بعض المـؤمنين به، فالأنبـياء علـيهم السـلام ما قـالت على الله ما لم يقل لهـا، ولا أخرجت ذلك من نفـوسها ولا من أفكارها، ولا تعلمت فيـه، بل جاءت من عند الله، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢) وقال فيه إنه ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (فـصلت: ٤٢) وإذا كان الأصل المتكلم فيه من عند الله، لا من فكر الإنسان ورويته ـ وعلماء الرسوم يعلمـون ذلك ـ فينبغى أن يكون أهل الله العاملون به أحق بشرحه وبيان ما أنزل الله فيه من علمـاء الرسوم، فيكون شرحه أيضًا تنزيلاً من عند الله على قلوب أهل العلم كما كان الأصل، وكذا قال على بن أبى طالب رضي الله عنه فى هذا الباب (مـا هو إلا فهم يؤتيـه الله من يشاء من عبـاده فى هذا القرآن) فـجعل ذلك عطاء من الله، يعـبر عن ذلك العطاء بالفـهم عن الله، فأهل الله أولى به من غـيرهم، فلمـا رأى أهل الله أن الله قد جـعل الدولة فى الحـياة الدنيـا لأهل الظاهر من علمـاء

الرسوم، وأعطاهم التحكم فى الخلق بما يفتون به، وألحقهم بالذين يعلمون ظاهرًا من الحيـاة الدنيا وهم عن الآخرة غـافلون ـ وهم فى إنكارهم على أهل الله يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ـ سلم أهل الله لهم أحوالهم لأنهم علموا من أين تكلموا، وصانوا عنهم أنفسهم بتسميتهم الحقـائق إشارات، فإن علماء الرسوم لا ينكرون الإشارات، فإذا كان فى غد يوم القيامة يكون الأمر فى الكل، كما قال القائل:

سـوف ترى إذا انجلى الـغبـار أفـرس تـحـتك أم حـمـار

كمـا يتميـز المحق من أهل الله، من المـدعى فى الأهلية غـدًا يوم القيامـة، قال بعضهم:

فـإذا اشـتبكت دمـوع فى خـدود تبـيـن من بكى ممـن تبـاكى

أين عالـم الرسوم من قول علـى بن أبى طالب ﷺ حين أخـبر عن نفسـه أنه لو تكلم فى الفاتحة من القرآن لحمل منها سبعين وقرًا؟ هل هذا إلا من الفهم الذى أعطاه الله فى القرآن؟ فاسم الفـقيه أولى بهذه الطائفة من صـاحب علم الرسم، فإن الله يقول فيهم: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢) فأقامهم مقام الرسول فى التفقه فى الدين والإنذار، وهو الذى يدعو إلى الله على بصيرة كما يدعو رسـول الله ﷺ على بصيرة، لا على غلبة ظن كمـا يحكم عالم الرسوم، فشتان بين من هو فيما يفـتى به وبقوله على بصيرة منه فى دعائه إلى الله وهو على بينة من ربه، وبين من يفتى فى دين الله بغلبة ظنه».

«ثم إن من شأن عـالم الرسوم فى الذب عن نفـسه أنه يجـهل من يقول: فـهمنى ربى، ويرى أنه أفـضل منه، وأنه صـاحب العلم إذ يقـول من هو من أهل الله: إن الله ألقى فى سرى مراده بهـذا الحكم فى هذه الآية، أو يقول: رأيت رسول الله ﷺ فى واقعتى فأعلمـنى بصحة هذا الخبر المروى عنه وبحكمـه عنده، قال أبو يزيد البسطامى ﷺ فى هذا المقام... يخاطب علماء الرسوم: أخذتم علمكم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يمـوت، يقول أمثـالنا: حدثنى قلبى عن ربى، وأنـتم تقولون حدثنى فلان... وأين هو؟ قالوا: مـات، عن فلان... وأين هو؟ قالوا: مات، وكان الشيخ أبو مدين ـ رحمه الله ـ إذا قيل له: قـال فلان، عن فلان، عن فلان، يقول: ما

نريد نأكل قديدًا، هاتوا . . . ائتونى بلحم طرى - يرفع همم أصحابه - فأولئك أكلوه لحمًا طريًا، والواهب لم يمت، وهو أقرب إليكم من حبل الوريد».

«والفيض الإلهى والمبشرات ما سد بابها، وهى من أجزاء النبوة، والطريق واضحة، والباب مفتوح، والعمل مشروع، والله يهرول لتلقى من أتى إليه يسعى، وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، وهو معهم أينما كانوا، فمن كان معك بهذه المثابة من القرب - مع دعواك العلم بذلك والإيمان به - لم تترك الأخذ عنه والحديث معه، وتأخذ عن غيره ولا تأخذ عنه فتكون حديث عهد بربك؟»(١) .

رأينا فى مقالة ابن عربى:

ونحن لا ننكر على ابن عربى أن ثم أفهامًا يلقيها الله فى قلوب أصفيائه وأحبابه، ويحصهم بها دون غيرهم، على تفاوت بينهم فى ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت فى درجات السلوك ومراتب الوصول كما لا ننكر عليه أن تكون هذه الأفهام تفسيرًا للقرآن وبيانًا لمراد الله من كلامه، ولكن بشرط: أن تكون هذه الأفهام يمكن أن تدخل تحت مدلول اللفظ العربى القرآنى، وأن يكون لها شاهد شرعى يؤيدها، أما أن تكون هذه الأفهام خارجة عن مدلول اللفظ القرآنى، وليس لها من الشرع ما يؤيدها فذلك ما لا يمكن أن تقبله على أنه تفسير للآية وبيان لمراد الله تعالى؛ لأن القرآنى عربى قبل كل شيء كما قلنا، والله سبحانه وتعالى يقول فى شأنه: ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ (فصلت: ٣) وحاشا لله أن يلغز فى آياته، أو يعمى على عباده طريق النظر فى كتابه، وهو يقول: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ (القمر: ١٧) .

هذا هو ما أدين عليه بالنسبة لكلام الصوفية، وعذرى فى ذلك أنى لم أسلك مسلك القوم، ولم أذق ذوقهم، ولم أعرف اصطلاحاتهم التى يصطلحون عليها، ولعلى إذا سلكت هذا الطريق، وانكشف لى من أستار الغيب ما انكشف لهم، أو على الأقل فهمت لغة القوم ووقفت على مصطلحاتهم، لعلى إذا حصل لى شيء من هذا تبدل رأيى وتغير حكمى، فسلمت لهم كل ما يقولون به، مهما كان بعيدًا وغريبًا، وقد سأل رجل بعض العلماء أن يقرأ عليه تائية ابن الفارض فقال له: «دع عنك هذا، من جاع جوع القوم وسهر سهرهم رأى ما رأوا»(٢) .

---

(١) الفتوحات المكية (١/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(٢) شذرات الذهب (٥/ ١٩١).

يقولون: إنهم يدركــون بعض المعانى بعــين اليقين، وما من شــأنه أن يدرك بعين اليقين لا يمكن أن يدرك بعلم اليقــين، إذًا فلا بد لمن يريد أن يحكم على القوم حكمًا صحيــحًا أن يجتهد فى الــوصول إلى ما وصلوا إليه بالعيــان، دون أن يطلبه عن طريق البيان، فإنه طور وراء طور العقل، والشاعر يقول:

علم التــصــوف علــم ليس يعــرفــه
إلا أخــو فطـنة بالحـق مــعــروف
وليس يــعــرفــه من ليس يــشــهــده
وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف؟ [١]

ويقول ابن خلدون: «ولــيس البرهان والدليل بنافع فى هذه الطريق ردّا وقــبولاً؛ إذ هى من قبيل الوجدانيات» [٢].

ويقول الألوسى فى مقــدمة تفسيره جـ١ ص٨: «فالإنصــاف كل الإنصاف التسليم للسادة الصوفية الذين هم مركز الدائرة المحمدية ما هم عليه، واتهام ذهنك السقيم فيما لم يصل؛ لكثرة العوائق والعلائق إليه:

وإذا لم تــر الهــــــلال فــــســلم لأنــاس رأوه بــالأبصــــــــــار»

ويقول الألوســى أيضًا بعد أن نقل عــن ابن عربى ما قــاله فى تفسـير الفـاتحة فى فتوحاته: «فإذا وقع الجدار، وانهدم الصور، وامتزجت الأنهار، والتقى البحران، وعدم البرزخ، صــار العذاب نعيــمًا، وجهنم جنة، ولا عــذاب ولا عقاب، إلا نعــيم وأمان، بمشاهدة العــيان. . . إلخ» يقول الألوسى بعد نقله لهذا الكلام الغــريب: «وهذا وأمثاله محمول على معنى صحــيح يعرفه أهل الذوق ولا ينافى ما وردت به القواطع، ثم قال: وإياك أن تقــول بظاهره مع ما أنت عليــه، وكلما وجــدت مثل هذا لأحــد من أهل الله تعالى، فسلمــه لهم بالمعنى الذى أرادوه، مما لا تعلمــه أنت ولا أنا، لا بالمعنى الذى ينقدح فى عقلك، المشوب بالأوهام فالأمر والله وراء ذلك» [٣].

ومثل هذه الأقوال أشبه ما تكون بالإكراه لنا على قبول وجدانيات القوم وشطحاتهم

---

(١) كشف الظنون (١/ ٢٢٢).
(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٢٥.
(٣) تفسير الآلوسى (١/ ١٤٢، ١٤٣).

مهما أوغلت فى البعد والغرابة، وتوريط لنا بتسليم كل ما يقولون تحت تأثير ما لهم فى نفوسنا من المكانة العلمية والدينية، ومهما يكن من شىء فأنا عند رأيى لا أتحول عنه، حتى إذا ما جمعت جوع القوم، وسهرت سهرهم، ووجدت مواجيدهم، سلمت لهم بكل ما يقولون (ومن ذاق عرف).

والخلاصة: أن مثل هذه التفاسير الغريبة للقرآن، مزلة قدم لمن لم يعرف مقاصد القوم، وليتهم احتفظوا بها عند أنفسهم، ولم يذيعوها على الناس فيوقعوهم فى حيرة واختلاف: منهم من يأخذها على ظاهرها ويعتقد أن ذلك هو مراد الله من كلامه، وإذا عارضه ما ينقل فى كتب التفسير على خلافه فربما كذب به أو أشكل عليه، ومنهم من يكذبها على الإطلاق، ويرى أنها تقوُّل على الله وبهتان، ليتهم فعلوا ذلك، إذًا لأراحونا من هذه الحيرة، وأراحوا أنفسهم من كلام الناس فيهم، وقذف البعض لهم بالكفر، والإلحاد فى آيات الله!!.

شروط قبول التفسير الإشارى:

تبين لنا فيما سبق أن التفسير الإشارى منه ما هو مقبول ومنه ما ليس بمقبول فعلينا بعد ذلك أن نذكر الشروط التى يجب أن تتوفر فى التفسير الإشارى ـ وإن كنا تعرضنا لأهمها فيما سبق ـ حتى يكون تفسيرًا مقبولاً وإليك هذه الشروط:

أولاً: أن لا يكون التفسير الإشارى منافيًا للظاهر من النظم القرآنى الكريم.

ثانيًا: أن يكون له شاهد شرعى يؤيده.

ثالثًا: أن لا يكون له معارض شرعى أو عقلى.

وهذه الشروط الثلاثة قد أوضحناها فيما سبق، فلا حاجة بنا إلى إعادة توضيحها.

رابعًا: أن لا يدعى أن التفسير الإشارى هو المراد وحده دون الظاهر، بل لا بد أن نعترف بالمعنى الظاهر أولا؛ إذ لا يطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر «ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب»(١).

إذا علمت هذا، علمت بصورة قاطعة أنه لا يمكن لعاقل أن يقبل ما نقل عن بعض

---

(١) الإتقان (٢/ ١٨٤).

المتصوفة من أنه فسر قوله تعالى فى الآية (٢٥٥) من سورة البقرة ﴿**مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ فقال معناه: «من ذل» من الذل «ذى» إشارة إلى النفس «يشف» من الشفاء «ع» أمر من الوعى[(١)]، وما نقل عن بعضهم من أنه فسر قوله تعالى فى الآية (٦٩) من سورة العنكبوت ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ فجعل «لمع» فعلاً ماضيًا بمعنى أضاء، و ﴿**الْمُحْسِنِينَ**﴾ مفعوله[(٢)].

هذا التفسير وأمثاله إلحاد فى آيات الله، والله تعالى يقول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا**﴾ (فصلت: ٤٠) قال الألوسى فى تفسير هذه الآية: «أى ينحرفون فى تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة فيحملونها على المحامل الباطلة، وهو مراد ابن عباس بقوله: يضعون الكلام فى غير موضعه»[(٣)].

هذه هى الشروط التى إذا توفرت فى التفسير الإشارى كان مقبولاً، ومعنى كونه مقبولاً: عدم رفضه لا وجوب الأخذ به، أما عدم رفضه فلأنه غير مناف للظاهر ولا بالغ مبلغ التعسف، وليس له ما ينافيه أو يعارضه من الأدلة الشرعية.

وأما عدم وجوب الأخذ به، فلأنه من قبيل الوجدانيات، والوجدانيات لا تقوم على دليل ولا تستند إلى برهان، وإنما هى أمر يجده الصوفى من نفسه، وسر بينه وبين ربه، فله أن يأخذ به ويعمل على مقتضاه، دون أن يلزم به أحدًا من الناس سواه.

أهم كتب التفسير الإشارى:

من العلماء من وجه همته إلى التفسير الظاهر ولم يتعرض للتفسير الإشارى، كالبيضاوى، والزمخشرى مثلاً، ومنهم من جعل غالب همه فى التفسير الظاهر وتعرض للتفسير الإشارى بقدر، كما فعل النيسابورى، والآلوسى، ومنهم من غلبت عليه ناحية التفسير الإشارى ومع ذلك فهو يتعرض أحيانًا للتفسير الظاهر، كما فعل سهل التسترى، ومنهم من وجه همته كلها للتفسير الإشارى، ولم يحم حول المعانى الظاهرة، كما فعل أبو عبد الرحمن السلمى، ومنهم من أعرض عن الظاهر وجمع فى تفسيره بين التفسير

---

(١) الإتقان (٢/ ١٨٤).

(٢) مبادئ التفسير للخضرى ص ٩.

(٣) تفسير الآلوسى (٢٤/ ١١٢).

الصوفى النظرى والتفسير الصوفى الإشارى كما فعل صاحب التفسير المنسوب لابن عربى.

وليس ضروريًا أن نتكلم عن تفسير النيسابورى والآلوسى من ناحية ما فيهما من التفسير الإشارى؛ لأنهما أقرب إلى أهل الظاهر منهما إلى أهل الإشارة إذ كان كلامهما عن التفسير الإشارى أمرًا عارضًا وتابعًا لغيره، وقد سبق الكلام عنهما فى كتب التفسير بالرأى المحمود.

ويكفى هنا أن نتكلم عن أهم الكتب التى وجه أصحابها فيها كل عنايتهم، أو جلها نحو التفسير الإشارى، وإليك أهم هذه الكتب:

١- تفسير القرآن العظيم ـ للتسترى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله، التسترى، المولود بتستر(١) سنة ٢٠٠هـ مائتين، وقيل: سنة ٢٠١ إحدى ومائتين من الهجرة.

كان ـ رحمه الله ـ من كبار العارفين، ولم يكن له فى الورع نظير، وكان صاحب كرامات، ولقى الشيخ ذا النون المصرى ـ رحمه الله ـ بمكة، وكان له اجتهاد وافر ورياضة عظيمة، أقام بالبصرة زمنًا طويلاً، وتوفى بها سنة ٢٨٣هـ ثلاث وثمانين ومائتين، وقيل: سنة ٢٧٣هـ ثلاث وسبعين ومائتين، فرحمه الله رحمة واسعة(٢).

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير مطبوع فى مجلد صغير الحجم، ولم يتعرض فيه مؤلفه لتفسير القرآن آية آية، بل تكلم عن آيات محدودة ومتفرقة من كل سورة، ويظهر لنا أن سهلاً ـ ﷺ ـ لم يؤلف هذا الكتاب، وإنما هى أقوال قالها سهل فى آيات متفرقة من القرآن الكريم، ثم جمعها أبو بكر محمد بن أحمد البلدى، المذكور فى أول الكتاب، والذى يقول كثيرًا، قال أبو بكر: سئل سهل عن معنى كذا، فقال كذا، ثم ضمنها هذا الكتاب ونسبها إليه.

نقرأ فى هذا الكتاب، فنجد مؤلفه يقدم له بمقدمة يوضح فيها معنى ظاهر القرآن وباطنه، ومعنى الحد والمطلع، فيقول: «ما من آية فى القرآن إلا ولها أربعة معان: ظاهر، وباطن، وحد، ومطلع، فالظاهر: التلاوة، والباطن: الفهم، والحد: حلالها وحرامها، والمطلع: إشراق القلب على المراد بها، فقهًا من الله عز وجل، فالعلم الظاهر علم عام، والفهم لباطنه والمراد به خاص، قال تعالى فى الآية (٧٨) من سورة النساء: ﴿فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أى لا يفقهون خطابا»(٣).

---

(١) تستر ـ بضم التاء الأولى، وسكون السين المهملة، وفتح التاء الثانية: بلد من الأهواز.

(٢) انظر وفيات الأعيان (١/ ٣٨٩).

(٣) ص ٣.

ويقول فى موضع آخـر: قال سهل: إن الله تعالى مـا استولى وليّا من أمة مـحمد ﷺ إلا علمه القرآن، إما ظاهرًا وإما باطنًا، قيل له: إن الظاهر نعرفه فالباطن ما هو؟ قال: فهمه، وإن فهمه هو المراد»(١).

فمن هاتين العبارتين، نأخذ أن سهـلاً التسترى يريك أن الظاهر هو المعنى اللغوى المجرد، وأن الباطن هو المعنى الذى يفهم من اللفظ ويريده الله تعالى من كلامه: كما نأخـذ منه: أنه يرى أن المعـانى الظاهرة أمـر عام يقف علـيهـا كل من يعرف اللسـان العربى، أما المعانى الباطنة فأمر خاص يعرفه أهل الله بتعليم الله إياهم وإرشادهم إليه.

كذلك نجد سهـلاً ـ رضي الله عنه ـ لم يقتصر فى تفسيره على المـعانى الإشارية وحدها، بل نجده يذكر أحيانًا المعانى الظاهرة، ثم يعقبهـا بالمعانى الإشارية، وقد يقتصر أحيانًا على المعنى الإشارى وحده، كما يقتـصر أحيانًا على المعنى الظاهرى، بدون أن يعرج على باطن الآية.

وحين يعرض سـهل للمعانى الإشارية لا يكون واضحًـا فى كل ما يقوله، بل تارة بالمعانى الغريبة التى نستبعد أن تكون مرادة لله تعالى، وذلك كالمعانى التى نقلناها عنه سابقًا فى معنى البسملة، و (الم) فاتحـة البقرة، وتارة يأتى بالمعانى الغريبة التى يمكن أن تكون من مدلول اللفظ أو مما يشير إليه اللفظ، وذلك هو الغالب فى تفسيره.

كذلك نجـد المؤلف ينحو فى كتـابه هذا منحى تزكية النفوس، وتطهـير القلوب، والتحلى بالأخلاق والفضائل التى يدل عليها القرآن ولو بطريق الإشارة، وكثيرًا ما يسوق من حكايات الصالحين وأخبارهم ما يكون شاهدًا لما يذكره، كما أنه يتعرض فى بعض الأحيان لدفع إشكالات قد ترد على ظاهر اللفظ الكريم، وإليك نماذج من تفسيره.

فى سورة الأعراف عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٤٨) ﴿**وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ**﴾ يقول ما نصـه: «عجل كل إنسان ما أقـبل عليه فأعـرض به عن الله من أهل وولد، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد إفناء جـميع حظوظه من أسبابه، كما لم يتخلص عبدة العجل من عبادته إلا بعد قتل النفوس»(٢).

---

(١) ص ٧ ولعلك تجد فى هذه العبـارة ما يؤكد ما قلناه من أن الكتاب من وضع أحـد تلاميذه: أبو بكر محمد البلدى.

(٢) ص ٦٠.

وفى سورة الشعراء عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيات (٧٨ - ٨٢) حكاية عن إبراهيم عليه السلام ﴿ الَّذى خَلَقَنى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذى هُوَ يُطْعِمُنى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذى يُمِيتُنى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتى يَوْمَ الدِّينِ ﴾ يقول ما نصه: «﴿ الَّذى خَلَقَنى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أى الذى خلقنى لعبوديته يهدينى إلى قربه ﴿ وَالَّذى هُوَ يُطْعِمُنى وَيَسْقِينِ ﴾ قال: يطعمنى لذة الإيمان ويسقينى شراب التوكل والكفاية ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ قال: يعنى إذا تحركت بغيره لغيره عصمنى، وإذا ملت إلى شهوة من الدنيا منعها عنى، ﴿ وَالَّذى يُمِيتُنى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ قال: الذى يميتنى ثم يحيينى بالذكر ﴿ وَالَّذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتى يَوْمَ الدِّينِ ﴾ قال: أخرج كلامه على شروط الأدب بين الخوف والرجاء، ولم يحكم عليه بالمغفرة»[(١)].

وفى سورة الصافات عند قوله تعالى فى الآية (١٠٧) ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ قال ما نصه: «إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أحب ولده بطبع البشرية، تداركه من الله فضله وعصمته حتى أمره بذبحه، إذ لم يكن المراد منه تحصيل الذبح، وإنما كان المقصود تخليص السر من حب غيره بأبلغ الأسباب، فلما خلص السر له، ورجع عن عادة الطبع، فداه بذبح عظيم»[(٢)].

فهذه المعانى كلها مقبولة ويمكن إرجاعها بدون تكلف إلى اللفظ القرآنى بدون معارضة شرعية أو عقلية، والكتاب - فى الغالب - يسير على هذه الطريقة، وهى لا شوب فيها.

---

(١) ص ١٠٦.

(٢) ص ١٢٠.

٢- حقائق التفسير ـ للسلمى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو أبو عبد الرحمن، محمد بن الحسين بن موسى، الأزدى السلمى، المولود ٣٣٠هـ ثلاثين وثلاثمائة من الهجرة، وقيل غير ذلك.

كان رحمه الله شيخ الصوفية وعالمهم بخراسان، له اليد الطولى فى التصوف، والعلم الغزير، والسير على سنن السلف، أخذ الطريق عن أبيه، فكان موفقًا فى جميع علوم الحقائق ومعرفة طريق التصوف، وكان على جانب عظيم من العلم بالحديث، حتى قيل: إنه حدث أكثر من أربعين سنة إملاء وقراءة، وكتب الحديث بنيسابور، ومرو، والعراق، والحجاز، وصنف سننًا لأهل خراسان، وأخذ عنه بعض الحفاظ: منهم الحاكم أبو عبد الله، وأبو القاسم القشيرى، وغيرهما، ولقد خلف ـ رحمه الله ـ من الكتب ما يزيد على المائة: منها ما هو فى علوم القوم، ومنها ما هو فى التاريخ، ومنها ما هو فى الحديث، ومنها ما هو فى التفسير.

ولكن السلمى مع وفرة جلالته، وعظيم منزلته بين مريديه، لم يسلم كغيره من الصوفية من الطعن عليه، قال الخطيب: قال محمد بن يوسف النيسابورى القطان: كان السلمى غير ثقة، يضع للصوفية، وكأن الخطيب لم يرض هذا الطعن فيه، فقال حكاية هذا القول: (قدر أبى عبد الرحمن عند أهل بلده جليل، وكان مع ذلك محمودًا صاحب حديث) قال ابن السبكى صاحب طبقات الشافعية: (قول الخطيب فيه هو الصحيح، وأبو عبد الرحمن ثقة، ولا عبرة بهذا الكلام فيه) هذا وقد كانت وفاته سنة ٤١٢هـ اثنتى عشرة وأربعمائة من الهجرة، فرحمه الله رحمة واسعة(١).

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقع هذا التفسير فى مجلد واحد كبير الحجم، ومنه نسختان مخطوطتان بالمكتبة الأزهرية.

---

(١) رجعنا فى هذه الترجمة إلى طبقات المفسرين للسيوطى ص٣١، وإلى طبقات الشافعية للسبكى (٣/ ٦٠ - ٦٢).

قرأت فى هذا التفسير، فوجدته يستوعب جميع سور القرآن، ولكنه لا يتعرض لكل الآيات بل يتكلم عن بعضها ويغضى عن بعضها الآخر، وهو لا يتعرض فيه لظاهر القرآن، وإنما جرى فى جميع ما كتبه على نمط واحد، وهو التفسير الإشارى، وهو إذ يقتصر على ذلك لا يعنى أن التفسير الظاهر غير مراد؛ لأنه يصرح فى مقدمة تفسيره: أنه أحب أن يجمع تفسير أهل الحقيقة فى كتاب مستقل كما فعل أهل الظاهر.

ثم إن أبا عبد الرحمن السلمى، لم يكن له مجهود فى هذا التفسير أكثر من أنه جمع مقالات أهل الحقيقة بعضها إلى بعض، ورتبها على حسب السور والآيات، وأخرجها للناس فى كتاب سماه: حقائق التفسير.

وأهم من ينقل عنه السلمى فى حقائقه: جعفر بن محمد الصادق، وابن عطاء الله السكندرى، والجنيد، والفضيل بن عياض، وسهل بن عبد الله التسترى، وغيرهم كثير.

وإليك بعض ما قاله فى مقدمته لتعلم أن السلمى حين اقتصر على المعانى الإشارية لم يجحد المعانى الظاهرية للقرآن، ولتعلم أيضًا أن مجهوده فى هذا التفسير إنما هو الجمع والترتيب.

قال رحمه الله: «. . . لما رأيت المتوسمين بالعلوم الظواهر سبقوا فى أنواع فرائد القرآن: من قراءات، وتفاسير، ومشكلات، وأحكام، وإعراب، ولغة، ومجمل، ومفسر، وناسخ، ومنسوخ، ولم يشتغل أحد منهم بجمع فهم خطابه على لسان الحقيقة إلا آيات متفرقة، نسبت إلى أبى العباس بن عطاء، وآيات ذكر أنها عن جعفر بن محمد على غير ترتيب، وكنت قد سمعت منهم فى ذلك حروفًا استحسنتها، أحببت أن أضم ذلك إلى مقالتهم، وأضم أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك، وأرتبه على السور حسب وسعى وطاقتى، واستخرت الله فى جمع شىء من ذلك، واستعنت به فى ذلك وفى جميع أمورى، وهو حسبى ونعم المعين»(١).

طعن بعض العلماء على هذا التفسير:

غير أن الاقتصار على المعانى الإشارية، والإعراض عن المعانى الظاهرة فى هذا المؤلف، ترك للعلماء مجالاً للطعن على هذا التفسير وعلى صاحبه من أجله، فالجلال

---

(١) ص ١، ٢.

السيوطى رحمه الله يذكر أبا عبد الرحمن السلمى فى كتابه طبقات المفسرين ضمن من صنف فى التفسير من المبتدعة ويقول: «وإنما أوردته فى هذا القسم لأن تفسيره غير محمود»(١)، والحافظ الذهبى رحمه الله يقول عن السلمى: «... وله كتاب يقال له حقائق التفسير، وليته لم يصنفه؛ فإنه تحريف وقرمطة، ودونك الكتاب فسترى العجب»(٢)، ويقول السبكى فى طبقات الشافعية: «وكتاب حقائق التفسير، كثر الكلام فيه من قبل أنه اقتصر فيه على ذكر تأويلات ومحال للصوفية ينبو عنها اللفظ»(٣).

وقد مر بك آنفًا أن الإمام أبا الحسن الواحدى قال: «صنف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق التفسير، فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر».

وهذا هو الإمام ابن تيمية يطعن على تفسير السلمى من ناحية أخرى فيقول: «وما ينقل فى حقائق السلمى عن جعفر الصادق عامته كذب على جعفر كما قد كذب عليه فى غير ذلك»(٤).

رأينا فى هذه الطعون:

هذا، وإن عد السيوطى السلمى فى ضمن المفسرين من أهل البدع غلو منه وإجحاف.

وما قاله الذهبى من أن ما فى الحقائق تحريف وقرمطة - يريد أنه كتفسير القرامطة من الباطنية - فهذا غير صحيح؛ لأن الرجل يقر الظواهر على ظواهرها، والقرامطة بخلاف ذلك.

وأما ما قاله السبكى من أن السلمى قد اقتصر فى حقائقه على تأويلات للصوفية ينبو عنها اللفظ فهذه كلمة حق لا غبار عليها.

وأما قول الواحدى: إنه لو اعتقد أن ما فى الحقائق تفسير لكفر باعتقاده هذا، فنقول فيه: إن أبا عبد الرحمن لم يعتقد أن هذا تفسير، وإنما قال: إنه إشارات تخفى وتدق إلا على أربابها، كما صرح بذلك فى مقدمة حقائق التفسير(٥).

وأما قول ابن تيمية: إن ما ينقل فى حقائق السلمى من التفسير عن جعفر عامته

(١) طبقات المفسرين ص ٣١. (٢) طبقات الشافعية للسبكى (٣/ ٦١).
(٣) المرجع السابق. (٤) منهاج السنة (٤/ ١٥٥). (٥) ص ١.

كذب على جعفر، فهذه كلمة حق من ابن تيمية؛ إذ أن غالب ما جاء فيه عن جعفر الصادق كله من وضع الشيعة عليه، ولست أدرى كيف اغتر السلمى وهو العالم المحدث بمثل هذه الروايات المختلقة الموضوعة.

نماذج من تفسير السلمى:

وإذ قد فرغنا من الحديث على حقائق التفسير، فاقرأ بعض ما جاء فيه، لتحكم أنت بدورك عليه:

فى سورة النساء عند قول الله تعالى فى الآية (٦٦) ﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ**﴾ يقول: «قال محمد بن الفضل ﴿**اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ**﴾ بمخالفة هواها ﴿**أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم**﴾ أى أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم ﴿**مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ**﴾ فى العدد، كثير فى المعانى، وهم أهل التوفيق والولايات الصادقة»(١).

وفى سورة الرعد عند قوله تعالى فى الآية (٣) ﴿**وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ**﴾ يقول: «قال بعضهم: هو الذى بسط الأرض وجعل فيها أوتادًا من أوليائه وسادة من عبيده فإليهم الملجأ، وبهم النجاة، فمن ضرب فى الأرض يقصدهم فاز ونجا، ومن كان بغيته لغيرهم خاب وخسر، سمعت على بن سعيد يقول: سمعت أبا محمد الحريرى يقول: كان فى جوار الجنيد إنسان مصاب فى خربة، فلما مات الجنيد وحملنا جنازته حضر الجنازة فلما رجعنا تقدم خطوات وعلا موضعًا من الأرض عاليًا، فاستقبلنى بوجهه وقال: يا أبا محمد... إنى لراجع إلى تلك الخربة وقد فقدت ذلك السيد، ثم أنشد شعرًا:

وما أسفى من فراق قوم ... هم المصابيح، والحصون
والمدن، والمزن، والرواسى ... والخير، والأمن، والسكون
لم تتغير لنا الليالى ... حتى توفتهم المنون
فكل جمر لنا قلوب ... وكل ماء لنا عيون»(٢)

---

(١) ص ٤٩.

(٢) ص ١٣٨.

وفى سورة الحج عند قوله تعالى فى الآية (٦٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ يقول: «قال بعضهم: أنزل مياه الرحمة من سحائب القربة، وفتح إلى قلوب عباده عيونًا من ماء الرحمة، فأنبتت فاخضرت بزينة المعرفة، وأثمرت الإيمان، وأينعت التوحيد، أضاءت بالمحبة فهامت إلى سيدها، واشتاقت إلى ربها فطارت بهمتها، وأناخت بين يديه، وعكفت فأقبلت عليه، وانقطعت عن الأكوان أجمع، عند ذاك آواها الحق إليه، وفتح لها خزائن أنواره، وأطلق لها الخيرة فى بساتين الأنس، ورياض الشوق والقدس»[١].

وفى سورة الرحمن عند قوله تعالى فى الآية (١١) ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ﴾ يقول: «قال جعفر: جعل الحق تعالى فى قلوب أوليائه رياض أنسه، فغرس فيها أشجار المعرفة، أصولها ثابتة فى أسرارهم، وفروعها قائمة بالحضرة فى المشهد، فهم يجنون ثمار الأنس فى كل أوان، وهو قوله تعالى ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ﴾ أى ذات الألوان، كل يجتنى منه لونًا على قدر سعته، وما كوشف له من بوادى المعرفة وآثار الولاية»[٢].

وفى سورة الانفطار عند قوله تعالى فى الآيتين (١٣، ١٤) ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ يقول: «قال جعفر: النعيم المعرفة والمشاهدة، والجحيم النفوس؛ فإن لها نيرانًا تتقد»[٣].

وفى سورة النصر عند قوله تعالى فى أولها ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ يقول: «قال ابن عطاء الله: إذا شغلك به عما دونه فقد جاءك الفتح من الله تعالى، والفتح هو النجاة من السجن البشرى بلقاء الله تعالى...»[٤].

---

(١) ص ٢١٢.
(٢) ص ٣٤٤
(٣) ص ٣٨٥.
(٤) ص ٤٠٢

٣- عرائس البيان فى حقائق القرآن
لأبى محمد الشيرازى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد روزبهان بن أبى النصر، البقلى، الشيرازى الصوفى، المتوفى سنة ٦٦٦هـ ست وستين وستمائة من الهجزة النبوية(١).

التعريف بهذا التفسير:

جرى مؤلف هذا التفسير على نمط واحد وهو التفسير الإشارى، ولم يتعرض للتفسير الظاهر بحال، وإن كان يعتقد أنه لا بد منه أولاً، يدل على ذلك قوله فى المقدمة: «ولما وجدت أن كلامه الأزلى لا نهاية له فى الظاهر والباطن، ولم يبلغ أحد إلى كماله وغاية معانيه، لأن تحت كل حرف من حروفه بحرًا من بحار الأسرار، ونهرًا من أنهار الأنوار، لأنه وصف القديم وكمال لا نهاية لذاته ولا نهاية لصفاته... قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ (لقمان: ٢٧) وقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ (الكهف: ١٠٩) فتعرضت أن أغرف من هذه البحور الأزلية غرفات من حكم الأزليات، والإشارات والأبديات، التى تقصر عنها أفهام العلماء وعقول الحكماء، اقتداء بالأولياء، وأسوة بالخلفاء، وسنة للأصفياء، وصنفت فى حقائق القرآن، ولطائف البيان، وإشارة الرحمن فى القرآن، بألفاظ لطيفة وعبارات شريفة، وربما ذكرت تفسير آية لم يفسرها المشايخ، ثم أردفت بعد قولى أقوال مشايخى مما عباراتها ألطف، وإشاراتها أظرف ببركاتهم، وتركت كثيرًا منها ليكون كتابى أخف محملاً وأحسن تفصيلاً، واستخرت الله تعالى فى ذلك، واستعنت به، ليكون لمرادة

---

(١) كشف الظنون (٢/ ٢١) ولم نقف على أكثر من هذا فى ترجمته.

قلت: ولد سنة ٥٢٢هـ، وتوفى منتصف المحرم سنة ٦٠٦هـ، وله من الكتب: لطائف البيان فى تفسير القرآن، مكنون الحديث، حدائق الأخبار، الموشح فى المذاهب الأربعة، وغيرها. وله ترجمة فى الذريعة (١٥/ ٢٤٢)، ريحانة الأدب (٣/ ٣٢٤). (د/ مصطفى الذهبى).

ومواطئًا لسنة رسوله وأصحابه وأولياء أمته، وهو حسبى وحسب كل ضعيف... وسميته بـ (عرائس البيان فى حقائق القرآن)... إلخ»(١).

فأنت ترى من هذه المقدمة أن صاحبنا يعترف بالمعنى الظاهرة للقرآن، ويقرر أن ما ذكره فى كتابه ما هو إلا سوانح سنحت له من حقائق القرآن، وإشارات تجلت له من جانب الرحمن، كما ترى فيها وصفه لكتابه والمسلك الذى سلكه فيه، غير أنى ألحظ من قوله: «واستعنت به ليكون موافقًا لمراده، ومواطئًا لسنة رسوله» أنه يريد أن يقرر أن كل ما فى كتابه من المعانى ليس إلا تفسيرًا لكتاب الله وبيانًا لمراده منه، وهذا هو ما لا نقره عليه، ولا نسلمه له، لأن هذه المعانى الغريبة التى يأتى بها فى تفسيره لا يمكن أن تكون داخلة تحت مدلول اللفظ القرآنى، ولا يعقل أن تكون مرادة لله تعالى من خطابه لأفراد الأمة، وحسبه أن نقره على أنها ذكر لنظير ما ورد به القرآن.

وإليك بعض ما جاء فى هذا التفسير:

فى سورة التوبة عند قوله تعالى فى الآية (٩١) ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ**﴾ يقول: «وصف الله زمرة أهل المراقبات، ومجالس المحاضرات، والهائمين فى المشاهدات، والمستغرقين فى بحار الأزليات، الذين أنحلوا جسومهم بالمجاهدات، وأمرضوا نفوسهم بالرياضات، وأذابوا قلوبهم بدوام الذكر، وجولانها فى الفكر، وخرجوا بعقائدهم الصافية، عن الدنيا الفانية بمشاهدة الباقية، بأن رفع عنهم بفضله حرج الامتحان، وأبقاهم فى مجالس الأنس ورياض الإيقان، وقال: ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ**﴾ يعنى الذين أضعفهم حمل أوقار المحبة ﴿**وَلا عَلَى الْمَرْضَى**﴾ الذين أمرضهم مرارة الصبابات ﴿**وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ**﴾ الذين يتجردون عن الأكوان بتجريد التوحيد وحقائق التفريد ﴿**حَرَجٌ**﴾ عتاب من جهة العبودية والمجاهدة، لأنهم مقتولون بسيف المحبة، مطروحون بباب الوصلة، ضعفهم من الشوق، ومرضهم من الحب، وفقرهم من حسن الرضا...»(٢).

وفى سورة النحل عند قوله تعالى فى الآية (٨١) ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ**

---

(١) جـ١ ص ٢ - ٣. (٢) جـ١ ص ٣٣٩.

﴿نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾ يقول: «يعنى ظلال أوليائه؛ ليستظل بها المريدون من شدة حر الهجران، ويأوون إليها من قهر الطغيان، وشياطين الإنس والجان؛ لأنهم ظلال الله فى أرضه، لقوله ﷺ «السلطان ظل الله فى أرضه، يأوى إليه كل مظلوم» ﴿وجعل لكم من الجبال أكنانا﴾ أكنان الجبال: قلوب أكابر المعرفة، وظلال أهل السعادة من أهل المحبة، يسكن فيها المنقطعون إلى الله ﴿وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر﴾ جعل للعارفين سرابيل روح الإنس، لئلا يحترقوا بنيران القدس ﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ سرابيل المعرفة وأسلحة المحبة، لتدفعوا بها محاربة النفوس والشياطين ثم زاد نعمته ومنته عليهم بقوله: ﴿كذلك يتم نعمته عليكم﴾ . . .»(١).

وفى سورة النمل عند قوله تعالى فى الآيتين (٢٠، ٢١) ﴿وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ۝ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين﴾ يقول: « . . . إن طير الحقيقة لسليمان طير قلبه فتفقده ساعة، وكان قلبه غائبًا فى غيب الحق، مشغولاً بالمذكور عن الذكر، فتفقده وما وجده، فتعجب من شأنه. . . أين قلبه إن لم يكن معه؟ . . . فظن أنه غائب عن الحق وكان فى الحق غائبًا، وهذا شأن غيبة أهل الحضور من العارفين ساعات لا يعرفون أين هم، وهذا من كمال استغراقهم فى الله، فقال: ﴿لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين﴾ لأعذبنه بالصبر على دوام المراقبة والرعاية، وألقينه فى بحر النكرة من المعرفة، ليفنى ثم يفنى عن الفناء، أو أذبحنه بسيف المحبة أو بسيف العشق، أو ليأتينى من الغيب بسواطع أنوار أسرار الأزل. . .»(٢).

هذا. . . والكتاب مطبوع فى جزءين، يضمهما مجلد كبير، وتوجد منه نسخة بالمكتبة الأزهرية.

---

(١) جـ١ ص ٥٣٤، ٥٣٥.

(٢) جـ٢ ص ٨١٣.

٤- التأويلات النجمية
لنجم الدين داية وعلاء الدولة السمنانى

التعريف بمؤلفى هذا التفسير:

ألف هذا التفسير نجم الدين داية، ومات قبل أن يتمه، فأكمله من بعده علاء الدولة السمنانى، وسنوضح ذلك فيما بعد عند الكلام عن هذا التفسير، إذًا فقد اشترك نجم الدين دايه وعلاء الدولة السمنانى فى هذا التفسير، وإذًا لزم الكلام عن حياة كل من الشيخين.

أما نجم الدين داية:

فهو الشيخ نجم الدين، أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن شاهادر الأسدى الرازى المعروف بداية، المتوفى سنة ٦٥٤هـ أربع وخمسون وستمائة من الهجرة.

كان من خيار الصوفية، أخذ الطريق عن شيخه نجم الدين أبى الجناب المعروف بالبكرى، وكان مقيمًا أول أمره بخوارزم، ثم خرج منها أيام حروب جنكيزخان إلى بلاد الروم، وهناك لقى صدر الدين القنوى وأخذ عنه، ويقال: إنه استشهد فى حروب جنكيزخان، كما يقال إنه مدفون بالشونزية ببغداد، قرب السرى السقطى والجنيد(١).

وأما علاء الدولة السمنانى:

فهو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد السمنانى، البيانانكى، الملقب بعلاء الدولة، وركن الدين، والمولود سنة ٦٥٩هـ تسع وخمسين وستمائة، تفقه وطلب الحديث على كثير من شيوخ عصره، حتى برع فى العلم، قال الذهبى: «كان إمامًا جامعًا، كثير التلاوة، وله وقع فى النفوس، وكان يحط على ابن عربى ويكفره، وكان مليح الشكل، حسن الخلق، غزير الفتوة، كثير البر يحصل له من أملاكه نحو تسعين ألفًا فينفقها فى القرب، أخذ عن صدر الدين بن حمويه، وسراج الدين القزوينى، وإمام الدين بن على مبارك البكرى، وذكر أن مصنفاته تزيد على ثلاثمائة»(٢). وذكره

(١) انظر نفحات الأنس ص ٤٩١.

(٢) الدرر الكامنة (١/ ٢٥٠ - ٢٥٢).

الأسنوى فى طبقاته وقال: (كان عالمًا مرشدًا، له كرامات وتصانيف فى التفسير والتصوف وغيرهما»[١]، ومن مصنفاته: مدارج المعارج، وتكملة التأويلات النجمية، وذكر صاحب كشف الظنون أن له تفسيرًا كبيرًا فى ثلاثة عشر مجلدًا[٢]، ولكن لم يبين لنا إن كان هذا التفسير على طريقة القوم أو طريقة المفسرين، وكان رحمه الله قد دخل بلاد التتار، ثم رجع وسكن تبريز وبغداد، ومات فى رجب سنة ٧٣٦هـ ست وثلاثين وسبعمائة من الهجرة.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفيه فيه:

يقع هذا التفسير فى خمس مجلدات كبار، ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب، وهى التى رجعنا إليها، ينتهى المجلد الرابع عند قوله تعالى فى الآيتين (١٧، ١٨) من سورة الذاريات ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ⑰ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وهذا هو نهاية ما وصل إليه نجم الدين داية فى تفسيره، أما المجلد الخامس، فهو تكملة لهذا التفسير، كتبه علاء الدولة، وجعله تتمة لكتاب نجم الدين داية، وقد قدم لهذه التكملة بمقدمة طويلة لا يفهمها إلا من يعرف لغة القوم واصطلاحاتهم، ولهذا يقول فيها: «... ولا يؤمن أحد بالذى قلته إلا بعد السلوك، ومشاهدته من حيث العيان ما سمعه من هذا البيان...»[٣] ثم بعد أن فرغ من المقدمة، فسر الفاتحة على طريقة القوم، مع أن نجم الدين فسرها أول الكتاب، ثم بعد ذلك ابتدأ بسورة الطور، وانتهى عند آخر القرآن، ويلاحظ أنه لم يكمل تفسير سورة الذاريات، التى مات نجم الدين قبل أن يفرغ من تفسيرها.

والذى يقرأ فى هذا التفسير، ويقارن بين ما كتبه نجم الدين داية؛ وبين ما كتبه السمنانى، يلحظ أن هناك فرقًا بين التفسيرين؛ ذلك أن الجانب الذى كتبه نجم الدين يتعرض فيه أحيانًا للتفسير الظاهر، ثم يعقبه بالتفسير الإشارى قائلاً: والإشارة فيه إلى كذا وكذا، وما يذكره من التفسير الإشارى سهل المأخذ؛ لأنه لا يقوم على قواعد من الفلسفة الصوفية، كما أنه يربط بين الآيات.

---

(١) طبقات المفسرين للداودى ص ٢٨. (٢) كشف الظنون (١/ ٢٣٨).
(٣) جـ٥ ص؟ يلاحظ أننا لا نذكر رقم الصفحات، لأن النسخة التى بأيدينا لم ترقم صفحاتها.

أما الجانب الذى كتبه السمنانى فلا يعرج فيه على المعانى الظاهرة، كما أنه ليس فيه السهولة التى فى الجانب الذى كتبه نجم الدين، بل هو تفسير معقد مغلق، والسر فى ذلك: أنه بناه على قواعد فلسفية صوفية، هذه القواعد ذكرها فى مقدمة التكملة، وهى يطول ذكرها، ويصعب فهمها، ويكفى أن أشير هنا إلى بعض منها.

فمثلاً نراه يقرر فى هذه المقدمة: أن كل آية لها سبعة أبطن، كل بطن يخالف الآخر، فالمعنى الذى يجرى على هذا البطن يغاير المعنى الذى يجرى على البطن الآخر، ثم يوضح لنا هذه البطون السبعة: فبطن مخصوص باللطيفة القالبية، وبطن مخصوص باللطيفة النفسية، وبطن مخصوص باللطيفة القلبية، وبطن مخصوص باللطيفة السرية، وبطن مخصوص باللطيفة الروحية، وبطن مخصوص باللطيفة الخفية، وبطن مخصوص باللطيفة الحقية، ولتوضيح ذلك فسر لنا قوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾ الآية، على هذه البطون السبعة سبع تفسيرات، كل يخالف الآخر، ثم هو لم يقف عند هذا الحد، بل تعداه إلى القول بأن لكل آية سبعين بطنًا بل سبعمائة، ووضح ذلك بكلام يطول ذكره.

وعلى الجملة، فهذا التفسير المعروف بالتأويلات النجمية يعد من أهم كتب التفسير الإشارى، وهو أقرب إلى الفهم من غيره لولا هذه التكملة، وإليك نماذج منه، بعضها لنجم الدين وبعضها لعلاء الدولة؛ لتعرف الفرق بين التفسيرين وتلمس اختلاف المشربين.

من تأويلات نجم الدين:

فى سورة البقرة عند قوله تعالى فى الآية (٢٤٩) ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ يقول: «والإشارة فيها: أن الله تعالى ابتلى الخلق بنهر الدنيا وماء زينتها وما زين للخلق فيها؛ لقوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ...﴾ (آل عمران: ١٤) الآية، ليظهر المحسن من المسيء، وليميز الخبيث من الطيب، والمقبول من المردود، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (الكهف: ٧) ثم امتحنهم، وقال تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ يعنى من

أوليائى، ومحبى وطلابى، وله اختصاص بقربى، وقبولى، والتخلق بأخلاقى، ونيل الكرامة منى، كان النبى ﷺ يقول: (أنا من الله، والمؤمنون منى) ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ يعنى: من قنع من متاع الدنيا على ما لا بد منه: من المأكول، والمشروب، والملبوس، والمسكن، وصحبة الخلق، على حد الاضطرار بمقدار القوام، كما كان النبى ﷺ وأصحابه، وكان يقول: (اللهم ارزق آل محمد قوتًا) أى ما يمسك رمقهم...»(١).

وفى سورة التوبة عند قوله تعالى فى الآية (١٢٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ يقول: «﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى صدقوا محمدًا ﷺ فيما دلهم إلى الله بإذنه ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ أى جاهدوا كفار النفس وصفاتها بمخالفة هواها صفاتها، وتبديل وحملها على طاعة الله، والمجاهدة فى سبيله، فإنها تحجبك عن الله ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أى عزيمة صادقة فى فنائها بترك شهواتها ولذاتها ومستحسناتها، ومنازعتها فى هواها، وحملها على المتابعة فى طلب الحق ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بجذبة الوصول، ليتقوا به عما سواه، كما يتقى المرء بترسه عن النشاب، والرمح والسيف»(٢).

وفى سورة يوسف عند قوله تعالى فى الآيتين (٣٠، ٣١) ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٣٠ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ يقول: «يشير بالنسوة إلى صفات البشرية النفسانية من البهيمية، والسبعية، والشيطانية فى مدينة الجسد ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ وهى الدنيا ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ تطالب عبدها وهو القلب، كان عبدًا فى البداية لحاجته إليها للتربية، فلما كمل القلب وصفا عن دنس البشرية استأهل للنظر الإلهى، فتجلى له الرب تبارك وتعالى فتنور القلب بنور جماله وجلاله، فاحتاج إليه كل شىء، وسجد له حتى الدنيا ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أى أحبته الدنيا غاية الحب، لما ترى عليه آثار جمال الحق، ولما لم يكن لنسوة صفات البشرية اطلاع على

---

(١) جـ ١. (٢) جـ ٢.

جمال يوسف القلب، كن يلمن الدنيا على محبته، فقلن ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ زليخا الدنيا ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ فى ملامتها ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أى الصفات ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أى هيأت طعمة مناسبة لكل صفة منها ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وهو سكين الذكر ﴿وَقَالَتِ﴾ زليخا الدنيا ليوسف القلب ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وهو إشارة إلى غلبة أحوال القلب على صفات البشرية ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ﴾ أى وقعن على جماله وكماله ﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ أكبرن جماله أن يكون جمال بشر ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾ أى جمال بشر ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ما هذا إلا جمال ملك كريم، وهو الله تعالى بقراءة من قرأ ملك بكسر اللام»(١).

وفى سورة النمل عند قوله تعالى فى الآيتين (١٧، ١٨) ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: «﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ﴾ أى صفته الشيطانية ﴿وَالْإِنسِ﴾ أى صفته النفسانية ﴿وَالطَّيْرِ﴾ أى صفته الملكية ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ عن طبيعتهم بالشريعة، ليسخروا لسليمان القلب وينقادوا له ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ وهو هوى النفس الحريصة على الدنيا وشهواتها ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ وهى النفس اللوامة ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ أى الصفات النفسانية ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ محالكم المختلفة وهى الحواس الخمس ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ لا يهلكنكم ﴿سُلَيْمَانُ﴾ القلب ﴿وَجُنُودُهُ﴾ المسخرة له ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لأنهم الحق، وأنتم الباطل، فإذا جاء الحق زهق الباطل، كما أن الشمس إذا طلعت تبطل الظلمة وتنفيها، وهى لا تشعر بحال الظلمة وما أصابها»(٢).

من تأويلات السمنانى:

فى سورة التحريم عند قوله تعالى فى الآية (١١) ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يقول: «﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعنى القوى المؤمنة من قوى النفس اللوامة ﴿امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ يعنى القوة الصالحة القابلة تحت القوى الفاسدة

---

(١) جـ٣.

(٢) جـ٤.

الفاعلة المستكبرة، ما ضرها كفر القوة الفاعلة الفاسدة إذا كانت صالحة هى بنفسها ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعنى إذ قالت اللطيفة الصالحة القابلة فى مناجاتها مع ربها: ابن لى بيتًا فى أخص أطوار القلب... وقالت أيضًا فى مناجاتها: نجنى من هذه القوة الفاسدة والفاعلة وعملها، ونجنى من ألوانها وقواها الظالمة...»(١).

وفى سورة الشمس عند قوله تعالى فى الآيات (١١) وما بعدها ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا...﴾ إلى آخر السورة، يقول: «﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ يعنى إذ انبعثت اللطيفة، وأسرعت إلى الطاغية انبعث أشقى قوى النفس على إثر اللطيفة الصالحة، ليعقر ناقة شوقها ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أى اللطيفة ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أى احذروا عقر ناقة الشوق وشربها من عين الذكر ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ بتكذيبهم صالح اللطيفة النفسية، وعقروا ناقة الشوق ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾ أى أهلكهم الله ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أى عمهم بذلك العذاب ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ ولا يخاف القوى العاقرة فى عقر ناقة الشوق عاقبة الأمر، فأهلكهم بطغيانهم لرسوله وتكذيبهم إياه»(٢).

* * *

(١) جـ٥.

(٢) جـ٥.

٥- التفسير المنسوب لابن عربى

من مؤلف هذا التفسير ؟:

هذا التفسير طبع مجردًا فى مجلدين، وطبع على هامش عرائس البيان فى حقائق القرآن، لأبى محمد بن أبى النصر الشيرازى، الصوفى، الذى تكلمنا عنه فيما مضى، وكلتا النسختين ينسب فيهما التفسير لابن عربى، وبعض الناس يصدق هذه النسبة، ويعتقد أن هذا التفسير من عمل ابن عربى نفسه، والبعض الآخر لا يصدق أن هذا التفسير من عمل ابن عربى، بل يرى أنه من عمل عبد الرزاق الكاشانى، وإنما نسب لابن عربى، ترويجًا له بين الناس، وتشهيرًا له بشهرة ابن عربى، وممن يرى هذا الرأى الأخير: المرحوم الشيخ محمد عبده فى مقدمة التفسير التى اقتبسها المرحوم الشيخ رشيد رضا من درسه، ورواها عنه بالمعنى، ووضعها فى مقدمة تفسير المنار، وذلك حيث يذكر وجوه التفسير يعد منها التفسير الإشارى، ثم يقول: (وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية، ومن ذلك: التفسير الذى ينسبونه للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى، وإنما هو للقاشانى الباطنى الشهير، وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز)(١).

ونحن مع الأستاذ الإمام فى أن هذا التفسير للكاشانى، لا «لابن عربى» وإن كنا لا نوافقه على دعواه أن القاشانى من الباطنية، كما سنوضحه بعد إن شاء الله تعالى.

هذا، وإنى حين أميل لهذا الرأى ـ أعنى كون التفسير للقاشانى ـ أؤيده بما يأتى:

أولاً: أن جميع النسخ الخطية منسوبة للكاشانى، والاعتماد على النسخ المخطوطة أقوى؛ لأنها الأصل الذى أخذت عنه النسخ المطبوعة.

ثانيًا: قال فى كشف الظنون: (تأويلات القرآن) المعروف بتأويلات القاشانى، وهو تفسير بالتأويل على اصطلاح أهل التصوف إلى سورة (ص) للشيخ كمال الدين أبى الغنائم عبد الرزاق كمال الدين الكاشانى السمرقندى، المتوفى سنة ٧٣٠هـ(٢) ثلاثين

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٨).

(٢) فى الأصل سنة ٨٨٧، وهو خطأ، وقيل: ٧٣٥هـ، وهو شيعى، له من المؤلفات: فى =

ورد هذا الاسم فى بعض المراجع (القاشانى) بالقاف.

وسبعمائة، أوله: الحمد لله الذى جعل مناظم كلامه مظاهر حسن صفاته... إلخ»[(١)] وقد رجعنا إلى مقدمة التفسير المنسوب لابن عربى، فوجدنا أوله هذه العبارة المذكورة بنصها.

ثالثًا: فى تفسير سورة القصص من هذا الكتاب عند قوله تعالى فى الآية (٣٢) ﴿**وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ**﴾ يقول: «... وقد سمعت شيخنا نور الدين عبد الصمد قدس روحه العزيز فى شهود الوحدة ومقام الفناء عن أبيه أنه... إلخ»[(٢)] ونور الدين هذا هو نور الدين عبد الصمد بن على النطنزى الأصفهانى، والمتوفى فى أواخر القرن السابع، وكان شيخًا لعبد الرزاق القاشانى، المتوفى سنة ٧٣٠هـ ثلاثين وسبعمائة من الهجرة، كما يستفاد ذلك من كتاب نفحات الأنس[(٣)] فى مناقب الأولياء ص٥٣٤ - ٥٣٧، وغير معقول أن يكون نور الدين عبد الصمد النطنزى المتوفى فى أواخر القرن السابع الهجرى شيخًا لابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨هـ ثمان وثلاثين وستمائة من الهجرة.

لهذا كله نستطيع أن نؤكد أن هذا التفسير ليس لابن عربى، وإنما هو لعبد الرزاق الكاشانى الصوفى.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير جمع مؤلفه فيه بين التفسير الصوفى النظرى، وبين التفسير الإشارى، ولم يتعرض فيه للكلام عن التفسير الظاهر بحال من الأحوال.

أما ما فيه من التفسير الصوفى النظرى: فغالبه يقوم على مذهب وحدة الوجود، ذلك المذهب الذى كان له أثره السيئ فى تفسير القرآن الكريم.

وأما ما فيه من تفسير إشارى: فكثير منه لا نفهم له معنى، ولا نجد له من سياق

= اصطلاحات الصوفية، تحفة الإخوان فى خصائص الفتيان، شرح فصوص الحكم، شرح منازل السائرين للخواجة عبد الله الأنصارى، وغيرها. (د/ مصطفى الذهبى).

(١) كشف الظنون ص ١٨٧، ولكن لم نعرف من أتم هذا التفسير، والكتاب من أوله إلى آخره يسير على طريقة واحدة.

(٢) تفسير ابن عربى (٢/ ١١٦).

(٣) هذا الكتاب باللغة التركية، ورجعنا إليه بمعونة الأستاذ الشيخ زاهد الكوثرى وكيل المشيخة الإسلامية العثمانية بدار الخلافة سابقًا.

الآية أو لفظها ما يدل عليه، ولو أن المؤلف ـ رحمه الله ـ كان واضحًا فى كلامه، كما كان التسترى واضحًا، أو جمع بين التفسير الظاهر والتفسير الباطن لهان الأمر، ولكنه لم يفعل شيئًا من ذلك، مما جعل الكتاب مغلقًا، وموهمًا لمن يقرؤه أن هذا مراد الله من كلامه، كما كان هذا هو السبب الذى من أجله قال الأستاذ الإمام فى القاشانى: إنه باطنى، وأنا مع اعترافى بأن الكتاب فى جملته أشبه ما يكون بتفسير الباطنية، من ناحية ما فيه من المعانى التى تقوم على نظرية وحدة الوجود، وما فيه من المعانى الإشارية البعيدة ـ مع اعترافى بهذا ـ أخالف كل من يقول: إن القاشانى من الباطنية، ذلك لأن تاريخ الرجل يشهد له بأنه كان من المتصوفة المشهود لهم بالزهد والورع، وأيضًا فإنا نعلم أن الباطنية ينكرون المعانى الظاهرية للقرآن، ويقولون: إن المراد هو الباطن وحده، أما صاحبنا، فلم يذهب هذا المذهب، بل نجده فى مقدمة تفسيره يعترف بأن الظاهر مراد ولا بد منه أولاً، كما نبه على أنه لا يحوم فى كتابه هذا حول ناحية التفسير الظاهر، ولعله فعل ذلك لأنه وجد من المفسرين من اعتنى بالظواهر دون الإشارات، فأراد هو أن يعتنى بالناحية الإشارية دون الناحية الظاهرية للقرآن. فألف كتابه على النحو الذى نراه، وإليك بعض ما جاء فى هذه المقدمة، لتعلم أن الرجل ليس باطنيّا، ولتعلم أيضًا منهجه الذى نهجه فى تفسيره، وطريقته التى سار عليها فى شرحه لكتاب الله، قال رحمه الله:

«وبعد، فإنى طالما تعهدت تلاوة القرآن، وتدبرت معانيه بقوة الإيمان، وكنت مع المواظبة على الأوراد، حرج الصدر، قلق الفؤاد، لا ينشرح بها قلبى ولا يصرفنى عنها ربى، حتى استأنست بها فألفتها، وذقت حلاوة كأسها وشربتها، فإذا أنا بها نشيط النفس، فلج الصدر، متسع البال، منبسط القلب، فسيح السر، طيب الوقت والحال، مسرور الروح بذلك الفتوح، كأنه دائمًا فى غبوق وصبوح، تنكشف لى تحت كل آية من المعانى ما يكل بوصفه لسانى، لا القدرة تفى بضبطها وإحصائها، ولا القدرة تصبر عن نشرها وإفشائها، فتذكرت خبر من أتى ما ازدهانى، مما وراء المقاصد والأمانى، قول النبى الأمى الصادق عليه أفضل الصلوات من كل صامت وناطق: «ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، ولكل حرف حد ولكل حد مطلع» وفهمت منه أن الظهر: هو التفسير، والبطن: هو التأويل، والحد: ما يتناهى إليه المفهوم من معنى

الكلام، والمطلع ما يصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام، وقد نقل عن الإمام المحقق السابق جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: لقد تجلى الله لعباده فى كلامه، ولكن لا يبصرون، وروى عنه عليه السلام أنه خر مغشيّا عليه وهو فى الصلاة فسئل عن ذلك فقال: ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها. . . فرأيت أن أعلق بعض ما يسنح لى فى الأوقات من أسرار حقائق البطون وأنوار شوارق المطلعات، دون ما يتعلق بالظواهر والحدود، فإنه قد عين لها حد محدد، وقيل: من فسر برأيه فقد كفر، وأما التأويل فلا يتقى ولا يذر؛ فإنه يختلف بحسب أحوال المستمع وأوقاته، فى مراتب سلوكه وتفاوت درجاته، وكلما ترقى عن مقامه انفتح له باب فهم جديد، واطلع به على لطيف معنى عتيد، فشرعت فى تسويد هذه الأوراق بما عسى يسمح به الخاطر على سبيل الاتفاق، غير حائم بقيعة التفسير، ولا خائض فى لجة من المطلعات ما لا يسعه التقرير، مراعيًا لنطق الكتاب وترتيبه، غير معيد لما تكرر منه أو تشابه فى أساليبه، وكل ما لا يقبل التأويل عندى، أو لا يحتاج إليه فما أوردته أصلاً، ولا أزعم أنى بلغت الحد فيما أوردته كاملاً فإن وجوه الفهم لا تنحصر فيما فهمت، وعلم الله لا يتقيد بما علمت، ومع ذلك فما وقف الفهم منى على ما ذكر فيه، بل ربما لاح لى فيما كتب من الوجوه ما تهت فى محاويه، وما يمكن تأويله من الأحكام الظاهر منها إرادة ظاهرها فما أولته إلا قليلاً، ليعلم به أن للفهم إليه سبيلاً، ويستدل بذلك على نظائرها إن جاوز عن ظواهرها، إذ لم يكن فى تأويلها بد من تعسف، وعنوان المروءة ترك التكلف وعسى أن يتجه لغيرى وجوه أحسن منها طوع القياد، فإن ذلك سهل لمن تيسر له من أفراد العباد، ولله تعالى فى كل كلمة كلمات ينفد البحر دون نفادها، فكيف السبيل إلى حصرها وتعدادها، ولكنها أنموذج لأهل الذوق والوجدان يحتذون على حذوها عند تلاوة القرآن فينكشف لهم ما استعدوا له من مكنونات علمه، ويتجلى عليهم ما استطاعوا له من خفيات غيبه، والله الهادى لأهل المجاهدة، إلى سبيل المكاشفة والمشاهدة، ولأهل الشوق إلى مشارب الذوق، إنه ولى التحقيق، وبيده التوفيق»(١).

---

(١) جـ١ ص ٣ - ٥.

فمن هذه المقدمة يمكنك أن تحكم على الكاشانى بأنه صوفى لا باطنى، كما أنك تجد فيها منهجه الذى سار عليه فى تفسيره، ولو تصفحت الكتاب لوجدت أنه سار على الطريقة التى رسمها لنفسه ولم يحد عنها، وإليك نماذج منه.

نماذج من التفسير الإشارى:

فى سورة البقرة عند قوله تعالى فى الآية (١٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ يقول ما نصه: «وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا الصدر الذى هو حرم القلب، بلدًا آمنا من استيلاء صفات النفس، واغتيال العدو اللعين، وتخطف جن القوى البدنية أهله، وارزق أهله من ثمرات معارف الروح أو حكمه أو أنواره ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ من وحد الله منهم وعلم المعاد ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ أى ومن احتجب أيضًا من الذين سكنوا الصدر، ولا يجاوزون حده بالترقى إلى مقام العين، لاحتجابهم بالعلم الذى وعاؤه الصدر، ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ من المعانى العقلية، والمعلومات الكلية، النازلة إليهم من عالم الروح على قدر ما تعيشوا به، ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ﴾ نار الحرمان والحجاب ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ مصيرهم لتعذبهم بنقصانهم، وتألمهم بحرمانهم»(١).

وفى سورة الأنعام عند قوله تعالى فى الآية (٩٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ يقول ما نصه: (إن الله فالق حبة القلب بنور الروح عن العلوم والمعارف، ونوى النفس بنور القلب عن الأخلاق والمكارم، ويخرج حى القلب عن ميت النفس تارة باستيلاء نور الروح عليها، ومخرج ميت النفس عن حى القلب أخرى بإقباله عليها، واستيلاء الهوى وصفات النفس عليه، ذلكم الله القادر على تقليب أحوالكم، وتقليبكم فى أطواركم، فأنى تصرفون عنه إلى غيره»(٢).

---

(١) جـ١ ص ٥٧.

(٢) جـ١ ص ٢١٥.

نماذج التفسير المبنى على وحدة الوجود:

فى سورة آل عمران عند قوله تعالى فى الآية (١٩١) ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ يقول: «ربنا ما خلقت هذا الخلق باطلاً، أى شيئًا غيرك، فإن غير الحق هو الباطل، بل جعلته أسماءك ومظاهر صفاتك، سبحانك: ننزهك أن يوجد غيرك أى يقارن شىء فردانيتك، أو يثنى وحدانيتك. . .»(١).

وفى سورة الواقعة عند قوله تعالى فى الآية (٥٧) ﴿**نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ**﴾ يقول: «نحن خلقناكم بإظهاركم بوجودنا وظهورنا فى صوركم»(٢).

وفى سورة الحديد عند قوله تعالى فى الآية (٤) ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ يقول: «وهو معكم أينما كنتم بوجودكم به، وظهوره فى مظاهركم»(٣).

وفى سورة المجادلة عند قوله تعالى فى الآية (٧) ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ...**﴾ الآية، يقول: «لا بالعدد والمقارنة، بل بامتيازهم عنه بتعيناتهم، واحتجابهم عنه بماهياتهم ونياتهم، وافتراقهم منه بالإمكان اللازم لماهياتهم وهوياتهم، وتحققهم بوجوبه اللازم لذاته، واتصاله بهم بهويته المندرجة فى هوياتهم، وظهوره فى مظاهرهم، وتستره بماهياتهم ووجوداتهم المشخصة، وإقامتها بعين وجوده، وإيجابهم بوجوبه، فبهذه الاعتبارات هو رابع معهم، ولو اعتبرت الحقيقة لكان عينهم؛ ولهذا قيل: لولا الاعتبارات لارتفعت الحكمة»(٤).

وفى سورة المزمل عند قوله تعالى فى الآيتين (٨، ٩) ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ⑧ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**﴾ يقول: «واذكر اسم ربك الذى هو أنت، أى اعرف نفسك، واذكرها، ولا تنسها، فينسك الله، واجتهد لتحصيل كمالها بعد معرفة حقيقتها. . . ﴿**رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**﴾ أى الذى ظهر عليك نوره، فطلع من أفق وجودك بإيجادك، أو المغرب الذى اختفى بوجودك، وغرب نوره فيك واحتجب بك»(٥).

هذه بعض النماذج التى تكشف لك عن روح هذا التفسير، ولو أنك تصفحت هذا الكتاب لوجدته يقوم فى الغالب على مذهب صاحبه فى وحدة الوجود، ولعل هذا هو

---

(١) جـ١ ص ١٤١. (٢) جـ٢ ص ٢٩١. (٣) جـ٢ ص ٢٩٤.
(٤) جـ٢ ص ٣٠٠. (٥) جـ٢ ص ٣٥٢.

السر الذى من أجله نسب الكتاب لابن عربى؛ فإن ابن عربى يقول بوحدة الوجود، ويبنى كثيرًا من تفسيره لبعض الآيات على هذا المذهب، فلاتحاد المذاهب وتشابه التفسير وقع الالتباس، فنسب التفسير لابن عربى، أو قصدت النسبة ليروج الكتاب كما قلنا، وأمن من فعل ذلك من افتضاح أمره؛ اعتمادًا على الاتحاد فى المذهب، والتشابه فى التفسير.

وإذ قد جرنا الحديث إلى ابن عربى، فأرى إتمامًا للفائدة أن أذكر نبذة عن حياة هذا الرجل، وعن مذهبه فى التفسير، وليقف القارئ بعد ذلك على مقدار التشابه بين ابن عربى والكاشانى فى فهم كتاب الله تعالى، والكشف عن معانيه.

ابن عربى ومذهبه فى تفسير القرآن الكريم

ترجمة ابن عربى(١):

هو أبو بكر محيى الدين محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمى، الطائى، الأندلسى، المعروف بابن عربى بدون أداة التعريف، كما اصطلح على ذلك أهل المشرق، فرقًا بينه وبين القاضى أبى بكر بن العربى صاحب أحكام القرآن، وكان بالمغرب يعرف بابن العربى بالألف واللام، كما كان يعرف فى الأندلس بابن سراقة.

ولد بِمَرْسية سنة ٥٦٠هـ ستين وخمسمائة من الهجرة ثم انتقل إلى إشبيلية سنة ٥٦٨هـ ثمان وستين وخمسمائة، وبقى بها نحوًا من ثلاثين عامًا، تلقى فيها العلم على كثير من الشيوخ حتى ظهر نجمه، وعلا ذكره، وفى سنة ٥٩٨هـ ثمان وتسعين وخمسمائة، نزح إلى المشرق وطوف فى كثير من البلاد؛ فدخل الشام، ومصر، والموصل، وآسيا الصغرى، ومكة، وأخيرًا ألقى عصاه واستقر به النوى فى دمشق، وتوفى بها فى سنة ٦٣٨هـ ثمان وثلاثين وستمائة، ودفن بها، فرحمه الله رحمه واسعة.

---

(١) رجعنا فى هذه الترجمة لترجمته المذكورة فى آخر الفتوحات، وهى ملخصة من نفح الطيب، وإلى شذرات الذهب (٥/ ١٩١)، وإلى دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول، العدد الثالث، ودائرة المعارف للبستانى المجلد الأول ص ٥٩٩.

ابن عربى بين أعدائه ومريديه:

كان ابن عربى شيخ المتصوفة فى وقته، وكان له أتباع ومريدون، يعجبون به إلى حد كبير، حتى لقبوه فيما بينهم بالشيخ الأكبر، والعارف بالله، كما كان له أعداء ينقمون عليه، ويرمونه بالكفر والزندقة، وذلك لما كان يدين به من القول بوحدة الوجود، ولما كان يصدر عنه من المقالات الموهمة، التى تحمل فى ظاهرها كل معانى الكفر والزندقة، فمن المعجبين بابن عربى: قاضى القضاة مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى الفيروزآبادى صاحب القاموس، وقد كتب كتابًا يدافع فيه عنه، ردًّا على رضى الدين بن الخياط الذى كتب عن عقيدة ابن عربى ورماه بالكفر، وكمال الدين الزملكانى، من أكابر مشايخ الشام، والشيخ صلاح الدين الصفدى، والحافظ السيوطى، الذى ألف فى الدفاع عنه كتابًا سماه (تنبيه الغبى على تنزيه ابن عربى) وسراج الدين البلقينى، وتقى الدين بن السبكى، وغيرهم.

ومن الناقمين عليه: ابن الخياط السابق ذكره، والحافظ الذهبى، وابن تيمية عدو الصوفية على الإطلاق[(١)]، ولقد بلغ من عدواة بعض الناس لابن عربى أنهم حاولوا اغتياله بمصر، ولكن الله سلمه وأنجاه.

مكانته العلمية:

لم تقتصر براعة ابن عربى على التصوف، بل برع مع ذلك فى كثير من العلوم، فكان عارفًا بالآثار والسنن، أخذ الحديث عن جمع من علمائه، وكان شاعرًا وأديبًا، ولذلك كان يكتب الإنشاء لبعض ملوك المغرب، وقد بلغ مبلغ الاجتهاد والاستنباط، وتأسيس القواعد والمقاصد التى لا يحيط بها إلا من طالعها، ووقف على حقيقتها، ويقال إنه كان من أنصار مواطنه ابن حزم ومذهبه الظاهرى، ولكنه مع ذلك أبطل التقليد.

مذهب ابن عربى فى وحدة الوجود:

أما مذهبه فى وحدة الوجود فهو: أنه يرى أن الوجود حقيقة واحدة، ويعد التعدد والكثرة أمرًا قضت به الحواس الظاهرة «وقد أداه قوله بوحدة الوجود إلى قوله بوحدة الأديان، لا فرق بين سماويها وغير سماويها، إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلى فى

(١) وللإمام البقاعى فى تكفيره ابن عربى كتاب مستقل. (د/ مصطفى الذهبى).

صورهم، وصور جميع المعبودات، والغاية الحقيقية من عبادة العبد لربه: هو التحقق من وحدته الذاتية معه، وإنما الباطل من العبادة: أن يقصر العبد ربه على مجلى واحد دون غيره، ويسميه إلهًا»(١).

«وبالجملة، فمنزلة ابن عربى العلمية كبيرة، ولا أدل على ذلك من مؤلفاته الكثيرة التى تدل على سعة باعه، وتبحره فى العلوم الظاهرة والباطنة، وقد بلغ ما بقى منها إلى اليوم مائة وخمسون كتابًا، ويظهر أن هذا العدد ليس إلا نصف ما ألفه ابن عربى فى الواقع»(٢) وأهم هذه المؤلفات: الفتوحات المكية، الذى ذاع صيته، وكلف به كثير من الرجال، ثم فصوص الحكم، وله ديوان فى الأشعار الصوفية، وكتاب الأخلاق، وكتاب مجموع الرسائل الإلهية، وغير ذلك من مؤلفاته الكثيرة.

غير أن هذه المؤلفات، يوجد فى تضاعيفها كثير من الكلمات المشكلة، التى سببت خوض الناس فى عقيدته، ورميهم إياه بالكفر والزندقة، ولكن أتباعه ومريديه ومن أعجب به من العلماء لم يأخذوا هذه الألفاظ على ظواهرها بل قالوا: إن ما أوهمته تلك الظواهر ليس هو المراد، وإنما المراد أمور اصطلح عليها متأخرو أهل الطريق غيرة عليها، حتى لا يدعيها الكذابون، وقد قال السيوطى فى كتابه «تنبيه الغبى على تنزيه ابن عربى»: «والقول الفصل فى ابن عربى: اعتقاد ولايته، وتحريم النظر فى كتبه؛ فقد نقل عنه هو أنه قال: نحن قوم يحرم النظر فى كتبنا، قال السيوطى: وذلك لأن الصوفية تواضعوا على ألفاظ اصطلحوا عليها، وأرادوا بها معانى غير المعانى المتعارفة، فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر كفر، نص على ذلك الغزالى فى بعض كتبه وقال: إنه شبيه بالمتشابهه من القرآن والسنة، من حمله على ظاهره كفر»(٣).

ومما استدلوا به على أن ابن عربى لا يريد الظاهر الموهم من كلامه: ما يروونه عنه من أنه أنشد بعض إخوانه هذا البيت وهو من نظمه:

يا من يرانى ولا أراه كم ذا أراه ولا يرانى

---

(١) هامش دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول ص ٢٣٣.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول ص ٢٣٦.
(٣) شذرات الذهب (٥ ص ١٩١).

فاعترض عليه السامع وقال: كيف تقول إنه لا يراك، وأنت تعلم أنه يراك؟! فقال مرتجلاً:

يا من يراني مجرمًا ولا أراه آخذا
كم ذا أراه منعمًا ولا يراني لائذًا[١]

قالوا: فهذا يدل على أن كلام الشيخ لا يراد به ظاهره، وإنما له محامل تليق به.

ومن العلماء من ينزه ابن عربى عن هذه العبارات الموهمة ويقول: إن ما جاء من ذلك فهو مدسوس عليه، ويروون فى ذلك أن الشعرانى الذى اختصر الفتوحات قال: «وقد توقفت حال الاختصار فى مواضع كثيرة منه، لم يظهر لى موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة، فحذفتها من هذا المختصر، وربما سهوت فتبعت ما فى الكتاب، كما وقع للبيضاوى مع الزمخشرى، ثم لم أزل كذلك أظن أن المواضع التى حذفت ثابتة عن الشيخ محيى الدين، حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين السيد محمد ابن السيد أبى الطيب المدنى المتوفى سنة ٩٥٥هـ فذاكرته فى ذلك، فأخرج إلى نسخة من الفتوحات التى قابلها على النسخة التى عليها خط الشيخ محيى الدين نفسه بقونية، فلم أر فيها شيئًا مما توقفت فيه وحذفته، فعلمت أن النسخ التى فى مصر الآن كلها كتبت من النسخة التى دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة، كما وقع له ذلك فى كتاب الفصوص وغيره»[٢].

ومهما يكن من شيء، فابن عربى معقد فى أفكاره، موهم فى ألفاظه وتعابيره، مشكل فى أكثر ما يقول، ومع كل هذا فلا أتهمه فى عقيدته، لجهلى باصطلاحات القوم ورموزهم، وكلمة الإنصاف فيه ـ كما أعتقد ـ قول الحافظ الذهبى عنه «وله توسع فى الكلام، وذكاء، وقوة خاطر، وحافظة، وتدقيق فى التصوف وتآليفه جمة فى العرفان، ولولا شطحه فى الكلام لم يكن به بأس»[٣].

---

(١) ترجمة المؤلف الموجودة بخاتمة الفتوحات (٤/ ٥٥٧).
(٢) خاتمة الفتوحات ص ٥٥٥.
(٣) دائرة المعارف للبستانى ص ٥٩٩.

مذهب ابن عربى فى تفسير القرآن الكريم:

يقوم مذهب ابن عربى فى التفسيـر غالبًا على نظرية وحدة الوجود التى يدين بها، وعلى الفيوضات والوجدانيات التى تنهل عـليه من سحائب الغيب الإلهى، وتنقذف فى قلبه من ناحية الإشراق الربانى.

أما من الناحـية الأولى: ناحية التأثر بمذهب وحدة الـوجود، فإنا نراه فى كثير من الأحيان يتعسف فى التأويل، ليجعل الآية تتمشى مع هذه النظرية، وهذا ـ فيما أعتقد ـ منهج كله شر فى التفسير، فهو يبـدل فيما أراد الله من آياته، ويقسرها على أن تتضمن مذهبـه، وتكون أسانيـد له، وهذا ليس من شأن المـفسر المنصف، الـذى يبحث فى القرآن بحثًا مجردًا عن الهوى والعقيدة.

وأما من الناحية الثانية: ناحية الفيض الإلهى، فهو واسع الباع فيها، وقد مرت بك مقالته فى التفسير الإشارى، ورأيت كيف ادعى أن كل ما يجرى على لسان أهل الحقيقة من المعانى الإشارية فى القرآن هو فى الحقيقة تفسير وشرح لمراد الله، وإنما عبر عنها بالإشارة، تقية من أهل الظاهر، ورأيت كـيف ادعى أن أهل الله ـ وهم الصوفية ـ أحق الناس بشرح كتابه؛ لأنهم يتلقون علومهم عن الله، فهم يقولون فى القرآن على بصيرة، أما أهل الظاهر فيقولون بالظن والتخمين.

ثم هو لا يرى فرقًـا بين القرآن نفسه، وبين تفـسير أهل الله له، من ناحـية أن كلا منهما حق ثابت، وصـدق لا يعتريه شك، فإذا كان القـرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه من عند الله، فـكذلك أقوال أهل الحقـيقة فى التفـسير، لا يأتيـها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، لأنها منزلة على قلوبهم من عند الله.

يقرر ابن عربى كل هذه المبادئ، ويصرح بها فى فتوحاته، وأنا لا زلت واقفًا عند رأيى الذى قررته آنفًا، وهو: أن دعوى الفـيض والإلهام لا يصح أن تكون أصلاً يحكم به على كتاب الله تعالى.

هذا. . . وإن ابن عـربى لم نظفر له، بكتـاب فى التفسيـر، ولكن نجد صـاحب كشف الظنون يقول: إنه «صنَّف تفـسيرًا كبيرًا على طريقة أهـل التصوف فى مجلدات، قيل: إنه فى ستين سـفرًا، وهو إلى سورة الكهف، وله تفسير صغيـر فى ثمانية أسفار

علىٰ طريقة المفسرين»(١) وإذا كنا لم نظفر بهذين الكتابين، فإنا قد ظفرنا بما فيه بعض الكفاية عنهما، وهو تفسيره لبعض الآية التى وجدناها متفرقة فى غضون مؤلفاته، كالفصوص، والفتوحات، إليك بعضًا منها لتكون على بصيرة، ولتطمئن إلى حكمى على الرجل فى شرحه لكتاب الله تعالى.

نماذج من التفسير الصوفى النظرى:

فى سورة نوح عند قوله تعالى فى الآية (٢٥) ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ يقول: «﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ فهى التى خطت بهم فغرقوا فى بحار العلم بالله وهو الحيرة ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ فى عين الماء... ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه إلى الأبد»(٢).

وعند قوله فى الآيتين (٢٧، ٢٨) من سورة نوح أيضًا: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ يقول ما نصه: «﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ أى تدعهم وتتركهم ﴿يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾: أى يحيروهم فيخرجوهم من العبودية إلى ما فيهم من أسرار الربوبية، فينظروا أنفسهم أربابا، بعدما كانوا عبيدًا، فهم العبيد الأرباب ﴿وَلَا يَلِدُوا﴾ أى لا ينتجوا ولا يظهروا ﴿إِلَّا فَاجِرًا﴾: أى مظهرًا ما ستر ﴿كَفَّارًا﴾ أى ساترًا ما ظهر بعد ظهوره، فيظهرون ما ستر فيهم، ثم يسترونه بعد ظهوره، فيحار الناظر، ولا يعرف قدر الفاجر فى فجوره، ولا الكافر فى كفره، والشخص واحد ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي﴾ أى استرنى واستر من أجلى، فيجهل مقامى وقدرى، كما جهل قدرك ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (الزمر: ٦٧) ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ كنت نتيجة عنهما، وهما العقل والطبيعة ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ أى قلبى ﴿مُؤْمِنًا﴾ أى مصدقا بما يكون فيه من الإخبارات الإلهية وهو ما حدثت به أنفسهم ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ من العقول ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ من النفوس ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ من الظلمات أهل الغيب المكتنفين خلف الحجب الظلمانية ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ أى هلاكًا، فلا يعرفون نفوسهم وشهودهم وجه الحق دونهم»(٣).

---

(١) كشف الظنون (١/ ٢٣٣).
(٢) فصوص الحكم (١/ ٢١٩).
(٣) الفصوص (١/ ١٢٣).

وفى سورة النساء عند قوله تعالى فى الآية (٨٠) ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ يقول: «لأنه لا ينطق إلا عن الله، بل لا ينطق إلا بالله، بل لا ينطق إلا الله منه فإنه صورته»(١).

نماذج من التفسير الإشارى:

فى سورة الأعراف عند قوله تعالى فى الآيتين (٥٧، ٥٨) ﴿وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نراه يذكر: أنه لما أدركته الفطرة التى لا بد منها لكل داخل فى الطريق، وتحكمت فيه، رأى الحق سبحانه، فتلا عليه هاتين الآيتين، قال: فعلمت أنى المراد بهذه الآية، وقلت: ينبه بما تلاه علينا على التوفيق الأول الذى هدانا الله به على يد عيسى وموسى ومحمد سلام الله عليهم جميعهم؛ فإن رجوعنا إلى هذا الطريق، كان بمبشرة على يد عيسى، وموسى ومحمد عليهم السلام ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ﴾ وهى العناية بنا ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً﴾ وهو ترادف التوفيق ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ وهو أنا ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (فاطر: ٩) وهو ما ظهر علينا من أنوار القبول، والعمل الصالح، والتعشق به، ثم مثل فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يشير بذلك إلى خبر ورد عن النبى ﷺ فى البعث - أعنى حشر الأجسام - من أن الله يجعل السماء تمطر مثل منى الرجال... الحديث، ثم قال ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ وليس سوى الموافقة والسمع والطاعة لطهارة المحل ﴿وَالَّذِى خَبُثَ﴾ وهو الذى غلبت عليه نفسه والطبع، وهو معتنى به فى نفس الأمر ﴿لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾ مثل قوله: إن لله عبادًا يقادون إلى الجنة بالسلاسل، وقوله فى الآية (١٥) من سورة الرعد ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾) فقلنا: طوعًا يا إلهنا(٢).

وفى سورة الحج عند قوله تعالى فى الآيتين (٣٢، ٣٣) ﴿مَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ نجده

(١) الفتوحات (٤/ ١٢٢).
(٢) الفتوحات (٤/ ١٧٢).

يفسر ﴿شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ فيقول: «شعائر الله أعلامه، وأعلامه الدلائل الموصلة إليه» ويفسر قوله ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فيقول: «﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وهو بيت الإيمان عند أهل الإشارات، وليس إلا قلب المؤمن الذى وسع عظمة الله وجلاله»[(١)].

وفى سورة لقمان عند قوله تعالى فى الآية (١٦) ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ الآية، نجده يفسر قوله تعالى ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ فيقول: «أى عند ذى قلب قاس لا شفقة له على خلق الله، قال تعالى فى الآية (٧٤) من سورة البقرة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً...﴾»[(٢)].

نماذج من التفسير الظاهر:

فى سورة الأنعام عند قوله تعالى فى الآية (١٥٣) ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: «﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ فأضافه إليه، ولم يقل صراط الله، ووصفه بالاستقامة... ثم قال: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ الضمير يعود على صراطه ﴿وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ يعنى شرائع من تقدمه ومناهجهم من حيث ما هى شرائع لهم، إلا إن وجد حكم فيها شرعى فاتبعوه من حيث ما هو شرع لنا لا من حيث ما كان شرعًا لهم ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ يعنى تلك الشرائع ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ أى عن طريقه الذى جاء به محمد ﷺ، ولم يقل عن سبيل الله: لأن الكل سبيل الله؛ إذ كان الله غايتها ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أى تتخذون تلك السبيل وقاية تحول بينكم وبين المشى على غيره...»[(٣)].

وهذا تفسير مقبول، لجريانه على مقتضى الظاهر من الآية، ولكن نجد صاحبنا أحيانًا يشطح فى فهمه لظاهر الآيات شطحات لا نستطيع أن نسلمها له على ظاهرها، وإنما أقول على ظاهرها، لأنه ربما كان يعنى من وراء هذا الظاهر معنى لا غبار عليه، أراده هو، وجهلته أنا، فمن ذلك أنه يقول: «اعلم ـ وفقك الله ـ أن الله أخبر عن نبيه ورسوله ﷺ فى كتابه أنه قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (هود: ٥٦) فوصف نفسه بأنه على صراط مستقيم، وما أخطأ هذا الرسول فى هذا القول، ثم إنه ما قال ذلك إلا

---

(١) الفتوحات (٤/ ١٠٩).
(٢) الفتوحات (٤/ ١١٤).
(٣) الفتوحات (٢/ ٢١٧).

بعد قوله: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ (هود: ٥٦) فما ثم إلا من هو مستقيم على الحقيقة على صراط الرب، لأنه ما ثم إلا من الحق آخذ بناصيته، ولا يمكن إزالة ناصيته من يد سيده وهو على صراط مستقيم، ونكر لفظ دابة فهم، فأين المعوج حتى نعدل عنه؟ فهذا جبر، وهذه استقامة، فالله يوفقنا فى إنزال كل حكمة فى موضعها...».

هذه بعض النماذج من تفسير ابن عربى، ومنها تستطيع أن تحكم على فهمه لمعانى القرآن، كما تستطيع أن تقارن بينها وبين ما فى تأويلات الكاشانى، المنسوبة لابن عربى، لتقف على مقدار التشابه بين التفسيرين، وتأثر كل منهما بعقيدته فى وحدة الوجود.

وبعد... فهذا هو تفسير الصوفية، وهؤلاء هم أهمُّ مفسريه، وهذه هى أهم الكتب المؤلفة فيه ولعلى أكون قد أوفيت البحث حقه، وألممت بالموضوع من جميع نواحيه.

* * *

الفصل السادس

تفسير الفلاسفة

كيف وجدت الصلة بين التفسير والفلسفة:

فى إيان شوكة الملة الإسلامية ترجمت كتب الفلسفة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، ويرجع الفضل الأكبر فى هذا العمل إلى العباسيين وحدهم؛ إذ أنهم نظموا الترجمة الإسلامية وشجعوها.

بدأ المنصور هذه الحركة المباركة، وتعهدها أبناؤه وأحفاده من بعده، وبلغ بها المأمون خاصة القمة، وأضحت بغداد كعبة علمية يحج إليها الطلاب من كل مكان.

ولكى يحقق العباسيون غايتهم استخدموا طائفة من الفرس والهنود والصابئة والمسيحين، الذين كانوا على اتصال وثيق بالدراسات القديمة، فنقلوا إلى اللغة العربية كتب فلاسفة اليونان، والهند، والفرس، وغيرهم، ثم أذيعت هذه الكتب بين المسلمبن، فقرأوها قراءة النهم المتعطش لهذا النوع من العلم الذى لم يكن لهم به عهد من قبل.

قرأ بعض المسلمين هذه الكتب الفلسفية، فلم يرقهم أكثر ما فيها من نظريات وأبحاث؛ لأنهم وجدوها تتعارض مع الدين، ولا تتفق معه بحال من الأحوال، فكرسوا حياتهم للرد عليها، وتنفير الناس منها، وكان على رأس هؤلاء: الغزالى، والفخر الرازى، الذى تعرض فى تفسيره لنظريات الفلاسفة التى تبدو فى نظره متعارضة مع الدين، ومع القرآن على الأخص، فردها وأبطلها بمقدار ما أسعفته الحجة، وانقاد له الدليل.

وقرأ بعض المسلمين هذه الكتب فأعجبوا بها إلى حد كبير، رغم ما فيها من نظريات تبدو متعارضة مع نصوص الشرع القويم، وتعاليمه التى لا يلحقها الشك، ولا تحوم حولها الشبهة... نعم أعجبوا بها رغم هذا، لأنهم وجدوا أن فى مقدورهم أن يوفقوا بين الحكمة والعقيدة، أو بين الفلسفة والدين، وأن يبينوا للناس أن الوحى لا

يناقض العقل فى شىء، وأن العقيدة إذا استنارت بضوء الحكمة تمكنت من النفوس، وثبتت أمام الخصوم... رأوا أن هذا فى مقدورهم، فبذلوا كل ما يستطيعون من حلول ليصلوا الفلسفة بالدين، ويؤاخوا بينهما، حتى يصبح الدين فلسفة، والفلسفة دينًا، وفعلاً وصل فلاسفة المسلمين إلى هذا التوفيق، ولكنه توفيق إن أرضى بعض المسلمين فقد أغضب الكثير منهم؛ ذلك لأنهم لم يصلوا فى توفيقهم إلا إلى حلول وسطى، صوروا فيها التعاليم الدينية تصويرًا يبعد كثيرًا عن الصور الثابتة المأثورة، ومثل هذه الحلول لا تصلح للتوفيق بين جانبين متقابلين وطرفين متنافرين؛ ولذلك لم يجد الغزالى ومن لف لفه صعوبة فى الرد على هؤلاء الفلاسفة الموفقين، وإبطال محاولاتهم، التى ظنوا أنهم أرضوا بها رجال الدين الواقفين عند حدوده وتعاليمه.

كيف كان التوفيق بين الدين والفلسفة:

ثم إن الفلاسفة الموفقين بين الدين والفلسفة، كانت لهم طريقتان يسيرون عليهما فى توفيقهم:

أما الطريق الأولى: فهى طريقة التأويل للنصوص الدينية والحقائق الشرعية، بما يتفق مع الآراء الفلسفية، ومعنى هذا إخضاع تلك النصوص والحقائق إلى هذه الآراء حتى تسايرها وتتمشى معها.

وأما الطريقة الثانية: فهى شرح النصوص الدينية والحقائق الشرعية بالآراء والنظريات الفلسفية، ومعنى هذا أن تطغى الفلسفة على الدين وتتحكم فى نصوصه، وهذه الطريقة أخطر من الأولى، وأكثر شرّا منها على الدين.

الأثر الفلسفى فى تفسير القرآن الكريم:

مما تقدم يتضح لك أن علماء المسلمين لم يكونوا جميعًا على مبدأ واحد بالنسبة للآراء الفلسفية، بل وجد منهم من وقف منها موقف الرفض وعدم القبول، كما وجد منهم من وقف موقف الدفاع عنها والقبول لها، وكان من هؤلاء وهؤلاء أثر ظاهر فى تفسير القرآن الكريم.

أما الفريق المعاند للفلسفة: فإنه لما فسر القرآن اصطدم بهذه النظريات الفلسفية، فرأى من واجبه كمفسر أن يعرض لهذه النظريات ويمزجها بالتفسير، إما على طريق

الدفاع عنها وبيان أنها لا تتعارض مع نصوص القرآن، وذلك بالنسبة للنظريات الصحيحة عنده، والمسلمة لديه، وإما على طريق الرد عليها، وبيان أنها لا يمكن أن تساير نصوص القرآن، وذلك بالنسبة للنظريات التى لا يسلمها ولا يقول بها.

وهو فى الحالة الأولى يشرح القرآن على ما يوافق هذه النظريات التى لا يراها متعارضة مع الدين، وفى الحالة الثانية لا يمشى على ضوء النظريات الفلسفية فى تفسيره، بل يفسر النصوص على ضوء الدين والعقل وحدهما، دون أن يكون للرأى الفلسفى دخل فى شرح النص القرآنى وبيان معناه، وممن فعل هذا فى تفسيره: الإمام فخر الدين الرازى، ودونك التفسير فسترى فيه ما ذكرته.

وأما الفريق المسالم للفلسفة: المصدق بكل ما فيها من نظريات وآراء فإنه لما فسر القرآن سلك طريقًا كله شر وضلال، إذ أنه وضع الآراء الفلسفية أمام عينيه، ثم نظر من خلالها إلى القرآن، فشرح نصوصه على حسب ما تمليه عليه نزعته الفلسفية المجردة من كل شىء إلا من التعصب الفلسفى... وأخيرًا وجدنا أنفسنا أمام شروح لبعض آيات القرآن، هى فى الحقيقة شروح لبعض النظريات الفلسفية، قصد بها تدعيم الفلسفة وخدمتها على حساب القرآن الكريم، الذى هو أصل الدين ومنبع تعاليمه

من تفسير الفارابى:

فمن هذه الروح التى طغت عليها الفلسفة، ما تجده للفارابى المتوفى سنة ٣٣٩هـ تسع وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة فى كتابه فصوص الحكم، من تفسيره لبعض الآيات والحقائق التى جاء بها القرآن تفسيرًا فلسفيًّا بحتًا، فمن ذلك أنه يفسر الأولية والآخرية الواردة فى قوله تعالى فى الآية (٣) من سورة الحديد ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾ تفسيرًا أفلوطونيًّا مبنيًّا على القول بقدم العالم فيقول: إنه «الأول من جهة أنه منه ويصدر عنه كل موجود لغيره، وهو أول من جهة أنه بالوجود لغاية قربة منه، أول من جهة أن كل زمانى ينسب إليه بكون، فقد وجد زمان لم يوجد معه ذلك الشىء، ووجد إذ وجد معه لا فيه، هو أول؛ لأنه إذا اعتبر كل شىء كان فيه أولاً أثره، وثانيًا قبوله لا بالزمان، هو آخر؛ لأن الأشياء إذا لوحظت ونسبت إليه أسبابها ومباديها وقف عنده المنسوب، فهو آخر لأنه الغاية الحقيقية

فى كل طلب، فالغاية مثل السعادة فى قولك: لم شربت الماء؟ فتقول: لتغيير المزاج، فيقال: ولم أردت أن يتغير المزاج؟ فتقول: للصحة، فيقال: لم طلبت الصحة؟ فتقول: للسعادة والخير، ثم لا يورد عليه سؤال يجب أن يجاب عنه؛ لأن السعادة والخير يطلب لذاته لا لغيره... فهو المعشوق الأول، فلذلك هو آخر كل غاية، أول فى الفكرة آخر فى الحصول، هو آخر من جهة أن كل زمان يتأخر عنه، ولا يوجد زمان متأخر عن الحق...»(١).

ويشرح الظاهر والباطن الوارد فى قوله تعالى فى الآية (٣) من سورة الحديد أيضًا ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ فيقول: «لا وجود أكمل من وجوده، فلا خفاء به من نقص الوجود، فهو فى ذاته ظاهر، ولشدة ظهوره باطن، وبه يظهر كل ظاهر كالشمس تظهر كل خفى وتستبطن لا عن خفاء»(٢).

كما يشرح هذه الجملة مرة أخرى فيقول: «هو باطن لأنه شديد الظهور غلب ظهوره على الإدراك فخفى، وهو ظاهر من حيث إن الآثار تنسب إلى صفاته، وتجب عن ذاته فتصدق بها...»(٣).

ويفسر الوحى بقوله: (والوحى لوح من مراد الملك للروح الإنسانية بلا واسطة، وذلك هو الكلام الحقيقى، فإن الكلام إنما يراد به تصوير ما يتضمنه باطن المخاطب فى باطن المخاطب ليصير مثله، فإذا عجز المخاطب عن مس باطن المخاطب بباطنه مس الخاتم الشمع فيجعله مثل نفسه، اتخذ فيما بين الباطنين سفيراً من الظاهرين، فتكلم بالصوت أو كتب أو أشار، وإذا كان المخاطب لا حجاب بينه وبين الروح اطلع عليه اطلاع الشمس على الماء الصافى فانتقش منه، لكن المنتقش فى الروح من شأنه أن يسبح إلى الحس الباطن إذا كان قويًا، فينطبع فى القوة المذكورة فيشاهد، فيكون الموحى إليه يتصل بالملك باطنه، ويتلقى وحيه الكلى بباطنه...)(٤).

(١) فصوص الحكم ص ١٧٤ - ١٧٥ ضمن المجموع من مؤلفات أبى نصر الفارابى.
(٢) فصوص الحكم ص ١٧٠.
(٣) فصوص الحكم ص ١٧٢ - ١٧٣.
(٤) فصوص الحكم ص ١٦٣.

كمـا يشرح المـلائكة بأنها «صـورة علميـة، جواهرها علوم إبداعـية قـائمة بذواتهـا، تلحظ الأمر الأعلى فـينطبع فى هويتهـا ما تلحظ، وهى مطلقـة، لكن الروح القدسية تخاطبها فى اليقظة، والروح البشرية تعاشرها فى النوم»(١).

من تفسير إخوان الصفا:

ومن الشروح الفلسفـية للقرآن أيضًا ما نجده فى رسائـل إخوان الصفا، الذين لا زلنا نجهل الكثـير عن تاريخ نشأتهم وتكوينهم، والذين كانوا يـمتون فى أغلب الظن بصلة إلى الباطنية الإسماعيلية.

فـمن ذلك أنهم يشـرحـون الجنة والنار، بمـا يفـهم منه أن الجنة هى عـالم الأفلاك وأن النار هى عالم مـا تحت فلك القمر، وهو عالم الدنيا، فـفى حديثهم عن تجرد النفس واشتياقها إلى عالم الأفلاك، يقررون أنه لا يمكن الصعود إلى ما هناك بهذا الجـسد الثقـيل الكثيف، ويقولون: «إن النـفس إذا فارقت هذه الجنة، ولم يعقـها شىء من سـوء أفعالهـا، أو فساد آرائهـا، وتراكم جهـالاتها أو رداءة أخلاقها، فهى هناك فى عالم الفلـك فى أقل من طرفة عين بلا زمان، لأن كونها حيث همتها أو محبوبها كما تكون نفس العاشق حيث معشوقه فإذا كان عشقها هو الكون مع هذا الجسد، ومعـشوقها هو الملذات المحسوسة المـموهة الجرمانية، وشهواتها هذه الزينات الجسمانيـة، فهى لا تبرح من ههنا ولا تشتاق الصعود إلى عالم الأفلاك، ولا تفتح لها أبواب السماء ولا تدخل الجنة مع زمرة الملائكة، بل تبقى تحت فلك القمر، سـائحة فى قعر هذه الأجسام المستحـيلة المتضادة، تارة من الكون إلى الفساد؛ وتـارة من الفساد إلى الكون ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**﴾ (النسـاء: ٥٦) ﴿**لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا**﴾ (النبأ: ٢٣) ما دامت السموات والأرض، لا يذوقون فيـها برد عالم الأرواح الذى هو الروح والريحان، ولا يجدون لذة شراب الجنان المـذكور فى القرآن ﴿**وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾

(١) المرجع السابق ص ١٤٦.

(الأعراف: ٥٠) الظالمين لأنفسهم، ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: (الجنة فى السماء والنار فى الأرض»[١].

ومن ذلك أنهم يفسرون الملائكة بأنها كواكب الأفلاك فيقولون: «إن كواكب الفلك هم ملائكة الله وملوك سمواته... خلقهم الله تعالى لعمارة عالمه، وتدبير خلائقه؛ وسياسة بريته، وهم خلفاء الله فى أفلاكه كما أن ملوك الأرض هم خلفاء الله فى أرضه»[٢].

كذلك يرى إخوان الصفا «أن نفس المؤمن بعد مفارقة جسدها تصعد إلى ملكوت السماء وتدخل فى زمرة الملائكة؛ وتحيى بروح القدس، وتسبح فى فضاء الأفلاك، فى فسحة السموات، فرحة، مسرورة منعمة، متلذذة، مكرمة، مغتبطة) ويقولون: إن ذلك هو معنى قول الله عز وجل فى الآية (١٠) من سورة فاطر: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾»[٣].

كذلك يشرح إخوان الصفا الشياطين شرحًا فلسفيًا بحتًا لا يتفق مع ما جاء به الدين فيقولون: «إن الله أشار إلى النفوس ووساوسها بقوله ـ فى الآية (١١٢) من سورة الأنعام ـ ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ فشياطين الجن هى النفوس المفارقة الشريرة التى قد استجنت عن إدراك الحواس، وشياطين الإنس هى النفوس المتجسدة المستأنسة بالأجساد»[٤].

ثم يقولون: «أمثال هذه النفوس التى ذكرناه ـ يعنون النفوس الخبيثة ـ هى شياطين بالقوة، فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل»[٥].

كما يفهمون أن تسمية الله الشهداء فى قوله فى الآية (٦٩) من سورة النساء ﴿فَأُوْلَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰئِكَ

---

(١) رسائل إخوان الصفا (١/ ـ٩١، ٩٢) المطبعة العربية سنة ١٩٢٨م.

(٢) المصدر السابق (١/ ٩٨).

(٣) المصدر السابق (٤/ ١١٠، ١١١) مطبعة تحفة الأخبار سنة ١٣٠٦هـ.

(٤) رسائل إخوان الصفا (٤/ ١٧٢) مطبعة تحفة الأخبار سنة ١٣٠٦هـ

(٥) المرجع السابق (٤/ ١٧٤).

رَفِيقًا﴾ بهذا الاسم إنما هو لشهادتهم تلك الأمور الروحـانية المفارقة للهيولى، ويعنون بها جنة الدنيا ونعيمها»[١].

ثم إن إخوان الصفا يعـتقدون أن القرآن ما هو إلا رموز للحقـائق البعيدة عن أذهان العامة، ويقولون: «إن النـبى ﷺ يخبر خواص أمته بما جـاء به واعتقده بالتصريح فى السـر والعلن، غير مرموز ولا مـكتوم، ثم يشير إليهـا، ويرمز عنها عند العوام بالألفاظ المشتـركة، والمعانى المحتملة للتأويل بما يعـقلها الجمهور، وتقبلها نفوسهم»[٢] وغير خاف أن هذا هو عين مذهب الباطنية القائل بأن ظواهر القرآن غير مرادة.

هذه بعض شروح الفـلاسفة من المـسلمين لآيات القرآن الكريم، وهى كـما ترى شروح تقـوم على نظريات فلسفية بحـتة لا يمكن أن يتحملهـا النص القرآنى بحال من الأحوال.

هذا... ولم نسمع أن فيلسـوفًا من هؤلاء الفلاسفة الذين تـحكمت الفلسفة فى عقولهم، ألف لنا تفـسيرًا كاملاً للقـرآن الكريم، وكل ما وجدناه لهم فى ذلك لا يعدو بعض أفهـام قرآنية مفرقة فى كـتبهم التى ألفوها فى الفلسفـة، وأكثر من وجدنا له أثرًا فى التفسير من هؤلاء الفـلاسفة هو الرئيس أبو على بن سينا؛ إذ قد عثر له على تفسيـر قوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النور ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآيـة[٣] وعلى تفسير سـورة الإخلاص، والمعوذتين[٤] وبعـض آيات أخرى، ولهذا سأعتبر ابن سينا الشخصـية الأولى التى كان لها أكبر أثر فى التفسير الفلسفى، فأذكر نبذة عن حياته، ثم أعرض لمسلكه فى التفسير فأقول:

ترجمة ابن سينا:

هو الرئيس أبو على الحسـين بن عبد الله بن الحسن بن على بـن سينا، كان أبوه من أهل بلخ، ثم انتقل إلى بخارى، وفـى قرية من قراها ولد له أبو على بن

---

(١) المرجع السابق (٤/ ١٨٦). (٢) المرجع السابق (٤/ ١٨٥).

(٣) يوجد هذا التفسير فى كتاب جامع البدائع.

(٤) يوجد تفسير هذه السور الثلاث فى رسائل ابن سبنا.

سينا سنة ٣٧٠هـ سبعين وثلاثمائة من الهجرة، ثم انتقل مع أهله إلى بخارى، ثم طوف أبو على بعد ذلك فى البلاد، واشتغل بالعلوم، وحصل كثيرًا من الفنون، حفظ القرآن وله من العمر عشر سنين، وأتقن الأدب، وحفظ أشياء من أصول الدين، والحساب والجبر، ثم تعلم المنطق على أبى عبد الله الناتلى، وفاقه، ثم اشتغل بالعلوم الطبيعية والإلهية، ثم رغب فى علم الطب فقرأ الكتب المؤلفة فيه، حتى أصبح بارعًا لا يعدله أحدًا فيه، كل هذا ولم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، ثم لم تأت عليه سن الثامنة عشرة إلا وقد فرغ من تحصيل العلوم التى عاناها، مما يدل على ذكائه الخارق وذهنه الثاقب، أما تصانيفه فكثيرة، تقارب المائة مصنف، ومن أهمها: كتاب الشفاء فى الحكمة، والنجاة والإشارات، والقانون، وغير ذلك من كتبه القيمة، التى انتفع الناس بها كثيرًا.

ولقد جمع أبو على بن سينا إلى شهرته العلمية شهرة أخرى سياسية؛ إذ أنه كان يتقلد مع والده الأعمال للسلطان، ولما اضطربت أمور الدولة خرج أبو على من بخارى، وطوف ببلاد كثيرة حتى وصل إلى همدان، وهناك تقلد الوزارة لشمس الدولة، ثم ثار الجند عليه، وأغاروا على داره، ونهبوها، وقبضوا عليه، وسألوا شمس الدولة قتله فامتنع، ثم أطلق فتوارى، ثم أعاده شمس الدولة وزيرًا بعد ذلك، ولما مات شمس الدولة توجه إلى أصبهان، ثم أدركه مرض شديد مات على أثره، وكانت وفاته بهمدان سنة ٤٢٨هـ ثمان وعشرين وأربعمائة من الهجرة، ودفن بها، فرحمه الله(١).

مسلك ابن سينا فى التفسير:

ابن سينا كمسلم يدين بالقرآن، وفيلسوف محب للفلسفة حريص على سلامة ما فيها من آراء، كان حريصًا كل الحرص على أن يوفق بين الدين والفلسفة، حتى يرضى ناحيته الدينية والفلسفية، وكان طبيعيًا ـ والقرآن هو الدعامة الأولى من دعائهم الإسلام ـ أن يوفق ابن سينا بين نصوص القرآن والنظريات الفلسفية

(١) انظر وفيات الأعيان جـ ص٢٧١ - ٢٧٥ وشذرات الذهب (٣/ ٢٣٤ - ٢٣٧).

التى تبدو معارضة لها، وفعلاً قام بهذه العملية التى كانت ـ فيما أعتقد ـ شرّاً على الدين، وإبطالا لحقائق القرآن الصريحة الثابتة.

نظر ابن سينا إلى القرآن، ونظر إلى الفلسفة، فحكم النظريات الفلسفية فى النصوص القرآنية، فشرحها شرحًا فلسفيّا بحتًا، وكانت طريقته التى يسلكها فى شرحه غالبًا هى شرح الحقائق الدينية بالآراء الفلسفية، وذلك لأنه كان يعتقد أن القرآن ما هو إلا رموز رمز بها النبى ﷺ لحقائق تدق على أفهام العامة، عجزت أفهامهم عن إدركها، فرمز إليها النبى بما يمكنهم أن يدركوه، وأخفى عنهم ما يعجز عن إدراكه عامة الناس إلا الخواص منهم، وهو يقول: «إن المشترط على النبى أن يكون كلامه رمزًا، وألفاظه إيماء، وكما يذكر أفلاطون فى كتاب النواميس: إن من لم يقف على معانى رموز الرسل لم ينل الملكوت الإلهى، وكذلك أجلة فلاسفة يونان وأنبياؤهم كانوا يستعملون فى كتبهم الرموز والإشارات، التى حشوا فيها أسرارهم، كفيثاغورس وسقراط وأفلاطون. . . وما كان يمكن النبى محمدًا ﷺ أن يوقف على العلم أعرابيّا جافيًا، ولا سيما البشر كلهم، إذ كان مبعوثًا إليهم كلهم»(١).

وعلى هذا الأساس نظر ابن سينا إلى نصوص القرآن كرموز لا يعرف حقيقتها إلا الخواص أمثاله، فـفسرها تفسيرًا حكم فيه ما لديه من نظريات فلسفية، فكان فى عمله هذا فاشلاً، وبعيدًا عن حقيقة الدين، وروح القرآن الكريم!.

وإليك بعض ما قاله ابن سينا فى بعض نصوص القرآن الكريم، لتقف على مقدار تهافته، وبعده عن حقائق القرآن الثابتة.

عرض ابن سينا لشرح قوله تعالى فى الآية (١٧) من سورة الحاقة ﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**﴾ ففسر العرش بأنه الفلك التاسع الذى هو فلك الأفلاك، وفسر الملائكة الثمانية التى تحمل العرش بأنها أفلاك الثمانية التى تحت الفلك التاسع، وإليك عبارته بنصها:

قال: «وأما ما بلغ النبى ﷺ عن ربه عز وجل من قوله: ﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ**

---

(١) رسائل ابن سينا ص ١٢٤ - ١٢٥ مطبعة هندية سنة ١٩٠٨م.

رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (فنقول) إن الكلام المستفيض فى استواء الله تعالى على العرش من أوضاعه: أن العرش نهاية الموجودات المبدعة الجسمانية، وتدعى المشبهة من المتشرعين أن الله تعالى على العرش لا على سبيل حلول، هذا، وأما فى كلام الفلسفى فإنهم جعلوا نهاية الموجودات الجسمانية الفلك التاسع الذى هو فلك الأفلاك، ويذكرون أن الله تعالى هناك، وعليه لا على حلول، كما بين أرسطو فى آخر كتاب سماع الكيان، والحكماء المتشرعون اجتمعوا على أن المعنى بالعرش هو هذا الجرم، هذا... وقد قالوا: إن الفلك يتحرك بالنفس؛ لأن الحركات إما ذاتية وإما غير ذاتية، والذاتية إما طبيعية، وإما نفسية، ثم بينوا أن نفسها هو الناطق الكامل الفعال، ثم بينوا أن الأفلاك لا تفنى ولا تتغير أبد الدهر، وقد ذاع فى الشرعيات أن الملائكة أحياء قطعًا، لا يموتون كالإنسان الذى يموت، فإذا قيل إن الأفلاك أحياء ناطقة لا تموت، والحى الناطق الغير الميت يسمى ملكًا، فالأفلاك تسمى ملائكة، فإذا تقدم هذه المقدمات وضح أن العرش محمول على ثمانية، ووضح تفسير المفسرين أنها ثمانية أفلاك، والحمل يقال على وجهين: حمل بشرى، وهو أولى باسم الحمل كالحجر المحمول على ظهر الإنسان، وحمل طبيعى كقولنا الماء محمول على الأرض، والنار على الهواء، والمعنى هنا الحمل الطبيعى لا الأول، وقوله: يومئذ والساعة، والقيامة، فالمراد بها ما ذكره الشارع: أن من مات قامت قيامته، ولما كان تحقيق النفس الإنسانية عند المفارقة آكد جعل الوعد والوعيد، وأشباههما إلى ذلك الوقت»[1].

كذلك نجد ابن سينا يفسر الجنة والنار والصراط تفسيرًا فلسفيًا بعيدًا عن المأثور الثابت الصحيح، فيقسم العوالم إلى ثلاثة أقسام: عالم حسى، وعالم خيالى وهمى، وعالم عقلى، والعالم العقلى عنده هو الجنة، والعالم الخيالى هو النار، والعالم الحسى هو عالم القبور، أما الصراط فيقول فى شرحه: «اعلم أن العقل يحتاج فى تصور أكثر الكليات إلى استقراء الجزئيات، فلا محالة أنها تحتاج إلى الحس الظاهر، فتعلم أنه يأخذ من الحس الظاهر إلى الخيال إلى الوهم،

(١) رسائل ابن سينا ص ١٢٨، ١٢٩.

وهذا هو من الجحيم طريق وصراط دقيق صعب حتى يبلغ ذاته العقل، فهو إذًا يرى كيف الحد صراطا وطريقًا فى عالم الجحيم، فإن جاوزه بلغ عالم العقل، فإن وقف فيه وتخيل الوهم عقلاً، وما يشير إليه حقّا، فقد وقف على الجحيم، وسكن فى جهنم، وهلك وخسر خسرانًا مبينًا».

كذلك يفسر ابن سينا قوله تعالى فى الآية (٣٠) من سورة المدثر: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ تفسيرًا فلسفيّا بعيدًا عن هدف القرآن، فيقرر أن النفس الحيوانية هى الباقية الدائمة فى جهنم، وهى منقسمة إلى قسمين: إدراكية، وعملية، والعملية، شوقية، وغضبية، والعلمية هى تصوارت الخيال المحسوسات بالحواس الظاهرة، وتلك المحسوسات ستة عشر، والقوة الوهمية الحاكمة على تلك الصور حكمًا غير واجب واحدة ـ ذاتيان، وستة عشر، وواحدة تسعة عشر. . . ثم يقول: «وأما قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً﴾ فمن العادة فى الشريعة تسمية القوى اللطيفة الغير المحسوسة ملائكة»(١).

كما يفسر أبواب الجنة الثمانية، وأبواب النار السبعة تفسيرًا فلسفيّا صرفًا، فيقول: «وأما ما بلغ النبى محمد عن ربه عز وجل أن للنار سبعة أبواب، وللجنة ثمانية أبواب، فإذ قد علم أن الأشياء المدركة إما مدركة للجزئيات كالحواس الظاهرة وهى خمسة، وإدراكها الصور مع المواد، أو مدركة متصورة بغير مواد كخزانة الحواس المسماة بالخيال، وقوة حاكمة عليها حكمًا غير واجب وهو الوهم، وقوة حاكمة واجبًا وهو العقل، فذلك ثمانية، فإذا اجتمعت الثمانية جملة أدت إلى السعادة السرمدية، والدخول فى الجنة، وإن حصل سبعة منها لا تستتم إلا بالثامن أدت إلى الشقاوة السرمدية، والمستعمل فى اللغات أن الشىء المؤدى إلى الشىء يسمى بابًا، فالسبعة المؤدية إلى النار سميت أبوابًا لها، والثمانية المؤدية إلى الجنة سميت أبوابًا لها)(٢).

ويفسر ابن سينا قوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النور ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ

(١) رسائل ابن سينا ص ١٣١ - ١٣٢.

(٢) رسائل ابن سينا ص ١٣٢.

من شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيقول: «النور: اسم مشترك لمعنيين: ذاتى ومستعار، والذاتى هو كمال المشف من حيث هو مشف كما ذكرها أرسطاطاليس، والمستعار على وجهين: إما الخير، وإما السبب الموصل إلى الخير، والمعنى ههنا هو القسم المستعار بكلى فى قسميه... أعنى أن الله تعالى خير بذاته وهو سبب لكل خير، كذلك الحكم فى الذاتى وغير الذاتى، وقوله ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ عبارة عن الكل، وقوله «مشكاة» فهو عبارة عن العقل الهيولانى والنفس الناطقة؛ لأن المشكاة متقاربة الجدران جيدة التهيؤ للاستضاءة؛ لأن كل ما يقارب الجدران كان الانعكاس فيه أشد، والضوء أكثر، وكما أن العقل بالفعل مشبه بالنور، كذلك قابله مشبه بقابله وهو المشف، وأفضل المشفات الهواء، وأفضل الأهوية هو المشكاة، فالمرموز بالمشكاة هو العقل الهيولانى الذى نسبته إلى العقل المستفاد كنسبة المشكاة إلى النور، والمصباح هو عبارة عن العقل المستفاد بالفعل؛ لأن النور كما هو كمال للمشف كما حدبه الفلاسفة ومخرج له من القوة إلى الفعل، ونسبة العقل المستفاد إلى العقل الهيولانى كنسبة المصباح إلى المشكاة، وقوله: ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾ لما كان بين العقل الهيولانى والمستفاد مرتبة أخرى وموضع آخر نسبته كنسبة الذى بين المشف والمصباح، فهو الذى لا يصل فى العيان المصباح إلى المشف إلا بتوسط وهو المسرجة، ويخرج من المسارج الزجاجة لأنها من المشفات القوابل للضوء، ثم قال بعد ذلك: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ ليجعلها الزجاج الصافى المشف، لا الزجاج الذى لا يستشف، فليس شيء من المتلونات يستشف ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ يعنى به القوة الفكرية التى هى موضوعة ومادة للأفعال العقلية، كما أن الدهن موضوع ومادة للسراج...»(١) وهكذا استمر ابن سينا فى شرح هذه الآية فارجع إليه إن شئت، وسترى أن شرحه هذا مزيج من فكرتى أفلاطون وأرسطو حيث جمع فيه بين ما يعرف لأفلاطون من التعبير بـ (الخير) و (الكل) وما يعرف لأرسطو من أقسام العقل.

(١) رسائل ابن سينا ص ١٢٥ - ١٢٨.

ويقول فى تفسير قوله تعالى فى الآية (٤) من سورة الفلق ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾: «قوله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ إشارة إلى القوة النباتية؛ فإن النباتية موكلة بتدبير البدن ونشوه ونموه، والبدن عقد حصلت من عقد بين العناصر الأربعة المختلفة المتنازعة إلى الانفكاك، لكنها من شدة انفعال بعضها عن بعض صارت بدنًا حيوانيًا، والنفاثات فيها هى القوى النباتية، فإن النفث سبب لأن يصير جوهر الشىء زائدًا فى المقدار من جميع جهاته... أى الطول والعرض والعمق، وهذه القوى هى التى تؤثر فى زيادة الجسم المغتذى والنامى من جميع الجهات المذكورة... إلخ»(١).

ويفسر قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة الفلق أيضًا ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فيقول: «عنى به النزاع الحاصل بين البدن وقواه كلها، وبين النفس»(٢).

وفى سورة الناس يفسر قوله تعالى فى الآية (٤) ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ فيقول: «هذه القوة التى توقع الوسوسة هى القوة المتخيلة بحسب صيرورتها مستعملة للنفس الحيوانية، ثم إن حركتها تكون بالعكس، فإن النفس وجهها إلى المبادئ المفارقة، فالقوة المتخيلة إذا جذبتها إلى الاشتغال بالمادة وعلائقها فتلك القوة تخنس أى تتحرك بالعكس وتجذب النفس الإنسانية إلى العكس، فلهذا سمى خناسًا»(٣).

ويفسر قوله تعالى فى الآية (٦) من سورة الناس أيضًا ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ فيقول: «الجن هو الاستتار، والإنس هو الاستئناس، فالأمور المستترة هى الحواس الباطنة، والمستأنسة هى الحواس الظاهرة»(٤).

رأينا فى تفسير الفلاسفة:

هذا هو بعض ما قاله ابن سينا فى شرحه لبعض نصوص القرآن الكريم، وهو كما ترى عين ما يذهب إليه الباطنية فى تأويلاتهم للآيات القرآنية، ولا أحسب أن

---

(١) جامع البدائع ص ٢٧ - ٢٨ مطبعة السعادة سنة ١٩١٧م.
(٢) المرجع السابق ص ٢٨.
(٣) المرجع السابق ص ٣١.
(٤) المرجع السابق ص ٢١ - ٢٣.

مسلمًا مهما كان محبا للفلسفة والفلاسفة يقر ابن سينا وأمثاله على دعوى أن الحقائق القرآنية رموز وإشارات لحقائق أخرى، دقت عن أفهام العامة، وخفيت على عقولهم القاصرة، فرمز إليها النبى بآيات القرآن الكريم.

هذا، ولعل القارئ الكريم يلحظ معى أن الإمامية الاثنى عشرية، والباطنية الإسماعيلية، ومتطرفى الصوفية، ورجال الفلسفة الإسلامية، كلهم يسيرون على نمط واحد هدام لمقاصد القرآن ومراميه، ذلك هو ما يعبرون عنه بالرمز، أو الإشارة، أو الباطن، ويظهر لنا أنها عدوى سرت إلى المسلمين من قدماء الفلاسفة[١]، ثم تلقتها هذه الفرق بصدر رحب، وتقبلتها بقبول حسن، لأنهم رأوا فيها عونًا كبيرًا على ترويج بدعهم، ونشر ضلالاتهم بين المسلمين!!.

* * *

(١) انظر ما قلناه عن فيلون اليهودى عند كلامنا عن البابية.

الفصل السابع

تفســــير الفقهاء

كلمة إجمالية عن تطور التفسير الفقهى

١ - التفسير الفقهى من عهد النبوة إلى مبدأ قيام المذاهب الفقهية:

نزل القرآن الكريم مـشتمـلاً على آيات تتضمن الأحكام الفـقهيـة التى تتعلق بمصالح العباد فى دنياهم وأخراهـم، وكان المسلمون على عهد رسول الله ﷺ يفهمون ما تحمله هذه الآيات من الأحكام الفقهيــة بمقتضى سليقتهم العربية، وما أشكل عليهم من ذلك رجعوا فيه إلى رسول الله ﷺ .

ولما توفى رســول الله ﷺ جدت للصــحابة من بعده حــوادث تتطلب من المسلمين أن يحكموا عليــها حكمًا شرعيا صحيحًــا، فكان أول شىء يفزعون إليه لاستنباط هذه الأحكام الشرعيــة هو القرآن الكريم، ينظرون فى آياته، ويعرضونها على عقولهم وقلوبهم، فإن أمكن لهم أن ينزلوها على الحــوادث التى جدت فبها ونعــمت، وإلا لجأوا إلى سنــة رسول الله ﷺ ، فــإن لم يجدوا فــيــها حكمًــا اجتــهدوا وأعملوا رأيهم على ضــوء القواعد الكلــية للكتاب والسنة؛ ثم خــرجوا بحكم فيما يحتاجون إلى الحكم عليه.

غير أن الصــحابة فى نظرهم لآيات الأحكام كانوا يتفقــون أحيانًا على الحكم المستنبط، وأحــيانًا يختلفون فى فــهم الآية، فتختلف أحكامهــم فى المسألة التى يبحــثون عن حكمــها، كالخــلاف الذى وقع بين عمــر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب فى عدة الحامل المــتوفى عنها زوجها، فعمــر رضي الله عنه حكم بأن عدتها وضع الحمل، وعلى حكم بأن عدتها أبعد الأجلين: وضع الحمل، ومضى أربعة أشهر وعــشرة أيام، وســبب هذا الخلاف تعــارض نصــين عامــين فى القرآن، فــإن الله سبحانه جعل عدة المطلقة الحامل: وضع الحمل، وجعل عدة الوفاة: أربعة أشهر وعشرًا من غيــر تفصيل، فذهب على رضي الله عنه إلى العمل بالآيتــين معًا، وأن كل آية

منهما مخصصة لعموم الأخرى، وذهب عمر ﷺ إلى أن آية الطلاق مخصصة لآية الوفاة، وقد تأيد رأى عمر ﷺ بما ورد أن سبيعة بنت الحارث الأسلمية مات عنها زوجها، فوضعت الحمل بعد خمسة وعشرين يومًا من موته، فأحلها رسول الله ﷺ للأزواج(١).

وكالخلاف الذى وقع بين ابن عباس وزيد بن ثابت فى تقسيم ميراث من مات عن زوج وأبوين، فابن عباس ﷺ أفتى بأن للزوج النصف، وللأم الثلث، وللأب الباقى تعصيبًا، تمسكًا بظاهر قوله تعالى فى الآية (١١) من سورة النساء: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ وزيد بن ثابت ﷺ ومعه بقية الصحابة أفتوا بأن للزوجة ثلث الباقى بعد فرض الزوج، نظرًا لأن الأب والأم ذكر وأنثى ورثا بجهة واحدة، فللذكر مثل حظ الأنثيين»(٢).

مثل هذا الخلاف كان يقع مع الصحابة ﷺ حسبما يفهمه كل منهم فى النص القرآنى، وما يحيط به من أدلة خارجية، ومع هذا الاختلاف فقد كان كل واحد من المختلفين يطلب الحق وحده، فإن ظهر له أنه فى جانب من خالفه رجع إلى رأيه وأخذ به.

التفسير الفقهى فى مبدأ قيام المذاهب الفقهية:

ظل الأمر على هذا إلى عهد ظهور أئمة المذاهب ـ الأربعة وغيرها ـ وفيه جدت حوادث كثيرة للمسلمين لم يسبق لمن تقدمهم حكم عليها، لأنها لم تكن على عهدهم، فأخذ كل إمام ينظر إلى هذه الحوادث تحت ضوء القرآن والسنة، وغيرهما من مصادر التشريع، ثم يحكم عليها بالحكم الذى ينقدح فى ذهنه، ويعتقد أنه هو الحق الذى يقوم على الأدلة والبراهين، وكانوا يتفقون فيما يحكمون به أحيانًا، وأحيانًا يختلفون حسبما يتجه لكل منهم من الأدلة، غير أنهم مع كثرة اختلافهم فى الأحكام لم تظهر منهم بادرة التعصب للمذهب، بل كانوا جميعًا ينشدون الحق ويطلبون الحكم الصحيح، وليس يعزيز على الواحد منهم أن

(١) انظر تاريخ التشريع للخضرى ص ١١٣.

(٢) انظر تاريخ التشريع الإسلامى للأساتذة: السبكى والسايس والبربرى ص ٩٦.

يرجع إلى رأى مخالفه إن ظهر له أن الحق فى جانبه، فهذا هو الشافعى ﷺ كان يقول: إذا صح الحديث فهو رأيى، وكان يقول: الناس عيال فى الفقه على أبى حنيفة، وكان يقول لأحمد بن حنبل وهو تلميذه فى الفقه: إذا صح الحديث عندك فأعلمنى به، وكان يقول: إذا ذكر الحديث فمالك النجم الثاقب... إلى غير ذلك مما يدل على انتشار روح التقدير والحب بين أولئك الفقهاء، وهذه هى سنة أسلافهم من الصحابة والتابعين(١).

التفسير الفقهى بعد ظهور التقليد والتعصب المذهبى:

ثم خلف من بعد هؤلاء الأئمة خلف سرت فيهم روح التقليد لهؤلاء الأئمة، التقليد الذى يقوم على التعصب المذهبى، ولا يعرف التسامح، ولا يطلب الحق لذاته ولا ينشده تحت ضوء البحث الحر، والنقد البرىء.

ولقد بلغ الأمر ببعض هؤلاء المقلدة إلى أن نظروا إلى أقوال أئمتهم كما ينظرون إلى نص الشارع، فوقفوا جهدهم العلمى على نصرة مذهب إمامهم وترويجه، وبذلوا كل ما فى وسعهم لإبطال مذهب المخالف وتفنيده، وكان من أثر ذلك أن نظر هذا البعض إلى آيات الأحكام فأولها حسبما يشهد لمذهبه إن أمكنه التأويل، وإلا فلا أقل من أن يؤولها تأويلاً يجعلها به لا تصلح أن تكون فى جانب مخالفيه، وأحيانًا يلجأ إلى القول بالنسخ أو التخصيص، وذلك إن سدت عليه كل مسالك التأويل، فهذا عبد الله الكرخى المتوفى سنة ٣٤٠هـ وهو أحد المتعصبين لمذهب أبى حنيفة يقول: «كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ»(٢).

ومع هذا الغلو فى التعصب المذهبى، فإننا لم نعدم من المقلدين من وقف موقف الإنصاف من الأئمة، فنظر فى أقوالهم نظرة الباحث الحر الذى يساير الدليل حتى يصل به إلى الحق أيا كان قائلة.

وكان لهؤلاء وهؤلاء ـ أعنى المتعصبين وغير المتعصبين ـ أثر ظاهر فى

(١) انظر تاريخ التشريع الإسلامى للخضرى ص ٣٥٣ - ٣٥٤.
(٢) تاريخ التشريع الإسلامى للأساتذة: السبكى والسايس والبربرى ص ٢٨١.

التفسير الفقهى، فالمتعصبون ينظرون إلى الآيات من خلال مذهبهم فينزلونها عليه، وغير المتعصبين ينظرون إليها نظرة خالية من الهوى المذهبى، فينزلونها على حسب ما يظهر لهم، وينقدح فى ذهنهم.

تنوع التفسير الفقهى تبعاً لتنوع الفرق الإسلامية:

وإذا تتبعنا التفسير الفقهى فى جميع مراحله وجدناه يسير بعيداً عن الأهواء والأعراض من مبدأ نزول القرآن إلى وقت قيام المذاهب المختلفة، ثم بعد ذلك يسير تبعًا للمذاهب، ويتنوع بتنوعها، فلأهل السنة تفسير فقهى متنوع بدأ نظيفًا من التعصب، ثم لم يلبث أن تلوث به كما أسلفنا، وللظاهرية تفسير فقهى يقوم على الوقوف عند ظواهر القرآن دون أن يحيد عنها، وللخوارج تفسير فقهى يخصهم، وللشيعة تفسير فقهى يخالفون به من عداهم... وكل فريق من هؤلاء يجتهد فيتأويل النصوص القرآنية حتى تشهد له أو لا تعارضه على الأقل... مما أدى ببعضهم إلى التعسف فى التأويل، والخروج بالألفاظ القرآنية عن معانيها ومدلولاتها.

الإنتاج التفسيرى للفقهاء:

هذا وإنا إذا ذهبنا لنبحث عن مؤلفات فى التفسير الفقهى، فإنا لا نكاد نعثر على شىء من ذلك قبل عصر التدوين، اللهم إلا متفرقات تؤثر عن فقهاء الصحابة والتابعين، يرويها عنهم أصحاب الكتب المختلفة، أما بعد عصر التدوين فقد ألف كثير من العلماء على اختلاف مذاهبهم فى التفسير الفقهى.

فمن الحنفية:

ألف أبو بكر الرازى المعروف بالجصاص والمتوفى سنة ٣٧٠هـ سبعين وثلاثمائة من الهجرة أحكام القرآن، وهو مطبوع فى ثلاثة مجلدات كبار، ومتداول بين أهل العلم.

وألف أحمد بن أبى سعيد المدعو بمُلاً جيون من علماء القرن الحادى عشر الهجرى، التفسيرات الأحمدية فى بيان الآيات الشرعية، وهو مطبوع بالهند فى

مجلد كبير، ومنه نسخة فى مكتبة الأزهر، وأخرى فى مكتبة الجامعة المصرية (جامعة القاهرة)[١].

ومن الشافعية:

ألف أبو الحسن الطبرى المعروف بالكيا الهراسى المتوفى سنة ٥٠٤هـ، أربع وخمسمائة من الهجرة، كتابه أحكام القرآن، وهو مخطوط فى مجلد كبير، وموجود فى دار الكتب المصرية، وفى المكتبة الأزهرية[٢].

وألف شهاب الدين، أبو العباس أحمد بن يوسف بن محمد الحلبى، المعروف بالسمين، والمتوفى سنة ٧٥٦هـ ست وخمسين وسبعمائة من الهجرة، كتابه (القول الوجيز فى أحكام الكتاب العزيز) ويوجد منه فى مكتبة الأزهر الجزء الأول، وهو ينتهى عند قوله تعالى فى سورة البقرة ﴿**فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ**...﴾ (البقرة: ١٩٤) الآية، وهو مخطوط بخط المؤلف.

وألف على بن عبد الله محمود الشنفكى من علماء القرن التاسع الهجرى كتابه (أحكام الكتاب المبين) وتوجد منه نسخة فى المكتبة الأزهرية، مخطوطة بخط المؤلف، فى مجلد متوسط الحجم.

وألف جلال الدين السيوطى، المتوفى سنة ٩١١هـ إحدى عشرة وتسعمائة من الهجرة، كتابه (الإكليل فى استنباط التنزيل) وهو موجود فى المكتبة الأزهرية، ومخطوط فى مجلد متوسط الحجم.

ومن المالكية:

ألف أبو بكر بن العربى المتوفى سنة ٥٤٣هـ ثلاث وأربعين وخمسمائة من الهجرة، كتابه أحكام القرآن، وهو مطبوع فى مجلدين كبيرين، ومتداول بين أهل العلم.

وألف أبو عبد الله القرطبى المتوفى سنة ٦٧١هـ إحدى وسبعين وستمائة من الهجرة، كتابه (الجامع لأحكام القرآن) وهو مخطوط بدار الكتب المصرية، وقد

(١) كذلك تفسير آيات الأحكام للطحاوى وطبع فى تركيا وسنتكلم عليه بالتفصيل فى التتمة (د/ مصطفى الذهبى).

(٢) طبع الكتاب عدة طبعات. (د/ مصطفى الذهبى).

قامت بطبعه دار الكتب فتم منه إلى الآن أربعة عشر جزءًا ينتهى الجزء الرابع عشر عند آخر سورة (فاطر) وما بقى منه على أهبة الطبع[١].

ومن الزيدية:

ألف حسين بن أحمد النجرى، من أهل القرن الثامن الهجرى، كتابه (شرح الخمسمائة آية) ولم يصل إلى أيدينا هذا التفسير.

وألف شمس الدين بن يوسف بن أحمد من علماء القرن التاسع الهجرى (الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة) ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية، مخطوطة فى ثلاثة مجلدات، ويوجد بالمكتبة الأزهرية الجزء الثانى منه فى مجلد واحد مخطوط.

وألف محمد بن الحسين بن القاسم من علماء القرن الحادى عشر الهجرى، كتابه (منتهى المرام. شرح آيات الأحكام) ولم نقف على هذا التفسير[٢].

ومن الإمامية الاثنى عشرية:

ألف مقداد السيورى، من أهل القرن الثامن الهجرى، كتابه (كنز الفرقان فى فقه القرآن) ومنه نسخة بدار الكتب المصرية، مطبوعة فى مجلد صغير على هامش تفسير الحسن العسكرى.

وهناك كتب أخرى فى تفسير آيات الأحكام ذكرها صاحب كشف الظنون، لا نطيل بذكرها، كما لا نطيل بالكلام عن كل ما وصل إلينا من الكتب، ويكفى أن نعرض لأهمها وهو ما يأتى:

---

(١) كان هذا وقت تأليف هذا الكتاب، أما الآن فقد تم طبع هذا التفسير، ولما نفدت نسخه أخذت دار الكتب فى طبعه للمرة الثانية، كما يجرى الآن طبعه ضمن سلسلة (كتاب الشعب).

وطبع مؤخرًا فى اليمن، وسنتكلم عنه فى التتمة. (د. مصطفى الذهبى).

١- أحكام القرآن ـ للجصاص (الحنفى)

ترجمة المؤلف:

هو أبو بكر، أحمد بن على الرازى، المشهور بالجصاص[١]، ولد رحمه الله تعالى ببغداد سنة ٣٠٥هـ خمس وثلاثمائة من الهجرة.

كان إمام الحنفية فى وقته، وإليه انتهت رياسة الأصحاب، أخذ عن أبى سهل الزجاج، وعن أبى الحسن الكرخى، وعن غيرهما من فقهاء عصره، واستقر التدريس له ببغداد، وانتهت الرحلة إليه، وكان على طريق الكرخى فى الزهد، وبه انتفع، وعليه تخرج، وبلغ من زهده أنه خوطب فى أن يلى القضاء فامتنع، وأعيد عليه الخطاب فلم يقبل، أما مصنفاته فكثيرة، أهمها كتاب أحكام القرآن وهو ما نحن بصدده الآن، وشرح مختصر الكرخى، وشرح مختصر الطحاوى، وشرح الجامع الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيبانى، وكتب أصول الفقه، وآخر فى أدب القضاء، وعلى الجملة فقد كان الجصاص من خيرة العلماء الأعلام، وإليه يرجع كثير من الفضل فى تدعيم مذهب الحنفية على البراهين والأدلة.

هذا وقد ذكره المنصور بالله فى طبقات المعتزلة[٢]، وسيأتيك فى تفسيره ما يؤيد هذا القول.

أما وفاته فكانت سنة ٣٧٠هـ سبعين وثلاثمائة من الهجرة، فرحمه الله ورضى عنه[٣].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يعد هذا التفسير من أهم كتب التفسير الفقهى خصوصًا عند الحنفية؛ لأنه يقوم على تركيز مذهبهم والترويج له، والدفاع عنه، وهو يعرض لسور القرآن كلها، ولكنه لا يتكلم إلا عن الآيات التى لها تعلق بالأحكام فقط، وهو ـ وإن

---

(١) الجصاص نسبة إلى العمل بالجص. (٢) شرح الأزهار (٢/ ٤).

(٣) انظر ترجمته فى الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ص ٢٧، ٢٨.

كان يسير على ترتيب سور القرآن ـ مبوب كتبويب الفقه، وكل باب من أبوابه معنون بعنوان تندرج فيه المسائل التى يتعرض لها المؤلف فى هذا الباب.

استطراده لمسائل فقهية بعيدة عن فقه القرآن:

هذا... وإن المؤلف ـ رحمه الله ـ لا يقتصر فى تفسيره على ذكر الأحكام التى يمكن أن تستنبط من الآيات، بل نراه يستطرد إلى كثير من مسائل الفقه والخلافيات بين الأئمة، مع ذكره للأدلة بتوسع كبير، مما جعل كتابه أشبه ما يكون بكتب الفقه المقارن، وكثيراً ما يكون هذا الاستطراد إلى مسائل فقهية لا صلة لها بالآية إلا عن بعد.

فمثلاً نجد عندما عرض لقوله تعالى فى الآية (٢٥) من سورة البقرة: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ يستطرد لمذهب الحنفية فى أن من قال لعبيده: من بشرنى بولادة فلانة فهو حر، فبشره جماعة واحدًا بعد واحد أن الأول يعتق دون غيره(١).

ومثلا عندما عرض لقوله تعالى فى الآية (٢٦) من سورة يوسف: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ...﴾ الآية، نجده يستطرد لخلاف الفقهاء فى مدعى اللقطة إذا ذكر علامتها، وخلافهم فى اللقيط إذا ادعاه رجلان ووصف أحدهما علامة فى جسده، وخلافهم فى متاع البيت إذا ادعاه الزوج لنفسه وادعته الزوجة لنفسها، وخلافهم فى مصراع الباب إذا ادعاه رب الدار والمستأجر... وغير ذلك من مسائل الخلاف التى لا تتصل بالآية إلا عن بعد(٢).

تعصبه لمذهب الحنفية:

ثم إن المؤلف ـ رحمه الله وعفا عنه ـ متعصب لمذهب الحنفية إلى حد كبير، مما جعله فى هذا الكتاب يتعسف فى تأويل بعض الآيات حتى يجعلها فى جانبه، أو يجعلها غير صالحة للاستشهاد بها من جانب مخالفيه، والذى يقرأ الكتاب يلمس روح التعصب فيه فى كثير من المواقف.

فمثلاً عندما عرض لقوله تعالى فى الآية (١٨٧) من سورة البقرة ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا

(١) جـ١ ص ٣٣.

(٢) جـ٣ ص ٣١٠ - ٣١٢.

الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ نجده يحاول بتعسف ظاهر أن يجعل الآية دالة على أن من دخل فى صوم التطوع لزم إتمامه(١) .

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٣٢) من سورة البقرة ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ الآية، نجده يحـاول أن يستدل بالآية من عدة وجوه على أن للمرأة أن تعقد على نفسها بغير الولى وبدون إذنه(٢) .

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢) من سورة النساء ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ...﴾ الآية، وقوله فى آية (٦) منها ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ الآية، نجده يحاول أن يأخذ من مجموع الآيتين دليلاً لمذهب أبى حنيفة القائل بوجوب دفع المال لليتيم إذا بلغ خمسًا وعشرين سنة، وإن لم يؤنس منه الرشد(٣) .

حملة الجصاص على مخالفيه:

ثم إن الجصاص مع تعصبه لمذهبه وتعسفه فى التأويل، ليس عف اللسان مع الإمام الشافعى ﷺ ولا مع غيره من الأئمة، وكثيرًا ما نراه يرمى الشافعى وغيره من مخالفى الحنفية بعبارات شـديدة، لا تليق من مثل الجصاص فى مثل الشافعى وغيره من الأئمة رحمهم الله.

فمثلاً عندمـا عرض لآية المحرمات من النساء فى سـورة النساء نجده يعرض للخلاف الذى بين الحنفية والشافعية فى حكم من زنى بامرأة، هل يحل له التزوج بينتها أو لا؟ ثم يذكـر مناظرة طويلة جرت بين الشافعى وغيـره فى هذه المسألة، ويناقش الشافعى فيـما يرد به على مناظره، ويرميه بعبارات شنيعـة لاذعة كقوله: «فقـد بان أن ما قاله الشافـعى وما سلمه له السـائل كلام فارغ لا معنى تحـته فى حكم ما سئل عنه»(٤) .

وقوله: «ما ظـننت أن أحدًا ممن ينتدب لمناظرة خـصم يبلغ به الإفلاس من الحجاج أن يلجأ إلى مثل هذا، مع سخافة عقل السائل وغباوته»(٥) .

وقوله حين لم يرقـه أحد أجوبة الشافـعى على سؤال مناظره «ولو كلم بذلك

---

(١) جـ١ ص ٢٧٤ - ٢٨٥.
(٢) جـ١ ص ٤٧٢ - ٤٧٤.
(٣) جـ٢ ص ٥٦ - ٥٩.
(٤) جـ٢ ص ١٤٣.
(٥) جـ٢ ص ١٤٣.

المبتدئون من أحداث أصحابنا لما خفى عليهم عوار هذا الحجاج، وضعف السائل، والمسئول فيه»(١).

ومثلاً عند ذكره لمذهب الشافعى فى الترتيب بين أعضاء الوضوء نجده يقول: «وهذا القول مما خرج به الشافعى عن إجماع السلف والفقهاء»(٢) كأن الشافعى فى نظر الجصاص ممن لا يعتد برأيه، حتى ينعقد الإجماع بدونه.

تأثر الجصاص بمذهب المعتزلة:

كذلك نجد الجصاص يميل إلى عقيدة المعتزلة، ويتأثر بها فى تفسيره، فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٠٢) من سورة البقرة: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ الآية، نجده يذكر حقيقة السحر ويقول إنه: «متى أطلق فهو اسم لكل أمر هو باطل لا حقيقة له ولا ثبات»(٣) كما ينكر حديث البخارى فى سحر رسول الله ﷺ ويقرر أنه من وضع الملاحدة(٤).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٠٣) من سورة الأنعام ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ...**﴾ الآية، نجده يقول: «معناه لا تراه الأبصار، وهذا تمدح بنفى رؤية الأبصار كقوله تعالى (فى الآية ٢٥٥ من سورة البقرة) ﴿**لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ**﴾ وما تمدح الله بنفيه عن نفسه فإن إثبات ضده ذم ونقص، فغير جائز إثبات نقيضه بحال... فلما تمدح بنفى رؤية البصر عنه لم يجز إثبات ضده ونقيضه بحال؛ إذ كان فيه إثبات صفة نقص، ولا يجوز أن يكون مخصوصًا بقوله تعالى فى الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ لأن النظر محتمل لمعان: منها انتظار الثواب، كما روى عن جماعة من السلف، فلما كان ذلك محتملاً للتأويل لم يجز الاعتراض به على ما لا مساغ للتأويل فيه، والأخبار المروية فى الرؤية إنما المراد بها العلم لو صحت، وهو علم الضرورة الذى لا تشوبه شبهة، ولا تعرض فيه الشكوك، لأن الرؤية بمعنى العلم مشهورة فى اللغة»(٥).

---

(١) جـ٢ ص ٢٤٥. (٢) جـ٢ ص ٤٤٠ - ٤٤١. (٣) جـ١ ص ٤٨.
(٤) جـ٢ ص ٥٥. (٥) جـ٣ ص ٥.

حملة الجصاص على معاوية ﷺ:

كما أننا نلاحظ على الجصاص أنه تبدو منه البغضاء لمعاوية ﷺ، ويتأثر بذلك فى تفسيره، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيات (٣٩ - ٤١) من سورة الحج ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ...**﴾ إلى قوله: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ يقول: «... وهذه صفة الخلفاء الراشدين، الذين مكنهم الله فى الأرض وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ﷺ، وفيه الدلالة الواضحة على صحة إمامتهم؛ لإخبار الله تعالى بأنهم إذا مكنوا فى الأرض قاموا بفروض الله عليهم، وقد مكنوا فى الأرض فوجب أن يكونوا أئمة قائمين بأوامر الله منتهين عن زواجره ونواهيه، ولا يدخل معاوية فى هؤلاء؛ لأن الله إنما وصف بذلك المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم، وليس معاوية من المهاجرين، بل هو من الطلقاء»(١).

ومثلاً فى سورة النور عند قوله تعالى فى الآية (٥٥) ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ...**﴾ الآية، يقول: «وفيه الدلالة على صحة إمامة الخلفاء الأربعة أيضًا؛ لأن الله استخلفهم فى الأرض ومكن لهم كما جاء الوعد، ولا يدخل فيهم معاوية؛ لأنه لم يكن مؤمنًا فى ذلك الوقت»(٢).

وفى سورة الحجرات عند قوله تعالى فى الآية (٩): ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا...**﴾ الآية، نجده يجعل عليًا ﷺ هو المحق فى قتاله، أما معاوية ومن معه فهم الفئة الباغية، وكذلك كل من خرج على على(٣).

وما كان أولى بصاحبنا أن يترك هذا التحامل على معاوية الصحابى، ويفوض أمره إلى الله، ولا يلوى مثل هذه الآيات إلى ميوله وهواه.

هذا... والكتاب مطبوع فى ثلاثة مجلدات كبار، ومتداول بين أهل العلم.

---

(١) جـ٣ ص ٣٠٣، ٣٠٤.
(٢) جـ٣ ص ٤٠٦.
(٣) جـ٣ ص ٤٩٢.

٢- أحكام القرآن ـ لكيا الهراسى (الشافعى)

ترجمة المؤلف:

مؤلف هذا التفسير هو عماد الدين، أبو الحسن على بن محمد بن على الطبرى، المعروف بالكيا[١] الهراسى، الفقيه الشافعى، المولود سنة ٤٥٠هـ خمسين وأربعمائة من الهجرة.

أصله من خراسان، ثم رحل عنها إلى نيسابور، وتفقه على إمام الحرمين الجوينى مدة حتى برع، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق ودرس بها مدة، ثم خرج إلى العراق، وتولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد إلى أن توفى سنة ٥٠٤هـ أربع وخمسمائة من الهجرة، وكان رحمه الله فصيح العبارة، حلو الكلام، محدثًا، يستعمل الأحاديث فى مناظراته ومجالسه، فرضى الله عنه وأرضاه[٢].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

أهمية هذا التفسير ومبلغ تعصب صاحبه لمذهب الشافعى:

يعتبر هذا التفسير من أهم المؤلفات فى التفسير الفقهى عند الشافعية؛ وذلك لأن مؤلفه شافعى لا يقل فى تعصبه لمذهبه عن الجصاص بالنسبة لمذهب الحنفية، مما جعله يفسر آيات الأحكام على وفق قواعد مذهبه الشافعى، ويحاول أن يجعلها غير صالحة لأن تكون فى جانب مخالفيه.

وليس أدل على روح التعصب عند المؤلف من مقدمة تفسيره التى يقرر فيها «إن مذهب الشافعى ﵁ أسد المذاهب وأقومها، وأرشدها وأحكمها، وإن نظر الشافعى فى أكثر آرائه ومعظم أبحاثه، يترقى عن حد الظن والتخمين، إلى درجة واليقين، والسبب فى ذلك أنه ـ يعنى الشافعى ـ بنى مذهبه على كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأنه أتيح

---

(١) الكيا ـ بكسر الكاف وفتح الياء (المخففة) معناه فى اللغة العجمية الكبير القدر المقدم بين الناس. وفيات الأعيان (١/ ٥٩٠).

(٢) انظر وفيات الأعيان (١/ ٥٨٧ - ٥٩٠).

له درك غوامض معانيه، والغوص على تيار بحره لاستخراج ما فيه، وأن الله تعالى فتح له من أبوابه، ويسر عليّ من أسبابه، ورفع له من حجابه ما لم يسهل لمن سواه، ولم يتأت لمن عداه. . . »(١).

يقرر صاحبنا هذا، وأنا لا أنكره عليه، ولا أغض من مقام الشافعى رحمه الله، ولكنى أقول: إن تقديم الكتاب بمثل هذا الكلام نطق بأن الرجل متعصب لمذهبه، وشاهد عليه بأنه سوف يسلك فى تفسيره مسلك الدفاع عن قواعد الشافعى، وفروع مذهبه، وإن أداه ذلك إلى التعسف فى التأويل.

وإذا لم يكفك هذا دليلاً على تعصب الرجل فدونك الكتاب، لتقف بعد القراءة فيه على مبلغ تعصب صاحبه وتعسفه.

تأدبه مع الأئمة وحملته على الجصاص:

غير أن الهراسى ـ والحق يقال ـ كان عف اللسان والقلم مع أئمة المذاهب الأخرى، ومع كل من يتعرض للرد عليه من المخالفين، فلم يخض فيهم كما خاض الجصاص فى الشافعى وغيره، وكل ما لاحظناه عليه من ذلك هو أنه وقف من الجصاص موقفًا كان فيه شديد المراس، قوى الجدال، قاسى العبارة؛ إذ أنه عرض لأهم مواضع الخلاف التى ذكرها الجصاص فى تفسيره وعاب فيها مذهب الشافعى، ففند كل شبهة أوردها، ودفع كل ما وجهه إلى مذهب الشافعى، بحجج قوية يسلم له الكثير منها، كما أنه اقتص للشافعى من الجصاص، فرماه بالعبارات الساخرة، والألفاظ المقذعة «والجزاء من جنس العمل».

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة النساء ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ الآية، نجده يرد على الجصاص ما استدل به لمذهبه القائل بأن الزنى بامرأة يحرم على الزانى أصول المرأة وفروعها، ويفند ما رد به الجصاص على الشافعى فى هذه المسألة، ثم يقول فى شأن الجصاص: «إنه لم يفهم معنى كلام الشافعى ﷺ، ولم يميز بين محل ومحل، ولكل مقام مقال، ولتفهم معانى كتاب الله رجال، وليس هو منهم»(٢).

كما يقول: «وقد ذكر الشافعى مناظرة بينه وبين مسترشد طلب الحق فى هذه

(١) ص ٢.

(٢) ص ٢١٣

المسألة، فأوردها الرازى متعجبًا منها، ومنبهًا على ضعف كلام الشافعى فيها، ولا شىء أدل على جهل الرازى وقلة معرفته بمعانى الكلام من سياقه لهذه المناظرة، واعتراضاته عليها»(١).

ويقول بعد قليل: «ولم يعلم هذا الجاهل معنى كلام الشافعى ﷺ فاعترض عليه بما قاله، وعجب الناس من ذلك، فقال: فى هذه المناظرة أعجوبة لمن تأمل، فكان كما قال القائل:

وكم من عائب قولاً صحيحا وآفته من الفهم السقيم(٢)

كما يقول فى موضع آخر: «وكيف يتصدى للتصنيف فى الدين من هذا مبلغ علمه، ومقدار فهمه، فيرسل الكلام من غير أن يتحقق ما يقول... ثم يتعرض للطعن فيمن لو عُمِّرَ عمر نوح ما اهتدى إلى مبادئ نظره فى الحقائق، فنسأل الله تعالى التوفيق، ونعوذ به من عمى البصيرة واتباع الهوى»(٣).

هذا... وإن المؤلف ـ رحمه الله ـ ليبين لنا فى مقدمة تفسيره الحامل له على تأليفه، ومنهجه الذى سلكه، وتقديره لكتابه فيقول:

«ولما رأيت الأمر كذلك ـ يريد رجحان مذهب الشافعى على غيره ـ أردت أن أصنف كتابًا فى أحكام القرآن، أشرح ما ابتدعه الشافعى ﷺ من أخذ الدلائل فى غوامض المسائل، وضممت إليه ما نسجته على منواله، واحتذيت فيه على مثاله، على قدر طاقتى وجهدى، ومبلغ وسعى وجدى... ولا يعرف قدر هذا الكتاب، وما فيه من العجب العجاب، ولباب الألباب، إلا من وفر حظه من علوم المعقول والمنقول، وتبحر فى الفروع الأصول، ثم انكب على مطالعة هذه الفصول، بمسكة صحيحة، وقريحة همة غير قريحة»(٤).

ثم إن المؤلف يتعرض لآيات الأحكام فقط، مع استيفاء ما فى جميع السور، والكتاب مخطوط فى مجلد كبير، وموجود فى دار الكتب المصرية، وفى المكتبة الأزهرية(٥).

---

(١) ص ٢١٤. (٢) ص ٢١٥. (٣) ص ٢٢٦. (٤) ص ٢.

(٥) طبع الكتاب طبعة غير محققة وتحتاج إلى تدقيق (د. مصطفى الذهبى).

٣- أحكام القرآن ـ لابن العربى (المالكى)

ترجمة المؤلف:

هو القـاضى أبو بكر محـمد بن عبـد الله بن محـمد بن عـبد الله بن أحـمد المعـافرى، الأندلسى، الإشـبيلى، الإمـام، العلامـة، المتـبحـر، ختام عـلماء الأندلس، وآخر أئمتها وحفاظها. . . كان أبوه من فقهاء إشبيلية ورؤسائها.

ولد أبو بكر سنة ٤٦٨هـ ثمان وسـتين وأربعمائة من الهـجرة، وتأدب ببلده، وقرأ القـراءات، ثم رحل إلى مـصر، والشام، وبغـداد، ومكة، وكان يـأخذ عن علماء كل بلد يرحل إليه حتى أتقن الفقـه، والأصول، وقيد الحديث، واتسع فى الرواية، وأتقن مـسائل الخلاف والكلام، وتـبحر فى التـفسـير، وبرع فى الأدب والشعر. . . وأخيـرًا عاد إلى بلده إشبيلية بعلم كثيـر، لم يأت به أحد قبله، ممن كانت له رحلة إلى المشرق.

وعلى الجملة، فقد كان ـ رحمه الله ـ من أهل التفنن فى العلوم، والاستبحار فيـها، والجمع لها، مـتقدمـا فى المعارف كلها، مـتكلمًا فى أنواعهـا، نافذًا فى جمـعها، حـريصًا على أدائهـا ونشرها، ثاقب الذهن فى تمـييز الصـواب منها، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق، مع حسن المعاشرة، وكثرة الاحتمال، وكرم النفس، وحسن العهد، وثبات الود، سكن بلده وشوور فيه، وسمع، ودرس الفقه والأصول، وجلس للوعظ والتفـسير، ورحل إليه للسماع، قـال القاضى عياض ـ وهو ممن أخـذوا عنه: (استقضى ببلده فنفع الله به أهلـها لصرامته، وشـدة نفوذ أحكامـه، وكانت له فى الظالمـين سيـرة مرهـوبة، وتؤثر عنه فى قضـائه أحكام غريبة، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثه).

هذا وقد ألف ـ رحمه الله ـ تـصانيف كثيرة مفيـدة، منها: أحكام القرآن. . . وهو ما نحن بصدده الآن، وكتاب المسالـك فى شرح موطأ مالك، وكتاب القبس على شـرح موطأ مـالك بن أنس، وعـارضـة الأحوذى على كـتـاب الترمـذى، والقواصم والعواصم، والمـحصول فى أصول الفقه، وكـتاب الناسخ والمنسوخ،

وتخليص التلخيص، وكتاب القانون فى تفسير القرآن العزيز، وكتاب أنوار الفجر فى تفسير القرآن... قيل: إنه ألفه فى عشرينه سنة، ويقع فى ثمانين ألف ورقة، وذكر بعضهم أنه رأى هذا التفسير وعد أسفاره فوجد عدتها ثمانين مجلدًا، وبالجملة فقد خلف ـ رحمه الله ـ كتبًا كثيرة، انتفع الناس بها بعد وفاته، كما نفع هو بعلمه من جلس إليه فى حياته، هذا... وقد كانت وفاته ـ رحمه الله ـ سنة ٥٤٣هـ ثلاث وأربعين وخمسمائة من الهجرة منصرفه من مراكش، وحمل ميتًا إلى مدينة فاس ودفن بها، فرضى الله عنه وأرضاه[١].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يتعرض هذا الكتاب لسور القرآن كلها، ولكنه لا يتعرض إلا لما فيها من آيات الأحكام فقط، وطريقته فى ذلك أن يذكر السورة ثم يذكر عدد ما فيها من آيات الأحكام، ثم يأخذ فى شرحها آية آية... قائلاً: الآية الأولى وفيها خمس مسائل (مثلاً) والآية الثانية وفيها سبع مسائل (مثلاً) وهكذا، حتى يفرغ من آيات الأحكام الموجودة فى السورة.

تفسير ابن العربى بين إنصافه واعتسافه:

هذا... وإن الكتاب يعتبر مرجعًا مهمّا للتفسير الفقهى عند المالكية، وذلك لأن مؤلفه مالكى تأثر بمذهبه، فظهرت عليه فى تفسيره روح التعصب له، والدفاع عنه، غير أنه لم يشتط فى تعصبه إلى الدرجة التى يتغاضى فيها عن كل زلة علمية تصدر من مجتهد مالكى، ولم يبلغ به التعسف إلى الحد الذى يجعله يفند كلام مخالفه إذا كان وجيهًا ومقبولاً، والذى يتصفح هذا التفسير يلمس منه روح الإنصاف لمخالفيه أحيانًا، كما يلمس منه روح التعصب المذهبى التى تستولى على صاحبها فتجعله أحيانًا كثيرة يرمى مخالفه وإن كان إمامًا له قيمته ومركزه بالكلمات المقذعة اللاذعة، تارة بالتصريح، وتارة بالتلويح، ويظهر لنا أن الرجل كان يستعمل عقله الحر، مع تسلط روح التعصب عليه، فأحيانًا يتغلب العقل على التعصب، فيصدر حكمه عادلاً لا تكدره شائبة التعصب، وأحيانًا ـ وهو الغالب ـ

---

(١) انظر الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ٢٨١ - ٢٨٤.

تتغلب العصبية المذهبية على العقل، فيصدر حكمه مشوبًا بالتعسف، بعيدًا عن الإنصاف.

طرف من إنصافه:

وإذا أردت أن أضع يدك على شيء من إنصاف الرجل واستعماله لعقله، فانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٨٧) من سورة البقرة: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ...**﴾ الآية، حيث يقول: «المسألة السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ**﴾ الاعتكاف في اللغة هو اللبث، وهو غير مقدر عند الشافعي، وأقله لحظة، ولا حد لأكثره، وقال مالك وأبو حنيفة: هو مقدر بيوم وليلة، لأن الصوم عندهما من شرطه، قال علماؤنا: لأن الله تعالى خاطب الصائمين، وهذا لا يلزم في الوجهين: أما اشتراط الصوم فيه بخطابه تعالى لمن صام فلا يلزم بظاهره ولا باطنه، لأنها حال واقعة لا مشترطة، وأما تقديره بيوم وليلة لأن الصوم من شرطه فضعيف، فإن العبادة لا تكون مقدرة بشرطها، ألا ترى أن الطهارة شرط في الصلاة، وتنقضي الصلاة، وتبقى الطهارة؟...»(١).

فأنت ترى أن المؤلف ـ رحمه الله ـ لم يرقه هذا الاستدلال الذى أظهر بطلانه، وهذا دليل على أنه يستعمل عقله الحر أحيانًا، فلا يسكت على الزلة العلمية فيما يعتقد، وإن كان فيها ترويج لمذهبه.

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٦) من سورة المائدة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ...**﴾ الآية، حيث يقول: «المسألة السابعة والعشرون في قوله تعالى: ﴿**بِرُءُوسِكُمْ...**﴾ ثم يذكر أن العلماء اختلفوا في مسح الرأس على أحد عشر قولاً، ثم يأخذ في بيانها واحدًا واحدًا، ثم يقول: «ولكل قول من هذه الأقوال مطلع من القرآن والسنة» ثم يذكر لنا مطلع كل قول، ثم يقول بعد أن يفرغ من هذا كله: «وليس يخفى على أحد عند اطلاعه على هذه الأقوال والأنحاء والمطلعات أن القوم لم يخرج اجتهادهم عن سبيل الدلالات في مقصود الشريعة،

(١) جـ١ ص ٤٠.

ولا جاوز طرفيها إلى الإفراط، فإن للشريعة طرفين، أحدهما طرف التخفيف فى التكليف، والآخر طرف الاحتياط فى العبادات، فمن احتاط استوفى الكل، ومن خفف أخذ بالبعض. . . »(١).

فأنت ترى أنه يصوب كل ما قيل فى مسح الرأس.

وانظر إليه فى الآية السابقة حيث يقول: «المسألة السادسة والأربعون: نزع علماؤنا بهذه الآية إلى أن إزالة النجاسة غير واجبة، لأنه قال: إذا قمتم إلى الصلاة: تقديره ـ كما سبق ـ وأنتم محدثون فاغسلوا وجوهكم وأيديكم، فلم يذكر الاستنجاء وذكر الوضوء، ولو كان واجبا لكان أول مبدوء به. . . وهى رواية أشهب عن مالك، وقال ابن وهب: لا تجزئ الصلاة بها لا ذاكرًا ولا ناسيًا. . . والصحيح رواية ابن وهب، ولا حجة فى ظاهر القرآن، لأن الله سبحانه وتعالى إنما بين فى آية الوضوء صفة الوضوء خاصة، وللصلاة شروط: من استقبال الكعبة، وستر العورة، وإزالة النجاسة. . . وبيان كل شرط منها فى موضعه. . . »(٢).

فأنت ترى أنه لا يميل إلى رواية أشهب عن مالك، ولا يرى فى ظاهر الآية ما يشهد له.

طرف من تعصبه لمذهبه:

وإن أردت أن أضع يدك على شىء من تعصب ابن العربى، فانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٨٦) من سورة النساء ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا...**﴾ الآية، حيث يقول: «المسألة السابعة: إذا كان الرد فرضًا بلا خلاف، فقد استدل علماؤنا على أن هذه الآية دليل على وجوب الثواب فى الهبة للعين، وكما يلزمه أن يرد مثل التحية يلزمه أن يرد مثل الهبة، وقال الشافعى: ليس فى هبة الأجنبى ثواب. . . وهذا فاسد، لأن المرء ما أعطى إلا ليعطى، وهذا هو الأصل فيها، وإنا لا نعلم عملاً لمولانا إلا ليعطينا، فكيف بعضنا لبعض. . . »(٣).

---

(١) جـ١ ص ٢٣٥، ٢٣٦. (٢) جـ١ ص ٢٤٠. (٣) جـ١ ص ١٩٤، ١٩٥.

حملته على مخالفى مذهبه:

وإن أردت أن تقف على مبلغ قسوته على أئمة المذاهب الأخرى وأتباعهم، فانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٢٩) من سورة البقرة ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا...﴾ الآية، حيث يقول: «المسألة الرابعة عشرة: هذا يدل على أن الخلع طلاق، خلافًا لقول الشافعى فى القديم إنه فسخ، وفائدة الخلاف أنه إن كان فسخًا لم يعد طلقة، قال الشافعى: لأن الله تعالى ذكر الطلاق مرتين وذكر الخلع بعده، وذكر الثالث بقوله تعالى ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ (البقرة: ٢٣٠) وهذا غير صحيح، لأنه لو كان كل مذكور فى معرض هذه الآيات لا يعد طلاقًا لوقوع الزيادة على الثلاث لما كان قوله تعالى ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ طلاقًا، لأنه يزيد به على الثلاث، ولا يفهم هذا إلا غبى أو متغاب... إلخ»(١).

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة النساء ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً...﴾ الآية، حيث يقول: «المسألة الثامنة والعشرون: قوله تعالى: ﴿مَاءً﴾ قال أبو حنيفة: هذا نفى فى نكرة وهو يعم لغة، فيكون مفيدًا جواز الوضوء بالماء المتغير، وغير المتغير لانطلاق اسم الماء عليه... قلنا: استنوق الجمل إلى أن يستدل أصحاب أبى حنيفة باللغات، ويقولون على ألسنة العرب وهم ينبذونها فى أكثر المسائل بالعراء، واعلموا أن النفى فى النكرة يعم كما قلتم، ولكن فى الجنس، فهو عام فى كل ما كان من سماء، أو بئر، أو عين، أو نهر، أو بحر عذب أو ملح، فأما غير الجنس فهو المتغير فلا يدخل فيه، كما لم يدخل فيه ماء الباقلاء...»(٢).

ونجده فى موضع من كتابه يرمى أبا حنيفة بأنه كثيرًا ما يترك الظواهر والنصوص للأقيسة(٣)، ويقول عنه فى موضع آخر إنه «سكن دار الضرب فكثر

---

(١) جـ١ ص ٨٢.

(٢) جـ١ ص ١٨٦.

(٣) جـ١ ص ١٧٦.

عنده المدلس، ولو سكن المعدن كما قيض الله لمالك، لما صدر عنه إلا إبريز الدين وإكسير الملة، كما صدر عن مالك»(١).

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ الآية، حيث يقول فى تعريض ساخر: (المسألة الحادية عشرة: قوله عز وجل ﴿فَاغْسِلُوا﴾ وظن الشافعى - وهو عند أصحابه معد بن عدنان فى الفصاحة بله أبى حنيفة وسواه - أن الغسل صب الماء على المغسول من غير عرك، وقد بينا فساد ذلك فى مسائل الخلاف، وفى سورة النساء، وحققنا أن الغسل مس اليد مع إمرار الماء، أو ما فى معنى اليد»(٢).

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة النساء ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾ حيث يقول: (المسألة الثانية عشرة: قوله تعالى ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾ اختلف الناس فى تأويله على ثلاثة أقوال: **الأول:** أن لا يكثر عيالكم... قاله الشافعى، **الثانى:** أن لا تضلوا.. قاله مجاهد، **الثالث:** أن لا تميلوا... قاله ابن عباس والناس... قلنا: أعجب أصحاب الشافعى، بكلامه هذا، وقالوا: هو حجة، لمنزلة الشافعى فى اللغة، وشهرته فى العربية، والاعتراف له بالفصاحة، حتى لقد قال الجوينى: هو أفصح من نطق بالضاد، مع غوصه على المعانى ومعرفته بالأصول... واعتقدوا أن معنى الآية: فانكحوا واحدة إن خفتم أن يكثر عيالكم، فذلكم أقرب إلى أن تنتفى عنكم كثرة العيال... قال ابن العربى: (كل ما قال الشافعى، أو قيل عنه، أو وصف به، فهو كله جزء من مالك ونقطة من بحره، ومالك أوعى سمعًا، وأثقب فهمًا، وأفصح لسانًا، وأبرع بيانًا، وأبدع وصفًا، ويدلك على ذلك مقابلة قول بقول فى كل مسألة وفصل) ثم تكلم بعد ذلك عن معنى لفظ «عال» فى اللغة، ثم قال: «والفعل فى كثرة العيال رباعى لا مدخل له فى الآية، فقد ذهبت الفصاحة، ولم تنفع الضاد المنطوق بها على الاختصاص»(٣).

---

(١) جـ١ ص ٣١٨. (٢) جـ١ ص ٢٣٢. (٣) جـ١ ص ١٣١.

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٥) من سورة النساء ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية، حيث يقول: «المسألة الخامسة: قال أبو بكر الرازى إمام الحنفية فى كتاب أحكام القرآن: ليس نكاح الأمة ضرورة، لأن الضرورة ما يخاف منه تلف النفس، أو تلف عضو، وليس فى مسألتنا شيء من ذلك، قلنا: هذا كلام جاهل بمنهاج الشرع، أو متهكم لا يبالى بموارد القول، نحن لم نقل إنه حكم نيط بالضرورة، إنما قلنا: إنه حكم علق بالرخصة المقرونة بالحاجة، ولكل واحد منهما حكم يختص به، وحالة يعتبر فيها، ومن لم يفرق بين الضرورة والحاجة التى تكون معها الرخصة، فلا يُعنى بالكلام معه، فإنه معاند أو جاهل، وتقرير ذلك إتعاب للنفس عند من لا ينتفع به»[(١)].

فأنت ترى من هذه الأمثلة كلها، أن الرجل ليس عف اللسان مع الأئمة، ولا مع أتباعهم، وهذه ظاهرة من ظواهر التعصب المذهبى، الذى يقود صاحبه إلى ما لا يليق به، ويدفعه إلى الخروج عن حد اللطافة والكياسة.

احتكامه إلى اللغة:

ثم إن المؤلف ـ رحمه الله ـ كثيرًا ما يحتكم إلى اللغة فى استنباط المعانى من الآيات، وفى الكتاب من ذلك أمثلة كثيرة يمكن الرجوع إليها بسهولة[(٢)].

كراهته للإسرائيليات:

كما أنه شديد النفرة من الخوض فى الإسرائيليات، ولذلك عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة البقرة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ الآية، نجده يقول: «المسألة الثانية: فى الحديث عن بنى إسرائيل: كثر استرسال العلماء فى الحديث عنهم فى كل طريق، وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» ومعنى هذا الخبر: الحديث عنهم بما يخبرون به عن أنفسهم وقصصهم، لا بما يخبرون به عن غيرهم؛ لأن أخبارهم عن غيرهم مفتقرة إلى العدالة

---

(١) جـ١ ص ١٦٤.

(٢) انظر ما قاله عند تفسير قوله تعالى فى سورة النساء ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾ جـ١ ص ١٣١، وما قاله عند تفسير قوله فى النساء أيضًا ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ جـ ١ ص ١٧٥.

وللثبوت إلى منتهى الخبر، وما يخبرون به عن أنفسهم، فيكون من باب إقرار المرء على نفسه أو قومه، فهو أعلم بذلك، وإذا أخبروا عن شرع لم يلزم قبوله، ففى رواية مالك عن عمر ﷺ أنه قال: رآنى رسول الله ﷺ وأنا أمسك مصحفًا قد تشرمت حواشيه، فقال: ما هذا؟ قلت: جزء من التوراة، فغضب وقال: والله لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعى»[(١)].

نفرته من الأحاديث الضعيفة:

كذلك نجد ابن العربى شديد النفرة من الأحاديث الضعيفة، وهو يحذر منها فى تفسيره هذا، فيقول لأصحابه بعد أن بين ضعف الحديث القائل بأن رسول الله ﷺ توضأ مرة وقال: هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به، وتوضأ مرتين مرتين، وقال: من توضأ مرتين مرتين آتاه الله أجره مرتين، ثم توضأ ثلاثًا ثلاثًا وقال: (هذا وضوئى ووضوء الأنبياء من قبلى، ووضوء أبى إبراهيم) يقول لهم بعدما بيَّن ضعف هذا الحديث: «وقد ألقيت إليكم وصيتى فى كل ورقة ومجلس، أن لا تشتغلوا من الأحاديث بما لا يصح سنده...»[(٢)].

هذا والكتاب مطبوع فى مجلدين كبيرين، ومتداول بين أهل العلم.

* * *

---

(١) جـ١ ص ١١.

(٢) جـ١ ص ٢٤١.

٤- الجامع لأحكام القرآن
لأبى عبد الله القرطبى (المالكى)

ترجمة المؤلف:

مؤلف هذا التفسير: هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح - بإسكان الراء والحاء المهملة - الأنصارى، الخزرجى، الأندلسى، القرطبى المفسر.

كان - رحمه الله - من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الزاهدين فى الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة، وبلغ من زهده أن اطرح التكلف، وصار يمشى بثوب واحد وعلى رأسه طاقية، وكانت أوقاته كلها معمورة بالتوجه إلى الله وعبادته تارة، وبالتصنيف تارة أخرى، حتى أخرج للناس كتبًا انتفعوا بها، ومن مصنفاته: كتابه فى التفسير المسمى بالجامع لأحكام القرآن، وهو ما نحن بصدده، وشرح أسماء الله الحسنى، وكتاب التذكار فى أفضل الأذكار، وكتاب شرح التقصى، وكتاب قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة، قال ابن فرحون: لم أقف على تأليف أحسن منه فى بابه، وله كتب غير ذلك كثيرة ومفيدة.

سمع من الشيخ أبى العباس بن عمر القرطبى، مؤلف المفهم فى شرح صحيح مسلم بعض هذا الشرح، وحدث عن أبى على الحسن بن محمد البكرى، وغيرهما، وكان مستقرًا بمنية ابن خصيب، وتوفى ودفن بها فى شوال سنة ٦٧١هـ إحدى وسبعين وستمائة من الهجرة، فرحمه الله رحمة واسعة[(١)].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

وصف العلامة ابن فرحون هذا التفسير فقال: «هو من أجل التفاسير وأعظمها نفعًا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ»[(٢)] وذكر المؤلف رحمه الله فى مقدمة هذا التفسير السبب الذى حمله على تأليفه، والطريق الذى رسمه لنفسه ليسير عليه فيه،

(١) انظر الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون ص ٣١٧، ٣١٨.
(٢) الديباج المذهب ص ٣١٧.

وشروطه التى اشترطها على نفسه فى كتابه فقال: «وبعد، فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجمع علوم الشرع الذى استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمرى، وأستفرغ فيه منتى[١]، بأن أكتب فيه تعليقًا وجيزًا يتضمن نكتًا من التفسير، واللغات، والإعراب، والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعًا بين معانيها، ومبينًا ما أشكل منها بأقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف... وشرطى فى هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها؛ فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله، وكثيرًا ما يجىء الحديث فى كتب الفقه والتفسير مبهمًا، لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرًا لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم، فلا يقبل منه الاحتجاج به ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من خرجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام، ونحن نشير إلى جمل من ذلك فى هذا الكتاب، والله الموفق للصواب، وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بد منه، وما لا غنى عنه للتبيين، واعتضت من ذلك تبيين آى الأحكام، بمسائل تفسر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكمًا أو حكمين فما زاد مسائل أبين فيها ما تحتوى عليه من أسباب النزول، والتفسير، والغريب، والحكم، فإن لم تتضمن حكمًا ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل... وهكذا إلى آخر الكتاب، وسميته بالجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنه من السنة وأحكام الفرقان...»[٢].

والذى يقرأ فى هذا التفسير يجد أن القرطبى - رحمه الله - قد وفَّى بما شرط على نفسه فى هذا التفسير، فهو يعرض لذكر أسباب النزول، والقراءات، والإعراب، ويبين الغريب من ألفاظ القرآن، ويحتكم كثيرًا إلى اللغة، ويكثر من الاستشهاد بأشعار العرب، ويرد على المعتزلة، والقدرية، والروافض، والفلاسفة، وغلاة المتصوفة، ولم يسقط القصص بالمرة، كما تفيده عبارة ابن فرحون، بل أضرب عن كثير منها، كما

(١) المنة: القوة.

(٢) القرطبى (١/ ٢، ٣).

ذكر فى مقدمة تفسيره، ولهـذا نلاحظ عليه أنه يروى أحيانًا ما جاء من غرائب القصص الإسرائيلى.

هذا. . . وإن المـؤلف ـ رحمـه الله ـ ينقل عن السلف كـثيـرًا ممـا أثر عنهم فى التفسير والأحكام، مع نسبة كل قول إلى قـائله وفاءً بشرطه، كما ينقل عمن تقدمه فى التفـسير، خصـوصًا من ألف منهم فى كتب الأحكام، مع تعـقيبه على مـا ينقل منها، وممن ينقل عنهم كثيرًا: ابن جرير الطبرى، وابن عطية، وابن العربى، والكيا الهراسى، وأبو بكر الجصاص.

وأما من ناحـية الأحكام، فإنا نلاحظ عليه أنه يفـيض فى ذكر مسائل الـخلاف ما تعلق منها بالآيات عن قرب، وما تعلق بها عن بعد، مع بيان أدلة كل قول.

إنصاف القرطبى وعدم تعصبه:

وخيـر ما فى الرجل أنه لا يتعصب لمـذهبه المالكى، بل يمـشى مع الدليل حتى يصل إلى ما يرى أنه الصواب أيّا كان قائله.

فمثلاً عندما تعرض لقـوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة البقرة ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ نجده عند المسألة السادسة عشرة من مسائل هذه الآية يعرض لإمامة الصـغير، ويذكر أقوال من يجيزها ومن يمنعهـا، ويذكر أن من المانعين لها جملة: مالكـًا، والثورى، وأصحاب الرأى، ولكنا نجده يخالف إمـامه لما ظهر له من الدليل على جوازها، وذلك حيث يقول: «قلت: إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئًا، ثبت فى صحيح البخارى عن عمرو بن سلمـة قال: كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الناس فنسألهم ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فـيقولون: يزعم أن الله أرسله. . . أوحى إليه كذا. . . أوحى إليـه كذا، فكنت أحفظ هذا الـكلام، فكأنما يقر فى صـدرى، وكانت العرب تلوم إسلامها فيقولون: اتركوه وقومه؛ فإنه إن ظهر عليهم فهو نبى صادق، فلما كانت وقعة الفـتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبى قومى بإسلامـهم، فلما قدم قال: جـئتكم والله من عند نبى الله حـقّـا. . . قال: صلوا صـلاة كذا فى حـين كذا، فـإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم، وليؤمكم أكثركم قرآنًا، فنظروا فلم يكن أحد أكثر منى قـرآنًا، لما كنت أتلقى من الركـبان. . . فـقدمـونى بين أيديهم وأنا ابن ست أو سـبع

سنين، وكانت على بردة إذا سجدت تقلصت عنى، فقالت امرأة من الحى: ألا تغطون عنا إست قارئكم؟ فاشتروا، فقطعوا لى قميصًا، فما فرحت بشىء فرحى بذلك القيمص»(١).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٧٣) من سورة البقرة ﴿... **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ**...﴾ نراه يعقد المسألة الثانية والثلاثين من مسائل هذه الآية فى اختلاف العلماء فيمن اقترن بضرورته معصية، فيذكر أن مالكًا حظر ذلك عليه، وكذا الشافعى فى أحد قوليه... وينقل عن ابن العربى أنه قال: (عجبًا ممن يبيح له ذلك مع التمادى على المعصية، وما أظن أحدًا يقوله، فإن قاله فهو مخطئ قطعًا) ثم يعقب القرطبى على هذا كله فيقول: «قلت: الصحيح خلاف هذا، فإن إتلاف المرء نفسه فى سفر المعصية أشد معصية مما هو فيه، قال الله تعالى فى الآية (٢٩) من سورة النساء: ﴿**وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ**﴾ وهذا عام ولعله يتوب فى ثانى الحال، فتمحو التوبة عنه ما كان...»(٢).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٨٥) من سورة البقرة ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**...﴾ الآية، نجده يعقد المسألة السابعة عشرة من المسائل التى تتعلق بهذه الآية فى اختلاف العلماء فى حكم صلاة عيد الفطر فى اليوم الثانى، فيذكر عن ابن عبد البر أنه لا خلاف عن مالك وأصحابه أنه لا تصلى صلاة العيد فى غير يوم العيد، ويذكر عنه أيضًا أنه قال: «لو قضيت صلاة العيد بعد خروج وقتها لأشبهت الفرائض، وقد أجمعوا فى سائر السنن أنها لا تقضى، فهذه مثلها» ثم يعقب القرطبى على هذا فيقول: «قلت: والقول بالخروج - يعنى لصلاة العيد فى اليوم الثانى - إن شاء الله أصح، للسنة الثابتة فى ذلك، ولا يمتنع أن يستثنى الشارع من السنن ما شاء، فيأمر بقضائه بعد خروج وقته، وقد روى الترمذى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يصل ركعتى الفجر فليصلهما بعدما تطلع الشمس».. قلت: وقد قال علماؤنا: من ضاق عليه الوقت، وصلى الصبح، وترك ركعتى الفجر، فإنه يصليهما بعد طلوع الشمس إن شاء، وقيل: لا يصليهما حينئذ، ثم إذا قلنا يصليهما... فهل ما

(١) جـ١ ص ٣٥٢. (٢) جـ٢ ص ٣٣٢.

يفعله قضاء؟ أو ركـعتان ينوب له ثوابها عن ثواب ركعتى الفـجر؟ قال الشيخ أبو بكر: وهذا الجارى على أصل المذهب، وذكر القضاء تجوز، قلت: ولا يبعد أن يكون حكم صلاة الفطر فى اليوم الثانى على هذا الأصل، لا سيما مع كونها مرة واحدة فى السنة، مع مـا ثبت من السنة، ثم روى عن النسـائى بسنده (أن قـومًا رأوا الهـلال فـأتوا النبى ﷺ فأمـرهم أن يفطروا بعدما ارتفع النهـار، وأن يخرجوا إلى العيـد من الغد، وفى رواية: ويخرجوا لمصلاهم من الغد»[1].

ومثلاً نجده عندما تعرض لقـوله تعالى فى الآية (١٨٧) من سورة البقرة: ﴿أُحِـلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ..﴾ الآية، نجده فى المسألة الثانية عشرة من مسائل هذه الآية يذكر خلاف العلماء فى حكم من أكل فى نهار رمـضان ناسيًا... فيذكر عن مالك أنه يفطر وعليه القـضاء، ولكنه لا يرضى ذلك الحكم فيقول: «وعند غـير مالك ليس بمفطر كل من أكل ناسيًا لصومه، قلت: وهو الصحيح، وبه قال الجمهور إن من أكل أو شرب ناسـيًا فـلا قضاء عليـه، وإن صومـه تام، لحديث أبى هريرة قـال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل الصائم ناسيًا أو شرب ناسـيًا فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه، ولا قضاء عليه...»[2].

ومثلاً عندمـا تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٣٦) من سـورة البقرة ﴿لا جُـنَـاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ نجده يذكـر فى المسألة السـادسة من مسائل هذه الآية اختلاف العلماء فى حكم المتعة، فيذكر من يقول بوجوبها، ويذكر من يقول بندبها، ويعد فى ضمن القائلين بالندب مالكًا رحمه الله، ثم يقول: «تمسك أهل القول الأول بمـقتضى الأمر، وتمـسك أهل القول الثانى بقـوله تعالى ﴿حَـقًّـا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ و ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢٤١) ولو كانت واجبـة لأطلقها على الخلق أجمعـين، والقول الأول أولى؛ لأن عمومات الأمـر بالامتناع فى قوله ﴿وَمَـتِّعُـوهُنَّ﴾ وإضافة الإمتاع إليهن بلام التمليك فى قوله ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ﴾ (البقرة: ٢٤١) أظهر فى الوجوب منه فى الندب، وقوله ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ تأكيد لإيجابها؛ لأن كل واحد يجب

(١) جـ٢ ص ٣٠٤، ٣٠٥.
(٢) جـ٢ ص ٣٢٢.

عليه أن يتقى الله فى الإشراك به ومعاصيه، وقد قال تعالى فى القرآن فى الآية (٢) من سورة البقرة ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾»(١).

موقفه من حملات ابن العربى على مخالفيه:

كذلك نجد القرطبى ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يدفعه الإنصاف إلى أن يقف موقف الدفاع عمن يهاجمهم ابن العربى من المخالفين، مع توجيه اللوم إليه أحيانًا، على ما يصدر منه من عبارات قاسية فى حق علماء المسلمين، الذاهبين إلى ما لم يذهب إليه.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة النساء ﴿ ... ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ نراه يروى عن الشافعى أنه فسرها على معنى: ألا تكثر عيالكم، ثم يقول: «قال الثعلبى: وما قال هذا غيره وإنما يقال: أعال يعيل إذا كثر عياله، وزعم ابن العربى: أن عال على سبعة معان لا ثامن لها، **يقال**: عال: مال، **الثانى**: زاد، **الثالث**: جار، **الرابع**: افتقر، **الخامس**: أثقل، حكاه ابن دريد، قالت الخنساء:

* ويكفى العشيرة ما عالها *

السادس: عال: قام بمؤنة العيال، ومنه قوله ﷺ: «وابدأ بمن تعول» **السابع**: عال: غلب، ومنه عيل صبره أى: غلب، ويقال: أعال الرجل: كثر عياله، وأما عال بمعنى كثر عباله فلا يصح.

قلت: أما قول الثعلبى (ما قاله غيره) فقد أسنده الدارقطنى فى سننه عن زيد بن أسلم، وهو قول جابر بن زيد، فهذان إمامان من علماء المسلمين وأئمتهم قد سبقا الشافعى إليه، وأما ما ذكره ابن العربى من الحصر وعدم الصحة فلا يصح، وقد ذكرنا: عال الأمر: اشتد وتفاقم... حكاه الجوهرى.

وقال الهروى فى غريبه: (وقال أبو بكر: يقال عال الرجل فى الأرض يعيل فيها إذا ضرب فيها، وقال الأحمر: يقال: عالنى الشىء يعيننى عيلاً ومعيلاً إذا أعجزك، وأما عال كثر عياله فذكره الكسائى وأبو عمرو الدورى وابن الأعرابى، قال الكسائى أبو الحسن على بن حمزة: العرب تقول: عال يعول وأعال يعيل أى كثر عياله، وقال أبو حاتم: كان الشافعى أعلم بلغة العرب منا... ولعله لغة، قال الثعلبى المفسر: قال

(١) جـ٣ ص ٢٠٠.

أستاذنا أبو القاسم بن حبيب: سألت أبا عمرو الدورى عن هذا ـ وكان إمامًا فى اللغة غير مدافع ـ فقال: هى لغة حمير، وأنشد:

وإن الموت يأخذ كل حى بلا شك وإن أمشى وعالا

يعنى: وإن كثر ماشيته وعياله، وقال أبو عمرو بن العلاء: لقد كثرت وجوه العرب حتى خشيت أن آخذ على لاحن لحنًا، وقرأ طلحة بن مصرف: ألا تعيلوا، وهى حجة الشافعى ﷺ، وقدح الزجاج وغيره فى تأويل عال من العيال بأن قال: إن الله تعالى قد أباح كثرة السرارى وفى ذلك تكثير العيال، فكيف يكون أقرب إلى ألا تكثر العيال؟ وهذا القدح غير صحيح، لأن السرارى إنما هى مال يتصرف فيه بالبيع، وإنما القادح: الحرائر ذوات الحقوق الواجبة، وحكى ابن الأعرابى: أن العرب تقول: عال الرجل إذا كثر عياله»[١].

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة النحل ﴿**وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا**﴾ نراه يعيب على ابن العربى تشنيعه على من يقول من الحنفية وغيرهم بحل النبيذ، وجعله إياهم مثل أغبياء الكفار فيقول: «وهذا تشنيع شنيع، حتى يلحق فيه العلماء الأخيار فى قصور الفهم بالكفار»[٢].

وعلى الجملة، فإن القرطبى رحمه الله فى تفسيره هذا حر فى بحثه، نزيه فى نقده، عف فى مناقشته وجدله، ملم بالتفسير من جميع نواحيه، بارع فى كل فن استطرد إليه وتكلم فيه.

أما الكتاب فقد كان الناس محرومين منه إلى زمن قريب، ثم أراد الله له الذيوع بين أولى العلم فقامت دار الكتب المصرية بطبعه، فتم منه إلى الآن أربعة عشر جزءًا تنتهى بآخر سورة فاطر، وعسى أن يعجل الله بإتمام ما بقى منه، حتى يتم به النفع إنه سميع مجيب[٣].

---

(١) جـ٥ ص ٢١ - ٢٢. (٢) جـ١٠ ص ١٣٠.

(٣) وقد حقق الله الرجاء وتم طبع الكتاب، كما قدمنا.

٥- كنز العرفان فى فقه القرآن
لمقداد السيورى (من الإمامية الاثنى عشرية)

ترجمة المؤلف:

مؤلف هذا التفسير، هو مقداد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن محمد السيورى[١] أحد علماء الإمامية الاثنى عشرية، والمعروف بينهم بالعلم، والفضل والتحقيق، والتدقيق وله مؤلفات كثيرة، منها: تفسيره هذا؛ ومنها التنقيح الرائع فى شرح مختصر الشرائع، وشرح مبادئ الأصول... وغير ذلك، وكان فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجرى[٢].

التعريف بهذاالتفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يتعرض هذا التفسير لآيات الأحكام فقط، وهو لا يتمشى مع القرآن سورة سورة على حسب ترتيب المصحف ذاكرًا ما فى كل سورة من آيات الأحكام كما فعل الجصاص زابن العربى مثلاً، بل طريقته فى تفسيره: أنه يعقد فيه أبوابًا كأبواب الفقه، ويدرج فى كل باب منها الآيات التى تدخل تحت موضوع واحد فمثلاً يقول: باب الطهارة، ثم يذكر ما ورد فى الطهارة من الآيات القرآنية، شارحًا كل آية منها على حدة، مبينًا ما فيها من الأحكام على حسب ما يذهب إليه الإمامية الاثنا عشرية فى فروعهم، مع تعرضه المذاهب الأخرى، ورده على من يخالف ما يذهب إليه الإمامية الاثنا عشرية.

هذا، وإن طريقته التى يسلكها فى تدعيم مذهبه وترويجه، وإبطال مذهب مخالفيه، لا تخرج عن أمرين اثنين:

أولهما: الدليل العقلى.

---

(١) السيورى: نسبة إلى السيور، وهو ما يقد من الجلد، أو إلى بلد من بلاد اليمن كما فى روضات الجنات.

(٢) انظر روضات الجنات ص ٥٦٦ - ٥٦٧ (توفى عام ٨٢٦ هـ).

ثانيهما: دعوى أن ما ذكره هو ما ذهب إليه أهل البيت.

أما الدليل العقلى، فيندر أن يسلم له كمستند يستند إليه فى صحة ما يشذ به.

وأما دعوى أن ما ذكـره هو ما ذهب إليه أهل البيت، فتلك دعوى كـثيرًا ما تكون كاذبة، يلجأ إليها الشيعة عندما يعوزهم الدليل، وتخونهم الحجة، وإليك بعض ما جاء فى هذا التفسير لتقف على مقدار شذوذ صاحبه.

فمثلاً عند قـوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة النساء ﴿ ... **وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا** ... ﴾ يقول: «... فتيمموا أى فتعمدوا واقصدوا صعيدًا طيبًا، أى شيئًا من وجه الأرض كقوله ﴿**صَعِيدًا زَلَقًا**﴾ **(الكهف: ٤٠)** طيبًا: أى طاهرًا، ولذلك قال أصحابنا: لو ضرب المتيمم يده على حجر صلب ومسح: أجزأه، وبه قالت الحنفية، وقالت الشافعية: لا بد أن يعلق باليد شيء، لقوله ﴿**فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ**﴾ **(المائدة: ٦)** وفيه نظر، لجواز كون (من) هنا ابتدائية، والوجه: المراد بعضه، وهو الجبهة عند أكثر أصحابنا، إما لكون الباء للتبعيض، أو للنصوص عن أهل البيت عليهم السلام، فمسح الجبهة إلى طرف أنفه الأعلى، وكذا المراد باليدين: ظهر اليد من الزند إلى أطراف الأصابع»(١).

ويقول عندما تعرض لآية التيمم فـى سورة المائدة: «وتجب ضربة واحدة للوضوء واثنتان للغسل» ثم يرد على الحنفية والشافعية القائلين بأن التيمم ضربتان: واحدة للوجه وأخرى لليدين، وأن المراد بالوجه كله، وباليدين إلى المرفقين... يرد عليهم فيقول: «وروايات أهل البيت تدفع ذلك»(٢).

وعندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٣٠) من سورة البقرة ﴿ ... **فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ** ... ﴾ يقول: «... مدلول الآية أنه إذا طلقها الزوج عقيب الطلقتين تنكح زوجًا غير ذلك المطلق وهذا الحكم عند أصحابنا مخصوص بما عدا طلاق العدة، فإن ذلك يحرم فى التاسعة أبدًا ـ وطلاق العدة هو أن يطلق المدخول بها على الشرائط ثم يراجعها فى العدة ثم يطلقها مرة ثانية ويفعل كما فعل أولاً، ثم يطلقها ثالثة، فإذا فعل ذلك ثلاثة أدوار حرمت عليه عندهم أبدًا»(٣).

(١، ٢) ص ٨، ٩. (٣) ص ٢٥٢.

وهكذا يسير المؤلف بهـذا الشذوذ فى كثير من الأحكام، وبهذا التـعسف والتخبط فى فـهم نصـوص القرآن، والـذى يقرأ الكتـاب يرى الكثـيـر من ذلك، ويعـجب من محاولاته الفاشلة فـى استنباط ما يشذ به من الآيات التى تجبهـه، ولا يمكن أن تتمشى مع مذهبـه بحال من الأحـوال، هذا، وإن الكتاب مطبوع على هامـش تفسيـر الحسن العسكرى، وموجود بدار الكتب.

* * *

٦- الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة ليوسف الثلائى (الزيدى)(١)

ترجمة المؤلف:

مؤلف هذا التـفسـير هو شمس الدين يوسف بن أحـمد بن مـحمد بن أحـمد بن عثمـان الثلائى، الزيدى الفقـيه، أحد أصحـاب الإمام المهدى، وأحـد أساطين العلم وجبال التحقيق عند أصحابه، ارتحل الناس إليه من الأقطار إلى ثلا، وكان إذا قرأ أمتلأ الجامع بالطلبة، وباقيهم بكتبهم فى الطاقات من خارج المسجد.

أخذ عن الفقـيه حسن النحوى، وله تصانيف، منهـا: الزهور والرياض، والثمرات اليانعة، وهو أجل مصنف عند الزيدية، وهو ما نحن بصدده الآن، توفى رحمه الله بثلا فى شهر جمادى الآخرة سنة ٨٣٢هـ اثنتين وثلاثين وثمانمائة من الهجرة(٢).

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقع هذا التـفسـير فى ثـلاثة أجزاء كـبار، ومنه نسـخة خـطية كـاملة بدار الكتب المصرية، ويوجد بالمكتـبة الأزهرية الجزء الثانى فقط، وهو مخطوط فى مـجلد كبير، يبدأ من قـوله تعالى فى الآية (٤) من سـورة المائدة ﴿يَسْـأَلُونَكَ مَـاذَا أُحِلَّ لَهُمْ...﴾ الآية، وينتهى عند قوله تعالى فى الآية (٣٦) من سورة النور ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾.

قرأت فى هذا التفسـير فوجدت المؤلف يقـتصر على آيات الأحكام، متمـشيًا مع ترتيب المصحـف فى سوره وآياته، يذكر الآية أولاً، ثم يذكر ما ورد فـى سبب نزولها إن كان لهـا سبب، ثم يقـول: ولهذه الآية ثمرات، هى أحكـام شرعيـة: الأولى: كذا والثانية: كذا... إلى أن ينتهى من كل ما يتعلق بالآية من الأحكام.

---

(١) طبع فى اليمن مؤخرًا فى ستة مجلدات (د/ مصطفى الذهبى).

(٢) انظر شرح الأزهار (١/ ٤٣).

اعتماد المؤلف على الروايات التى لا تصح:

ويلاحظ على هذا التفسير أن مؤلفه لا يتحرى الصحة فيما ينقله من الأحاديث، وما يذكره من ذلك يمر عليه مرّا سابريّا بدون أن يعقب عليه بكلمة واحدة تشعر بضعف الحديث أو وضعه، فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ نراه يذكر الروايات الواردة فى سبب نزول هذه الآية، ويذكر ضمن ما يذكر: أنها نزلت فى على بن أبى طالب لما تصدق بخاتمه فى الصلاة وهو راكع[1]، وقد علمنا أن هذه رواية موضوعة لا أساس لها من الصحة، ولكن المؤلف يذكرها، ثم يأخذ فى تفريع الأحكام على هذه القصة المكذوبة، كأنها عنده من الثابت الصحيح.

تقديره لكشاف الزمخشرى:

كذلك يلاحظ على المؤلف فى تفسيره هذا أنه كثير النقل عن الكشاف للزمخشرى، مما يدل على أنه معجب به وبتفسيره إلى حد كبير، ولعل ذلك ناشئ عما بين الرجلين من صلة التمذهب بمذهب الاعتزال.

مسلكه فى أحكام القرآن:

أما مسلك المؤلف فى أحكام القرآن، فإنه يسرد أقوال السلف والخلف فى المسألة، فيعرض لما ورد عن الصحابة والتابعين، ويعرض لمذهب الشافعية، والحنفية، والمالكية، والظاهرية، والإمامية... وغيرهم من فقهاء المذاهب، ذاكرًا لكل مذهب دليله ومستنده فى الغالب، كما يذكر بعناية خاصة مذهب الزيدية واختلاف علمائهم فى المسألة التى يعرض لها، مع الإفاضة فى بيان أدلتهم التى استندوا إليها، والرد على من يخالفهم فيما يذهبون إليه... كل هذا بدون أن نلحظ على الرجل شيئًا من القدح فى مخالفيه، كما يفعل غيره ممن سبق الكلام عنهم، وإليك بعض ما جاء فى هذا التفسير لتقف على مقدار دفاع المؤلف عن مذهبه، وعمله على تأييده بالبراهين والأدلة.

---

(١) جـ٢ ص ٥٨.

رأيه فى نكاح الكتابيات:

فمثلاً عندما تعـرض لقوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة ﴿**الْيَـوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ...**﴾ إلى قـوله: ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُـــورَهُنَّ...**﴾ الآية، نراه يعرض لأقوال الـعلماء فى حكم نكاح الكتابيات فـيقول: «... ظاهر الآية جواز نكاح الكتابيـة، وهذا مذهب أكثر الفقهـاء والمفسرين، ورواية عن زيد بن على، والصادق، والباقر، واختاره الإمـام يحيى بن حمزة وقال: إنه إجماع الصدر الأول من الصحابة، وإن عثمان قد نكح نائلة بنت الفرافصة وهى نصرانية، فلما توفى عثمان خطبها معاوية، فقالت: وما يعـجبك منى؟ قال: ثنياتك، فقلعتهما وأمرت بهمـا إليه، ونكح طلحـة نصرانية، ونـكح حذيفة يهـودية، وقال القـاسم، والهادى، والناصر، ومحمد بن عبد الله، وعامة القاسمية، وهو مروى عن ابن عمر: إنه لا يجوز لمسـلم نكاح كافـرة كـتابـية كانت أو غيـرها، واحتجوا بقوله تعالى فى سـورة البقرة: ﴿**وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ**﴾ (البقـرة: ٢٢١) قالوا: هذا فى المـشركات لا فى الكتابيات، قلنا: اسم المـشرك ينطلق على أهل الكتاب، بدليل قوله تعـالى، بعد ذكر اليهودى والنصارى فى قوله ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ...**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ (التـوبة: ٣١) وعن ابن عمر: لا أعلم شركًا أعظم من قول النصارى إن ربهـا عيسى، وعن عطاء: قد كثر الله المـسلمات، وإنما رخص لهم يومئذ، قالوا: إنه تعالى عطف أحدهما على الآخر فـدل أنهما غيران -حيث قال تعالى: ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ**﴾ (البـينة: ١) قلنا: هذا كقوله تعالى: ﴿**الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ**﴾ (البقرة: ١٨٠) قالوا: الآية مصرحة بالجواز فى قوله تعالى: ﴿**وَالْمُـحْصَـنَاتُ مِنَ الَّذِيـنَ أُوتُـوا الْكِـتَابَ**﴾ قلـنا: قولـه تعـالـى فى سورة الممـتحنة: ﴿**وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ**﴾ (الممتحنة: ١٠) وقوله تعالى فى سورة النور: ﴿**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ**﴾ (النور: ٢٦) وقوله تعالى فى سورة النساء: ﴿**وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم**﴾ (النساء: ٢٥) فشرط الإيمان فى هذا يقتضى التحريم فتتأول هذه الآية بأنه أراد المحـصنات من أهل الكتاب الذين قد أسلمـوا؛ لأنهم كانوا يتكرهون ذلك، فسـماهم

باسم ما كانوا عليه، وقد ورد مثل هذا فى كتاب الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ (البقرة: ١٢١) وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ (البقرة: ١٤٦) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٩٩) قالوا: سبب النزول وفعل الصحابة يدل على الجواز، وإنا نجمع بين الآيات الكريمة فنقول: قوله تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ عام ونخصه بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أو نقول: أراد بالمشركات الوثنيات، وبالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب ما أفاده الظاهر، أو يكون قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ ناسخًا لتحريم الكتابيات بقوله: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ قلنا: نقل ما ذكرتم بما روى أن كعب بن مالك أراد أن يتزوج بيهودية أو نصرانية فسأل النبى ﷺ وآله عن ذلك فقال: إنها لا تحصن ماءك، وروى أنه نهاه عن ذلك، وبأنا نتأول قوله تعالى ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فنجمع ونقول: وتخصيص المشركات بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب متراخ، والبيان لا يجوز أن يتراخى، قالوا: روى جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ أنه قال: أحل لنا ذبائح أهل الكتاب وأحل لنا نساؤهم، وحرم عليهم أن يتزوجوا نساءنا، قال فى الشفاء: قال علماؤنا: هذا حديث ضعيف النقل، قالوا: قوله ﷺ وآله فى المجوس: سنوا بهم سنة أهل الكتاب. . . الخبر، فأفاد جواز ذبائحهم، ونكاح نسائهم، قلنا: الجواز منسوخ بأدلة التحريم، ثم إنا نقوى أدلتنا بالقياس، فنقول: كافرة فأشبهت الحربية، أو لما حرمت الموارثة حرمت المناكحة، أو لما حرم نكاح الكافر للمسلمة حرم العكس قالوا: لا حكم للاعتبار مع الأدلة. . .»(١) .

المسح على الخفين:

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ...﴾ الآية، نراه يعرض لمسألة المسح على الخفين فيقول: «. . . . . إن المسح على الخفين والجوربين لا يجوز، وهو مروى عن علىٍّ،

---

(١) جـ٢ ص ٦، ٧.

عليـه السلام، وابن عـباس، وعـمار بن يـاسر، وأبى هريرة، وعـائشة، وقـال عامـة الفقهاء... إنه يجوز المسح عليهما، حجتنا هذه الآية، وهى قوله تعالى ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فأمرت بتطهير الرجلين، والماسح على الخفـين لا يكون مطهرًا لهما، وكذلك الأخبار التى دلت على الغسل للقدمـين، فأما ما روى أنه ﷺ وآله مسح على الخـفين وأمر به، فهـذه الأخبار كانت بمكة وبعـد هجرته ﷺ وآله، ثم نزلت سورة المـائدة بعد ذلك فكانت ناسخـة، ويدل على هذا ما رواه زيد بن على عن آبائه عليـهم السلام عن على عليه السلام قال: لمـا كان فى ولاية عمر جاء سعد بن أبى وقاص فـقال: يا أمير المؤمنين، ما لقيت من عمـار، قال: وما ذاك؟ قال: خرجت وأنا أريدك ومعى الناس، فأمرت مناديًا فنادى بالصلاة، ثم دعوت بطهور فتطهرت ومسحت على خفى، وتقدمت أصـلى، فاعتزلنـى عمار، فلا هو اقـتدى بى ولا هو تركـنى، فجعل ينادى من خلفى: يا سعد: أصـلاة من غير وضوء؟ فـقال عمر: يا عمـار، أخرج مما جـئت به، فقال: نعم... كان المسح قبل الـمائدة، فقال عمر: يا أبا الحسن مـا تقول؟ قال: أقول: إن المسح كـان من رسول الله ﷺ فى بيت عائشة، والـمائدة نزلت فى بيتهـا، فأرسل عمر إلى عـائشة فقالت: كان المـسح قبل المائدة، فقل لعمـر: والله لأن يقطع قدماى بعقبـهما أحب إلى من أن أمسح عليـهما، فقـال عمر: لا نأخذ بقـول امرأة، ثم قال: أنشد الله امرءًا شهـد المسح من رسول الله لما قام، فقام ثمانيـة عشر رجلاً كلهم رأى رسول الله ﷺ وآله يمسح وعليه جبة شامية ضيقة الكمين، فأخرج يده من تحتها ثم مسح على خفيه، فقال عمـر: ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال: سلهم... أقبل المائدة أم بعدها؟ فسألهم، فقالوا: ما ندرى، فقـال على عليه السلام: أنشد الله امرءًا مسلمًا علم أن المسح قبل المائدة لما قام، فقام اثنان وعـشرون رجلاً، فتفرق القوم وهؤلاء يقولون لا نترك مـا رأينا، وعن سعيد بن جـبير عن ابن عـباس: والله ما مسح رسـول الله بعد المائدة، ولأن أمسح على ظهر عيـر بالفلاة أحب إلى من أن أمسح على الخفين، وعن على عليه السلام: سـبق الكتاب الخفين - قيل مـعناه قطع - وعن أبى هريرة: ما أبالى على خفى مسحت أو على ظهر حمار، فـثبت للنسخ بما ذكر، وأما قول جرير: رأيت رسول الله يمسح، وكان إسلامه بعد المـائدة، فروايته لا تقبل مع إنكار أمير المؤمنين؛

ولأنه لحق بمعاوية فكان ذلك قدحًا، هذا كلام أهل المذهب والمسألة إجماعية من أهل البيت عليهم السلام»[١].

وهكذا نجد المؤلف ـ رحمه الله ـ يناقش مخالفيه من أصحاب المذاهب الأخرى مناقشة حادة، وإن دلت على شيء فهو قوة ذهن الرجل، وسعة اطلاعه، هذا... ولا يكاد القارئ لهذا التفسير يجد فيه خلافًا كثيرًا للمذاهب الفقهية الأخرى، كما هو الشأن فى كتب التفسير الفقهى للإمامية الاثنى عشرية، وهذا راجع إلى تقارب وجهات النظر بين الزيدية وأهل السنة فى أصول الفقه وفروعه.

* * *

(١) جـ٢ ص ١٨، ١٩.

التفســـــير العلمى

معنى التفسير العلمى:

نريد بالتفسير العلمى: التفسير الذى يُحكِّم الاصطلاحات العلمية فى عبارات القرآن، ويجتهد فى استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها.

التوسع فى هذا النوع من التفسير وكثرة القائلين به:

وقد وقع هذا النوع من التفسير، واتسع القول فى احتواء القرآن كل العلوم ما كان منها وما يكون، فالقرآن فى نظر أصحاب هذه الطريقة يشمل إلى جانب العلوم الدينية الاعتقادية والعملية، سائر علوم الدنيا على اختلاف أنواعها، وتعدد ألوانها.

الإمام الغزالى والتفسير العلمى:

ويظهر لنا ـ على حسب ما قرأنا ـ أن الإمام الغزالى كان ـ إلى عهده ـ أكثر من استوفى بيان هذا القول فى تفسير القرآن، وأهم من أيده وعمل على ترويجه فى الأوساط العلمية الإسلامية، على رغم ما قرر فيها من قواعد فهم عبارات القرآن.

وبين أيدينا كتاب الإحياء للغزالى نتصفحه فنجده يعقد الباب الرابع من أبواب آداب تلاوة القرآن فى فهم القرآن وتفسيره، بالرأى من غير نقل، وفيه ينقل عن بعض العلماء «أن القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم، إذ كل كلمة علم، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف؛ إذ لكل كلمة ظاهر وباطن، وحد ومطلع»[(١)] ثم يروى عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: «من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن»[(٢)] ثم يقول بعد ذلك كله: «وبالجملة فالعلوم كلها داخلة فى أفعال الله عز وجل وصفاته، وفى القرآن شرح ذاته وأفعال وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفى القرآن إشارة إلى مجامعها»[(٣)]

---

(١) جـ٢ ص ١٨، ١٩.

(٢) الإحياء (٣/ ١٣٥) مطبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٣٥٦هـ.

(٣) المرجع السابق.

ثم يزيد على ذلك فيقول: «بل كل ما أشكل فهمه على النظار، واختلف فيه الخلائق فى النظريات؛ والمعقولات، فى القرآن إليه رمز ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدركها»(١).

ثم إننا نتصفح كتابه (جواهر القرآن) الذى ألفه بعد الإحياء كما يظهر لنا من مقدمته، فنجده يزيد هذا الذى قرره فى الإحياء بيانًا وتفصيلاً، فيعقد الفصل الرابع منه لكيفية انشعاب العلوم الدينية كلها وما يتصل بها من القرآن عن تقسيمات وتفصيلات تولاها لا نطيل بذكرها، ويكفى أن نقول: إنه قسم علوم القرآن إلى قسمين:

الأول: علم الصدف والقشر، وجعل من مشتملاته: علم اللغة، وعلم النحو، وعلم القراءات، وعلم مخارج الحروف، وعلم التفسير الظاهر.

والثانى: علم اللباب، وجعل من مشتملاته: علم قصص الأولين، وعلم الكلام، وعلم الفقه، وعلم أصول الفقه، والعلم بالله واليوم الآخر، والعلم بالصراط المستقيم، وطريق السلوك(٢).

ثم يعقد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن، فيذكر علم الطب والنجوم، وهيئة العالم، وهيئة بدن الحيوان، وتشريح أعضائه، وعلم السحر، وعلم الطلسمات. . . وغير ذلك ثم يقول: «ووراء ما عددته علوم أخرى، يعلم تراجمها ولا يخلو العالم عمن يعرفها، ولا حاجة إلى ذكرها بل أقول: ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التى لا يتمارى فيها أن فى الإمكان والقوة أصنافًا من العلوم بعد لم تخرج من الوجود، وإن كان فى قوة الآدمى الوصول إليها، وعلوم كانت قد خرجت من الوجود واندرست الآن، فلن يوجد فى هذه الأعصار على بسيط الأرض من يعرفها، وعلوم أخر ليس فى قوة البشر أصلاً إدراكها والإحاطة بها، ويحظى بها بعض الملائكة المقربين، فإن الإمكان فى حق الآدمى محدود، والإمكان فى حق الملك محدود إلى غاية من النقصان، وإنما الله سبحانه هو الذى لا يتناهى العلم فى حقه»(٣).

---

(١) المرجع السابق.

(٢) جواهر القرآن ص ٢١ - ٣١ مطبعة كردستان سنة ١٣٢٩هـ.

(٣) جواهر القرآن ص ٣١، ٣٢.

ثم يقول بعد ذلك: «ثم هذه العلوم ما عددنا وما لم نعددها، ليست أوائلها خارجه من القرآن، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى، وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد، فمن أفعال الله تعالى وهو بحر الأفعال مثلاً ـ الشفاء والمرض كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء: ٨٠) وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه. ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، وقد قال الله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمن: ٥) وقال: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ (يونس: ٥) وقال: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (القيامة: ٨، ٩) وقال: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ (لقمان: ٢٩) وقال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (يس: ٣٨) ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما، وولوج الليل فى النهار، وكيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض، وهو علم برأسه ولا يعرف كمال معنى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار: ٦ ـ ٨) إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطنًا، وعددها وأنواعها، وحكمتها ومنافعها، وقد أشار فى القرآن فى مواضع إليها، وهى من علوم الأولين والآخرين، وفى القرآن جامع علم الأولين والآخرين، وكذلك لا يعرف معنى قوله ﴿سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (ص: ٧٢) ما لم يعلم التسوية، والنفخ، والروح، ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق، وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها، ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال ولا يمكن الإشارة إلا إلى مجامعها.. فتفكر فى القرآن، والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين..»(١).

---

(١) جواهر القرآن ص ٣٢ ـ ٣٤.

الجلال السيوطى والتفسير العلمى:

كذلك نجد العلامة جلال الدين السيوطى ينحو منحى الغزالى فى القول بالتفسير العلمى، ويقرر ذلك بوضوح وتوسع فى كتابه (الإتقان) فى النوع الخامس والستين منه، كما يقرر ذلك أيضًا بمثل هذا الوضوح والتوسع فى كتابه (الإكليل فى استنباط التنزيل) ونجده يسوق من الآيات والأحاديث والآثار ما يستدل به على أن القرآن مشتمل على كل العلوم.

فمن الآيات قوله: تعالى فى الآية (٣٨) من سورة الأنعام: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ**﴾ وقوله فى الآية (٨٩) من سورة النحل ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ**﴾[١].

ومن الأحاديث: ما أخرجه الترمذى وغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «ستكون فتن، قيل: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم»[٢] وما أخرجه أبو الشيخ عن أبى هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لو أغفل شيئًا لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة»[٣].

ومن الآثار: ما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود أنه قال: «من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خبر الأولين والآخرين»[٤] وما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «أنزل فى القرآن كل علم وبين لنا فيه كل شيء، لكن علمنا يقصر عما بين لنا فى القرآن»[٥].

ثم نجده بعد أن يسوق هذه الأدلة وغيرها يذكر لنا عن بعض العلماء أنه استنبط أن عمر النبى ﷺ ثلاث وستون سنة من قوله تعالى فى الآية (١١) من سورة المنافقين ﴿**وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا**﴾ فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن فى فقده»[٦].

---

(١) الإتقان (٢/ ١٣٥).

(٢) الإتقان (٢/ ١٣١).

(٣) الإكليل ص ٢.

(٤) الإتقان (٢/ ١٢٦).

(٥) الإكليل ص ٢.

(٦) الإكليل ص ٢ والإتقان (٢/ ١٢٦).

أبو الفضل المرسى والتفسير العلمى:

ثم ذكر عن أبى الفضل المرسى أنه قال فى تفسيره: (جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم به، ثم رسول الله ﷺ، خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم، مثل الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس حتى قال: لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله تعالى، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم، وتضاءل أمل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه، فنوعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه، فاعتنى قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه، وعددها، وعدد كلماته، وآياته، وسوره، وأحزابه، وأنصافه، وأرباعه، وعدد سجداته والتعليم عند كل عشر آيات. . . إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة، والآيات المتمائلة، من غير تعرض لمعانيه، ولا تدبر لما أودع فيه، فسموا القراء.

واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبنى من الأسماء والأفعال، والحروف العاملة، وغيرها، وأوسعوا الكلام فى الأسماء وتوابعها، وضروب الأفعال، واللازم، والمتعدى، ورسوم خط الكلمات، وجميع ما يتعلق به، حتى إن بعضهم أعرب مشكله، وبعضهم أعربه كلمة كلمة.

واعتنى المفسرون بألفاظه، فوجدوا منه لفظًا يدل على معنى واحد، ولفظًا يدل على معنيين، ولفظًا يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه، وأوضحوا معنى الخفى منه، وخاضوا فى ترجيح أحد محتملات ذى المعنيين والمعانى؛ وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة القطعية، والشواهد الأصلية والنظرية، مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منها أدلة على وحدانية الله، ووجوده، وبقائه، وقدمه، وقدرته، وعلمه، وتنزيهه عما لا يليق به، وسموا هذا العلم بأصول الدين.

وتأملت طائفة منهم معانى خطابه، فرأت منها ما يقتضى العموم، ومنها ما يقتضى

الخصوص، إلى غير ذلك، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز، وتكلموا فى التخصيص، والإضمار، والنص، والظاهر، والمجمل، والمحكم، والمتشابه، والأمر، والنهى، والنسخ. . . إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة، واستصحاب الحال، والاستقراء، وسموا هذا الفن أصول الفقه.

وأحكمت طائفة صحيح النظر، وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام، وسائر الأحكام، فأسسوا أصوله، وفرعوا فروعه، وبسطوا القول فى ذلك بسطًا حسنًا، وسموه بعلم الفروع وبالفقه أيضًا.

وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السابقة، والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودونوا آثارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا، وأول الأشياء، وسموا ذلك بالتاريخ.

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم، والأمثال، والمواعظ التى تقلقل قلوب الرجال، وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد، والوعيد، والتحذير، والتبشير، وذكر الموت، والمعاد، والنشر، والحشر، والحساب، والعقاب، والجنة، والنار، فصولاً من المواعظ، وأصولاً من الزواجر، فسموا بذلك الخطباء والوعاظ.

واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير، مثل ما ورد فى قصة يوسف فى البقرات السمان، وفى منامى صاحبى السجن، وفى رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة، وسموه تعبير الرؤيا، واستنبطوا تأويل كل رؤيا من الكتاب، فإن عز عليهم إخراجها منه فمن السنة التى هى شارحة للكتاب، فإن عز فمن الحكم والأمثال، ثم نظروا إلى اصطلاح العوام فى مخاطباتهم وعرف عاداتهم، الذى أشار إليه القرآن بقوله: ﴿**وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ (لقمان: ١٧).

وأخذ قوم مما فى آية المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك، علم الفرائض، واستنبطوا منها من ذكر النصف، والثلث، والربع، والسدس، والثمن، حساب الفرائض، ومسائل العدل، واستخرجوا منه أحكام الوصايا.

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة، فى الليل، والنهار، والشمس، والقمر، ومنازله، والبروج، وغير ذلك فاستخرجوا منه علم المواقيت.

ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيـه من جزالة اللفظ، وبديع النظم وحسن السياق، والمبادئ، والمقاطع، والمخالص، والتلوين فى الخطاب، والإطناب، والإيجاز، وغير ذلك واستنبطوا منه المعانى، والبيان، والبديع.

ونظر فـيه أرباب الإشـارات، وأصحـاب الحقـيقـة، فلاح لهم من ألفـاظه معـان ودقائـق، جعلوا لهـا أعلامًـا اصطلحوا عليـها، مـثل: الفناء، والبـقاء، والحـضور، والخوف، والهيبة، والأنس، والوحشة، والقبض، والبسط، وما أشبه ذلك.

هذه الفنون أخـذتها الملة الإسلامـية منه، وقـد احتوى على علـوم أخر من علوم الأوائل مثل: الطب، والجـدل، والهيئة، والهندسـة، والجبر، والمقابلـة، والنجامة، وغير ذلك من العلوم.

أمـا الـطب: فمداره على حـفظ نظام الصحة واستحكـام القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المـزاج بتفاعل الكيفيـات المتضادة، وقد جـمع ذلك فى آية واحدة وهى قوله تعـالى ﴿ **وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴾ (الفرقـان: ٦٧) وعرفنا فيه بما يفـيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحدوث الشفاء للبـدن بعد اعتلاله فى قوله تعالى ﴿ **شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ** ﴾ (النحل: ٦٩) ثم زاد على طب الأجسام بطب القلوب، وشفاء الصدور.

وأمـا الهـيئـة: ففى تضـاعيف سورة من الآيات التى ذكـر فيها ملكوت السـموات والأرض، وما بث فى العالم العلوى والسفلى من المخلوقات.

وأما الهـندسة: ففى قـوله تعالى ﴿ **انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (٣٠) لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ** ﴾ (المرسلات: ٣٠، ٣١) فإن فيه قاعدة هندسية، وهو أن الشكل المثلث لا ظل له.

وأمـــا الجـــدل: فقـد حوت آياته من البراهين، والمـقدمات، والنتـائج، والقول بالموجب، والمعارضة، وغير ذلك شيئًا كثيرًا، ومناظرة إبراهيم نمرود، ومحاجته قومه أصل فى ذلك عظيم.

وأما الجبر والمقابلة: فقد قيل: إن أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام التواريخ لأمم سالفة، وإن فـيها بقاء هذه الأمـة، وتاريخ مدة أيام الدنيا، وما مـضى وما بقى، مضروب بعضها فى بعض.

وأما النجامة: ففى قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ (الأحقاف: ٤) فقد فسره بذلك ابن عباس.

وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التى تدعو الضرورة إليها، كالخياطة فى قوله ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ (طه: ١٢١) والحدادة ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ (الكهف: ٩٦) والبناء فى آيات، والنجارة ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (هود: ٣٧) والغزل ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ (النحل: ٩٢) والنسج ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ (العنكبوت: ٤١) والفلاحة ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ (الواقعة: ٦٣) الآيات، والصيد فى آيات، والغوص ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ (ص: ٣٧) ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً﴾ (النحل: ١٤) والصياغة ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا﴾ (الأعراف: ١٤٨) والزجاجة ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ (النمل: ٤٤) ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ (النور: ٣٥) والفخارة ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ (القصص: ٣٨) والملاحة ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ...﴾ (الكهف: ٧٩) الآية، والكتابة ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (العلق: ٤) وفى آيات أخر، والخبز ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾ (يوسف: ٣٦) والطبخ ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (هود: ٦٩) والقصارة ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر: ٤) ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ (الصف: ١٤) وهم القصارون، والجزارة ﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ (المائدة: ٣) والبيع والشراء فى آيات، والصبغ ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٣٨) ﴿جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ (فاطر: ٢٧) والحجارة ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ (الشعراء: ١٤٩) والكيالة والوزن فى آيات كثيرة، والرمى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ (الأنفال: ١٧) ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠).

وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات، والمشروبات، والمنكوحات، وجميع ما وقع ويقع فى الكائنات ما يحقق معنى قوله ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨) قال السيوطى: انتهى كلام المرسى ملخصًا مع زيادات»(١).

ثم بعد روايته لهذه المقالة الطويلة، نجده يذكر عن أبى بكر بن العربى أنه قال فى كتابه قانون التأويل: «علوم القرآن خمسون علمًا، وأربعمائة علم، وسبعة آلاف علم، وسبعون ألف علم، على عدد كلم القرآن مضروبة فى أربعة؛ إذ لكل كلمة ظهر بطن، وحد ومطلع، وهذا مطلق دون اعتبار التركيب وما بينها من روابط، وهذا ما لا يحصى، وما لا يعلمه إلا الله»(٢).

---

(١) الإكليل ص ٢ - ٥، والإتقان (٣/ ١٢٦ - ١٢٨).

(٢) الإتقان (٢/ ١٣٨).

وأخيرًا عقب السيوطى على هذه النقول وغيرها فقال: «وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هى أصل إلا وفى القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السموات والأرض، وما فى الأفق الأعلى وما تحت الثرى وو... إلى غير ذلك مما يحتاج شرحه إلى مجلدات»(١).

ومن هذا يتبين لك كيف ظهرت آثار الثقافات العلمية للمسلمين فى تفسير القرآن الكريم، وكيف حاول هؤلاء العلماء المتقدمون أن يجعلوا القرآن منبع العلوم كلها، ما جد منها وما يجد إلى يوم القيامة.

ولو أنَّا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم، لوجدنا أن هذه النزعة ـ نزعة التفسير العلمى ـ تمتد من عهد النهضة العباسية إلى يومنا هذا، ولوجدنا أنها كانت فى أول الأمر عبارة عن محاولات، يقصد منها التوفيق بين القرآن، وما جد من العلوم، ثم وجدت الفكرة مركزة وصريحة على لسان الغزالى، وابن العربى، والمرسى، والسيوطى، ولوجدنا أيضا أن هذه الفكرة قد طبقت عمليًا، وظهرت فى مثل محاولات الفخر الرازى، ضمن تفسيره للقرآن.

ثم وجدت بعد ذلك كتب مستقلة فى استخراج العلوم من القرآن، وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم، وراجت هذه الفكرة فى العصر المتأخر رواجًا كبيرًا بين جماعة من أهل العلم، ونتج عن ذلك مؤلفات كثيرة تعالج هذا الموضوع، كما ألفت بعض التفاسير التى تسير على ضوء هذه الفكرة، ونرى أن نؤجل البحث عن التفسير العلمى فى هذه المرحلة الأخيرة إلى خاتمة الكتاب؛ حيث نعرض لألوان التفسير فى العصر الحديث إن شاء الله تعالى.

إنكار التفسير العلمى

إذا كانت فكرة التفسير العلمى قد راجت عند بعض المتقدمين، وازدادت رواجًا عند بعض المتأخرين، فإنها لم تلق رواجًا عند بعض العلماء الأقدمين، كما أنها لم تلق رواجًا عند بعض المتأخرين منهم أيضًا.

---

(١) الإتقان (٢/ ١٢٩ - ١٣٢).

إنكار الشاطبى للتفسير العملى:

ويظهر لنا على حسب ما قرأنا أن زعيم المعارضة لهذه الفكرة فى العصور المتقدمة هو الفقيه الأصولى، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبى، الأندلسى، المتوفى سنة ٧٩٠هـ تسعين وسبعمائة من الهجرة؛ وذلك أنا نجده فى كتابه (الموافقات) يعقد بحثًا خاصًا لمقاصد الشارع، وينوع هذه المقاصد إلى أنواع تولى شرحها وبيانها، والذى يهمنا هنا النوع الثانى منها وهو «بيان قصد الشارع فى وضع الشريعة للأفهام) وفى المسألة الثالثة من مسائل هذا النوع نجده يقرر أن (هذه الشريعة المباركة أمية؛ لأن أهلها كذلك(١) فهو أجرى على اعتبار المصالح. . .»(٢) ثم دلل على ذلك بأمور ثلاثة لا نطيل بذكرها، ثم عقب بفصل ذكر فيه «أن العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس، وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق، واتصاف بمحاسن الشيم، فصححت الشريعة منها ما هو صحيح وزادت عليه، وأبطلت ما هو باطل، وبينت منافع ما ينفع من ذلك، ومضار ما يضر منه» ثم ذكر من العلوم الصحيحة التى كان للعرب اعتناء بها علم النجوم وما يختص به من الاهتداء فى البر، والبحر، واختلاف الأزمان باختلاف سيرها، وما يتعلق بهذا المعنى، ثم قال: «وهو معنى مقرر فى أثناء القرآن فى مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾ (الأنعام: ٩٧) وقوله: ﴿**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ (النحل: ١٦) وقوله: ﴿**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ (يس: ٣٩، ٤٠) وقوله ﴿**هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ**﴾ (يونس: ٥) وقوله: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً...**﴾ (الإسراء: ١٢) الآية، وقوله: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ**﴾ (الملك: ٥) وقوله: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾ (البقرة: ١٨٩) وما أشبه ذلك من الآيات.

---

(١) يريد أن تنزيل الشريعة على مقتضى حال المنزل عليهم أوفق برعاية المصالح التى يقصدها الشارع الحكيم. من الشارح (٢/ ٦٩).

(٢) الموافقات (٢/ ٦٩).

وذكر علم الأنواء، وأوقات نزول الأمطار، وإنشاء السحاب، وهبوب الرياح المثيرة لها، وعرض لما ورد فى ذلك من القرآن مثل قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ⑫ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ** ﴾ (الرعد: ١٢، ١٣) الآية، وقوله: ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ⑱ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ** ﴾ (الواقعة: ٦٨، ٦٩) وقوله: ﴿ **وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ (فاطر: ٩). . . وغير ذلك من الآيات.

وذكر علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية، قال: وفى القرآن من ذلك ما هو كثير. . . قال تعالى ﴿ **ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ** ﴾ (آل عمران: ٤٤) الآية، وقال تعالى: ﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا** ﴾ (هود: ٤٩).

وذكر علم الطب، وبين أنه كان فى العرب منه شيء مبنى على تجارب الأميين، لا على قواعد الأقدمين، قال: وعلى ذلك المساق جاء فى الشريعة لكن على وجه جامع، شاف، قليل، يطلع منه على كثير، فقال تعالى: ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا** ﴾ (الأعراف: ٣١).

وذكر التفنن فى علم فنون البلاغة، والخوض فى وجوه الفصاحة، والتصرف فى أساليب الكلام. . . قال: وهو أعظم منتحلاتهم، فجاءهم بما أعجزهم من القرآن، قال تعالى: ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ (الإسراء: ٨٨).

وذكر ضرب الأمثال، واستشهد بقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ** ﴾ (الروم: ٥٨).

وذكر من العلوم التى عنى بها العرب وأكثرها باطل أو جميعها، علم العيافة والزجر، والكهانة، وخط الرمل، والضرب بالحصى، والطيرة، قال: «فأبطلت الشريعة من ذلك الباطل، ونهت عنه كالكهانة، والزجر، وخط الرمل، وأقرت الفأل لا من جهة تطلب الغيب؛ فإن الكهانة والزجر كذلك، وأكثر هذه الأمور تخرص على علم الغيب من غير دليل فجاء النبى ﷺ بجهة من تعرف علم الغيب مما هو حق محض، وهو

الوحى والإلهام، وبقى للناس من ذلك بعد موته عليه السلام جزء من النبوة وهو الرؤيا الصالحة، وأنموذج من غيره لبعض الخاصة وهو الإلمام والفراسة»(١).

ثم بعد هذا البيان الذى أوضح فيه الشاطبى أن الشريعة فى تصحيح ما صححت وإبطال ما أبطلت قد عرضت من ذلك إلى ما تعرفه العرب من العلوم، ولم تخرج عما ألفوه، نراه يزيد هذا البيان إسهابًا، وإيضاحًا، ويتوجه باللوم إلى من أضافوا للقرآن كل علوم الأولين والآخرين، مفندًا هذا الزعم، الذى اعتقد أن قائليه قد تجاوزوا به الحد فى دعواهم على القرآن، وذلك حيث يقول فى المسألة الرابعة من مسائل النوع الثانى من المقاصد - أعنى مقاصد وضع الشريعة للإفهام؛ «ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها - وهم العرب - ينبنى عليه قواعد: منها: أن كثيرًا من الناس تجاوزوا فى الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبعيات والتعاليم كالهندسة وغيرها من الرياضيات، والمنطق وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح»(٢).

ثم يصحح الشاطبى رأيه هذا ويحتج له بما عرف عن السلف من نظرهم فى القرآن فيقول: «. . . إن السلف الصالح - من الصحابة والتابعين ومن يليهم - كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه، ولم تبلغنا أنه تكلم أحد منهم فى شىء من هذا المدعى سوى ما تقدم، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف، وأحكام الآخرة، وما يلى ذلك، ولو كان لهم فى ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة، إلا أن ذلك لم يكن فدل على أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشىء مما زعموا، نعم تضمن علومًا من جنس علوم العرب أو ما ينبنى على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة، دون الاهتداء بأعلامه، والاستنارة بنوره، أما أن فيه ما ليس من ذلك فلا»(٣).

ثم أخذ الشاطبى بعد هذا فى ذكر ما استند إليه أرباب التفسير العلمى من الأدلة

---

(١) الموافقات (٢/ ٧١ - ٧٦).
(٢) الموافقات (١/ ٧٩).
(٣) الموافقات (٢/ ٧٩، ٨٠).

فقال: (وربما استدلوا على دعاهم بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩) وقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨) ونحو ذلك، وبفواتح السور - وهى مما لم يعهد عند العرب - وبما نقل عن الناس فيها، وربما حكى من ذلك عن على بن أبى طالب رضي الله عنه وغيره أشياء»[1].

ثم أخذ الشاطبى رحمه الله يفند هذه الأدلة فقال:

فأما الآيات: فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد، أو المراد بالكتاب فى قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾: اللوح المحفوظ، ولم يذكروا فيها ما يقتضى تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية.

وأما فواتح السور: فقد تكلم الناس فيها بما يقتضى أن للعرب بها عهدًا، كعدد الجمل الذى تعرفوه من أهل الكتاب، حسبما ذكره أصحاب السير، أو هى من المتشابهات التى لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى، وغير ذلك، وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ولم يدعه أحد ممن تقدم، فلا دليل فيها على ما ادعوا، وما ينقل عن علىٍّ أو غيره فى هذا لا يثبت، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه، ويجب الاقتصار فى الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة؛ فبه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه، وتقوَّل على الله ورسوله فيه، والله أعلم، وبه التوفيق»[2].

هذه هى الخلاصة الشاملة لمقالة الشاطبى فى هذا الموضوع، وذلك هو رأيه فى التفسير العلمى الذى شغف به بعض العلماء المتقدمين والمتأخرين، وأحسب أنى - وقد وضعت بين يدى القارئ مقالة كل فريق وما يستند إليه من أدلة - قد أنرت له الطريق، وأوضحت له السبيل؛ ليختار لنفسه ما يحلو له، بعد أن يحكم على أحدهما بأنه خير مقالة وأحسن دليلاً.

* * *

(١) الموافقات (٢/ ٨٠).
(٢) الموافقات (٢/ ٨١، ٨٢).

اختيارنا فى هذا الموضوع

أما أنا فاعتقادى أن الحق مع الشاطبى رحمه الله، لأن الأدلة التى ساقها لتصحيح مدعاه أدلة قوية، لا يعتريها الضعف، ولا يتطرق إليها الخلل، ولأن ما أجاب به على أدلة مخالفيه أجوبة سديدة دامغة لا تثبت أمامها حججهم، ولا يبقى معها مدعاهم.

وهناك أمور أخرى يتقوى بها اعتقادنا أن الحق فى جانب الشاطبى ومن لف لفه، فمن ذلك ما يأتى:

أولاً: الناحية اللغوية:

وذلك أن الألفاظ اللغوية لم تقف عند معنى واحد من لدن استعمالها إلى اليوم، بل تدرجت حياة الألفاظ وتدرجت دلالاتها، فكان لكثير من الألفاظ دلالات مختلفة، ونحن وإن كنا لا نعرف شيئًا عن تحديد هذا التدرج وتاريخ ظهور المعانى المختلفة للكلمة الواحدة، نستطيع أن نقطع بأن بعض المعانى للكلمة الواحدة حادث باصطلاح أرباب العلوم والفنون، فهناك معان لغوية، وهناك معان شرعية، وهناك معان عرفية، وهذه المعانى كلها تقوم بلفظ واحد، بعضها عرفته العرب وقت نزول القرآن، وبعضها لا علم للعرب به وقت نزول القرآن، نظرًا لحدوثه وطروه على اللفظ، فهل يعقل بعد ذلك أن نتوسع هذا التوسع العجيب فى فهم ألفاظ القرآن، وجعلها تدل على معان جدت باصطلاح حادث، ولم تعرف للعرب الذين نزل القرآن عليهم؟ وهل يعقل أن الله تعالى إنما أراد بهذه الألفاظ القرآنية هذه المعانى التى حدثت بعد نزول القرآن بأجيال، فى الوقت الذى نزلت فيه هذه الألفاظ من عند الله، وتليت أول ما تليت على من كان حول النبى ﷺ؟ . . . أعتقد أن هذا أمر لا يعقله إلا من سفه نفسه، وأنكر عقله.

ثانيًا: الناحية البلاغية:

عرفت البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومعلوم أن القرآن فى أعلى درجات البلاغة، فإذا نحن ذهبنا مذهب أرباب التفسير العلمى وقلنا بأن القرآن متضمن لكل العلوم، وألفاظه متحملة لهذه المعانى المستحدثة، لأوقعنا أنفسنا فى ورطة لا خلاص لنا منها إلا بما يخدش بلاغة القرآن، أو يذهب بفطانة العرب؛ وذلك لأن من

خوطبـوا بالقرآن فى وقت نزوله إن كانوا يجـهلون هذه المعـانى، وكان الله يريدها من خطابه إياهم لزم على ذلك أن يكون القرآن غير بليغ، لأنه لم يراع حال المخاطب وهذا سلب لأهم خصائص القرآن الكريم، وإن كانوا يعرفون هذه المعانى فلم لم تظهر نهضة العرب العلمـية من لدن نزول القرآن الذى حـوى علوم الأولين والآخرين؟ ولم لم تقم نهضتهم على هذه الآيات الشارحة لمختلف العلوم وسائر الفنون؟ . . . وهذا أيضًا سلب لأهم خصائص العرب ومميزاتهم.

ثالثًا: الناحية الاعتقادية:

القرآن الكريم باق ما تعاقب الملوان، ونظامه نافع لكل عصر وزمان، فهو يتحدث إلى عقول الناس جميـعًا من لدن نزوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو يساير حيـاتهم فى كل ما يمرون به من مراحل الزمـن، وهذا كله بحكم كونه كتاب الشـريعة العامة الشاملة، وقانون الدين الذى جعله الله خاتم شرائع السموات إلى أهل الأرض.

هذا ما يجب على كل مسلم أن يعتـقده ويدين به، حتى يسلم له دينه، ولا يرتاب فيـه، فإذا نحن ذهبنا مـذهب من يُحَمِّـل القرآن كل شىء، وجـعلناه مصدرًا لـجوامع الطب، وضوابط الفلك، ونظريات الهندسة، وقوانين الكيمياء، وما إلى ذلك من العلوم المختلفة، لكنا بذلك قد أوقعنا الشك فى عـقائد المسلمين نحو القرآن الكريم، وذلك لأن قواعد العلوم وما تقوم عليه من نظريات، لا قـرار لها ولا بقاء، فرب نظرية علمية قال بها عالم الـيوم، ثم رجع عنها بعد زمن قليل أو كثيـر، لأنه ظهر له خطأها، وأمام سمعنا وبصرنا من المـثل ما يشهد بأن كثيرًا من جوامع العلم لا يضـبطها اليوم أحد إلا تغير ضبطه لها بعد ذلك، وكم بين نظريات العلم قديمة وحديثة من تناف وتضاد، فهل يعقل أن يكون القرآن محتملاً لجميع هذه النظريات والقواعد العلمية على ما بينهما من التنافى والتضاد؟ وإذا كـان هذا معقولاً، فهل يعقل أن يصدق مـسلم بالقرآن بعد هذا، ويكون على يقين بأنه كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ . . .

الحق أن القرآن لا يعنى بهذا اللون من حياة الناس، ولا يتعهده بالشرح ولا يتولاه بالبيان، حتى يكون مصدرهم الذى يرجعون إليه فى تعرف حياتهم العلمية الدنيوية.

ويبدو لنا أن أنصار هذه الفكرة ـ فكرة التفسير العلمى ـ لم يقولوا بها، ولم يعملوا

على تأييدها إلا بعد أن نظروا إليها كوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وبيان صلاحيته للحياة، وتمشيه معها على اختلاف أحوالها وتطور أزمانها، ولكن (ما هكذا يا سعد تورد الإبل) فإن إعجاز القرآن غنى عن أن يسلك فى بيانه هذا المسلك المتكلف، الذى قد يذهب بالإعجاز، وهناك من ألوان الإعجاز غير هذا ما يشهد للقرآن بأنه كتاب الله المنزل على محمد ﷺ.

وإذا كان أرباب هذا المسلك فى التفسير يستندون إلى ما تناولته بعض آيات القرآن من حقائق الكون ومشاهده، ودعوة الله لهم بالنظر فى كتاب الكون وآياته التى بثها فى الآفاق وفى أنفسهم، إذا كانوا يستندون إلى مثل هذا فى دعواهم أن القرآن قد جمع علوم الأولين والآخرين، فهم مخطئون ـ ولا شك ـ وذلك لأن تناول القرآن لحقائق الكون ومشاهده، ودعوته إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض وفى أنفسهم، لا يراد منه إلا رياضة وجدانات الناس، وتوجيه عامتهم وخاصتهم إلى مكان العظة والعبرة، ولفتهم إلى آيات قدرة الله ودلائل وحدانيته، من جهة ما لهذه الآيات والمشاهد من روعة فى النفس وجلال فى القلب، لا من جهة ما لها من دقائق النظريات وضوابط القوانين، فليس القرآن كتاب فلسفة أو طب أو هندسة. . .

وليعلم أصحاب هذه الفكرة أن القرآن غنى عن أن يعتز بمثل هذا التكلف، الذى يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنسانى الاجتماعى، فى إصلاح الحياة، ورياضة النفس، والرجوع بها إلى الله تعالى.

وليعلم أصحاب هذه الفكرة أيضًا، أن من الخير لهم ولكتابهم أن لا ينحوا بالقرآن هذا المنحى فى تفسيرهم، رغبة منهم فى إظهار إعجاز القرآن وصلاحيته للتمشى مع التطور الزمنى، وحسبهم أن لا يكون فى القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية ثابتة، وحسب القرآن أنه يمكن التوفيق بينه وبين ما جد ويجد من نظريات وقوانين علمية، تقوم على أساس من الحق، وتستند إلى أصل من الصحة.

* * *

الخاتمـــــة

كلمة عامة عن التفسير وألوانه فى العصر الحديث

التفسير بين ماضيه وحاضره:

لم يترك الأوائل للأواخـر كبير جـهد فى تفسيـر كتاب الله، والكشف عن معـانيه ومراميه؛ إذ أنهم نظروا إلى القـرآن باعتباره دستورهم الذى جمـع لهم بين سعادة الدنيا والآخرة، فتناولوه من أول نزوله بدراستهم التفسيرية التحليلية، دراسة سارت مع الزمن على تدرج ملحوظ، وتلون بألوان مختلفة مرت بك كلهـا، أو مر بك على التحقيق ما وصلنا إليه فى دراستنا وقراءتنا الواسعة المستفيضة.

والذى يقرأ كتب التفسير على اختلاف ألوانها، لا يدخلة شك فى أن كل ما يتعلق بالتفسيـر من الدراسات المختلفة قـد وفاه هؤلاء المفسرون الأقدمون حـقه من البحث والتحقـيق، فالناحية اللغـوية، والناحية البلاغيـة، والناحية الأدبية، والناحـية النحوية، والناحيـة الفقهيـة، والناحية المـذهبية، والناحيـة الكونية الفلسفـية، كل هذه النواحى وغيرها تناولها المفســرون الأول بتوسع ظاهر ملموس، لم يترك لمن جاء بعدهم ـ إلى ما قـبل عصرنا بقليل ـ من عـمل جديد، أو أثر مبتكر يقـومون به فى تفاسـيرهم التى ألفوها، اللهم إلا عمـلاً ضئيلاً لا يعدو أن يكون جمـعًا لأقوال المتقدمـين، أو شرحا لغامضـها، أو نقدًا وتفنيدًا لما يعتـوره الضعف منها، أو ترجيحًـا لرأى على رأى، مما جعل التفسير يقف وقفة طويلة مليئة بالركود، خالية من التجديد والابتكار.

مميزات التفسير فى العصر الحديث:

ولقد ظل الأمر على هذا، وبقى التـفسير واقفا عند هذه المـرحلة ـ مرحلة الركود والجمـود ـ لا يتعداها، ولا يحـاول التخلص منها، حـتى جاء عصـر النهضة العلمـية الحديثة، فاتجهت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير إلى أن يتحرروا من قيد هذا الركود، ويتخلـصوا من نطاق هذا الجمود، فنظروا فى كـتاب الله نظرة ـ وإن كان لها اعتمـاد كبير على ما دونه الأوائل فى التـفسير ـ أثرت فى الاتجاه التفـسيرى للقرآن تأثيـرًا لا يسـعنا إنـكاره، ذلك هو العـمل على التـخلـص من كل هذه الاسـتطرادات

العلمية، التى حشـرت فى التفسير حشرًا ومزجت به على غـير ضرورة لازمة، والعمل على تنقيـة التفسيـر من القصص الإسرائيلى الـذى كاد يذهب بجمال القـرآن وجلاله، وتمحيص ما جاء فيه من الأحاديث الضـعيفة أو الموضوعة على رسول الله ﷺ، أو على أصحابه رضي الله عنهم، وإلباس التـفسير ثوبًا أدبيًا اجتماعيًـا، يظهر روعة القرآن، ويكشف عن مراميه الدقيقة وأهدافه الساميـة، والتوفيق بجد بالغ وجهد ظاهر بين القرآن وما جد من نظريات علمية صحيحة، على تفاوت بين الموقفين فى الغلو والاعتدال، وكان ذلك من أجل أن يعـرف المسلمـون وغير المـسلمين أن القـرآن هو الكتاب الخـالد، الذى يتـمشى مع الزمن فى جـميع أطـواره ومراحله. . . وهناك غـير هذه الآثار آثار أخـرى ظهرت فى الاتجـاه التفسـيرى فى هذا العصـر الحديث، نشـأت عن عوامل مخـتلفة، أهمها: التوسع العلمى والتأثر بالمذهب والعـقيدة، والإلحاد الذى قام على حرية الرأى الفاسد.

ألوان التفسير فى العصر الحديث:

وعلى ضوء مـا تقدم، نسـتطيع أن نجمل ألوان التـفسيـر فى العصـر الحديث فى الألوان الأربعة الآتية وهى أهمها:

أولاً: اللون العلمى.

ثانيًا: اللون المذهبى.

ثالثًا: اللون الإلحادى.

رابعًا: اللون الأدبى الاجتماعى.

وسـأتكلم عن هذه الألوان الأربعة للتـفسيـر فى العصـر الحديث، على حـسب ترتيبها، وبمـقدار ما استفدت من قـراءاتى فى كتب التفسير وما يتـصل به من مؤلفات جدت فى هذا العصر، والله ولى التوفيق.

اللون العلمى للتفسير فى عصرنا الحاضر

تكلمنا عن التفسير العلمى فيما سبق، وبيننا أن هذا اللون من التفسير كان موضع أخذ ورد بين العلماء الأقدمين، فمنهم من أيده وقال به، ومنهم من فنده ومنع منه.

وقلنا: إن التفسير العلمى كان أكثر رواجًا وأعظم قبولاً لدى المتأخرين، وأجملنا القول فى هذه النقطة الأخيرة، ووعدناك بالتوسع فيها عندما نعرض لهذه الخاتمة التى نحن بصددها، ووفاء بوعدى أقول:

رواج التفسير العلمى فى عصرنا الحاضر:

إن هذا اللون من التفسير - أعنى التفسير العلمى الذى يرمى إلى جعل القرآن مشتملاً على سائر العلوم ما جد منها وما يجد - قد استشرى أمره فى هذا العصر الحديث، وراج لدى بعض المثقفين الذين لهم عناية بالعلوم، وعناية بالقرآن الكريم، وكان من أثر هذه النزعة التفسيرية التى تسلطت على قلوب أصحابها، أن أخرج لنا المشغوفون بها كثيرًا من الكتب يحاول أصحابها فيها أن يحملوا القرآن كل علوم الأرض والسماء، وأن يجعلوه دالا عليها بطريق التصريح أو التلميح، اعتقادًا منهم - كما قلنا - أن هذا بيان لناحية من أهم نواحى صدقه، وإعجازه، وصلاحيته للبقاء.

أهم الكتب التى عنيت بهذا اللون:

ومن أهم هذه الكتب التى ظهرت فيها هذه النزعة التفسيرية كتاب (كشف الأسرار النورانية القرآنية، فيما يتعلق بالأجرام السماوية، والأرضية، والحيوانات، والنباتات، والجواهر المعدنية) للإمام الفاضل، والطبيب البارع، محمد بن أحمد الإسكندرانى من علماء القرن الثالث عشر الهجرى، وهو كتاب كبير الحجم، يقع فى ثلاثة مجلدات، ومطبوع بالمطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٧هـ ومنه نسخة بدار الكتب المصرية.

ورسالة عبد الله باشا فكرى فى مقارنة بعض مباحث الهيئة، بالوارد فى النصوص الشرعية، وقد طبعت بالقاهرة سنة ١٣١٥هـ.

وبين أيدينا كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) لرجل الإصلاح الإسلامى المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبى، وهو عبارة عن مجموع مقالات له، نشرها فى

بعض الصحف عندما زار مصر سنة ١٣١٨هـ وقد طبع هذا الكتاب وأبهم اسم مؤلفه ورمز له (الرحالة ك) وفى هذا الكتاب نجد المؤلف ـ رحمه الله ـ ينحاز انحيازًا بليغًا إلى هذا اللون من ألوان التفسير، فيصف القرآن بأنه (شمس العلوم وكنز الحكم)[١] ويقرر بأن السر فى إحجام العلماء عن تفسير قسمى الآلاء والأخلاق من القرآن، وبيان ما يشتمل عليه من العلوم المختلفة هو «أنهم كانوا يخافون مخالفة رأى بعض السلف القاصرين فى العلم فيكفرون فيقتلون» ثم يقول: «وهذه مسألة إعجاز القرآن، وهى أهم مسألة فى الدين، لم يقدروا أن يوفوها حقها من البحث، واقتصروا على ما قاله بعض السلف أنها هى فصاحته، وبلاغته، وإخباره عن أن الروم من بعد غلبهم سيغلبون»[٢].

ثم نراه يأخذ فى بيان اشتمال القرآن على ما جد من نظريات علمية تؤيد إعجاز القرآن، فيقول: (إنه لو أطلق للعلماء عنان التدقيق وحرية الرأى والتأليف كما أطلق لأهل التأويل والخرافات: لرأوا فى ألوف من آيات القرآن ألوف آيات من الإعجاز. . . لرأوا فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان، تبرهن على إعجازه بصدق قوله تعالى: ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٩) برهان عيان لا مجرد تسليم وإيمان، ومثال ذلك: أن العلم كشف فى هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوربا وأمريكا، والمدقق فى القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به فى القرآن منذ ثلاثة عشر قرنًا، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن، شاهدة بأنهن كلام رب لا يعلم الغيب سواه.

وذلك أنهم كشفوا أن مادة الكون هى الأثير، وقد وصف القرآن بده التكوين فقال ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ (فصلت: ١١).

وكشفوا أن الكائنات فى حركة دائمة دائبة، والقرآن يقول: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا...﴾ إلى أن يقول: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٣٣ - ٤٠).

وحققوا أن الأرض منفتقة من النظام الشمسى والقرآن يقول: ﴿... أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (الأنبياء: ٣٠).

---

(١) ص ٢٢. (٢) ص ٢٣.

وحققوا أن القمر منشق من الأرض، والقرآن يقول: ﴿أَوَلَمْ يروا أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ (الرعد: ٤١) ويقول: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر: ١) وحققوا أن طبقات الأرض سبع، والقرآن الكريم يقول: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (الطلاق: ١٢).

وحققوا أنه لولا الجبال لاقتضى الثقل النوعى أن تميد الأرض، أى: ترتج فى دورتها، والقرآن يقول: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (النحل: ١٥).

وكشفوا أن التغير فى التركيب الكيماوى بل والمعنوى ناشئ عن تخالف نسبة المقادير، والقرآن يقول: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨).

وكشفوا أن للجمادات حياة قائمة بماء التبلور، والقرآن يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

وحققوا أن العالم العضوى ـ ومنه الإنسان ـ ترقى من الجماد، والقرآن يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٢).

وكشفوا ناموس اللقاح العام فى النبات، والقرآن يقول: ﴿خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ﴾ (يس: ٣٦) ويقول: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ (طه: ٥٣)، ويقول: ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥) ويقول: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (الرعد: ٣).

وكشفوا طريقة إمساك الظل، أى التصوير الشمسى، والقرآن يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ (الفرقان: ٤٥).

وكشفوا تسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء، والقرآن يقول ـ بعد ذكره الدواب والجوارى بالريح: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (يس: ٤٢).

وكشفوا وجود المكروب وتأثيره الجدرى وغيره من المرض، والقرآن يقول: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ (الفيل: ٣) أى متتابعة مجتمعة ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ (الفيل: ٤) أى من طير المستنقعات اليابس... إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس الطبيعية، وبالقياس على ما تقدم ذكره يقتضى

أن كثيراً من آياته سينكشف سرها فى المستقبل فى وقتها المرهون، تجديداً لإعجازه ما دام الزمان وما كر الجديدان»(١).

وبين أيدينا كتاب (إعجار القرآن) للمرحوم مصطفى صادق الرافعى، وهو من أنصار هذه النزعة التفسيرية ومن المؤيدين لها، وفى هذا الكتاب نجد المؤلف - رحمه الله - يعقد بحثًا خاصًا لموضوع (القرآن والعلوم) وفيه يقرر أن القرآن «بآثاره النامية، معجزة أصلية فى تاريخ العلم كله على بسيط هذه الأرض، من لدن ظهر الإسلام إلى ما شاء الله. . .»(٢) ثم يستطرد إلى ذكر بعض ما نقله السيوطى فى الإتقان والإكليل عن العلامة المرسى فى اشتمال القرآن على سائر العلوم، وهنا نجده يعلق استخراج علم المواقيت من القرآن فيقول: «قال بعض المتأخرين: إن الميقات مشار إليه فى القرآن بقوله تعالى ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ (غافر: ١٥) قال: فإن عدد ﴿رَفِيعُ﴾ بحساب الجمل ثلاثمائة وستون، وهى عدد درج الليل والنهار»، ثم يقول الرافعى نفسه بعد هذا: (وإذا أطلق حساب الجمل فى كلمات القرآن كشف منه كل عجائب العصور، وتواريخها، وأسرارها، ولولا أن هذا خارج عن غرض الكتاب لجئنا منه بأشياء كثيرة من القديم والحديث»(٣).

ثم نرى الرافعى - رحمه الله - يسترسل فى حديثه إلى أن يقول: «وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع، وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية، وبسطوا كل ذلك بسطًا ليس هو من غرضنا فنستقصى فيه(٤)، على أن هذا ومثله إنما يكون فيه إشارة ولمحة، ولعل متحققا بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن، وأحكم النظر فيه، وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم، ولا يلتوى عليه أمره، لاستخرج منه إشارات كثيرة تومئ إلى حقائق العلوم وإن لم تبسط من أنبائها، وتدل عليها وإن لم تسمها بأسمائها» ثم يقول: «وقد أشار القرآن إلى نشأة هذه العلوم وإلى تمحيصها وغايتها على ما وصفناه آنفًا، وذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ

---

(١) ص ٢٣ - ٢٥. (٢) ص ١٠٨.

(٣) ص ١١٣ - ١١٤ (هامش) مَطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٩هـ.

(٤) وهنا نرى المؤلف يعلق على قوله هذا بذكر بعض ما نقلناه عن طبائع الاستبداد للكواكبى من استخراج بعض العلوم من القرآن الكريم.

وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: ٥٣) ولو جمعت أنواع العلوم الإنسانية كلها ما خرجت فى معانيها من قوله تعالى: ﴿فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ﴾ هذه آفاق، وهذه آفاق أخرى، فإن لم يكن هذا التعبير من الإعجاز الظاهر بداهة فليس يصح فى الأفهام شىء...)[١].

كذلك نجد المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل، الطبيب المعروف، ينحاز إلى هذا اللون من ألوان التفسير فى كتابه (الإسلام والطب الحديث) الذى جمع فيه مقالاته التى نشرها فى مجلة الأزهر، وبين أيدينا هذا الكتاب، وهو مطبوع بمطبعة الاعتماد سنة ١٣٥٧هـ وفيه نجد المؤلف رحمه الله يقرر أن القرآن «ليس بكتاب طب أو هندسة أو فلك، ولكنه يشير أحيانًا إلى سنن طبيعية ترجع إلى هذه العلوم»[٢] كما يقرر أن كثيرًا من آيات القرآن «لا يفهم شيئًا من معناها الحقيقى إلا من درس العلوم الحديثة»[٣] كما يؤكد أن العلم الحديث «كشف عن معنى بعض الآيات، وسينكشف الباقى منها كلما تقدمت العلوم، ثم يأتى وقت يكون فيه العلماء الماديون أقرب الناس إلى الدين»[٤].

وفى هذا كما ترى اتهام للصحابة ومن جاء بعدهم من سلف الأمة بأنهم لم يفهموا المعانى الحقيقية لبعض الآيات القرآنية؛ لجهلهم بهذه العلوم المستحدثة، وهذا اتهام نعيذ منه صحابة رسول الله ﷺ، وسلف الأمة رضي الله عنهم.

وإذا نحن تتبعنا ما فى هذا الكتاب لوجدنا الكثير منه لا يقصده القرآن، ولا يهدف إليه من وراء خطابه للعرب الأمية.

فمثلاً نجده يعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٢) من سورة البقرة ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ تحت عنوان (الحياة تحت ضوء القرآن) وفيه يقول:

«... هذه الآية الكريمة معناها ـ والله أعلم ـ (وتأمل قوله معناها) أن اللحوم والأسماك والألبان... إلخ أفضل فى التغذية من البقول والقمح والذرة، وليست الأفضلية فى مقدار المواد الزلالية الضرورية للجسم فى كل نوع، لأن هذا يجب أن لا يكون سببًا مهمًا للأفضلية...» ثم يعقد مقارنة بين بعض الأغذية وما فيها من نسبة

---

(١) ص ١٢٤ - ١٢٦.   (٢) ص ١.   (٣) ص ١.   (٤) ص ١١٢.

المواد الزلالية، ثم يقول: «وقد اهتدت أخيراً لجنة الأبحاث بإنجلترا إلى أن قيمة المواد الزلالية تختلف فى نوعها، وفى المقدار منها الذى يمنع المواد الزلالية المكونة للأنسجة من أن تحترق، ورأوا أن اللحوم بالنسبة للمواد الزلالية ونوعها لها قيمة أكثر من اللبن والذرة مثل البيان التالى:

لحوم	لبن البقر	أرز	بطاطس	فول	دقيق	ذرة
١٠٤	١٠٠	٨٨	٧٩	٧٠	٤٠	٣٠

ثم يقول: «إن هذه النتيجة التى لخصها القرآن الشريف (واعجب لقوله: لخصها القرآن الشريف) لم تظهر حقيقة ثابتة إلا منذ سنوات قليلة...»[١].

وغير هذا كثير فى كتاب (الإسلام والطب الحديث) مما لا نصدق أنه مراده من خطابه للعرب بالقرآن، وإن كان لا يتعارض - كما قلنا - مع ما ثبت من ذلك علمياً وتحققت صحته.

هذا، وإن أعظم علماء العصر الحديث تشيعًا للنزعة التفسيرية العلمية، وأكثرهم إنتاجًا لهذا التفسير العلمى، هو المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى؛ إذا أنه على حسب ما رأينا أكثر من جمع فى هذا وأطال فى تفسيره «الجواهر» الذى يقع فى خمسة وعشرين جزءًا كبارًا، والمطبوع بمصر سنة ١٣٤١ - ١٣٥١هـ، ولهذا أرى أن أتكلم عنه بما يكشف عن طريقة مؤلفه ومنهجه الذى سلكه فيه.

* * *

(١) ص ١٣ - ١٥.

الجواهر فى تفسير القرآن الكريم
للشيخ طنطاوى جوهرى

ترجمة المؤلف[١]:

هو الشيخ طنطاوى جوهرى، ولد سنة ١٢٨٧هـ، بكفر عوض الله حجازى فى «الشرقية»، تلقى العلم فى الأزهر، ثم فى المدرسة الحكومية، ثم دار العلوم، وتخرج منها سنة ١٣١٠هـ، وعين بعد تخرجه مدرسًا فى دار العلوم، وقد طُلب للقضاء فلم يقبل، وكان رئيسًا لجمعية المواساة الإسلامية بالقاهرة، وتولى رئاسة تحرير مجلة: «الإخوان المسلمين» مدة، وانقطع للتأليف فصنَّف كتبًا كثيرة نحو ٣٠ مؤلفًا، منها:

١ - الجواهر فى نفسير القرآن الكريم.
٢ - الأرواح.
٣ - أصل العالم.
٤ - أين الإنسان؟.
٥ - التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم.
٦ - جمال العالم «دراسات فى الحيوان والطير والهوام والحشرات».
٧ - جواهر العلوم.
٨ - جواهر التقوى.
٩ - النظر فى الكون بهجة الحكماء وعبادة الأذكياء.
١٠- الزهرة فى نظام العالم.
١١- السر العجيب فى حكمة تعدد أزواج النبى ﷺ.
١٢- سوانح الجوهرى.
١٣- ميزان الجواهر فى عجائب هذا الكون الباهر.
١٤- نظام العالم والأمم.
١٥- النظام والإسلام.
١٦- القرآن والعلوم العصرية.
١٧- كتاب فى الموسيقى.

وتوفى ـ رحمه الله تعالى ـ فى القاهرة سنة ١٣٥٨هـ.

---

(١) اقتبست هذه الترجمة من تقويم دار العلوم للأستاذ محمد عبد الجواد العدد الماسى بمناسبة مرور ٧٥ عامًا على مدرسة دار العلوم ١٨٧٢ - ١٩٤٧، ومن الأعلام للزركلى ج ٣ ص ٢٣٠ - ٢٣١.

الدوافع التى حملت المؤلف على كتابة هذا التفسير:

خلق الفيلسوف الإسلامى المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى ـ كما يقول هو عن نفسه ـ (مغرمًا بالعجائب الكونية، معجبًا بالبدائع الطبيعية، مشوقًا إلى ما فى السماء من جمال، وما فى الأرض من بهاء وكمال) ثم كان منه ـ كما يقول: إنه لما تأمل الأمة الإسلامية وتعاليمها الدينية، ألفى أكثر العقلاء وبعض أجلة العلماء عن تلك المعانى معرضين، وعن التفرج عليها ساهين لاهين، فقليل منهم من فكر فى خلق العوالم وما أودع فيها من الغرائب، فدفعه ذلك إلى أن ألف كتبًا كثيرة مزج فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية، وجعل آيات الوحى مطابقة لعجائب الصنع، وحكم الخلق، وكان من أهم هذه الكتب كتاب (نظام العالم والأمم) و (جواهر العلوم) و (التاج المرصع) و (جمال العالم) و (النظام والإسلام) و (الأمة وحياتها) ولكنه وجد أن هذه الكتب ـ رغم كثرتها، وانتشارها، وترجمتها إلى اللغات الأجنبية ـ لم تشف غليله، فتوجه إلى ذى العزة والجلال، أن يوفقه إلى أن يفسر القرآن تفسيرًا ينطوى على كل ما وصل إليه البشر من علوم، فاستجاب الله دعاءه، وتم له ما أراد.

متى وكيف شرع المؤلف فى كتابة هذا التفسير:

ابتدأ المؤلف هذا التفسير أيام أن كان مدرسًا بمدرسة دار العلوم، فكان يلقى تفسير بعض آيات على طلبتها، وبعضها كان يكتب فى مجلة الملاجئ العباسية، ثم والى سيره فى التفسير حتى أخرج لنا هذه الموسوعة الكبيرة.

غرض المؤلف من تفسيره:

ولقد أمل المؤلف ـ رحمه الله ـ من وراء هذا التفسير ـ كما يقول ـ «أن يشرح الله به قلوبًا، ويهدى به أممًا، وتنقشع به الغشاوة عن أعين عامة المسلمين، فيفهموا العلوم الكونية» وقال: «وإنى لعلى رجاء أن يؤيد الله هذه الأمة بهذا الدين، وينسج على منوال هذا التفسير المسلمون، وليقر أن فى مشارق الأرض ومغاربها مقرونا بالقبول، وليولعن بالعجائب السماوية والبدائع الأرضية الشبان الموحدون، وليرفعن الله مدنيتهم إلى العلا، وليكونن داعيًا حثيثًا إلى درس العوالم العلوية والسفلية، وليقومن من هذه الأمة من يفوقون الفرنجة فى الزراعة، والطب، والمعادن، والحساب، والهندسة، والفلك، وغيرها من العلوم والصناعات».

مسلك المؤلف فى تفسيره:

ولقد وضع المؤلف فى تفسيره هذا ما يحتاجه المسلم من الأحكام، والأخلاق، وعجائب الكون، وأثبت فيه غرائب العلوم وعجائب الخلق، مما يشوق المسلمين والمسلمات ـ كما يقول ـ إلى الوقوف على حقائق معانى الآيات البينات فى الحيوان والنبات، والأرض والسموات.

هذا... وإن المؤلف ـ رحمه الله ـ ليقرر فى تفسيره أن فى القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية، فى حين أن علم الفقه لا تزيد آياته الصريحة على مائة وخمسين آية، كما يقرر «أن الإسلام جاء لأمم كثيرة، وأن سور القرآن متممات لأمور أظهرها العلم الحديث»(١).

وكثيرًا ما نجد المؤلف ـ رحمه الله ـ فى تفسيره يهيب بالمسلمين أن يتأملوا فى آيات القرآن التى ترشد إلى علوم الكون، ويحثهم على العمل بما فيها، ويندد بمن يغفل هذه الآيات على كثرتها، وينعى على من أغفلها من السابقين الأولين، ووقف عند آيات الأحكام وغيرها مما يتعلق بأمور العقيدة.

نجد المؤلف يكرر هذه النغمة فى كثير من مواضع الكتاب فيقول فى موضع منه: «يا أمة الإسلام: آيات معدودات فى الفرائض اجتذبت فرعًا من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها... هذا زمان العلوم، وهذا زمان ظهور نور الإسلام، هذا زمان رقيه، يا ليت شعرى... لماذا لا نعمل فى آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا فى آيات الميراث؟ ولكنى أقول: الحمد لله... الحمد لله، إنك تقرأ فى هذا التفسير خلاصات من العلوم، ودراستها أفضل من دراسة علم الفرائض؛ لأنه فرض كفاية، فأما هذه فإنها للازدياد فى معرفة الله وهى فرض عين على كل قادر... إن هذه العلوم التى أدخلناها فى تفسير القرآن، هى التى أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء فى الإسلام، فهذا زمان الانقلاب، وظهور الحقائق، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»(٢).

---

(١) رجعنا فى هذا إلى مقدمة الكتاب وخاتمته وجمعناه ملخصًا.

(٢) الجواهر (٣/ ١٩).

ويقول فى موضع آخر: «إن نظام التعليم الإسلامى لا بد من ارتقائه، فعلوم البلاغة ليس هى نهاية علوم القرآن، بل هى علوم لفظه، وما نكتبه اليوم علوم معناه، وانطباقها على العلوم التى أظهرها الله فى الأرض، ولعل هذا الزمان سيظهر فيه آثار من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة: ١٩) فإن البيان المذكور فى سورة القيامة فسر بمعنى أننا نبينه بلسانك فتقرأه كما أقرأك جبريل، وبمعنى أنه إذا أشكل شيء من معانيه فنحن نبينه لك، وعلينا بيان ما فيه من الأحكام والعجائب ولا جرم أن ما يتجدد اليوم من العلوم مما ذكر فى هذا التفسير وما لم يذكر، من البيان الذى أكد الله أنه يظهره لأمة الإسلام، فالحمد لله الذى وفق فى هذا التفسير لبعض العرفان تصديقًا لما ذكر الله من أن عليه البيان»(١).

ويقول فى موضع آخر: «... لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب الإسلامية فى علم الفقه... وعلم الفقه ليس له فى القرآن إلا آيات قلائل لا تصل مائة وخمسين آية؟ فلماذا كثر التأليف فى علم الفقه، وقل جدًا فى علوم الكائنات التى لا تخلو منها سورة؟ بل هى تبلغ سبعمائة وخمسين آية صريحة، وهناك آيات أخرى دلالتها تقرب من الصراحة، فهل يجوز فى عقل أو شرع أن يبرع المسلمون فى علم آياته قليلة، ويجهلوا علما آياته كثيرة جدًا؟ إن آباءنا برعوا فى الفقه، فلنبرع نحن الآن فى علم الكائنات... لنقم به؛ لترقى الأمة...»(٢).

لم يلق تفسير الجواهر قبولاً لدى كثير من المثقفين:

هذه المقالات ـ وغيرها كثير فى تفسير الجواهر ـ نجد أغلبها قد صدر من المؤلف فى مقام الرد على من كان يوجه إليه اللوم والاعتراض على ما كان منه من تحميل القرآن الكريم علومًا ونظريات مستحدثة لا عهد للعرب بها، ولا صلة للقرآن بشيء منها.

ويظهر لمن يتصفح هذا التفسير أن المؤلف ـ رحمه الله ـ لاقى الكثير من لوم العلماء على مسلكه الذى سلكه فى تفسيره، مما يدل على أن هذه النزعة التفسيرية لم تلق قبولاً لدى كثير من المثقفين.

---

(١) الجواهر (٢٥/ ٤٠).

(٢) الجواهر (٥/ ٥٣).

مصادرة المملكة السعودية لتفسير الجواهر:

ولعل هذا المنزع فى تفسير القرآن الكريم هو السر الذى من أجله صادرت المملكة العربية السعودية هذا الكتاب، ولم تسمح بدخوله إلى بلادها، كما يجد القارئ ذلك فى نص الكتاب المرسل من المؤلف إلى الملك عبد العزيز آل سعود، ملك نجد والحجاز ص٢٣٨ من الجزء الخامس والعشرين.

طريقة المؤلف فى هذا التفسير:

هذا وإنى - بعد أن قرأت الكثير من هذا التفسير - أستطيع أن أعطيك صورة واضحة عن منهج المؤلف وطريقته التى سلكها فيه، وذلك أن المؤلف - رحمه الله - يفسر الآيات القرآنية تفسيرًا لفظيًا مختصرًا، لا يكاد يخرج عما فى كتب التفسير المألوفة لنا والمتداولة بين أيدينا، ولكنه سرعان ما يخلص من هذا التفسير الذى يسميه لفظيًا، ويدخل فى أبحاث علمية مستفيضة يسميها هو لطائف أو جواهر... هذه الأبحاث عبارة عن مجموعة كبيرة من أفكار علماء الشرق والغرب فى العصر الحديث، أتى بها المؤلف، ليبين للمسلمين ولغير المسلمين أن القرآن الكريم قد سبق إلى هذه الأبحاث ونبه على تلك العلوم قبل أن يصل إليها هؤلاء العلماء بقرون متطاولة.

ثم إننا نجد المؤلف - رحمه الله - يضع لنا فى تفسيره هذا كثيرًا من صور النباتات، والحيوانات، ومناظر الطبيعة، وتجارب العلوم، بقصد أن يوضح للقارئ ما يقول توضيحًا يجعل الحقيقة أمامه كالأمر المشاهد المحسوس.

كذلك نجد المؤلف - رحمه الله - يستشهد أحيانًا على ما يقول بما جاء فى الإنجيل، وإعتماده فيما ينقل على إنجيل (برنابا) لأنه - كما يرى - أصح الأناجيل، بل هو الإنجيل الوحيد الذى لم تصل إليه يد التحريف والتبديل كما قيل.

وكثيرًا ما نرى المؤلف - رحمه الله - يشرح بعض الحقائق الدينية بما جاء عن أفلاطون فى جمهوريته، أو بما جاء عن إخوان الصفا فى رسائلهم، وهو حين ينقلها يبدى لنا رضاه عنها، وتصديقه بها، مع أنها تخالف الثابت عن رسول الله ﷺ.

كما أنه يستخرج كثيرًا من علوم القرآن بواسطة حساب الجمل الذى لا نصدق أنه يوصل إلى حقيقة ثابتة، وإنما هى عدوى تسربت من اليهود إلى المسلمين، فتسلطت على عقول الكثير منهم.

هذا... وإنا لنجد المؤلف ـ رحمه الله ـ يفسر آيات القرآن تفسيرًا علميًّا يقوم على نظريات حديثة، وعلوم جديدة، لم يكن للعرب عهد بها من قبل، ولست أرى هذا المسلك فى التفسير إلا ضربًا من التكلف، إن لم يذهب بغرض القرآن، فلا أقل من أن يذهب بجلاله وجماله.

وإليك بعض ما جاء فى هذا التفسير:

نماذج من هذا التفسير:

فمثلاً، عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦١) من سورة البقرة ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ**﴾ الآية، نجده يقول: (الفوائد الطبية فى هذه الآية) ثم يأخذ فى بيان ما أثبته الطب الحديث من نظريات طبية، ويذكر مناهج أطباء أوربا فى الطب، ثم يقول: «أوليست هذه المناهج هى التى نحا نحوها القرآن؟ أوليس قوله: ﴿**أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ**﴾ رمزًا لذلك؟ كأنه يقول: العيشة البدوية على المن والسلوى... وهما الطعامان الخفيفان اللذان لا مرض يتبعهما، مع الهواء النقى والحياة الحرة، أفضل من حياة شقية فى المدن بأكل التوابل، واللحم، والإكثار من ألوان الطعام، مع الذلة، وجور الحكام، والجبن، وطمع الجيران من الممالك، فتختطفكم على حين غفلة وأنتم لا تشعرون، بمثل هذا تفسر هذه الآيات بمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله...»(١).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآيات (٦٧) وما بعدها من سورة البقرة ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً...**﴾ الآيات إلى آخر القصة، نجده يعقد بحثًا فى عجائب القرآن وغرائبه، فيذكر ما انطوت عليه هذه الآيات من عجائب، ويذكر فيما يذكر علم تحضير الأرواح فيقول: «... وأما علم تحضير الأرواح فإنه من هذه الآية استخراجه... إن هذه الآية تتلى، والمسلمون يؤمنون بها، حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أولاً، ثم بسائر أوربا ثانيًا...» ثم ذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم، وكيف كان انتشاره بين الأمم، وفائدة هذا العلم، ثم قال أخيرًا: «ولما كانت

---

(١) الجواهر (١/ ٦٦، ٦٧).

السورة التى نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزير بعد موته، وكذلك حماره، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الطاعون، فماتوا ثم أحياهم. . . وعلم الله أننا نعجز عن ذلك، جعل قبل ذكر تلك الثلاثة فى السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح فى مسألة البقرة، كأنه يقول: إذا قرأتم ما جاء عن بنى إسرائيل فى إحياء الموتى فى هذه السورة عند أواخرها، فلا تيأسوا من ذلك؛ فإنى قد بدأت بذكر استحضار الأرواح، فاستحضروها بطرقها المعروفة ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ (**الأنبياء**: ٧) ولكن ليكن المحضر ذا قلب نقى خالص على قدم الأنبياء والمرسلين، كالعزير، وإبراهيم، وموسى، فهؤلاء لعلو نفوسهم أريتهم بالمعاينة، وأنا أمرت نبيكم أن يقتدى بهم فقلت: ﴿**فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ (**الأنعام**: ٩٠). . . »[١].

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى أول سورة آل عمران ﴿**الم**﴾ نجده يعقد بحثًا طويلاً عنوانه (الأسرار الكيمائية، فى الحروف الهجائية، للأمم الإسلامية، فى أوائل السور القرآنية) وفيه يقول: «انظر رعاك الله ، تأمل. . . يقول الله: أ، ل، م ـ طس ـ حم ـ وهكذا يقول لنا: أيها الناس، إن الحروف الهجائية، إليها تحلل الكلمات اللغوية، فما من لغة فى الأرض إلا وأرجعها أهلها إلى حروفها الأصلية، سواء أكانت اللغة العربية أم اللغات الأعجمية، شرقية وغربية، فلا صرف، ولا إملاء، ولا اشتقاق إلا بتحليل الكلمات إلى حروفها، ولا سبيل لتعليم لغة وفهمها إلا بتحليلها، وهذا هو القانون المسنون فى سائر العلوم والفنون.

ولا جرم أن العلوم قسمان: لغوية وغير لغوية، فالعلوم اللغوية مقدمة فى التعليم؛ لأنها وسيلة إلى معرفة الحقائق العلمية من رياضية وطبيعية وإلهية، فإذا كانت العلوم التى هى آلة لغيره لا تعرف حقائق إلا بتحليلها إلى أصولها، فكيف إذًا تكون العلوم المقصودة لنتائجها المادية والمعنوية؟ فهى أولى بالتحليل وأجدر بإرجاعها إلى أصولها الأولية التى لا تعرف الحساب إلا بمعرفة بسائط الأعداد، ولا الهندسة إلا بعد علم البسائط والمقدمات، ولا علوم الكيمياء إلا بمعرفة العناصر وتحليل المركبات إليها، فرجع الأمر إلى تحليل العلوم»[٢].

---

(١) الجواهر (١/ ٧١ - ٧٧).

(٢) الجواهر (٢/ ١٠، ١١).

ومثلاً نراه يعرض لقوله تعالى فى الآية (٣٤) من سورة النور: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقوله فى الآيات (٢٠ - ٢٢) من سورة فصلت ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وقوله فى الآية (٦٥) من سورة يس ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ثم يقول: «. . . أوليس الاستدلال بآثار الأقدام، وآثار أصابع الأيدى فى أيامنا الحاضرة، هو نفس الذى صرح به القرآن، وإذا كان الله يعلم ما فى البواطن بل هو القائل للإنسان: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (الإسراء: ١٤) والقائل: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة: ١٤) أفلا يكون ذكر الأيدى والأرجل والجلود وشهادتها يوم القيامة ليلفت عقولنا إلى أن من الدلائل ما ليس بالبينات المشهورة عند المسلمين؟ وإن هناك ما هو أفضل منها؟. . . وهى التى يحكم بها الله فاحكموا بها، ويكون ذلك القول لينبهنا ويفهمنا أن الأيدى فيها أسرار، وفى الأرجل أسرار، وفى النفوس أسرار: فالأيدى لا تشتبه، والأرجل لا تشتبه، فاحكموا على الجانين والسارقين بآثارهم. . . أوليس فى الحق أن أقول: إن هذا من معجزات القرآن وغرائبه؟ وإلا فلماذا هذه المسائل التى ظهرت فى هذا العصر تظهر فى القرآن بنصها وفصها. . .»(١).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآيتين (٥، ٦) من سورة طه: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ نجده يقول: «. . . قوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ دخل فى ذلك عوالم السحاب والكهرباء وجميع العالم المسمى (الآثار العلوية) وهو من علوم الطبيعة قديمًا وحديثًا، وقوله: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ يشير لعلمين لم يعرفا إلا فى زماننا، وهما علم طبقات الأرض، المتقدم مرارًا فى هذا التفسير، وعلم الآثار، المتقدم بعضه فى سورة يونس. . . فالله هنا يقول: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ ليحرص المسلمون على دراسة علوم المصريين التى تظهر الآن تحت الثرى. . .»(٢).

(١) الجواهر (٣/ ٩). (٢) الجواهر (١٠/ ٦٤، ٦٥).

ومثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٣٠) من سورة الأنبياء ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ الآية، يقول: «ها أنت قد اطلعت على ما أبرزه القرآن قبل مئات السنين، من أن السموات والأرض أى الشمس والكواكب وما هى فيه من العوالم، كانت ملتحمة ففصلها الله تعالى، وقلنا: إن هذه معجزة؛ لأن هذا العلم لم يعرفه الناس إلا فى هذه العصور، ألا ترى أن كثيرًا من المفسرين قالوا: إن الكفار فى ذلك الوقت ليس لديهم هذا العلم، فكان جوابهم على ذلك أنهم أخبروا به فى نفس هذه الآية، فكأن الآية تستدل عليهم بنفس ما نزلت به، وذلك أن هذه الأمور لم تخلق، وقد أخذ العلماء يؤولون تأويلات شتى لفرط ذكائهم وحرصهم رحمهم الله، وها نحن أولاء نجد هذه العلوم المكنونة المخزونة قد أبرزها الله على أيدى الفرنجة، كما نطق القرآن هنا، كأنه يقول: سيرى الذى كفروا أن السموات والأرض كانت مرتوقة ففصلنا بينهما، فهو وإن ذكرها بلفظ الماضى فقد قصد منه المستقبل كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ (النحل: ١) وهذه معجزة تامة للقرآن، وعجيبة من أعجب ما يسمعه الناس فى هذه الحياة الدنيا. . .»(١).

ومثلاً عند قوله تعالى فى الآية (١٥) من سورة الرحمن ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ نجده يقول: «. . . والمارج: المختلط بعضه ببعض، فيكون اللهب الأحمر والأصفر والأخضر مختلطات، وكما أن الإنسان من عناصر مختلفات هكذا الجان من أنواع من اللهب مختلطات، ولقد ظهر فى الكشف الحديث أن الضوء مركب من ألوان سبعة غير ما لم يعلموه، فلفظ المارج يشير إلى تركيب الأضواء من ألونها السبعة، وإلى أن اللهب مضطرب دائمًا، وإنما خلق الجن من ذلك المارج المضطرب، إشارة إلى أن نفوس الجان لا تزال فى حاجة إلى التهذيب والتكميل، تأمل فى مقال علماء الأرواح الذين استحضروها إذ أفادتهم أن الروح الكاملة تكون عند استحضارها ساكنة هادئة، أما الروح الناقصة فإنها تكون قلقة مضطربة. . .»(٢).

وعند قوله تعالى فى الآية (٣٥) من السورة نفسها ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ﴾ يقول: «. . . إنه عبر هنا بشواظ من نار وفيما تقدم بقوله: ﴿مِن

---

(١) الجواهر (١٠/ ١٩٩).

(٢) الجواهر (٢٤/ ١٧).

مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ والشواظ والمارج كلاهما اللهب الخالص، فلماذا جعل الجان مخلوقًا من مارج ولم يقل من شواظ؟ فاعلم أن المارج فيه معنى الاضطراب كما تقدم، وقد أبنت ذلك هناك، وهذا الاضطراب يفيد اضطراب الروح كما تقدم فى علم الأرواح، وأيضًا اختلاط الألوان الآن معروف فى التحليل فهو من هذا القبيل... وهذه الفكرة لم تعرف قط إلا فى زماننا هذا؛ فإن تحليل الضوء والعلم بأنه مختلط، والاطلاع على عالم الأرواح الناقصة وأنها مضطربة، لم يكن إلا فى زماننا، وهذا من أعاجيب القرآن الى لا تدرك إلا بقراءة العلوم وليس يعقلها الناس بفن البلاغة المعروف، فلا أصحاب المعلقات يدركونها، ولا الذين بعدهم يعلمونها، فهل لمثل امرئ القيس، أو لأبى العلاء، أو المتنبى أن يتناولوا هذه المعانى فى أقوالهم؟ كلا... فهذه بلاغه لا تخطر ببالهم، وأنى لهم علم الروح حتى يخصصوها بلفظ مارج؟ وعند إنزال العذاب يذكرون الشواظ»[(١)].

ومثلاً فى سورة الزلزلة نجده يفسرها تفسيرًا لفظيًا مختصرًا، ثم يذكر ما فيها من لطائف، مستعرضًا ما وقع من حوادث الزلزال فى إيطاليا، وما وصل إليه العلم الحديث من استخراج الفحم والبترول من الأرض، وما كثر فى هذا الزمان من استخراج الدفائن من الأرض، مثل ما كشف فى مصر من آثار قدمائها، ثم يقول ـ بعدما يفيض فى هذا وغيره: «ألست ترى أن هذه السورة ـ وإن كانت واردة لأحوال الآخرة ـ تشير من طرف خفى إلى ما ذكرنا فى الدنيا؟ فالأرض الآن كأنها فى حال زلزلة، وقد أخرجت أثقالها: كنوزها وموتاها وغيرها، والناس الآن يتساءلون، وها هم أولاء يلهمون الاختراع، وها هم أولاء مقبلون على زمان تنسيق الأعمال بحيث تكون كل أمة فى عمل يناسبها، وكل إنسان فى عمله الخاص به وينتفع به»[(٢)].

ومثلاً نجده بعد أن يفرغ من تفسير سورة الكوثر، وسورة الكافرون، وسورة النصر، يذكر لنا بحثًا مستفيضًا عنوانه: (تطبيق عام على سورة الكوثر والنصر وما بينهما) وفيه نجده يتأثر بنزعته التفسيرية العلمية إلى درجة جعلته يحمل نصوص الشارع من المعانى الرمزية ما يستبعد أن يكون مرادًا لها، وذلك أنه يقرر أولا أن هذه السور لم

---

(١) الجواهر (٢٤/ ٢٧).

(٢) الجواهر (٢٥/ ٢٤٩ - ٢٥١).

تكن خاصة بزمان النبوة، ولا بفتح مكة ونصر جيشها، لأن هذه الأمة كانت عند نزول هذه السور فى أول عمرها، وسيطول إن شاء الله، وكم سيكون لها من فتوح وانتصارات، ثم قال: «وإذا كان الأمر كما وصفنا ونحن أبناء العرب، وورثة النبى الذى جاء منا ﷺ، ولغتنا فى مصر، والشام، والعراق، وشمال أفريقيا، هى لغة القرآن، فلنبين للناس بعدنا سر هذه السور، فقد كان العلماء قبلنا يكتمونها خوفًا من أهل زمانهم، ولكنا الآن يجب علينا إبرازه وإظهاره، لتأخذ هذه الأمة بعدنا حظها من الحياة، وقسطها من الإصلاح. . .» ثم أخذ يبين لنا الكوثر، وأوصاف كيزانه، وطيره، وأوصاف من سيرد عليه من المسلمين، بما جاء فى الأحاديث عن رسول الله ﷺ. . . ثم قال ـ بعد هذا كله: «اعلم أن هذه الأحاديث وردت لغاية أرقى مما يراها الذين لا يفكرون، كما أمم جاءت قبلنا وجاء فيهم مصلحون، فماذا فعلوا؟ ألقوا إليهم العلم بهيئة جميلة، وصورة مفرحة، وبهجة وجمال، ولا نزال نرى كل أمة حاضرة كفائتة، جميعهم يصيغون ما يريدون من الجمال، والحكمة، والعلم، ورقى الأمة بهيئة تسر الجمهور. . .» ثم يقول: «الجاهل يسمع الدر والياقوت وشرابًا أحلى من العسل، فيفرح ويعبد الله ليصل إلى هذه اللذات التى تقر بها عينه. . . والعالم ينظر فيقول: إن هذا القول وراءه حكمة ووراءه علم؛ لأنى أرى فى خلال القول عجائب، فلماذا يذكر أن الكيزان أو الأباريق أو نحو ذلك عدد نجوم السماء! وأى دخل لنجوم السماء هنا؟ ولماذا عبر به؟. . . ثم يقول: لماذا ذكر أن الذين يرون الحوض عليهم آثار الوضوء؟ ولم؟. . . . ولم؟. . . الحق أن نبينا محمدًا ﷺ يريد أمرين: أمرًا واضحًا جليّا يفرح به جميع الناس، وأمرًا يختص بالقواد والعظماء.

إن النبوة بأمر الله، والله جعل فى أهل الأرض فلاحين لا يعرفون إلا ظواهر الزرع، وجعل أطباء يستخرجون منافع من الحب والشجر، وحكماء يستخرجون علومًا، وكل لا يعرف إلا علمه، فالطبيب يشارك الفلاح فى أنه يأكل، ولكنه يمتاز عنه بإدراك المنافع الطبية، هكذا حكماء الأمة الإسلامية يشاركون الجهلاء فى أنهم يفهمون الحوض كما فهموه، ويردونه معهم كما يردونه، ولكن هؤلاء يمتازون بأنهم قواد الأمة الذين يقودونها، فماذا يقولون؟ يقولون: إن النبى ﷺ يريد معانى أرقى، إن الجنة

فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فليس الماء الذى هو أحلى من العسل وأبيض من الثلج كل شيء هناك، ثم إن الجنة لا ظمأ فيها، وأى شيء عدد نجوم السماء؟ ولماذا اختصت النجوم بالعدد والوضوء بالأثر؟ والذى نقوله: إن الحوض يرمز به للعلم مع بقائه على ظاهره، فلا المسك الإذفر، ولا أنواع الجواهر النفيسة من در وياقوت، ولا حلاوة العسل الذى فى ذلك الماء، ولا اتساع الحوض إلا أفانين العلم ومناظر بدائعه المختلفة المناهج، العذبة المشارب، السارة للناظرين. . . »

ثم يخلص من هذا كله إلى الاستدلال على أن ما ذهب إليه من قبيل الكناية التى هى لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلى، ثم يقول ـ بعد بيان هذه الكناية: « . . . هنا يكون النصر ولا يكون إلا بعد أن يتجافى الناس عن أفعال الملحدين والكافرين، وجعل العلوم مرتبطة بالربوبية كما تشير إليه سورة الكافرون، هنا يكون نصر الله والفتح ويدخل الناس فى هذه العلوم الحقيقية أفواجًا، وعلى حكماء المسلمين الذين بعدنا متى نشروا هذه الآراء العلمية وأمثالها، ورأوا المسلمين تقدموا ونصروا العلم على الجهل فى العالم الإنسانى، وأصبح المسلمون قائمين بما وعدهم ربهم من أنهم خير أمة أخرجت للناس، وأنهم رحمة للعالمين، متى رأى العلماء ذلك فيعلموا أن هذا هو النصر فى زماننا، وهو الفتح، وإذًا فعلى القائمين بذلك أن يحمدوا ربهم ويستغفروه. . . إلخ»(١).

هذا هو تفسير الجواهر، وهذه نماذج منه وضعتها أمام القارئ، ليقف على مقدار تسلط هذه النزعة التفسيرية على قلم مؤلفه وقلبه.

والكتاب ـ كما ترى ـ موسوعة علمية، ضربت فى كل فن من فنون العلم بسهم وافر، مما جعل هذا التفسير يوسف بما وصف به تفسير الفخر الرازى، فقيل عنه: (فيه كل شيء إلا التفسير) بل هو أحق من تفسير الفخر بهذا الوصف وأولى به، وإذا دل الكتاب على شيء، فهو أن المؤلف رحمه الله كان كثيرًا ما يسبح فى ملكوت السموات والأرض بفكره، ويطوف فى نواح شتى من العلم بعقله وقلبه، ليجلى للناس آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم، ثم ليظهر لهم بعد هذا كله أن القرآن قد جاء متضمنًا لكل ما

(١) الجواهر (٢٥/ ٢٦٩ - ٢٧٣).

جاء ويجىء به الإنسان من علوم ونظريات، ولكل ما اشتمل عليه الكون من دلائل وأحداث، تحقيقًا لقول الله تعالى فى كتابه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨) لكن هذا خروج بالقرآن عن قصده، وانحراف به عن هدفه، وقد عرفت رأينا فى المسألة فلا نعيده.

إنكار بعض العلماء المعاصرين لهذا اللون من التفسير:

لم يقف العلماء فى العصر موقف الإجماع على قبول هذا اللون من التفسير، بل نراهم مختلفين فى قبوله والقول به، كما كان الشأن بين من سبقهم من العلماء الأقدمين.

وإذا كنا قد وجدنا من العلماء المحدثين من انحاز إلى هذه الفكرة فى التفسير وتأثر بها فى مؤلفاته، فإنا نجد بجوار هؤلاء أيضًا كثرة من العلماء لم ترض عن هذا اللون من التفسير، ولم تستسغ أن تشرح به كتاب الله تعالى، ولم تغمض عينها أو تمسك قلمها عن رد هذه الفكرة على أهلها وتناولهم إياها بالنقد والتفنيد.

نجد هذه المعارضة فى كثير من المحاورات والاعتراضات التى وجهت إلى صاحب الجواهر، وذكرها لنا فى تفسيره.

كما نجد بعض أساتذتنا المعاصرين ينعون على من يأخذ بهذه الفكرة ويقول بها، ومن بين هؤلاء أستاذنا الشيخ محمود شلتوت، فقد تناول هذا الموضوع بالبحث فى العدد ٤٠٧ و ٤٠٨ من السنة التاسعة لمجله الرسالة (إبريل سنة ١٩٤١م) وفيه يرد على من يذهب إلى هذا اللون من التفسير بحجج قوية واضحة.

وهذا هو الأستاذ الشيخ أمين الخولى يتناول هذا الموضوع فى كتابه (التفسير: معالم حياته، منهجه اليوم) وفيه يرد على أنصار هذا المذهب فى التفسير بحجج قوية واضحة، استفدنا منها كثيرًا فى تأييد ما اخترنا من المذهبين.

وهذا هو المرحوم السيد محمد رشيد رضا، نجده فى مقدمة تفسيره ينعى على من تأثروا فى تفسيرهم بنزعاتهم العلمية، فشغلوا تفاسيرهم بمباحث النحو، والفقه، ونكت المعانى، والبيان، والإسرائيليات، وغير ذلك، ويعد هذا صارفًا يصرف الناس عن القرآن وهديه، ثم ينعى على الفخر الرازى ما أورده فى تفسيره من العلوم الحادثة فى

الملة، ويعد هذا صارفًا يصرف الإنسان عن القرآن وهديه، كما يتوجه بمثل هذا اللوم على من قلد الفخر الرازى فى مسلكه من المعاصرين، وأظنه أراد صاحب الجواهر، وذلك حيث يقول: «. . . وقد زاد الفخر الرازى صارفًا آخر عن القرآن، هو ما يورده فى تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل هذا من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولاً طويلة ـ بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض ـ من علوم الفلك والنبات والحيوان، تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن»(١).

وأخيرًا فهذا هو شيخنا العلامة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ـ رحمه الله رحمة واسعه ـ نجده فى تقريظه لكتاب (الإسلام والطب الحديث) لا يرضى عن هذا المسلك فى التفسير، رغم أنه مدح الكتاب وأشاد بمجهود مؤلفه، وذلك حيث يقول: «لست أريد من هذا ـ يعنى ثناءه على الكتاب ومؤلفه ـ أن أقول: إن الكتاب الكريم اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلاً بالأسلوب التعليمى المعروف، وإنما أريد أن أقول إنه أتى بأصول عامة لكل ما يهم الإنسان معرفته به، ليبلغ درجة الكمال جسدًا وروحًا، وترك الباب مفتوحًا لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة، ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها فى الزمان الذى هم عائشون فيه»(٢).

وفى موضع آخر يقول: «يجب أن لا نجر الآية إلى العلوم كى نفسرها، ولا العلوم إلى الآية، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها»(٣).

ومن هذا كله يتبين أن التفسير العلمى فى العصر الحديث إن كان قد لقى قبولاً ورواجًا عند بعض العلماء، فإنه لم يلق مثل هذا القبول والرواج عند كثير منهم، وقد علمت فيما سبق أى الرأيين أقرب إلى الحق وأحرى بالقبول.

اللون المذهبى للتفسير فى عصرنا الحاضر:

لم يبق من الفرق المنسوبة إلى الإسلام فى هذا العصر الحديث من له كيان، أو شىء من الكيان ـ حسبما نعلم ـ إلا أهل السنة، والإمامية الاثنا عشرية، والإمامية

---

(١) تفسير المنار (١/ ٧).

(٢) الإسلام والطب والحديث (المقدمة) ص د.

(٣) المرجع نفسه ص ٣.

الإسماعيلية، والزيدية، والإباضية من الخوارج، والبهائية من الباطنية، هذه هى الفرق التى لا تزال فى اعتبارنا قائمة إلى يومنا هذا، محتفظة بتعاليمها وعقائدها التى تسير عليها من أول عهدها ومبدأ ظهورها.

وإذا كنا قد وقفنا لكل فرقة من هذه الفرق فى عصورها السابقة على عمل ظاهر فى تفسير كتاب الله، وشرحه على حسب ما تمليه عقيدة المفسر، وما يوحى به إليه، فإنا لا نعدم هذا اللون المذهبى لتفسير القرآن الكريم فى هذا العصر الحديث، ولكن بمقدار ما بقى من هذه المذاهب قائمًا إلى هذا العصر الذى نتكلم عنه، ونتحدث عن ألوان التفسير فيه.

نعم بقى اللون المذهبى لتفسير القرآن الكريم قائمًا فى هذا العصر الحديث، بمقدار ما بقى قائمًا من المذاهب الإسلامية.

فأهل السنة فسروا القرآن، وألفوا الكتب فيه بما يتفق وعقيدتهم، كما نرى ذلك واضحًا فيما خلفته لنا مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من كتب فى التفسير.

والإمامية الاثنا عشرية فسروا القرآن وألفوا الكتب فيه بما يتمشى مع مذهبهم، ويتفق مع أهوائهم ومشاربهم، ومن أحدث كتبهم التى اطلعنا عليها فى التفسير: كتاب (بيان السعادة فى مقامات العبادة) للشيخ سلطان محمد الخراسانى، من أهل القرن الرابع عشر الهجرى، وقد سبق لنا الكلام عنه مفصلاً، وكتاب (آلاء الرحمن فى تفسير القرآن) للشيخ محمد جواد النجفى، المتوفى سنة ١٣٥٢هـ وقد سبق الكلام عنه بإيجاز عند الكلام على أهم كتب التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية.

والإباضية من الخوارج فسروا القرآن وألفوا فيه الكتب بما يناسب عقيدتهم، ويساير مذهبهم، كما نجد ذلك فى كتاب (هميان الزاد، إلى دار المعاد) للشيخ محمد ابن يوسف إطفيش، المتوفى سنة ١٢٣٢هـ، وقد مر الكلام عنه أيضًا.

والبهائية من الباطنية نظروا إلى القرآن من خلال عقيدتهم فأولوا وحرفوا، كما نجد ذلك جليا فى رسائل أبى الفضائل الجرفادقانى، أحد رجال البهائية فى هذا العصر.

أما الزيدية، فهى وإن كانت لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، إلا أنا لم نقف لها على شىء فى التفسير فى هذا العصر الحديث.

وأما المعتزلة، فنحن وإن كنا لا نسمع عن قيامهـا فى هذا العصر كفرقة لها كيان، ووحدة، ومـقومات، إلا أنـا نرى أثرًا كبيـرًا لتعاليـمهـا فى تفسيـر القرآن فى العـصر الحديث، كما يظهر ذلك جليّا فى تفاسير الإمامية الاثنى عشرية، والإباضية، ومقالات بعض المحدثين من المفسرين.

كل هذه الفرق الموجودة فى هذا العـصر، أضفت على التفسير لونًا مـذهبيّا، يقوم على تأييد العقيدة، وخدمتها على حساب القرآن الكريم، ولا أريد أن أطيل بذكر نماذج من هذا اللون التفسـيرى؛ إذ قد سبق لنا الكلام عن هذه الكتب التى ذكـرتها، وذكرت لك منها ما يعطيك صورة واضحة عن اللون المذهبى فى هذا العصر.

وأما المعتزلة، فنحن وإن كنا لا نسمع عن قيامهـا فى هذا العصر كفرقة لها كيان، ووحدة، ومـقومات، إلا أنـا نرى أثرًا كبيـرًا لتعاليـمهـا فى تفسيـر القرآن فى العـصر الحديث، كما يظهر ذلك جليّا فى تفاسير الإمامية الاثنى عشرية، والإباضية، ومقالات بعض المحدثين من المفسرين.

كل هذه الفرق الموجودة فى هذا العـصر، أضفت على التفسير لونًا مـذهبيّا، يقوم على تأييد العقيدة، وخدمتها على حساب القرآن الكريم، ولا أريد أن أطيل بذكر نماذج من هذا اللون التفسـيرى؛ إذ قد سبق لنا الكلام عن هذه الكتب التى ذكـرتها، وذكرت لك منها ما يعطيك صورة واضحة عن اللون المذهبى فى هذا العصر.

* * *

اللون الإلحادى للتفسير فى عصرنا الحاضر

مُنِىَ الإسلام من زمن بعيد بأناس يكيدون له، ويعملون على هدمه بكل ما يستطيعون من وسائل الكيد، وطرق الهدم، وكان من أهم الأبواب التى طرقوها ليصلوا منها إلى نواياهم السيئة: تأويلهم للقرآن الكريم على وجوه غير صحيحة، تتنافى مع ما فى القرآن من هداية، وتناقض ما هو عليه من محجة بيضاء وتهدف إلى ما سولته لهم نفوسهم من نحل خاسرة وأهواء!!.

منى الإسلام بهذا من أيامه الأولى، ومنى بمثل هذا فى أحدث عصوره، فظهر فى هذا العصر أشخاص يتأولون القرآن على غير تأويله، ويلوونه إلى ما يوافق شهواتهم، ويقضى حاجات فى نفوسهم، فأدخلوا فى تفسير القرآن آراء سخيفة، ومزاعم منبوذة، تقبلها بعض المخدوعين من العامة وأشباه العامة، ورفضها بكل إباء من حفظ الله عليهم دينهم وعقولهم.

الباعث على هذا اللون من التفسير:

اندفع هؤلاء النفر من المؤولة إلى ما ذهبوا إليه من أفهام زائفة فى القرآن بعوامل مختلفة، فمنهم من حسب أن التجديد ولو بتحريف كتاب الله سبب لظهوره وشهرته، فأخذ يثور على قدماء المفسرين ويرميهم جميعًا بالسفه والغفلة ثم طلع على الناس بجديده فى تفسير كتاب الله.. جديد لا تقره لغة القرآن، ولا يقوم على أصل من الدين.

ومنهم من تلقى من العلم حظًا يسيرًا، ونصيبًا قليلاً، لا يرقى به إلى مصاف العلماء، ولكنه اغتر بما لديه، فحسب أنه بلغ مبلغ الراسخين فى العلم، ونسى أنه قل فى علم اللغة نصيبه، وخف فى علم الشريعة وزنه، فراح ينظر فى كتاب الله نظرة حرة لا تتقيد بأى أصل من أصول التفسير، ثم أخذ يهذى بأفهام فاسدة، تتنافى مع ما قرره أئمة اللغة وأئمة الدين، ولأول نظرة يتضح لمن يطلع عليها أنها لا تستند إلى حجة، ولا تتكئ على دليل.

ومنهم من لم يرسم لنفسه نحلة دينية، ولم يسر على عقيدة معروفة، ولكنه لعبت برأسه الغواية، وتسلطت على قلبه وعقله أفكار وآراء من نحل مختلفة، فانطلق إلى القرآن وهو يحمل فى قلبه ورأسه هذه الأمشاج من الآراء، فأخذ يؤوله بما يتفق معها، تأويلاً لا يقره العقل ولا يرضاه الدين.

هؤلاء جميعًا خاضوا فى القرآن على عماية، فلم يراعوا فى فهمه قوانين البلاغة، ولم يدخلوا إلى تفسيره من باب السنة الصحيحة، وحسبوا أنهم أرضوا ضمائرهم، وأنصفوا البحث الحر، والرأى الطليق.

ولولا أن الله قيض لهذا الدين رجالاً يدرسونه ببصائر تنفذ إلى لبابه، ويدفعهم الإيمان والإخلاص إلى أن يبعدوا عنه هذه الخبائث، التى يراد أن تلصق به أو تنزل فى رحابه... لولا هذا لأصاب المسلمين من هؤلاء المضللين شر مستطير، ولنتج عن أفكارهم وأهوائهم فتنة فى الأرض وفساد كبير.

وأنا إذ أعرض لهذا اللون من التفسير، لا أريد أن أذكر أحدًا من أصحابه باسمه ولقبه، إذ ربما كان هذا سببًا للفتنة، وباعثًا على العداوة، وكثير منهم أحياء يرزقون، ويكفى أن أضع يد القارئ على المراجع التى أنقل عنها تفسير هؤلاء القوم، وآراءهم فى القرآن الكريم، وهى مراجع ميسورة لكل من يريد أن يرجع إليها ويطلع عليها.

وجدنا من أصحاب هذا اللون من ألوان التفسير، رجلاً يكتب بحثًا طويلاً تحت عنوان (القرآن والمفسرون) وفيه يعرض لنواحى التقصير فى تفسير كافة المفسرين لكتاب الله تعالى، ويحمل عليهم حملة شديدة نكراء، ويوجه إليهم جميعًا نقده الساخر، ولومه اللاذع، بدون أن يستثنى منهم مفسرًا واحدًا على كثرتهم وكثرة المعتدلين منهم.

رأيناه يتهم المفسرين جميعًا بأنهم تأثروا فى تفاسيرهم بعقائدهم، فأمالوا آيات القرآن نحو آرائهم، فى تعسف ظاهر، وتكلف غير مقبول[١]، ورأيناه يرميهم جميعًا بأنهم كثيرًا ما يكتفون بذكر إسرائيليات ليس لها سند أصلاً، فضلاً عن طمعهم فى تصحيح هذه الأسانيد المكذوبة، ونراه يذكر لهذا الاتهام الأخير مثلاً من أقوالهم فى تفسير قصة أيوب عليه السلام، ثم يأخذ فى تفنيد ما ذهبوا إليه، وإبطال ما قالوا به،

---

(١) انظر مجلة الإيمان العدد الثانى من السنة الثانية سنة ١٣٤٥هـ.

بأدلة كثيرة ذكرها، وبعد هذا كله تناول هو قوله تعالى فى الآيات (٤١ - ٤٤) من سورة (ص): ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

تناول الكاتب هذه الآيات، فشرحها شرحًا يخالف ما ذهب إليه المفسرون جميعًا، مدعيًا أن ما ذهب إليه هو الذى يساير كل ما ورد من آيات القصصفى القرآن، ومؤكدًا أنه هو الذى يتفق مع بلاغة القرآن، وقدسية الأنبياء، فقال:

«يجب أن ننظر فى الآية نظرة أخرى ـ يعنى خلاف ما عليه المفسرون ـ تساير بها نظائرها من آيات القصص ونحن إذا التفتنا إلى ما فى هذه الآية من أيوب عليه السلام قد عزى النصب والعذاب للشيطان فقال ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ كان ذلك مانعًا كل المنع من أن يراد بالنصب والعذاب داء أصاب أيوب، وكان من نتائجه ما ذكره المفسرون... إذ الشيطان لا يملك للإنسان إلا أن ينزغه، ويوسوس إليه، فيلويه عن الخير إلى الشر، وعن العزم فى سبيل الغاية إلى التردد والهزيمة، وإنه ما من نبى ولا رسول إلا وقد نزل به هذا المصاب... مصاب إعراض الناس واستهوائهم بالدعوة والداعين، وصد الشيطان لهم عن سبيل الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ (الحج: ٥٢) الآية، وما كانت شكوى الأنبياء إلا من إعراض أممهم عن الاستجابة، ولا كان حزنهم الذى كان يبلغ أحيانًا حد الإهلاك للنفس إلا لبطء فى سير الدعوة إلى الله تعالى... انظر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (النحل: ١٢٧) وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف: ٦).

ولما كانت الشكوى تشعر بوهن فى العزيمة، وضعف فى الثقة، وعدم القوة فى السير إلى الغاية، كان جواب تلك الشكاية أن قيل له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ فالمراد بالركض هنا؛ عقد العزيمة وتأكيدها، واستتمام الثقة وإكمالها، والمضاء بقوة وبغير تردد ولا توان إلى الغاية، فهى كناية من أعذب الكنايات وأروعها، وهى من وادى

ـ شمر عن ساعد الجد، شمر عن ساقيك ـ غير أنها أوفر منها صياغة وترفعًا، إذ من المعروف المشاهد أن السائر إلى جهة بغير تردد، بل بقوة وعزيمة، ترى لرجليه ضربًا، وتسمع لقدميه على الأرض وقعًا، ولما كان تردد المرء فى غايته، ووهن عزيمته إليها، وضعف ثقته بها، صدأ يغشى الأرواح، ومرضًا يتعب النفوس ويضايق الصدور، كان عقد العزيمة واستكمال الثقة غسلاً للروح من صدئها، وشفاءً للنفس من مرضها، ونقعًا لغلة الصدور؛ لذلك قال الله لرسوله أيوب: ﴿**هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ**﴾ والآية كما ترى ليس فيها مرجع لاسم الإشارة إلا الركض المفهوم من قوله ﴿**ارْكُضْ**﴾ المكنى به عن توثيق العزم، والأخذ بالحزم، كما هو مقتضى النظم الكريم، الجارى لقواعد اللغة، التى تأبى أن يكون لاسم الإشارة مرجع غير هذا من الماء والعين، كما يقتضيه تفسير المفسرين؛ إذ ليس فى النظم ما يدل عليهما بأى وجه من وجوه الدلالة، ولما كان أيوب عليه السلام باعتباره رسولاً لا بد أن يأتمر فى إخلاص الأنبياء بأمر ربه، بين الله ثمرة جهاده وصبره، ومضاء عزمه، فقال: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ**﴾ أى هدينا له أهله فآمنوا به واستجابوا لدعوته، وهدينا له مثلهم من غير أهله، فليس المراد بالهبة هنا هبة الخلق والإيجاد، بل هبة الهداية والإرشاد؛ بدليل تعبيره بالأهل دون التعبير بالذرية والولد، كما فى قوله تعالى: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا**﴾ (مريم: ٥٣) إذ كل ما يهتم له الأنبياء إنما هو أن يهدى الله بهم، لا أن يولد لهم، ولم يتحدث القرآن عن هبة يحيى لزكريا، وإسحاق لإبراهيم إلا لأن هبة الإيجاد فيهما قد تضمنت أمرين عظيمين: **الأول:** أنه قد ولد لإبراهيم ولزكريا عن كبر وشيخوخة ويأس وقنوط، **والثانى:** أن الموهوب لكل منهما رسول لا ولد عادى، فموضع المنة فى هذا: كونهما رسولين لا كونهما ولدين».

«ثم بيَّن الله بعد ذلك سيرة أيوب التى أمره أن يسير بها فى قومه، وهى اللين فى القول، والرفق فى الدعوة، والعظة بالحسنى، وتلك هى الخطة التى رسمها الله لجميع أنبيائه، انظر كيف يقول لموسى وهارون: ﴿**اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ**﴾ (طه: ٤٣، ٤٤) ويقول لرسوله الكريم: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ (آل عمران: ١٥٩) ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾

(الشعراء: ٢١٥) وبيّن الله ذلك فقال: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ (ص: ٤٤) أى لا ترفع فى وجوه قومك رمحًا ولا عصًا، ولا تغلظ لهم القول، ولا تخاشنهم فى الطلب، بل لوح فى وجوههم بالرياحين والأزهار، ولا تأثم بالغلظة والجفوة، فإنك بخفض الجناح والجدال بالتى هى أحسن تبلغ منهم ما لا تبلغه بالسيف، والعصا، والخشونة، والغلظة، فانظر إلى ما فى الآية من كناية ما أجملها وأعلاها، وما أخصبها وأرواها، وانظر كم تعطيك على هذا الوجه من فنون البلاغة، وكم تمنحك من جزالة فى الأسلوب، ثم هم - يريد المفسرين - بعد ذلك يمسخونها ويشوهونها، فيجعلونها منقطعة عما قبلها، وما بعدها، فتقلق فى مرقدها، وتنبو فى مضجعها، إذ يجعلونها متوقفة فى فهمها على معونة أجنبية من الكلام الذى هى فيه، وذلك من أدعى الدواعى لانحطاط الكلام عن المستوى العالى لكلام البشر، فضلاً عن مستوى الإعجاز الذى يجب أن يكون عليه القرآن الكريم».

«هذا ما رأيت أن تؤول به تلك الآيات، استنادًا إلى ما جرى عليه قصص القرآن، وتحاميًا لما يترتب على ما فسر به المفسرون تلك الآيات من خدش قدس أيوب عليه السلام، باعتباره نبيًا رسولاً، ومن منافاة ذلك لحكمته السامية، وتفاديًا من أن يحدثنا القرآن عن أمر عادى، وهو أن شخصًا مرض ثم دعا ربه فشفاه من مرضه. . . ذلك الحديث الذى لا يتحدث به عظيم من الناس فضلاً عن الله تعالى، ولا يحدث به عن رجل عادى فضلاً عن أيوب الرسول الكريم. . . »(١).

هذا هو التفسير الصحيح فى نظر صاحبه، وأحسب أن القارئ الكريم سوف لا يتردد فى الحكم عليه بأنه تفسير منابذ لبلاغة القرآن، ومخالف لظاهره الذى عرف منذ عهد الصحابة والتابعين، وأى شىء يقف فى سبيل المعنى الظاهر حتى نعدل عنه إلى مجاز أو كناية فيها تعسف وتكلف غير مقبول؟ اللهم لا شىء إلا دعوى التجديد، والثورة على القديم، والعمل على هدم آراء العلماء الذين عرف الناس مبلغ خدماتهم للعلم، ودفاعهم عن الدين.

ولا أطيل بذكر ما أفند به هذا الرأى الشاذ وما يحمله من دعاوى غير صحيحة على

---

(١) مجلة الإيمان العدد الثالث من السنة الثانية سنة ١٣٥٤هـ.

المفسرين جميعًا، فقد سبقنى إلى هذا أحد أساتذتى الأجلاء، ولست ببالغ مبلغه من العلم، ولا بآت بأكثر مما أتى به فى الرد على صاحب هذا الرأى[١].

ووجدنا من أصحاب هذا اللون رجلاً آخر دفعه حب التجديد المزيف إلى أن يساير روح الإلحاد ويجارى من يتهمون الشريعة الإسلامية بالقسوة فى أحكامها وحدودها، فراح يتأول آيات الحدود بما يوافق هواه وهوى أصحابه، فحمل الأمر فيها على الإباحة... وجعل الأمر فى ذلك مفوضًا إلى رأى ولى الأمر وحده، وهو وإن كان قد استعمل الأسلوب اللولبى فيما أبداه، وطرح الموضوع الذى عالجه فى صورة سؤال ألقاه شخص خالى الذهن ليتعرف وجه الحق فى المسألة، هو وإن كان قد فعل ذلك مفضوح أمره فصدر المقال يكشف لنا عن نية صاحبه، ويفيدنا بكل صراحة أن الكاتب يريد أن يتأول آيات الحدود بحمل الأوامر الواردة فيها على الإباحة، وإليك ما جاء فى هذه المقالة لتقف على حقيقة الأمر، ولتعرف نية الكاتب وما يهدف إليه فى مقاله.

قال هذا الكاتب تحت عنوان (التشريع المصرى وصلته بالفقه الإسلامى): «قرأت فى السياسة الأسبوعية الغراء مقالاً بهذا العنوان[٢]، حوى أفكارًا أثارت فى نفسى من الرأى ما كانت أريد أن أرجئه إلى حين، فإن النفوس لم تتهيأ بعد لفتح باب الاجتهاد، حتى إذا ظهر المجتهد فى هذا العصر برأى جديد، كتلك الآراء التى كان يذهب إليها الأئمة المجتهدون فى عصور الاجتهاد، قابلها الناس بمثل ما كانت تقابل به تلك الآراء من الهدوء والسكون، وإن بدا عليها ما بدا من الغرابة والشذوذ؛ لأن الناس فى تلك العصور كانوا يألفون الاجتهاد وكانوا يألفون شذوذه وخطأه، إلفهم لصوابه وتوفيقه، أما فى هذا العصر، فإن الناس قد بعد بهم العهد بالاجتهاد، حتى صار كل جديد يظهر فيه شاذًا فى نظرهم، وإن كان فى الواقع صوابًا، وما أسرعهم فى ذلك إلى التشنيع والطعن فى الدين، والمحاربة فى الرزق، فلا يجد من يرى شيئًا من ذلك إلا أن يكتمه أو

(١) صاحب الرد المفحم، هو أستاذنا العلامة الشيخ السيد محمد الخضر حسين، وقد نشره فى مجلة الهداية الإسلامية.. العدد العاشر والثانى عشر من المجلد السابع، والعدد الثانى والثالث والرابع من المجلد الثامن.

(٢) هذا المقال المشار إليه يوجد بالعدد الخامس من السنة السادسة (سنة ١٩٣٧م).

يظهره بين أخصـائه، ممن يأمن شرهم ولا يخاف كيدهم، وتضـيع بهذا على الأمة آراء نافعـة فى دينها ودنياها، ولكنى سأقـدم على ما كنت أريد إخفـاءه من ذلك إلى حين، وسأجتـهد ما أمكننى فى أن لا أدع لأحد مـجالاً فى ذلك التشنيع الذى يقف عـقبة فى سبيل كل جديد»... ثم أشاد بما كتبه صاحب المقال المشار إليه ثم قال: «ولكن يبقى بعد هذا فى تلك الحدود ذلك الأمر الذى سنثيره فيها، ليبحث فى هدوء وسكون، فقد نصل فيه إلى تذليل تلك العقبة التى تقوم فى سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامى من ناحية تلك الحـدود بوجـه آخر جـديد... وسيـكون هذا بإعـادة النظر فى النصـوص التى وردت فيها تلك الحـدود؛ لبحثها من جديد بعد هذه الأحداث الطارئة، وسـأقتصر فى ذلك ـ الآن ـ على ذكـر ما ورد فى تلك الحـدود من النصوص القـرآنية، وذلك قـوله تعالى فى حـد السرقة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٨، ٣٩) وقوله تعالى فى حد الزنى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٢) فهل لنا أن نجتهد فـى الأمر الوارد فى حد السرقة وهو قوله تعالى: ﴿فَاقْطَعُوا﴾ والأمر الوارد فى حد الزنى وهو قوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوا﴾ فنجعل كلا منهما للإباحة لا للوجوب، ويكون الأمر فـيهما مثل الأمر فى قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعـراف: ٣١) فلا يكون قطع يد السارق حدًا مفروضًا، لا يجوز العدول عنه فى جميع حالات السرقة، بل يكون القطع فى السرقة هو أقصى عـقوبة فيها، ويجوز العدول عنه فى بعض الحالات إلى عقوبات أخرى رادعة، ويكون شأنه فى ذلك شأن كل المباحات التى تخضع لتصرفات ولى الأمـر، وتقبل التأثر بظروف كل زمان ومكان، وهكذا الأمر فى حد الـزنى سواء أكان رجـمًا أم جلدًا، مع مـراعاة أن الرجم فى الزنى لا يـقول به فقهـاء الخوارج؛ لعدم النص عليـه فى القرآن الكريم، وهل لنا أن نذلل بهذا عـقبة من العقبات التى تقوم فى سبـيل الأخذ بالتشريع الإسلامى، مع أنا فى هذه الحالة لا نكون قد أبطلنا نصًا ولا ألغـينا حدًا، وإنما وسعنا الأمر توسـيعًا يليق بما امتـازت به الشريعة

الإسلامية من المرونة والصلاحية لكل زمان ومكان، وبما عرف عنها من إيثار التيسير على التعسير، والتخفيف على التشديد...»[١].

فأنت ترى من هذا المقال مقدار ما وصل إليه الكاتب من الجرأة على كتاب الله، إذ أول آية السرقة وآية الزنى تأويلاً غير مقبول بأى حال من الأحوال، ومن ينظر إلى آية السرقة وآية الزنى لا يفهم منهما إلا أن الأمر فيهما للوجوب، فليس لأحد أن يعدل عنه مطلقًا، وذلك الأمر فى قوله تعالى: ﴿فَاقْطَعُوا﴾ وقوله: ﴿فَاجْلِدُوا﴾ وارد فى الوجوب القاطع؛ فإن بناء الأمر بالقطع فى آية السرقة على قوله ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ وبناء الأمر بالجلد فى آية الزنى على قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ يصرفه عن احتمال الإباحة إلى الوجوب؛ وهذا لأن تعليق الحكم على شخص موصوف يوصف يؤذن بأن المتقضى للحكم هو ذلك الوصف الذى قام بالشخص، وإذا كان ذلك الوصف جناية مثل السرقة والزنى ووضع الشارع لهما حكمًا فى صيغة الأمر ولم يذكر حكمًا غيره، لا يصح أن يقال: إن هذا الأمر محتمل للإباحة كما احتمله الأمر فى قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية.

ثم إن قوله تعالى فى آية السرقة: ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾ وقوله فى آية الزنى: ﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يؤكد أن الأمر فى الآيتين للوجوب لا للإباحة.

ثم إن هناك من سنة رسول الله ﷺ القولية والعملية ما يؤكد كون الأمر للوجوب فى الآيتين.

فهل يجوز للكاتب بعد هذا كله أن يتهجم على آيات الحدود بمعول ذلك التأويل الذى تنكره اللغة، ولا تقره السنة ولا يتفق وحكمة التشريع؟ اللهم إن هذا التأويل لا يجوز، ولهذا فإنه لم يصادف غفلة من عقول العلماء وأقلامهم، فقام كثير منهم بالرد على صاحبه، وتفنيد ما ذهب إليه[٢]، ولقد تنبه القائمون على أمر الأزهر حينئذ إلى خطر هذا الرأى وما يجره على الدين من بلاء، فجوزى صاحب المقال على ما كان منه

---

(١) السياسة الأسبوعية ص ٦ من العدد السادس من السنة السادسة (٥٠ فبراير سنة ١٩٣٧م).

(١) خير من رد عليه أستاذنا السيد محمد الخضر حسين فى مجلة الهداية الإسلامية العدد السابع من المجلد التاسع (مارس سنة ١٩٣٧م).

جزاء إن كان بسيطًا فى حد ذاته، فهو يدل على أن أفكار الكاتب لم تلق قبولاً ولم تجد رواجًا فى محيط العلماء.

ووجدنا غير هذا وذاك من تأثر ببعض الآراء الفلسفية فراح ينكر بعض الحقائق الدينية الثابتة، ويتأول ما ورد منها فى القران بما يتمشى مع مذاهب الفلاسفة، فأنكر حقيقة الشيطان، وتأويل ما جاء من لفظ الشيطان فى قوله تعالى فى الآية (١١٧) من سورة النساء: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ فقال ما نصه: «. . . والمعنى أن هؤلاء لم يجيبوا حين أشركوا بالله داعى العقل أو داعى فطرة، وإنما أجابوا نزعات الشر المنبثة فى العالم على مقتضى سنة الله من الابتلاء بعوامل الخير وعوامل الشر، فهم بذلك يتبعون قوة خفية أطلق عليها كلمة (شيطان) جريًا على عادة العرب المألوفة، إذ كانوا يتصورون قوى الشر شياطين تتحدث وتناجى وتغرى وتدفع إلى ما تريد». . . ثم قال: «هذا هو الشيطان الذى يلبى المشرك بإشراكه أمره، ويتخذه وليًا يأمره وينهاه. . .»[١].

وفى موضع آخر نجد[٢] صاحب هذا الرأى يعود إليه فيؤكده، ولست أدرى ماذا يفعل فى سياق الآية، وفى القرائن التى احتفت بها، والصفات التى انتظمتها مما يؤكد أن المراد هو إبليس، ذلك الكائن الخارجى المستقل المستتر عن أعين الناس، كما لا أدرى كيف يفعل بالأحاديث الثابتة عن الرسول ﷺ، والتى تقرر أن الشيطان حقيقة لها وجود خارجى.

وأنكر بعضهم وجود عالم الجن، وتأول ما جاء من ذلك صريحًا فى آيات القرآن الكريم، ففسر قوله تعالى فى أول سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآية، بأن الجن قبيلة من العرب[٣].

وهذا تأويل ينافى صريح القرآن فى مواضع كثيرة، فضلاً عن أنه لا يقوم على دليل يصححه.

---

(١) مجلة الإيمان السنة الخامس العدد ٢١ ص ١١.

(٢) مجلة الإيمان السنة الخامسة العدد ٢٤.

(٣) انظر مجلة الهداية الإسلامية المجلد الثامن العدد الحادى عشر ٧٠٣١.

ووجدنا غير هؤلاء جميعًا رجلاً نكس على رأسه، فطوعت له نفسه أن يخوض فى تفسير كتاب الله على ما به من غواية وعمـاية، وأخيرًا طلع على الناس بكتاب مختصر فى تفسيـر القرآن الكريم، تفسيرًا جمـع فيه الكثير من وساوسـه وأوهامه، ثم سول له الغرور أن يسميه: «**الهداية والعرفان فى تفسير القرآن بالقرآن**» أحدث هذا التفسير ضجة كبـرى فى المحيط العلمى، وقـام رجال الأزهر وقعـدوا من أجله، ثم ألفت لجنة من بعض العلماء لتنـظر فى هذا الكتاب، ثم لتحكم عليـه بما ترى فيـه، ثم رفعت اللجنة تقريرها لشيـخ الأزهر إذ ذاك، وفيه تفنيد لآراء الرجل وحكم عليـه بأنه (أفاك خراص، اشتهى أن يعرف فلم ير وسيلة أهون عليـه وأوفى بغرضه من الإلحاد فى الدين بتحريف كلام الله عن مواضعه، ليستفز الكثير من الناس إلى الحديث فى شأنه وترديد سيرته).

ثـم صودر الكتاب واخـتفى عن أعين الناس ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**﴾.

قـرأت ما جـاء فى تقـرير اللجنة الأزهريـة، ولكننى أردت أن أطلع على الكتـاب نفسـه، فعـملت كل ما أسـتطيع حتى اسـتصـدرت تصريحًـا من دار الكتب المـصرية بالاطلاع على هذا الكتاب الذى منع من التداول بين الناس.

حملته على جميع المفسرين:

جاءنى الكتاب وقرأت فيه، فوجدت مؤلفه قد قـدم له بمقدمة عاب فيها المفسرين وكتب التفسير جميعًا فقال: «وقد بلغ الدس والحشو فى التفاسير أنك لا تجد أصلاً من أصول القرآن إلا وتجد بجانبه رواية موضوعة؛ لهـدمه وتبديله، والمفسرون قد وضعوا هذا فى كتبهم من حيث لا يشعرون»(١).

طريقته فى التفسير:

ثم قال بعـد ذلك: «فهـذا كله ـ يعنى الدس والحشـو فى التفـاسيـر ـ دعانى إلى تفسيرى، وأن تكون طريقتى فيه كشف الآية وألفاظها بما ورد فى موضوعها من الآيات والسور، فيكون من ذلك العلم بكل مواضع القرآن، ويكون القرآن هو الذى ينطبق عليه ويؤيده من سنن الله فى الكون ونظامه فى الاجـتماع، وقد اختـرت أن تكون على عدد

(١) ص (ب).

الآيات فى المصحف لتبقى الهداية بالترتيب الذى اختاره الله، وليمكن الباحث عن معنى الآية أن يلاحظ سياقها فيقرأ ما سبقها وما لحقها من الآيات ليكون على علم تام وهداية واعظة...» (١).

ولعل القارئ الكريم يلحظ كما ألحظ أن المؤلف يرمى من وراء قوله (... ويكون القرآن هو الذى يفسر نفسه كما أخبر الله، ولا يحتاج إلى شىء من الخارج غير الواقع الذى ينطبق عليه ويؤيده من سنن الله فى الكون ونظامه فى الاجتماع) أنه يريد أن يهدر صلة السنة بالقرآن الكريم، وينفى أن منزلتها منه منزلة المبين من المبين، والله تعالى يقول: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾(النحل: ٤٤).

ويظهر لنا أن المؤلف قد ركب رأسه فراح يهدم سنة رسول الله ﷺ، ولا يعترف بما لها من مكانة فى تفسير القرآن الكريم، فقال مقالته السابقة، كما أنه راح يهدم ما للسنة من المكانة فى التشريع الإسلامى فقال فى قوله تعالى فى الآية (٦٣) من سورة النور ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾: «يفيدك أن المخالفة المحذورة هى التى تكون للإعراض عن أمره، وأما التى تكون للرأى والمصلحة فلا مانع منها بل هى من حكمة الشورى» (٢) فأنت ترى أنه يجيز مخالفة أمر الرسول للمصلحة، وهذا عناد ومكابرة ومخالفة صريحة لقوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾(الحشر: ٧) ولغير هذا من الآيات التى وردت فى وجوب طاعته ﷺ وهى كثيرة، ثم أى مصلحة تخالف ما جاء به رسول الله ﷺ؟.

هذا ولا أريد أن أطيل بذكر ما جاء فى هذا الكتاب من أباطيل وأضاليل ويكفى أن أذكر طرفًا مما حواه من ذلك ليتبين القارئ أن الرجل (جامد على المحسوسات، جاحد لكثير مما أخبر به القرآن، منكر لأحكام قررها القرآن والسنة وأجمع عليها الصحابة وأئمة المسلمين من بعدهم).

إنكاره لمعجزات الأنبياء عليهم السلام:

وقف هذا الرجل من معجزات الأنبياء عليهم السلام موقفًا شاذًا غريبا، يقوم على إنكارها وجحدها والذهاب بها ـ عن طريق التأويل الفاسد ـ إلى أن تكون من قبيل

---

(١) ص حـ ـ د.

(٢) ص ٢٨١.

الممكن الذى يدخل تحت مقدور كل إنسان رسول أو غير رسول، وهو يصرح بهذا فى كثير من المواضع، فيقول فى بعض المواضع: «وبعد هذا تعلم أن الله ينادى الناس بأنهم لا ينبغى أن ينتظروا من الرسول آية على صدقه فى دعوته غير ما فى سيرته ورسالته»(١) وفى موضع آخر يقول: «واعلم أن آيات الله فى نصر أنبيائه لا تناقض سننه فى خلقه وكونه»(٢) وفى موضع ثالث يقول: «وقد كانت كل آياتهم حججًا وبراهين من سيرتهم ورسالتهم، فلا يمكن أن يأتوا بدليل على صدقهم من غير الدعوة نفسها، فتكون هناك علاقة بين الدعوة ودليلها فتدبر»(٣) وفى موضع رابع يقول: (وإن آيتهم على صدق دعوتهم لا تخرج عن حسن سيرتهم، وصلاح رسالتهم، وأنهم لا يأتون بغير المعقول، ولا بما يبدل سنته ونظامه فى كونه)(٤).

على هذا الأساس تناول الرجل آيات المعجزات فخرج بها عن مدلولها الحقيقى الذى أراده الله تعالى.

موقفه من معجزات عيسى عليه السلام:

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٤٩) من سورة آل عمران فى شأن عيسى عليه السلام: ﴿ ... أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ نجده يقول ما نصه: «﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ يفيدك التمثيل إخراج الناس من ثقل الجهل وظلماته إلى خفة العلم ونوره ﴿الأَكْمَهَ﴾ من ليس عنده نظر ﴿وَالأَبْرَصَ﴾ المتلون بما يشوه الفطرة، فهل عيسى يبرئ هذا بمعنى أنه يكمل التكوين الجسمانى بالأعمال الطيبة؟ أم بمعنى أنه يكمل التكوين الروحى والفكرى بالهداية الدينية؟ ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾ يعلمهم التدبير المنزلى»(٥).

وإذا كان المؤلف قد تردد فى معنى إبراء الأكمه والأبرص هنا بين تكميل التكوين الجسمانى بالأعمال الطيبة، وبين تكميل التكوين الروحى بالهداية الدينية، فإنه ليس

---

(١) ص ١٦١. (٢) ص ٢٩٠. (٣) ص ٢٩٧.
(٤) ص ٢٠٦. (٥) ص ٤٥.

تردد الشاك فى أى الأمرين كان، وإنما هو تردد يبدو منه فى صراحة ووضوح ميله إلى أن المراد هو التكوين الروحى لا غير، وإنك لتجده يصرح فى موضع آخر بأن المراد هو تكميل التكوين الروحى بالهداية الدينية، وذلك عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١١٠) من سورة المائدة ﴿ ... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي... ﴾ من هذا تعرف أن عيسى نبى أرسله الله إلى بنى إسرائيل ليشفى نفوسهم، ويحيى موت قلوبهم، فآيته فى دعوته وسيرته وهدايته، عاش ومات كغيره من الأنبياء فى بشريته، فلم يكن خارقًا فى سنته، ولا ممتازًا بما يدعو ألوهيته وعبادته»(١).

كذلك تجده ينكر أن يكون عيسى عليه السلام قد تكلم فى المهد وذلك حيث يؤول قوله تعالى فى الآية (٤٦) من سورة آل عمران ﴿ ... وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً... ﴾ ما نصه: «فى المهد: فى دور التمهيد للحياة وهو دور الصبا، علامة على الجرأة وقوله الاستعداد فى الصغر، وكهلاً: علامة على أنه لا يفل عزمه بالشيخوخة والكبر، ويصح أن يكون المعنى يكلم الناس الصغير منهم والكبير علامة على تواضعه ومباشرة دعوته بنفسه»(٢).

وتأول أيضًا قوله تعالى فى الآية (٢٩) من سورة مريم: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ فقال: «أى كان ذاك النهار ولدًا صغيرًا فكيف يأمرنا وينهانا ونحن كبار القوم فهذا ابن حرام»(٣).

ولما رأى أن قوله تعالى قبل ذلك فى الآية (٢٧) ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ لا يتفق مع تأويله السابق تأوله أيضًا فقال: «تحمل على ما يحمل عليه المسافر، ومنه تفهم أنه كان فى سياحة طويلة»(٤).

موقفه من معجزات موسى عليه السلام:

وعندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٦٠) من سورة الأعراف ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ قال:

---

(١) ص ٩٧.
(٢) ص ٤٤.
(٣) ص ٢٣٩.
(٤) ص ٢٣٩.

«ويصح أن يكون الحجر اسم مكان، واضرب بعصاك الحجر: معناه: اطرقه واذهب إليه، والغرض أن الله هداه إلى محل الماء وعيونه»(١).

وعندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٦٣) من سورة الشعراء ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ قال ما نصه: «﴿الْبَحْرَ﴾ الماء الواسع ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ اطرقه واذهب إليه ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ هذا بيان لحالة البحر، يصوره لك بأنه مناطق بينها طرق ناشفة يابسة، راجع (١٦٠) في الأعراف، ثم راجع طه في (٧٧، ٧٨) ولتعرف كيف اهتدى إلى طريق يبس مر منه، واقرأ استعمال الضرب في السير في قصة أيوب في (ص)..»(٢).

وفي سورة الأعراف عند قوله تعالى في الآيتين (١٠٧، ١٠٨): ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ يقول: (مثال من قوة حجته وظهور برهانه)(٣).

وعند قوله تعالى في الآيات (١١٨) إلى (١٢٢) من نفس السورة ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ يقول: «يصور لنا كيف كشفت حجته تزييف حجتهم حتى سلموا له وآمنوا به»(٤).

موقفه من معجزة إبراهيم عليه السلام:

وعندما عرض لقوله تعالى في الآية (٦٩) من سورة الأنبياء ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ...﴾ نجده ينكر أن يكون إبراهيم عليه السلام قد ألقى في النار وخرج منها سالمًا، وذلك حيث يؤول الآية بما يخالف الظاهر فيقول: «معناه نجاه من الوقوع فيها - راجع ٦٤ في المائدة و ٢٦ في النحل، وترى في الآية وباقي القصة أن الله نجاه بالهجرة وخيب تدبيرهم»(٥).

موقفه من معجزات داود عليه السلام:

وعندما عرض لقوله تعالى في الآية (٧٩) من سورة الأنبياء: ﴿... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يقول: «﴿يُسَبِّحْنَ﴾ يعبر عما تظهره الجبال

---

(١) ص ١٣١. (٢) ص ٢٩٠. (٣) ص ١٢٦.
(٤) ص ١٢٦. (٥) ص ٢٥٦.

من المعادن التى كان يسخرهـا داود فى صناعتها الحربية ﴿وَالطَّيْـرَ﴾ يطلـق على ذى الجناح وكل سريع السير من الخيل والقطارات البخارية والطيارات الهوائية»[١].

موقفه من معجزات سليمان عليه السلام:

وعندما عرض لقوله تعـالى فى الآية (٨١) من سورة الأنبياء: ﴿وَلِسُلَيْمَـانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا...﴾ نجده يقول: «﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ الآن تجرى بأمر الدول الأوربية وإشارتها فى التلغرافات والتليفونات الهوائية، اقرأ سبأ»[٢].

وفى سورة النمل عند قوله تعالى فى الآية (١٦) ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ يقول: «﴿مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ كل من يربى الطير ويؤلفه يمكنهم أن يتعلموا منطقه وماذا يريد، ويمكنهم أن يستعملوه فى الرسائل وغيرها»[٣].

وفى قوله تعالى فى الآية (١٨) من السورة نفسها ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ...﴾ نجده يقول: «﴿نَمْلَةٌ﴾: قبيلة ﴿النَّمْلِ﴾ قبائل الوادى»[٤].

وفى قوله بعد ذلك فى الآية (٢٠) من السورة أيضًا ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ نجده يقول: «﴿الْهُدْهُدَ﴾ اسم طائر، فهل يكون من ذوى الجناحين؟ ويكون كـلامه كناية عمـا يحمل من رسائل؟ أم من الخيـالة؟ السوارى؟ أو الطيارين الآخرين؟ راجع الأنبياء»[٥].

وفى قوله بعد ذلك فى الآيات من (٣٨) إلى (٤٢) من السورة نفسه: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ فى هذه الآيات نراه يقول: «﴿بِعَرْشِهَا﴾ بملكها، يريد أن يضع

---

(١) ص ٢٥٧. (٢) ص ٢٥٧. (٣) ص ٢٩٧.
(٤) ص ٢٩٧. (٥) ص ٢٩٧.

خطط الحرب ونظام الدخول فى البلاد، فطلب الخريطة التى فيهـا مملكة سبأ ليهاجمها ويريها أنه جاد غير هازل ﴿عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ أحد القواد... ويظهر أنه لم يفهم أن المسألة علمية جغرافية تحتاج إلى الذى ﴿عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ من الكتابة والرسم والتخطيط ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ الغرض أنه يأتى به حالاً وقد أتى به، ويحتمل أنه رسمه فى الحـال أو كان عنده مرسومًا، ولو كـان عهد الفوتوغرافيـا قديمًا لصح أن يكون ذلك الرسم فيـها، وترى أن سليمـان يشكر الله على ما فى المملـكة من العلماء العاملين فى كل فن، ونأخـذ من القصة أن الله يعظم شأن العلم ويدعـونا إلى التمسك بالأسباب الكونية لتشـييده الملك وإقامة الدولة ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ يؤيد لك أن المـسألة علمـية ﴿مُسْلِمِينَ﴾ منقادين لله، يعنى أنهم جمعـوا بين العلم والتربية على الخلق العظيم، وهذا أحسن حافظ لنظام الملك وعزة الدولة»(١).

موقفه من معجزة الإسراء:

وعندما تعرض لقوله تعالى فى أول سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ نجده يقول: «﴿أَسْرَىٰ﴾ الإسـراء يستـعمل فى هجرة الأنبياء... انظر ٧٧ فى طه، و ١٣٨ فى الأعراف، و ٥٢ فى الشعراء، و ٢٣ فى الدخان، و ٨١ فى هود، و ٦٥ فى الحج، ثم تدبر آخر النحل وعلاقته بالإسراء» ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذى له حرمة يحـترم بها عند جميع النـاس ٢١٧ و٢٨ فى البقرة و٢٥ فى الحج ﴿الْمَسْجِدِ الأَقْصَا﴾ الأبعد، مسـجد المدينة... وقـد بارك الله حوله، فكان للنبى ﷺ هناك ثمرة وقوة، وكان بالإسراء الفتح والنصر فكان ذلك من آيات الله، انظر ٢٠ يس و١٠٨ فى التوبة ثم ارجع إلى الإسراء فاقرأ إلى ٦٠ و ٩٣»(٢).

إنكاره للملائكة والجن والشياطين:

كذلك نجد صاحب هذا الكتاب يؤول الملائكة، والجن، والشياطين، بما لا يتفق والحقائق الشرعية الثابتة.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٣٤) من سورة البقرة ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ

(١) ص ٢٩٨، ٢٩٩.

(٢) ص ٢١٩.

اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ نجده يقول: «الملائكة رسل النظام وعالم السنن، وسجودهم للإنسان معناه أن الكون مسخر له، راجع ٢٩، ثم انظر الملك فى ١٥ ﴿**إِبْلِيسَ**﴾ اسم لكل مستكبر على الحق، ويتبعه لفظ الشيطان والجان، وهو النوع المستعصى على الإنسان تسخيره»(١).

وعند قوله تعالى فى الآية (٧١) من سورة الأنعام: ﴿ **قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ...** ﴾ الآية، نجده يقول: «﴿**الشَّيَاطِينُ**﴾ تطلق على الحيات والثعابين، تستهوى من يتبعها ليقتلها فيهوى معها وتضله بتعرجها راجع ٢٧٥ فى البقرة»(٢).

وعند قوله تعالى فى الآيتين (٢٦، ٢٧) من سورة الحجر: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ** ﴾ يقول: «يمثل لك بوصف الإنسان، النوع الهادئ صاحب الطبع الطينى الذى تشكله كما تريد ﴿**وَالْجَانَّ**﴾ النوع المتشرد صاحب الطبع النارى، إذا قاربته يؤذيك ويغويك، ولا تستطيع أن تمسكه وتعدله، والنوعان موجودان فى كل أمة، فتدبر السياق من أول السورة، وراجع القصة فى البقرة»(٣).

وعند قوله تعالى فى الآية (١٧) من سورة النمل ﴿ **وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ** ﴾ يقول: «﴿**الْجِنِّ**﴾ يطلق على العالم الخفى والظاهر القوى، وجن كل شىء أوله ومقدمته، وجن الجيش قواده ورؤساؤه ﴿**وَالإِنسِ**﴾ طائعوه ومرءوسوه، اقرأ الجن»(٤).

وعند قوله تعالى فى الآية (١٥٨) من سورة الصافات ﴿ **وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ** ﴾ يقول: «الجنة أو الجن: سادتهم وكبراؤهم»(٥).

وعند قوله تعالى فى الآيتين (٣٧ و ٣٨) من سورة (ص) ﴿ **وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ** ﴾ نجده يقول: «﴿**وَالشَّيَاطِينَ**﴾ يطلقون على الصناع الماهرين والأشقياء المجرمين ﴿**مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ**﴾ مسلوكين فى القيود،

---

(١) ص ٧. (٢) ص ١٠٥. (٣) ص ٢٠٤.
(٤) ص ٢٩٧. (٥) ص ٢٥٦.

ومنهـا تفهم أن سليـمان كـان يشغل الـمسـجونين من أصـحاب الصناعـات للانتفـاع بهم. . . »[١].

إنكاره لأحكام من الدين لم ينازع فيها أحد من المجتهدين:

ولقد سـولت للمؤلف نفسـه أن يتأول بعض آيات الأحكام على غيـر ما أراد الله، وعلى مقتضى هواه الذى لا يخضع لقواعد اللغة ولا لأصول الشريعة!!.

حد السرقة:

فمثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٣٨) من سورة المائدة ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُـمَا** ﴾ الآية، يقول: «واعلم أن لفظ السارق والسارقـة يعطى معنى التعود، أى أن السرقة صفة من صفاتهم المـلازمة لهم، ويظهر لك من هذا المعنى: أن من سرق مرة أو مرتين ولا يستمـر فى السرقة ولم يتعود اللصوصيـة لا يعاقب بقطع يده؛ لأن قطعها فيه تعجيز له، ولا يكون ذلك إلا بعد اليأس من علاجه»[٢].

حد الزنى:

وعند قوله تعالى فى الآية (٢) من سورة النور: ﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ** ﴾ الآية، نجـده يقول: «﴿ **الزَّانِيـةُ وَالزَّانِى** ﴾ يطلق هذا الـوصف على المرأة والـرجل إذا كانا معـروفين بالزنى وكـان من عادتهـما وخلقـهمـا، فهمـا بذلك يستحقان الجلد»[٣].

تعدد الزوجات:

فى الآية (٣) من سـورة النساء ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ...** ﴾ الآية، نجده يقول: «﴿ **مِّنَ النِّسَاءِ** ﴾ نساء اليتامى الذين فـيهم الكلام (هكذا بالأصل) لأن الزواج مـنهن يمنع الحرج فى أمـوالهن، ومن هذا تفهم أن تعدد الزوجات لا يجوز إلا للضرورة التى يكون فيها التعدد مع العدل أقل ضررًا على المجتمع من تركه، لتعلم أن التعدد لم يشرع إلا فى هذه الآية بذلك الشرط السابق واللاحق ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا** ﴾ ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا** ﴾»[٤].

---

(١) ص ٢٥٩.
(٢) ص ٨٨.
(٣) ص ٢٧٤.
(٤) ص ٦١.

فهو يريد أن يبيح تعدد الزوجات إلا إذا كن يتامى فى حجره، وأمن من نفسه عدم الجور، ولم يقل أحد بالشرط الأول مطلقًا، ومن يطلع على سبب النزول يعلم خطأ من يشترط هذا الشرط فى التعدد.

التســـــرى:

وعند قوله تعالى فى نفس الآية السابقة ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ نجده يقول: «انظر آية ٢٥ إلى ٢٨ من النساء»[١] وفى الآية ٢٥ وهى قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ يقول: «فيه عناية بالخادمات، وتسهيل لمن يريدون الزواج، ولا يستطيعون النفقات على ذوات البيوتات، انظر (٣٣) فى النور و (٦٠) فى الكهف، ثم (٣٠ و ٣٦ و ٤٢ و ٦٢» فى يوسف ﴿الْعَنَتَ﴾ الحرج، انظر (٢٢٠) فى البقرة و (٧) فى الحجرات و (١٢٨) فى التوبة و (١١٨) فى آل عمران، وفى هذه الآية رد على الذين يتخذون ملك اليمين من الخادمات والوصيفات للتمتع بهن كالزوجات، بحجة أنهن مشتريات بالمال، أو أسيرات بالحرب، فليس فى الإسلام عرض امرأة يباح بغير الزواج، مملوكة كانت أو مالكة، فتدبر ذلك فى الآيات»[٢].

وفى قوله تعالى فى الآيتين (٥، ٦) من سورة المؤمنون: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ الآية، يقول: «اقرأ المعارج، والنور، وأوائل البقرة»[٣].

ثم قال فى المعارج عند قوله تعالى فى الآيتين (٢٩، ٣٠) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ما نصه: «﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الخدم، فإن لهم ما ليس لغيرهم، فقد يكون فى الإنسان فروج أى عيوب ونقائص يسيئه أن يراها الناس فيه، ولكن لا يسيئه أن يراها خدمه»[٤].

فأنت ترى من هذا أنه يحرم التسرى، ويفسر الفروج بالعيوب، وهذا بعد عن قوانين اللغة، ومبادئ الشريعة.

---

(١) المرجع السابق.
(٢) ص ٤٥٥.
(٣) ص ٢٦٧.
(٤) ص ٤٥٥.

الربـــــــــا:

كذلـك نجـد المـؤلف يميـل إلـى أن الربـا المحـرم شـرعًـا هـو الفاحش فـقط، ولهذا نراه عندمـا يعرض لآيات الربا فى سـورة البقرة يفـسر (الربا) فيـقول: «الربا هو الزيادة من الربح فى رأس المـال، وهو معروف ومـقيد بالآية (١٣٠) فى آل عـمران، فانظـرها أولاً»(١) يريـد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ (آل عمـران: ١٣٠) ثم يقول بعد ذلك: «﴿وَذَرُوا مَـا بَقِيَ﴾ (البـقرة: ٢٧٨) ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ (البقرة: ٢٧٩) ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ (البقرة: ٢٨٠) كل ذلك يفيدك أن الكلام فى المعاملة الحاضرة ويبشر من يتـوب بأنه لا يحاسب على ما كسبه من قبل ﴿فَلَهُ مَـا سَلَفَ﴾ (البقرة: ٢٧٥) انظر (٣٨) فى الأنفال»(٢) يريد قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾.

ثم قال بعد ذلك عندما عرض لقـوله تعالى فى الآية (١٣٠) من سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: «﴿الـرِّبَـا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ أى الربا الفاحـش، وبمعنى آخر: الربح الـزائد عن حده فى رأس المال، وتقدره كل أمة بعـرفها، راجع فى جزائه أواخر البقرة، وقصـة اليهود فى أواخر النساء، ثم ارجع إلى (٥) فى النساء و (٤٣)(٣).

زكاة الزروع:

كذلك نجد المـؤلف يذهب فى زكاة الزروع مذهبًا لم يقل به أحد من المـجتهدين فضـلاً عن أنه يصادم ما جـاء من السنة الصحـيحة فى بيـان المقـدار الواجب فى زكاة الزروع وذلك حيث يفسر قوله تعالى فى الآية (١٤١) من سورة الأنعام: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فيقول: «﴿وَآتُوا حَقَّهُ﴾ يفيد أن فى كل هذا الخارج من الأرض حقّا لا بد من إعطائه ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ زمن تحصيله وكما أمر المالكين بإيتاء هذا الحق أمر الحاكم العالم بأخذه والعمل على جبايته لبيت المال، وقد ترك التقدير للأمة بحسب الحال»(٤).

أقـول: وليس للأمة دخل فى تقدير مقـررات الزكاة بعد أن قدرها الرسول ﷺ، وقررها على الأمة.

---

(١) ص ٣٧.
(٢) ص ٣٨.
(٣) ص ٥٣.
(٤) ص ١١٣.

مصارف الزكاة:

كذلك تخبط المؤلف فى شرحه لبعض مصارف الزكاة، وذلك حيث فسر قوله تعالى فى الآية (٦٠) من سورة التوبة ﴿... وَفِي الرِّقَابِ﴾ فقال: «فى خلاصها من الاستعباد، وفى هذا الزمان تجد أكثر المسلمين رقابهم مملوكة للأجانب، فيجب أن يتعاونوا على فك رقابهم، وفى الزكاة حق لهذا التعاون»(١).

الطلاق:

كذلك نجد المؤلف يذهب إلى أن الطلاق لا يقع إلا إذا كان سببه أمرًا يخل بنظام العشرة، وآتيا من قبل المرأة، وذلك حيث يقول فى قوله تعالى فى الآية (١) من سورة الطلاق ﴿لا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ ما نصه: «... ﴿بُيُوتِهِنَّ﴾ بيوت الزوجية، راجع البقرة من (٢٢٦ - ٢٤٢) والأحزاب (٤٠) والتحريم (٥) والنور (٥ - ١٠) لتعرف أن الطلاق وإن كان فى يد الرجل لا يقع إلا بسبب يخل بنظام العشرة الزوجية»(٢).

هذا بعض ما جاء فى هذا الكتاب الذى هذى به صاحبه، وفيه غير هذا كثير مما يدل على أن الرجل قد ركب متن الغواية، ومشى يخبط خبط الأعشى فى مهمه متسع من الضلالة!!.

وحسبى أن أكون قد أطلعت القارئ على بعض ما جاء فى هذا الكتاب، ولست فى حاجة إلى أن أطيل بذكر ما يبطل هذه الأوهام ويفندها؛ فإنى لست فى مقام الرد والتفنيد، وإنما أنا فى مقام بيان لون من ألوان التفسير فى هذا العصر وإذا كان القارئ الكريم يود أن يقف على إبطال هذه المزاعم التى حشا بها المؤلف كتابه، فليرجع إلى قرار اللجنة الأزهرية، التى ألفت للرد على هذا الكتاب(٣)، وليرجع إلى ما كتبه شيخنا العلامة السيد محمد الخضر حسين فى الجزء الثالث من رسائل الإصلاح(٤)، ولا شك أنه سيجد فيما كتب هنا وهناك ما يكفى لأن يذهب بتلك التأويلات أدراج الرياح، وما ينادى بأن صاحب هذه التأويلات قد انحرف عن الهدى، فهوى إلى مكان سحيق.

---

(١) ص ١٥٠. (٢) ص ٤٥٥.

(٣) العدد الثالث والرابع من المجلد الثانى من مجلة نور الإسلام (الأزهر سنة ١٣٥٠هـ).

(٤) ص ١٤٠ - ١٦٠.

اللون الأدبى الاجتماعى للتفسير فى عصرنا الحاضر

يمتاز التفسير فى هذا العصر بأنه يتلون باللون الأدبى الاجتماعى، ونعنى بذلك: أن التفسير لم يعد يظهر عليه فى هذا العصر ذلك الطابع الجاف، الذى يصرف الناس عن هداية القرآن، الكريم، وإنما ظهر عليه طابع آخر، وتلون بلون يكاد يكون جديدًا وطارئا على التفسير، ذلك هو معالجة النصوص القرآنية معالجة تقوم أولاً وقبل كل شىء على إظهار مواضع الدقة فى التعبير القرآنى، ثم بعد ذلك تصاغ المعانى التى يهدف القرآن إليها فى أسلوب شيق أخاذ، ثم يطبق النص القرآنى على ما فى الكون من سنن الاجتماع، ونظم العمران.

مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
وأثرها فى التفسير

وإذا كان هذا اللون الأدبى الاجتماعى يعتبر فى نظرنا عملاً جديداً فى التفسير، وابتكاراً يرجع فضله إلى مفسرى هذا العصر الحديث، فإنا نستطيع أن نقول بحق: إن الفضل فى هذا اللون التفسيرى يرجع إلى مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده للتفسير... هذه المدرسة للتى قام زعيمها، ورجالها من بعده، بمجهود كبير فى تفسير كتاب الله تعالى، وهداية الناس إلى ما فيه من خير الدنيا وخير الآخرة.

نعم قامت هذه المدرسة بمجهود كبير فى تفسيره كتاب الله تعالى، مجهود نحمد لها الكثير منه، ولا نوافيها على بعض منه قليل.

محاسن هذه المدرسة:

فالذى تحمده لهذه المدرسة: أنها نظرت للقرآن نظرة بعيدة عن التأثر بمذهب من المذاهب، فلم يكن منها ما كان من كثير من المفسرين من التأثر بالمذهب إلى الدرجة التى تجعل القرآن تابعًا لمذهبه، فيؤول القرآن بما يتفق معه، وإن كان تأويلاً متكلفًا وبعيداً.

كما أنها وقفت من الروايات الإسرائيلية موقف الناقد البصير، فلم تشوه التفسير بما شوه به فى كثير من كتب المتقدمين، من الروايات الخرافية المكذوبة، التى أحاطت بجمال القرآن وجلاله، فأساءت إليه وجرأت الطاعنين عليه!!.

كذلك لم تغتر هذه المدرسة بما اغتر به كثير من المفسرين من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة التى كان لها أثر سيئ فى تفسير القرآن الكريم!!.

ولقد كان من أثر عدم اغترار هذه المدرسة بالروايات الإسرائيلية، والأحاديث الموضوعة، أنها لم تخض فى تعيين ما أبهمه القرآن، ولم تجرؤ على الخوض فى الكلام عن الأمور الغيبية، التى لا تعرف إلا من جهة النصوص الشرعية الصحيحة، بل قررت مبدأ الإيمان بما جاء من ذلك مجملاً، ومنعت من الخوض فى التفصيلات

والجزئيات، وهذا مبدأ سليم، يقف حاجزًا منيعًا دون تسرب شيء من خرافات الغيب المظنون إلى المعقول والعقائد.

كذلك نجد هذه المدرسة أبعدت التفسير عن التأثر باصطلاحات العلوم والفنون، التى زج بها فى التفسير بدون أن يكون فى حاجة إليها، ولم تتناول من ذلك إلا بمقدار الحاجة، وعلى حسب الضرورة فقط.

ثم إن هذه المدرسة، نهجت بالتفسير منهجًا أدبيًا اجتماعيًا، فكشفت عن بلاغة القرآن وإعجازه، وأوضحت معانيه ومراميه، وأظهرت ما فيه من سنن الكون الأعظم ونظم الاجتماع، وعالجت مشاكل الأمة الإسلامية خاصة، ومشاكل الأمم عامة، بما أرشد إليه القرآن، من هداية وتعاليم، جمعت بين خيرى الدنيا والآخرة، ووفقت بين القرآن وما أثبته العلم من نظريات صحيحة، وجلت للناس أن القرآن كتاب الله الخالد، الذى يستطيع أن يساير التطور الزمنى والبشرى، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ودفعت ما ورد من شبه على القرآن، وفندت ما أثير حوله من شكوك وأوهام، بحجج قوية قذفت بها على الباطل فدمغته فإذا هو زاهق كل هذا بأسلوب شيق جذاب يستهوى القارئ، ويستولى على قلبه، ويحبب إليه النظر فى كتاب الله، ويرغبه فى الوقوف على معانيه وأسراره.

هذا ما نحمده لهذه المدرسة، ولا نستطيع أن نغمطها عليه، أو نقلل من فضلها فيه.

عيوب هذه المدرسة:

أما ما نأخذه على هذه المدرسة، فهو أنها أعطت لعقلها حرية واسعة، فتأولت بعض الحقائق الشرعية التى جاء بها القرآن الكريم، وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل، وليس هناك ما يدعو لذلك إلا مجرد الاستبعاد والاستغراب، استبعاد بالنسبة لقدرة البشر القاصرة، واستغراب لا يكون إلا ممن جهل قدرة الله وصلاحيتها لكل ممكن.

كما أنها بسبب هذه الحرية العقلية الواسعة جارت المعتزلة فى بعض تعاليمها وعقائدها، وحملت بعض ألفاظ القرآن من المعانى ما لم يكن معهودًا عند العرب فى

زمن نزول القرآن وطعنت فى بعض الأحاديث: تارة بالضعف، وتارة بالوضع، مع أنها أحاديث صحيحة رواها البخارى ومسلم، وهما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى بإجماع أهل العلم، كما أنها لم تأخذ بأحاديث الآحاد الصحيحة الثابتة، فى كل ما هو من قبيل العقائد، أو من قبيل السمعيات، مع أن أحاديث الآحاد فى هذا الباب كثيرة لا يستهان بها.

وما يقال من أن خبر الواحد لا تثبت به عقيدة إجماعًا، فيه نظر من وجوه:

الأول: أن دعوى الإجماع باطلة، فإن للعلماء أربعة أقوال فى إفادة خبر الواحد العلم:

١- يفيد الظن مطلقًا.

٢- بفيد العلم بقرينة.

٣- يفيد العلم من غير قرينة باطراد.

٤- يفيد العلم من غير قرينة لا باطراد.

الثانى: إذ جرينا على أن خبر الواحد يفيد العلم، أمكن أن تثبت به عقيدة، وإذا جرينا على أنه يفيد الظن، أمكن أن تثبت به العقيدة إذا احتفت به قرائن ـ على المختار ـ لإفادته العلم حينئذ، ومن هنا جزم ابن الصلاح وغيره بأن أحاديث الصحيحين التى لم تنتقد عليهما تفيد العلم؛ فإن الأمة قد تلقتهما بالقبول، وهى معصومة من الخطأ، وظن المعصوم لا يخطئ (١).

الثالث: أنه ليس المراد من العقيدة كل ما يعتقد، وإلا لتناول ذلك الفروع الفقهية، فإنه لا يسوغ العمل بها إلا بعد اعتقاد صحة الحكم فيها، وإنما المراد بالعقائد أصولها، وهو ما كان الإخلال بها موجبًا للكفر، كالإيمان بالله وباليوم الآخر، وأما الأحاديث الواردة فى الحوادث الماضية، أو المستقبلة، أو المتعلقة بتفاصيل اليوم الآخر وما فيه، فلا يشترط فيها التواتر، لأن هذه الأمور ليست من قبيل العقائد التى يترتب على عدم تصديقها الكفر والعياذ بالله تعالى، ولكن يكتفى فيها بأن تكون من طريق صحيح.

---

(١) انظر مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث ص ١٤ - ٣٥.

أهم رجال هذه المدرسة:

هذا. . . وإن أهم رجال هذه المدرسة، وهو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده زعيمها وعميدها، ثم المرحوم السيد محمد رشيد رضا، والمرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى، وهما خير من أنجبت هذه المدرسة، وخير من ترسم خطا الأستاذ الإمام، وسار على منهجه وطريقته فى التفسير.

ولست أرى القارئ بحاجة إلى أن أترجم لحياة هؤلاء الرجال الثلاثة، فالعهد بهم قريب، وليس يخشى على من له صلة بالحركة العلمية فى هذا العصر شىء من معالم حياتهم، ويكفى أن أتكلم عن إنتاج كل واحد منهم فى التفسير وعن منهجه الذى سلكه فيه، وسيقف القارئ - إن شاء الله تعالى - على ما قلته عن هذه المدرسة، وما ذكرته لها من أثر محمود فى التفسير، وما ذكرته عنها من أثر يؤخذ عليها ولا يحمد لها.

* * *

١- الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

التعريف بالمؤلف[(١)]:

ولد الإمام محمد عـبده ـ رحمه الله ـ بقرية شنرا، من قرى مصر، ونـشأ بضاحية نصـر (بحـيرة) سنة ١٨٤٩م، حـفظ القـرآن الكريم وجـوَّده، ثم التـحق بالأزهر سنة ١٨٦٦م، ونال درجة العالمية سنة ١٨٧٧م، تتلمذ على كبار العلماء المشهود لهم بسعة العلم والمعرفة مثل: الشيخ «درويش خضر»، والشيخ «حسن الطويل»، والشيخ «جمال الدين الأفغـانى» الذى رافقـه فى رحلاته وشاركـه فى جهاده وتأثـر به، ونشر آراءه من بعده.

عمل بالأزهر، ومدرسة دار العلوم، ومدرسة الألسن، ورأس تحرير جريدة الوقائع المـصرية، ورحل إلى سـوريا سنة ١٨٨٣م، ثم لحق بـ «جـمـال الدين الأفغـانى» فى باريس سنة ١٨٨٤م، وأصدرا مـعًا جـريدة العروة الوثقى، ثم غادر بـاريس إلى بيروت سنة ١٨٨٥م، وألَّف هناك رسـالته المـشهـورة فى التوحـيد، ثم غـادر إلى مصـر سنة ١٨٨٨م فعُين قـاضيًا بالمحاكم الشـرعية، ثم مستـشارًا لمحكمة الاستـئناف، ثم عضواً بمجـلس إدارة الأزهر، ثم تقلد منصب الإفتـاء سنة ١٨٩٩م، وإليه يرجع الفـضل فى إنشاء مدرسة القضاء الشرعى.

ويرجع الفضل إليه فى إصلاح الأزهر، وتجديد مناهج دراسته وطرق التدريس فيه وأساليب الامـتحـان وغيـرها، وكذلك إصلاح المـحاكم الشـرعيـة والقضـاء الشرعى والأوقاف، وإنهاض الجمعيات الخيرية ومـدارسها، فضلاً عن الجهاد السياسى والدينى والأخلاقى وتربية الأمة لتنهض من كبوتها.

من مؤلفاته:

١- رسالة التوحيد.
٢- شرح نهج البلاغة.
٣- الإسلام والنصرانية.
٤- شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى.
٥- الرد على هانوتو.

---

(١) تم وضع هذه الترجمة لبعد العهد وإتمامًا للفائدة (د. مصطفى الذهبى).

إنتاجه فى التفسير:

إذا نحن ذهبنا نستقصى ما أنتجه لنا الأستاذ الإمام من عمل فى التفسير، فإنا نجد له تفسيره المشهور لجزء (عم) ذلك التفسير الذى ألفه بمشورة من بعض أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية، ليكون مرجعًا لأساتذة مدارس الجمعية فى تفهيم التلاميذ معانى ما يحفظون من سور هذا الجزء، وعاملاً للإصلاح فى أعمالهم وأخلاقهم، ولقد أتم الأستاذ الإمام تفسير هذا الجزء فى سنة ١٣٢١هـ إحدى وعشرين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة، ببلاد المغرب، وبذل جهده كما يقول: (فى أن تكون العبارة سهلة التناول، خالية من الخلاف وكثرة الوجوه فى الإعراب، بحيث لا يحتاج فى فهمها إلى أن يعرف القارئ كيف يقرأ، أو السامع كيف يسمع، مع حسن النية وسلامة الوجدان)(١).

كذلك نجد له تفسيراً مطولاً لسورة (العصر) كان قد ألقاه على هيئة محاضرات، أو دروس على علماء مدينة الجزائر ووجهائها فى سنة ١٣٢١هـ سنة (١٩٠٢م)(٢) ويقول الأستاذ الإمام: إنه قرأ تفسير هذه السورة فى سبعة أيام، وكل درس لا يقل عن ساعتين، أو ساعة ونصف(٣).

كذلك نجد له بعض بحوث تفسيرية، عالج فيها بعض مشكلات القرآن، ودفع بها بعض ما أثير حول القرآن من شكوك وإشكالات، كشرحه لقوله تعالى فى الآية (٧٨) من سورة النساء ﴿**وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا**﴾ وقوله فى الآية (٧٩) من السورة نفسها: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾ وجمعه بينهما، وتوفيقه بين ما يظن فيهما من تناف وتضاد، وهو نسبة أفعال العباد تارة إلى الله تعالى، وتارة إلى العبد.

وكشرحه لقوله تعالى فى الآيات (٥٢ - ٥٥) من سورة الحج ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ**

---

(١) مقدمة تفسير جزء (عم) ص ٢.

(٢) تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن، الشيخ رشيد.

(٣) تفسير المنار (١/ ١٣).

من رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ...﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ وإبطاله لقصة الغرانيق، وتفنيده لما بنى عليها من تفسير يذهب بعصمة النبى ﷺ، ويرفع الأمان عن الوحى الذى تكفل الله بحفظه.

وكتفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٧) من سورة (الأحزاب): ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ ورده لما ألصق بها من أحاديث باطلة، تصور النبى ﷺ بصورة الرجل الشهوانى، وإبطاله لكل ما أثير حول هذه القصة ـ قصة زيد وزينب ـ من مطاعن رمى بها رسول الله ﷺ زورًا وبهتانًا.

وكذلك نجد من آثار الأستاذ الإمام فى التفسير، تلك الدروس التى ألقاها فى الأزهر الشريف على تلاميذه ومريديه، وكان ذلك بمشورة تلميذه السيد محمد رشيد رضا، وإقناعه به، كما يقول هو فى مقدمة تفسيره(١).

وقد ابتدأ الأستاذ الإمام بأول القرآن فى غرة المحرم سنة ١٣١٧هـ، وانتهى عند تفسير قوله تعالى فى الآية (١٢٦) من سورة النساء ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ وذلك فى منتصف المحرم سنة ١٣٢٣هـ، إذ توفى ـ رحمه الله ـ لثمان خلون من جمادى الأولى من السنة نفسها(٢).

وإذا كان الأستاذ الإمام قد ألقى هذه الدروس فى التفسير على طلابه ولم يدون شيئًا منها، فإنا لا نرى حرجًا من جعلها أثرًا من آثاره فى التفسير، وذلك:

لأن تلميذه السيد محمد رشيد رضا كان يكتب فى أثناء إلقاء هذه الدروس مذكرات يودعها ما يراه أهم أقوال الأستاذ الإمام، ثم يحفظ ما كتب ليمده بما يذكره من أقواله وقت الفراغ، ثم قام بعد ذلك بنشر ما كتب فى مجلته (المنار) وكان ـ كما يقول هو فى مقدمة تفسيره ـ يطلع الأستاذ الإمام على ما أعده للطبع، كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه فى المطبعة وقبل طبعه، فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة، أو حذف كلمة أو كلمات، قال: (ولا أذكر أنه انتقد شيئًا مما لم يره قبل الطبع، بل كان راضيًا بالمكتوب؛ بل معجبًا به)(٣).

(١) جـ١ ص ٤ من تفسير المنار. (٢) المرجع نفسه. (٣) تفسير المنار (١/ ١٥).

هذا هو كل ما وصلت إليه من إنتاج الأستاذ الإمام فى التفسير، وهو وإن كان إنتاجًا بعد قليلاً بالنسبة لهذه الشخصية البارزة، إلا أنه ـ والحق يقال ـ كان له أثر بالغ فى تطور التفسير واتجاهاته، كما سيظهر لك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

منهجه فى التفسير:

كان الأستاذ الإمام هو الذى قام وحده من بين رجال الأزهر بالدعوة إلى التجديد، والتحرر من قيود التقليد، فاستعمل عقله الحر فى كتاباته وبحوثه، ولم يجر على ما جمد عليه غيره من أفكار المتقدمين، وأقوال السابقين، فكان له من وراء ذلك آراء وأفكار خالف بها من سبقه، فأغضبت عليه الكثير من أهل العلم، وجمعت حوله قلوب مريديه والمعجبين به.

هذه الحرية العقلية، وهذه الثورة على القديم، كان لهما أثر بالغ فى المنهج الذى نهجه الشيخ لنفسه، وسار عليه فى تفسيره.

وذلك: أن الأستاذ الإمام اتخذ لنفسه مبدأ يسير عليه فى تفسير القرآن الكريم، ويخالف به جماعة المفسرين المتقدمين، وهو فهم كتاب الله من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة: وذلك لأنه كان يرى أن هذا هو المقصد الأعلى للقرآن، وما وراء ذلك من المباحث فهو تابع له، أو وسيلة لتحصيله(١).

يقرر الأستاذ الإمام هذ المبدأ فى التفسير، ثم يتوجه باللوم إلى المفسرين الذين غفلوا عن الغرض الأول للقرآن، وهو ما فيه من هداية وإرشاد، وراحوا يتوسعون فى نواح أخرى من ضروب المعانى، ووجوه النحو، وخلافات الفقه، وغير ذلك من المقاصد التى يرى الأستاذ الإمام أن الإكثار فى مقصد منها (يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهى، ويذهب بهم فى مذاهب تنسيهم معناه الحقيقى)(٢).

لهذا نرى الأستاذ الإمام يقسم التفسير إلى قسمين:

أحدهما: جاف مبعد عن الله وكتابه، وهو ما يقصد به حل الألفاظ، وإعراب الجمل، وبيان ما ترمى إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية، قال: وهذا لا

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ١٧.

(٢) تفسير المنار جـ١ ص ١٨.

ينبغى أن يسمى تفسيرًا، وإنما هو ضرب من التمرين فى الفنون، كالنحو، والمعانى، وغيرهما.

وثانيهما: ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع فى العقائد والأحكام، على الوجه الذى يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة فى الكلام؛ ليتحقق فيه معنى قوله تعالى ﴿**هُدًى وَرَحْمَةً**﴾ **(لقمان: ٣)** ونحوهما من الأوصاف قال الأستاذ الإمام: (وهذا هو الغرض الأول الذى أرمى إليه فى قراءة التفسير)(١).

هذا... وإن الأستاذ الإمام لا يريد من كلامه السابق أن يهمل الناحية البلاغية أو النحوية مثلاً فى تفسير القرآن، ولكنه يريد أن يأخذ المفسر من ذلك بمقدار الضرورة، فيبين المفسر ـ مثلاً ـ من وجوه البلاغة، وضروب الإعراب بقدر ما يحتمله المعنى، وعلى الوجه الذى يليق بفصاحة القرآن وبلاغته، وذلك بدون أن يتجاوز مقدار الحاجة.

ثم إنا نجد الأستاذ الإمام ـ وقد وضع لنفسه هذه الخطة فى التفسير ـ يشترط شروطًا لا بد من توفرها عند من يريد أن يفسر القرآن تفسيرًا يحقق الغرض منه، وقد ذكرناها بجملتها عند كلامنا عن العلوم التى يحتاج إليها المفسر.

القرآن لا يتبع العقيدة وإنما تؤخذ العقيدة من القرآن:

ويرى الأستاذ الإمام: أن القرآن الكريم هو الميزان الذى توزن به العقائد لتعرف قيمتها، ويقرر أنه يجب على من ينظر فى القرآن أن ينظر إليه كأصل تؤخذ منه العقيدة، ويستنبط منه الرأى، وينعى على ما كان من أكثر المفسرين، من تسلط العقيدة عليهم، ونظرتهم للقرآن من خلالها، حتى تأولوا القرآن بما يشهد لعقائدهم، ويتمشى معها، وفى هذا يقول: «إذا وزنا ما فى أدمغتنا من الاعتقاد بكتاب الله تعالى، من غير أن ندخلها أولاً فيه، يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين، وأما إذا أدخلنا ما فى أدمغتنا فى القرآن، وحشرناها فيه أولاً، فلا يمكننا أن نعرض الهداية من الضلال؛ لاختلاط الموزون بالميزان فلا يدرى ما هو الموزون به».

«أريد أن يكون القرآن أصلاً تحمل عليه المذاهب والآراء فى الدين، لا أن تكون

(١) تفسير المنار (١/ ٣٥).

المذاهب أصلاً والقرآن هو الذى يحمل عليها، ويرجع بالتأويل أو التحريف إليها، كما جرى عليه المخذولون، وتاه فيه الضالون» (١).

كيف كان يقرأ الأستاذ الإمام التفسير ويكتبه:

تناول الأستاذ الإمام تفسير القرآن الكريم بالتأليف والتدريس، أما ناحية التأليف، فمحدودة ضيقة، كما ظهر لك فيما سبق، وأما ناحية التدريس فكانت أوسع إلى حد ما من ناحية التأليف؛ فقد ألقى ـ رحمه الله ـ دروسًا فى التفسير بالجامع الأزهر الشريف، مدة ست سنوات، قرأ فيها ما يقرب من خمسة أجزاء من أجزاء القرآن، كما ألمعنا إليه فيما تقدم.

كذلك ألقى دروسًا فى التفسير بمدينة الجزائر من بلاد المغرب، كما ألقى دروسًا فى التفسير أيضًا فى مساجد بيروت.. فى المسجد الكبير، وفى مسجد (الباشورة) (٢).

وكان من عادة الأستاذ الإمام فى دروسه: أنه يراعى حال من يستمعون إليه، فإذا حضره جماعة من البلداء الخاملى الفكر شرح لهم المعنى بكلمات قليلة وإذا كان هناك من يتنبه لما يقول ويلقى له بالاً، يفتح الله عليه بكلام كثير، بهذا يحدث الأستاذ الإمام عن نفسه (٣).

ويحدثنا تلميذه السيد محمد رشيد رضا عن طريقة الأستاذ الإمام فى دروس التفسير فيقول: «كانت طريقته فى قراءة الدرس على مقربة مما ارتآه فى كتابة التفسير، وهو أن يتوسع فيه فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الألفاظ، والإعراب، ونكت البلاغة، وفى الروايات التى تدل عليها، ولا تتوقف على فهمها الآيات» (٤).

وكان الأستاذ الإمام يعتمد فى دروسه وكتابته فى التفسير على عقله الحر وكان ـ كما يقول عنه بعض الكاتبين ـ «لا يلتزم فى التفسير كتابًا، وإنما يقرأ فى المصحف، ويلقى ما يفيض الله على قلبه» (٥).

(١) تفسير سورة الفاتحة ص ٥٤.
(٢) محمد عبده لعثمان أمين ١٠١.
(٣) تفسير المنار (١/ ١٤).
(٤) المرجع نفسه ص ١٥.
(٥) محمد عبده لعثمان أمين ص ١١.

وكان من دأبه أنه لا يرجع إلى كـتاب من كتب التفـسير قبل إلقـاء دروسه حتى لا يتأثر بفهم غيره، وكل ما كان منه أنه إذا ما عرض له وجه غريب من الإعراب، أو كلمة غريبة فى اللغة رجع إلى بعض كتب التفسـير، ليرى ما كتب فى ذلك، وقد حدث عن نفسه بذلك فـقال: «إننى لا أطالع عندما أقرأ لكننى ربمـا أتصفح كتاب تفسـير إذا كان هناك وجه غريب فى الإعراب، أو كلمة غريبة فى اللغة»(١).

غير أننا نجد تلميذه السيد محمد رشيد رضا يذكر أن الأستاذ الإمام كان «يتوكأ فى ذلك ـ يعنى فى دروسـه فى التفـسيـر ـ على عـبارة تفـسيـر الجلالين الذى هو أوجـز التفاسير، فكان يقـرأ عبارته فيقرها، أو ينتقد منهـا ما يراه منتقداً ثم يتكلم فى الآية أو الآيات المنزلة فى معنى واحد بما فتح الله عليه، مما فيه هداية وعبرة»(٢).

وسواء أقلنا إن الأستاذ الإمـام كان يرجع إلى كتب التفسيـر أم لا يرجع إليها، فإنه كان يحكم عـقله فيمـا يلقى وفيمـا يكتب، غير مـلتفت إلى ما سـبق به من أقوال فى التفسـير، ولا بواقف عند اعتبارات المـؤلفين وأفهامهم وقـوف من يخضع لها، ويسلم بها، على ما فيها من غث وسمين.

نعم لم يجمد الأستاذ الإمام على ما فى كتب قدماء المفسرين، ولم يلغ عقله أمام عقولهم، بل على العكس من ذلك وجدناه يندد بمن يكتفى فى التفسير بالنظر فى أقوال المتـقدمين فـيقول: «التـفسير عـند قومنا اليوم ومن قـبل اليوم بقرون، هو عـبارة عن الاطلاع على ما قاله بعض العلمـاء فى كتب التفسير، على ما فى كـلامهم من اختلاف يتنزه عنه القرآن ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ **(النساء: ٨٢)** وليت أهل العناية باطلاع على كتب التـفسير يطلبون لأنفسـهم معنى تستقر عليه أفـهامهم فى العلم بمعانى الكتاب، ثم يبثـونه فى الناس ويحملونهم عليه، ولكنهم لم يطلبوا ذلك، وإنما طلبـوا صناعة يفاخرون بالتـفنن فيها، ويمارون فـيها من يباريهم فـى طلبها، ولا يخرجون لإظهار البـراعة فى تحصيلها عن حد الإكثار من القـول، واختراع الوجوه من التأويل والإغراب فى الإبعاد عن مقاصد التنزيل».

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٤) ويظهر من سياق الكلام أن صحـة العبارة (قبل أن أقرأ كما نبه على ذلك فى حاشية الكتاب).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٥).

«إن الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه، وإنما يسألنا عن كتابه الذى أنزله لإرشادنا وهدايتنا، وعن سنة نبينا الذى بين لنا ما نزل إلينا ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤)».

«يسألنا هل بلغتكم الرسالة؟ هل تدبرتم ما بلغتم؟ هل عقلتم ما عنه نهيتم وما به أمرتم؟ وهل عملتم بإرشاد القرآن، واهتديتم بهدى النبى، واتبعتم سنته؟ عجبًا لنا ننتظر هذا السؤال ونحن فى هذا الإعراض عن القرآن وهديه، فيا للغفلة والغرور»(١).

كما وجدناه يعرف لنا الفهم الصحيح للقرآن فيقول: «... وأعنى بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصيبه أساليب القرآن بعجائبها، وتملكه مواعظه فتشغله عما بين يديه مما سواه، لا أريد الفهم المأخوذ بالتسليم الأعمى من الكتب أخذًا جافًا، لم يصحبه ذلك الذوق وما يتبعه من رقة الشعور ولطف الوجدان، للذين هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدبر»(٢).

ومما يذكر فى هذا المقام أنه (لما أبدى الأستاذ الإمام رأيًا طريفًا فى تفسير بعض الآيات، قال له أحد المجاورين: إن ما قلته لا يوافق عليه الجمل ـ يعنى بالجمل أحد المؤلفين ممن كتبوا الحواشى على تفسير الجلالين ـ فقال الأستاذ على الفور: إننى أقرر ما يدل عليه المعنى الجليل، والكلام البليغ، ولا يعنينى أوافق عليه الجمل أو الحمار)(٣).

كل هذا يدلنا على أن الأستاذ الإمام كان حرًا فى تفكيره وفهمه للقرآن، صريحًا فى نقده ونصحه للتفسير والمفسرين، جريئًا فى ثورته على القديم، ودعوته إلى التحرر مما أحاط بالعقول من القيود، وما أوغلت فيه من الركود والجمود.

هذا... وإن الأستاذ الإمام لم يكن كغيره من المفسرين الذين كلفوا بالإسرائيليات فجعلوا منها شروحًا لمبهمات القرآن، بل وجدناه على العكس من ذلك نفورًا منها، وشرودًا من الخوض فيها، لاعتقاده أن الله تعالى لم يكلفنا بالبحث عن الجزئيات والتفصيلات لما جاء به مبهمًا فى كتابه، ولو أراد منا ذلك لدلنا عليه فى كتابه أو على

(١) تفسير المنار (١/ ٢٧). (٢) تفسير المنار (١/ ٢٧).
(٣) محمد عبده لعثمان أمين ص ١٢٥.

لسان نبيه، وهو يصرح بأن هذا هو «مذهبه فى جميع مبهمات القرآن يقف عند النص القطعى لا يتعداه، ويثبت أن الفائدة لا تتوقف على سواه»(١).

وإذا نحن تتبعنا أقواله فى مبهمات القرآن وجدناه محافظًا على هذا المبدأ، لا يعدل عنه ولا يحيد، إلا فى مواضع قليلة نادرة.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآيتين (١٠، ١١) من سورة الانفطار ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ**﴾ نجده يقول: «ومن الغيب الذى يجب علينا الإيمان به ما أنبأنا به فى كتابه: أن علينا حفظة يكتبون أعمالنا حسنات وسيئات، ولكن ليس علينا أن نبحث عن حقيقة هؤلاء، ومن أى شىء خلقوا، وما هو عملهم فى حفظهم وكتابتهم، هل عندهم أوراق وأقلام ومداد كالمعهود عندنا... وهو يبعد فهمه؟ أو هناك ألواح ترسم فيها الأعمال؟ وهل الحروف والصور التى ترسم هى على نحو ما نعهد؟ أو إنما هى أرواح تتجلى لها الأعمال فتبقى فيها بقاء المداد فى القرطاس إلى أن يبعث الله الناس؟ كل ذلك لا نكلف العلم به، وإنما نكلف الإيمان بصدق الخبر وتفويض الأمر فى معناه إلى الله، والذى يجب علينا اعتقاده من جهة ما يدخل فى علمنا، هو: أن أعمالنا تحفظ وتحصى، لا يضيع منها نقير ولا قطمير»(٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤) وما بعدها من سورة البروج ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ...**﴾ إلى آخر القصة، يقول: «أما تعيين أصحاب الأخدود، وأنى كانوا؟ ومن هم أولئك المؤمنون؟ وأين كان منزلهم من الأرض؟ فقد كثرت فيه الروايات، والأشهر أن المؤمنين كانوا نصارى نجران، عندما كان دينهم دين التوحيد، ليس فيه حدث ولا بدعة، وأن الكافرين كانوا أمراء اليمن، أو اليهود الذين لا يبعدون عن هؤلاء فى حقيقة الوثنية، غير أن المؤمن لا يحتاج فى الاعتبار وإشعار الموعظة قلبه إلى أن يعرف القوم، والجهة، وخاصة الدين الذى كان عليه أولئك أو هؤلاء، حتى يطير وراء القصص المشحونة بالمبالغات، والأساطير المحشوة بالخرافات، وإنما الذى عليه: هو أن يعرف من القصة ما ذكرناه أولا، ولو علم الله خيرًا فى أكثر من ذلك لتفضل علينا به»(٣).

---

(١) تفسير المنار (١/ ٣٢٠).

(٢) تفسير جزء (عم) ص ٢٦.

(٣) تفسير جزء (عم) ص ٥٩.

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآيتين (٦، ٧) من سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ نجده يقول: «وقد يروى المفسرون هنا حكايات فى تصوير إرم ذات العماد، كان يجب أن ينزه عنها كتاب الله، فإذا وقع إليك شيء من كتبهم، ونظرت فى هذا الموضع منها، فتخط ببصرك ما تجده فى وصف إرم، وإياك أن تنظر فيه»(١).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآيات (٦ - ٩) من سورة القارعة ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ نجده يقول: «وتقدير الله الأعمال وما تستحقه من الجزاء فى ذلك اليوم، إنما يكون على حسب ما يعلم، لا طريقة ما نعلم، فعلينا أن نفوض الأمر فيه إليه سبحانه على الإيمان به، ومن عجيب ما قال بعض المفسرين «إنه ميزان بلسان وكفتين كأطباق السموات والأرض، ولا يعلم ماهيته إلا الله» فماذا بقى من ماهيته بعد لسانه وكفتيه حتى يفوض العلم فيه إلى الله؟ والكلام فيه جرأة على غيب الله بغير نص صريح متواتر عن المعصوم، ولم يرد فى الكتاب إلا كلمة ميزان، وقد عرفت ما يمكننا أن نفهم منها لننتفع بما نعتقد، وما عدا ذلك فعلمه إلى الله سبحانه، وقد قالوا: إن منكر الميزان بالمعنى المعروف لا يكفر، إذا كان القائل به يحدد له لسانًا وكفتين، مع أن البشر اخترعوا من الموازين ما هو أتقن من ذلك وأضبط وأوفى ببيان الموزون، أفيأبى الحكيم الخبير إلا استعمال ذلك الميزان الخشن الناقص الذى هدى العلم عقول البشر إلى ما هو أدق منه؟ أيأبى عالم الغيب والشهادة أن يستعمل فى وزن المعانى والمعقولات إلا ذلك الميزان الذى اخترعه بعض البشر قبل أن يبلغ بهم العلم ما بلغ بأهل العصر الحاضر وما سيبلغ بأهل العصور المقبلة؟ على أن جميع ما اخترع البشر وما يخترعون مهما دق ولطف، إنما هو معيار الأثقال الجسمانية والأوزان المحسوسة، وهلا يكون الأليق بالمقام الإلهى أن يكون ميزان المعانى المعقولة لديه أسمى وأعلى من أن يكون على نمط ما يستعمله البشر، مهما ارتقت المعارف وسمت بهم العلوم؟ وهل يليق بمن يخاف مقام ربه أن يجرؤ على القول بوجوب الاعتقاد بأن الميزان الذى يزن الله به الأعمال يوم القيامة هو الميزان الذى تستعمله القبائل، التى لم تزل فى مهد

---

(١) تفسير جزء (عم) ص ٧٩.

الإنسانية الأولى؟ ميزان ضعفاء العقول قصار الأنظار، الذين لا يعرفون قيمة للإيمان بالغيب، ولا لحياء العقل من الله، وإطراقه عن أن ينظر إلى ما تشامخ من غيوب الله تعالى علمه، وتعاظمت قدرته».

«عليك أيها المؤمن المطمئن إلى ما يخبر الله به أن توقن أن الله يزن الأعمال، ويميز لكل عمل مقداره، ولا تسل كيف يزن، ولا كيف يقدر، فهو أعلم بغيبه، والله يعلم وأنتم لا تعلمون»(١).

معالجته للمسائل الاجتماعية:

ثم إنا نجد الأستاذ الإمام لا يكاد يمر بآية من القرآن، يمكنه أن يأخذ منها علاجًا للأمراض الاجتماعية، إلا أفاض فى ذلك بما يصور للقارئ خطر العلة الاجتماعية التى يتكلم عنها، ويرشده إلى وسيلة علاجها والتخلص منها، كل هذا يأخذه الأستاذ الإمام من القرآن الكريم، ثم يلقى به على أسماع المسلمين وغير المسلمين؛ رجاء أن يعودوا إلى الصواب، ويثوبوا إلى الرشاد.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة العصر من التفسير المطول لها ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ نجده يقول: «. . . والصبر ملكة فى النفس يتيسر معها احتمال ما يشق احتماله، والرضى بما يكره فى سبيل الحق، وهو خلق يتعلق به بل يتوقف عليه كمال كل خلق، وما أُتِىَ الناس من شىء مثل ما أتوا من فقد البصر أو ضعفه، كل أمة ضعف الصبر فى نفوس أفرادها، ضعف فيها كل شىء، وذهبت منها كل قوة، ولنضرب لذلك مثلاً: نقص العلم عند أمة من الأمم كالمسلمين اليوم، إذا دققت النظر وجدت السبب فيه ضعف الصبر؛ فإن من عرف بابًا من أبواب العلم، لا يجد فى نفسه صبرًا على التوسع فيه، والتعب فى تحقيق مسائله، وينام على فراش من التقليد هين لين، لا يكلفه مشقة، ولا يجشمه تعبا، ويسلى نفسه عن كسله بتعظيم من سبقه، ولو كان عنده احترام حقيقى لسلفه، لاتخذهم أسوة له فى عمله، فحذا حذوهم، وسلك مسلكهم، وكلف نفسه بعض ما حملوا أنفسهم عليه، واعتقد كما كانوا يعتقدون أنهم ليسوا بمعصومين».

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٤٧.

«ثم هو إذا تعلم لا يجد صبرًا على مشقة دعوة الناس إلى علم ما يعلم، وحملهم على عرفان ما يعرف، ولا جلدًا على تحصيل الوسائل لنشر ما عنده، بل متى لاقى أول معارضة قبع فى بيته وترك الخلق للخالق كما يقولون».

«يجلس الطالب لدرسه سنة أو سنتين، ثم تعرضه مشقة التحصيل، فيترك الدرس أو يتساهل فى فهمه إلى حرفة أخرى يظنها أربح له، فينقطع عن الطلب، ويذهب فى الجهل كل مذهب، وكل هذا من ضعف الصبر».

«يبخل البخيل بماله، ويجهد نفسه فى جمعه وكنزه، وتعرض له وجوه البر فيعرض عنها، ولا ينفق درهمًا فى شىء منها، فيؤذى بذلك وطنه وملته، ويترك الشر والفقر يأكل قومه وأمته، ولو نظرنا إلى ما قبض يده لوجدناه ضعف الصبر، ولو صبر على محاربة خيال الفقر اللائح فى ذهنه يهدده بالنزول به، لما أصيب بذلك المرض القاتل له ولأهله».

«يسرف المسرف فى الشهوات، ويتهتك المتهتك فى المنكرات، حتى ينفد المال، وتسوء الحال، ويستبدل الذل بالعز، والفقر بالغنى، ولا سبب لذلك إلا ضياع صبره فى مقاومة الهوى، وضبط نفسه عن مواقع الردى، ولو صبر فى مجاهدة تلك النزعات لما كان قد خسر ماله، وأفسد حاله... وهكذا لو أردت أن أعد جميع الرذائل، وأبحث عن عللها الأولى لوجدتموها تنتهى إلى ضعف الصبر أو فقده، ولو سردت جميع الفضائل وطلبت ينبوعها الذى تستمد منه حياتها لما وجدت لها ينبوعًا سوى الصبر، أفلا يكون جديرًا بعد هذا بأن يخص بالذكر؟»(١).

ثم يبين بعد ذلك وسائل الدعوة إلى الخير فيقول: «... يجب على العلماء ومن يتشبه بهم، أن يتعلموا من وسائل القيام بالواجب ما تدعو إليه الحال، على حسب الأزمان واختلاف أحوال الأمم، وأول ما يجب عليهم فى ذلك أن يتعلموا التاريخ الصحيح، وعلم تكوين الأمم، وارتفاعها وانحطاطها، وعلم الأخلاق وأحوال النفس، وعلم الحس والوجدان، ونحو ذلك مما لا بد منه فى معرفة مداخل الباطل إلى القلوب، ومعرفة طرق التوفيق بين العقل والحق، وسبل التقريب بين اللذة والمنفعة

---

(١) مجموعة تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ٨٧ - ٨٩.

الدنيوية والأخروية، ووسائل استمالة النفوس عن جانب الشر إلى جانب الخير، فإن لم يحصلوا على ذلك كله فوزر العامة عليهم، ولا تنفعهم دعوى العجز؛ فإنهم ينفقون من أزمانهم فى القيل والقال، والبحث فى الألفاظ والأقوال، ما كان يكفيهم أن يكونوا بحار علم، وأعلام هدى ورشد، فليطلبوا العلم من سبله التى قام عليها السلف الصالح، والله كفيل أن يمدهم بمعونته، أما وقد انقطعوا إلى ما يعجزهم عن القيام بأمره، فلن يقبل الله لهم عذرًا، بل فليتربصوا حى يأتى أمر الله".

«لو قضى الزمان بأن يكون من وسائل التمكن من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واشتغال الناس بالحق عن الباطل، وبالطيب عن الخبيث أن يضرب الإنسان فى الأرض ويمسحها بالطول والعرض، وأن يتعلم اللغات الأجنبية، ليقف على ما فيها مما ينفعه فيستعمله، وما يخشى ضرره على قومه فيدفعه، لوجب على أهل العلم أن يأخذوا من ذلك بما يستطيعون، ولهم فى سلف الأمة من القرون الأولى إلى نهاية القرن الرابع من الهجرة أحسن أسوة، وأفضل قدوة، وكل ما يهونون به على أنفسهم مما يخالف ذلك فإنما هى وساس شيطان، يشغلهم بها عن النظر فى معانى القرآن، ويحرمهم من التعرض لرحمة الرحمن»(١).

ومثلاً عند قوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة الانفطار ﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ**﴾ نراه يوضح معنى البر وما يكون به الإنسان من الأبرار، ثم يقول: «فلا يعد الشخص برًّا ولا بارًّا حتى يكون للناس من كسبة ومن نفسه نصيب فلا يغترن أولئك الكسالى الخاملون، الذين يظنون أنهم يدركون مقام الأبرار بركعات من الخشية خاليات، وبتسبيحات وتكبيرات وتحميدات ملفوظات غير معقولات، وصيحات غير لائقات بأهل المروءة من المؤمنين والمؤمنات، ثم بصوم أيام معدودات، لا يجتنب فيها إيذاء كثير من المخلوقات، مع عدم مبالاة الواحد منهم بشأن الدين قام أم سقط، ارتفع أو انحط؛ ومع حرصه وطمعه وتطلعه لما فى أيدى الناس، واعتقاده الاستحقاق لما عندهم؛ لا لشىء شوى أنهم عاملون فى كسب المال وهو غير عامل؛ وهم يجرون على سنة الحق وهو مستمسك بسنة الباطل، وهم يتجملون بحلية العمل وهو منها عاطل، فهؤلاء ليسوا من الأبرار، بل يجدر بهم أن يكونوا من الفجار»(٢).

---

(١) مجموعة تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ٩٩، ١٠٠.

(١) تفسير جزء عم ص ٣٧.

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى أول فى سورة العاديات ﴿ **وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا** ﴾ نجده يقول: «. . . وكان فى هذه الآيات القارعات، وفى تخصيص الخيل بالذكر فى قوله: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ (**الأنفال**: ٦٠) وفيما ورد فى الأحاديث التى لا تكاد تحصر ما يحمل كل فرد من رجال المسلمين على أن يكون فى مقدمة فرسان الأرض مهارة فى ركوب الخيل، ويبعث القادرين منهم على قنية الخيل على التنافس فى عقائلها، وأن يكون فن السباق عندهم يسبق بقية الفنون إتقانًا، أفليس من أعجب العجب عندهم أن ترى أممًا هذا كتابها قد أهملت شأن الخيل والفروسية، إلى أن صار يشار إلى راكبيها بينهم بالهزء، والسخرية، وأخذت كرام الخيل تهجر بلادهم إلى بلاد أخرى؟ أليس أغرب ما يستغرب أن أناسًا يزعمون أن هذا الكتاب كتابهم، يكون طلاب العلوم الدينية منهم أشد الناس رهبة من ركوب الخيل، وأبعدهم عن صفات الرجولية، حتى وقع من أحد أساتذتهم المشار إليهم بالبنان عندما كنت أكلمه فى منافع بعض العلوم، وفوائدها فى علم الدين أن قال: «إذا كان كل ما يفيد فى الدين نعلمه لطلبة العلم، كان علينا إذًا أن نعلمهم ركوب الخيل) يقول ذلك ليفحمنى وتقوم له الحجة على، كأن تعليم ركوب الخيل مما لا يليق ولا ينبغى لطلبة العلم، وهم يقولون: إن العلماء ورثة الأنبياء، فهل هذه الأعمال وهذه العقائد تتفق مع الإيمان بهذا الكتاب؟ أنصف ثم احكم»(١).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة الماعون ﴿ . . . **وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ** ﴾ نجده يقرر: «أن قوله ولا يحض على طعام المسكين، كناية عن الذى لا يجود بشىء من ماله على الفقير المحتاج إلى القوت الذى لا يستطيع له كسبًا. . .» ثم يقول: «وإنما جاء بالكناية ليفيدك أنه إذا عرضت حاجة المسكين؛ ولم تجد ما تعطيه، فعليك أن تطلب من الناس أن يعطوه، وفيه حث للمصدقين بالدين على إغاثة الفقراء ولو بجمع المال من غيرهم وهى طريقة الجمعيات الخيرية، فأصلها ثابت فى الكتاب بهذه الآية، وبنحو قوله تعالى فى الآيتين (١٧ ، ١٨) من سورة الفجر

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٤٢.

﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ ونعمت الطريقة هى لإغاثة الفقراء، وسد شىء من حاجات المساكين. . .»(١).

ومن أجل هذه الروح التى تسيطر على الأستاذ الإمام فى تفسيره، نجد الشيخ المراغى - رحمه الله - يقول: «وكانت دروسه يجد علماء الاجتماع فيما تطبيق القرآن على معارفهم»(٢).

تفسيره للقرآن على ضوء العلم الحديث:

كذلك نجد الأستاذ الإمام - رحمه الله - يتناول بعض آيات القرآن فيشرحها شرحًا يقوم على أساس من نظريات العلم الحديث، وغرضه بذلك: أن يوفق بين معانى القرآن التى قد تبدو مستبعدة فى نظر بعض الناس، وبين ما عندهم من معلومات توشك أن تكون مسلمة عندهم، أو هى مسلمة بالفعل، وهو - وإن كان يرمى من وراء ذلك إلى غرض نبيل - يخرج أحيانًا بمثل هذا الشرح والبيان عن مألوف العرب، وما عهد لديهم وقت نزول القرآن.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة الانشقاق ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ نجده يقول: «انشقاق السماء، مثل انفطارها الذى مر تفسيره فى سورة إذا السماء انفطرت، وهو فساد تركيبها، واختلال نظامها، عندما يريد الله خراب هذا العالم الذى نحن فيه، وهو يكون بحادثة من الحوادث التى قد ينجر إليها سير العالم، كأن يمر كوكب فى سيره بالقرب من آخر فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره، ويحدث من ذلك غمام وأى غمام، يظهر فى مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع، فتكون السماء قد تشققت بالغمام، واختل نظامها حال ظهوره»(٣).

هذا التفسير من الأستاذ الإمام عمل جليل يشكر عليه، إذ غرضه من ذلك تقريب معانى القرآن وما يخبر به من عقول الناس، بما هو معهود عندهم ومسلم لديهم، ولكن هل لا بد فى فساد الكون من أن يترتب على مثل هذه الظاهرة الكونية؟ وهل يعجز الله عن إفساده وإخلاله بأمر آخر غير ذلك؟ أليس الأولى بنا أن نؤمن بما جاء به القرآن،

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٦٢.

(٢) محمد عبده لعثمان أمين ص ١٢٢.

(٣) تفسير جزء عم ص ٤٩.

ولا نخوض فيما وراء ذلك من تفصيلات كما هو مذهب الشيخ؟ أحسب أن الشيخ يضرب ذلك مثلاً، ولا يريده على أنه أمر لا بد منه.

ومثلاً عندما يعرض لتفسير سورة الفيل، بعد أن ذكر ما قيل فى إرسال الطير على أبرهة، وما جاءت به بعض الروايات من أن الذى أصابهم هو داء الجدرى والحصبة يقول: «وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة، أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش، بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس، الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فإذا اتصل بجسده دخل فى مسامه، فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وإن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وإن هذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها، وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا بارئها ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى فى قهر الطاغين على أن يكون الطير فى ضخامة رءوس الجبال، ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب، ولا على أن يكون له ألوان خاصة به، ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها فلله جند من كل شىء.

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد»(١)

وهنا أيضا نجد الأستاذ الإمام قد خالف طريقته فى مبهمات القرآن فراح يخوض فى التفصيلات والجزئيات، ثم جوز أن تكون الطير هى ما يسمى اليوم بالميكروبات، كما جوز أن تكون الحجارة هى جراثيم بعض الأمراض، وهذا ما لا نقره عليه، لأن هذه الجراثيم التى اكتشفها الطب الحديث لم يكن للعرب علم بها وقت نزول القرآن، والعربى إذا سمع لفظ الحجارة فى هذه السورة لا ينصرف ذهنه إلى تلك الجراثيم بحال من الأحوال، وقد جاء القرآن بلغة العرب، وخاطبهم بما يعهدون ويألفون.

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٥٨.

وإذا كان الأستاذ الإمام قد أعطى لعقلـه الحرية الكاملة فى تفسيره للقرآن الكريم، فإنا نجده يغرق فى هذه الحرية ويتوسع فيها، إلى درجة وصلت به إلى ما يشبه التطرف فى أفكاره، والغلو فى آرائه.

موقفه من حقيقة الملائكة وإبليس:

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآيات (٣٤) وما بعدها من سورة البقرة ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ**﴾ إلى آخر القصـة، نجده يقول: «وذهب بعض المـفسرين مذهبًا آخـر فى فهم معنى الملائكة، وهـو أن مجموع ما ورد فى المـلائكة من كونهم موكلين بالأعمـال من إنماء نبات وخلقة حيـوان وحفظ إنسان وغير ذلك، فـيه إيماء إلى الخاصة بمـا هو أدق من ظاهر العبارة، وهو أن هذا النمـو فى النبات لم يكن إلا بروح خاص، نفخه الله فى البذرة فكانت به هذه الحياة النبـاتية المخصوصة وكذلك يقال فى الحيـوان والإنسان فكل أمـر كلى قائم بنظام مـخصـوص تمت به الحكمة الإلهـية فى إيجاده، فإنمـا قوامه بروح إلهى سمى فى لسـان الشرع ملكًا ومن لم يبال فى التسـمية بالتوقيف يسم هذه المـعانى القوى الطبيعية، إذا كـان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة، أو قوة يظهر أثرها فى الطبـيعة، والأمر الثابت الذى لا نزاع فيه، هو أن فى باطن الخلقة أمرًا هو مناطها، وبه قوامها ونظامها، لا يمكن العاقل أن ينكره، وإن أنكر غيـر المؤمن بالوحى تسـميتـه ملكًا، وزعم أنه لا دليل على وجود المـلائكة، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحى تسميـته قوة طبيعية أو ناموسًا طبيـعيّا، لأن هذه الأسماء لم ترد فى الشرع، فالحـقيقة واحدة والعاقل من لا تحـجبه الأسماء عن المسـميات، وإن كان المؤمن بالغـيب يرى للأرواح وجودًا لا يدرك كنهه، والذى لا يؤمن بالغـيب يقول: لا أعرف الـروح، ولكن أعرف قـوة لا أفهم حقـيقـتهـا، ولا يعلم إلا الله علام يخـتلف الناس، وكل يقر بوجود شىء غير ما يرى ويحس، ويعـترف بأنه لا يفهمه حق الفهم، ولا يصل بعقله إلى إدراك كنهه؟ ومـاذا على هذا الذى يزعم أنه لا يؤمن بالغيب ـ وقد اعترف بما غيب عنه ـ لو قال: أصدق بغيب أعرف أثره، وإن كنت لا أقدر قدره فيتفق مع المـؤمنين بالغيب، ويفـهم بذلك ما يرد على لسـان صاحب الوحى، ويحظـى بما يحظى به المؤمنون».

«يشعر كل من فكر فى نفسه، ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير، ووجه للباطل أو للشر، بأن فى نفسه تنازعًا كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شورى، فهذا يورد وذلك يدفع، واحد يقول افعل، وآخر يقول لا تفعل، حتى ينتصر أحد الطرفين، ويترجح أحد الخاطرين فهذا الشيء الذى أودع فى أنفسنا ونسميه قوة وفكرًا، وهى فى الحقيقة معنى لا يدرك كنهه، وروح لا تكتنه حقيقتها، لا يبعد أن يسميه الله ملكًا، أو يسمى أسبابه ملائكة، أو ما شاء من الأسماء، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة، والسلطان النافذ والعلم الواسع»(١).

ثم قال الأستاذ الإمام بعد ذلك(٢): «فإذا صح الجرى على هذا التفسير، فلا يستبعد أن تكون الإشارة فى الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض، ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التى بها قوامها ونظامها، وجعل كل صنف من القوى مخصوصًا بنوع من أنواع المخلوقات، لا يتعداه ولا يتعدى ما حدد له من الأثر الذى خص به، خلق بعد ذلك الإنسان، وأعطاه قوة يكون بها مستعدًا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها فى عمارة الأرض، وعبر عن تسخير هذه القوى بالسجود الذى يفيد معنى الخضوع والتسخير، وجعله بهذا الاستعداد الذى لا حد له، والتصرف الذى لم يعط لغيره؛ خليفة الله فى أرضه، لأنه أكمل الموجودات فى الأرض، واستثنى من هذه القوى قوة واحدة، عبر عنها بإبليس، وهى القوة التى لزها الله بهذا العالم لزًا، وهى التى تميل بالمستعد للكمال، أو بالكامل إلى النقص، وتعارض مد الوجود لترده إلى العدم، أو تقطع سبيل البقاء، وتعود بالموجود إلى العناء، أو التى تعارض فى اتباع الحق، وتصد عن عمل الخير، وتنازع الإنسان فى صرف قواه إلى المنافع والمصالح التى تتم بها خلافته، فيصل إلى مراتب الكمال الوجودى التى خلق مستعدًا للوصول إليها... تلك القوة التى ضللت آثارها قومًا فزعموا أن فى العالم إلهًا يسمى إله الشر، وما هى بإله، ولكنها محنة إله لا يعلم أسرار حكمته إلا هو».

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢٦٧، ١٦٨).

(٢) غالب ما ينسب للإمام فى هذا التفسير مروى بالمعنى عنه.

قال: «ولو أن أنفسنا مالت إلى قبول هذا التأويل، لم تجد فى الدين ما يمنعها من ذلك، والعمدة على اطمئنان القلب، وركون النفس إلى ما أبصرت من الحق»(١).

ثم يعود فى موضع آخر إلى تقرير التمثيل فى القصة فيقول: «وتقرير التمثيل فى القصة على هذا المذهب هكذا: أن إخبار الله الملائكة بجعل الإنسان خليفة فى الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه، التى بها قوامه ونظامه، لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها، فيكون به كمال الوجود فى هذه الأرض، وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد فى الأرض لأنه يعمل باختياره، ويعطى استعدادًا فى العلم والعمل لا حد لهما، هو تصوير لما فى استعداد الإنسان لذلك، وتمهيد لبيان أنه لا ينافى خلافته فى الأرض، وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شيء فى هذه الأرض، وانتفاعه به فى استعمارها، وعرض الأسماء على الملائكة، وسؤالهم عنها، وتنصلهم فى الجواب تصوير لكون الشعور الذى يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدودًا لا يتعدى وظيفته، وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له، ينتفع فى ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى فى ذلك، وإباء إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر، وإبطال داعية خواطر السوء، التى هى مثار التنازع والتخاصم والتعدى والإفساد فى الأرض، ولولا ذلك لجاء على الإنسان زمن يكون فيه أفراده كالملائكة بل أعظم، أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشرى»(٢).

والذى ينظر فى هذا التأويل الذى جوزه الشيخ، وفى سياق الآية وألفاظها وما فيها من محاورة ومقاولة، لا يسعه إلا أن يرده، وإن حاول قائله أن يروج له بجعله الأوامر التى وردت فى الآية من قبيل الأمر التكوينى لا الأمر التكليفى.

موقفه من السحر:

ولقد كان من أثر إعطاء الأستاذ لنفسه الحرية الواسعة فى فهم القرآن الكريم، أنا نجده يخالف رأى جمهور أهل السنة، ويذهب إلى ما ذهب إليه المعتزلة، من أن السحر لا حقيقة له، ولذلك عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤) من سورة الفلق

(١) تفسير المنار (١/ ٢٦٩).

(٢) تفسير المنار (١/ ٢٨١، ٢٨٢).

﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ نجده بعد أن يفسر معنى النفث والعقد، يفسر المراد بالنفاثات فى الآية فيقول: «المراد بهم هنا هم النمامون، المقطعون لروابط الألفة، المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرام نمائمهم، وإنما جاءت العبارة كما فى الآية لأن الله جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين، الذين إذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه ـ مثلاً ـ فيما يوهمون به العامة، عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها وحلوها، ليكون ذلك حلا للعقد التى بين الزوجين، والنميمة تشبه أن تكون ضربًا من السحر؛ لأنها تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة، بوسيلة خفية كاذبة، والنميمة تضلل وجدان الصديقين، كما يضلل الليل من يسير فيه بظلمته؛ ولهذا ذكرها عقب ذكر الغاسق. . .»(١).

إنكاره لبعض الأحاديث الصحيحة:

ثم راح الشيخ ـ رحمه الله ـ يرد ما جاء من الروايات فى سحر الرسول ﷺ فقال: «وقد رووا هنا أحاديث فى أن النبى ﷺ سحره لبيد بن الأعصم، وأثر سحره فيه، حتى كان يخيل له أنه يفعل الشىء وهو لا يفعله، أو يأتى شيئًا وهو لا يأتيه، وأن الله أنبأه بذلك، وأخرجت مواد السحر من بئر، وعوفى ﷺ مما كان نزل به من ذلك، ونزلت هذه السورة، ولا يخفى أن تأثير السحر فى نفسه عليه السلام حتى يصل به الأمر إلى أن يظن أنه يفعل شيئًا وهو لا يفعله، ليس من قبيل تأثير الأمراض فى الأبدان، ولا من قبيل عروض السهو والنسيان فى بعض الأمور العادية، بل هو ماس بالعقل، آخذ بالروح، وهو مما يصدق قول المشركين فيه ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ (الفرقان: ٨) وليس المسحور عندهم إلا من خولط فى عقله، وخيل له أن شيئًا يقع وهو لا يقع، فيخيل إليه أنه يوحى إليه، ولا يوحى إليه، وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما هى النبوة ولا ما يجب لها: إن الخبر بتأثير السحر فى النفس الشريفة قد صح فيلزم الاعتقاد به، وعدم التصديق به من بدع المبتدعين، لأنه ضرب من إنكار السحر، وقد جاء القرآن بصحة السحر، فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح، والحق الصريح فى نظر المقلد بدعة، ونعوذ بالله، يحتج بالقرآن على ثبوت

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٨١.

السحـر، ويعرض عن القرآن فى نفيـه السحر عنه ﷺ، وعـده من افتراء المشـركين عليه، ويؤول فى هذه ولا يؤول فى تلك، مع أن الذى قصـده المشركون ظاهر، لأنهم كانوا يقـولون: إن الشيطان يلابسه ﷺ، وملابسـة الشيطان تعرف بالسـحر عندهم، وضرب من ضروبه، وهو بعـينه أثر السحر الذى نسب إلى لبيد، فـإنه خولط فى عقله وإدراكه فى زعمهم».

والذى يجب اعتـقاده أن القرآن مقطوع به، وأنه كـتاب الله بالتواتر عن المـعصوم ﷺ، فهو الذى يجب الاعـتقاد بما يثبته، وعـدم الاعتقاد بما ينفيـه، وقد جاء بنفى السحر عنه ﷺ، حيث نسب القول بإثبات حصـول السحر له إلى المشركين أعدائه، ووبخهم على زعـمهم هذا، فإذًا هو ليس بمسـحور قطعًا، وأما الحديـث فعلى فرض صحته، هو آحاد، والآحاد لا يؤخذ بها فى باب العقائد، وعصمة النبى من تأثير السحر فى عقله عقيدة من العقائد، لا يؤخذ فى نفيها عنه إلا باليقين، ولا يجوز أن يؤخذ فيها الظن والمظنون، على أن الحديث الذى يصل إلينا من طريق الآحاد، إنما يحصل الظن عند من صح عنده، أمـا من قامت له الأدلة على أنه غـير صحـيح، فلا تقـوم به عليه حجة، وعلى أى حـال، فلنا، بل علينا أن نفوض الأمر فى الحـديث، ولا نحكمه فى عقيدتنا، ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل، فـإنه إذا خولط النبى فى عقله كما زعموا جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيئًا وهو لم يبلغـه، أو أن شيئًا نزل عليه وهو لم ينزل عليه، والأمر ظاهر لا يحتاج إلى بيان. . . إلخ»[(١)].

وهذا الحديث الذى يرده الأستـاذ الإمام رواه البخارى وغيـره من أصحاب الكتب الصحـيحة، وليس من وراء صحـته ما يخل بمقـام النبوة، فإن السحـر الذى أصيب به ﷺ كان من قبـيل الأمراض التى تعرض للبـدن بدون أن تؤثر على شىء من العقل، وقد قالوا: إن ما فعله لبيـد بن الأعصم بالنبى ﷺ من السحر لا يعدو أن يكون نوعًا من أنواع العقـد عن النساء، وهو الذى يسمـونه (رباطًا) فكان يخيل إليـه أن عنده قدرة على إتيان إحدى نسائه، فإذا ما همَّ بحاجـته عجز عن ذلك، أما السحر الذى نفى عنه ﷺ فمراد به الجنون، وهو مخل ـ ولا شك ـ بمقام النبوة، وقد قالوا ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾ (الحجر: ٦).

(١) تفسير جزء عم ص ١٨١ - ١٩٢.

ثم إن الحديث رواية البخارى وغيره من كتب الصحيح، ولكن الأستاذ الإمام ومن على طريقتـه لا يفرقون بين رواية البـخارى وغيره فـلا مانع عندهم من عدم صحـة ما يرويه البخارى، كما أنه لو صح فى نظرهم فهو لا يعدو أن يكون خبر آحاد لا يثبت به إلا الظن، وهذا فى نظرنا هدم للجـانب الأكبر من الـسنة التى هى بالنسبـة للكتاب فى منزلة المبين من المبين، وقد قالوا: إن البيان يلتحق بالمبين، وليس هذا الحديث وحده هو الذى يضعفـه الشيخ، أو يتخلص منه بأنه رواية آحاد، بل هناك كـثرة من الأحاديث نالها هذا الحكم القاسى، فمن ذلك أيضًا حديث الشـيخين (كل بنى آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها) فإنه قال فيه: (إذا صح الحـديث فهو من قبيل التمثيل لا من باب الحقيقة)(١).

فهو لا يثق بصحة الحديث رغم رواية الشيـخين له، ثم يتخلص من إرادة الحقيقة على فرض الصحة، بجعل الحديث من باب التمثيل، وهو ركون إلى مذهب المعتزلة، الذين يرون أن الشيطان لا تسلط له على الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء فقط.

وبعد... فهذا هو إنتاج الأستاذ الإمام فى التفسير، وهذا هو مسلكه ومنهجه فيه، ولعلى أكون قد أرضبت الحقيقة، ولم أتجن على الشيخ، أو أتهمه بما هو منه برىء.

* * *

(١) تفسير المنار (٣/ ٢٩٠).

٢- السيد محمد رشيد رضا

ترجمة المؤلف[(١)]:

هو: محمد رشيد بن على رضا بن محمد شمس الدين، بغدادى الأصل، حسينى النسب، ولد ونشـأ فى القلمون فى بلاد الشـام سنة ٢١٨٢هـ.. أحد دعـاة الإصلاح، صـاحب مجلة الـمنار. عالم بالحـديث الشـريف والأدب، رحل إلى مـصر فى عـام ١٣١٥هـ فلازم الشيخ محمد عبـده وتتلمذ له، بثَّ آراءَه الإصلاحية فى مجلته «المنار» حاول فيهْ التوفيق بين الإسلام والحياة العصرية، وكان يشارك فى النشاطات الوطنية فى بدء الاحتـلال الفرنسى إذ ترأس المؤتمـر السورى الذىْ دعا إلى حـرية الوطن السورى ووحدته واستقـلاله. وخلالْ وجوده فى سورية اعترض عليه أحد المـقاومين للإصلاح فعاد إلى القاهرة، ومات فيها، وفيها دُفِن، وذلك سنة ١٣٥٤م.

مؤلفات رشيد رضا:

١ - الحكمة الشرعية فى محاكمة القادرية والرفاعية.

٢ - مجلة المنار: وهى المعلمة الإسلاميـة الكبرى، والكنز الذى احتوى ثمار تجاربه فى الإصلاح الدينى والسياسى.

٣ - تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وما جرى بمصر فى عصره.

٤ - الوحى المحمدى.

٥ - الوحدة الإسْلامية.

٦ - يسر الإسلام وأصول التشريع العام.

٧ - الخلافة أو الإمامة العظمى.

٨ - السنة والشيعة.

٩ - مناسك الحج، أحكامه وحكمه.

١٠ - تفسير القرآن الكريم، المعروف بتفسير المنار.

١١ - حقيقة الربا.

١٢ - مساواة الرجل بالمرأة.

١٣ - رسالة فى حجة الإسلام الغزالى.

١٤ - المقصورة الرشيدية، وغيرها.

(١) أضفنا هذه الترجمة استكمالا للفائدة. (د/ مصطفى الذهبى).

كيف اتصل الشيخ رشيد بالأستاذ الإمام:

نشأ السيد محمد رشيد رضا فى طرابلس الشام، وفيها تلقى العلم عن شيوخها وعلمائها، وجلس يفيدهم بعلمه، ويرشدهم بنصحه ووعظه، وفى هذه الأثناء وقع فى يده نسخة من جريدة العروة الوثقى، التى كان يقوم بإخراجها والكتابة فيها رجل الإصلاح جمال الدين الأفغانى، وتلميذه الشيخ محمد عبده، فقرأ الشيخ رشيد ما فى الجريدة، فأعجب بالرجلين إعجابًا شديدًا، ورغب فى الاتصال بالسيد جمال الدين الأفغانى فلم يسعده الحظ، ثم تعلق أمله بالاتصال بخليفته الشيخ محمد عبده، فأسعده الحظ فى هذه المرة، واتصل بالشيخ فى رجب سنة ١٣١٥هـ وكان أول اقتراح عرضه عليه، أن يكتب تفسيراً للقرآن على نهج ما كان يكتب فى جريدة العروة الوثقى، وبعد أخذ ورد بين الشيخين اقتنع الأستاذ الإمام بأن يقرأ دروسًا فى التفسير بالجامع الأزهر، ولم يلبث إلا قليلاً حتى قام بإلقاء دروسه فى التفسير على طلابه ومريديه.

وكان الشيخ رشيد - رحمه الله - ألزم الناس لهذه الدروس، وأحرصهم على تلقيها وضبطها، فكان يكتب بعض ما يسمع، ثم يزيد عليه بما يذكره من دروس الشيخ بعد ذلك، ثم قام بنشر ما كتب على الناس فى مجلته (المنار) ولكنه لم يفعل ذلك إلا بعد مراجعة أستاذه لما كتب، وتناول له بالتنقيح والتهذيب[1].

لهذا كله نستطيع أن نقول: إن الشيخ رشيد هو الوارث الأول لعلم الأستاذ الإمام، إذ أنه أخذ عنه فوعى ما أخذ، وألف فى حياته وبعد وفاته؛ فكان لا يحيد عن منهجه أو ينحرف عن أفكاره، وليس غريبًا ما يرويه الشيخ رشيد من أن الأستاذ الإمام - رحمه الله - كان يقول: (صاحب المنار ترجمان أفكارى)[2] كما أنه ليس غريبًا ما يحدث به أحد تلاميذ الشيخ رشيد، من أن الأستاذ الإمام وصف الشيخ رشيدًا بأنه (متحد معه فى العقيدة، والفكر، والرأى، والخلق، والعمل)[3].

إنتاج الشيخ رشيد فى التفسير:

وإذا نحن تتبعنا ما كتبه الشيخ رشيد من تفسير للقرآن الكريم لوجدنا أنه أكثر رجال

(١) اختصرنا هذا الموضوع من مقدمة تفسير المنار (١/ ١٠ - ١٥). (٢) جـ٢ ص ٤٩٨.

(٣) المحدث بهذا هو الأستاذ عبد الرحمن عاصم فى مقال كتبه عن حياة الشيخ رشيد بالعدد ١٢ من السنة الخامسة من مجلة نور الإسلام.

مدرسة الأستاذ الإمام إنتاجًا فى التفسير؛ وذلك أنه كتب تفسيره المسمى بتفسير القرآن الحكيم، والمشهور بتفسير المنار... ابتدأ بأول القرآن وانتهى عند قوله تعالى: (١٠١) من سورة يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّى فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ﴾ ثم عاجلته المنية قبل أن يتم تفسير القرآن كله.

هذا القدر من التفسير مطبوع فى اثنى عشر مجلدًا كبارًا، ينتهى المجلد الثانى عشر عند قوله تعالى فى الآية (٥٣) من سورة يوسف: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى...﴾ الآية.

وقد أكمل الأستاذ بهجت البيطار تفسير سورة يوسف، وطبع تفسير هذه السورة بتمامها فى كتاب مستقل يحمل اسم الشيخ رشيد رحمه الله.

هذا... وقد فسر الشيخ من القصار: سورة الكوثر، والكافرون، والإخلاص، والمعوذتين، ولا نعرف له إنتاجًا فى التفسير أكثر من هذا، وهو إنتاج لا بأس به، وفيه تتجلى روح الأستاذ الإمام ممزوجة بروح تلميذه، فالمصادر هى المصادر، والهدف هو الهدف، والمنهج هو المنهج، والأفكار هى الأفكار، لا فرق بين الرجلين إلا فيما هو قليل نادر.

مصادره فى التفسير:

أما مصادره فى التفسير فإنه كان يستعين ببعض آيات القرآن على فهم بعض آخر منه، خصوصًا إذا تكررت الآيات فى موضوع واحد، وكان يستعين أيضًا بما صح عنده من بيان رسول الله ﷺ، وبما جرى عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين، وبأساليب لغة العرب وسنن الله فى خلقه[1]، ومستعينًا بعد ذلك كله بعقله المتحرر من التقليد للمفسرين، إلا فيما يقتنع به من أقوالهم، وأقوال شيخه على الأخص، ويحدثنا بعض تلاميذه: «أنه كان لا يراجع ما يكتب فى التفسير إلا بعد أن يكتب فهمه فى الآية، حذرًا من تأثير أقوال المفسرين على نفسه، وإذا آتاه الله فهمًا فى القرآن لم يسبق إليه أو لم يطلع عليه إلا بعد كتابته من عنده فإنه يتحدث إلى إخوانه شاكرًا، وقد يقصه على أهل بيته مغتبطًا مسرورًا»[1].

(١) انظر تفسير المنار جـ٦ ص ١٩٦.

هدفه من التفسير:

وأما هدفه فى التفسير فهو عين ما يهدف إليه الأستاذ الإمام، فإذا كان الأستاذ الإمام يصرح بأن هدفه من التفسير هو «فهم الكاتب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة» (١) فإن صاحبنا يصرح بمثل ذلك فى كثير من مواضع كتابه، فيقول بعد أن يوجه اللوم إلى من حشروا فى التفسير من قواعد العلوم، ومسائل الفنون، وموضوعات الحديث، وخرافات الإسرائيليات، ما يصرف الناس عن هداية القرآن، يقول: «إن حاجة الناس صارت شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذى يتفق مع الآيات الكريمة، المنزلة فى وصفه، وما أنزل لأجله، من الإنذار، والتبشير، والهداية، والإصلاح» (٢).

يريد أنه سيعمل تفسيره على هذا النمط ليسد حاجة الناس، ويقول فى موضع آخر: «إن قصدنا من التفسير بيان معنى القرآن، وطرق الاهتداء به فى هذا الزمان» (٣).

منهجه فى التفسير:

وأما منهجه فيه فهو عين ما نهجه الأستاذ الإمام، فلا تقيد بأقوال المفسرين، ولا تحكم للعقيدة فى نص القرآن، ولا خوض فى إسرائيليات، ولا تعيين لمبهمات، ولا تعلق بأحاديث موضوعة، ولا حشد لمباحث الفنون، ولا رجوع بالنص إلى اصطلاحات العلوم، بل شرح للآيات بأسلوب رائع، وكشف عن المعانى بعبارة سهلة مقبولة، وتوضيح لمشكلات القرآن، ودفاع عنه يرد ما أثير حوله من شبهات، وبيان لهدايته، ودلالة إلى عظيم إرشاده، وتوقيف على حكم تشريعه، ومعالجة لأمراض المجتمع بناجع دوائه، وبيان لسنن الله فى خليقته.

ولكنا نجد الشيخ رشيد ـ رحمه الله ـ يحيد عن هذا المنهج بعض الشىء، وذلك بعد وفاة شيخه، واستقلاله بالعمل، ويحدثنا هو بذلك فيقول:

---

(١) من مقال نشره الأستاذ عبد الرحمن عاصم عن الشيخ رشيد فى مجلة نور الإسلام السنة الخامسة العدد ١٢ سنة ١٣٥٤هـ.

(٢) تفسير المنار (١/ ١٧).

(٣) تفسير المنار (١/ ١٠).

«وإننى لما استقللت بالعمل بعد وفاته، خالفت منهجه ـ رحمه الله تعالى ـ بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء كان تفسيرًا لها، أو فى حكمها، وفى تحقيق بعض المفردات، أو الجمل اللغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء، وفى الإكثار من شواهد الآيات فى السور المختلفة، وفى بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها، بما يثبتهم بهداية دينهم فى هذا العصر، أو يقوى حجتهم على خصومه من الكفار والمبتدعة، أو بحل بعض المشكلات التى أعيا حلها، بما يطمئن به القلب، وتسكن إليه النفس»(١).

ويبدو لنا أن هذا التوسع الذى كان من الشيخ رشيد خصوصًا فى المسائل الاجتماعية، لم يدفعه إليه إلا كونه رجلاً (صحفيّا) اتصل عن طريق مجلته بالناس على اختلاف منازعهم ومشاربهم، وفيهم المتدين، والملحد، والكافر، فأردا أن يتمشى بكتابته مع الجميع، فيثبت المتدين على دينه، ويرد الملحد عن إلحاده، ويكشف عن محاسن الإسلام؛ لعل الكافر أن يثوب إلى رشده ويرجع عن كفره(٢).

آراؤه فى التفسير:

أما آراؤه فى التفسير فهى كآراء شيخه، تقوم على حرية واسعة فى الرأى واعتداد عظيم بالفهم، وثقة قوية بما عنده من العلم، وعدم تقيد ببعض المسلمات عند العلماء؛ ولهذا نجد له أفكارًا غريبة فى تفسير القرآن استقل ببعض منها، وقلد شيخه فى بعضها الآخر.

رأيه فى أصحاب الكبائر:

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٧٥) من سورة البقرة فى شأن المرابين: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ نجده يخالف أهل السنة، ويؤكد أن صاحب الكبيرة التى فى درجة أكل الربا وقتل العمد إذا مات ولم يتب منها يخلد فى النار، ولا يخرج منها أبدًا فيقول: «أى ومن عاد إلى ما كان يأكل من الربا

(١) تفسير المنار (١/ ١٦).

(٢) كان الشيخ رشيد ينشر ما يكتبه فى التفسير تباعًا بمجلته (المنار) ثم جمع ما كتب فى كتاب واحد وهو تفسيره المتداول بين أهل العلم.

المحرم بعد تحريمه، فأولئك البعداء عن الاتعاظ بموعظة ربهم، الذى لا ينهاهم إلا عما يضرهم فى أفرادهم أو جمعهم، هم أهل النار الذين يلازمونها كما يلازم الصاحب صاحبه، فيكونون فيها خالدين».

«وقد أول الخلود المفسرون، لتتفق الآية مع المقرر فى العقائد والفقه من كون المعاصى لا توجب الخلود فى النار، فقال أكثرهم: إن المراد: ومن عاد إلى تحليل الربا واستباحته اعتقادًا، ورده بعضهم بأن الكلام فى أكل الربا، وما ذكر عنهم من جعله كالبيع هو بيان لرأيهم قبل التحريم، فهو ليس بمعنى استباحة المحرم، فإذا كان الوعيد قاصرًا على الاعتقاد بحله لا يكون هناك وعيد على أكله بالفعل».

«والحق أن القرآن فوق ما كتب المتكلمون والفقهاء، يجب إرجاع كل قول فى الدين إليه، ولا يجوز تأويل شىء ليوافق كلام الناس، وما الوعيد بالخلود هنا إلا كالوعيد بالخلود فى آية قتل العمد، وليس هناك شبهة فى اللفظ على إرادة الاستحلال، ومن العجيب أن يجعل الرازى الآية هنا حجة على القائلين بخلود مرتكب الكبيرة فى النار، انتصارًا لأصحابه الأشاعرة، وخير من هذا التأويل تأويل بعضهم الخلود بطول المكث، أما نحن فنقول: ما كل ما يسمى إيمانًا يعصم صاحبه من الخلود فى النار، الإيمان إيمانان: إيمان لا يعدو التسليم الإجمالى بالدين الذى نشأ فيه المرء أو نسب إليه، ومجاراة أهله ولو بعدم معارضتهم فيما هم عليه، وإيمان هو عبارة عن معرفة صحيحة بالدين عن يقين بالإيمان، متمكنة فى العقل بالبرهان مؤثرة فى النفس بمقتضى الإذعان، حاكمة على الإرادة المصرفة للجوارح فى الأعمال، بحيث يكون صاحبها خاضعًا لسلطانها فى كل حال إلا ما لا يخلو عنه الإنسان من غلبة جهالة أو نسيان، وليس الربا من المعاصى التى تنسى، أو تغلب النفس عليها خفة الجهالة والطيش كالحدة وثورة الشهوة، أو يقع صاحبها منها فى غمرة النسيان كالغيبة والنظرة، فهذا هو الإيمان الذى يعصم صاحبه بإذن الله من الخلود فى سخط الله، ولكنه لا يجتمع مع الإقدام على كبائر الإثم والفواحش عمدًا، إيثارًا لحب المال واللذة، عن دين الله وما فيه من الحكم والمصالح، وأما الإيمان الأول: فهو صورى فقط، فلا قيمة له عند الله تعالى؛ لأنه تعالى لا ينظر إلى الصور والأقوال، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال،

كما ورد فى الحديث والشواهد على هذا الذى قررناه فى كتاب الله تعالى كثيرة جدًّا، وهو مذهب السلف الصالح، وإن جهله كثير مما يدعون اتباع السنة حتى جرأوا الناس على هدم الدين، بناء على أن مدار السعادة على الاعتراف بالدين وإن لم يعمل به، حتى صار الناس يتبجحون بارتكاب الموبقات، مع الاعتراف بأنها من كبائر ما حرم، كما بلغنا عن بعض كبرائنا أنه قال: إننى لا أنكر أننى آكل الربا ولكننى مسلم أعترف بأنه حرام، وقد فاته أنه يلزمه بهذا القول الاعتراف بأنه من أهل هذا الوعيد، وبأنه يرضى أن يكون محاربًا لله ولرسوله، وظالمًا لنفسه وللناس، كما سيأتى فى آية أخرى، فهل يعترف بالملزوم؟ أو ينكر الوعيد المنصوص فيؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض؟ نعوذ بالله من الخذلان»[١].

تقليده لشيخه فى قصة آدم:

كذلك نجد صاحب المنار يقلد شيخه فى موقفه من قصة آدم وإبليس وما يتعلق بها فيقول:

«وهذا التفصيل مبنى على كون الأمر بالسجود للتكليف، وأنه وقع حوار بين الرب سبحانه، وبين إبليس، وأما على القول بأن الأمر للتكوين، وأن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشياطين، فالمعنى: أنه تعالى جعل ملائكة الأرض المدبرة بأمر الله وإذنه لأمورها بالسنن التى عليها مدار نظامها كما قال: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ (النازعات: ٥) مسخرة لآدم وذريته، إذ خلق الله هذا النوع مستعدًّا للانتفاع بها كلها، بعلمه بسنن الله تعالى فيها، وبعلمه بمقتضى هذه السنن كخواص الماء، والهواء والكهرباء، والنور، والأرض: معادنها، ونباتها، وحيوانها، وإظهاره لحكم الله تعالى وآياته فيها، ومستعدًّا لاصطفاء الله بعض أفراده، واختصاصهم بوحيه ورسالته، وإقامة من اهتدى بهم لدينه وميزان شرعه، وقد أشير إلى ذلك فى الآية (٣١) من سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ إلا أنه جعل الشيطان عاتيا متمردًا على الإنسان، بل عدوًّا

---

(١) تفسير المنار (٣/ ٩٨، ٩٩) وراجع أيضًا ما كتبه عن قتل العمد (٥/ ٣٣٩ - ٣٤٥).

له، من حيث إن الإنسان بروحه وسط بين روح الملائكة المفطورين على طاعة الله وإقامة سننه فى صلاح الخلق، وبين روح الجن الذى يغلب على شرارهم - وهم الشياطين - التمرد والعصيان، وقد أعطى الإنسان إرادة واختيارًا من ربه فى ترجيح ما به يصعد إلى أفق الملائكة، وما به يهبط إلى أفق الشياطين»(١).

تذرعه بالمجاز والتشبيه:

كذلك نجد صاحب المنار يصرف بعض ألفاظ القرآن عن ظواهرها، ويعدل بها إلى ناحية المجاز أو التشبيه، وذلك فيما يبدو مستبعدًا ومستغربًا لو أجرى على حقيقته، وهذا المسلك الذى جرى عليه الشيخ رشيد هو مسلك شيخه، ومسلك الزمخشرى وغيره من المعتزلة، الذين اتخذوا التشبيه والتمثيل سبيلاً للفرار من الحقائق التى يصرح بها القرآن، ولا تعجز عنها قدرة الله، وإن بعدت عن منال البشر.

فمثلاً نجد صاحب المنار عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٤٧) من سورة النساء: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا**﴾ الآية، نراه يستظهر أن المعنى المراد هنا هو: «آمنوا بما نزلنا مصدقًا لما معكم من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم التى توجهتم إليها فى كيد الإسلام، ونردها خاسئة خاسرة إلى الوراء، بإظهار الإسلام ونصره عليكم، وفضيحتكم فيما تأتونه باسم الدين والعلم الذى جاء به الأنبياء، وقد كان لهم عند نزول الآية شيء من المكانة والمعرفة والقوة، فهذا ما نفسرها به، على جعل الطمس والرد على الأدبار معنويين... ثم سرد بعض أقوال المفسرين فى هذه الآية، ثم بين أن ما اختاره هو رأى شيخه الذى مال إليه فى دروسه» (٢).

رأيه فى السحر:

ثم إن صاحب المنار لا يرى السحر إلا ضربًا من التمويه والخداع، وليس له حقيقة كما يقول أهل السنة، وهو يوافق بهذا القول قول شيخه وقول المعتزلة من قبله؛ ولهذا نراه عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الأنعام: ﴿**وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾ نجده يقول: «والآية

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٣٢).
(٢) تفسير المنار (٥/ ١٤٥، ١٤٦).

تدل على أن السحر خداع باطل، وتخييل يرى ما لا حقيقة له فى صورة الحقائق. . . »[(١)].

وهذا ولم يستطع الشيخ رشيد أن يرد حديث البخارى فى سحر رسول الله ﷺ كما فعل شيخه، ولكنه تأول الحديث على أنه كان من قبيل العقد عن النساء، وبين أن عذر من طعن فى الحديث هو أن هشامًا راوى الحديث عن أبيه عن عائشة مطعون فيه من كثير من أئمة الجرح والتعديل[(٢)].

رأيه فى الشياطين:

وهو يرى أن شياطين الجن لا تسلط لها على الإنسان إلا بالإغواء فقط، ويقول: «كل ما يدعيه بعض الدجالين من تسلط الشيطان، أو ملوك الجان على بعض الناس، وقدرتهم على نفعهم وضرهم، فهو كذب وحيل من شياطين الإنس وحدهم»[(٣)].

رأيه فى الجن:

كما يرى أن الجن لا ترى للإنسان على أى حال من الأحوال، ويرجح أن من ادعى رؤية الجن فذلك وهم منه وتخيل، ولا حقيقة له فى الخارج، أو لعله رأى حيوانًا غريبًا كبعض القردة فظنه أحد أفراد الجن[(٤)]، يقول هذا ثم يعرض فى (الهامش) لذكر حديث أبى هريرة رضي الله عنه فيمن كان يسرق تمر الصدقة، وإخبار النبى له بأنه شيطان - وهو فى البخارى - ولغيره من الأحاديث التى تدل على أن الإنسان يرى الجنى ويبصره، ثم يقول بعد أن يفرغ من سرده للروايات «والصواب أنه ليس فى هذه الروايات كلها حديث صحيح. . . »[(٥)].

بل ونجده يزيد على ذلك فيجوز أن تكون ميكروبات الأمراض نوعًا من الجن، وذلك حيث يقول عندما تعرض لتفسير قوله تعالى فى الآية (٢٧٥) من سورة البقرة ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ. . .﴾ الآية:

(١) تفسير المنار (٧/ ٣١١).

(٢) انظر تفسير سورة الفلق من مجموعة تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ١٢٩ - ١٣٤.

(٣) تفسير سورة الناس من مجموعة تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ١٤١.

(٤) انظر تفسير المنار (٧/ ٥١٦).

(٥) المرجع السابق (هامش).

«. . . والمتكلمون يقولون: إن الجن أجسام حية خفية لا ترى، وقد قلنا فى المنار غير مرة: إنه يصح أن يقال: إن الأجسام الحية الخفية التى عرفت فى هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة وتسمى بالمكروبات، يصح أن تكون نوعًا من الجن، وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض»(١).

رأيه فى معجزات النبى ﷺ:

ولقد نجد صاحب المنار يذهب فى معجزات النبى ﷺ مذهبًا بعيدًا، فيقرر أنه لا معجزة للنبى ﷺ غير القرآن الكريم، وينكر بعض معجزاته الكونية، ويتأول ما يشهد لها من آيات، ويجحد صحة ما يقوم بإثباتها عن الأحاديث، وما يسلمه من بعض الآيات الكونية فهو فى نظره إكرام للنبى من ربه، وليس من قبيل المعجزة، أو الحجة على صدق دعوته.

يذهب إلى هذا ويستدل له بمثل قوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ...﴾ الآية، وبمثل قوله ﷺ من رواية أبى هريرة عند الشيخين وغيرهما: «ما من نبى من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله إلىَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة».

ولكن صاحب المنار يستشعر معارضة بعض نصوص القرآن والحديث لما ساقه من أدلة على مدعاه فيقول: «وقد يعارضه - يعنى الحديث السابق - آية انشقاق القمر مع ما ورد فى أحاديث الصحيحين وغيرهما من أن قريشًا سألوا النبى ﷺ آية على نبوته فانشق القمر فكان فرقتين، ولكن فى الأحاديث الواردة فى انشقاقه عللاً فى متنها وأسانيدها، وإشكالات علمية، وعقلية، وتاريخية، فصلناها فى المجلد الثلاثين من المنار، وبينا أن ما تدل عليه الآيات القرآنية، المؤيدة بحديث الصحيحين الصريح فى حصر معجزة نبوته ﷺ فى القرآن وكون الآيات المقترحة تقتضى إجابة مقترحيها عذاب الاستئصال، هو الحق الذى لا ينهض لمعارضته شىء»(٢).

---

(١) تفسير المنار (٣/ ٩٦).

(٢) تفسير المنار (١١/ ٢٣٣) وانظر الوحى المحمدى للمؤلف ص ٦٩، ٧٠ مطبعة المنار سنة ١٣٥٤هـ.

وإذا كان الشيخ رشيد قد تخلص هنا من معارضة الحديث بالطعن فيه، فإنه قد تخلص فى موضع آخر من معارضة الآية، حيث فسر انشقاق القمر بظهور الحجة(١)!.

رأيه فى مسائل من الفقه:

كذلك نجد صاحب المنار يعطى نفسه حرية واسعة فى استنباط الأحكام من القرآن الكريم، مما يجعله يخالف جمهور الفقهاء، ويسفههم فيما ذهبوا إليه وإذا أردت مثالاً لذلك فارجع إلى ما كتبه على قوله تعالى فى الآية (١٨٠) من سورة البقرة: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾ فستجد أنه لم يعبأ بما عليه جمهور العلماء من أهل السنة من أن حكم هذه الآية منسوخ، بصرف النظر عن كون الناسخ آية المواريث أو حديث «لا وصية لوارث» الذى جنح الشافعى فى الأم إلى أن متنه متواتر(٢)، فراح ـ رحمه الله ـ يؤكد بكل ما يملك من حجة: أن حكم الوصية للوالدين والأقربين باق لم ينسخ، كما راح يفند كل دليل تمسك به الجمهور، ولا أطيل بذكر ما قال فى هذا الموضوع، ويكفى أن أقول لك: إنه أنهى البحث فى هذه المسألة بقوله: (وصفوة القول: أن الآية غير منسوخة بآية المواريث؛ لأنها لا تعارضها، بل تؤيدها، ولا دليل على أنها بعدها، ولا بالحديث، لأنه لا يصلح لنسخ الكتاب، فهى محكمة، وحكمها باق، ولك أن تجعله خاصّا بمن لا يرث من الوالدين أو الأقربين كما روى عن بعض الصحابة، وأن تجعله على إطلاقه، ولا تكن من المجازفين الذين يخاطرون بدعوى النسخ فينبذ ما كتبه الله عليه بغير عذر، ولا سيما بعدما أكده بقوله: ﴿**حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾)(٣).

وإن أردت مثالاً آخر فارجع إلى ما ذهب إليه فى آية التيمم من سورة النساء، فسترى أنه يقرر: أن المسافر يجوز له التيمم ولو كان الماء بين يديه ولا علة تمنعه من استعماله إلا كونه مسافرًا، ويخالف بذلك جملة الفقهاء، ويحمل عليهم حملة شديدة فيما ذهبوا إليه من أن المسافر لا يجوز له التيمم مع وجود الماء، كما ينكر على من

---

(١) انظر القول الفصل ص ١٦٣.

(٢) نيل الأوطار للشوكانى (٦/ ٤٠) المطبعة العثمانية سنة ١٣٥٧هـ.

(٣) تفسير المنار (١/ ١٤١).

استشكل الآية من المفسرين، ويقول فيما يقول: «سيقول أدعياء العلم من المقلدين، نعم... إن الآية واضحة المعنى، كاملة البلاغة على الوجه الذى قررتم، ولكنها تقتضى عليه أن التيمم فى السفر جائز ولو مع وجود الماء، وهذا مخالف للمذاهب المعروفة عندنا فكيف يعقل أن يخفى معناها هذا على أولئك الفقهاء المحققين؟ وكيف يعقل أن يخلفوها من غير معارض لظاهرها أرجعوها إليه؟... ولنا أن نقول لمثل هؤلاء ـ وإن كان المقلد لا يحتاج لأنه لا علم له ـ وكيف يعقل أن يكون أبلغ الكلام وأسلمه من التكلف والضعف معضلاً مشكلاً؟ وأى الأمرين أولى بالترجيح؟ الطعن ببلاغة القرآن وبيانه، لحمله على كلام الفقهاء؟ أو تجويز الخطأ على الفقهاء؛ لأنهم لم يأخذوا بما دل عليه ظاهر الآية من غير تكلف، وهو الموافق الملتئم مع غيره من رخص السفر، التى فيها قصر الصلاة وجمعها، وإباحة الفطر فى رمضان، فهل يستنكر مع هذا أن يرخص للمسافر فى ترك الغسل والوضوء، وهما دون الصلاة والصيام فى نظر الدين»... إلى أن قال: «ألا إن من أعجب العجيب، غفلة جماهير الفقهاء عن هذه الرخصة الصريحة فى عبارة القرآن، التى هى أظهر وأولى من قصر الصلاة وترك الصيام، وأظهر فى رفع الحرج والعسر الثابت بالنص وعليه مدار الأحكام...» ثم قال: «وإذا ثبت أن التيمم رخصة للمسافر بلا شرط ولا قيد، بطلت كل تلك التشديدات التى توسعوا فى بنائها على اشتراط فقد الماء، ومنها ما قالوا من وجوب طلبه فى السفر، وما وضعوه لذلك من الحدود كحد القرب وحد الغوث...»(١).

حملته على بعض المفسرين:

هذا... ولا يفوتنا أن نقول: إن صاحب المنار كان كثير التوسع فيما يتعقب به أحيانًا قدماء المفسرين، خصوصًا الفخر الرازى منهم، مع قسوة منه عليهم فى الكثير الغالب(٢).

---

(١) تفسير المنار (٥/ ١١٨ - ١٢٢).

(٢) انظر ما عقب به على الزمخشرى وغيره من المفسرين الذين فسروا الركون بالميل اليسير فى قوله تعالى فى الآية ١١٣ من سورة هود: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ جـ١٢ ص ١٦٩ - ١٧٩.

حملته على البدع والخرافات:

كما أنه كان كثير الاستطراد إلى تتبع بدع المسلمين، والكشف عن عوارها والإرشاد إلى علاجها، مع تشدد وتعسف منه فى كثير من الأحيان.

شرحه لمبهمات القرآن بما جاء فى التوراة والإنجيل:

كذلك لا يفوتنا أن ننبه على أن صاحب المنار كان مع شدة لومه على المفسرين الذين يزجون بالإسرائيليات فى تفاسيرهم، ويتخذون منها شروحًا لكتاب الله، يخوض هو أيضًا فيما هو من هذا القبيل، ويتخذ منه شروحًا لكتاب الله، وذلك أنه كثيرًا ما ينقل عن الكتاب المقدس أخبارًا وآثارًا يفسر بها بعض مهمات القرآن أو يرد بها على أقوال بعض المفسرين(١)، وكان الأجدر بهذا المفسر الذى يشدد النكير على عشاق الإسرائيليات، أن يكف هو أيضا عن النقل عن كتب أهل الكتاب، خصوصًا وهو يعترف أنه قد تطرق إليه التحريف والتبديل.

دفاعه عن الإسلام:

وأخيرًا فلا يفوتنا أن الرجل قد دافع عن الإسلام والقرآن، وكشف عما أحاط بهما من شكوك ومشاكل وقد استعمل فى ذلك لسانه وقلمه، وضمنه مجلته وتفسيره، وتلك مزية للرجل يحمد عليها، ولا ننسى ما له من أفكار جريئة ومتطرفة.

* * *

---

(١) انظر ما نقله عن الفصل الخامس والعشرين من سفر الخروج عن التابوت وما حواه (٢/ ٤٨٢، ٤٨٣) واستشهاده على ما فسر به استجابة الله لدعاء موسى وهارون، حيث قالا كما جاء فى الآيتين (٨٨، ٨٩) من سورة يونس: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ بما جاء فى سفر الخروج (١١/ ٤٧٤).

٣- الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى

ترجمة المراغى[١]:

ولد الشيخ محمد مصطفى المراغى فى (٩ فبراير ١٨٨١م) فى بلدة المراغة بمحافظة سوهاج، التحق بالأزهر الشريف بعد أن أتم حفظ القرآن الكريم بكتاب قريته، وتلقى العلم على يد كبار العلماء والمشايخ، واتصل بالإمام محمد عبده، وانتفع بدروسه فى التاريخ والاجتماع والسياسة، وتوثقت صلته به، وسار على نهجه فى الإصلاح والتجديد فيما بعد.

كما تلقى العلم على يد الشيخ دسوقى العربى، ومحمد حسنين العدوى، ومحمد نجيب المطيعى، وغيرهم.

تخرج الإمام المراغى من الأزهر بعد حصوله على الشهادة العالمية عام (١٢٣٢هـ/ ١٩٠٤م) وكان ترتيبه الأول على زملائه، وكان عمره آنذاك ثلاثة وعشرين عامًا، وهى سن مبكرة بالنسبة لعلماء الأزهر فى ذلك الوقت.

وفى سنة التخرج اختاره أستاذه الشيخ محمد عبده ليعمل قاضيا فى مدينة دنقلة بالسودان، واستمر الشيخ المراغى فى وظيفته تلك لمدة ثلاث سنوات فقط حتى عام ١٩٠٦م، حيث قدَّم استقالته من عمله بسبب خلافه المستمر مع الحاكم العسكرى الإنكليزى للسودان، وعاد لمصر ليتدرج فى مناصب القضاء حتى تولى رئاسة المحكمة الشرعية العليا عام ١٩٢٣م.

وفى عام ١٩٢٨م ثم تعيينه شيخًا للأزهر وهو فى السابعة والأربعين من عمره، وكان معنيًا بإصلاح الأزهر، ولكنه لما وجد أن هناك عقبات كثيرة تحول بينه وبين ذلك استقال من منصبه فى أكتوبر ١٩٢٩م.

وفى أبريل ١٩٣٥م أعيد تعيين الشيخ المراغى شيخًا للأزهر مرة أخرى بعد المظاهرات الكبيرة التى قام بها طلاب الأزهر وعلماؤه للمطالبة بعودة الإمام المراغى للأزهر لتحقيق ما نادى به من إصلاح.

---

(١) لخصنا هذه الترجمة من الفتح المبين فى طبقات الأصوليين (٣/ ١٩٤ - ١٩٨).
(د/ مصطفى الذهبى)

وظل الشيخ المراغى فى منصبه شيخًا للأزهر لمدة عشر سنوات إلى أن توفى فى ١٧ أغسطس ١٩٤٥م.

هذا . . . ولم يترك الشيخ المراغى من المؤلفات سوى مقتطفات من تفسير القرآن، وهى التى تكلم عنها الوالد.

الأستاذ المراغى فى مدرسة الشيخ محمد عبده:

لم نعرف من رجال هذه المدرسة رجلاً تأثر بروح الأستاذ الإمام، ونهج على طريقته من التجديد واطراح التقليد، والعمل على تنقية الإسلام من الشوائب التى ألصقت به، وتنبيه الغافلين عن هديه وإرشاده، مثل الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى عليه رحمة الله ورضوانه.

تربى هذا الرجل فى مدرسة الأستاذ الأمام، وتخرج منها وهو يحمل بين جنبيه قلبًا مليئًا بالرغبة فى الإصلاح، والثورة على كل ما يقف فى سبيل الإسلام والمسلمين.

هذا القلب الفتى، العامر بما فيه من حب للخير ورغبة فى الإصلاح، دفع بالرجل إلى ميدان الحياة الاجتماعية، وترقى به فى مراتب المناصب الدينية وأخيرًا وقف به عند الغاية، فإذا بالرجل شيخًا للأزهر، وإذا بروح الإصلاح والتجديد تتدفق من فوق منبره، وعلى قلوب طلابه وغير طلابه، ثم تنساب جارفة إلى نواح من الحياة مختلفة، فتعمل فيها عمل السحر، والحياة والنور.

لم يلازم الشيخ المراغى أستاذه الإمام ملازمة طويلة كما لازمه الشيخ رشيد ولم يجلس إليه كثيراً مثل ما جلس، ولكنه كان على رغم ذلك أعمق أثرًا وأكثر تحقيقًا لما تهدف إليه هذه المدرسة من ضروب الإصلاح وصنوف التجديد، والسر فى ذلك ـ كما يظهر لنا ـ هو تقلب الشيخ فى مختلف المناصب الدينية الكبيرة، ثم ما كان فيه من جاذبية وقدرة على استجلاب قلوب سامعيه واستمالتها إليه، مما أجلس بين يديه الملك، والأمير، والوزير، والشيخ الكبير والطالب الصغير، ورجل الشارع.

جلس هؤلاء جميعًا يستمعون إليه ويأخذون عنه، فكان الميدان فسيحًا أمام الشيخ، يلقى فيه بآرائه وأفكاره، فتجد الدعوة قبولاً من مستمعيه، ورواجًا عند مريديه. . . ثم لا تلبث أن تنتشر فتعم كل شىء.

وإذا كان كتاب الله هو الدستور الذى شرعه الله تعالى للأمة الإسلامية، وجعل فيه

خيرها وسعادتها فى الدنيا والآخرة، فلم لا يكون هو الباب الذى يصل منه الشيخ إلى ما يرجوه من خير؛ وما يهدف إليه من إصلاح.

إنتاجه فى التفسير:

طرق الشيخ هذا الباب، فعقد دروسًا دينية فى تفسير القرآن الكريم، استمع إليها الكثير من الناس على اختلاف طبقاتهم، من الملك إلى رجل الشارع كما قلت، وأذيعت هذه الدروس أيضًا فى كثير من ممالك الأرض، ودول الإسلام وأخيرًا طبعت هذه الدروس، ووزعت على الناس ليعم نفعها، ويزداد أثرها.

لم تكن هذه الدروس على شىء من الكثرة، ولم يكن مقدار ما تناولته من آيات القرآن بالمقدار الكبير، الذى كنا نرغب ونطمع فى أن تزود به المكتبة الإسلامية.

نعم... لم تتناول هذه الدروس من آيات القرآن إلا مقدارًا قليلاً، وإذا نحن ذهبنا نستقصيه فإنا لا نجده أكثر من شرحه لقوله تعالى فى الآية (١٧٧) من سورة البقرة ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ... ﴾ إلى قوله ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾(١).

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١٣٣ - ١٣٨) من سورة آل عمران ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ... ﴾ إلى قوله ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٢).

وشرحه لقوله تعالى فى الآيتين (١٣، ١٤) من سورة الشورى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا... ﴾ إلى قوله ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾(٣).

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١٥١ - ١٥٣) من سورة الأنعام ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ... ﴾ إلى قوله ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٤).

---

(١) ألقى هذا الدرس بمسجد البوصيرى بالإسكندرية فى رمضان سنة ١٣٥٦هـ.
(٢) ألقى هذا المسجد بمسجد الحسين بالقاهرة فى رمضان سنة ١٣٥٦هـ.
(٣) ألقى هذا الدرس بمسجد السلطان أبى العلاء بالقاهرة فى رمضان سنة ١٣٥٦هـ.
(٤) ألقى هذا الدرس بمسجد السلطان الحنفى بالقاهرة فى رمضان سنة ١٣٥٦هـ.

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١٨٣ - ١٨٦) من سورة البقرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ...﴾ إلى قوله ﴿... وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾[١].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (٢٤ - ٢٩) من سورة الأنفال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾ إلى قوله ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٢].

وشرحه لسورة الحجرات[٣]، وشرحه لسورة الحديد[٤]، وشرحه لسورة لقمان[٥].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١٦٠ - ١٦٥) من سور الأنعام ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا...﴾ إلى آخر السورة[٦].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١٩٩ - ٢٠٦) من سورة الأعراف ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ إلى آخر السورة[٧].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (٣٠ - ٣٤) من سورة فصلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا...﴾ إلى قوله ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٨].

وشرحه لأوائل سورة الأعراف إلى قوله فى الآية (٩) ﴿... وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[٩].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١١٢ - ١٢٣) من سورة هود ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ...﴾ إلى آخر السورة[١٠].

---

(١) ألقى هذا الدرس بمسجد السيدة زينب بالقاهرة فى رمضان سنة ١٣٥٦هـ.
(٢) ألقى هذا الدرس بمسجد البوصيرى بالإسكندرية فى رمضان سنة ١٣٥٦هـ.
(٣) فى دروس ثلاثة فى شهر رمضان سنة ١٣٥٨هـ.
(٤، ٥) ألقى تفسير هذه السورة فى رمضان سنة ١٣٥٩، ١٣٦٠هـ.
(٦، ٧) ألقى تفسيرها فى رمضان سنة ١٣٦١هـ.
(٨) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦١هـ.
(٩) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦٢هـ.
(١٠) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦٢هـ.

وشرحه لقوله تعالى فى الآيتين (٥٨، ٥٩) من سورة النساء ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...﴾ إلى قوله ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[١].

وشرحه لقوله تعالى فى الآية (١٧) من سورة الرعد ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا...﴾ إلى قوله ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾[٢].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (٨٣ - ٨٨) من سورة القصص ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ..﴾ إلى آخر السورة[٣].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١ - ١٠) من سورة الفرقان ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ...﴾ إلى قوله ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾[٤].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (٦٣ - ٧٧) من سورة الفرقان أيضًا ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا...﴾ إلى قوله ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[٥].

وشرحه لسورة العصر[٦].

وشرحه لسورة الملك[٧].

هذا هو كل ما للأستاذ المراغى ـ رحمه الله ـ من إنتاج فى التفسير، وهو على قلته عمل كبير وعظيم، بالنظر لما يهدف إليه من إصلاح، وما يحمل فى طياته من توجيه حسن فى التفسير.

وحسب الشيخ أن يكون قد لفت قلوب كثير من المسلمين إلى القرآن، بعد أن أعرضوا عن هديه، وضلوا عن إرشاده، وتلك حسنة نرجو له برها وذخرها عند الله.

---

(١) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦٣هـ.

(٢) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦٣هـ.

(٣) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦٣هـ ـ وقد قدم شرحه لهذه الآيات بالكلام عن قصة قارون مع قومه وبيَّن موضع العبرة فيها.

(٤) ألقاه بدار جمعية الشبان المسلمين سنة ١٣٦٠هـ.

(٥) ألقاه بدار جمعية الشبان المسلمين سنة ١٣٥٩هـ.

(٦) ألقاه بدار جمعية الشبان المسلمين سنة ١٣٦١هـ.

(٧) وهو آخر دروسه فى التفسير رحمه الله، إذ توفى فى رمضان سنة ١٣٦٤هـ ولم يقع لنا تفسير هذه السورة، وقد اعتمدت فيما نقلته عنه فيها على ما سمعته بنفسى من دروسه فى تفسيرها.

منهجه فى التفسير:

يتتبع الإنسان إنتاج الأستاذ الأكبر فى التفسير، ويستقصى ما عرض له من آيات القرآن الكريم، فيلحظ أن الشيخ - رحمه الله تعالى - كان يختار لدروسه من آيات القرآن ما تتجلى فيه دلائل قدرة الله وآيات عظمته، وما تظهر فيه وسائل هداية البشر، ومواضع العظة والعبرة، كما يلحظ أيضًا أنه وجه جانبًا كبيرًا من عنايته إلى الآيات التى يجمعها وقضايا العلم الحديث صلة القربى؛ ليظهر للناس أن القرآن لا يقف فى سبيل العلم، ولا يصادم ما صح من قواعده ونظرياته، وذلك بما يهديه الله إليه من الدقة فى التوفيق بين قضايا القرآن، وقضايا العلم الحديث... دقة لا يبلغ شأوها، ولا يدرك خطرها إلا من شغل نفسه، وكد فهمه فى هذا السبيل.

مصادره فى التفسير:

وأعتقد أن الشيخ - رحمه الله - كان يستند فى تحضير دروسه على كتاب الله تعالى بجمع ما كان من الآيات فى موضوع واحد، لعل ما أجمل فى موضع فسر فى موضع آخر، وما أبهم فى آية بين فى آية أخرى، وكان يستند أيضًا إلى ما صح من بيان رسول الله ﷺ، وبيان السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ثم على أساليب اللغة وسنن الله فى الكون، ثم على ما كتبه قدماء المفسرين، ولكنه لم يلغ عقله فى هذا كله، بل كان يضع هذه المصادر كلها أمام نظره، ويعرض ما فيها على قلبه وعقله، فما أعجبه منها أقره، وما لم يطمئن إليه نبذه وأعرض عنه.

لم نسمع عن الأستاذ المراغى - رحمه الله - أنه فسر القرآن بدون أن ينظر أولاً فيما كتبه المفسرون، ولم يبلغنا عنه أنه ادعى لنفسه أنه أتى بما لم يأت به الأوائل فى التنسير، بل على العكس من ذلك وجدناه يعترف بالفضل للأقدمين، ولا ينسى ما كان لهم من مجهود طيب وأثر محمود، وذلك حيث يقول عن تفسيره: «ما هو إلا ثمرات من غرس أسلافنا الأقدمين، وزهرات من رياضهم»(١).

لم يتحامل الشيخ - رحمه الله - على المفسرين كما تحامل غيره، ولم يرم فى وجوههم بالعبارات القاذعة اللاذعة، بل كان عفًا فى نقده، نزيهًا فى عبارته، وهذا أدب ما أجمله بالعلماء، وبخاصة مع أسلافهم ومتقدميهم.

---

(١) مقدمة تفسيره لسورة الحديد.

موقفه من مبهمات القرآن:

هذا، وإن الأستاذ المراغى - رحمه الله - قد نهج فى تفسيره منهج شيخه، فوجدناه لا يخوض فى مبهمات القرآن بالتفصيل، ولا يدخل فى جزئيات سكت عنها القرآن، وأعرض عنها الرسول ﷺ، فلا الروايات الموضوعة أو الضعيفة بكافية عنده حتى يزج بها فى تفسيره، ولا الأخبار الإسرائيلية بمقبولة لديه حتى يجعل منها شروحًا لما أجمله وسكت عن تفصيله، فلهذا نراه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٣٣) من سورة آل عمران ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ نجده يقول بعد أن ينتهى من تفسير الآية ما نصه: «والآية تدل بظاهرها على أن الجنة مخلوقة الآن، لأن الفعل الماضى يفهم هذا، غير أنه من الجائز أن يكون من قبيل قوله تعالى ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ** ﴾ (الزمر: ٦٨) فلا يدل على خلقها الآن، والبحث فى هذا لا فائدة له، ولا طائل تحته»(١).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٨٣) من سورة البقرة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ...** ﴾ الآية، وجدناه يقول: «... ونحن لا نعلم ما هو الذى فرضه الله على الأمم السابقة من قبل، أهو شهر رمضان كما قال بعض الناس؟ أم غيره؟ وليس لنا ما يهدينا إلى شىء معين من دليل يطمئن إليه القلب، والتشبيه لا يدل على المماثلة فى كل شىء، فنحن نؤمن بأن صومًا فرض على الأمم السابقة، لا نعلم مقداره ولا كيفيته، ولا يزال الصوم معروفًا عند الأمم الأخرى على أوضاع مختلفة...»(٢).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٢) من سورة لقمان ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ...** ﴾ الآية، وجدناه يقول ما نصه: «اختلف الناس فى لقمان هذا من هو؟ ومن أى الأمم هو؟ فقيل: إنه من بنى إسرائيل، وقيل: إنه كان عبدًا حبشيًا، وقيل: إنه أسود من سودان مصر، وقيل: إنه يونانى، ومن الناس من جعله نجارًا، ومنهم من جعله راعى غنم، ومنهم من قال: إنه نبى، ومنهم من قال: إنه حكيم، وكل

---

(١) ص ٢١ من الدروس الدينية لسنة ١٣٥٦هـ، مطبعة وزارة الأوقاف سنة ١٩٣٨.
(٢) الدروس الدينية لسنة ١٣٥٧هـ ص ٦، مطبعة الأزهر سنة ١٩٣٩.

هذه أقوال ليس لها سند يعول عليه، وبعد أنه وصفه الله بالحكمة فلا يرفع من شأنه أنه كان من أشرف الأمم، ولا يضع من قدره أنه كان زنجيًا مملوكًا»[(١)].

عنايته بإظهار أسرار التشريع:

كذلك نجد الأستاذ الأكبر يهتم فى تفسيره اهتمامًا كبيرًا بإظهار سر التشريع الإسلامى، وحكمة التكليف الإلهى؛ ليظهر محاسن الإسلام، ويكشف عن هدايته للناس.

فمثلاً عندما تعرض لآيات الصوم فى سورة البقرة، نجده يفيض فى سر الصوم وحكمته فيقول: «الصيام أحد الأركان الخمسة التى بنى عليها الإسلام، وهو رياضة بدنية، وتهذيب خلقى، وتطهير روحى؛ ذلك أن الاسترسال فى الشهوات، والانغماس فى اللذات حجاب بين الروح وبين الكمالات القدسية والفيض الإلهى، يعوقها عن تلقى الإلهام وعن لذة الاتصال، ولذلك يلجأ أرباب المقامات والعارفون إلى الصوم، كلما أحسوا بعدًا عن الذات الإلهية، وانزعج خاطرهم شوقًا إلى القرب منها».

«وفى الصبر على الحرمان من اللذات التى تنازع إليها النفس، وتقتضيها الطبيعة، تربية للإرادة، وتقوية على المضى فى العزم، وعدم نقض العقد والعهد إذا وسوس الشيطان وزين للنفس الخروج عن العهود؛ لما فيها من المشقات، وفى تقوية الإرادة على هذا النحو إعداد لتلقى التكاليف الإلهية بالقبول والطمأنينة، وتثبيت لملكة المراقبة والخوف من الله، وتقوية لخلق الحياة، وفى هذا كل الخير، وبه تتحقق تقوى الله، وتستعد النفس للسخاء، والبذل والتضحية، إذا دعى الداعى، وحان وقت الفصل بين شجعان الرجال وجبنائهم، وبين كرامهم وأنذالهم».

«وليس يخفى أن كل شىء فى هذه الحياة ممكن، الفقر بعد الغنى، والمرض بعد الصحة، والذلة بعد العز، والنزوح عن الأوطان بعد الطمأنينة فيها، وتغلب الأعداء بعد الغلب عليهم وقهرهم... وما إلى ذلك مما هو بسبيل أن يعرض للإنسان، وعروض هذه الأشياء على نفس مدللة، وجسم مترف، ينام بقدر، ويأكل بقدر، ويمرح فى اللذات بين الأهل والعشيرة، قد يصدمه صدمة لا يقوى على احتمالها، أو يسوق إليه الجزع ويورثه اليأس».

---

(١) تفسير سورة لقمان ص ١٨ مطبعة الأزهر سنة ١٩٤٢م.

«لذلك كله اقتضت حكمة الحكيم العليم، أن يجعل من العبادات ما يروض الأجسام ويهذب الأخلاق، ويطهر الأرواح ويزكيها. . وكان من هذه العبادات الصوم».

«وكما عنى الإسلام بتزكية الأرواح وتهذيب الأخلاق، فقد عنى بتربية الأجسام، وحرم كل ما هو ضار بها، وأباح الطيبات وكل ما هو نافع ومفيد؛ ذلك أن الإسلام يريد رجلاً عاملاً فى الحياة، مهذب الأخلاق، طاهر الأعراق، قويّا لا يهاب الموت، يدفع عن الدين ويدافع عن الوطن، ويذود عن العشيرة، ويريد رجلاً رحيمًا حسن المعاشرة، سلس القياد لأهله، وعشيرته، وبنى وطنه، يريد رجلاً لا تلهيه الدنيا عن الاتصال بالخالق وأداء حقوقه. . . إلخ»[1].

معالجته للمشاكل الاجتماعية:

كذلك نجد الشيخ المراغى ـ رحمه الله ـ يعرض لمشاكل المجتمع وأسباب الانحطاط فى دول الإسلام، فيعالج كل ذلك بما يفيضه الله على قلبه وعقله ولسانه، من هداية القرآن وإرشاده.

ولقد كان الأستاذ ـ رحمه الله ـ بصيرًا بمواطن الداء، وأسباب الشفاء، فكان يهدف فى دروسه إلى علاجها واستئصالها، وكان كثيرًا ما يوجه الخطاب إلى أرباب الحل والعقد فى الدولة ـ وهم غالبية المستمعين له ـ ويلفت أنظارهم إلى ما فى أعناقهم من أمانات، وما عليهم من تبعات، ثم يأخذ بيدهم إلى حيث يكون صلاحهم، وصلاح من تحت إمرتهم ورعايتهم. . . يدفعه فى هذا كله إخلاصه لربه، ولوطنه، ولأمته. . .

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة الشورى: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا**...﴾ الآية، نجده يقول: «. . . والحكمة فى هذه الشرائع الإلهية: أن الإنسان إذا ترك إلى مداركه الحسية ونظرياته العقلية، ضل وكره الحياة، وكان أشقى من أنواع الحيوان، وشقاؤه يكون من ناحية العقل نفسه، فقد دلت التجارب على أن العقل غير المؤيد بالشرع الإلهى يذهب مذاهب شتى، منها الصواب ومنها الضلال، وهو فيما عدا المحسات والماديات ضلاله أكثر من صوابه، وهذه آراء العلماء فى الفلسفة والأخلاق، يشبه بعضها هذيان المحموم، وبعضها لا يدرك له محصل على

(١) الدروس الدينية لسنة ١٩٥٧ هـ ص ٦، ٧.

كثرة ما يقولون من مقدمات وبراهين، وهذه مذاهب الاجتماع قديمها وحديثها، لم تسعد الأمم بها، فلا بد من هداية تصدر عن المعصوم يحملها من عند الله العلى الحكيم، وقد دلت التجارب أيضًا على أن الأمم التى عملت بالهدى كله أو بعضه سعدت بمقدار ذلك الهدى الذى عملت به».

«وأما أنه لولا الدين لما احتمل الإنسان هذه الحياة، فإنها على قصرها مملوءة بالمصائب والويلات، فمن فقر مدقع، إلى مرض مزمن، ومن فقد الأهل والعشيرة، إلى فقد العزة والجاه، ومن شرف رفيع، إلى ذلة ومهانة. . . واحتمال هذا كله إذا لم يكن أمام الإنسان أمل ينتظره، وحياة دائمة فيها سعادة دائمة ليس فى طاقة الإنسان، فالاعتقاد بالآخرة يرفه العيش، ويجعل المؤمن فى سعادة نفسية، ويقويه على احتمال الصعاب، وعلى الصبر على معاشرة الناس، فلا بد من نظام يعتقد فيه العصمة من الخطأ، ويهدر معه حكم العقل إذا حصل تعارض بينهما؛ فإن دائرة العقل محدودة، وهى قاصرة عن إدراك خفايا المستقبل».

«وإذا قيل: إن التدين مقيد للحرية، ومانع من التمتع باللذات، فكيف تكون فيه السلوى والعزاء؟ فالجواب: أن الإسلام أباح الطيبات وحرم الخبائث، ولم يحظر من اللذات إلا ما يضر الإنسان، وليست السعادة فى حرية البهائم، بل فى حرية يسبح بها فيما فيه خيره وسعادته، ويحظر عليه فيها ما فيه ضرره وشقاؤه، وقوام آداب الأمم وفضائلها، التى قامت عليها صروح المدنية الحقة مستند إلى الدين، وبعض العلماء يحاول تحويلها عن أساس الدين، وبناءها على أساس العقل والعلم، غير أنه لا شبهة فى أن الأمم التى تروم هذا التحول تقع فى اضطراب وفوضى لا تعلم عاقبتهما، وليس من الميسور أن تبنى للعامة قواعد الفضيلة على أساس علم الأخلاق، أو أية قاعدة علمية أخرى، ولكن من الميسور دائمًا أن تبنى قواعد الفضيلة على أساس العصمة للدين، فالذى يحاول العلماء: وهم وخيال»(١).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٨٥) من سورة البقرة ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ نجده بعد أن يشرح الآية،

---

(١) الدروس الدينية لسنة ١٣٦٥ هـ ص ٣٤ - ٣٦.

ويذكر ما فى القرآن من هداية يقول: (هذا هو القرآن الذى سعد به المسلمون بحياة روحية هى المثال الأعلى للنفس الإنسانية، وبحياة جثمانية طاهرة بريئة، وبحياة علمية لا يزال ما بقى من نورها يستمتع به الناس، وهو موضع للعجب، ومثار للإكبار والإجلال».

«سعدوا به حقبة، ثم انحرفوا عنه فعاقبهم الله بما هم فيه من ذل وهوان، حتى أصبحوا يخافون تخطف الناس لهم، وصاروا فى حاجة إلى غيرهم فى كل مرافق الحياة، ووصل بهم الجهل إلى حد أن ظنوا أن كل ما عند غيرهم خير يجلب، وكل ما عندهم شر ينبذ، وأنه لا حياة لهم إلا بالقدوة... القدوة حتى فيما علم غيرهم شره وفساده، وحاولوا نبذه وطرحه، وقد أصبح المسلمون مثلاً سيئًا للإسلام، يحتج بهم عليه والدين منهم برىء».

«الدين يطلب رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، رجالاً باعوا أنفسهم، وأموالهم بأن لهم الجنة، رجالاً خلقاء بأن يكونوا خلفاء عن الله فى الأرض، يعلمون سرها، ويسخرونه للخير ودفع الأذى، يدفعون عوادى الزمان بمناكبهم كأنهم بنيان مرصوص، يعرفون للكرامة قدرها، وللعزة موضعها، ويميزون بين الأعداء والأصدقاء، ويعلمون أن متاع الحياة الدنيا قليل، وأن الآخرة خير وأبقى»(١).

وعندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٥) من سورة الحديد: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ...**﴾ الآية وجدناه يقول بعدما شرح الآية: (ذكر الله ـ سبحانه ـ الكتاب والميزان والحديد وقرنها بعضها ببعض، فالكتاب: إشارة إلى الأحكام المقتضية للعدل والإنصاف، والميزان: إشارة إلى سلوك الناس على وفق هذه الأحكام، والحديد: إشارة إلى ما يحملهم على اتباع هذه الأحكام إذا تمردوا «والله سبحانه ـ وهو العليم الحكيم ـ لا يضع للخلق من القوانين إلا ما فيه مصلحتهم وخيار الخلق تكفيهم تلاوة الكتاب وعلمه لاتباع ما فيه، وغيرهم لا بد له من وازع، وهو سلطان الحاكم المشار

---

(١) الدروس الدينية لسنة ١٤٥٧ هـ ص ١٥، ١٦.

إليه بالحديد، ولذلك وجدت التعاذير فى الإسلام، ووجدت الحدود، أما ترك الناس أحرارًا من غير وازع، فهو ضار بالمجتمع الإنسانى، وموجب للتراخى فى إقامة العدل واتباع القانون، جرب هذا فى العصور المختلفة، وقامت الشواهد الناطقة فى العصر الحديث عليه، وعلم أن الأمم التى لم تحط أخلاقها بوازع؛ انحدرت إلى الدرك الأسفل وأضلتها الشهوات، وقد كانت درة عمر سلكًا قويًا للنظام الإسلامى فلما رفعت ضعف ذلك الرباط»[(١)].

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة لقمان ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ...** ﴾ الآية، نجده يقول: «... من الناس فريق مؤمن بالقرآن إجمالاً وبرسالة محمد، ويعظمهما ويجلهما فإذا قلت له: لم لا تقطع يد السارق؟ وتحد القاذف؟ ولم لا تحكم القرآن فى الحياة ونحن مؤمنون به؟ هز كتفيه وابتسم؛ أو زاد: إنها رجعية لا يحتملها تمدين العصر الحديث!!... أليس هذا استهزاءً بالآيات؟ واشتراءً للباطل؟ وضلالاً عن سبيل الله؟».

«هناك مقلدون للمذاهب فى العقائد والأحكام، إذا عرضت عليهم الآيات الدالة على فساد مذاهبم، ولوا عنها وإن كانوا لا يسخرون بها؛ بل يسخرون بمن يعرضها، أليس هذا شراء للباطل وبيعًا للحق بغير علم؟».

«هناك مذاهب ابتدعت فى الدين للضلال والإضلال بسبب السياسة، وفسر مبتدعوها الآيات فى التأويل ليردوها إلى مذاهبهم المبتدعة وجاء أتباعهم فقلدوهم».

«أما المبتدعون فأمرهم واضح... اشتروا الضلالة بالهدى!!».

«وأما الأتباع فكان عليهم أن ينظروا فى الآيات ويتدبروها عملاً بقوله سبحانه ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ (**النساء: ٥٩**) فهم أيضًا اشتروا الضلالة بالهدى ولهم بعض العذر...»[(٢)].

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة الحجرات ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ** ﴾ الآية، نجده يقول: «... وللتثبيت فى الأخبار فضيلة ليست

---

(١) تفسير سورة الحديد ص ٤٢، ٤٣.

(٢) تفسير سورة لقمان ص ٩، ١٠.

كثيرة عند الناس، وأكثر الناس يقعون فى تصديق الأخبار من حيث لا يشعرون، ولبعض مهرة الكاذبين حيل تخفى على أشد الناس تثبيتًا من الأخبار).

(وكثيراً ما يقع عدم التثبيت من العظماء الذين يملكون النفع والضرر يجيئهم ذلك: من ناحية استبعاد أن يكذب بطانتهم عليهم وهو مدخل للخطر عظيم).

(والذين هم فى أشد الحاجة إلى العمل بهذه الآية هم الذين بيدهم مقاليد الأمور؟ وبيدهم الضر والنفع، أما الذين لا يملكون ضراً ولا نفعًا فحاجتهم إليها أقل من حاجة هؤلاء).

(والآية على العموم: أدب عظيم لا بد منه لتكميل النفس، وإعدادها لتعرف الحق والبعد عن مواطن الباطل...) (١).

توفيقه بين القرآن والعلم الحديث:

هذا، وإن الأستاذ المراغى ـ رحمه الله ـ كان مع اعتقاده أن القرآن قد أتى بأصول عامة، لكل ما يهم الإنسان معرفته والعلم به، يكره أن يسلك المفسر للقرآن مسلك من يجر الآية القرآنية إلى العلوم، أو العلوم إلى الآية، كى يفسرها تفسيراً علميّا يتفق مع نظريات العلم الحديث.

نعم... كره الشيخ هذا المسلك فى التفسير، وجهر بخطأ أصحاب المولعين به، وكرر هذا فى مواضع كثيرة، فكان مما قاله فى بعض المواضع من دروسه فى التفسير: (وجد الخلاف بين المسلمين فى العقائد والأحكام الفقهية، ووجد عندهم مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع إليها، وتأويله لبعض النظريات العلمية التى لم يقر قرارها، وذلك خطر عظيم على الكتاب، فإن للفلاسفة أوهامًا لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى، والنظريات التى لم تستقر لا يصح أن يرد إليها كتاب الله) (٢).

ولكن الأستاذ المراغى مع هذا كله كان يرى أن يكون مفسر كتاب الله على شىء من العلم ببعض نظريات العلم الحديث، ليستطيع أن يأخذ منها دليلاً على قدرة الله، ويستلهم منها مكان العبرة والعظة.

كان الشيخ يرى هذا، ويعتقد أنه هو المسلك السليم لفهم القرآن الكريم، فجهر به

---

(١) تفسير سورة الحجرات ص ١١.

(٢) الدروس الدينية لسنة ١٣٥٦ هـ ص ٤٢.

فى أحد دروسه فـى التفسير فـقال: «ليس من غرض مـفسر كتاب الله أن يشـرح عالم السموات، ومادته وأبعاده، وأقداره، وأوزانه؟ لكنه يجب أن يلم بطرف يسير منه، ليدل به على القدرة الإلهية ويشير إليه للعظة والاعتبار»(١).

ثم وجدنا الأسـتاذ المراغى بعـد هذا يشرح قوله تعـالى فى الآية (١٠) من سورة لقمان ﴿ **خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ** ﴾ شرحًا يقوم على هذا المبدأ الذى ارتضاه فقال: «﴿ **خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** ﴾ السموات مجموع ما نراه فى الفضاء فوقنا من سـيارات؛ ونجوم وسدائم وهى مرتبة بعـضها فوق بعض تطوف دائرة فى الفضاء، كل شىء منـها فى مكانه المقدر له بالناموس الإلـهى ونظام الجاذبية، ولا يمكن أن يكون لها عمد والله هو ممسكها ومـجريها إلى الأجل المقدر لها، فإذا قيل: إن نظام الجاذبية وهو الناموس الإلهى قائم مقـام العمد ويطلق عليه اسم العمد جاز أن نقول: إن لها عمدًا غير منظورة وإذا لاحظنا أنه لا يوجد شىء مادى تعتمد عليه، وجب أن نقول: إنه لا عمد لها، وأقدار الأجرام السماوية وأوزانها فدار وأوزان لا عهد لأهل الأرض بهـا والأرض نفسـهـا إذا قيـست بهـذه الأجرام لـيست إلا هبـاءة دقـيقـة فى الفضاء... ثم قال: قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءًا من السموات وانفصلت عنها وقرر الكتاب الكريم أن الله ﴿ **اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ** ﴾ (فـصلت: ١١) وهذا الذى قرره الكتـاب الكريم هو الذى دل عليه الـعلم وقد قال العلمـاء: إن حادثًا كـونيًا جذب قـطعة من الشـمس وفصلهـا عنها وإن هذه القطعـة بعد أن مـرت عليهـا أطوار تكسرت وصارت قطعًا كل قطعة منها صارت سيارًا من السيارات وهذه السيارات طافت حول الشـمس وبقيت فى قبـضة جذبتهـا والأرض واحدة من هذه السيـارات فهى بنت الشمس، والشمس هى المركز لكل هذه السيارات... فليست الأرض هى مركز العالم كمـا ظنه الأقدمون، بل الشـمس هى مركز هذه المـجموعـة والشمس وتوابعهـا قوى صغيرة فى العالم السـماوى، وأين هى من الشعرى اليمانية التى قال الله سبـحانه فيها: ﴿ **وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ** ﴾ (النـجم: ٤٩) فهذا النجم قدرته على إشعاع الضوء تساوى قوة

---

(١) تفسير سورة لقمان ص ١٣، ١٤.

الشمس (٢٦) مرة، وقدرته على إشعاع الحرارة مثل قدرته على إشعاع الضوء، فلو فرض أن الشعرى اليمانية حلت محل الشمس يومًا من الأيام، لانتهت الحياة فجأة؛ بغليان الأنهار، والمحيطات والقارات الجليدية، التى حول القطبين، وضوء الشعرى اليمانية يصل إلينا بعد ثمان سنوات، وضوء الشمس يصل إلينا بعد ثمان دقائق، فانظر إلى هذا البعد السحيق».

«وليست الشعرى اليمانية أكبر نجم فى السماء، فهناك بعض النجوم قدرتها تزيد على قدرة الشعرى أكثر من عشرة آلاف مرة».

«وعظمة السماء ليست فى الشمس وتوابعها، كلا . . . إن عظمتها فى مدنها النجومية، فى أقدارها، وأوزانها وأضوائها، وأبعادها، على اختلاف أنواعها».

«وهناك نجم يسمى الميرة أكبر من شمسنا بما يزيد عن ثلاثين مليونًا من المرات، وهناك السدائم، وهى قريبة من الخلق أول الأمر، ثم يقف علم الإنسان، والله تعالى وحده الذى يعلم خلقه ﴿ **مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ** ﴾ **(الكهف: ٥١)**.

﴿ **وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ** ﴾ أى خلق الجبال فى الأرض لئلا تميد الأرض وتضطرب، ولبيان هذا يمكن أن نقول باختصار: إن الأرض بعد انفصالها عن الشمس، وعكوفها على الدوران حولها على بعد منها، وصلت بعض موادها إلى حالة السيولة بعد أن كانت مواد ملتهبة كالشمس، وتكونت عليها قشرة صلبة بعد تتابع انخفاض الحرارة أحاطت بما فى جوفها من الموراد المنصهرة، ثم تتابعت البرودة على القشرة فتجعدت، وحدث من التجعد نتوءات وأغوار، فالجبال الأولى نتوء القشرة الصلبة التى غلفت الأرض، وهناك جبال جدت عن اشتداد الضغط فى الرواسب التى فى قاع البحر، وجبال نارية جدت من خروج الحمم النارية من وسط الأرض وتداخلها فى الطبقات، حتى صارت كأوتاد مغروزة فيها».

«والجبال كلها تتحمل الضغوط الرسوبية على جدرانها، وتوزعها، وتغير اتجاهها، وتكسر حدتها، وتساعد بذلك على بقاء الطبقة المفككة الصالحة للإنبات، والتى يتغذى بواسطتها الحيوان والإنسان، وتحفظها من أن تمور».

«فالجبال أولاً حبست النار فى جـوف الأرض، وصيرت الأرض بعد ذلك صالحة للحياة، والجبـال توزع ضغوط الطبقات، ثم بعد ذلك تكسـر حدة العواصف والرياح، فهى حـافظة للأرض من الميدان الذى يجىء بأسـباب من داخل الأرض، والذى يجىء بسبب العواصف والرياح. . .» وهكذا مشى الشيخ إلى آخر الآية[(١)].

حرية الرأى فى تفسيره:

ثم إن الشيخ المراغـى ـ رحمه الله ـ كان كغـيره من رجال هذه المدرسة لا يتـقيد بأقوال الأئمة، ولا يقف عند مذهب مخصوص، ولا يقول برأى معين إلا إذا اقتنع به، وإلا فلا عليه أن يتركه إلى ما هو صواب فى نظره.

فمثلاً عندما تعرض لقـوله تعالى فى الآية (١٨٤) من سورة البقرة: ﴿ .... **فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**... ﴾ نجده يقـول بعد أن يذكـر خلاف علماء الفقه فى السفر المـبيح للفطر: «وقد روى أحمد ومسلم وأبو داود عن أنس: أن رسول الله ﷺ كان يقصر الصلاة مسـيرة ثلاثة أميال، وروى عن ابن أبى شيبة بإسناد صحيح أنه كان يقصر فى الميل الواحد، وإذا نظرنا إلى أن نص القرآن مطلق، وأن كل ما رواه فى التخصيص أخبار آحاد، وأنهم لم يتـفقوا فى التخصيص، جاز لنا أن نقول: إن السفر مطلقًا مبيح للفطر، وهذا رأى داود وغيره من الأئمة»[(٢)].

ومثلاً عندما تعرض لقـوله تعالى فى الآية (٢٧) من سورة لقمان: ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ** ﴾ الآية، نجده بعد أن يبين أن عدد السبعة فى الآية مراد به الكثرة يقول: «وعلى هذا يمكن أن يقال فى أبواب النار، أما الأبواب الثمـانية للجنة، فقد أريد بالزيادة فـيها على النار أن يدل على أن مسالكها أكثر من مسالك النار؛ لراحة أهلها، وزيادة العناية بهم».

(وكذلك يقال فى السموات السبع والأرضين السبع، والعرب تذكر السبعة للكثرة، وتذكر السبعين للكثرة كذلك، ومنه ﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** ﴾ (التوبة: ٨٠) ومن المعلوم أن الله لا يغفر لهم فى السبعين، ولا فى

---

(١) تفسير سورة لقمان ص ١٣ - ١٥.

(٢) الدروس الدينية لسنة ١٣٥٧ هـ ص ١١.

السبعة الآلاف، ونظيره ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (الحاقة: ٣٢) يراد فى سلسلة طويلة هائلة، ولا يراد التقدير بهذا العدد»[١] والواقع أن هناك فرقًا بين ما ورد من نحو قوله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ..﴾ إلخ، وقوله: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ وبين ما ورد فى عدة أبواب الجنة والنار، وعدة السموات والأرض، فإن الأول ذكر فى مقام التهويل، فلا يراد التحديد وإنما يراد الكثرة، بخلاف الثانى فإنه ليس كذلك.

ومثلاً نجد الأستاذ المراغى فى دروسه الأخيرة عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٥) من سورة الملك ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ...﴾ الآية، يشرح كون النجوم رجومًا للشياطين بما معناه: «أن ما فى السماء من النجوم دلائل قاطعة على تمام قدرة الله تعالى، فالله سبحانه وتعالى زين السماء الدنيا بهذه الكواكب، وجعلها على هيئات مخصوصة ونظام محكم، لتكون حججًا دامغة، وأدلة قوية على من يجحدون قدرة الله وينكرون وجوده» سمعناه يقول ما هذا معناه، ثم يستدل على ما ذهب إليه بأنهم يقولون: (ألقمته حجرًا) يعنى أقمت عليه الحجة فلم يحر جوابًا، ثم يستشعر الشيخ بعد ذلك أن فى القرآن آيات كثيرة تصادم هذا الفهم، كقوله تعالى فى الآيات (٦ - ١٠) من سورة الصافات ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ وكقوله فى الآيتين (٨، ٩) من سورة الجن ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ يستشعر الشيخ مصادمة هذه الآيات لرأيه فيقول ما معناه: «وهناك آيات أخرى فى هذا المقام، تبدو مخالفة لهذا المعنى، ولكن يمكن حملها عليه، وليس فى الوقت متسع لذلك، وسنعرض لها فى موضع غير هذا».

ولست أدرى كيف كان يستطيع الشيخ ـ رحمه الله ـ أن يحمل كل الآيات الواردة فى هذا الموضوع على المعنى الذى قاله حملاً صحيحًا، وهى كما ترى صريحة فى أن الشياطين كانوا يصعدون إلى السماء ويسترقون السمع، ثم منعوا من ذلك عند رسالة

(١) تفسير سورة لقمان ص ٣٦.

محمد ﷺ، فمن حاول منهم استراق السمع - كما كانوا يفعلون من قبل - رمى بشهاب من السماء فحال بينه وبين ما يريد.

وخاتمة المطاف فى هذه الدروس التى ألقاها الأستاذ الأكبر فى التفسير: أنه كان منها - كما قيل - أمران عظيمان لهما خطرهما فى الحياة الدينية: كانت عاملاً قويّا فى توجيه المسلمين ونشئهم الطيب الظاهر إلى الجانب الدينى، ولفت أنظارهم إلى ما فى كتاب الله من تشريع حكيم، وأدب جم كريم، وإرشاد قيم مفيد فحببت إليهم الدين، وزينته فى قلوبهم، وهرعوا إليه يتعرفون حكمه، وأحكامه ويتلمسون بها حياة طيبة ونهضة قوية، أساسها الدين والخلق الكريم.

وكانت هذه الدروس أيضًا: منار هدى وإرشاد، يلقى أشعته الوضاءة على عقول المشتغلين بتفسير القرآن، فيضىء لهم الطريق الذى ينبغى أن يسلكوه فى فهم كتاب الله، واستخلاص آدابه وأحكامه، خالصة مما جاورها من إسرائيليات وتأويلات أبعدت أهل الدين عن الدين، وشغلتهم فى تفسير القرآن بما لا يمت إلى روحه ومعناه، وكذلك صورت الدين لغير أهله الذين يتحسسون له عيبًا صورة لا تتفق وما له من جلال وجمال[(١)].

هذا... وإنا لنرجو للشيخ المراغى عند ربه ما كان يرجوه هو لنفسه من وراء مجهوده فى التفسير وهو:

(أن يضعه الله سبحانه فى كفة الحسنات من ميزان أعماله، وأن يجعلها ضياء ونورًا يسعى بين يديه ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم**﴾ (الحديد: ١٢)).

* * *

---

(١) مقدمة الشيخ شلتوت لتفسير سورة الحجرات للشيخ المراغى.

رجـــــاء واعتـــــذار

وبعد... فهذا ما يسره الله لى وأعاننى عليه، ولعلى أكون وقد طوفت بالقارئ الكريم فى نواح شتى من مناهج التفسير، وأخذت بيده إلى حيث أطلعته على ألوان مختلفة منه، من مبدأ نزول القرآن إلى عصرنا هذا، وكشفت له عن طرائق القوم فى فهمهم لنصوص كتاب الله، وأريته كيف حاول كل ذى نحلة أن يقيم نحلته على أساس من القرآن، وكيف تحايل على فهم آياته، وتصرف فى تأويل عبارته، كل من حاول أن يجعل القرآن شاهدًا له، ودليلاً على ما يهدف إليه، من حق تبلج، أو باطل تلجلج... لعلى بعد هذا كله أكون قد أرضيت عشاق التفسير خاصة، وأهل العلم عامة، وحققت رغبة طالما ترددت فى صدورهم، وقضيت حاجة كثيرًا ما تطلعت لها نفوسهم، واشرأبت إليها أعناقهم.

ولعلى بعد ذلك أن لا أكون قد أسأمت القارئ الكريم، من طول دعتنى إليه ضرورة البحث، ودفعتنى إليه رغبة الاستيفاء والاستقصاء.

واعتقادى ـ رغم هذا الطول ـ أن فى هذا البحث تركيزًا كبيرًا، واختصارًا كثيرًا، إذ أن كل موضوع من موضوعات هذا الكتاب يصلح لأن يكون كتابًا وحده، وكتابًا موسعًا مسهبًا.

وأرجو أن يهيئ الله لى رشدًا من أمرى، ومتسعًا من وقتى، لأجعل من هذا الكتاب كتبًا متعددة، فيها إسهاب أوسع من هذا الإسهاب، واستيفاء أشمل من هذا الاستيفاء.

وحسبى بهذا العمل الذى يعتبر باكورة عملى فى التأليف أن أكون قدمت إلى المكتبة الإسلامية بحثًا فيه جدة وطرافة، وفيه متعة علمية، ولذة روحية تستهوى القارئ، وتستحوذ على مشاعره وحسه.

حسبى هذا، حسبى وأن أكون قد أرضيت رغبتى العلمية؛ التى لم آل فى إرضائها جهدًا، ولم أدخر فى إشباعها وسعًا، فإن رضى الناس بعد ذلك، فذلك من فضل الله، وإن كانت الأخرى؛ فذلك هو جهد المقل، وطاقة الناشئ، الذى لا يزال يرقب من وراء الغيب أملاً فسيحًا، وكمالاً صريحًا.

هذا... ولا يفوتنى أن أعتذر إلى القارئ الكريم عما قد يكون فى هذا الكتاب من أخطاء هينة لا تخـفى على فطانته، ولا تدق عن إدراكـه، فإن مر بهـا فرجـائى إليه أن يتلمس لهـا عذرًا، وأن يصـححهـا مشكورًا، وتلك شـيمـة الكرام أهل الخلق الطاهر والأدب الحميد، وأن لا يكون ممن قال فيهم الشاعر:

فـإن رأوا زلـة طاروا بهـا فــرحًـا

عنى ومـا وجدوا من صـالح دفنوا

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل عـملى هذا خالصًا لوجهه، وأن ينفع به أناسًا أخلصوا قلوبهم لله، وأن ينفعنى به فى دنياى وآخرتى، وأن يحـقق لى به ما تصبو إليه نفسى، وتسمو إليه همتى... والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصـحابه وسلم، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

محمد حسين الذهبى

حدائق حلوان فى عصر الجمعة الموافق

١٩ من ربيع الثانى سنه ١٣٨١هـ.

الموافق: ٢٩ من سبتمر سنة ١٩٦١م.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــوع الصفحة

الموضــــــــوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضـــــــــــوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الثامن

التفسير العلمى

الموضـــــــــوع الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

انتهى بحمد الله تعالى

المراجـــــــع

كتب التفسير بالمأثور:

١ - جامع البيان، فى تفسير القرآن: ابن جرير الطبرى، الأميرية ١٣٢٣هـ.

٢- بحر العلوم: أبو الليث السمرقندى، بعض نسخه مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (٣).

٣- الكشف والبيان عن تفسير القرآن: أبو إسحاق الثعلبى، بعض نسخه مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٣٦) ٥٥٦١.

٤- معالم التنزيل: الحسين بن مسعود البغدادى، المنار ١٣٤٥هـ.

٥- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية الأندلسى، بعض نسخه مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ١٠ و ٣٥٦.

٦- تفسير القرآن العظيم لابن كثير: للحافظ عماد الدين ابن كثير، التجارية (مصطفى محمد) ١٣٥٦هـ.

٧- الجواهر الحسان: عبد الرحمن الثعالبى، طبع الجزائر ١٣٢٣هـ.

٨- الدر المنثور: جلال الدين السيوطى، الميمنية ١٣١٤هـ.

٩- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: أبو طاهر الفيروزابادى الأزهرية ١٣٤٤هـ.

كتب التفسير بالرأى المحمود:

١ - مفاتيح الغيب: الفخر الرازى، الأميرية ١٢٨٩هـ.

٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوى، دار الكتب العربية ١٣٣٠هـ.

٣ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل: النسفى، السعادة ١٣٢٦هـ.

٤ - لباب التأويل فى معانى التنزيل: الخازن، التقدم ١٣٢١هـ.

٥ - البحر المحيط: أبو حيان، السعادة ١٣٢٨هـ.

٦ - تفسير الجلالين: الجلال المحلى والجلال السيوطى، دار إحياء الكتب ١٣٤٥هـ.

٧ - غرائب القرآن ورغائب الفرقان: النيسابورى، الأميرية ١٣٢٣هـ.

٨ - السراج المنير: الخطيب الشربينى، الأميرية ١٢٩٩هـ.

٩ - إرشاد العقل السليم: أبو السعود، المصرية ١٣٤٧هـ.

١٠- روح المعانى: الآلوسى، إدارة الطباعة المنيرية الطبعة الأخيرة.

كتب تفسير المعتزلة:

١- تنزيه القرآن عن المطاعن: القاضى عبد الجبار، الجمالية ١٣٢٩هـ.

٢- أمالى الشريف المرتضى: الشريف المرتضى، السعادة ١٣٢٥هـ.

٣- الكشاف: الزمخشرى، مطبعة محمد مصطفى ١٣٠٨هـ.

كتب تفسير الإمامية الاثنى عشرية:

١- مقدمة مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار: عبد اللطيف الكازرانى، طبع العجم ١٣٠٣هـ.

٢- تفسير العسكرى: الحسن العسكرى، طبع تبريز ١٣١٤هـ.

٣- مجمع البيان: أبو على الطبرى، طبع طهران ١٣١٤هـ.

٤- الصافى: ملا محسن الكاشى، طبع فارس ١٢٤٤هـ.

٥- تفسير القرآن: السيد عبد الله العلوى، طبع طهران ١٣٥٢هـ.

٦- بيان السعادة: سلطان الخراسانى، طبع طهران ١٣١٤هـ.

كتب تفسير الزيدية:

١- فتح القدير: الشوكانى، مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٤٩هـ.

كتب تفسير الخوارج:

١- هميان الزاد إلى دار المعاد: محمد إسفيش، طبع زنجبار ١٣١٤هـ

تفاسير الصوفية:

١- تفسير القرآن الكريم: سهل التسترى، السعادة ١٩٠٨هـ.

٢- حقائق التفسير: أبو عبد الرحمن السلمى، نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٠٩٣).

٣- عرائس البيان فى حقائق القرآن: أبو محمد روزبهان، طبع الهند ١٣١٥هـ.

٤- التأويلات النجمية: نجم الدين داية وعلاء الدولة البيانانكى، نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٦م.

٥- تفسير ابن عربى (تأويلات القاشانى): عبد الرزاق القاشانى، الأميرية ١٢٨٣هـ.

تفاسير الفقهاء:

١- أحكام القرآن (حنفى): الجصاص، البهية المصرية ١٣٤٧هـ.

٢- أحكام القرآن (شافعى): الكيا الهراسى، نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (٣٩٨) ٧٨٦٦.

٣- الإكليل فى استنباط التنزيل (شافعى): الجلال السيوطى، نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٧٨٥) بخيت.

٤- أحكام القرآن (مالكى): أبو بكر بن العربى، السعادة ١٣٣١هـ.

٥- الجامع لأحكام القرآن (مالكى): القرطبى، دار الكتب ١٩٣٥ - ١٩٤٥م.

٦- **كنز العرفان فى فقه القرآن (اثنا عشرى)**: مقداد السيورى، طبع تبريز ١٣١٤هـ.
٧- **الثمرات اليانعة (زيدى)**: الفقيه يوسف الثلاثى، نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (٤١)م.

كتب التفسير فى العصر الحديث:

١- **الجواهر فى تفسير القرآن الحكيم**: طنطاوى جوهرى، مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٤٠ - ١٣٥١هـ.
٢- **الهداية والعرفان**: أبو زيد الدمنهورى، مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٤٩هـ.
٣- **تفسير جزء (عم)**: الشيخ محمد عبده، مطبعة مصر ١٣٤١هـ.
٤- **تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن**: الشيخ محمد عبده، والشيخ رشيد رضا، المنار ١٣٥٣هـ.
٥- **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**: السيد محمد رشيد رضا، المنار ١٣٤٦هـ.
٦- **الدروس الدينية**: الشيخ محمد مصطفى المراغى، مطبعة الأزهر ١٣٥٦ - ١٣٦٤هـ.

علوم القرآن:

١ - **مقدمة التفسير**: الراغب الأصفهانى، الجمالية ١٣٢٩هـ.
٢ - **مقدمة فى أصول التفسير**: ابن تيمية، الترقى بدمشق ١٩٣٩م.
٣ - **جواهر القرآن**: الغزالى، كردستان العلمية ١٣٢٩م.
٤ - **الإتقان**: الجلال السيوطى، مطبعة مصطفى الحلبى ١٩٣٥م.
٥ - **الفوز الكبير فى أصول التفسير**: ولى الله الدهلوى، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٦هـ.
٦ - **مبادئ التفسير**: محمد الخضرى الدمياطى، النيل ١٣٢١هـ.
٧ - **المدخل المنير**: محمد حسنين مخلوف العدوى، مطبعة المعاهد ١٣٥١هـ.
٨ - **التفصيل فى الفرق بين التفسير والتأويل**: حامد العمادى، نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٣٤٤٤ مجاميع.
٩ - **التفسير ـ معالم حياته ـ منهجه اليوم**: أمين الخولى، دار المعلمين للطبع والنشر ١٩٤٤م.
١٠- **المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن الكريم (جزء أول)**: جولد زيهر تعريب على حسن عبد القادر، العلوم ١٩٤٤م.
١١- **إعجاز القران**: مصطفى صادق الرافعى، الاستقامة ١٩٤٠م.
١٢- **منهج الفرقان**: محمد أبو سلامة، مطبعة شبرا ١٩٣٨م.
١٣- **مناهل العرفان**: عبد العظيم الزرقانى، مطبعة شبرا ١٣٥٩هـ.

كتب الحديث وعلومه:

١ - صحيح البخارى: أبو عبد الله البخارى، الخيرية ١٣٢٠هـ.

٢ - صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج، الأميرية ١٣٢٥هـ.

٣ - سنن الترمذى: أبو عيسى الترمذى، الأميرية ١٢٩٢هـ.

٤ - مسند الإمام أحمد: الإمام أحمد بن حنبل، الميمنية ١٣١٣هـ.

٥ - نيل الأوطار: الشوكانى، العثمانية ١٣٥٧هـ.

٦ - فتح البارى شرح البخارى: ابن حجر العسقلانى، الخيرية ١٣١٩هـ.

٧ - إرشاد السارى شرح البخارى: القسطلانى، الأميرية ١٣٢٥هـ.

٨ - شرح صحيح مسلم: محيى الدين النووى، الأميرية ١٣٢٥هـ.

٩ - تأويل مختلف الحديث: ابن قتيبة، كردستان ١٣٢٦هـ.

١٠ - منهاج السنة: ابن تيمية، الأميرية ١٣٢٣هـ.

١١ - معرفة علوم الحديث: الحاكم النيسابورى، دار الكتب المصرية ١٩٣٧هـ.

١٢ - مقدمة ابن الصلاح: أبو عمر بن الصلاح، طبع الهند ١٣٥٧هـ.

١٣ - تدريب الراوى: الجلال السيوطى، الخيرية ١٣٠٧هـ.

١٤ - هدى السارى مقدمة فتح البارى: ابن حجر العسقلانى، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٧هـ.

١٥ - الأسلوب الحديث: أمين الشيخ، مطبعة شبرا ١٩٤٠م.

كتب اللغة:

١ - القاموس المحيط: مجد الدين الفيروزابادى، المصرية ١٩٣٥م.

٢ - تاج العروس شرح القاموس: السيد مرتضى الزبيدى، الخيرية ١٣٠٦هـ.

٣ - لسان العرب: ابن منظور، الأميرية ١٣٠٢هـ.

٤ - أساس البلاغة: الزمخشرى، الأميرية ١٣٢٧هـ.

كتب الفقه والأصول:

١ - فتاوى ابن تيمية: ابن تيمية، كردستان العلمية ١٣٢٩هـ.

٢ - أعلام الموقعين: ابن القيم، مطبعة فرج الله الكردى ١٣٢٥هـ.

٣ - الموافقات: أبو إسحاق الشاطبى، مطبعة المكتبة التجارية، الطبعة الأخيرة.

٤ - المستصفى: أبو حامد الغزالى، الأميرية ١٣٢٤هـ.

٥ - مسلم الثبوت وشرحه: محب الله عبد الشكور وعبد العلى الأنصارى، الأميرية ١٣٢٤هـ.

٦ - شرح التلويح: سعد الدين التفتازانى، دار الكتب العربية ١٣٢٧هـ.

٧- جمع الجوامع وشرحه: ابن السبكى، والجلال المحلى، الأزهرية ١٢٣١هـ.

كتب التاريخ والرجال:

١ - الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن على العسقلانى، الشرقية ١٩٠٧م.
٢ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة: ابن الأثير الجزرى، الوهبية ١٢٨٠هـ.
٣ - تهذيب التهذيب: ابن حجر العسقلانى طبع الهند ١٣٢٥هـ.
٤ - ميزان الاعتدال: الحافظ الذهبى، السعادة ١٣٢٥هـ.
٥ - لسان الميزان: ابن حجر العسقلانى، طبع الهند ١٣٣١هـ.
٦ - خلاصة تذهيب الكمال: صفى الدين الخزرجى، الخيرية ١٣٢٢هـ.
٧ - طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين السبكى، الحسينية الطبعة الأولى.
٨ - الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب: ابن فرحون السعادة ١٣٢٩هـ.
٩ - نيل الابتهاج: أحمد بابا التبنكى اسلعادة ١٣٢٩هـ.
١٠- الفوائد البهية فى تراجم الحنفية: محمد اللكنوى، السعادة ١٣٢٤هـ.
١١- الفهرست: ابن النديم: الرحمانية ١٣٤٨هـ.
١٢- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: شمس الدين السخاوى، مطبعة القدسى ١٣٥٥هـ.
١٣- شذرات الذهب: عبد الحى بن العماد، مطبعة القدسى، ١٣٥٠هـ.
١٤- مروج الذهب: أبو الحسن المسعودى، البهية ١٣٤٦هـ.
١٥- مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون، الشرفية ١٣٢٧هـ.
١٦- طبقات المفسرين: الجلال السيوطى، طبع ليدن ١٨٣٩م.
١٧- طبقات المفسرين: الداودى، نسخة مخطوطة بدار الكتب نمرة ١٦٨.
١٨- تهذيب الأسماء واللغات: محيى الدين النووى، إدارة الطباعة المنيرية الطبعة الأخيرة.
١٩- وفيات الأعيان: ابن خلكان، الأميرية ١٢٩٩هـ.
٢٠- فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبى، الأميرية ١٢٨٣هـ.
٢١- العقد المنظوم فى ذكر أفاضل الروم: على بن لالى بالى، الميمنية ١٣١٠هـ.
٢٢- معجم الأدباء: ياقوت الحموى، مطبعة عيسى الحلبى ١٩٣٦م.
٢٣- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلانى، طبع الهند ١٣٤٨هـ.
٢٤- روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات: محمد باقر الموسى، طبع فارس ١٣٠٧هـ.
٢٥- بغية الوعاة فى طبقات النحاة: الجلال السيوطى، السعادة ١٣٢٦هـ.

٢٦- أعيان الشيعة: السيد محمد الأمين الحسينى، مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٢٥٣هـ.
٢٧- ترجمة الرجال المذكورة فى شرح الأزهار: أحمد بن عبد الله الجندارى التمدن ١٣٣٢هـ.
٢٨- تاريخ التشريع الإسلامى: محمد (بك) الخضرى مطبعة عيسى الحلبى ١٩٣٠م.
٢٩- مذكرة تاريخ التشريع الإسلامى: السبكى، السايس، البربرى، وادى الملوك ١٩٣٦م.
٣٠- نظرة عامة فى تاريخ التشريع الإسلامى: على حسن عبد القادر، العلوم ١٩٤٢م.
٣١- تاريخ الجدل: محمد أبو زهرة، العلوم ١٩٣٤م.

كتب التوحيد والملل والنحل:

١ - الفرق بين الفرق: أبو منصور البغدادى، المعارف ١٣٢٨هـ.
٢ - التبصير فى الدين: أبو المظفر الإسفرايينى، الأنوار ١٩٤٠م.
٣ - شرح المواقف: السيد الشريف، السعادة ١٩٠٧م.
٤ - تبيين كذب المفترى: ابن عساكر، مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧هـ.
٥ - إيثار الحق على الخلق: أبو عبد الله اليمانى، الآداب ١٣١٨هـ.
٦ - شرح العقائد النسفية: سعد الدين التفتازانى، مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٢١هـ.
٧ - الإكليل فى المتشابه والتنزيل ضمن مجموعة الرسائل الكبرى: ابن تيمية العامرة الشرفية ١٣٢٣هـ.
٨ - الفصل: على بن حزم، الأدبية ١٣٢٠هـ.
٩ - الملل والنحل: محمد الشهرستانى، الأدبية ١٣٢٠هـ.
١٠- كشف أسرار الباطنية: محمد بن مالك اليمانى، الأنوار ١٣٥٧هـ.
١١- فضائح الباطنية: أبو حامد الغزالى، طبع ليدن ١٩١٦م.
١٢- تعريف الشيعة: عبد الرزاق الحسنى، العرفان ١٣٥٢هـ.
١٣- الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة: موسى جاد الله، الشرق ١٣٥٥هـ.
١٤- كتاب بهاء الله: بهاء الله، السعادة ١٩٢٠م.
١٥- رسائل أبى الفضائل: أبو الفضائل الإيرانى، السعادة ١٩٢٠م.
١٦- مفتاح باب الأبواب: ميرزا محمد مهدى خان المنار ١٣٢١هـ.
١٧- خطابات ومحادثات عبد البهاء: عبد البهاء عباس جمع ع ج س، السعادة ١٩٢٠م.
١٨- المبادئ البهائية: معرب عن مجلة كوكب الغرب الأمريكية رعمسيس ١٩٢١م.
١٩- الحجج البهية: أبو الفضائل الإيرانى، السعادة ١٩٢٥م.

٢٠- محاضرة عن البهائية: عبد العزيز نصحى، السلفية ١٣٥٢هـ.

كتب التصوف:

١- الفتوحات المكية: ابن عربى، دار الكتب العربية ١٣٢٩هـ.
٢- الفصوص: بن عربى، الزمان ١٣٠٤هـ.
٣- إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالى، مطبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية ١٣٥٦هـ.
٤- تلبيس إبليس: ابن الجوزى، النهضة ١٩٢٨م.

كتب الفلسفة:

١- رسائل إخوان الصفا: إخوان الصفا، الآداب ١٣٠٦هـ.
٢- فصوص الحكم: الفارابى، السعادة ١٩٠٧م.
٣- رسائل ابن سينا: أبو على بن سينا، مطبعة هندية ١٩٠٨م.
٤- جامع البدائع: ابن سينا، السعادة ١٩١٧م.
٥- تاريخ الفلسفة: الدكتور مدكور ـ يوسف كرم ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠م.

كتب المعلومات العامة:

١- الكتاب المقدس: المطبعة الأمريكانية ببيروت ١٩٣٠م.
٢- شرح نهج البلاغة: ابن أبى الحديد، دار الكتب العربية ١٣٢٩هـ.
٣- الحيوان: الجاحظ، السعادة ١٣٢٥هـ.
٤- الكامل: المبرد، الخيرية ١٣٠٨هـ.
٥- كشف الظنون: ملا كاتب جلبى، دار الطباعة المصرية ١٢٧٤هـ.
٦- فجر الإسلام: أحمد (بك) أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٥م.
٧- ضحى الإسلام: أحمد (بك) أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٣م.
٨- رسائل الإصلاح: محمد الخضر حسين، مطبعة القدسى ١٣٥٨هـ.
٩- القول الفصل: شيخ الإسلام صبرى، مطبعة عيسى الحلبى ١٣٦١هـ.
١٠- الرسالة المستطرفة: محمد الكنانى، طبع بيروت ١٣٢٢هـ.
١١- طبائع الاستبداد، ومصارع الاستبعاد: عبد الرحمن الكواكبى الجمالية.
١٢- اللؤلؤ المنظوم فى مبادئ العلوم: أبو عليان، الحسينية ١٣٢٥هـ.
١٣- المبادئ النصرية: نصر الحويحى، الخيرية ١٣٢٠هـ.
١٤- محمد عبده: عثمان أمين، مطبعة عيسى الحلبى ١٩٤٤م.

١٥ - الإسلام والطب الحديث: عبد العزيز إسماعيل باشا، الاعتماد ١٣٥٧هـ.
١٦ - النماذج الخيرية: منير الدمشقى، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٩هـ.
١٧ - دائرة المعارف الإسلامية: أحمد الشنتناوى وشركاه، مطبعة لجنة الترجمة ١٩٢٣م
١٨ - دائرة المعارِف للبستانى: المعلم بطرس البستانى، طبع بيروت ١٨٧٦م.
١٩ - مجلة الإيمان: علماء الوعظ والإرشاد.
٢٠ - مجلة نور الإسلام: علماء الوعظ والإرشاد.
٢١ - مجلة نور الإسلام (الأزهر): الأزهر الشريف.
٢٢ - مجلة الهداية الإسلامية: جمعية الهداية الإسلامية.
٢٣ - مجل المقتطف: دار المقطم.
٢٤ - مجلة السياسة الأسبوعية: محمد حسين هيكل (باشا).

مجموع المراجع ١٧١ مرجعًا.

تم والحمد لله